شرح ديوان الحماسة

لأبي علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي

نشر

أحمد أمين عبد السلام هارون

المجلد الأول

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٣٨٨ هـ = ١٩٦٨ م

لجنة التأليف والترجمة والنشر

شرح ديوان الحماسة

لأبي على أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي

٠٠٠ — ٤٢١

نشره

أحمد أمين — عبد السلام هارون

القسم الأول

الطبعة الثانيـــة

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م

تصدير

بسم الله ، والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله .

نال ديوان الحماسة من الشهرة فى العالم العربى ما يستحقه ، ففى الحق أن اختيار أبى تمام كان اختياراً موفقاً ، لأن جامعَه شاعر ممتاز مكَّنه شعره من أن يختار أحسنَ ما تقع عليه عينه ، وما تسمعه أذنه . وهو إلى جانب ذلك شاعر كبير من شعراء المعانى ، فكان هذا أيضاً محور اختياره ، ولذلك فقد يقرأ القصيدة الطويلة كلها ، فيعجبه منها معنى أو معنيان ، فيختارهما من بين القصيدة الطويلة . وإذا لم يكن بينهما رابطٌ ربط بينهما ، وإذا كانت هناك كلمة نابية غيَّرها بخيرٍ منها ، فكان مختاراً ومنقِّحاً فى وقت واحد ، وكان له أيضاً فضل تبويب الشعر ، فإنا لا نرىَ أحداً قبله قسّم الشعر هذا التقسيم ؛ فأولا كانت حركة الجمع ، وثانياً كانت حركة الاختيار حيثما اتفق فى النظم ، كالمفضليات والأصمعيات ، وفى النثر كأمالى القالى ، ثم جاءت حركة الاختيار المبوب ، ولعل فاتحَها كان أبا تمام .

ويظهر أن العادة فشت أولا فى أن يسمى الكل باسم أى جزء حتى فى تسمية القرآن . فسميت سورة البقرة لآية فيها فى البقرة ، وسورة الأنعام كذلك ، وسورة النمل كذلك ، ثم فشت عادة تسمية الشيء بأوله ، فسمِّى العين للخليل لأنَّ أول أبوابه باب العين ، وسمى أبو تمام ديوانه بالحماسة كذلك .

وقد جرى المؤلفون على هذا النمط فى عصور التاريخ إلى ظهور مختارات البارودى ، وهو تقسيم ليس منطقياً كالذى اتبعه بعض الإفرنج فى تقسيم الشعر

إلى شعر طبيعة ، وشعر إنسان ، وشعر إلهى مثلا . وإلا فأىُّ منطق فى باب الأدب ، وباب الأضياف ، وباب النسيب .

قرأت أول عهدى بالأدب شرح ديوان الحماسة هذا للتبريزى فلم يعجبنى ؛ لأن التبريزى نحوى لغوى أكثر منه أديباً وناقداً ، فكنت أقرأ الشرح أحياناً وأنا متعطِّش جدا لأفهم معنى بيت فلا أجده ، لأنَّ الشارح انصرفَ إلى شىء آخر . ثم عَثَرْت على نتف للمرزوقى فرأيتُها تسدُّ هذا النقص ، ثم قرأت شرحه على مشكلات أبى تمام ، فرأيته إماماً عظيما لا يتهرَّب من المشاكل ، ولكن يتصدَّى لها ، فوددت أن لو عُثِر على شرحه لديوان الحماسة ونشر ، لأنه يكمل نقص التبريزى ، فلما عثر عليه وجدته فوق ما أتوقّع ، ووجدتُ له مقدّمة فى النقد لم أر مثلَها فى اللغة العربية ، فكم كنا نقرأ فى كتب الأقدمين عن « عمود الشعر » ونحفظ الكلمة ولا نفهم معناها حتى شرحها المرزوقى شرحا دقيقاً وافياً ، وكم له من حسنات أخرى غير هذه . فإخراجه للقراء يسد ثلمة ، ويكمل نقصاً .

والحق أنَّ أبا تمام كان بارعا فى اختياره ، حتى كان شادى الأدب يحفظه أول ما يحفظ ، حتى متعلمو النثر قد نصحهم علماء الأدب أن يقبلوه نثراً مع محافظتهم على المعانى ، ولقد ألف بعضهم نثراً كاملا للديوان — وهو أبو سعيد على بن محمد الكاتب المتوفى سنة ٤١٤ — وأوصوهم أن ينسوه إذا نثروه لتبقى معانيه فى اللاوعى يستمد منها صاحبُها عند الضرورة . وكم أُلِّفت مختارات من عهده إلى اليوم ، ولكن لم يَحْظَ منها ما حظى ديوان الحماسة .

وكتب الأدب والنحو والصرف مليئة بتعبيرها : « قال فى الحماسة » . ويكفى هذا إشارة لأبى تمام وكتابه .

وكما برع فيه أبو تمام ، برع شارحه المرزوقى ، فوفّى الكلام حقه لغة ونحواً وصرفاً ومعنى ونقداً ، فالكتاب فى مَتْنِهِ وشرحه رغبة الآمل ، وبغية المتأدب .

وقد اشتركت فى إخراجه مع الأستاذ المحقق « عبد السلام محمد هارون » . والحق يقال أن كان له حظ فى نشره أكبرُ من حظى ، فله الشكر على ما بذل من جهد فى إخراج الكتاب ؛ وفى نسبته ما ورد فى الشرح إلى قائله ، والتعريف بأعلام الشعراء وغيرهم ؛ وتصحيح ما حصل فيه من خطأ الناسخ ، ووضع فهارسه الفنية ، فالله يجزيه عنا وعن الأدب خير الجزاء ؟

أحمد أمين

تقـــديم

كتب الاختيار :

لعل أقدم ما وصل إلينا من كتب الاختيار هو « القصائد المفضليات » التي صنعها المفضَّل الضبي ، وهو اختيار لقصائد طويلة من عيون الشعر ، لم يرتبها المفضَّل على أبواب خاصة ، ولا قصد أن يجمع الشعر الذي يتناول أغراضاً معيَّنة ، وإنما هو اختيار الذوق الأدبي والجزالة اللغوية ، فيما تراءى له في ذلك العصر .

وقد ظهر بعده من كتب الاختيار التي على هذا النمط « الأصمعيات » لأبي سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي ، و « جمهرة أشعار العرب » لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي ، و « مختارات شعراء العرب » لأبي السعادات ابن الشجري .

وهناك ضرب آخر من كتب الاختيار بدأه أبو تمام بديوان الحماسة وجرى فيه على تبويب معاني الاختيار . وحذا حذوه البحتري مع بعض الريبة في نسبة الحماسة إليه[1] ، وكذا الخالديان ، وابن الشجري ، وأبو هلال العسكري ،

---

(١) من اطلع على دقة تقسيم الأبواب في الحماسة المنسوبة إلى البحتري وكثرة ضروبها وأنواعها التي بلغت ١٧٤ بابا راعه أن يكون ذلك من صنيع مثل البحتري . وكما صنع أبو تمام حماسة لآل سلمة ، صنع البحتري حماسة للفتح بن خاقان . ونجد في صدر نسخة ليدن من حماسة البحتري هذا النص : « اختاره من أشعار العرب للفتح بن خاقان معارضة لكتاب الحماسة الذي ألفه أبو تمام حبيب بن أوس الطائي رحمهما الله وعفا عنهما . رواية أبي العباس أحمد بن محمد المعروف بابن أبي خالد الأحول عن أبيه عن البحتري . على أن البغدادي يشك في نسبة الحماسة إلى البحتري ، ففي الخزانة (٣ : ٥٩١) بعد أن نقل عن العيني قوله : « ذكره البحتري في حماسته » : « ولم نسمع أن للبحتري حماسة » .

والأعلم الشنتمرى ، وأبو الحجاج يوسف بن محمد البياسى الأندلسى ، وأبو الحسن على بن أبى الفرج البصرى ، فى دواوينهم المعروفة بالحماسات .

اسم ديوان الحماسة :

ليس يُدْرَى أمر هذه التسمية ، أهى من صنيع أبى تمام نفسه ، أم هى عرف جرى بين الأدباء ، وشهرة سارت على وجه الدهر حتى تأدّت إلينا جيلا بعد جيل . فليس هذا الديوان ديوان حماسة فحسب ، ولكنه يجمع إلى الحماسة المراثىَ ، والأدب ، والنسيب ، والهجاء ، والأضياف ، والمديح ، والسير والنعاس ، والملح ، ومذمّة النساء .

والظاهر أن أبا تمام سماه بأول أبوابه وأعظمها .

ويقول التبريزى فى مقدمة شرحه للحماسة إن أبا تمام قد صنّف خمسة كتب فى الشعر ، منها كتاب الحماسة ، وكتاب الوحشيات .

وقد عثرت على نص فى المؤتلف ١٨١ فيه : « ومنهم المثلم بن عمرو التنوخى أنشد له الطائى فى اختياره الذى سماه الحماسة » . ومن هذا النص يُفهم أن صاحب التسمية هو أبو تمام نفسه .

والذى يقرن بين الحماسة والوحشيات يجد بينهما شبهاً كبيراً فى التبويب ، فهى تشتمل على الحماسة ، والمراثى ، والأدب ، والنسيب ، والهجاء ، والسماحة ، والأضياف ، والصفات ، والمشيب ، والملح ، ومذمّة النساء .

وكما أُطلق على الاختيار الأول اسم الحماسة الكبرى ، أُطلِق على الاختيار الثانى اسم الحماسة الصغرى وجاء فى مقدمة ناسخه : « وهذا الكتاب اختاره أبو تمام حبيب بن أوس الطائى رحمه الله بعد اختياره كتاب الحماسة الكبرى ، ويروه ، ولكن وجد بعده مكتوباً فى مسودّة بخطه مترجما بكتاب الوحشيات»

ولقد رأيتَ أن هذه التسمية صارت شهرة لكتب الاختيار التى بوّبت لمعانى الشعر ، وأن هذه الشهرة قديمة جداً ، ولا سيما أنها قد أطلقت على حماسة البحترى ، وهو قريب العهد والمعاصرة لأبى تمام .

وقد عرف هذه التسمية ابن جنى المتوفى سنة ٣٩٢ إذ يقول فى مقدمة (التنبيه على شرح مشكلات الحماسة) : « وقد أجبتك — أيدك الله — إلى ملتمسك من عمل ما فى الحماسة من إعراب ، وما يلحق به من اشتقاق أو تصريف » .

تاريخ حماسة أبى تمام :

يقولون فى أمثالهم : « رُبَّ ضارةٍ نافعة » . وهكذا كانت الحال مع أبى تمام فى صنعه لديوان الحماسة . وقد اقتصّ لنا التبريزى فى مقدمة شرح الحماسة أن أبا تمام كان قدَ قصد عبد الله بن طاهر وهو بخراسان ، فمدحه وأثابه ، وعاد من خراسان يريد العراق . فلما دخل العراق اغتنمه أبو الوفاء بن سلمة فأنزله وأكرمه ، فأصبح ذات يوم وقد وقع ثلج عظيم قطع الطريق ومنع السابلة ، فغم أبا تمام ذلك وأحرج صدره ، على حين سر ذلك مضيفه أبا الوفاء ، فأقبل على أبى تمام وقال له : وطِّنْ نفسك على هذا المقام فإن هذا الثلج لا ينحسر إلا بعد زمان . وأحضره خزانة كُتبه فطالعها واشتغل بها ، وصنّف خمسة كتب فى الشعر منها كتاب الحماسة والوحشيات ، وهى قصائد طوال[1] .

ويقول التبريزى : « إن كتاب الحماسة بقى فى خزائن آل سلمة يضنون به ولا يكادون يبرزونه لأحد حتى تغيرت أحوالهم . وورد همذان رجل من أهل دينور يعرف بأبى العواذل ، فظفر به وحمله إلى أصبهان ، فأقبل أدباؤها عليه ورفضوا ما عداه من الكتب المصنفة فى معناه ، فشهر فيهم ثم فيمن يليهم » .

(١) هكذا ذكر التبريزى . وقد رجعت إلى الوحشيات مصورة دار الكتب المصرية برقم ٢٢٩٧ أدب فوجدتها مقطوعات على غرار الحماسة ، وإن كانت تمتاز ببعض الطول .

وقد نفهم من نص التبريزى : « ورفضوا ما عداه من الكتب المصنفة فى معناه » أن أبا تمام قد سبق فى هذا الضرب من الاختيار ، وأرى أنه إنما يعنى مطلق كتب الاختيار كالمفضليات ، والأصمعيات ، والمعلقات .

عمل أبى تمام فى الحماسة :

صب أبو تمام ذوقه الفنى على ما وصل إليه من أشعار العرب ، فاختار لكل باب من أبواب الحماسة ما ارتضاه ذوقه ، وعنى عناية خاصة بشعراء طيئ فكان قسطهم فى اختياره قسطا كبيرا . وقد لحظ العلماء أن أبا تمام يعمد أحيانا إلى تغيير نصوص الشعر ، ليستقيم له أن يربط بين الأبيات التى تفككت ، أو ليستر عوار نقيصة يَشِين وجه الحسناء من مقطوعاته . وفى ذلك يقول المرزوقى[1] :

«وهذا الرجل لم يعمد من الشعراء إلى المشتهرين منهم دون الأغفال ، ولا من الشعر إلى المتردد فى الأفواه ، المجيب لكلّ داع ، بل اعتسف فى دواوين الشعراء جاهليهم ومخضرمهم ، وإسلاميهم ومولَّدهم ، واختطف منها الأرواح دون الأشباح ، واخترف الأثمار دون الأكمام ، وجمع ما يوافق نظمه ويخالفه ، لان ضروب الاختيار لم تَخْفَ عليه ، وطرق الإحسان والاستحسان لم تستتر عنه ؛ حتى إنك تراه ينتهى إلى البيت الجيد فيه لفظة تشينه ، فيجبر نقيصته من عنده ، ويبدل الكلمة بأختها فى نقده ، وهذا يَبِين لمن رجع إلى دواوينهم فقابل ما فى اختياره بها » .

وهذه التهمة : تهمة أبى تمام بتغيير النصوص التى اختارها ، والتى يدعمها المرزوقى فى أثناء شرحه بما يظهرها ويقويها كان جديرا بها أن تنزل بقيمة الحماسة باعتبارها نصوصا يستشهد بها فى علوم اللغة والعربية ، ولكننا نجد العلماء مجمعين على تزكية أبى تمام فى الحماسة ، وعلى تزكية الحماسة ونصوصها ، بل يعدون

(١) فى المقدمة ١٣ — ١٤ .

صنيعه فى الحماسة داعية إلى الوثوق بشعر أبى تمام نفسه والاستشهاد بشعره . وفى ذلك يقول الزمخشرى[1] : « وهو وإن كان محدثا لا يستشهد بشعره فى اللغة فهو من علماء العربية ، فأجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه . ألا ترى إلى قول العلماء : الدليل على هذا بيت الحماسة ، فيقنعون بذلك لوثوقهم بروايته وإتقانه » .

زيادات الحماسة :

وجدت نصا فى الخزانة (٣ : ٣٥٢) عن ابن المستوفى ، قال وهو يتكلم فى نسبة بعض الأبيات : « ووجدتها أيضا فى نسخة قديمة ذكر كاتبها أنها زيادات الحماسة ، كتبها محمد بن أحمد بن الحسن فى ربيع الآخر سنة ٣٩٨ ، ونسبها — أى الأبيات — لمرداس بن عمرو . قال : وتروى للأخطل » . ولست أدرى أمر هذه الزيادات ، هل هى من صنيع أبى تمام ، أم من صنيع غيره .

شراح الحماسة :

هذه الشهرة الطائرة لصانع الحماسة أبى تمام ، وذلك الاختيار الموفق الذى عَمَد فيه أبو تمام إلى الاشعار التى يحتج بها فى اللغات والعربية والمعانى ؛ ذلك الاختيار الذى انتزع إعجاب القدماء حتى يقول المرزوقى : « وقع الإجماع من النقاد على أنه لم يتفق فى اختيار المقطعات أنقى مما جمعه ، ولا فى اختيار المقصدات أوفَى مما دوّنه المفضل ونقده » ، ويقول التبريزى : « قالوا : إن أبا تمام فى اختياره الحماسة أشعر منه فى شعره » .

هذه الدوافع جميعا دعت الأُدباء من قديم الزمان أن يُعنَوا عناية صادقة بدراسة هذه المجموعة الشعرية ، وأن يتصدى لها جمهرة منهم بالتفسير والتوضيح والإعراب .

وقد حفظ لنا صاحب كشف الظنون أسماء عشرين ممن شرحوا الحماسة ،

---

(١) انظر الخزانة (١ : ٤ طبع بولاق) .

وقد رتبتهم على وفياتهم ، وأذكر فى هذه للناسبة أن وفاة أبى تمام كانت فى سنة ٢٣١ .

١ — أبو بكر محمد بن يحيى الصولى المتوفى سنة ٣٣٥ . وهو أول جامع لشعر أبى تمام .

٢ — وأبو الفتح عثمان بن جنى المتوفى سنة ٣٩٢ . وقد سمى شرحه « التنبيه على شرح مشكلات الحماسة » . وقد استحضر معهد إحياء المخطوطات بجامعة الدول العربية نسخة جيدة منه ، من مكتبة أحمد الثالث بتركيا برقم ٢٣٦٩ مكتوبة فى سنة ٥٩٤ . وقد استعنت بهذه النسخة واقتبست منها مادعت الضرورة إليه فى التحقيق . وفى اللوح ٢٢ ما يفيد أنه ألفه بعد سر الصناعة . ومن هذا الكتاب نسخة جيدة بدار الكتب المصرية برقم ٤٤ أدب كتبت سنة ٦٨٢ .

٣ — وأبو القاسم الحسن بن بشر الآمدى صاحب الموازنة ، المتوفى سنة ٣٧١ .

٤ — وأبو هلال الحسن بن عبد الله العسكرى ، المتوفى سنة ٣٩٥ . وشرحه هو أحد الشروح التى اعتمد عليها التبريزى فى تأليفه . ويمتاز هذا الشرح بعنايته بتصحيح نسبة الأبيات إلى الشعراء ، وتوضيح بعض ما غمض فى ذلك ، مع العناية ببيان اشتقاق أسمائهم .

٥ — وأبو المظفر محمد بن آدم الهروى المتوفى سنة ٤١٤ .

٦ — وأبو على أحمد بن محمد المرزوقى المتوفى سنة ٤٢١ ، وهو صاحب هذا الشرح الذى ننشره .

٧ — وأبو عبد الله الخطيب الإسكافى ، صاحب مبادئ اللغة ، المتوفى سنة ٤٢١ .

٨ — وأبو الحسن على بن سيده ، اللغوى المشهور ، المتوفى سنة ٤٥٨ ، وهو شرح كبير فى ست مجلدات ، سماه « الأنيق » .

٩ — وأبو القاسم زيد بن على الفسوى المتوفى سنة ٤٦٧ .

١٠ — وأبو الفضل عبد الله بن أحمد الميكالى المتوفى سنة ٤٧٥ .

١١ — وعبد الله بن أحمد السامانى المتوفى سنة ٤٧٥ .

١٢ — والأعلم أبو الحجاج يوسف بن سليمان الشنتمرى المتوفى سنة ٤٧٦ . وهو كبير فى ست مجلدات .

١٣ — وأبو بكر بن يحيى الصولى المتوفى سنة ٤٧٦ .

١٤ — وعبد الله بن إبراهيم بن حكيم الخَيَرىّ المتوفى سنة ٤٧٦ لا سنة ٥٨٤ كما ذكر صاحب كشف الظنون .

١٥ — وأبو زكريا يحيى بن على الخطيب التبريزى المتوفى سنة ٥٠٢ .

وقد فسر الحماسة ثلاث مرات ، كما ذكر صاحب كشف الظنون ، قال : « شرح أولا شرحا صغيرا فأورد كل قطعة من الشعر ثم شرحها ، وشرح ثانيا بيتاً بيتاً ، ثم شرح شرحا طويلا مستوفيا . وأول المتوسط : « أما بعد حمدا لله الذى لا يبلغ صفاته الواصفون » .

ومما هو جدير بالذكر أن شرح التبريزى المتداول — بهذا الاعتبار — هو الشرح المتوسط ، أما الصغير فمنه قطعة بدار الكتب برقم ١١٩٥ تشمل باب الحماسة . وأما الكبير فما لم نهتد إلى معرفتة .

وقد طبع شرح التبريزى ثلاث مرات إحداها فى مدينة « بن » سنة ١٨٢٨ بتحقيق المستشرق « غِيُورغ وِلْهَلْم فَرَيْتَغ » Dr. Georg. Guil. Freytag المعلم فى المدرسة الكلية الفريدرخْوَلْهَلْمِيّة(١) .

وقد ألحق بنسخته فهارس للأعلام واللغة والقوافى .

وطبع مرة أخرى فى بولاق ١٢٩٦ بتصحيح الشيخ محمد قاسم ، ومرة ثالثة بتحقيق الأستاذ الجليل الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد ، وذلك فى سنة ١٣٥٧ .

(١) هذا هو المكتوب فى صدر النسخة المطبوعة ، أثبته كما هو .

وقد صنع له كذلك عدة فهارس نافعة .

١٦ — وأبو المحاسن مسعود على البيهقى المتوفى سنة ٥٤٤ .

١٧ — وأبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن منذر بن سعيد بن ملكون الحضرمى الإشبيلى المتوفى سنة ٥٨٤ .

١٨ — وأبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبرى ، شارح ديوان المتنبى ، المتوفى سنة ٦١٦ . وهو شرح مختصر اقتصر فيه على الإعراب .

١٩ — وأبو نصر منصور بن مسلم بن على الحلبى، والمعروف بابن الدميك ، لم يذكروا تاريخ وفاته . قال ياقوت : صنع تتمة لما قصّر فيه ابن جنى فى شرح الحماسة .

٢٠ — وأبو على حسن بن على الاستراباذى النحوى .

٢١ — وأبو نصر قاسم بن محمد النحوى .

* * *

٢٢ — هذا ما عرّفه صاحب كشف الظنون من شروح الحماسة ، عرضْتُه بعد تحقيقه وتصحيحه والتعليق عليه .

على أن أول شارح للحماسة فيما نعلم ، هو أبو رياش أحمد بن إبراهيم الشيبانى المتوفى سنة ٣٣٩ . وهو شيخ أبى عبد الله النمرى (١) ، خلافا لما نص البغدادى (٢) أن أول شارح لها هو أبو عبد الله النمرى . وقد نقل البغدادى نصوصا من هذا الشرح فى مواضع يسيرة من الخزانة ، على حين أكثر التبريزى من النقل عنه فى شرحه للحماسة . ويفهم من تتبع نصوصه أن معظمها فى الأخبار والأسباب التى قيل من أجلها الشعر ، وهى زاوية مهمة حقا فى تفهم أسرار الحماسة .

٢٣ — وكما صنع أبو رياش تفسيرا للحماسة ، صنع تلميذه أبو عبد الله النمرى (٣)

(١) إنباه الرواة (١ : ٢٥) مع الحواشى . ونزهة الألباء ٤٠١ .
(٢) فى الخزانة (٣ : ٥٤١) .
(٣) نزهة الألباء ٤٠١ — ٤٠٣ .

كتابا فى « مشكلات الحماسة » . ومن هذا الكتاب نصوص فى مواضع متفرقة من الخزانة . والتبريزى فى شرحه يورد نصوصاً من هذا الكتاب ثم يعقبها برد أبى محمد الأعرابى عليها وتخطئته لما فى تهكم ، معتمداً على شيخه أبى الندى ، فى أكثر الأمر .

٢٤ — ومما تقدم يعلم أن أبا محمد الأعرابى قد صنع نقداً لشرح النمرى . ومن هذا الكتاب نسخة برقم ٨٠ أدب ش ، وأخرى برقم ١٤٨١ أدب بخط الشنقيطى ، والظاهر أنها منقولة من الأولى . واسم هذا النقد « إصلاح ما غلط فيه أبو عبد الله الحسين بن على النمرى البصرى مما فسره من أبيات الحماسة أولا وثانيا » جاء فى أوله : « قال أبو محمد الأعرابى : حضرت المجلس العادلى العالى — نوره الله — ذات ليلة ، فجرى ذكر أبى عبد الله النمرى رحمه الله ، فأثنى عليه بعض الحاضرين وذكر أنه كان شيخ البصرة فى زمانه فضلا ونبلا ، ودراية ورواية ، قد استخرج معانىَ الأبياتِ من أبيات الحماسة هو فيها السابق المبرز ، والجواد المُبِرّ ، فقلت : شا كِهْ أبا يسار ! تأملت ما فسره الشيخ من تلك الأبيات أولا وثانيا ، فوجدت فى خلال ذلك خللا كثيراً ، إما قصوراً وإما تقصيراً ، فقال لى :

* عنتا باطلا وظلما[1] *

إن كنت صادقا فيما تدعيه فجرّد لنقيضها كتاباً يدل على صحة دعواك ، وقد أمهلتك سنَة . فأمليت كتابى هذا بعون الله فى مدة أسبوع ، وبينت مواضع الزلل فيما فسره أبو عبد الله ، وأثبتّ الصواب تحت كل بيت ، وجعلت ذلك خدمة للمجلس العادلى العالى . وبالله التوفيق » .

٢٥ — وقد فات صاحب الكشف أيضاً أن يذكر شيخ المعرّة أبا العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعرّى المتوفى سنة ٤٤٩ . ومن هذا الشرح نصوص نقلها التبريزى فى شرحه .

---

(١) للحارث بن حلزة اليشكرى فى معلقته . وهو بتمامه :

عنتا باطلا وظلما كما تعـ ـتر عن حجرة الربيض الظباء

٢٦ — وأشار البغدادى إلى مصنّف لأبى على الشلوبين . قال[1] : « وذكر الشلوبين فيما كتب على الحماسة . . . » .

٢٧ — وإلى شرح لأبى الفضل الطبرسى ، وقد نقل البغدادى منه نحو ثلاثين نصا فى مواضع متفرقة[2] .

٢٨ — وهناك شرح حديث منسوب إلى الأديب « محمد سعيد الرافعى » . والحق أنه للمغفور له أستاذنا الشيخ إبراهيم الدلجمونى . وقد طبع هذا الشرح عدة مرات .

٢٩ — وآخر صنعه المغفور له العلامة الشيخ سيد بن على المرصفى ، بعد تغيير ترتيبه . وقد طبع منه الجزء الأول سنة ١٣٣٠ .

٣٠ — وآخر صنعه بهاء الدين عبد القادر بن لقمان ، سماه « الرصافة القادرية » طبع بالهند سنة ١٢٩٩ وبآخره تفسير لبعض الكلمات اللغوية باللغة الإنجليزية . ومن هذا الشرح نسخة بالمكتبة الأزهرية .

* * *

وهناك ضرب آخر طريف من التفسير ، عمد فيه صاحبه إلى نثر أبيات الحماسة ، مجليًّا بذلك معانيها الغامضة . وصاحب هذا التفسير ، هو أبو سعيد على ابن محمد الكاتب المتوفى سنة ٤١٤ . وقد صنع كتابه هذا لبهاء الدولة بن بويه ، وسماه « منثور البهائى[3] » .

موازنة بين شرحى المرزوقى والتبريزى :

على أن الذى يعنينا من هذه الشروح شرحان ، هما شرحا المرزوقى والتبريزى والمرزوقى متقدم على التبريزى ، بين وفاتيهما نحو إحدى وثمانين سنة

(١) الخزانة (٤ : ٩٢) .
(٢) انظر إقليد الخزانة للراجكوتى ٥٥ .
(٣) كشف الظنون فى رسم (الحماسة) .

إذ كانت وفاة التبريزى فى سنة ٥٠٢ من الهجرة . ويعدّ المرزوقى من أقدم الشرّاح إذ كان بين وفاته فى سنة ٤٢١ ووفاة أبى تمام فى سنة ٢٣١ نحو مائة وتسعين سنة[1] .

وشرح المرزوقى يعدّ أكبر الشروح التى وصلت إلينا ، وأكثرها عناية بمعانى الشعر ، وبالنقد والموازنة ، على حين لم تفته العناية باللغة والاشتقاق ، وكذا العناية التى لا إسراف فيها بمسائل النحو والتصريف . لكنه قد فاته كثير من أخبار الشعر ومناسباته ، والكلام على أسماء الشعراء واشتقاق أعلامهم وهما الميزتان اللتان امتاز بهما التبريزى عليه . والتبريزى فى هذه الناحية الأولى قد أفاد من شرح أبى رياش للحماسة — ويبدو أن كتاب أبى رياش لم يقع للمرزوقى حتى يمكنه الانتفاع به كما صنع التبريزى — وفى الناحية الأخرى قد أفاد من شرح أبى هلال العسكرى ، ومن المبهج لابن جنى .

والمرزوقى ذو عبارة رصينة متخيَّرة ، يتكلف لها الصنعة حيناً ، ويعمد آخر إلى السجع الهيّن . ومن عجب أن التبريزى ينقل عبارته هذه ذاتَ الطابع الخاص ، ولا يجهد قلمه فى نسبة العبارة إليه إلا فى القليل النادر[2] . بل إنه فى مقدمة كتابة لم يشر إلى إفادته منه ، مع أن للموازِنَ بين الشرحين يدهشه التقاربُ الشديد بين عبارات التفسير واتجاهاته ، ثم لا يرتاب فى أن التبريزى كان فى جُمْهور شرحِه عالةً على المرزوقى .

ومن عجب أيضاً أن التبريزى مع ذلك ينعى على هؤلاء الذين يهملون نسبة أقوال العلم إلى أصحابها فيقول فى تفسير الشطر الثالث من الحماسية ٨٩[3] : « قال

---

(١) ولم يتأخر تأليف المرزوقى لشرح الحماسة عن سنة ٤١٧ . قال ياقوت : « وجدت خطه على كتاب شرح الحماسة من تصنيفه وقد قرئ عليه فى شعبان سنة ٤١٧ » .

(٢) من ذلك النادر ما ورد عند التبريزى فى شرح البيت الأول من الحماسية ٦٩ والثانى من الحماسية ٨٧ والشطر الثالث من الحماسية ٨٨ .

(٣) هى الحماسية ٨٨ عند المرزوقى ، إذ أن هناك خلافا فى ترتيب المقطوعات كما سيأتى .

المرزوقى : وذكر بعض المتأخرين — يعنى ابن جنى — ولم ينصفه حيث لم يسمِّه فى كتابه . . . [1] » .

وفى أسلوب المرزوقى أيضاً استطالة عجيبة ، يفصل بين المبتدأ وخبره أو بين الفعل ومفعوله بعبارة طويلة يضل القارئ فى ثناياها حتى يهتدى إلى ارتباط الكلام [2] .

ويمتاز شرح المرزوقى بمقدمته النفيسة الجريئة التى تعدّ وثيقة هامة فى تاريخ النقد الأدبى : نقد الشعر ونقد النثر ، ضمنها مسائل شتى تتعلق بموازنة النظم والنثر أيهما أشرف وأعلى قدراً ، ويتبع ذلك الكلامُ على المقايسة بين منزلة الشاعر والكاتب ، والعلة فى كثرة الشعراء وقلة النثَّار ، ولماذا لا يستطيع الأديب أن يجمع الإجادة فى صناعتى النظم والنثر ؟ وما أثر الصنعة والطبع فى الآثار الأدبية فى قيمتها وفى جمالها ؟ ومتى تُستحسن الصنعة ؟ وما مدى العلاقة بين ذوق الأديب فيما يصنع بيانه من إنتاج أدبى وفيما يختار من بيان غيره ؟ وهذه المسألة مبنية على ما صنع أبو تمام فى اختيار الحماسة ، إذ كان ذوقه فى ذلك الاختيار مخالفاً لذوقه فى نسج شعره وصناعته مخالفةً ظاهرة . وقد أجاد المرزوقى فى جواب هذه المسألة بما يعدّ مثالا فى البيان ، وغاية فى إصابة الحكم .

وكلمة أخرى فى هذين الشرحين : أن متن الحماسة فيهما يخالف بعضه بعضا فى الرواية وعدد الأبيات ، وفى ترتيب المقطوعات وترتيب الأبيات ، بله عدد المقطوعات . وقد لحظت أن المرزوقى لم يرو الحماسة التى أولها :

---

(١) مما هو جدير بالذكر أن المرزوقى لا يصرح باسم ابن جنى ، وكأنه كان يستضعفه ولا يرى مكانه ، وتكاد تكون عبارة « قال بعضهم » فى شرح المرزوقى يقصد بها ابن جنى فحسب . وليس يذكر هذه العبارة إلا فى مقام الاعتراض فى أغلب الأمر .

(٢) انظر نموذجا لذلك ما ورد فى الصفحة الأولى من مقدمته ، إذ فصل بين « جارتينى » وبين « أمر الشعر » بثلاثة أسطر .

أقول لها وقد طارت شعاعا   من الأبطال ويحك لن تراعى

وترتيبها عند التبريزى ١٤ ، ونتج من ذلك أن نجد أن المقطوعات التى تلى المقطوعة ١٣ يزيد رقمها واحدا عند التبريزى ، على حين نجدها برقم أدنى عند المرزوقى ، أى إن الحماسة رقم ١٥ عند التبريزى يقابلها رقم ١٤ عند المرزوقى ، والحماسية ١٦ عند التبريزى يقابلها ١٥ ، عند المرزوقى ، وهلم جرا .

كما نجد أن الحماسيتَين ١٠٤ ، ١٠٥ فى ترتيب المرزوقى وهما ١٠٥ ، ١٠٦ عند التبريزى — قد تقدمت أولاهما على الأخرى عند المرزوقى وتأخرت عند التبريزى .

وهذه المفارقات راجعة إلى الخلاف فى نسخ الحماسة ورواياتها ، وقد وجدت المرزوقى يقول فى شرحه[1] : « وقد رجعنا إلى نسخ مختلفات المصادر ... » ، يعنى بذلك نسخ الحماسة ، وهو نص صريح فى بيان تعدد نسخ الحماسة .

المرزوقى :

قال الصاحب ابن عباد[2] : « فاز بالعلم من أصبهان ثلاثة : حائك ، وحلاج ، وإسكاف . فالحائك هو المرزوقى ، والحلاج أبو منصور بن ماشده ، والإسكاف أبو عبد الله الخطيب بالرى ، صاحب التصانيف فى اللغة » .

وليس يعنى الصاحبُ أنَّ أصبهان لم يبرز منها إلا هؤلاء العباقرة ، ولكنه عنى أنهم نبغوا من بين أصحاب الصناعات ، وإلا فإن عباقرة أصبهان كثيرون ، وقد ظهر فيها فحول كُثار ، منهم قبل المرزوقى أبو الفرج الأصبهانى صاحب الأغانى المتوفى سنة ٣٥٦ وغيره كثير .

وليس يعرف زمان مولد (أبى على أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقى) ،

(١) ص ٢٥٥ من هذا الجزء .
(٢) معجم الأدباء (٥ : ٣٥) .

ولكن وفاته قد أجمع المترجمون له أنها كانت سنة ٢٤١ لم يشذ منهم أحد . ولكنا نجد نصا غريبا فى نهاية كتاب الأزمنة والأمكنة للمرزوقى[١] ، وهو : «فرغت منه ضحوة يوم الخميس ثالث عشر جمادى الآخرة سنة ٤٥٣» . والخطب فى هذا هين ، إذ يبدو أن هذه عبارة الناسخ لا عبارة المرزوقى . يؤيد هذا إجماع المؤرخين قاطبة على سنة وفاته وعدم اختلافهم فى ذلك . ويؤيده أيضا ما ورد فى نص ياقوت : « وكان — أى المرزوقى — معلم أولاد بنى بويه بأصبهان ، ودخل إليه الصاحب فما قام له ، فلما أفضت الوزارة إلى الصاحب جفا » . فإذا عرفنا أن ولاية الصاحب للوزارة دامت ثمانى عشرة سنة وأن وفاته كانت فى سنة ٣٨٥ وأنتجنا من ذلك أنه تولى الوزارة نحو سنة ٣٦٧ — إذا عرفنا ذلك كان القول بأن المرزوقى دامت حياته ٨٦ سنة بعد جفاء الصاحب له ، غايةً فى البعد والاستحالة ، ولاسيما إذا وجدنا المؤرخين لم يذكروا المرزوقى بأنه كان من المعمرين[٢] .

شيوخه وتلاميذه :

والمؤرخون لا يعرفون للمرزوقى شيخاً إلا أبا علىّ الفارسىّ المتوفى سنة ٣٧٧ . يذكرون أنه قرأ عليهم كتاب سيبويه ، وتتلمذ له بعد أن كان رأسا بنفسه[٣] . والمرزوقى يذكر سماعه منه فى مواضع من شرحه[٤] .

وأما تلاميذه فلم يذكروا منهم إلا سعيداً البقال : قال ياقوت : « وكتب عنه سعيد البقال ، وأخرجه فى معجمه .

ويذكرون أيضاً أنه اتصل ببنى بويه وكان معلم أولادهم .

(١) الأزمنة والأمكنة (٢ : ٣٨٤) .

(٢) وقد عثرت أخيراً على نص فى شرح الحماسية ١٦٤ يفهم منه أن المرزوقى صنع كتاب الأزمنة قبل شرح الحماسة ، أى قبل سنة ٤١٧ . انظر الحاشية الأولى من صفحة ١٦ من التقديم .

(٣) معجم الأدباء (٥ : ٣٥) . (٤) انظر الحماسية ١٢٣ : ٢ ، ١٣٥ : ٣ .

والمرزوقى يعد فى زمرة البصريين ، وهو فى مواضع من شرحه[1] يقول : « أصحابنا البصريون » .

مؤلفات المرزوقى :

١ — شرح الحماسة ، قال ياقوت : « أجاد فيه جدا » . وقال القفطى : « وهو الغاية فى بابه » . وقال ابن شاكر[2] : « وهو أحسن شروحها » .

٢ — شرح المفضليات . ومنه نسخة فى مكتبة برلين برقم ٧٤٤٦ .

٣ — شرح الفصيح . قال القفطى : « وهو كتاب جميل فى نوعه »

٤ — شرح أشعار هذيل .

٥ — كتاب الأزمنة والأمكنة . وقد طبع فى مجلدين فى حيدر أباد سنة ١٣٣٢ .

٦ — الأمالى . ومنه قطعة بدار الكتب المصرية برقم ٣٣٠٠ أدب . تكلم فيها على شرح طائفة من الآيات القرآنية والأحاديث ، والأمثال ، والحكم ، مع ذكر ما يناسبها من العلوم المختلفة .

٧ — ألفاظ العموم والشمول . منه قطعة بدار الكتب المصرية برقم ٤١٤٠ أدب .

٨ — شرح الموجز ، فى النحو ، كما ذكر ابن شاكر .

٩ — شرح النحو (؟!) . ذكره ياقوت . والظاهر أنه الكتاب السابق .

١٠ — وذكر له القفطى كتاباً بعنوان « مفردات متعددة فى النحو » .

شرح المرزوقى للحماسة :

سمى المرزوقى كتابه هذا « شرح الاختيار المنسوب إلى أبى تمام الطائى

---

(١) انظر الحماسية ١٣ : ١ والحماسية ٥٠ : ٤ .

(٢) فى عيون التواريخ نسخة دار الكتب فى وفيات ٤٢١ .

المعروف بكتاب الحماسة » . وقد أثبت هذه التسمية فى صدر مقدمته .

وفى مكتبات العالم من هذا الكتاب نسخ كثيرة منها فى تركيا وحدها عشر نسخ ، وفى القاهرة نسختان : إحداها فى دار الكتب المصرية ، والأخرى فى التيمورية الملحقة بدار الكتب . وفى كل من برلين ، وليدن ، والمتحف البريطانى ، والموصل ، وطهران نسخة واحدة . فهى سبع عشرة نسخة ، وإليك أرقامها :

١ — نسخة كوبريلى برقم ١٣٠٨ — ١٣١١

٢ — « نور عثمانية برقم ٣٩٩٩ — ٤٠٠١

٣ — « أيا صوفيا برقم ٤٠٥٨

٤ — « لا له لى برقم ١٨١٠ — ١٨١٣

٥ — « الفاتح برقم ٣٩٤١ — ٣٩٤٤

٦ — « بايزيد برقم ٢٦٠٤

٧ — « عاطف برقم ٢١٤٦

٨ — « المكتبة العمومية برقم ٥٣٩٢ ، ٥٣٩٣ ، ٥٥٤٧

٩ — « فيض الله برقم ١٦٤٤

١٠ — « برلين برقم ٧٤٤٩

١١ — « ليدن برقم ٦٠٣

١٢ — « المتحف البريطانى برقم ٥٦٨ — ٥٦٩

١٣ — « الموصل (مخطوطات الموصل ١٩٠)

١٤ — « طهران (الجزء الثانى ٢٨٨)

١٥ — « دار الكتب المصرية برقم ٣٠٦ أدب

١٦ — « مكتبة تيمور باشا برقم ١٠٢٧ شعر . وهذه النسخة لم يعرفها بروكلمان .

١٧ — نسخة روان كشك الملحقة بمكتبة طوب قبو سراى ، ورقمها ٧٠٦ وهذه النسخة لم يعرفها بروكلمان أيضاً .

النسخ المعتمدة فى التحقيق :

اعتمدنا فى تحقيق هذه النسخة على أربع نسخ هى التى أمكننا أن نحصل عليها ، واسترجحنا من هذه النسخ الأربع نسختين اعتمدنا عليهما اعتمادا تاما .

١ — النسخة الأولى ، وهى التى سميناها نسخة الأصل ، وهى نسخة المكتبة العمومية بالآستانة ، وهى كاملة فى مجلدين يرجع تاريخ نسخها إلى سنة ٥٢٥ أى بعد وفاة المرزوقى بأربع سنين ومائة سنة ، كتبها سعد بن إبراهيم ابن أحمد الفرانى ، قياسها ١٨٫٥ × ٢٩٫٥ وينتهى الجزء الأول منها بالحماسية رقم ٣٥٠ .

٢ — نسخة دار الكتب المصرية ، وهى قديمة أرجح أنها من مخطوطات القرن السادس ، بها ترقيع وتقطّع وتلوث وآثار أرضة ، وهى نسخة ناقصة بها تكميل فى أولها ، وتنتهى بنهاية المقطوعة الحماسية رقم ٣٠٠ أى إنها أقل من نصف الكتاب ، وهذه النسخة مجهولة التاريخ والناسخ ، وقد رمزت إلى هذه النسخة بالرمز (م) .

أما النسختان الأخريان فهما :

٣ — نسخة المكتبة التيمورية ، وهى نسخة ناقصة حديثة الخط مجهولة الناسخ وتاريخ النسخ ، وهى فى حجم متوسط تنتهى بنهاية الحماسية رقم ٣٢٣ .

٤ — نسخة روان كشك الملحقة بمكتبة طوب قبو سراى برقم ٧٠٦، وهى من مجلوبات معهد المخطوطات بالإدارة الثقافية لجامعة الدول العربيــة ، وهى نسخة خزائنية مكتوبة بخط نسخى دقيق جميل ، مع خلوها من الضبط ، كتبها

شمس الدين القدسي برسم السلطان مراد خان سنة ٨٦٩ بأولها طرة مذهبة ، كما أن صفحاتها مجدولة بالذهب ، وقياسها ٢٢ × ٣٥ .

تحقيق الكتاب :

فى هذا الجزء الأول عارضت نسختى المكتبة العمومية ودار الكتب المصرية معارضة تامة فى النص وفى الضبط ، وقد ظهر لى أن خلافهما قليل جدا ، وستستمر المعارضة القامة بينهما إلى أن تنتهى نسخة دار الكتب . هذا مع الاستعانة بما نقدر عليه من المخطوطات ما وجدنا إلى ذلك سبيلا ، وحينئذ تحل نسخة روان كشك محل نسخة دار الكتب المصرية فى المقابلة التامة .

وقد استدعى تحقيق هذا الكتاب أن أقارنه مقارنة تامة بشرح التبريزى بحيث لا أترك فائدة جديرة بالإثبات فيما أرى إلا اقتسبتها فى الحواشى . ولا سيما ما كان متعلقا برواية المتن ، أو تحقيق الأخبار وتوضيحها ، أو ما كان فيه تأييد المرزوقى أو طعن عليه .

وكذلك اصطحبت فى تحقيقه شرح مشكل أبيات الحماسة لابن جنى ، وكان فى النية أن أقتبس جميع نصوص هذا الكتاب وأضعها فى أماكنها إزاء أبيات الحماسة ، لكنّى وجدت فى ذلك إثقالا ، ووجدت الفائدة التى يجنيها القارئ من إسهاب ابن جنى فى هذا الكتاب خاصة فائدة غير مرجوّة . لذلك لم أثبت منها إلا ما كان ضروريا لتوضيح أو تأييد .

كذلك كان الصُّنع فى كتاب المبهج لابن جنى أيضاً .

وقد التزمت أن أترجم لجميع شعراء الحماسة ترجمة موجزة ، وأن أشير إلى مراجع الترجمة . وقد أفدت من جهدى فى تراجم شعراء الحيوان للجاحظ ، والبيان والتبيين له ، شيئاً كثيراً ، كما أفدت من جهد الأخ العلاّمة الشيخ أحمد محمد شاكر فى كتاب « الشعر والشعراء لابن قتيبة » ما يجعلنى أعترف له هنا بالفضل العظيم .

كما عنيت عناية خاصة بتعيين أسماء المجهولين من شعراء الحماسة الذين يعبّر عنهم أبو تمام بقوله : « وقال آخر » أو بعض شعراء قبيلةٍ ما من قبائل العرب ، وقد وفّقت فى ذلك بعون الله بعض التوفيق .

وكذلك كان الأمر فى تعيين أسماء المجهولين فى شرح المرزوقى .

واستعنت بعد ذلك بمختلف المراجع الأدبية واللغوية والتاريخية والبلدانية وكتب القراءات والتفسير وغيرها لتحقيق هذا الكتاب وضبط نصوصه . وبيانُ تلك المراجع سوف ألحقه بالفهارس العامة للكتاب إن شاء الله .

الفهارس العامة والاستدراكات :

وسيلحق بنهاية هذا الكتاب إن شاء الله — أى فى نهاية المجلد الرابع — ما تقتضيه طبيعته من الفهارس الفنية للشعر ، واللغة ، والأمثال ، والأعلام ، والبلدان ، ويتلوها الاستدراكات والتصحيحات .

* * *

وبعد ، فإن صاحب الفضل الأكبر فى إخراج هذه النشرة الأولى من هذا الكتاب الجليل ، هو أستاذنا الكبير « الدكتور أحمد أمين بك » ، فهو الذى اقترح أن ينشر هذا الكتاب ، لما له ولمؤلفه من خطر ، كما أقرّ إخراجه فى لجنة التأليف والترجمة والنشر ، التى كانت لمصر والعالم العربى بمثابة جامعة علمية عاملة ، بما أظهرت للمثقفين من آثار التأليف فى الشرق والغرب . وقد اشترك حفظه الله فى وضع منهج الإخراج ليبدو الكتاب فى هذا الوضع العلمى الحديث ، كما تفضل بمراجعة ما صنعت لتحقيق هذا الكتاب مراجعة دقيقة ، فله من الله ومن العلم خير الجزاء .

القاهرة فى { ٢٠ من المحرم سنة ١٣٧١
٢١ من أكتوبر سنة ١٩٥١ }

عبد السلام محمد هارون

الجزء الأول

من شرح الاختيار المنسوب إلى أبي تمام الطائي

المعروف بكتاب الحماسة

صنعة

الشيخ الإمام أبي علي أحمد بن محمد بن الحسن

المرزوقي الإصفهاني

٠٠٠ — ٤٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله خالقِ الإنسان، متميِّزا بما علّمه من التبيُّن والبيان، وصلّى الله على أفضلِ مَن صدع بأمره وزَجْره، داعيا وناهيا، وعلى الطاهرين من آله وسلم.

وبعد فإنّك جارَيْتَنى — أطالَ الله بقاءكَ فى أشملِ سعادة وأكمل سلامة، لمّا رأيتَنى أقصُر ما أستفضِلُه من وقتى، وأستخلصه من وُكْدى[1]، على عملِ شرحٍ للاختيار المنسوب إلى أبى تمامٍ حبيب بن أوس الطائىّ، المعروف بكتاب الحماسة أمْرَ — الشِّعرِ وفنونِه[2]، وما نال الشُّعراء فى الجاهلية وما بعدها، وفى أوائل أيّام الدولتين وأواخرها من الرفعة به، إذ كان الله عزّ وجلّ قد أقامه للعرب مقام الكُتُب لغيرها من الأمم، فهو مستودع آدابها، ومُستحفَظ أنسابها، ونِظام فَخارها يوم النِّفار، وديوانُ حِجاجها عند الخِصام.

ثم سألتنى عن شرائط الاختيار فيه، وعمّا يتميز به النّظم عن النّثر، وما يحمد أو يذمّ من الغُلوّ فيه أو القصد، وعن قواعد الشعر التى يجب الكلامُ فيها وعليها، حتّى تصيرجوانبُهَا محفوظة من الوَهْن، وأركانُها محروسة من الوَهْى إذ كان لا يُحْكم للشّاعر أو عليه[3] بالإساءة أو بالإحسان إلاّ بالفحص عنها، وتأمُّلِ مأخَذِه منها، ومدى شَأْوِه فيها، وتمييز المصنوع ممّا يَحُوكُه من المطبوع والأَتِىّ المُتسهَل من الأبىّ المستكرَه. وقضيتَ العَجَب كيف وقع الإجماعُ من النُّقّاد على أنه لم يَتّفق فى اختيار المقطّعات أنْقَى ممّا جمعه، ولا فى اختيار

(١) الوكد بالضم: السعى والجهد، وبالفتح،: المراد، والهم، والقصد.

(٢) أمر، هو المفعول الثانى لجاريتنى فى الكلام قبله. على أن المعروف أن يقال جاراه فى كذا وبكذا، أى جرى معه فى المناظرة والجدال.

(٣) م: «وعليه».

للُقصَّدات أوفَى مما دوّنه المفضَّلُ ونقده[١] .

وقلت إنّ أبا تمّام معروفُ المذهب فيما يقرِضُه ، مألوف المسلك لما ينظمه نازعٌ فى الإبداع إلى كل غاية ، حاملٌ فى الاستعارات كلَّ مشقّةٍ ، متوصِّلٌ إلى الظّفَرِ بمطلوبه من الصّنعة أين اعتَسَفَ وبماذا عَثَر ، متغلغِلٌ إلى توعير اللفظ وتغميض المعنى أنَّى تأتَّى له وقَدَر ؛ وهو عادلٌ فيما انتخَبَه فى هذا المجموع عن سلوك معاطفِ مَيْدانه ، ومُرْتضٍ ما لم يكن فيما يصوغه من أمرِه وشانِهِ ، فقد فَلَيْتُه فلم أجدْ فيه ما يوافق ذلك الأسلوبَ إلا اليسير . ومعلومٌ أن طبع كل امرئٍ — إذا ملك زمام الاختيار — يجذبُه إلى ما يستلذُّه ويهواهُ ، ويصرِفُه عما يَنفِرُ منه ولا يرضاه . وزعمْتَ بعد ذلك أجْمَع أنّك مع طول مجالستِك لجهابذة الشِّعْر والعلماء بمعانيه ، والمبرِّزين فى انتقادِه ، لم تقفْ من جهتهم على حَدٍّ يؤدّيك إلى المعرفة بجيّده ومتوسِّطِه ورديئِه ، حتى تجرِّد الشهادةَ فى شىء منه ، وتَبُتَّ الحُكْمَ[٢] عليه أوْله ، آمنا من الجاذبينَ والمُدافعين . بل تعتقدُ أنّ كثيراً مما يستجيدُه زيدٌ يجوز أن لايطابقَه عليه عمْرو ، وأنه قد يُستحسَنُ البيتُ ويثْنَى عليه ثم يستهجَن نظيرُهُ فى الشَّبَه لفظاً ومعنًى حتّى لامخالفةَ ، فيُعرضُ عنه ، إذْ كان ذلك موقوفاً على استحلاءِ المستَحْلِي واجتواءِ المُجتوِى ، وأنّه كما يُرزق الواحدُ فى مجالسِ الكبارِ من الإصغاء إليه والإقبال عليه ، ما يُحْرَمُ صِنْوُهُ وشبيهُهُ ، مع أنّه لا فضيلةَ لذلك ولا نقيصةَ لهذا إلاّ ما فازَ به من الجَدِّ عند الاصطفاء والقَسْمِ .

وقلتَ أيضاً : إنِّى أتمنَّى أن أعرفَ السببَ فى تأخُّرِ الشُّعراء عن رُتبةِ الكُتّاب البُلغاء ، والعذرَ فى قِلّة المترسِّلين وكثرة المُفلقين[٣] ، والعلّةَ فى نباهة

---

(١) يعنى بذلك القصائد المفضليات ، التى اختارها المفضل الضبى .

(٢) فى الأصل : « لتحكم » وأثبتنا ما فى م .

(٣) المفلق : الشاعر المجيد يجىء بالعجائب فى شعره .

أولئك وخُمول هؤلاء ، ولماذا كان أكثرُ المترسِّلين لا يُفلِقون فى قَرْض الشعر ، وأكثرُ الشعراء لا يَبْرعون فى إنشاء الكُتُب ، حتى خُصَّ بالذِكر عَدَدٌ يسير منهم ، مثل إبراهيم بن العبّاس الصولىّ ، وأبى علىّ البَصير[1] ، والعَتّابىّ ، فى جمعهم بين الفَنَّين ، واغترازِهم رِكابَ الظَّهْرَين[2] . هذا ونظامُ البلاغة يتساوى فى أكثره المنظومُ والمنثور .

وأنا إنْ شاء الله وبه الحولُ والقوّة ، أُورِدُ فى[3] كلّ فَصْلٍ من هذه الفُصولِ ما يحتمله هذا الموضع ، ويمكن الاكتفاء به ؛ إذ كان لتقصّى المقالِ فيه موضِعٌ آخَر ، من غير أن أَنْصِبَ لما تُصَوِّرُه النعوتُ الأمثلةَ ، تفادياً من الإطالة ، ولأنّه إذا وَضَحَ السّبيلُ وقَعَتِ الهداية بأيسرِ دليل . والله عزّ وجلّ الموفِّق للصواب ، وهو حسبنا ونعمَ الوكيل .

* * *

اعلم أنّ مذاهبَ نُقّادِ الكلام فى شرائطِ الاختيار مختلفة ، وطرائقَ ذوِى المعارف بأعطافِها وأردافِها مفترقَة ، وذلك لتفاوُتِ أقدار منادِحِها على اتّساعها[4] وتنازُح أقطار مظانِّها ومعالمها[5] ، ولأنّ تصاريفَ المبانى التى هى كالأوعية ، وتضاعيف المعانى التى هى كالأمتعة فى المنثور ، اتّسَعَ مَجالُ الطبع فيها ومَسْرَحُه ، وتَشَعَّبَ مَرَادُ الفِكْر لها[6] ومَطْرَحُه . فمِن البلغاء من يقول : فِقَرُ

(١) هو أبو على الفضل بن جعفر بن الفضل بن يونس النخعى ، المعروف بالبصير ، كان من أهل الكوفة وسكن بغداد ، ومدح المتوكل والفتح بن خاقان ، وكان يتشيع فى غلو . وبقى إلى أيام المعتز . نكت الهميان ٢٢٥ .

(٢) الاغتراز : أن يدخل قدمه فى الغرز ، وهو للجمل مثل الركاب للبغل . فى الأصل « اغترارهم » ، صوابه فى م .

(٣) م : « من » .

(٣) المنادح : المفاوز ، والمنتدح : المكان الواسع .

(٥) عنى بالتنازح التباعد .

(٦) م : « فيها » .

الألفاظ وغُرَرُها ، كجواهر العقود ودررها ، فإذا وُسِمَ أَغْفَالُها بتحسين نظومها[١] وحُلِّيَ أَعطالُها بتركيب شُذورِها ، فراق مسموعُها ومضبوطُها ، وزانَ مفهومُها ومحفوظُها ، وجاء ما حُرِّر منها مُصَفًّى من كَدَر العِيِّ والخَطَل ، مقوَّما من أَوَدِ اللّحن والخطأ ، سالما من جَنَف التأليف[٢] ، موزونًا بميزان الصواب ، يَمُوج فى حواشيه رونَقُ الصّفاء لفظًا وتركيبًا — قَبِله الفهمُ والتذّ به السمع . وإذا وَرد على ضدّ هذه الصفة صَدِئَ الفهمُ منه ، وتأذّى السّمع به تأذِّى الحواسِّ بما يخالفها .

ومنهم من لم يَرْضَ بالوقوف على هذا الحدِّ فتجاوزه ، والتزم من الزيادة عليه تتميمَ المقطع ، وتلطيفَ المطلَع ، وعَطْفَ الأواخر على الأوائل ، ودَلالةَ الموارد على المصادر ، وتناسُبَ الفصول والوصول ، وتعادُلَ الأقسام والأوزان ، والكشفَ عن قناع المعنى بلفظٍ هو فى الاختيار أوْلَى ، حتّى يطابق المعنى اللفظَ ، ويسابق فيه الفهمُ السمع . قال : ولا غاية وراء هذا .

ومنهم من تَرَقَّى إلى ما هو أشقُّ وأصعب ، فلم تُقنِعْه هذه التكاليفُ فى البلاغة حتّى طَلب البديع : من الترصيع والتسجيع ، والتطبيقِ والتجنيس ، وعكس البناء فى النّظم[٣] ، وتوشيح العبارةِ بألفاظٍ مستعارة ، إلى وجوهٍ أُخَر تَنطق بها الكتُب المؤلَّفة فى البديع ، فإنى لم أَذْكر هذا القَدْر إلاّ دلائل على أمثالها . ولكلٍّ مما ذكرتُه ومما لم أذكرْ رسمٌ من النفوذ والاعتلاء ، بإزائه ما يضادُّه فيُسَلِم للنُّكوص والاستقال[٤] . وأكثر هذه الأبواب لأصحاب

---

(١) م : « بحسن نظومها » .

(٢) الجنف : الميل فى الكلام وفى الأمور كلها .

(٣) يعنى بذلك ما ورد فى نحو قوله :

مودته تدوم لكل هول وهل كل مودته تدوم

(٤) الاستفال ، النزول إلى أسفل .

الألفاظ ، إذ كانت المعانى بمنزلة المعارض للجوارى[١] ، فأرادوا أن يلتذَّ السمْعُ بما يُدْرِكُ منه ولا يَمُجُّه ، ويتلقّاه بالإصغاء إليه والإذْن له فلا يحجُبَه[٢] .

وقد قال أبو الحسن ابن طَبَاطَبَا[٣] رحمه الله ، فى الشِّعر : هو ما إن عَرِىَ من معنًى بديع لم يَعْرَ من حُسن الديباجة ؛ وما خالف هذا فليس بالشعر[٤] .

ومن البُلَغاء من قصد فيما جاشَ به خاطِرُه إلى أن يكون استفادةُ المتأمّل له ، والباحثِ عن مكنونه من آثار عقله أكثر من استفادته من آثار قولِه أو مِثْلَه . وهم أصحابُ المعانى ، فطلبوا المعانى المُعْجِبَةَ من خواصّ أماكنها ، وانتزعوها جَزْلَةً عَذْبةً حكيمةً ظريفةً أو رائقةً بارعةً[٥] ، فاضلةً كاملةً ، لطيفةً شريفةً ، زاهرةً فاخرةً ؛ وجعلوا رسومَها[٦] أن تكون قريبةَ التشبيه ، لائقةَ الاستعارة ، صادقةَ الأوصافِ ، لائحةَ الأوضاح ، خَلّابةً فى الاستعطاف ، عَطّافةً لدى الاستنفار ، مستوفيةً لحظوظِها عند الاستهام من أبواب التصريح والتعريض ، والإطناب والتقصير ، والجِدّ والهَزل ، والخُشونة واللَّيان[٧] ، والإباء والإسماح ، من غير تفاوُت يظهر فى خِلالِ أطباقِها ، ولا قصورٍ ينبَعُ من أثناء أعماقِها ، مبتسمةً من مثانى الألفاظ عند الاستشفاف ، محتجبة فى غموض الصِّيان ، لدى الامتهان[٨] تعطيك مُرادَكَ إن رفَقت بها ، وتمنعُك جانِبَها إن

(١) المعارض جمع معرض كمنبر ، وهو الثوب تعرض فيه الجارية وتجلى .
(٢) م : « فلا يحجبه » .
(٣) ذكره ابن خلكان عرضاً فى ترجمة أبى القاسم أحمد بن محمد ابن طباطبا قال : « ولا أدرى من هـذا أبو الحسن ، ولا وجه النسبة بينه وبين أبى القاسم المذكور » . وفى معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية كتاب له يدعى « عيار الشعر » ذكر فى صدره أنه لأبى الحسن محمد بن أحمد ابن طباطبا العلوى . وذكر هذا الكتاب فى كشف الظنون وذكر أنه لابن طباطبا .
(٤) م : « بشعر » .
(٥) م : « حكيمة طريفة ، أو رائعة بارعة » .
(٦) م : « وسومها » .
(٧) الليان ، بالفتح كسحاب : مصدر لان يلين لينا وليانا .
(٨) لدى الامتهان ، ساقطة من م .

عَنُفْت معها . فهذه مَناسِبُ المعانى لطُلاَّبها ، وتلك مناصِبُ الألفاظ لأربابها . ومتى اعترف اللفظ والمعنى فيما تَصُوبُ به العقولُ[1] فتعانقَا وتلابَسا ، متظاهِرَين فى الاشتراك[2] وتوافَقا ، فهناك يلتقى ثَرَيَا البلاغة[3] فيُمطِرُ رَوضُها ، ويُنشَر وشْيُها ، ويتجلّى البيان فصيحَ اللسان ، نَجيحَ البُرْهان ، وترى رائدَى الفَهمِ والطَّبع متباشرين لما من المسموعِ والمعقول بالمَسرح الخِصْب والمَكْرَع[4] العذب . فإذا كان النثرُ — بما له من تقاسيم اللفظ والمعنى والنظم — اتسع نطاقُ الاختيار فيه على ما بيّنّاه بحسبِ اتساع جوانبها وموادّها ، وتكاثر أسبابها ومَوَاتّها[5] ، وكان الشعر قد ساواه فى جميع ذلك وشاركه ، ثم تفرّد عنه وتميّز بأنْ كان حَدُّه « لفظ موزون مُقفًّى يدُلُّ على معنًى » ، فازدادت صفاتُه التى أحاط الحَدُّ بها بما انضمّ من الوزن والتقفيةِ إليها ، ازدادت الكُلَف فى شرائطِ الاختيار فيه ، لأن للوزن والتقفيةِ أحكاما تماثلُ ما كانت للمعنى واللفظ والتأليف أو تُقارِب ، وهما يقتضيان من مراعاة الشاعر والمنتقد ، مثلَ ما تقتضيه تلك من مراعاة الكاتب والمتصفِّح ، لئلا يختلّ لهما[6] أصلٌ من أصولهما ، أو يعتَلّ فرْعٌ من فروعهما .

فإذا كان الأمر على هذا ، فالواجب أن يُتبيَّن ما هو عمودُ الشعرِ المعروفُ عند العرب ، ليتميّزَ تَليدُ الصنعةِ من الطريف ، وقديمُ نظامِ القريضِ من الحديث ، ولتُعرفَ مواطئُ أقدام المختارين فيما اختاروه ، ومَراسمُ إقدام

(١) تصوب به : تجود به ، من قولهم صاب المطر صوباً : نزل .

(٢) فى الأصل : « الاعتراف » وأثبتنا ما م .

(٣) ضبطت فى الأصل بضم الثاء وفتح الراء وتشديد الياء ، وهذا خطأ . يقال التقى الثريان ، وذلك أن يجىء المطر فيرسخ فى الأرض حتى يلتقى هو وندى الأرض . اللسان (ثرا) .

(٤) م : « المشرع » .

(٥) موات : جمع ماتة بوزن فاعلة ، وهى الوسيلة .

(٦) هذه الكلمة ساقطة من م .

المزيِّفين على ما زيَّفوه ، ويُعْلَمَ أيضاً فرقُ ما بين المصنوع والمطبوع ، وفضيلةُ الأتيِّ السَّمْحِ على الأبيِّ الصعب ، فنقول وبالله التوفيق :

إنهم كانوا يحاولون شرفَ المعنى وصحّتَهُ ، وجزالة اللفظ واستقامته ، والإصابةَ في الوصف — ومن اجتماع هذه الأسباب الثلاثة كثُرت سوائر الأمثال ، وشواردُ الأبيات — والمقاربةَ في التشبيه ، والتحامَ أجزاء النَّظم والتئامَها على تخيُّرٍ من لذيذ الوزنِ ، ومناسبةَ المستعارِ منه للمستعارِ له ، ومشاكلةَ اللفظ للمعنى وشِدَّة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما — فهذه سبعة أبواب هي عمودُ الشعر ، ولكلّ باب منها مِعْيار .

فعِيَار المعنى أن يُعرَضَ على العقل الصحيح والفَهم الثاقب ، فإذا انعطف عليه جَنْبَتَا القَبُول والاصطفاء ، مستأنِساً بقرائِنِه ، خَرج وافياً ، وإلاّ انتقَص بمقدار شَوْبِه ووحْشَتِهِ .

وعيار اللفظ الطَّبعُ والرِّواية والاستعمال ، فما سَلِمَ مما يُهَجِّنُهُ عند العَرضِ عليها فهو المختار المستقيم . وهذا في مُفْرداته وجملته مُرَاعًى ، لأنّ اللفظة تُستكرم بانفرادها ، فإذا ضامَّها مالا يوافِقُها عادتِ الجملةُ هَجيناً .

وعيار الإصابة في الوصف الذّكاءُ وحسنُ التمييز ، فما وجداه صادقا في العُلُوق ممازِجاً في اللُّصوق ، يتعسّر الخروج عنه والتبرُّؤ منه ، فذاك سِيماء الإصابة فيه . ويروى عن عمر رضى الله عنه أنه قال في زهير : « كان لا يَمدَحُ الرجلَ إلاّ بما يكون للرّجال » . فتأمّل هذا الكلامَ فإنّ تفسيره ما ذكرناه .

وعيار المقاربة في التشبيه الفطنةُ وحسنُ التقدير ، فأصْدَقُه مالا ينتقِض عند العكس ، وأحسَنُه ما أُوقع بين شيئين اشتراكُهما في الصفات أكثر من انفرادهما ليَبينَ وجهُ التشبيه بلا كلْفَة ، إلا أن يكون المطلوب من التشبيه أشهرَ صفات المشبَّه به وأمْلَكَها له ، لأنه حينئذ يدلُّ على نفسه ويحميه من الغموض والالتباس .

وقد قيل : « أقسام الشعر ثلاثة : مَثَلٌ سائرٌ ، وتشبيهٌ نادر ، واستعارةٌ قريبة ».

وعيار التحام أجزاء النظم والتئامه على تخيُّر من لذيذ الوزن ، الطبْعُ واللسان ، فما لم يتعثّر الطبعُ بأبنيتِهِ وعقودِهِ (١) ، ولم يتحبّس اللسانُ فى فصوله ووصوله ، بل استمرّا فيه واستسهلاه ، بلا مَلاَلٍ ولا كلالٍ ، فذاكَ يُوشِكُ أن يكون القصيدة منه كالبيتِ ، والبيتُ كالكلمةِ تَسالمًا لأجزائه وتقارُنًا ، وألاّ يَكُونَ كما قيل فيه :

وشِعرٍ كبعر الكبش فَرَّقَ بينَهُ لسانُ دعِيٍّ فى القريضِ دَخِيلِ (٢)

وكما قال خَلَفٌ :

وبعضُ قريضِ الشِّعرِ أولادُ عَلَّةٍ يَكُدُّ لسان الناطقِ المتَحَفِّظِ (٣)

وكما قال رُؤْبَةُ لابنه عُقْبَةَ وقد عَرَضَ عليه شيئاً مما قاله ، فقال :

* قد قلتَ لو كان له قِرَانُ (٤) *

وإنّما قلنا « على تخَيُّرٍ من لذيذ الوزنِ » لأنّ لذيذَهُ يَطْرَبُ الطَّبْعُ لإيقاعه ، ويُمازِجُهُ بصفائِهِ ، كما يَطْرَبُ الفهمُ لصواب تركيبه ، واعتدالِ نظومِهِ . ولذلك قال حَسَّان :

تَغَنَّ فى كل شعرٍ أنت قائلُهُ إنّ الغِناءَ لهذا الشعر مِضمارُ (٥)

وعيار الاستعارة الذِّهن والفطنة . ومِلاَكُ الأَمْرِ تقريب التّشبيه فى الأصل

(١) فى الأصل : « بأبيه » ، صوابه فى م .

(٢) البيت لأبى البيداء الرياحى ، كما فى البيان (١ : ٦٦) .

(٣) أولاد علة : بنو رجل واحد من أمهات شتى ، فهم مختلفون . انظر البيان (١ : ٦٦) والعمدة (١ : ١٧٢) .

(٤) فى البيان (٢ : ٦٨) : « إنه يقول لو كان لقوله قران » ، وذلك حيث ورد الخبر برواية أخرى .

(٥) المضمار ، يطلق على الموضع الذى تضمر فيه الخيل ، وعلى زمانه أيضاً ، ويستعمل كذلك بمعنى التضمير . عنى أن الغناء وسيلة لتحسين الشعر واختباره . وهذا البيت مما لم يرد فى ديوان حسان . وأنشده فى العمدة (٢ : ٢٤١) بدون نسبة .

حتى يتناسَبَ المشبَّه والمشبَّه به ، ثم يكتفى فيه بالاسم المستعارِ لأنه المنقولُ عمَّا كان له فى الوضع إلى المستعار له .

= وعيارُ مشاكلة اللفظ للمعنى وشدَّةِ اقتضائهما للقافية ، طول الدُّرْبة ودوامُ المدارسة ، فإذا حكما بحسن التباس بعضها ببعضٍ ، لا جفاء فى خِلالها ولا نُبُوٌّ ، ولا زيادة فيها ولا قُصورَ . وكان اللفظ مقسوماً على رُتَبِ المعانى : قد جُعِلَ الأخَصُّ للأخصِّ ، والأخسُّ للأخَسِّ ، فهو البرىء من العيب . وأما القافيةُ فيجبُ أن تكون كالموعودِ [به[1]] المنتظر ، يتشوَّفُها[2] المعنى بحقِّه واللفظ بقِسْطِهِ ، وإلا كانت قَلِقَةً فى مَقَرِّها ، مُجتَلَبَةً لمستغنٍ عنها .

فهذه الخصال عَمُودُ الشِّعر عند العرب ، فمن لَزِمها بحقِّها وبَنَى شِعرَه عليها ، فهو عندهم المُفْلِق المعظَّم . والمُحْسن المُقدَّم . ومن لم يجمعها كلَّها فبقدر سُهْمَتِه منها يكون نَصيبه من التقدُّم والإحسان ، وهذا إجماعٌ مأخوذٌ به ومُتَّبَع نَهْجُه حتى الآن .

واعلم أنّ لهذه الخِصالِ وسائطَ وأطرافاً ، فيها ظَهَر صدقُ الواصف ، وغُلُوّ الغالى ؛ واقتصادُ المقتصِد . وقد اقْتَفَرَها اختيارُ الناقدين[3] ، فمنهم من قال : « أحسنُ الشعرِ أصدَقُه » قال : لأن تجويد قائِلِه فيه مع كونه فى إسارِ الصدْقِ يدلُّ على الاقتدارِ والحِذق . ومنهم من اختار الغُلُوَّ حتى قيل «أحسن الشعر أكذبه» ؛ لأنَّ قائلَهُ إذا أسقط عن نفسه تقابُلَ الوصف والموصوفِ امتدّ فيما يأتيه إلى أعلى الرُّتبة ، وظهر قوَّتُه فى الصياغة وتمهُّرهُ فى الصناعة ، واتّسعت مخارجُهُ وموالِجَه ، فتصرَّف فى الوصف كيف شاء ، لأنّ العَمَلَ عنده على المبالغة والتمثيل ، لا المصادفة

---

(١) هذه من م .

(٢) فى الأصل : « يتشوفه » وأثبتنا ما فى م .

(٣) الاقتفار : الاقتفاء والتتبع .

والتحقيق . وعلى هذا أكثرُ العلماء بالشّعر والقائلين له . وبعضهم قال : « أحسَنُ الشّعر أقصَدُه[١] » ؛ لأنّ على الشاعر أن يبالغ فيما يصير به القول شعرًا فَقَطّ[٢] ، فما استوفَى[٣] أقسام البراعة والتجويد أو جُلّها ، من غير غُلُوّ في القول ولا إحالةٍ في المعنى ، ولم يُخْرِج الموصوفَ إلى أن لا يُؤْمَنَ لشيءٍ[٤] من أوصافه ، لظهور السَّرفِ في آياته ، وشمول التزيُّد لأقواله ، كان بالإيثار والانتخاب أولى .

ويَتْبع هذا الاختلافَ مَيْلُ بعضِهم إلى المطبوع وبعضِهم إلى المصنوع . والفرقُ بينهما أن الدّواعي إذا قامت في النفوس ، وحَرّكت القرائح ، أَعملت القلوبَ . وإذا جاشت العقولُ بمكنون ودائعها ، وتظاهرت مكتَسَباتُ العُلومِ وضروريّاتُها ، نبعت المعاني ودَرّتْ أخلافُهَا ، وافتقرت خفيّات الخواطرِ إلى جليّات الألفاظ ، فمتى رُفِضَ التكلّف والتعمّل ، وخُلِّيَ[٥] الطبعُ المهذّب بالرّواية ، المدرَّب في الدّراسة ، لاختياره ، فاسترسل[٦] غيرَ محمولٍ عليه ، ولا ممنوع مما يميل إليه ، أدّى من لطافة المعنى وحلاوة اللفظ ما يكونُ صَفْوًا بلا كَدَرٍ ، وعَفْوًا بلا جَهدٍ ، وذلك هو الذى يسمَّى « المطبوع » . ومتى جُعل زِمامُ الاختيارِ بيدِ التعمّل والتكلّف ، عاد الطبع مستخدَمًا متملَّكا ، وأقبلتِ الأفكارُ تستحمِلُهُ أثقالَهَا ، وتردِّدُه في قَبُول ما يؤدّيه إليها ، مُطَالَبَةً له بالإغرابِ[٧] في الصنعة ، وتجاوزِ المألوفِ إلى البِدْعة ، فجاء مؤدّاهُ وأَثَرُ التكلّفِ يَلُوحُ على صفحاته ، وذلك هو « المصنوع » .

---

(١) من القصد ، وهو الوسط فى الأمور .

(٢) ورد فى نسخة الأصل ، بتشديد الطاء مع ضمها ، وصوابها التشديد مع الكسر ، كما فى اللسان والقاموس ، وهى لغة فى « قط » ساكنة الطاء بمعنى حسب .

(٣) فى الأصل : « فاستوفى » ، والصواب من م .

(٤) م : « بشىء » .

(٥) وردت فى الأصل بالحاء المهملة ، مع تقييدها بالإشارة ، والوجه ما أثبتنا من م .

(٦) كذا فى م . وفى الأصل : « واسترسل » .

(٧) مطالبة بفتح اللام فى الأصل وم . وفى م « بالإعزاب » ، والإعزاب : الإبعاد .

وقد كان يتفقُ فى أبيات قصائدهم — من غير قَصْدٍ منهم إليه — اليسيرُ النَّزْرُ ، فلما انتهى قَرْضُ الشعر إلى المُحْدَثين ، ورأوا استغرابَ الناس للبديع على افتنانهم فيه ، أُولعوا بتَوَرُّدِهِ إظهاراً للاقتدار ، وذَهاباً إلى الإغراب . فمن مُفرِط ومُقْتَصِد ، ومحمودٍ فيما يأتيه ومذموم ، وذلك على حسب نُهوض الطبع بما يُحمَّلُ ، ومَدَى قُوَاهُ فيما يطلب منه ويُكَلَّفُ . فمن مال إلى الأوّلِ فلأَنَّهُ أشبه بطرائق الإعراب ، لسلامته فى السَّبْك ، واستوائه عند الفحص . ومَن مال إلى الثانى فلدلالته على كمال البراعة ، والالتذاذ بالغرابة .

* * *

وأما تعجُّبُك من أبى تمّام فى اختيار هذا المجموع وخروجِه عن مَيْدان شِعره ، ومفارقتِه ما يهواه لنفسه ؛ وإجماع نُقّاد الشعر بَعْدَه على ما صحبه من التوفيق فى قصدهِ ، فالقولُ فيه أنّ أبا تَمَّامٍ كان يختار ما يختار لجودته لا غير ، ويقول ما يقوله من الشعر بشهوته . والفرق بين ما يُشْتَهى[1] وبين ما يُستجاد ظاهرٌ ، بدلالة أنّ العارف بالبَزِّ قد يشتهى لُبْس ما لا يستجيده ، ويستجيد ما لا يشتهى لُبْسَه . وعلى ذلك حالُ جميع أعراض الدُّنيا مع العقلاء[2] العارفين بها ، فى الاستجادة والاشتهاء . وهذا الرجُل لم يعْمِدْ من الشعراء إلى المشتهرين منهم دون الأغفال ، ولا من الشّعر إلى المتردِّدِ فى الأفواه ، المجيب لكلِّ داعٍ ، فكان أمرُه أقرب ، بل اعتَسَفَ فى دواوينِ الشّعراء جاهليِّهم ومخضرَمِهم ، وإسلاميِّهم ومولَّدِهم ، واختطف منها الأرواحَ دون الأشباح ، واخترف الأثمار دون الأكمام[3] ، وجَمع ما يوافق نظمَه ويخالفه ؛ لأن ضروبَ الاختيار لم تَخْفَ

---

(١) فى الأصل : « يشتر » ، صوابه فى م .

(٢) فى الأصل : « من العقلاء » ، صوابه فى م .

(٣) الاختراف : اجتناء الثمر . والأكمام : جمع كِم ، بالكسر ، وهو غطاء النور الذى هو أصل الثمرة .

عليه ، وطرق الإحسان والاستحسان لم تَستتِر عنه ، حتى [إنّك[1]] تراه ينتهى إلى البيت الجيِّدِ فيهِ لفظة تَشِينُه ، فيَجْبُر نقيصتَه من عنده ، ويُبدِّل الكلمة بأختها فى نقده . وهذا يَبِين لمن رجع إلى دواوينهم ، فقابل ما فى اختياره بها . ولو أنّ نقْد الشعر كان يُدرَك بقوله لكان مَن يقول الشعرَ مِن العلماء أشعر الناس . ويكشف هذا أنه قد يميِّزُ الشعر من لا يقولُه ، ويقولُ الشعرَ الجيد من لا يَعرف نَقدَه . على ذلك كان البُحْتُرىّ ، لأنّه فيما حُكِىَ عنه كان لا يُعْجَبُ من الشِّعر إلا بما وافق طبعَه ومعناه ولَفْظَه .

وحكى الصُّولىّ أنه سَمع المُبَرِّد يقول : سمعت الحسنَ بن رجاء يقول : ما رأيت أحداً قطُّ أعلمَ بجيّد الشعر قديمِهِ وحديثِهِ من أبى تمَّام . وحُكى عنه أنه مَرّ بشعر ابن أبى عُيَيْنَة فيما كان يختاره من شِعر المحدَثين فقال : « وهذا كله مختار » . هذا وشعرُه أبعدُ الأشياء من شِعره . وهذا واضِح .

* * *

وأمّا ما غَلب على ظنك[2] من أنّ اختيار الشعر موقوفٌ على الشّهوات ؛ إذ كان ما يختارُه زيدٌ يجوز أن يزيِّفَه عَمْروٌ ، وأنَّ سبيلَها سبيلُ الصُّوَر فى العيون ، إلى غير ذلك مما ذكرْتَهُ — فليس الأمر كذلك ؛ لأن من عَرَفَ مستورَ المعنى ومكشوفه ، ومَرْفوضَ اللفظ ومألوفَه ، ومَيّزَ البديعَ الذى لم تقتسمه المَعارِض ، ولم تعتسفْه الخواطر ، ونَظَر وتبحَّر ، ودار فى أساليب الأدب فتخيَّر ، وطالت مجاذبتُه فى التّذاكر والابتحاث ، والتداوُل والابتعاث ، وبانَ له القليلَ النائبُ عن الكثير ، واللّحظ الدالُّ على الضمير ، ودَرَى تراتيبَ الكلام وأسرَارَها ، كما درى تعاليقَ المعانى وأسبابَها ، إلى غير ذلك مما يكمِّل الآلةَ ، ويَشْحَذُ

(١) هذه من م .
(٢) م : « فى ظنك » .

القريحة — تراه لا يَنظر إلّا بعين البصيرة ، ولا يسمع إلا بأذُن النَّصَفة[١] ، ولا ينتقد إلا بيد المَعْدِلة[٢] ، فحُكمُه الحكم الذى لا يُبدَل ، ونقدُه النقد الذى لا يُغيَّر .

واعلم أنه يَعرف الجيّد من يجهل الردىء . والواجب أن تَعرف المقابح المتسخَّطة كما عَرفتَ المحاسن المرتضاة ، وجِمَاعُها إذَا أُجمِلت أنّها أضدادُ ما بيّنّاه من عُمُد البلاغة ، وخِصال البراعة ، فى النظم والنثر . وفى التفصيل كأنْ يكون اللفظُ وحْشِيًّا أو غير مستقيم ، أو لا يكونَ مستعمَلًا فى المعنى المطلوب ، فقد قال عمر رضى الله عنه فى زهير : « لا يتتبّع الوحشىّ ولا يُعاظِلُ الكلامَ » . أو يكونَ فيه زيادة تفسد المعنى أو نقصان ، أو لا يكون بين أجزاء البيت التئام ، أو تكون القافية قَلِقَةً فى مقرّها ، أو مَعِيبةً فى نفسِها ، أو يكونَ فى القَسْم أو التقابُلِ ، أو فى التفسير فساد ، أو فى المعنى تناقض وخروجٌ إلى ما ليس فى العادة والطبع ، أو يكونَ الوصفُ غيرَ لائقٍ بالموصوف ، أو يكونَ في البيت حَشْوٌ لا طائِلَ فيه ، إلى غير ذلك مما يحصِّلُهُ لك تأمُّلُك جُمَل المحاسن وتفصيلَها ، وتتبُّعُك ما يُضَادُّها[٣] وينافيها ، وهذا هَيِّنٌ قريب .

وإنما قلت هذا لأنّ ما يختاره[٤] الناقد الحاذق قد يتّفق فيه ما لو سُئل عن سبب اختياره إياه ، وعن الدّلالة عليه ، لم يمكنه فى الجواب إلا أن يقول : هكذا قضيَّةُ طَبْعِى ، أو ارْجِعْ إلى غيرى ممن له الدُّرْبَةُ والعلم بمثله فإنّه يَحْكُم بمثل حُكمى . وليس كذلك ما يَسترذله النّقد أو ينفيه الاختيار ، لأنه لا شىء من ذلك إلاّ ويمكن التنبيهُ على الخلل فيه ، وإقامة البرهان على رداءته ، فاعلمْه .

* * *

(١) النصفة والنصف ، بالتحريك فيهما : الإنصاف .
(٢) المعدله بكسر الدال وفتحها : العدل . وجاءت فى الأصل بكسر الدال .
(٣) فى الأصل : « ما لا يضادها » ، والوجه ما أثبتنا من م .
(٤) فى الأصل : « ما لا يختاره » والوجه حذف « لا » كما فى م .

وأمّا[1] تمنّيك معرفةَ السبب فى تأخّر الشعراء عن رتبة الـكُتّاب البُلَغاء ، والعذرِ فى قِلّة المترسِّلين وكثرة المُفْلقين ، والعلّةَ فى نباهة أولئك وخُمولِ هؤلاء ، ولماذا كان أكثر المُفْلقين لا يبرعون فى إنشاء الـكتب ، وأكثرُ المترسِّلين لا يُفْلِقُون فى قَرْض الشعر ، فإنِّى أقول فى كل فَصْلٍ من ذلك بما يَحْضُر[2] ، والله وَلِيُّ توفيقى ، وهو حسبى وعليه توكُّلِى .

اعلم أن تأخُّر الشعراء عن رتبة البلغاء ، مُوجِبُه تأخُّرُ المنظوم عن رتبة المنثور عند العرب ، لأمرين :

أحدهما أنّ ملوكهم قبل الإسلام وبعدَه كانوا يتبجّحون[3] بالخطابة والافتنان فيها ، ويَعُدّونها أكملَ أسباب الرياسة ، وأفضلَ آلات الزّعامة . فإذا وقف أحدُهم بين السِّماطيْن لحصولِ تنافرٍ أو تضاغُنٍ أو تظالم أو تشاجر ، فأحسَنَ الاقتضابَ عند البُداهة[4] ، وأنجَعَ فى الإسهاب وقت الإطالة ، أو اعتلى فى ذِرْوة مِنبرٍ فتصرّف فى ضروب من تخشين القول وتليينه ، داعيا إلى طَاعَةٍ ، أو مُسْتَصْلحاً لرعيّةٍ ، أو غيرِ ذلك مما تدعو الحاجةُ إليه ، كان ذلك أبلغَ عندهم من إنفاق مالٍ عظيم ، وتجهيز جيشٍ كبير . وكانوا يأنَفون من الاشتهار بقَرض الشعر ، ويَعُدُّه ملوكُهم دناءة . وقد كان لامرئ القيس فى الجاهلية مع أبيه حُجر بن عَمْرٍو ، حين تعاطى قولَ الشعر فنهاه عنه وقتاً بعد وقت ، وحالا بعد حال ، ما أخرَجَه إلى أن أَمر بقتله . وقِصّتُه مشهورة ، فهذا واحد .

والثانى أنهم اتخذوا الشعر مَكْسَبَةً وتجارة ، وتوصّـلوا به إلى السُّوَق كما

(١) فى الأصل : « وإنما » ، والصواب فى م .

(٢) م : « ما يحضر » .

(٣) التبجح : الفخر والتباعى .

(٤) اقتضاب الكلام : ارتجاله ، اقتضب الحديث والشعر : تكلم به من غير تهيئة أو إعداد له .

توصلوا به إلى العِلْية ، وتعرّضوا لأعراض الناس ، فوصفوا اللئيمَ عند الطمع فيه بصفة الكريم ، والكريمَ عند تأخُّر صلته بصفة اللئيم ، حتى قيل : « الشعر أدنى مروّة السرىّ ، وأسرى مروّة الدنىّ » . وهذا الباب أمرُه ظاهر . وإذا كان شرفُ الصانع بمقدار شرف صناعته ، وكان النظمُ متأخّراً عن رتبة النثر ، وجب أن يكون الشاعر أيضاً متخلِّفاً عن غاية البليغ .

ومما يدلُّ على أن النثر أشرف من النظم ، أن الإعجاز من الله تعالى جدُّه والتحدّىَ من الرسول عليه السلام وقَعَا فيه دون النظم ؛ يكشف ذلك أن معجزات الأنبياء[1] عليهم السلام فى أوقاتهم كانت من جنس ما كانت أُمَمُهم يُولَعون به فى حِينهم ، ويغلِبُ على طبائعهم ، وبأشرف ذلك الجنس . على ذلك كانت معجزةُ موسى عليه السلام ، لأنها ظهرت عليه وزمنُه زمن السِّحر والسَّحَرة ، فصارت من ذلك الجنس وبأشرفِه . وكذلك كان حالُ عيسى عليه السلام ، لأن زمنَه كان زمنَ الطبّ ، فكانت معجزتُه وهى إحياء الموتى ، من ذلك الجنس وبأشرفه . فلما كان زمنُ النبى صلى الله عليه وسلم زمن الفصاحة والبيان ، جعل الله معجزتَه من جنس ما كانوا يُولَعون به وبأشرفه ، فتحدّاهم بالقرآن كلاماً منثوراً ، لا شعراً منظوماً .

وقد قال الله عزَّ وجلَّ فى تنويه النبى عليه السلام[2] : ﴿ مَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِى لَهُ[3] ﴾ .

---

(١) فى الأصل : « فيكشف ذلك أن معجز الأنبياء » ، وأثبتنا ما فى م .

(٢) يقال نوه فلانا ونوه به إذا رفعه وطير به وقواه ، ومنه قول أبى نخيلة :

ونوهت لى ذكري وما كان خاملا ولكن بعض الذكر أنبه من بعض

م : « فى تنزيه النبى عليه السلام » .

(٣) هذا وجه جائز فى الاستشهاد بالقرآن مع ترك الواو أو الفاء ونحوهما . انظر الحيوان (٣ : ١٥/٤ : ٥٧ ، ٢٧٦) ورسالة الشافعى الفقرات رقم ٦٤٣ ، ٩٧٤ ، ٩٧٥ بتحقيق الشيخ أحمد شاكر .

وقال أيضاً : (والشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُم الغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فى كلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ) .

ولمّا كان الأمر على ما بيّنّاه وجب أن يكون النثر أرفع شأناً ، وأعلى سَمْكاً وبناء من النظم ، وأن يكون مزاوِلُه كذلك ، اعتباراً بسائر الصناعات ومزاوليها[1] .

* * *

وأما السبب فى قِلَّة المترسلين وكثرة المُفْلِقين وعِزِّ مَن جمع بين النوعين مبرِّزًا فيهما ، فهو أنَّ مبنَى « الترسُّل » على أن يكون واضحَ المنهج ، سهلَ المعنى ، متسِع الباع ، واسع النِّطاق ، تدلُّ لوائحُهُ على حقائقه ، وظواهرُه على بواطنه ، إذ كان موْردُه على أسماعٍ مفترقةٍ : من خاصيّ وعاميّ ، وأفهام مختلفة : من ذكيّ وغبيّ . فمتى كان متسهّلا متساويا ، ومتسلسِلا متجاوباً ، تساوت الآذانُ فى تلقِّيه ، والأفهام فى درايته ، والألسن فى رِوايته ، فُيُسمِحُ شاردُه إذا استُدعىَ ، ويتعجّلُ وافِدُه إذا استُدنى ، وإن تطاوَلَ أنفاسُ فصوله ، وتباعَدَ أطراف حُزُونِه وسهوله . ومبنى « الشعر » على العكس من جميع ذلك لأنه مبنىّ[2] على أوزان مقدّرة ، وحدود مقسَّمةٍ ، وقوافٍ يُساق ما قبلَها إليها مهيَّأةٍ ، وعلى أن يقوم كلُّ بيت بنفسه غير مفتقرٍ إلى غيره إلا ما يكون مضمَّناً بأخيه ، وهو عيب فيه . فلما كان مداه لا يمتدُّ بأكثر من مقدار عَرُوضِه وضَرْبِه ، وكلاهما قليل ، وكان الشاعر يعمل قصيدتَه بيتاً بيتاً ، وكلُّ بيت يتقاضاه بالاتحاد ، وجب أن يكون الفضل فى أكثر الأحوال فى المعنى ، وأن يبلغ الشاعرُ فى تلطيفه ، والأخذ من حواشيه ، حتى يتسع اللفظ له ، فيؤدّيه على غموضِه وخفائه — حدًّا يصير

(١) م : « وبمزاوليها » .
(٢) م : « بنى » .

الْمدركُ له والمشرفُ عليه ، كالفائز بذخيرة اغتنمها ، والظافرِ بدفينةٍ استخرجها . وفى مثل ذلك يحسُن امِّحاءُ[١] الأثر ، وتباطؤُ المطلوب على المنتظِر . فكلُّ ما يُحمَد فى الترسُّل ويُختار ، يُذمّ فى الشعر ويُرْفَض .

فلما اختَلف المبْنَيانِ كما بيّناً ، وكان المتولِّى لكل واحدٍ منهما يختار أبعدَ الغايات لنفسه فيه ، اختلفت فيهما الإصابتان ، لتبايُن طرفيهما ، وتفاوُتِ قطريهما ، وبَعُد[٢] على القرائح الجمع بينهما . يكشفُ ذلك أن الرّجَزَ وإنْ خالف القصيدَ مخالفةً قريبة ترجع إلى تقطيع شأو اللفظ فيه ، وتزاحم السّجع عليه ، قلَّ عددُ الجامِعِين بينهما ، لتقاصر الطباع عن الإحاطة بهما . فإذا كان الرّجز والقصيد مع أنهما من وادٍ واحد ، أفضت الحالُ بمتعاطِيهما إلى ما قلتُ على خلافٍ يسير بينهما — فالنثر والنظم وهما فى طرفين ضِدَّين ، وعلى حالتين متباينتين ، أولَى وأخصُّ .

* * *

وأمَّا السبب فى قلّة البلغاء وكثرة الشعراء ، ونباهة أولئك وخمول هؤلاء ، فهو أنَّ المترسِّل محتاجٌ إلى مراعاة أمورٍ كثيرة ، إن أهملها أو أهمل شيئا منها رجعت النقيصةُ إليه ، وتوجهت اللائمة عليه .

منها تبيُّنُ[٣] مقاديرِ من يَكتب عنه وإليه ، حتّى لا يرفع وضيعاً ، ولا يضع رفيعا .

ومنها وزن الألفاظ التى يستعملها فى تصاريفه ، حتّى تجىء لائقةً بمن يخاطَب بها ، مُفخِّمة لحضرة سلطانه[٤] التى يصدر عنها .

(١) رسمت فى الأصل و م : « انمحاء » مع وضع شدة على النون .
(٢) م : « فبعد » .
(٣) فى الأصل : « يبين » ، صوابه فى م .
(٤) م : « سلطانها » .

ومنها أن يعرف أحوالَ الزمان ، وعوارضَ الحدَثان ، فيتصرّف معها على مقاديرها فى النقض والإبرام ، والبسط والانقباض .

ومنها أن يعلم أوقات الإسهاب والتطويل ، والإيجاز والتخفيف ؛ فقد يَتّفق ما يحتاج فيه إلى الإكثار ، حتى يستغرق فى الرسالة الواحدة أقدارَ القصائد الطويلة ، ويَتّفِق أيضا ما تغْنَى فيه الإشارة ، وما يجرى مَجرى الوَحْى فى الدّلالة .

ومنها أن يعرف من أحكام الشّريعة ما يقف به على سَوَاء السبيل ولا يَشتطّ فى الحكومة ، ولا يَعدِل فيما يخُطّ عن المَحَجّة . فهو إنّما يَترسّل فى عهود الوُلاة والقضاة ، وتأكيد البَيعة والأيمان ، وعِمارة البُلدان ، وإصلاح فسادٍ ، وتحريضٍ على جهادٍ ، وسَدّ ثغورٍ ورَتْق فتوق ، واحتجاجٍ على فئةٍ ، أو مجادَلةٍ لمِلّةٍ ، أو دعاءٍ إلى أُلفةٍ ، أو نهى عن فُرْقةٍ ، أو تهنئة بعطيّة ، أو تعزية برزيّةٍ ، أو ماشا كل ذلك من جلائل الخطوب ، وعظائم الشئون التى يُحتاج فيها إلى أدواتٍ كثيرة ، ومعرفةٍ مفتَنّةٍ .

فلما كان الأمرُ على هذا صار وجود المضطلعين بجودة النثر أعزّ ، وعددُهم أنْزَر . وقد وسَمَتْهم الكتابةُ بشرفها ، وبوّأتهم منزلةَ رياستها ، فأخطارُهم عالية بحسب عُلوّ صناعتهم ، ومَعاقِدِ رياستهم ، وشدةِ الفاقة إلى كفايتهم .

والشعراء إنّما أغراضُهم التى يُسدِّدون نحوَها ، وغاياتُهم التى يَنزِعون إليها ، وصفُ الدّيار والآثار ، والحنين إلى المعاهد والأوطان ، والتشبيب بالنساء ، والتلطيف فى الاجتداء ، والتفنّن فى المديح والهجاء ، والمبالغةُ فى التّشبيه والاوصاف . فإذا كان كذلك لم يتدانَوا فى المِضمار ، ولا تقارَبُوا فى الأقدار . وهذا القول كافٍ .

وإذْ قد أتينا بما أردنا ، ووفَينا بما وَعَدنا ، فإنا نشتغل بما هو القصد من شرح الاختيار ، والله الموفِّق للصواب ، والصلاة والسلام على رسوله محمدٍ وآله الأخيار .

بسم الله الرحمن الرحيم

باب الحماسة

قال الشيخ أبو على أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقى الإصفهانى رحمه الله .

الحماسة : الشجاعة ، والفعل منه حَمِسَ ، ورجلٌ أَحْمَسُ . وكانت العرب تسمِّى قريشا : حُمْساً[1] لتشدُّدهم فى أحوالهم دِيناً ودُنْيا . وتسمِّى بنى عامر : الأحامِسَ ، وكأنّهم ذهبوا فى واحد حُمس إلى أنه صِفَةٌ ، فجمعوه جمع الصفات ، كما يقال أحْمَرُ وحُمْرٌ ، وأشقر وشُقْرٌ ، وذهبوا فى واحد الأحامس إلى أنه اسم ، فجمعوه جمع الأسماء كما يقال أحمد وأَحَامِد ، وأَجْدَل وأجادِلُ . وهم يُخْرِجون الأسماء إلى باب الصفات كثيراً ، فيقولون : بنو فلان الذوائب لا الذنائب ، والمراد هم الأعالى لا الأسافل ، كما يُخْرِجون الصفات إلى باب الأسماء كثيراً . وعلى هذا الأساود : الحيّاتُ ، والأَدَاهِمُ : القُيُود : قال :

* أَوْعَدَنِى بالسِّجن والأداهِمِ[2] *

والأباطح : جمع الأَبطح . وكلٌّ ذلك صفات أُخرجتْ إلى باب الأسماء .

وقال الدُّرَيْدى[3] : حَمِسَ الشرُّ : اشتدَّ . والحُمْسُ : قريش ، وكِنَانةُ وخُزَاعةُ ، تحَمّسوا فى دينهم . وبنو حِمَاسٍ : قبيلة من العرب ، وكذلك بنو حُمَيْسٍ[4] . وقوله :

---

(١) م : « الحمس » .

(٢) نسبة العينى (٤ : ١٩٠) للعديل بن الفرخ ، قاله حين هجا الحجاج فتوعده . وبعده :

* رجلى فرجلى شثنة المناسم *

(٣) يعنى أبا بكر محمد بن الحسن بن دريد .

(٤) انظر جمهرة ابن دريد (٢ : ١٥٦) .

١

قال بعض شعراء بَلْعَنْبَر[(١)] :

المراد به بنى العنبر ، ولهذا وجب ألاّ يصحبَ الكسرة التى فى الراء التنوين . وإنّما حذِف النون من « بنى » لاجتماعه مع اللام من العنبر ، وتقاربهما فى المخرج . وذلك لأنّه لما تعذّر الإدغام فيه جُعِلَ الحذف بدَلاً من الإدغام . وإنَّما تعذَّر الإدغام لأن الأول متحرِّك والثانى ساكن سكوناً لازما ، فلما كان من شرط المُدْغَم تحريك الثانى إذا أُدْغِمَ الأولُ فيه ، وكان لام التعريف ساكناً سكونا لازما ، جُعِلَ الحذْفُ لكونه مؤدياً إلى التخفيف المطلوب من الإدغام بدلاً لمّا تَعذَّرَ هو . ولا يلزم على هذا أن يُحذفَ النون من بنى النّجّار لأنّ اللام قد أُدْغِمَ فى النون التى بعده ، فلا يمكن تقدير إدغام النون التى قبْلَه فيه ، حتى إذا تعذَّر جُعِل الحذْفُ بَدَلا من الإدغام ، بدلالة أن ثلاثة أشباه[(٢)] لا يصح إدغامُ بعضها فى بعض ، ومما يُشْبِهُ هذا من اجتماع المتجانسين من كلمتين واستعمال الحذف فى أحدهما بدلاً من الإدغام قولهم عَلْمَاءِ بنو فلان[(٣)] ، والمعنى على الماء . ومما يُشْبِهه لكنهما التقيا فى كلمة واحدة ، قولهم ظَلِلْتُ ومَسِسْتُ يقال منهما ظَلْتُ ومَسْتُ ، وإن شئت ظِلْتُ ومِسْتُ . تُلْقَى حركة المحذوف على فاء الفعل . قال الله تعالى : ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهون﴾ . وإنَّما تعذر الإدغام ها هنا لأنّ لامَ الفعل فى مثل هذا المكانِ إذا اتَّصل به ضميرُ الفاعل يُسكّن البتّة ، فلما

---

(١) فى شرح التبريزى : « واسمه قريط بن أنيف » ، وفى التنبيه لابن جنى : « وقد تروى لأبى الغول الطهوى » .

(٢) فى النسختين : « أشياء » ، وكذا النص عند التبريزى . والوجه ما أثبتنا .

(٣) شاهده ما أنشده التبريزى وابن جنى فى المبهج من قول قطرى :

غداة طفت علماء بكر بن وائل   وعجنا صدور الخيل نحو تميم

لزمه السّكون لم يصحّ إدغام العين فيه ، فلذلك حُذِف .

والعَنْبَرُ فى اللغة : التُّرْسُ والطِّيبُ . وعَنْبَرَةُ الشتاءِ : شِدَّتُهُ . وعنبرة القوم : خلوص أنسابِهم . ويقال : رأيته بهذا البلد عَنْبَرِيًّا . يُضرَبُ به مثلاً فى الهداية . وبنو العنبر أهْدَى قَوْمٍ . ويمكن تقدير النون زائدة فيه، فيكون فَنْعلا من عَبَرْتُ، كأنّه بحُسنِ تأتِّيهِ للاهتداء يَعْبُرُ الطُّرُق . ومنه قيل فى البعير : [هو[1]] عُبْرُ أسفار .

١ـ لَوْ كُنْتُ مِن مَازِنٍ لَمْ تَسْتَبِحْ إبِلِى   بَنُو اللَّقِيطَةِ مِنْ ذُهْلِ بْنِ شَيْبَانَا[2]

مَازِنُ بن مَالِك بن عَمْرو بن تَمِيم ، هُمْ بَنُو أَخى العَنْبَر بن عَمْرو بن تميم ، وإذا كان كذلك فمَدْح هذا الشاعر لهم يَجْرِى مَجْرَى الافتخار بهم ، وفى بنى مازن عصَبِيّةٌ شديدة قد عُرِفوا بها وحُمِدوا من أجلها ، ولذلك قال بعض الشعراء[3] موبِّخا لغيرهم :

فَهَلاَّ سَعَيْتُمْ سَعْىَ عُصْبَةِ مَازِنٍ   وهل كُفَلائِى فى الوفاءِ سَواء

كأَنَّ دَنَانِيرًا على قِسَماتِهِم   وإنْ كان قد شَفَّ الوجوهَ لقاء

وقصد الشاعر فى هذه الأبيات عندى إلى بَعْث قومه على الانتقام له من أعدائه ومُهْتَضِميه ، وتهييجهم وهزِّهم ، لاذَمِّهم . وكيف يَذُمُّهم ووبالُ الذمّ راجع إليه ؟ ! لكنّه فى هذا المعنى سالك لطريقة كَبْشَةَ أخت عَمْرو بن مَعْدِيكَرِبَ فى قولها :

---

(١) التكملة من م .

(٢) فى شرح التبريزى : « وزعم أبو محمد الأعرابى أن الرواية :

. . . لم تستبح إبلى   بنو الشقيقة من ذهل بن شيبانا

قال : « الشقيقة هى بنت عباد بن زيد بن عمرو بن ذهل بن شيبان » ثم ذكر أن اللقيطة هى نضيرة بنت عصيم بن مروان بن وهب بن بغيض بن مالك بن سعد بن عدى بن فزارة » .

(٣) هو محرز بن مكعبر الضبى ، كما فى اللسان (قسم) ، وسترد هذه المقطوعة فى الحماسة برقم ٦١١ .

أَرْسَلَ عبدُ اللهِ إذْ حَانَ يَوْمُهُ إلى قومِهِ لا تعقلُوا لَهُمُ دَمِي

ألا تَرى أنّها قالت فى جملة هذه الأبيات :

وَدَعْ عَنْك عَمْراً إن عَمْراً مُسَالِمٌ وهَلْ بَطْنُ عَمْرٍ غَيْرُ شِبْرٍ لِمَطْعَمِ

فلا يجوز أن يُتوهم أنها كانت تهجوا أخاها عَمْراً أو تَنْسُبه إلى العَجْزِ والتقصير فى طلب ثأر أخيه ، وعمرو هو الذى كان يُعَدُّ بِأَلْفِ فَارِسٍ ، ولكن مرادها بَعْثُهُ وتهييجُه . وهذا كما يقول العبد لمولاه والغلام لصاحبه وقد لحقتهما هَضِيمة من أجنبىّ : لو كُنّا فى خدمه فلانٍ عمِّكَ أو أخيك لما جَسَر هذا أن ينالَنا بمكروه ! ولا يجوز أن يقال إنهما هجَوَا سيّديهما أو فضَّلا غيرَهما عليهما ، ولكن المراد تحريكُهُما لهما ، وإذا كان الأمر على هذا فمن الظاهر بُطلانُ قولِ من يذهب إلى أنّ هذا الشاعر هجا قومَهُ ومَدَح بنى مازن يؤكِّدُ ما قلته قوله :

يَجْزُونَ من ظُلْمِ أهل الظلْمِ مَغْفِرَةً ومن إساءةِ أهْلِ السُّوءِ إحْسانا

لأنه لا يقال لمن يُمْسِكُ عجزاً عن الانتصار إنه غَفَرَ ، ولا لمن يقدر على جزاء الإساءة إنه اختار الإحسان . فإن قيل : أليس قد قال :

* لَيْسُوا من الشَّرِّ فى شىء وإنْ هَاناَ *

وقال أيضا :

فليْتَ لى بِهِمُ قَوْمًا إذا رَكِبُوا شَنُّوا الإغارةَ فُرْسَانًا ورُكْبَانا

قلت : ليس يزيدُ شىء مما قاله على قول كبشة :

* ودَعْ عنك عَمْرًا إنَّ عَمْراً مُسَالِمٌ *

وإذا كانت أبياتُها باتّفاقٍ من أصحاب المعانى لا تكون هجواً ، فكذلك أبيات هذا العنبرىّ . ومما يشهد للطريقة التى سلكناها ويؤيدها ، أنّ فى جملة أبياته التى وصف فيها قومه :

يُخْبُونَ نِيرَانَهُمْ حتى إذا خَمَدَتْ شَبُّوا لِمُوقِدِ نار الحرْبِ نيرَنَا(١)

(١) هذا البيت مما لم يختره أبو تمام من هذه القصيدة .

وهذا المعنى هو مثل ما افتخر به غيره فى صفات نفسه فقال :

أَفِرُّ من الشَّرِّ فى رِخْوِهِ[1] فكيف الفِرارُ إذا ما اقترَبْ

بل الذى ذكره العنبرى أزْيَد ، لأنه وصفهم بالاحتمال والصبر ما أمكن ، فإذا اهتاجوا زادُوا على كل هائج . ألا ترى أنه قال :

* شَبُّوا لِمُوقِد نارِ الحرب نيرانا *

ومعنى البيت لو كنت مازنياً لم تُغِرْ بنو اللَّقِيطةِ على إبلى .

ولَقِيطَةُ أُلِحْقَ بها الهاء وإن كان فَعِيلاً فى معنى مَفْعُولَةٍ ، لأنّه أُفْرِدَ عن الموصوف به وجُعِل اسما . وهذا كما يقال النَّشِيطَةُ[2] والذَّبيحَةُ ، والبَنِيَّةُ فى الكعبة .

فأما الاستباحة ، فقد قيل هى فى معنى الإباحة ، وقد قيل : إن الإباحة هى التَّخلِيَةُ بين الشىء وبين طَالِبِه ، والاستباحة اتِّخاذُ الشىء مباحاً للنَّفس . وكان الأصل فى الإباحة إظهار الشىء للمَنَاظر ليتناوَلَه مَن شاء ومنه بَاحَ بسرِّه بَوْحاً وبُؤُوحاً . والمَازِنُ فى اللغة : بَيض النَّمْل ، ويقال : هو يَتَمَزَّن على أصحابه ، كأنه يَتَفَضَّل عليهم . وذُهْل من ذَهَلْتُ عن الشىء .

٢ — إذًا لقَامَ بِنَصْرِى مَعْشَرٌ خُشُنٌ عند الْحَفِيظَةِ إنْ ذُو لوثَةٍ لانَا[3]

---

(١) الرخو : ما فيه رخاوة وسهولة . وفى م : « رخوة » .

(٢) النشيطة من الإبل : التى تؤخذ فتستاق من غير أن يعمد لها . والأوفق كما ورد فى م « النسيكة » ، وهى الذبيحة التى تذبح بمكة .

(٣) نص التبريزى على أن الرواية ضم اللام فى « لوثة » . قال : « ومن روى اللوثة بالفتح قال : إذاً لان ذو القوة ، وكان أبلغ فى المعنى » . يذهب التبريزى إلى أن هناك فرقا بين الضم والفتح ، وهو قول لبعض اللغويين ، وزعم أن معناها بالضم الضعف ، وبالفتح القوة والشدة . والأصح أنهما لغتان بمعنى واحد ، وهو الحمق والاسترخاء والضعف ، وسيأتى للمرزوقى كلام فى هذا .

اللام فى «لقام» جوابُ يمينٍ مضمرة ، والتقدير إذاً والله لقام [بنصرى[١]] .
فإن قيل : فأين جواب لو كنت ؟ قلت : هو لم تستبح إبلى . وفائدة « إذاً » هو أنّ هذا أخرَجَ البيت الثانى مُخْرَج جواب قائلٍ قال له : ولو استباحوا ماذا كان يفعل بنو مازن ؟ فقال : إذاً لقام بنصرى مَعْشَرٌ خُشُن . قال سيبويه : « إذاً جوابٌ وجزاء » ، وإذا كان كذلك فهذا البيت جواب لهذا السائل وجزاء على فعل المستبيح . ويجوز أن يكون أيضاً إذاً لقام جوابَ « لو » ، كأنه أجيب بجوابين . وهذا كما تقول : لو كنتَ حُرًّا لاستقبحت ما يفعلُه العبيدُ ، إذاً لاستحسنت ما يفعله الأحرار[٢] . وقوله « إنْ ذو لوثة » يرتفع ذو عند حُذَّاق النحويِّين بفعل مُضمَرٍ ، الفعلُ الذى بعدَه تفسيره ، وهو لاَنَ . والتقديرُ إن لاَنَ ذو لُوثَةٍ لانا . وإنّما قالوا هذا لأنّ « إنْ » لمَّا كان شرطًا كان بالفعل أولى ، وعملُه الجزم فيجب أن لايفارِقُ معمولَهُ فى اللفظ والتقدير . وليس هذا موضعَ الكلام على من يجعل « ذو » بعد إنْ وما أشْبَهَهُ مبتدأ . ومعنى البيت إذاً والله لقامَ بنَصْرِى ، أى لتكفَّلَ به قومٌ أشدَّاء عند الغضبِ ، إذَا الضعيفُ لاَنَ . ويقال : قام بالأمر ، أى تكفل به . وهو القائم والقيِّم . وقام بالقِسْطِ والعَدْلِ فى الرعيَّةِ ، وقامَ عليه إذا ساسَه ووليه ، ومنه القيُّومُ والقَيَّامُ[٣] فى صفات الله تعالى ، وقولُه : ﴿إلاَّ ما دُمْت عليه قائماً﴾ أى قاهراً . وأقمتُ الرُّمْحَ فقامَ ، بمعنى قوّمْتُه فتقوّم . وقولُه « إنْ ذو لُوثَةٍ » تعريضٌ منه بقومِه ليَغْضَبوا ويهتاجُوا لنُصْرَتِه . وهو فى البعثِ والتهييج أحسن من التصريح ، كما أنه فى الذَّمِّ والهجو

---

(١) هذه من ل .

(٢) ما بعد هذه الكلمة إلى كلمة « والتقدير » تجده بلفظه عند التبريزى بدون تنبيه على مأخذه .

(٣) أصله « قيوام » على فيعال كما ورد فى اللسان : ومثله « صياغ » من الصوغ . وقد قرأ بها عمر بن الخطاب فى سورة آل عمران : « الله لا إله إلا هو الحى القيام » . انظر كتاب المصاحف للسجستانى ٥٢ بتحقيق المستشرق أرثر جفرى .

كذلك . وهذا بعضُ الناس رواه «إنْ ذو لَوْثَةٍ» وزعم أنَّ ذو لُوثَةٍ ليس بجيِّد لأن الضعيف أبدًا مَهِينٌ ، والواجب أن يقول إن القويَّ لاَنَ ، واللَّوْثَةُ هى القوَّة . والرِّواية الصحيحة هى ضم اللام من اللُّوثة[1] . والفائدةُ ما ذكرت من التعريض بقومه . ولأَنْ يكون طَرَفَا البيت متناولَين لمعنيين متقابلين ، أحسن من أن يكونا مفيدَين لمعنًى واحد . و «المَعْشَرُ» : اسم للجماعة ، لا واحد له من لفظه . وقال الخليل : هو اسم لجماعةٍ أمْرُهُم واحد . ويقال جاءوا مَعْشَرَ مَعْشَرَ ، أى عَشَرةً عَشَرةً . و «خُشُنٌ» : جمعُ خَشِنٍ وأَخْشَنَ . و «الحفيظةُ» : الخَصْلَةُ يُحَفَظُ لها ، أى يُغضَبُ . وقيل هى الحَمِيّة ، وفى المثل : «الحفائظُ تُحَلِّلُ الأحقادَ» وقيل أيضاً «أهل الحَفائظِ أهل الحِفاظ» . وذلك أن ذا الأَنْفِ يحترسُ من العارِ ، فلا يزال يَتحفّظ ويُحافِظ حتى يَسْلَم منه . وكأنّ الأصل فى الكُلِّ الحِفظُ الذى هو نقيض النِّسيان . وقد طابق الخشونة باللين فظهرت الصنعةُ به ، وجادَ البيتُ له ، كأنه[2] قال معشَرٌ خَشِنُون عند الحفيظة إن كان ذوُو اللُّوثةِ لَيِّنِين عندها .

٣ـ قَوْمٌ إذا الشَّرُّ أبْدَى ناجِذَيْهِ لَهُمْ طَارُوا إليهِ زَرَافاتٍ وَوُحْدانا

أراد أن يَصف بنى مازن بما يهتاج له قومُه فينصرونه ، فقال : هم قوم إذا ظهر لهم الشَّرُّ واشتدّ سارعوا إليه غير متوقِّعين[3] لتَجَمُّع ، ولا مُعَرِّجين على تَأَهُّب ، لكنّهم يتبادرون أفراداً وثُبَاتٍ ، وأشتاتاً وجماعاتٍ . وإبداء النّاجذِ — وهو ضرس الحِلْم — مَثَلٌ لاشتداد الشرّ . ومثله قولُ الآخر :

فَمَنْ يَكُ مِعْزال اليدينِ ، مكانُهُ إذَا كَشَرَتْ عن نابِها الحَرْبُ خامِلُ

(١) انظر ما سبق من التعليق عند إنشاد البيت .
(٢) فى الأصل : «أنه» ، وأثبتنا ما فى م .
(٣) كذا فى الأصل . وفى م : «متوقفين» .

فأمّا قول عَنترَة :

* إذْ تَقلِصُ الشفتانِ عَنْ وَضَحِ الفَمِ[١] *

وقول الأَعْشَى :

* سَعَةُ الشِّدْق عن النَّابِ كَلَحْ[٢] *

وقول الآخر :

* وقَدْ أسْـــلَمَ الشَّفتَانِ الفَما *

فإنما هو صفةٌ للمُصطلى بنار الحرب عند اشتداد الأمر عليه . ومثلُه لبعض البلغاء : « صارَ الأَكَسُّ كالأَرْوَق ، والمُحتال كالأحمق ؟ وذو البصيرة كالأَخْرَق[٣] » . ويقال : عَضَّ على ناجِذِه[٤] ، إذا صَبَرَ على الأمر . ونجّذَتْهُ الأمورُ : أحكمَتْه . قال الشاعر[٥] :

* ونَجَّذَنِي مُدَاوَرَةُ الشُّؤونِ *

ويقول الرجل إذا أراد أن يتشدّد على صاحبه : لأُرِيَنَّكَ نَاجِذِي ! والمعنى أنه يكْشِرُ له ويكْلَحُ فى وجهه حتّى يبدوَ ناجِذُهُ . ويقولون : « خِلْتُهُ لِعُبُوسه يبتَسِم[٦] ، ولإقدامِهِ يَنْهَجِمُ[٧] » . وقال بعضهم: النواجِذُ : الضَّوَاحِك،واحتجّ بحديث النبى صلى الله عليه وسلم « أنّه ضحك حتى بَدَتْ نواجِذُه » . قال :

---

(١) صدره : * ولقد حفظت وصاة عمى فى الضحى *

(٢) صدره فى الديوان ١٦١ : * وله المقدم فى الحرب إذا *

(٣) الأكس : القصير الأسنان الصغيرها . والأروق : الطويل الأسنان .

(٤) م : « ناجذيه » .

(٥) هو سحيم بن وثيل الرياحى ، كما فى اللسان (نجد) والأصمعيات . وصدر البيت :
* أخو خمسين مجتمع أشدى *

(٦) فى النسختين : « يتبسم » ، والتصحيح بعده يقتضى ما أثبتنا ليصلح السجع .

(٧) كذا على الصواب فى م . يقال انهجم الخباء : سقط . وفى الأصل : « يتهجم » ، ولا أصل له فى اللغة . وعلى هذا فالوجه أن يكون الفعل قبله : « يبتسم » لكنه ورد كذا فى النسختين .

وأقاصى الأسنان لا يُبديها الضَّحِك . والصحيحُ الأوّل ، فأمّا الخبرُ فمحمولٌ على المُبَالغَةِ وإنْ لم تَبْدُ النواجِذُ .

وجواب « إذا » طاروا . و « وُحْدَانَا » هو جَمْعُ واحد ، وواحِدٌ صِفَةٌ ، كصاحب وصُحْبَانٍ ، ورَاعٍ ورُعْيَان . ويقال طِرْتُ إلى كذا ، إذا أسْرعتَ إليه ، وطِرْتُ بكذا ، أى سبَقْتُ به . والزَّرَافاتُ : الجماعاتُ ، واشتقاقُه من من الزَّرْف ، وهو الزِّيادة على الشيء . ويقال زَرَفْتُ القَوْم قُدَّامِى ، أى قَدَّمتُهُم فِرَقاً . وحُـكِى فى الزَّرافَة تشديد الفاء ، يقال جاء القوم بِزَرَافّتِهِم ، أى بجماعتهم ؛ وهو غريب . والمعنى أنهم لحرصهم على القتال وجُرْأتهم ، لا ينتظِرُ بَعْضُهُم بَعْضاً ، لـكنّ كُلاًّ منهم يعتقد أن الإجابة تعيّنت عليه إذا تشدّد الشرُّ لهم . وفى طريقته قول بعضِ الشعراء(١) :

قَوْمٌ إذا هَتَفَ الصَّرِيخُ رأيتَهُمْ مِنْ بينِ مُلْجِمِ مُهْرِه أو سافِعِ(٢)

سَافِعٌ : آخذ بناصية فَرَسِهِ . ومنه قولُ الله تعالى : ﴿ لنَسفَعًا بالنّاصِيَةِ ﴾ . وقول الآخَرِ(٣) :

وكنتُ إذا جارى دعَا لمضُوفَةٍ أشَمِّرُ حتى يَنْصُفَ الساقَ مِئْزرِى

٤ـ لايَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُمْ فى النائِبَاتِ عَلَى ما قَالَ بُرهَانَا

الأصْلُ فى النُّدْبة — وإن اشتهرت ببكاء الأموات وقولِهم عنده : وافُلاَنَاه : — الدُّعَاء ، وتوسَّعُوا فيه فقالوا : نُدِبَ فُلاَنٌ لـكذا وكذا ، إذا نُصِبَ له ورُشّحَ للقيام به . ويقولون : تكلَّمَ فلانٌ فانتدَبَ له فُلاَنٌ ، إذا عارضَهُ . والشاعر يقول : هؤلاء القوم ، يعنى بنى مازن ، لحسن محافظتهم وقوّة تناهيهم

(١) هو عمرو بن معديكرب ، كما فى تفسير أبى حيان (٨ : ٤٩١) .
(٢) رواية أبى حيان : « إذا كثر الصياح » .
(٣) هو أبو جندب الهذلى ، كما فى اللسان (نصف) وديوان الهذليين (٣ : ٩٢) .

فى نُصْرَةِ المُنْتَسِبِ إليهم والمُعَلَّقِ(١) حَبْلَهُ بحَبْلِهم ، لا يسألونَ الواحد منهم إذا دَعَاهُم حُجَّةً على دعواه ، ولا يراجعونه فى كيفية ما ألجأه إليهم ، لكنهم يُعَجِّلون الإغاثة له . وهذا تعريضٌ منه بما لَحِقَهُ من قومه أو رآه من عادتهم عند الاستغاثة بهم . والعرب تقول : يا أخا قريش ؛ والمعنى يا وَاحِدًا منهم . ومِثْلُه :

إذا اسْتُنْجِدُوا لم يَسْألُوا من دَعَاهُمُ   لأيّةِ حَرْبٍ أمْ بأىِّ مكانِ(٢)

وقد وَصَفَ بنى مازنٍ غيرُ واحدٍ من الشعراء بمثل ما وصفهم هذا الشاعر ، فمن ذلك قول بعضِهم :

نَفْسِى فِدَاءُ ابنى مَازِنٍ   من شُمُسٍ فى الحَرْبِ أبْطَالِ

وقول الآخر(٣) :

فَهَلَّا سَعَيْتُمْ سَعْىَ عُصْبَةِ مازِنٍ   وهَلْ كُفَلَائى فى الوَفَاءِ سَوَاءُ

٥ — لَكِنَّ قَوْمِى وإنْ كانوا ذَوِى عَدَدٍ   لَيْسُوا مِنَ الشَّرِّ فى شَىْءٍ وإنْ هَانَا

رَجَع إلى صفة قومه بما يأنفون منه عنده ؛ وتَدْخُلهم الحمِيّة لدى الإصْغاء إليه ، وليس قَصْدُهُ ذَمّهم فقال : لكنّ قومى وإن كان فيهم كثرة عَدَدٍ وعُدَّةٍ ليسوا من دَفْع الشر وإنكارِه ، وقَصْدِه وارتكابه فى شىء ، وإن كانَ فِيهِ خِفةٌ وقِلّةٌ . وقد قابَلَ الشَّرْطَ بالشَّرْطِ فى الصّدْرِ والعَجزُ ، وطَابَق العَدَدَ والكثرةَ بالهَوْن والخِفّة فى هذا الكلام ، ويريد أن يَصِفَهُم بأنهم يؤثرون السلامَةَ والعَفْو عن الجُناة ما أمكن ، ولو أرادوا الانتقام لقَدرُوا بعَددهم وعُدَّتهم ولكنّ المراقَبَةَ والتقوى تدعُوهُمْ إلى إيثارِ الحُسْنَى .

---

(١) كذا ضبط فى الأصل . وفى م : « المعلق » بسكون العين وتخفيف اللام المكسورة ، وكلاهما بمعنى واحد . اللسان (علق) .

(٢) لوداك بن ثميل المازنى ، سيأتى فى المقطوعة ١٨ .

(٣) هو محرز بن مكعبر ، كما سبق فى حواشى ص ٢٣ .

٦ـ يَجْزُونَ من ظُلْمِ أَهْلِ الظُّلْمِ مَغْفِرَةً ومن إساءةِ أَهْلِ السُّوءِ إِحْسَانَا

روى بعضهم « من ظَلْمِ أَهْلِ الظُّلْمِ » والظَّلْمُ بالفَتْح المصدر وبالضَّم الاسم. وهذه الرواية عندى أحسن. وقد بيّنْتُ ما فى المغفرة والإحسان من الدلالة على أنهم كانوا يَقْدِرُون على إيثار ضدِّها. والظُّلْم: انتقاص الحظِّ والنصيب. وقيل هو وضْع الشىء فى غير موضِعِه، ونقِيضُهُ العَدْلُ. ويَنتصب إحساناً بيَجْزُونَ مضمَرًا، كأنه قال: ويَجْزُون من الأساءة إحسانا. وجَازَ حَذْفُهُ لأن الفِعْلَ قَبْلَه يَدُلُّ عليه.

٧ـ كَأَنَّ رَبَّكَ لَمْ يَخْلُقْ لِخَشْيَتِهِ سِوَاهُمُ مِنْ جَمِيعِ الناسِ إِنسَانَا[1]

الخَشْيَةُ والخَشْىُ والمَخْشَاةُ: مصدر خَشِىَ. ويقولون: هذا المكان أخْشَى من ذاك، وهو نادرٌ لأنّ المكانَ يُخْشَى فهو مفعول. ورجُل خَشْيَانٌ وامرأةٌ خَشْيَانَةٌ. وقولُه « سِوَاهم من جميع الناسِ » هو استثناء مَقدَّمٌ، ولو وَقع مَوقِعَهُ لكان الكلامُ لم يَخْلُق لخشيته إنساناً سواهم، فكانَ يجوزُ فى سِواهم البَدَلُ والاستثناء والصِّفةُ، فلمّا قُدِّمَ بَطَلَ أن يكُونَ بدلاً وصِفةً لأنهما لا يتقدّمان على الموصوف والمبدل منه، فبقِىَ أن يَكونَ استثناءً. وقد نَبَّهَ بهذا الكلام أنّ احتمالهم لاحتساب الأَجْرِ على زَعْمِهِم، وإبقاءَهم فى الانتقام لِخَشْيَةِ فواتِ الذُّخْرِ فى دعواهم، فكأنّ اللهَ لم يَخْلُقْ لخوفِهِ غيرَهُمْ.

(١) بعده بيت ثامن لم يروه المرزوقى، ورواه التبريزى، وهو:

فليتَ لى بهمُ قوماً إذا ركبوا شَدُّوا الإغارةَ فُرساناً وركبانا

قال التبريزى فى تفسيره: « ويروى: شنو الإغارة، أى فرقوها. يقال شن عليهم الغارة بالشين معجمة. وسن عليه درعه بالسين، إذا صبها عليه. ومن روى: شدوا الإغارة، فليس الإغارة مفعولا به ولا انتصابها على ذلك. لكن انتصابها انتصاب المفعول له، أى شدوا للإغارة كقولك حملوا للإغارة فرساناً وركبانا، أى فى هذه الحالة. وهو كقول الآخر:

* شددنا شدة فقتلت منهم *

أى حملنا حملة. وشدت هذه غير متعدية، وإذا أريد تعديتها وصلت بعلى. قال:

أشد على الكتيبة لا أبالى أحتفى كان فيها أم سواها ».

٢

وقال شَهْلُ بن شيبانَ الزِّمّانيُّ[١] :

ويُلَقَّبُ بالفِنْدِ . والفِنْدُ في اللغة : القطعة العظيمة من الجَبَل ، وجمعه أَفْنَادٌ . قال الدُّرَيْدِي : لُقِّب به لعظم شخصِه . قال : وهو أحد الفرسان . وقال غيره : لُقِّب به لأنّه قال لأصحابه في يوم ِ حَرْبٍ : « استَنِدُوا إليّ فإني لَكُمْ فِنْد » .

١ — صَفَحْنَا عن بَنى ذُهْلٍ   وقُلْنا القَوْمُ إخْوَانُ[٢]

صَفَحْتُ عنه : عَفَوْتُ عن جُرْمِه . ويقال أعرضتُ عن الأمرِ صَفحًا ، إذا تركتهُ . وقد يقال : أَصْفَحْتُ عنه ، كما يقال أَضْرَبْتُ [عنه[٣]] . ويقال : أَبْدَى لى صَفْحَتَهُ ، إذا مكّنك من نفسه . يقول عفَوْنا عن جرم هؤلاء القوم ، وراعَيْنا من الأحوال المتواشِجة بيننا وبينهم ، ما حَمَلَنا على الإغضاء على قَبِيحٍ يتّفق منهم ، والتجاوزِ عن هَفْوَةٍ تَحْصُل مِن جهتهم ، وقلنا : إنّ ما بيننا وبينهم من الاخوَّةِ يقتضى الإبقاء على الحال معهم ، وانتظاراً لفَيْئَةٍ[٤] تكون منهم . وحقيقةُ صَفَحْنا عن بنى ذُهْلٍ : أعرضْنا عنهم : ولَّيْنَاهم صَفْحةَ أعناقنا ووجوهِنا ، وهى جانبُها ، فلم نؤاخذْهم بما كان منهم . وقال فى هذا المعنى ضربْنَا عنهم صَفْحًا ، وفى القرآن : (أَفَنَضْرِبُ عنكم الذِكْرَ صفحًا) .

٢ — عَسَى الأيامُ أن يَرْجِعْ   نَ قَوْمًا كالذى كانوا

إنّما نَكَّر قوما لأنَّ فائدتَه مثل فائدة المعارف ، ألا ترى أنه لا فَصْل بين

---

(١) هو شاعر جاهلى قديم ، وكان أحد فرسان ربيعة المشهورين ، شهد حرب بكر وتغلب وقد قارب المائة . الخزانة (٢ : ٥٨ — ٥٩) والأغانى (٢٠ : ١٤٣ — ١٤٤) واللآلى ٥٧٩ .

(٢) التبريزى : « ويروى : * صفحنا عن بنى هند * وهى هند بنت مر بن أد أخت تميم ، وهى أم بكر وتغلب ابنى وائل . فيقول : « صفحنا عن بنى تغلب لأنهم إخوتنا عطفتنا عليهم الرحم » .

(٣) هذه من م .   (٤) الفيئة : الرجعة .

أن تقولَ عَفَوْت عن زَيْدٍ فلعلّ الأيام تَرُدُّ رَجُلاً مثل الذى كان ، وبين أن تقولَ فلعلّ الأيام تَرُدُّ الرجلَ مثلَ الذى كان؛ لأنك تريد فى الموضعين به رَجُلاً أو الرَّجُلَ . والمعنى فَعَلْنا ذلك بهم رجاءَ أن تَرُدَّهُم الأيامُ إلى أَحْسَنِ ما كانوا عليه من قَبْلُ . وعَسَى من أفعالِ المقارَبَةِ . وأن يَرْجِعَنْ فى موضع خبر عسى ، ولو قال عَسَى أن يَرْجِعَ الأيامُ قوما لـكانَ أن يرجعَ فى موضع فاعل عَسَى وكان يَكْتَفِي [به[1]] ؛ وذلك لأنّ عَسَى لمقاربة الفعل ، والفعل لا بُدّ له من الفاعل ، فإذا تقدّم الفِعْلُ مع أن وتبعه الفاعل فقد حصل ما يطلبه ، فإذا وليه الاسم بقى ينتظر الفعل وإن ارتفع ذلك الاسم به ، فيجرى الفعل مع أن بعده مجرى خبر كان بعد اسم كان . ومعنى يَرْجِعَنْ : يَرْدُدْنَ ، وهو باب فَعَل وفَعَلته . يقال رَجَعَ فلانٌ رجوعا ومَرْجَعًا ورُجْعَى ورُجْعَانًا ، ورَجَعْتُهُ رَجْعًا . ومعنى يرجعن قوماً يَرْدُدْن بأمرهم أمر قوم ، وبائتلافهم ائتلاف قوم . فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامَه . وخبر كان محذوف كأنه قال كالذى كانُوه ، أى كانوا عليه قبلُ من الائتلاف والتوادّ والاتفاق . والضمير الذى أظهرناه فى « كانوه » هو الذى تصحّ الصلة به ، لأنّ الموصول لابد من أن يكون فى صلته ضمير يعود إليه إذا كان اسماً ، والذى ليس يرجع إليه من كانوا شىءٌ إلا ما أبرزناه من الضمير . ومن جَوّز حذف الجارّ والمجرور من الصفة فى نحو قوله تعالى : ﴿ واتَّقُوا يَوْمًا لاَ تَجْزِى نَفْسٌ عن نفسٍ شيئا ﴾ ويقدّر فيه أنّ الكلام لا تجزى فيه نفس عن نفس شيئا ، لا يَسُوغُ له أن يقدِّر فى الصّلة أيضا كذلك . وإذا كان الأمر على هذا فلا يجوز أن يكون التقدير يَرْجِعْنَ قَوْمًا كالذى كانوا عليه ، لأن مثل عليه لا يجوز حذفه من الصلة ، لا تقولُ الذى مَرَرْتُ جالسٌ، وأنت تريدُ مررتُ به ، والذى دَخَلتُ منطلقٌ ، وأنت

(١) هذه من م .

تريد الذى دخلت عليه . وبمثل هذا توَصَّلَ مَن زعم فى الآية أنّ التقدير : واتَّقُوا يومًا لا تجزيه نفس عن نفس شيئا ، لأنه قال : الصفة كالصلة ، فكما لا يجوز حذف فيه وأشباهه من الصّلة ، كذلك لا يجوز حذفها من الصّفة ، فاعلمْه . ويجوز أن يكون قوله كالذى كانوا ، أراد « كالذين » كانوا ، وحذَف النون تخفيفا ، كما قال[1] :

إنّ الّذِى حانت بفَلْج دماؤهم هُمُ القومُ كلُّ القومِ يا أمَّ خالِدِ[1]

فيكون المعنى يَرجِعْن بهم قوماً كالذين كانوا من قبل . وفى هذا الوجه يجوز أن يُجْعَل « الذى » للجنس ، كما قال الله تعالى : ﴿ والذى جَاء بالصِّدق وصَدَّق به ﴾ ثم قال ﴿ أولَئِكَ هم المتَّقُون[2] ﴾ ، والفصل بين هذا الوجه وبين الوجه الأوّل أنَّه أمّل فى الوجه الأول أنَّهم إذا عَفَوا عنهم أدَّبَتْهُم الأيام ورَدّت أحوالهم فى التَّوادِّ والتّحاب كأحوالهم فيما مضى ، وأزالت من فسادِ ذات البين ما اعترض بسُوء عشرتهم . وفى الوجه الثانى أمّلَ أن ترجِعَ الأيامُ أنفسَهُم إذا صفحوا عنهم كما عُهِدَتْ : سلامةَ صدورٍ ، وكَرَمَ اعتقادٍ وعُهُود .

٣ — فَلَمَّا صَرَّحَ الشَّرُّ فأَمْسَى وهْوَ عُرْيَانُ

فائدة أمسَى وأصبح وظَلّ وبات فى مثل هذا المكان على حدِّ الفائدة فى « صار » لو وَقَعَ موقعها ، ألا ترى قوله تعالى : ﴿ وإذا بُشِّر أحَدُهُم بالأُنْثى ظَلَّ وجْهُهُ مُسْوَدًّا ﴾ ، والبِشارة بالأنثى تقع ليلاً ونهارا . وكذلك تقول : أصبحوا خاسرين وأمسَوْا نادمين ، وإن كانوا فى كلِّ أوقاتهم على ذلك . « وَلَمَّا » عَلَمٌ للظرف ، وهو لوقوع الشىء لوقوع غيره ، ولهذا لا بدَّ له من جواب . ويقال صَرَّحَ الشىء إذا كشف عنه وأظهره ، وصَرَّح هو إذا انكشف[3] . ومثله بيَّن

---

(١) البيت للأشهب بن رميلة ، كما فى البيان (٤ : ٥٥) والخزانة (٢ : ٥٠٨) .
(٢) هم المتقون ، من م .
(٣) م : « بمعنى انكشف » .

الشيء وبيّن هو ، أي تبيّن ، وفي المثل « قد بَيَّنَ الصُّبحُ لذي عينين » . وفَعَّلَ بمعنى تفعّل واسِعٌ ، يقال وَجَّهَ بمعنى توجَّه ، وقَدَّم بمعنى تَقَدَّمَ ، ونبَّه بمعنى تنبه ، ونكَّبَ بمعنى تنكَّبَ . فيقول : لمّا ظَهَرَ الشَّرُّ كلَّ الظُّهور وصار بحيث لا يستُره شيء ولم يبق بيننا وبينهم سِوَى الصَّبر على الظلم الصريح . والمعنى أنهم لمّا تجاوزُوا الأحوالَ المتشابكة ، والأخْذَ بالإنصاف والمَعْدِلة ، إلى استعمال الظُّلم ورَفْع الحِشْمَةِ ، حينئذ جازيناهم بمثل ما ابتدءونا . وذكر العُريَانِ مَثَلٌ لظُهور الشّر . وقد اشتمل هذا الكلام على تفسير البيت الذي يتلوه ، وهو قوله :

٤ — ولم يَبْقَ سِوَى العُدْوَا نِ دِنَّاهُم كما دَانُوا

العُدْوان والعَدَاء والعَدُوّ[1] : الظُّلْم . وأما قوله دِنّاهُمْ كما دانوا ، والأول ليس بجزاء ، فهذا لميلهم إلى المطابقة والموافَقة ، وإخراجِ اللفظ في مِعْرَض صاحبه[2] ليُعْلَمَ أنّه جزَاؤه على حَدِّه وقَدْره ، أو ابتداؤه . وعلى ذلك قوله تعالى : ﴿يُخادِعُون الله وهو خادِعُهُم﴾ و ﴿الله يَستَهْزِئُ بهم[3]﴾ ومَا أشبهه . وجواب لَمَّا صَرَّح « دِنَّاهُمْ » . وقوله في البيت التالي[4] هو تفصيل لما أجمله قوله دِنّاهُمْ ، لأنه فَسَّرَ كيف كان ذلك الجزاء . والدِّين لفظةٌ مشتركة في عدّة معانٍ : الجزاء ، والعادةُ ، والطاعة ، والحِسَاب . وهو هاهنا الجزاء . ويقولون : « كما تدِين تُدان » أي كما تَصْنَع يُصْنَع بك .

٥ — مَشَيْنَا مِشْيَةَ اللَّيْثِ غَدَا واللَّيْثُ غَضْبَانُ[5]

كرّر الليثَ ولم يأت بضميره تفخيماً وتهويلا ، وهم يفعلون ذلك في أسماء

(١) كذا ضبط في الأصل ، ومثله العدد بالفتح أيضاً .
(٢) يعني ما يسميه البلاغيون المشاكلة .
(٣) قبلها : (وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون) .
(٤) م : « الثاني » .
(٥) التبريزي : « ويروى : شددنا شدة الليث » .

الأجناس والأعلام . قال عدىّ :

لا أرى الموتَ يسبِقُ الموتَ شيءٌ نَغَّصَ الموتُ ذا الغنى والفقيرا(١)

فيقول : سَمَيْنا إليهم مِشْيَةَ الأسد ابتكر وهو جائع ، وكَنَى عن الجوع بالغضب لأنّه يصحبه . وهذا التشبيه أخرج ما لا قوّةَ له فى التصوُّر إلى ما له قوّة فيه ، ومن روَى « عَدَا » على أن يكون من العدوان فليست روايته بحسنةٍ ، لأنّ الليث فى أكثر أحوالِهِ ظالمٌ عادٍ . والمِشْيَةُ : اسم الحالة التى يكون عليها الماشى فى مَشْيِهِ ، والمَشْيَةُ المَرّة الواحدة ، والفعل يتعدَّى إلى كلٍّ واحد منهما . والليث من أسماء الأسد . ويقال : استَلْيَثَ الرجل ، إذ اشتدّ وقَوِىَ .

٦ – بِضَرْبٍ فيــه تَوْهِيــنٌ وتَخْضِيــعٌ وإقْرَانُ(٢)

تَعَلّقَ الباء منه بمَشَيْنَا ، أى مَشَيْنَا بضَربٍ فى ذلك الضرب تضعيف للمضروب به ، وتذليلٌ ولينٌ . ويجوز أن يكون المعنى فيه تَوْهين وصوتٌ فى القَطع وكسرُ العِظام وإطاقَةٌ وقوّةٌ . ويكون حينئذ « تَخْضِيعٌ » من الخَضْعَة والخَضِيعَةِ وهما اختلاط الصّوت فى الحرب . ومنه خَضِيعَةُ بَطْنِ الفَرَس ، قال الأصمَعِىُّ : يقال « للسِّيَاطِ خَضْعَةٌ » لا أَدْرِى أَمِنَ الصَّوْتِ هو أو من القَطْعِ(٣) . وقد روى بَعْضُهم :

* والضَّارِبِين الهامَ تحت الخَيْضَعَهْ(٤) *

وقال : هى السيوف . و « إقْرَانٌ » من قولهم : أَقْرَنَ فُلاَنٌ ، أى أطاق .

---

(١) انظر الخزانة (١ : ١٨٣ / ٢ : ٤/٥٣٤ : ٥٥٢) وسيبويه (١ : ٣٠) .

(٢) التبريزى : « ويروى : تخذيع ، وهو القطع . ويروى :

بضرب فيه تفجيع وتأييم وإرنان »

(٣) م : « أم من القطع » .

(٤) الرجز للبيد فى ديوانه ٧ – ٨ وأمالى ثعلب ٤٥٠ والخزانة (٤ : ١١٧) . وهى مع قصتها فى الخزانة وأمالى المرتضى (١ : ١٣٤ – ١٣٧) والحيوان (٥ : ١٧٣) والأغانى (١٤ – ٩١ – ٩٢) والعمدة (١ : ٢٧) .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ . وفى الأوّل[١] إقْرَانٌ من قولهم : أقْرَنَ الدُّمَّلُ ، إذا نَضِجَ ولان . ويقال استَقْرَنَ الجبْنُ أيضا . و « تَخْضِيعٌ » من الخضوع يكونُ ، وهو الذُّل . ويقال خَضَعَ الرجل وأَخْضع ، إذا لَيَّنَ كلامَه للنِّساء . وفى الحديث : « نَهَى أن يَخْضَعَ الرجل لغير امرأتِه » ، أى يُلَيِّنَ كلامَه .

٧ — وَطَعْنٍ كَفَمِ الزِّقِّ غَــذَا والزِّقُّ ملآنُ

كرّر ذِكْر « الزِّق » كما كرر ذكر الليث فيما قبله . وهذا الوصف أبلغُ من قول النابغة :

* وطَعْنٍ كإيزَاعِ المَخَاضِ الضَوارِبِ[٢] *

وهذا التشبيهُ أبرَزَ ما يقلّ فى الاعتياد فى صورة ما يَكثُر فيه : ومثلُه :

فَجَبَهْنَاهُم بِضَرْبٍ كما يَخْـ ـرُجُ من خُرْبَةِ المَزَادِ الماءُ[٣]

أى وبِطَعْنٍ فى اتّساعه وخروج الدم منه كفم الزِّق إذا سال بما فيه وهو مملوء . وغَذَا يَغْذُو غُذُوًّا[٤] ، إذا سال . وغَذَاهُ يَغْذُوه غَذْواً . والاسم الغِذاء . فأمّا قول الهُذَلىّ[٥] :

* فالطّعْنُ شَغْشَغَةٌ والضّرْبُ هَيْقَعَةٌ[٦] *

فهو حكايةُ صوت الوَقْعِ ، وقوله « غَذَا » فى موضع النصب على الحال ، والأجودُ أن يُجْعَلَ « قَدْ » مُضْمَرةً[٧] .

(١) يريد فى أصل استعماله .
(٢) ويروى : « كإيزاغ » بالغين المعجمة . وصدوره كما فى ديوانه ٨ :
* بضرب يزال الهام عن سكناته *
(٣) البيت للحارث بن حلزة اليشكرى فى معلقته . شرح القصائد العشر للتبريزى ٢٦٦ .
(٤) كذا ضبط فى الأصل . وفى اللسان : « غذوا » بالفتح .
(٥) عبد مناف بن ربع الهذلى .
(٦) عجزه . * ضرب المعول تحت الديمة العضدا *
(٧) ابن جنى : « غذا حال من المضاف إليه ، وهو قليل . ويجب أن تكون قد هاهنا مرادة ؛ أى قد غذا ، من حيث كانت قد تقرب الماضى من الحال » .

٨ ــ وبَعضُ الحِلْمِ عند الجَهْـ ـلِ للذِّلَّةِ إذْعَانُ

يَعْتذر من تركهم التَحَلُّمَ مع الأوِدَّاء والأقارب ، لَمَّا كان مُفْضِيًا إلى اكتساء ذُلٍّ ، واكتساب خُضُوعٍ وعَارٍ . والتقديرُ : بعض الحِلمِ إذْعان للذِّلَّةِ عند جَهْلِ الجاهل . وهذا إذا تُوُهِّمَ أن المُحْتَمِلَ إنما فَعَلَ ما فَعَلَهُ خَوْفاً وعَجْزاً ؛ لا مَيْلا منه إلى التجاوز والإغضاء واستبقاء الأُخُوَّةِ والوِدادِ . ويقال : أَذْعَنَ لِكذا : إذا انقاد له . ومنه ناقَةٌ مِذعانٌ . وأَذْعَنَ بكذا : أقرَّ به .

٩ ــ وفى الشَّرِّ نجاةٌ حِيـ ـنَ لا يُنْجيكَ إحْسَانُ

قوله « فى الشر نجاة » أراد : وفى دفع الشرّ ، فحذَفَ المضاف وأقام المضافَ إليه مُقامَهُ . ويجوز أن يريدَ : وفى عمل الشر نجاةٌ ، كأنه يريدُ وفى الإساءة مَخْلَصٌ إذا لم يُخَلِّصْكَ الإحسان . وهذا مِثْلُ قولِهِم : « الطَّعْنُ يَظْأَرُ » أى يَعْطِفُ ، وكما قال زُهَيْر :

وَمَنْ يَعْصِ أَطْرَافَ الزِّجَاجِ فإنَّهُ ... مُطيعُ الْعوالِي رُكِّبَتْ كُلَّ لَهْذَمِ(١)

وهذا الكلام يجرى منه مجرى الاعتذار مما أَجْرَى إليه مع القَوْم ، فاعْلَمْهُ ويقولون أيضا : « من لم تُقَوِّمه الكَرَامة قَوَّمته الإهانة » .

٣

وقال أبو الغُول الطُّهَوِيّ(٢) :

الغول مَأخوذٌ من غَالهُ يَغُولُهُ غَوْلاً ، إذا أَهْلَكهُ . وهم يُسَمُّون كلَّ داهية

(١) م : « يطيع العوالى » ، وهى الرواية المشهورة .
(٢) شاعر إسلامى كان فى الدولة المروانية . الخزانة ٣ : ١٠٩ واللآلئ ٥٧٩ .

غولاً . وبذلك سَمَّوا الشيطانَ والحَيَّة[١] غُولاً . والغِيلَان عِندهم سَحَرة الجنّ . قال :

* كَمَا تلوَّنُ فى أثوابها الْغُولُ[٢] *

١ ـ فَدَتْ نَفْسِي وما مَلَـكَتْ يَمِينِي فَوَارِسَ صَدَّقُوا فيهم ظُنُونِي

لَفْظُه لفْظ الخبر . والمَعْنى معنى الدعاء . يقول : تفدى نفسى مالِى أجْمَعُ فوارس يكونون عند الظَّنِّ بهم فى الحَرْب ، وقد رُوى آخر البيت على وجوهٍ تتقارب معانيها . روى : « فوارسَ صُدِّقَتْ فيهم ظُنُونى » . ويكون ظنونى فى موضع رفعٍ بصُدِّقت ويُروى : صَدَّقَتْ فيهم ظُنونى » بفتح الصاد . وتضعيف عين الفعل يَدُلّ على التكثير . وظنونى يرتفع بالفعل . وتخصيص اليمين فى قوله : « وما ملـكت يمينى » لِفَضْلِها وقوة التصرّف بها . وهم يقيمون البعضَ مقام الجملة فينسُبون إليه الأحداثَ والأخبارَ كثيرا ، على ذلك قوله تعالى : ﴿ فَظَلَّت أعْناقُهُمْ لها خَاضِعِين ﴾ . وقَوْلُهُم : عُذْتُ بِحَقْوِ فلان . وهو عَبْدَ القَذِّ[٣] ، وحُرُّ الوجهِ ، ولئيمُ القَفَا وما أشبهه . وفى القرآن : ﴿ أو ما مَلَـكت أيمانُـكُم ﴾ . وفوارِس شاذٌّ فى الجُمُوع عند سيبويه ، لأنّ فواعل إنما تكونُ جمع فاعلة فى صفات ما يَعْقِل دُون فاعل ، واستُدْرِكَ على سِيبَوَيْه هَالِكٌ فى الهوالِك .

وبيتُ الفرزدق :

وإذَا الرِّجالُ رأَوْا يزيدَ رأيتَهم خُضعَ الرقابِ نَوَاكِسَ الأَبصارِ

---

(١) فى الأصل : « والجنة » ، صوابه فى م .

(٢) لكعب بن زهير ، وصدره :

* فما تدوم على وصل تكون به *

(٣) القذ : منتهى منبت الشعر من مؤخر الرأس .

وبيتُ عُتَيبة بن الحارث :

* ومثْلِي فى غَوائِبكُم قَلِيلُ *

وقال أبو العباس المُبَرِّد : هو الأصْلُ فى جميعه ، ويجوز فى الشِّعر .

٢ـ فَوَارِسُ لا يَمَلُّونَ المَنَـــايَا إذا دَارَتْ رَحَى الحَرْب الزَّبُونِ

مَلِلتُ الشىءَ أَمَلُّه مَلالاً وَمَلَالَةً ومَلَلًا ، إذا سَئِمْتُهُ . ويقال : فُلَانٌ ذو مَلةٍ طَرِفٌ ، إذا ضَجِرَ بشىءٍ فتطرَّفَهُ . قال :

* إنّك واللهِ لذو مَلَّةٍ[1] *

ويجوز الرفْعُ فى فوارِس على أن يَكُونَ خبر ابتداءٍ مُضْمَرٍ ، كأنه قال : هم فوارِسُ . ويجوز النصب فيه على أن يَكُونَ بَدَلاً من فوارِسَ الأُولى ، ولا يمَلُّون فى موضعِ الصفة للفوارس . والمعنى فَدَتْ نفسى فوارسَ لا يَضْجرون بمكايدة الحرب[2] ومقَاسَاةِ الشدائد فيها ، ولا يكرهون المقاتلةَ إذا دارت رحَى الحرب بأهلِها . والزَّبُونُ : الدَّفُوع ، ومنه الزَّبَانِيَةُ . وإنما شَبَّهَ الحربَ بالناقةِ الزَّبُونِ فوصف بصفتِها ، وهى التى تَزْبِنُ حالبَها وتدفعُه برِجْلِها . قال :

تَزْبِنُ بالأخفــاف والمَنَاسِمِ عَنْ ذِرْوَةٍ تَخْضِبُ كَفَّ الهَاشِمِ

ويقولون : ثَبَتَ فُلانٌ فى مَرْحَى الحَرْب ، أى حيثُ دارت رحاها . ومَنِيَّةٌ ومَنَايَا ، كصحيفة وصَحَائفَ ، والأصل منائِىُ فاستُثْقِلَتِ الضَّمَّةُ فى الياء فحذفت ثم فروا من الكسرة وبعدها ياءٌ إلى الفتحة فانقلبت الياءُ ألفًا فصار مَنَاءَا ، فأبدلوا من الهمزة لتوسُّطِها ألِفَيْنِ يَاءً فصار مَنَايَا .

٣ـ ولا يَجْزُونَ من حَسَنٍ بِسَىْءٍ ولا يَجْزُونَ من غِلَظٍ بِلِينِ[3]

---

(١) لعمر بن أبى ربيعة فى اللسان (طرف) وإصلاح المنطق ٢٢٢ ، ٢٨٨ . وعجزه :
* يطرفك الأدنى عن الأبعد *

(٢) م : « لمكايدة » .

(٣) التبريزى : « ويروى : من حُسن بسوء ، ومن حسن بسوأى ، على فعلى » .

هذا الكلام من صفة الفوارس . يريدُ أنّهم يعرفون مَجارِيَ الأمور ومقاديرَ الأحوالِ فيُوازِنُونَ الخَشِنَ بالخَشِنِ واللِّينَ باللّاينِ ، كما قال الآخر :

تَجَازِيَ الوَافِي بكَيْـــلٍ وافِ   مَلّآنَ والطِّفَافُ بالطِّفَـــافِ

وقولُهُ « بِسَيْءٍ » أراد بسَيِّئٍ نخفّف ، كما قالوا فى هَيِّنٍ هَيْنٌ وفى لَيِّنٍ لَيْنٌ . وروى بعضهم : بِسِيٍّ[(١)] » . والمعنى أنهم يزيدون فى الجزاءِ على قَدْرِ الابتداءِ . وليس ذلك بشَىء لأنّ سَيِّئٌ فى مقابَلةِ حَسَنٍ ، كَمَا أنّ اللَّينَ فى مقابَلةِ الغِلَظ ، وفى العُدُول عنه إلى سِيّ إخلالٌ بالتقابُلِ ، والبيت إنّما حَسُنَ به .

٤ ـــ ولا تَبْلَى بَسَالَتُهُمْ وإنْ هُمْ   صَلُوا بالحَرْبِ حِيناً بَعْدَ حِينِ

يقال : بَلِيَ الثّوبُ يَبْلَى بِلًى وَبَلَاءً[(٢)] ، ويستعار فيقال : لبِسْتَ فُلَانًا وبَلَّيْتُه ، إذا استمتَعْتَ به وتَمَلَّيتَهُ . وإنّما يصفهم بالاستمرار على حالةٍ واحدةٍ فى مُزَاوَلَةِ الحرْبِ ، وأنَّ شجاعَتَهُم لا تَنْقُص ولا تَبْلَى عند امتدادِ الشَّرِّ ، واتّصال البَلاءِ . والبَسَالَةُ تُوصَفُ بها الأُسْدُ والرِّجال ، يقال أَسَدٌ باسِلٌ وبَسُولٌ . كما يقال رجل باسل وبسول . قال امْرُؤُ القَيْسِ :

* ما غَرَّكُمْ بالأَسَدِ البَاسِلِ[(٣)] *

و « صَلُوا » هو من صَلِيتُ بكذا أى مُنِيتُ به ، وهو من الفِعْل فَعِلُوا بكسر العين ، ولهذا انضمّ اللام من صَلُوا ، ولو كان فَعَلُوا بفتح العين لقيل صَلَوْا ، كما قيل دَعَوْا ورَمَوْا . فإن قيل : فأين جوابُ الشرط فى قوله « وإن هُمْ صَلُوا بالحرب » ؟ قيل : هو متقدّم ، والتقدير إن صَلُوا ومُنُوا بالحرب لم تَخْلُقْ شجاعَتُهم . و فَصَل بين الفِعْلِ وإنْ بـ« هُم » ، لأنه ماض لم يَظْهَر فيه أثرُ إنْ .

(١) السى : المثل . وهما سيان أى مثلان .

(٢) التبريزى : « إذا فتحت الباء مددت ، وإذا كسرت قصرت » .

(٣) صدره كما فى ديوانه ١٤٨ :

* قولا لدودان عبيد العصا *

بالجزْم . ولو كان الفِعْلُ مُسْتَقْبَلًا لَظَهر الجزمُ فيه ، ولَمَا حَسُنَ الفصلُ بينه وبين إنْ بالاسم . يقْبُح أن يقال إنْ زَيْدٌ يأتنِي أَكْرِمْهُ ، وتقولُ إن اللهُ أقْدَرَنِي على زَيْدٍ فَعَلْتُ به كذا . وهذا شيءٌ يجوز فى إنْ دون سائر حروف الجزاء ، لأنه الاصْلُ فى الجزاءِ والحرْفُ الذى لا يَزولُ عنه . وروى بعضُهم : « ولا تُبْلَى بَسَالَتهُم » من بَلَوْتُه إذا اختبرتَهُ ، ويكون المعنى لا يمكن اختبار شجاعَتِهِم فَيُعْرف غَوْرُها ومُنْتهاها على مَرِّ الأزمان ، واختلاف الأحوال .

٥ — هُمُ مَنَعُوا حِمَى الْوَقْبَى بضَرْبٍ ... يُؤلِّفُ بينَ أشتَاتِ المَنُونِ[١]

قوله « بضرب يؤلّف » وقد وقع المنع والضرب جميعاً حكايةُ حال ، لولا ذلك لقال : بضربٍ ألّف . ومثله فى القرآن : ﴿ ونُقَلِّبُهُم ذاتَ اليَمين وذَاتَ الشِّمَالِ وكَلبُهمْ باسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بالوَصِيد ﴾ . يقول[٢] : هؤلاء القوم الذين أشرتُ إليهم بقولى : فوارس صدَّقوا فيهم ظُنونى ، هم الذين منعوا حمى هذا المكان بضَرْبٍ يجمع بين المنايا المتفرِّقة . وهذا تقييدٌ بعد إطلاق ، وتخصيصٌ بعد تعميم : والحِمَى : موضع الماء والكلإ . ويقال : أحْمَيْتُ المكان ، أى جعلته حِمًى . وحَمَيْتُهُ : ذَبَبْتُ عنه . وقوله « يؤلف » من صفة الضَّرب ، ويحتمل وجوهاً : يجوز أن يكون المعنى إنّ هؤلاء لو بقُوا فى أماكنهم ولم يجتمعوا فى هذه المعركة لوَقَعت مَوتاتُهم متفرِّقة فى أمكنةٍ متغايرة ، وأزمنةٍ متفاوتةٍ ، فلما اجتمعوا تحت الضرب الذى وصفه صار الضربُ جامعاً لتلك المنايا ووجوهها . وحُكِيَ عن أبى سعيد الضرير[٣] أن المَعْنَى إذا وَقع بهم أَلَّفَ بين أقدارهم التى قُدِّرت عليهم . ويجوز

(١) الوقبى ضبط فى الأصل و م بسكون القاف ، وضبطه ياقوت بفتحها . وانظر ليوم الوقبى شرح التبريزى ومعجم البلدان والخزانة (٣ : ١٠٧) والميدانى (٢ : ٣٥٧) .

(٢) م : « فيقون » .

(٣) هو أبو سعيد أحمد بن خالد الضرير . لقى أبا عمرو الشيبانى وابن الأعرابى . وكان يلقى الأعراب الفصحاء الذين استوردهم ابن طاهر نيسابور فيأخذ عنهم ، مثل عرام ، وأبى العميثل . نكت الهميان ٩٦ — ٩٨ .

أن يكون المعنى أنّ أسباب الموت مختلفةٌ ، وكأنّ هذا الضَّربَ جمع بين الأسباب كُلِّها . ويجوز أن يكون المراد ضَرْبًا لا يُنَفِّسُ المضروبَ ولا يمهلُهُ ، لأنه جمع فِرَق الموت له . وقوله « أشتاب المَنُون » واحدها شَتٌّ . والمَنُون : الموت ، وهو من مَنَنْتُ أي قطعت .

٦ـ فَنَكَّبَ عنهم دَرْءِ الأعَادِي وداوَوْا بالجُنُونِ مِنَ الجُنُونِ

نَكَّبَ قد جاء متعدّيًا إلى مفعولين ، قال أَوْسٌ :

نَكَّبْتُها ماءَهُمْ لمَّا رأيتُهُمُ صُهْبَ السِّبَالِ بأيديهم بيازِرُ

والأكثر نَكَّبْتُ عن كذا . يقول : حَرَّفَ عن هؤلاء القوم هذا الضربُ اعوجاجَ الأعداء وخِلافَهم ، وداوَوْا الشر بالشر . وهذا كما يقال : « الحديد بالحديد يُفلَحُ » . وكما قيل : « لا يَفُلُّ الحديدَ إلاّ الحديد » . وأصلُ النَّكْب : المَيْلُ ، ولذلك يقال نَكَبْتُ الإناء ، إذا أمَلْتَهُ . ونُكِبَ الرجُل نَكْبَةً . وعلى هذا النَّكْباء فى صفة الريح : والدَّرْء ، أصله الدَّفع ، ثم استُعْمِل فى الخلاف ، لأن المختلِفَين يتدافعان . ومثله :

* وقوَّمتُ عنه دَرْأَه فتنكَّبا(١) *

٧ـ ولا يَرْعَوْنَ أكنافَ الْهُوَيْنَى إذا حَلُّوا ولا أَرْضَ الْهُدونِ

يُروى : « ولا رَوْض الْهُدُونِ » ، وهو أفصح . والْهُدُون : الصُّلح والسُّكون . وفى الحديث : « هُدْنةٌ على دَخَنٍ » ، أى صُلْحٌ على فَسَادِ دَخِيلةٍ . يصفهم بالميل إلى الشر ، والحرصِ على القتال والقتل ، وأنهم يؤثرون جانبَ الخصومة على الصلح ، وناحيةَ الذُّعر على السكون ، فيقول : لا يَرعى هؤلاء

(١) لابن مفرغ الحميرى ، كما فى البيان (٢ : ٢٨١) . وصدره :

* فيارب خصم قد كفيت دفاعه *

القومُ جوانبَ الخصال السَّهلة والأمور الهيِّنة ، ولا ينزلون منازل الأَمْنِ والراحة . والْهُوَيْنَى : تصغير الْهُونى ، والْهُونى : تأنيث الأَهْوَن . ويجوز أن يكون الْهُونى فُعْلَى اسماً مبنيًّا من الهِينَةِ ، وهى السكون . ولا تجعله تأنيث الأهون .

٤

وقال جعفر بن عُلْبَةَ الحارثى(١) :

١ـ أَلَهْفَى بقُرَّى سَحْبَلٍ حين أَحْلَبَت علينا الولايا والعدوُّ المُبَاسِلُ

التلهُّف يكون على الفائت بعد الإشراف عليه ، يقولون : وا لَهفَاه ، ووالَهفَ أُمَّاه . ولَهَّفَ نفسه وأمَّه إذا قال ذلك . وفى المثل : « إلى أُمِّهِ يَلْهَفُ اللَّهفان » . وقوله « أَلَهْفَى » يجوز أن يكون مُنادًى مفرَداً ، ويجوز أن يكون مضافاً . فإذا جَعَلْتَه مضافاً فإنَّ أصلَهُ أَلَهْفِى أو أَلَهْفِ . فإذا كان أَلَهْفِى فكأنه فرَّ من الكسرة وبعدها ياء إلى الفتحة فانقلبت ألفاً . وعلى ذلك يا غُلامَا أَقْبِلْ . وقوله :

* وهل جَزَعٌ أنْ قلتُ وا بأباهُما *

وإنَّما المعنى بأَبِى هُمَا . وعلى ذلك طريقتهم فى مَدَارِى ومَدَارَى ، وعَذارِى وعَذارَى ، وصَحارِى وصَحارَى ، وفى بَقِىَ بَقَى ، وفى رَضِىَ رَضَى(٣) . وإذا كان أَلَهْفِ يكون الألف قد زيدت لامتداد الصوت به ليكون أدلّ على التحسُّر . وكذا إن جعلتَه أَلهفُ مفرَداً يكون الألفُ زيدت لذلك . ومعنى « أَحْلَبَتْ » : أعانت . وأصله الإعانة فى الحَلَبِ خاصّة ، ثم استمرت فى الإعانات كلِّها . وقد

(١) فى الأصل : « علية » صوابه فى م والتبريزى والمبهج وابن جنى .
(٢) التبريزى : « ويروى : أجلبت . والأصل الجلبة رفع الأصوات » .
(٣) بقى ورضى ، بفتح القاف والضاد لغة طيئ ، يجعلون كل ياء انكسر ما قبلها ألفا . اللسان (بقى) .

يكون الشيء مختصًّا فى الأصل ثم يصير بالعُرف عامًّا ، كما قد يكون عاما فى الأصل ثم يصير به مختصا . ورُوى : « الوَلاَيا » وهى جَمْعُ الوَلِيَّةِ ، وهى البَرْذَعَةُ ، وهى تكون كنايةً عن النساء إن شئت ، وعن الضعفاء الذين لا غناء عندهم إن شئت . ويشبه هذا قول أم تأبَّط شَرًّا تؤبّنه : « وا ابناه ليس بعُلْفُوف ، حُشِيَ من صوف ، تَلُفُّه هُوف[١] » . وقولهم : « هو كالحِلْس المُلْقَى » . ويُروى : « المَوالِي » ومعنى البيت أنه يتلهف لِماَ نزل بهم فى الموضع الذى ذكره حين أعان الأعداءَ عليهم كَوْنُ الحُرَمِ معَهُم أو مَن يجرى مَجْرَى الحُرَم من الضعفاء الذين لا دِفاعَ بهم ؛ لِمَا وجَبَ عليهم من الذبِّ عنهم ، والاشتغال بالحماية عليهم . ومن رَوى المَوالى — وهم أبناء العمّ — فإنما خَصَّهم بالذكر لأن الجفاء منهم أشدّ تأثيراً فى النفس . ألا تَرَى أنَّ من كان بنو عمه عليه فهو كمن قُوتِل بسلاحِهِ ، ألا ترى إلى قول الآخَر حيث يقولُ :

مَخَافَةَ جَوْرٍ من أميرٍ مُسَلَّطٍ ورَهْطِي وما عاداكَ مثلُ الأقاربِ

والعدوّ إشارة إلى الجنس . والُمباسِل ، من البَسالة . وأجراه على لفظ العدوّ لا على معناه . وفى القرآن : (فإنَّهُمْ عَدُوٌّ لى إلاَّ رَبَّ العالمين[٢]) .

٣ — فقالوا لنا ثِنْتَانِ لا بُدَّ منهما صُدورُ رِماحٍ أُشْرِعَتْ أوْ سَلاَسِلُ

التاء فى « ثنتان » كالتاء فى بنتان ، إلا أنه لم يُستعمل واحدهُ كما استعمِل بنت . وكذلك التاء فى اثنتان كالتاء فى ابنتان إلاّ أنهم لم يقولوا اثْنَةٌ كما قالوا ابْنَة . والشاعر حَكَى ما دار بينهم عند الالتقاء فيقول : أدارَنا[٣] أعداؤُنا على

(١) العلفوف : الجافى الكثير اللحم والشعر . والهوف : الريح الحارة . وفى اللسان (هوف) : « وقيل لم يسمع هذا إلا فى كلام أم تأبط شرا » .

(٢) إلا رب العالمين ، من م فقط » .

(٣) كذا فى الأصل و م بتقديم الدال ، وهى هنا أليق من « أرادنا » .

خَصْلَتَيْن حكموا علينا بهما ، وخَيَّرُونا فيهما ، وهو[1] الاستسلام الذى آخره الاسْرُ ، أو القتل الذى أوّلُهُ الامتناعُ والدَّفع . وقوله « ثنتان » أراد خصلتان اثنتان ، ثم فسَّرها بقوله « صُدورُ رماح [أشرِعت[2]] » وخصّ الصدورَ لأن المقاتلةَ بها تقع ، ويجوز أن يكون ذَكَر الصدور وإن كان المرادُ الكُلّ كما قال :

* الواطئين على صدور نِعَالِهِم *

وإن كان الوطء للصدور والأعجاز . وكنى عن الأسر بالسَّلاسل . وقوله « لا بدّ منهما » أراد لا بدّ منهما على طريق التعاقب لا على طريق الجمع بينهما ، وإلاّ سقط التخيير الذى أفاده « أو » من قوله « أو سلاسل[3] » . ألا ترى أنّه إذا قال خُذ الدينار أو الثَّوبَ ، وكُلِ السمك أو اشرب اللبن ، فليس فيه الجمع بينهما . وإذا كان الأمر على هـذا فالمعنى لا بدّ من إحداها[4] . و « أشرعت » : هُيِّئَتْ للطَّعن . وكذلك شُرِعت . ويُستعمل فى السَّيف أيضا وكان الأصلُ فيه مشارِعُ المياه . وفى المَثَل : « أهْوَنُ الورْدِ التشريع » ، أى إيراد الشريعة .

٣— فقُلنا لهمْ تِلكُمْ إذًا بَعْدَ كَرَّةٍ تُغادِرُ صَرْعَى نوءها متَخَاذِلُ

يقول : أجبناهم وقلنا تلكم ، [أى تلك[5]] التخييرة وذلك التحكّم . ولا يجوز أن تكون الإشارة بتلكم إلى واحدة من هاتين الخَصْلتين اللتين تقدَّم ذكرُها ، لأنّه لا اختيار فيهما لمختارٍ حكمه حكم هؤلاء ، إلا أن يكون الكلام على طريق

---

(١) الوجه « وهما » .

(٢) هذه من م .

(٣) كلمة « أو » هنا من م فقط .

(٤) قال ابن جنى : « لك فى منهما وجهان : إن شئت كان على حذف المضاف ، أى لابد من إحداهما . ألا تراه قال أو سلاسل . أو إنما توجب أحد الشيئين . وإن شئت كان على ظاهره لابد منهما جميعا . فصدور الرماح لمن يقتل ، والسلاسل لمن يؤسر ، أى يكون بعضنا كذا وبعضنا كذا » .

(٥) هذه من م .

التهكُّم والسخرية . والمعنى إنّما يكون ذلك بعد عَطْفَةٍ وجَوْلةٍ تَترك بيننا قوماً مصروعين يخذُلُهم النُّهوض ولا يطيقون الحَرَاكَ . وإذًا ، هو جوابٌ وجَزاء ، وهو مُلْغًى هَاهُنَا . وكُمْ من تِلْكُمْ للخطاب لا للضمير ، فلا موضع له من الإعراب . واختار أن يقول « متخاذِلُ » لأن هذا البناء يختصُّ بما يَحْدُثُ شيئاً بعد شىء . على ذلك قولُهم تداعى البناء[1] كأنّ أجزاء النهوض يخذُل بعضُها بعضاً فلا يكمُل ، وكأنه أنكَرَ عليهم الاشتراط والتحكم والإلجاء منهم إلى ذلك ، فقال : يَسُوغُ ما ابتدأتم فيه لَكُمْ بعدَ جولةٍ يتعقّبها هذا الأمر . ويجوز أن يكون الحُكم والتخيير بقوله « ثنتان لا بد منها » وقع بين الحرب والاستئسار ، لا القتل والاستئصال ، فاختاروا المحاربةَ . والإشارة[2] بقوله تلكم حينئذ يجوز أن تكون على ما قَدَّمْتُهُ ، ويجوز أن تكون إلى ما دَلَّ عليه قوله أو سَلَاسِلُ ، من الأَسْرِ فكأنه قال : الخصلة الثانيةُ نؤخِّرها وننظر فى الأولى ماذا يَنْتَتِجُ منها . وقوله « تَغَادِرُ » صفةٌ للكَرّة ، وقوله « نوءها » الضمير يعود[3] إلى صَرْعَى ، والجمع مآله إلى التأنيث ، ولو قال نوءهُمْ لكان أحسن . والنوْء : النُّهوض ، وهو أصل المناوأة ، وإن اشتهرت فى المعاداة . ويكون النَّوْء : السقوطَ أيضا . ويُشبِه هذا قول الآخر :

* ينوء بصدره والرّمحُ فيه *

٤ ــ ولم نَدْرِ إِنْ جِضْنَا من الموت جَيْضَةً ... كَمِ العُمْرُ باقٍ والمدى مُتَطاوِلُ[4]

(١) م : « البنيان » .
(٢) م : « ويكون الإشارة » .
(٣) م : « يرجع » .
(٤) التبريزى : « كلهم روى هذا البيت إن جضنا من الموت جيضة ، بكسر الهمزة على ما مر تفسيره ، غير أبى العلاء المعرى فإنه أخذ على أن جضا بفتح الهمزة . وكأنه ذهب فى هذا إلى أن إن بكسر الهمزة لما يستقبل ، وأن بفتح الهمزة لما مضى . والشاعر فى ذكر قصة قد مضت فيحمل قوله أن جضنا بفتح الهمزة ، على تقدير لما جضنا » .

جاضَ عن قِرْنِه وحاصَ بمعنًى، أى عَدَلَ وانحرفَ. والعُمْر والعَمْر لغتانِ: الحياةُ والبقاء. ومنه قولُهم: لَعَمْر الله، وعَمْرَكَ اللهَ. إلا أنه فى اليمين لا يستعمل إلا بفتح العين. وقوله «كم العُمْر» فى موضع الظرف، والمعنى كم يومًا أو وقتًا العمر باقٍ. وارتفع العمر بالابتداء. والواوُ فى قوله «والمدى متطاوِل» واو الحال، أى كم العمر باقٍ ومداه متطاول. ولم يأت بالضمير لأنّ الواو أغْنَى عنه، والمعنى لم نَعْلَمْ إن عَدَلْنَا عن الحرب عَدْلَةً كم بَقِيَ من أعمارنا، وغايات العمر ممتدّة مبهمة حتَّى لا ينتهِي أحدٌ منها إلى حدّ إلاّ وكما يرجو أن يتّصل بعده أيضا لا يَأمن أن ينقطع، فكأنه قال: إذا كان الحال فى الأعمارِ على هذا أبداً فلا مَعنَى للعُدُول عن الحرْب، إذْ لا يمتنِعُ مع تطاول المدَى فى رجاء العُمْر أن يَقْصُرَ فى نفسه وينقطِعَ عن المأمول فيه. ويجوز أن يَتعلق الحال الذى دَلَّ عليه «والمَدَى متطاوِلُ» بإن جِضْنَا. والتقدير لم نَدْرِ إن جِضْنَا ومَدَانَا مَتَطاوِلٌ كَمِ العمْر باقٍ أى مَدَى رجائِنا. وهذا حَسَنٌ عندى. ويجوز أن يكون الواو عاطفةً كأنه قال: لم نَعْلم كم العُمْر بَاقٍ وكم المدى متطاوِلٌ إنْ جِضْنَا. وحُكِى عن بعض المتأخرين أنه فَسَّرَ العُمْر على أنّهُ الحِينُ، قال ومنه قوله تعالى: ﴿فقد لَبِثْتُ فِيكُم عُمُرًا﴾ وهذا إذا حُقِّق يرجع إلى الأوّل[1].

٥ ـ إذا ما ابْتَدَرْنا مَأْزِقًا فَرَجَتْ لَنَا ... بِأَيْمَانِنَا بِيضٌ جَلَتْها الصَّيَاقِلُ

يقول: إذا ما استَبَقْنَا إلى مَضِيقٍ فى الحرب وسَّعَتْهُ لنا سُيُوفٌ مَصْقُولَةٌ بأيمانِنا

(١) ابن جنى: «لك فى كم وجهان إن شئت جعلتها زماناً فتنصبها حينئذ على الظرف بباق، أى يبقى عشرين أو ثلاثين. وإن شئت جعلتها أفعالا فتنصبها حينئذ على المصدر، أى أبقية تبقى أم ألف بقية أم أقل أم أكثر، وهى منصوبة أيضاً بباق».

والفائدة فى قوله « جعلتها الصَّياقل » اهتمامُهم بإصلاح آلاتِ الحرب ، لدوام مُزَاوَلتهم لها(١) . وجَعَلَ الفِعْلَ للسُّيوف على المجاز والسَّعة .

٦ ـ لَهُمْ صَدْرُ سَيْفِي يَوْمَ بَطْحَاءِ سَحْبَلٍ وَلِى مِنْهُ ماضُمَّتْ عَلَيْهِ الأَنامِلُ(٢)

هذا مثل قوله :

مقابِرُهُنَّ بطونُ الأَكُفِّ وأغمادُهُنَّ رءوسُ المُلُوكِ

وإنْ كان فى هذا تقسيمٌ خَلَا منه المُشَبَّهُ . وَلَكَ أن تَرْوِى « ما ضُمَّتْ عليه الأناملُ » و « ضَمَّتْ » ، فإذا قلتَ ضُمَّتْ فالمعنى قُبِضتْ عليه الأناملُ(٣) . وإذا قلتَ ضَمّت فالمعنَى قبضَتْه الأنامِلُ . والبَطْحَاء والأَبْطَح : مَسِيلٌ فيه دُقَاقُ الحصَى واسِعٌ . وهما صفتان أُخرِجتا إلى باب الأسماء . وبطحاء مَكّة وأبْطَحُها معروفان ، والتأنيث والتذكير فيهما يُحْمَلان على البَلْدَة والبُقْعَةِ ، والبَلَدِ والمكانِ ، إلاّ أنّه لا يُقَالُ مكانٌ أَبْطحُ ولا بُقْعةٌ بطحاء . ويقال : تَبَطَّحَ السَّيْلُ ، إذا سال عَرِيضاً . فأمّا « سَحْبَلٌ » فاسم موضعٍ أُضيفَ البطحاء إليه ، كما يقال صَحْراء سَحْبَلٍ . ويقال ضَبٌّ سَحْبَلٌ ، إذا كان عريضَ البَطْنِ . ولا يمتنع أن يكون المكانُ سُمِّى به لاتِّساعه .

٥

وقال أيضاً :

١ ـ لا يَكْشِفُ الغَمَّاءَ إلاّ ابن حُرَّةٍ يَرَى غَمَراتِ المَوْتِ ثُمَّ يَزُورُهَا

معنى « يرى غَمَرات الموت » أنْ يتحقّقَها بالممارسة حتّى يصير كأنه أدركها

(١) التبريزى : « وقوله جلتها الصياقل ، ضرورة ، لأن السيوف لا تجلوها إلا الصياقل ، ولو كان يجلوها غيرهم وكان جلاؤهم إياها فضل على جلاء غيرهم لكان لذكرهم هاهنا معنى . . . ولو قال اجتهد فى صقلها الصياقل وما أشبه كان حسنا » .

(٢) م : « ولى فيه » . (٣) انظر الحماسية ٨٢ .

(٤) م : « قبض عليه بالأنامل » .

بحاسة العين وشاهَدَها ، فيقول : لا يكشف الخصْلَةَ الشديدة إلاّ رَجُلٌ كريمٌ، يرى فُحَم الموتِ ثم يتوسّطُها و يَصْبِرُ فيها ولا يَعْدِلُ عنها . وإنما قال « ابنُ حُرَّةٍ » لينبّه على زوال الهُجْنَةِ منه ، وخُلوصِ مَوْلده مما يَشُوبهُ ، وليصِيرَ كَرَمُه مهيِّجاً لأَنَفَتِهِ ، ومصبِّراً له على كلِّ ما يُدْفَع إليه من الشرِّ إلاّ أنْ يُزِيلَهُ . ولأنّ ما يَسْتَنْكِفُ منه العرَبُ هو الهُجْنةُ إذْ كان مَن ليس أبوه من العربِ خارجاً من أن يكون عَرَبيًّا . والغمَّاء والغمُّ والغُمَّةُ والغَمَمُ مَرْجِعُ جميعها إلى التّغطية . فإنْ قيل : لِمَ عَطَف الزِّيارةَ على رؤية الغمَرات بحَرْفِ المُهْلَةِ ، وهلَّا جعلها عَقِيبَ الرُّؤية ؟ قلت : إنَّ « ثُمَّ » وإن كان فى عطفه المفردَ على المفرَدِ يدلُّ على التَّراخى فإنه فى عَطْفِه الجملةَ على الجملةِ ليس كذلك . ألا تَرَى قولَه عزّ وجلّ : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ ما العَقَبَةُ . فَكُّ رقبةٍ . أَوْ إطعامٌ فى يومٍ ذى مَسْغَبَةٍ . يتيماً ذا مَقْرَبَةٍ . أو مسكينا ذا مَتْرَبَةٍ . ثمَّ كان من الذين آمنوا ﴾ . ولا يجوز تراخِى الإيمان عن شىء مما عَدَّدَهُ وذكره[١] .

٢ــ تُقَاسِمُهُم أَسْيَافَنَـا شَرَّ قِسْمَةٍ فَفِينَا غَوَاشِيهَا وفيهمْ صُدُورُهَا

وَضَع « قِسمةٍ » موضع مقاسمة ، أراد شرَّ مُقَاسَمَةٍ . وانتصاب « شَرَّ » على المصْدَر . والغَوَاشِى : القوائم ، وتكون الأغمادَ أيضا . والصُّدور ، أراد بها المضاربَ ، وإنما قال : شَرَّ قِسْمَةٍ ، لأنّ مَنْ حُمِلَ على مثْل هذه القِسْمة فيما يُقَاسَمُ عليه كان الشرُّ لَهُ . وهذا أيضا مِثْلُ قوله :

* لَهُمْ صَدْرُ سَيْفِى يَوْمَ بَطْحَاءِ سَحْبَلِ[٢] *

---

(١) زاد التبريزى : « وأصل الزيارة الميل ، وهو من الزور ، والميل فى أحد الشقين، فقوله يزورها ، أى يميل إليها فيأتيها » .

(٢) من الحماسية السابقة .

والمعنى قاسَمْناهم سيوفَنَا ففينا مقابِضُها وفيهم مضارِبُها[(١)] .

٦

وقال أيضا :

١ـهَوَاىَ مَعَ الرَّكْبِ اليَمَانِينَ مُصْعِدُ   جَنِيبٌ وجُثْمَانِى بِمَكَّةَ مُوثَقُ

هذه الأبيات ضَمَّنها هذا الباب لِمَا اشتملتْ عليه مِن حُسْنِ صَبْرِه على البَلَاءِ ، وقلّة ذُعْرِه من الموت والفناء[(٢)] ، واستهانته بوعيد المتوعِّد وحِذْقه بِرَسَفَانِ المُقَيَّد . و «هَوَاىَ » ياءِ الإضافةِ فُتِحَتْ منه على الأصل ، وذاك أنّ هذه الياء لمّا كان ضميرَ اسْمٍ على حَرْفٍ واحدٍ متطرِّف كَرِهوا أن تُسَكَّنَ فتَخْتَلّ[(٣)] فجعلوا من أصلِه التحريك ، فإذا كان ما قبلَه متحركا كغُلَامِى وداري : كان لك فيه وجوهٌ : تحريك الياء وهو الأصل ، وتسكينه تخفيفا ، وحَذْفُهُ من النّداء إذا قُلْتَ يا غُلَامِ ، وإبدالُ الألفِ منها مع انفتاح ماقَبْلَها كقولك وا بِأَباها ويا غُلَامَا أقبلْ . وإذا سَكَنَ ما قَبْلَهُ فمتى كان واوًا أو ياءً أُدْغِمَ فيه ولم يَكُنْ بُدٌّ من تحريكه لئلاَّ يلتقىَ ساكنان ، تقول مُسْلِمِىَّ فى الجميع[(٤)] ومسلمَىَّ فى التثنية . وإذا كان ما قبله ألفًا كعَصَاىَ وقَفَاىَ وهَوَاىَ ، لم يكن بُدٌّ من الإتيان به على الأصل ، وهو تحريكه ، لئلا يلتقى ساكنان أيضا ، ولا يجوز الإدغام هَاهُنا كما جاز مع الواو والياء ، لأنّ الألف لا تُدْغَمُ فى شيء ولا يُدغمُ فيها غيرُها ، لـكونها هوائيّة

(١) ابن جنى : « فى هذا البيت دلالة على قوة شبه الظرف بالفعل ، وذلك أنه عطف قوله : ففيناغواشيها على قوله : نقاسمهم ، ومن شرط المعطوف أن يكون وفق المعطوف عليه » .

(٢) هذا ما فى م . وفى الأصل : « من الموت و القتل » .

(٣) م : « أن يسكن فيختل » .

(٤) م : « فى الجميع » .

لا مُعتَمَد لها فى المخرَج ، إلاّ فى لُغَةِ هُذَيْلٍ ، لأنهم يُبْدِلونَ من الألِفِ الياء ويُدْغِمُون . على هذا قوله :

سَبَقُوا هَوَىَّ وأعْنَقُوا لِهَوَاهُمُ فتُخُرِّموا ولِكلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ(١)

واليَمَانُون : جمع يَمانٍ ، والنسبةُ إلى يَمَنٍ يَمَنِىٌّ ، لكنّه حُذِف إحدى ياءى النسب وأُتِىَ بالألف عِوَضاً مِنْهُ . ومِثْلُهُ شَآمٍ وتَهَامٍ ، ومعنى البيت هَوَاىَ رَاحِلٌ ومُبْعِدٌ مع رُكْبَانِ الإبل(٢) القَاصِدِين نحو اليَمَن ، مُنْضَمٌّ إليهم ، مَقُودٌ معهم ، وبدنى مأسورٌ مُقَيَّدٌ بمكة . ورَاكِبٌ ورَكْبٌ مثلُ تَاجِرٍ وتَجْرٍ . وقد قيل فى الجُثمانِ إنه الشَّخْصُ والجُسْمَانُ الجِسْم ، هكذا قاله الأصمعىُّ . والشَّخْصُ إنما يُستعملُ فى بدن الإنسان إذا كان قائماً . والخليلُ ذَكَر فى العين أنَّ الجُثمان والجُسْمَان بمعنًى واحدٍ . وأَصْعَدَ فى الأرض : أَبْعَدَ ، وحُكِىَ أن صَعْدَةَ اسْمٌ عَلَمٌ للأرض ، وأنّ الصَّعِيد منه . ولهذا قيل لحُمُر الوحش : بَنَاتُ صَعْدَةَ ، وأولادُ صَعْدَةَ . وهذا إن ثَبَتَ فهو كما يقال بناتُ البَرّ . وقوله « جَنِيبٌ » أى مَجْنُوبٌ مُسْتَتْبَعٌ . وذكر أنّ بَعْضَهُم يرويه « حَنِيثٌ(٣) » ، والصحيحُ الأول لفظاً ومعنًى .

٢ـ عَجِبْتُ لِمَسْرَاهَا وأَنَّى تَخَلَّصَتْ إلَىَّ وبابُ السِّجْنِ دُونِى مُغْلَقُ

يقول : تعجَّبْتُ من سير هذهِ(٤) الخيال إلىَّ ، ومن حُسْنِ توصُّلِهَا مع هذه الحال ، وهو أنَّ بابَ السجْن مرتَجٌ(٥) دونى . فأمّا تعجُّبه من سَيْرِها فعلى غادة العرب والشُّعراء فى وصف الخيال ، وذاك أنّهم يُجْرُونَها مجرَى المرأةِ نَفْسِها ،

(١) البيت لأبى ذؤيب الهذلى ، من قصيدته التى رثى بها بنيه . وهى أول ديوان الهذليين .
(٢) هذه الكلمة ساقطة من م .
(٣) لم يذكر التبريزى هذه الرواية .
(٤) كذا وردت ، كأنه جعل الخيال مؤنثا لأنه خيال أنثى .
(٥) هذا ما فى م . وفى الأصل : « مرتد » .

فيستطرفون منها ما يُسْتَطرَفُ من تلك لو وَقع الفعل منها على الحقيقة مع نَعْمَتِهَا . وهذا كما قال غيره :

طَرَقَ الخيالُ ولا كَلَيْلَةِ مُدْلِجِ   سَدِكاً بأَرْحُلِنَا ولم يَتَعَرَّجِ (١)

وكما قال الآخر (٢) :

وأَنَّى اهْتَدَتْ والدَّوُّ بينى وبينها   وما خِلْتُ سَارِى الليل بالدَّوِّ يَهْتَدِى

وأمَّا تَعجُّبُه من تَوَصُّلِهَا فهو تَعَجُّبٌ من لُطْفِهَا فى ذَلِكَ ، وحُسْنِ تأتِّيهَا ، مع العوارض والموانع . والمَسْرَى يصلُح فى اللُّغة أن يكون مصدراً ومكاناً ووقْتاً والبيت لا يمتنع من وُجُوهِهِ . وأنَّى معناه كيف ، أو مِنْ أين ، كذا قال سيبويه . وقد تَجَرَّدَ لأن يكون بمعنى كيف فى قول الكميت :

* أَنَّى ومن أين آبَكَ الطَّرَبُ *

٣ـ أتَتْنافَحَيَّتْ ثم قامَت فوَدَّعَتْ   فلَمَّا تَوَلَّتْ كادَتِ النَّفسُ تَزْهَقُ

التَّحيَّةُ : السَّلام والمُلكُ والبقاء . والمُحَيَّا : الوجْهُ من الإنسان ، لأنه يُخَصُّ عند التسليم بالذِّكْر فيقال حَيَّا الله وَجْهَكَ ، وإن كانَتْ الجملةُ متلقَّاةً به . وقيل التَّحية مشتقة من الحَيَاة أَوِ الحياء . والمُحَايَاةُ : تحيَّةُ القومِ بعضهم بعضا . والمحيَّا من الفرس: حيث انفرَقَ اللَّحم تحت الناصيَة . فيقول حاكِياً لحال الخيال: جاءتنا فسلَّمت علينا ، ثم لم تلبث إلاّ قليلا حتَّى قامت وأعرضَتْ ، فلما تَولَّتْ كادت النفس تَخْرُجُ فى أثَرها . ويُروَى :« أَلَمَّتْ فحيّت » . والإلمامُ : الزيارة الخفيفةُ . وقوله « لما تولَّتْ » جوابُهُ « كادَتِ النفسُ » وهو عَلَمٌ للظرف . ومتى كان عَلَماً للظرف لم يكن له بُدٌّ من جوابٍ ، لأنّه يكون لوقوع الشيء لوقوع غيره . وتَزْهَقُ

(١) مطلع قصيدة للحارث بن حلزة اليشكرى ، فى المفضليات (٢ : ٥٥) .

(٢) هو الحطيئة من قصيدة فى ديوانه ٢١ – ٢٥ .

خبر كادَتْ ، لأنّ كاد[1] كَكان وأخواته هاهنا إذا وقع بعده الاسم ، وهو موضوعٌ لمشارفةِ الفِعْل ومشافَهته ، ولهذا وجبَ ألاّ يكُونَ مَعَهُ « أن » . تقول : كاد يَفْعَلُ ، ولا يجوز أن يفعلَ إلاّ فى الشِّعر . ومعنى تَزْهَقُ : تَهْلِكُ ، ومنه قيل للبئر البعيدة القَعْر والمَتْلَفِةِ البعيدة : زاهِقَةٌ وزهوق . وفى القرآن : ﴿ فإذا هُوَ زاهِقٌ ﴾ . ويجوز أن يريد به فى البيت تَخرج فى إثرِهَا سريعةً لما تَولّت . ومنه زَهَقَتِ الراحِلَةُ : تَقَدَّمَتْ . وَزَهَقَ السهمُ : أسرع .

٤ـ فَلاَ تَحْسَبِي أَنِّي تَخَشَّعْتُ بَعْدَكُمْ لِشَيْءٍ ولاأَنِّي من المَوْتِ أَفْرَقُ

ترك الإخْبَارَ عنها وأقبل عليها يخاطِبُها ، جَرْياً على عادتهم فى التَنَقُّلِ والافتنانِ فى التصرُّف . ومعنى تَخَشَّعْتُ : تكلَّفْتُ الخشوع . والخشوعُ فى البَصرِ كالخُضُوع فى البدن . ويقال : اختشع فلانٌ ، إذا طأطأَ رأسَهُ رَامياً ببصره إلى الأرض وهو خاشع الطَّرْفِ خاضِعُ العُنُقِ . يقول مُسْتَهيناً بما اجتمع عليه من الحبس والتقييد ، ومتبجّحاً عندها بالصبر على الهوى والتهالك فيه — وبهذا دخلت الأبياتُ فى الحماسة — لا تظنِّى أنى تكلّفتُ الخشوع بعدَكم لشىء عارضٍ ، ولا أنّى أخاف من الموت . والفَرَق : الخوفُ ، وهو فَرِقٌ وفَرُوقٌ وفَرُوقَة . وقال :

* أنوْرًا سَرْعَ ماذا يا فَرُوقُ[2] *

فإن قيل : فأين مفعول تحسبي ؟ قلت : قد نابت الجملة ، وهى قوله « أنى تخشّعت بعدكم » عن المفعولين . ألاَ ترى أنّ تقديره لا تحسبينى خاشِعاً ، فكما أنّ المفعولين يحصلان من دون « أنَّ » كذلك إذا دخل « أنّ » فى الكلام

(١) هذا ما فى م . وفى الأصل : « لأنه كادت » .

(٢) صدر بيت لزغبة الباهلى ، أو مالك بن زغبة الباهلى ، أو أبى شفيق الباهلى . اللسان (نور ، حذق) ، وعجزه :

* وحبل الوصل منتكث حذيق *

ينوب مع ما بَعْدَهُ عنهما ، لأن اللفظ بالمفعولين قد حصَل وإن كانا فى صلة أنَّ . وأنَّ وما بعده فى تقدير اسمٍ ، وهذا كما تقول : لو أنك جئتنى لأكرمتُك ، إذْ كنتَ قد لفظتَ بالفعل فى صلة أنّ ، وإن كنت لا تقولُ لَوْ مجيئُك .

٥ — ولاَ أنّ نفسِي يَزْدَهِيها وَعِيدُكُمْ ولاَ أنَّنِي بالمَشْيِ فى القَيْدِ أخْرَقُ[1]

الوعيدُ والوَعْدُ من أصْلٍ واحدٍ ، وإن كانَ أحَدُهُما ضَمانا فى الخيْرِ والآخر ضمانا فى الشرّ ، لكنه فُرِقَ بين المعنَيَيْن بتغيير البناءين ، كما فعلوا مثل ذلك فى العِدْل والعَدِيل ، فجعلوا أحدَهما فى الأَناسىّ والآخر فى غيرهم . يقول : ولا تظُنّى أن نفسى يَسْتَخِفُّها تهدُّدُكُمْ ، ولا أننى ضَجِرت بالرَّسَفَان ، وهو المشى فى القَيد . ويقال زَهَاهُ زَهْوًا وازدهاه ، إذا استخفّه . ويُستعمل الزَّهْو فى الباطلِ والتزيُّدِ فى القول . يقال : قال زَهوًا ، وفى الكِبْر يقال زُهِيَ لا غير ، وهو مَزْهُوٌّ ، والأصل الخِفَّةُ . والأَخرَق : القليل الرِّفق بالشّىء . وقال أهل اللغة : الخُرْق : ضدّ الرفق . وفلان رقيقٌ وفلان أخرق . وربّما قالوا : فلانٌ صَنَع وفلان أخرق . قال :

* وهْيَ صَنَاعُ الرِّجْلِ خَرقاء اليَدِ *

ويروى «أخرُق» بضم الراء فيكون فِعلاً ، و«أخرَق» بفتح الراء فيكون صفةً .

٦ — ولكنْ عرَتْنِي من هَوَاكِ صَبابَةٌ كما كنت أَلْقَى مِنْكِ إذْ أنا مُطْلَقُ[2]

قوله « كما كنت ألقى منك » ، الأجود أن يكون « ما » موصوفة غير

(١) أشار التبريزى إلى أنه يروى : « وعيدهم » ، وابن جنى إلى رواية : « ولا أنا ممن يزدهيه وعيدهم » .

(٢) أشار ابن جنى إلى رواية : « زمانة » بدل « صبابة » .

موصولة ، لأنك إذا جعلتها موصولة كانت مَعْرفة وفى تقدير الذى ، والقصد إلى تشبيه صَبابةٍ مجهولةٍ بمثلها ، والتقدير عَرَتْ صبابةٌ تشْبه صبابةً كنت أكابدها فيكِ فى ذلك الوقت . كأنه شَبَّه حالَه فيها بعد ما مُنِيَ به[1] بحالِه من قبل . ومفعول أَلقَى محذوف تخفيفاً له ، [أراد[2]] كما كنتُ أَلقاهُ منكِ .

ويقال عَرَاه وأعراه بمعنًى واحد . ومنه عَرَاءُ الدار وعَرْوتها بفتح العين ، أى حيث تُعَرى منه أى تُؤْتَى . يقول : ولكنّى تعرونى فى الهوَى رِقَّةُ شوْقٍ وجَهْد صبابة ، كما كنتُ أقاسيه منكِ وفيكِ حين كنتُ مُطْلقًا ومُخَلًّى . والفعل من الصَّبابة صبِبْتُ بكسر الباء ، والصفة صَبٌّ . وقولُه « إِذْ أنا مطاق » الجملة فى موضع جرّ بالإضافة ، وقد شُرِح بها « إذْ » كأنّه قال : وقت إطلاقٍ[3] .

٧

وقال أبو عَطَاءِ السِّنْدِىُّ[4] :

١ ـ ذَكَرْتُكِ والخطّىُّ يَخْطِرُ بَيْنَنَا وقَدْ نَهِلَتْ مِنَّا المُثَقَّفَةُ السُّمْرُ

يَعنِى بالخطّىّ رُمْح نفسه ، أى يتردّدُ بالطَّعْنِ . كأنّه يُصوِّر حالَهُ وما يُكابدُه فى مُجَاهدةِ أعدائه . والخطُّ : سِيفُ البَحرين وعُمَان[5] وإليه يُنسب القَنا .

(١) به ، باتفاق النسختين ، فالضمير للحال . وفى التبريزى : « بها » .

(٢) هذه من م والتبريزى .

(٣) أورد التبريزى عقب شرح هذه المقطوعة « حديث جعفر بن علبة الحارثى وسبب حبسه وقتله » ، وهو حديث طويل .

(٤) التبريزى : « واسمه أفلح مولى عنبر بن سماك بن حصين ، وكان به عجمة شديدة يجعل الجيم زايا والشين سينا ، وهو من شعراء بنى أمية » . وانظر ترجمته أيضا فى الشعر والشعراء ٧٤٢ والأغانى ١٦ : ٧٨ — ٨٤ والخزانة ٤ : ١٦٧ .

(٥) وردت فى النسختين بتشديد الميم ، وهو ضبط لا تقره المعاجم ولا كتب البلدان . وهذه هى المجاورة للبحرين . وأما المشددة الميم المفتوحة العين فهو التى بالشام .

وكأنّ قولهم : الخطيطةُ ، وهى أرض لم تُمْطَرْ بين أرضين ممطورتين ، منه . والخَطْرُ أصله التحرُّك ، يقال مَرَّ يَخْطِر خَطْرًا ، وخَطَر البَعير بذنَبِه خَطْرًا وخَطَرَانًا . فنبّه بهذا الكلام على قلّةِ مبالاته بالحرب ، وأنّ نفسَه تاقت والرمح يختلف بالطَّعْن بينهم(١) إليها حتّى كانت تلك هَمَّه وشُغْلَه ، فقال : ذَكَرْتُكِ بقلبى ورماحُ الخطِّ تضطرب فى الحرب بيننا ، وقد رَوِيَتْ منّا أى من دمائِنا(٢) . وروى بعضُهم : « وقد نُهِكَتْ(٣) منّا المثقَّفة » من نَهْك المرض ، وليس بشيء : ومصدر ذكرتُكِ ذُكْر بضم الذال ، لأنّ الذُّكْر بالقَلب والذِّكْر باللِّسان . والاسْمُ من نَهِلَتْ النَّهَلُ . والمَوْرِدُ : المَنْهَلُ : وقد عُدَّ الناهِلُ فى الأضداد ، لوقوعه على الرَّيَّان والعَطْشَان ، وكأن حقيقة النَّهَلِ أوّل السَّقْى ، والاكتفاء بِهِ قَدْ يقع وقد لا يَقَعُ(٤) فلذلك استُعمل النَّاهِلَ فى الرِّى والعَطَش .

٢ — فوَاللهِ ما أَدْرِى وإنِّى لَصَادِقٌ أَدَاءٌ عَرَانِى من حِبَابِكِ أم سِحْرُ

أقسَمَ بالله على استواء علمه(٥) بالحالتين اللتين ذكرهما . ويسمّى الألِفَ التى فى قوله « أَدَاءٌ عرانى » ألفَ التَّسوية ، لهذا الذى ذكرناه . وكذلك لو قال : ليت شعرى أزيْدٌ فى الدار أم عَمْرٌو ، لكان الألفُ ألفَ التسوية أيضاً ، لأنّه بتمنّيه العِلم بما ذَكَرَهُ من الأمرين ، دَلّ على استواءِ درَايته بهما : « وعَرَانى » معناه أصابنى . يقال عَرَاه يَعْرُوه ، واعتراه يعتريه ، وعَرَّهُ يَعُرُّهُ بمعنًى واحد .

---

(١) هذا ما فى م . وفى الأصل : « بينهما » .

(٢) أشار ابن جنى أن جملة « وقد نهلت » بدل من الحال الأولى ، أو هى حال من الضمير فى « بيتنا » .

(٣) كذا فى النسختين بالبناء للمفعول .

(٤) بعض النحويين لا يجيز هذا التعبير ، وهو إيلاء النافى للفظ « قد » .

(٥) هذه الكلمة ساقطة من م .

و « الحِبَابُ » بمعنى الُحبِّ ، كأنه مصدر حَببتُه . وقد يكون مصدر حابَبْتُه ويكون من اثنين . ويكون أيضا جَمعَ الُحبِّ ، وكأنّه جَمَعه على اختلاف أحواله فيه ، كما تُجْمَعُ الشَّمس على مواقعِهَا . ويُرْوَى « جَنَابِكِ[1] » والمعنى من ناحيتك . وقوله « إنّى لصادِقٌ » يجوز أن يريد به صِدْقَهُ فى الخبر ، ويجوز أن يُرِيدَ بِرَّه فى الحلفِ ، ومرجع الوجهين إلى معنًى واحدٍ .

٣ — فإِنْ كَانَ سِحْرًا فاعْذِرِينِي على الْهَوَى   وإِنْ كَانَ دَاءً غَيْرَهُ فَلَكِ الْعُذْرُ

السِّحر والتمويه يرجعان إلى معنًى واحد ، ولذلك قال تعالى : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النّاسِ ﴾ ، أى أخرجوه على وَجهٍ فى مَرأى العين وحقيقتُه على خلافه . والسَّحَّارَة[2] : لُعْبَةٌ ذلك صِفَتُها . ويقال عَنْزٌ مسحورةٌ ، إذا عَظُمَ ضَرْعُها وقَلّ لَبَنُهَا . وأرضٌ مسحورةٌ ، إذا لم تُنْبِتْ شيئاً : فيقول : إنْ كان ما بى سِحْرًا فلى عُذْرٌ فى هواكِ ، لأنّ من يُسْحَر يُحْبَبْ ، وإن كان داءً غيرَ السحر فالعُذر لك ، لأنّى وقعتُ فيه بتعرّضى لك ، وفكْرى فى مَحَاسِنِك ، والدَّلالة على أن « فاعْذِرِينى » فى موضِع فَلِى عُذْرٌ ، ما قابَلَهُ به من قولِهِ « فَلَكِ العُذْرُ » . وفى هذا إسقاطُ سؤال السائل : لِمَ قال اعذِرِينى ولا ذَنْب له وإنّما يحتاجُ إلى بَسْطِ العُذْرِ مَن له ذَنْب أو يُتَصَوَّرُ بصورته ، وانتصاب «داء» على أن يكون خبر كان ، كأنّه قال : وإن كان ما بى داءً . ويجوز أن يكون تَوَهَّمَ أن تلك تصوَّرتْه[3] بصورة المُذنبِ[4] فيما أظهرَه من عشقِهِ فقال لها : إن أنتِ فَتَنْتِنى

(١) زاد التبريزى : « من جنابك » بالكسر ، أى مجانبتك .

(٢) ضبط فى م بتخفيف الحاء ، والصواب تشديدها كما فى اللسان . قال : « شىء يلعب به الصبيان إذا مد من جانب خرج على لون ، وإذا مد من جانب آخر خرج على لون آخر مخالف وكل ما أشبه ذلك سحارة » .

(٣) م : « صورته » .

(٤) فى الأصل : « الذنب » صوابه فى م والتبريزى .

وأوقعتِنى فى حِبَالَتِكِ لِمَا عَرَضْتِ علىّ من محاسِنِكِ فلى عُذْرٌ حين افتتنت ، لأن مِثْلَ محاسِنِك تُزِلُّ العفيف ، وتنقُلُ عن طَبعِهِ الحليم . وإن كنتُ المتعرِّضَ لك والجالب على نفسى ما شَقِيتُ به ، فالعُذْرُ لكِ .

٨

وقال آخر[١] :

١ — وَفَارِسٍ فِى غِمَارِ المَوْتِ مُنْغَمِسٍ إِذَا تَأَلَّى على مَكْرُوهِهِ صَدَقَا[٢]

جَعَل الموت غِماراً على التّشبيه بالماء ، ثم جَعَلَهُ مُنْغَمِساً فيها فَحَسُنَت الاستعارة جِدًّا : وتَأَلَّى وائتَلَى وآلى من الأَلِيَّةِ . ولا حَلِفَ ثَمّ ، إنّما يريد الحَتْمَ والإيجابَ ، فيقول : رُبّ فارسٍ داخلٍ فى شدائد الموت إذا حَلَفَ على ما يُكْرَهُ منه أو يكون كريهاً فى نفسه بَرَّ ولم يَحْنَثْ أنا فَعَلْتُ به كذا . ويُروى « مكروهةٍ » والمعنى خَصلةٍ تُكْرَهُ وتَشُقُّ . فعلى هذا يكون صفةً مُفْردةً عن الموصوفِ . ويجوز أن يكون مصدراً كالمصدوقة وما أشبهها من المصادر الجائية على زنَةِ المفعول . وأضاف المكروه إذا رويت « مكروهِهِ » إلى الفارس لوقوعه منه . والمنغمسُ : الداخِلُ فى الشّيء ، يقال غَمَسْتُه فى الماء وغيرِه ، ورَجُلٌ مُغامِسٌ للذى يغشى الحَرْبَ ويتردّد فيها . والغِمَارُ والغَمَرات جمع غَمْرَةٍ ، وهى فى الماء والحرب والشرّ ترجع إلى السَّتْر . ويقال رجل مُغَامِرٌ ، إذا ألقى نفسه فى الغمرات والمهالك . ورَوى بعضهم « فى غُمَارِ الموت » بضم الغين ، وكسرُها أجود مع ذكر المنغمِس .

(١) م : « آخر » فقط . وعند التبريزى وابن جنى : « وقال بلعاء بن قيس الكنانى » . وكان بلعاء هذا رأس بنى كنانة فى حروبهم ، وهو شاعر محسن . المؤلف ١٠٦ . ومات قبل يوم الحريرة ، وهو اليوم الخامس من أيام الفجار . العقد الفريد .

(٢) يروى « مكروهه » بالإضافة إلى الهاء ، و« مكروهة » بالتاء فى آخره .

٢ — غَشَّيْتُه وهو فى جَأْوَاء باسِلةٍ عَضْبًا أصابَ سَوَاءَ الرَّأسِ فانفلَقا

العَضْبُ : القَطْعُ ، وتوسَّعُوا فيه فقالوا : عَضَبَهُ عن حاجته ، أى حَبَسَهُ ، وامرأةٌ مَعْضُوبَةٌ أى معضولة[1] ، وسيْفٌ عَضْبٌ أى قاطع ، كأنّه وُصِفَ بالمصدر . والتغشّى أصله الإتيان والملابسة ، ومنه الغِشاوة : الغطاء . وتوسَّعُوا فيه حتى قيل تَغَشَّاهم بالعَدْل أو الجوْرِ . وفى القرآن : ﴿ إذْ يُغَشِّيكم النُّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ ﴾ . فقولُه غَشَّيْتُه ، هو كما يُقال قَنَّعْتُهُ ، وهو جَوَاب رُبَّ فارسٍ هكذا أنا ضربْتُهُ وهو فى جيشٍ تَامِّ السِّلاح كريه اللِّقاء ، بسيفٍ قاطع أصاب وَسَطَ رأسِه فَشَقَّهُ . والسَّوَاء : الوسط هاهنا ، وفى التنزيل : ﴿ فى سَواءِ الجحيم ﴾ . ويوضَعُ موضعَ المصدر ثم يوصَف به ، وفى التنزيل : ﴿ سَواءً للسائِلين ﴾ . وأصابَ ، بمعنى طَلَب وبمعنى نَالَ ، ويقالُ أصَبْتُ الصواب فأخْطَأتُه . والجأواء : الخضرة ، وهو من الجُؤْوَة ، يعنى اخضرار السلاح . والبَسالة تستعمل فى الناس وغيرهم ، وهى الشَّجاعة . ويقال رَجُلٌ باسل وأَسَدٌ باسِلٌ وبَسُولُ . قال :

* ما غَرَّكُم بالأَسَدِ الباسِلِ[2] *

وهذا يجوز أن يكون من البَسْلِ ، وهو الحرام ، كأنه لمنَّعه محرَّم .

٣ — بِضَرْبةٍ لم تَكُنْ مِنّى مُخَالَسَةً ولا تَعَجَّلْتُها جُبْنًا ولا فَرَقَا

يُقَالُ تَعَجَّلْتُ الشىء ، أى تكلَّفْتُه على عَجَلَةٍ . ويقال أيضا أعْجَلْتَه واستعجلته وتعجّلته بمعنًى . والخَلْسُ : أخْذ الشىء مخاتَلةً ، وقيل الاختلاسُ أوْحَى من من الخَلْسِ . ويقالُ هو لَكَ خُلْسةٌ ، كما يُقال نُهْزَةٌ وفُرْصَةٌ . يقولُ : غَشَّيْتُه

(١) أ معضولة ، ساقط من م .

(٢) لامرئ القيس . وصدره :

* قولا لدودان عبيد العصا *

سَيْفًا بأن ضرَبْتُه ضرْبَةً هكذا . فأمّا قوله لم تكن منى مُخَالسةً ، فهو خلاف قول الآخَر[١] :

وَقَدْ أَخْتَلِسُ الضَّرْ بَـ ـةَ لا يَدْمَى لهَا نَصْـلِى

وقول الهُذَلىّ[٢] :

* وَطَعْنَةِ خَلْسٍ قَدْ طَعَنْتَ مُرِشَّةٍ[٣] *

لأنّ قصْد الشاعر هاهنا إلى أنّه تناوَلَ من خصمه ما تناول بتثُّبتٍ وقوّة قلب لا كما يفعله الجَبانُ . وثَمَّ يذكُر تمكُّنَه من خَصْمه على شدّة احترازٍ منه حتّى تناول ما تناوَلَه خَلْسًا . وقد وُصِفَ الشجاعُ بالمخَالِس والخَلِيسِ ، وكذلك المُصارِعُ . ومن مَدَح خَصْمَه ثم ذكر غلبتَهُ له كانَ أبلغَ فى الافتخار به ، فاعرِفْ فرقَ ما بين المَوضعين . وقوله : « ولا تعجلتُهَا جُبناً ولا فَرَقا » يُؤَكِّدُ ما ذكرناه . وانتصاب « جُبْناً » على أنّه مفعول له ، وهو الذى يُسمَّى مصدراً لعلّةٍ . والمعنى : ولم أتكلَّف تَعَجُّلَتَهَا لضَعْفِ قلبى ولا لخوفى من صاحبى . وضَرْبَةُ الجبان أعجَلُ وأسرع .

٩

وقال رَبِيعة بن مَقْرُومٍ الضَّبِّىّ[٢]

١ — ولقَدْ شَهِدْتَ الخَيْلَ يومَ طِرَادِهَا بسَلِيمِ أَوْظَفَةِ القوائمِ هَيْكَلِ

اطِّراد الماء والسَّراب[٥] والكلام : اتِّساقُها على حدّ الاستقامة والمرادِ .

(١) هو الفند الزمانى ، أو امرؤ القيس بن عابس الكندى . انظر اللسان (دفنس) .

(٢) هو ربيعة بن الجحدر الهذلى . اللسان (محج) وشرح أشعار الهذليين للسكرى ٢٨٥

(٣) عجزه : * يمج بها عرق من الجوف قالس *

(٤) شاعر مخضرم ، ترجم له فى الشعر والشعراء ٢٧٩ والأغانى ١٩ : ٩٠ — ٩٣ والإصابة . وفى المبهج : « الربيعة : بيضة الحديد ، والربيعة أيضا : الحجر الذى يرتبع ، أى يشال : وأما مقروم فمفعول من قولك قرمت الشىء بأسنانى فهو مقروم ، أ مقطوع » .

(٥) فى الأصل : « والشراب » ، والوجه ما أثبتنا من م .

ويقال : جَدْوَلٌ مطّردٌ ، وبَلدٌ طَرّادٌ ، أى واسِعٌ يطّرد فيه السَّراب . وأراد بالخيل الفُرسانَ لا الأفراسَ ، ألاَ ترى أنّه قال « يوم طِرَادِها » . والطِّرادُ من الفُرْسَانِ : حَمْلُ بعضهم على بَعْضٍ . وعلى هذا ما روى عن النبي صَلّى الله عليه وسلم ، وهو « يا خَيْلَ الله اركبى » . والمعنى حَضَرْتُهم يوم تَطَارُدِهِمْ بالرِّماح وأنا على فَرَسٍ ضَخمٍ سليم الأوظفَة من العيوب . ولـ « شهدتُ » مَوْضِعَانِ : الحضورُ من قول الله تَعالى : ﴿ ولْيَشْهَدْ عذابَهُمَا طائفةٌ مِنَ المُؤمنينَ ﴾ . وقوله عزّ وجلّ : ﴿ ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمٰوات والأرضِ ﴾ ، وحينئذ يتعدى إلى مفعول واحدٍ . والعِلمُ والتبيين ، على ذلك قول الله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللهُ أنّه لا إلَهَ إلاّ هُوَ ﴾ ، وحينئذ يتعدّى إلى مفعولين . وقد يُقسَمُ به كما يُقْسَمُ بالعِلْمِ ، فيقال يشهدُ اللهُ كما يقال يَعلَمُ اللهُ . فأمّا شهادَةُ الشاهدِ فلا بدَّ من القول فيها . والهَيْكَلُ أصله فى البناء العظيم ، ثم وُصِفَ به الفَرَس .

٢ — فدَعَوْا نَزَالِ فكنتُ أوّلَ نازلٍ وعَلامَ أرْكَبُهُ إذا لم أنزلِ

قوله « دَعَوا نَزَالِ » أى صاحوا : نزال نزال . ومنه قيل لتطريب النائحة فى نِياحَتِها : التَّدَعِّى . وهذا كما قال الأعشى :

* قالُوا الطِّرَادَ فقلنا تلك عَادَتُنَا[1] *

وفى القرآن : ﴿ وآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العالمين ﴾ . ويجوز أنه يكونوا جعلوا نَزَالِ على التوسُّع هى المَدْعُوَّةَ وإن كانت دُعِيَ إليها ؛ ويَشْهدُ لهذا الوجه قولُهم[2] :

* دُعِيَتْ نَزَالِ ولُجَّ فى الذُّعْرِ[3] *

(١) عجزه : * أو تنزلون فإنا معشر نزل *

(٢) كذا فى النسختين .

(٣) لزهير بن أبي سلمى ، فى ديوانه ٨٩ . وصدره :

* ولنعم حشو الدرع أنت إذا *

وفى القرآن : ﴿ دَعَوْا هُنالِكَ ثُبورًا . لاَ تَدْعُوا اليومَ ثُبورًا واحدًا وادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾ . ونزالِ : اسمٌ لانْزِلْ ، مَبنيٌّ على الكسر ، معرفةٌ مؤنّث معدول . والدلالة على تأنيثه قول زهير :

* دُعِيَتْ نَزَالِ ولُجَّ فى الذُّعرِ *

والمعنى تنادَوْا وقالوا نَزالِ فكنتُ أوّلَ النازلين . ثم قال مظهرًا لترك التحمُّد بذلك ، وأنّه فيما فعله كمن أدّى واجبًا عليه : « وعلام أركبُه » . المعنى لأيِّ شيء أركب فرسى إذا لم أنزل إذا دُعيتُ إلى النِّزال . و « ما » من « عَلاَمَ » حُذف ألِفُهُ لأنّه فى الاستفهام إذا اتَّصل بحرف الجر يخفَّف بالحذف[(١)] ، على ذلك بِمَ ولِمَ وفيمَ وعَمّ ومِمّ ، إلا إذا اتَّصل بذا فيقال بماذا ولماذا ، لأنَّه يصير ماذا كالشَّىء الواحد فلا يغيِّر « ما » ، وقوله « وعلام أركبُه إذا لم أنزل » يجرى مجرى الالتفاتِ ويقاربُه ، وفائدتُه أنّه أسقط التحمُّد بما فعله به . وفى طريقته من جهة المعنى قولُ الآخَر :

ولا يَحْمَدُ القومُ الكرامُ أخاهُمُ الـ ... ـعتيدَ السِّلاحِ عنهم أن يمارِسَا

ومثل الأوّل قوله :

عَلاَمَ تقولُ الرُّمْحَ يُثْقِلُ سَاعِدِى ... إذَا أنا لم أَطْعُنْ إذا الخَيْلُ كَرَّتِ[(٢)]

٣ — وأَلدَّ ذِى حَنَقٍ عَلَىَّ كأنَّما ... تَغْلِى عَدَاوَةُ صَدْرِهِ فى مِرْجَلِ

أَخرجَ التشبيهُ ما لا يُدْرَكُ من العداوة بالحسّ إلى ما يُدْرَكُ من غَلَيَانِ

---

(١) وأحيانا لا يحذف ، وقرئ : « عما يتساءلون » . وأنشدوا لحسان :

على ما قام يشتمنى لئيم ... كخنزير تمرغ فى رماد

انظر حواشى البيان (٣ : ١٢٥) .

(٢) لعمرو بن معديكرب . الحماسية ٣٠ .

القِدْرِ ، حَتَّى تَجَلَّى ، فصارَ كالمشاهَد[١] . والألَدُّ : الشديد الخصومة . كأنه لَدَّ بالخصومة ، أى أُوجِرَ فَلُدَّ بِهِ . ولذلك كان اللَّدَدُ مصدر ألَدّ . ويقال فى معناه ألَنْدَدٌ[٢] . والحَنَقُ : شِدَّةُ الغيظ ، يقال أحْنَقَهُ فَحَنِق ، يقول رُبَّ خَصْمٍ شديد الخصومة ذى غيظٍ وغضبٍ علىَّ تغلى عداوتُه لى فى صدره غليانَ المِرجل بما فيه إذا كان على النار ، أنا دفعتُه عن نفسى . وجواب رُبّ هو صدر البيت الثانى . والحَنِقُ يجوز أن يكون من اللُّزوق ، كأنّ الحقد لزِق بصدره ، ومنه يقال أحْنَقَتُ الدابّةَ ، إذا ضَمَّرتَه .

٤ — أَرْجَيْتُهُ عَنِّى فَأَبْصَرَ قَصْدَهُ وَكَوَيْتُه فوق النواظِر من عَلِ[٣]

ذكر بعض المتأخرين فى أرجَيْتُهُ ، أن الرِّواية الصحيحة « أوْجَيْتُهُ » وما عداه تصحيف . قال . وهو أفعلته من الوَجَى ، وإنما أوجب ذلك ليكون لِفْق قولِه بزُعْمِهِ : « وَكَوَيْتُهُ » . والمعنى أذْلَلْتُهُ ورددْتُه رازِحًا كرُزوح الفَرَس الوَجِى . ثم أنشد قول طَرَفَة مُؤَنِّسًا به :

وقَوْمٍ تَنَاهَوْا عن أذَاتِىَ بعدما أصاب الوجَى منهم مُشَاشَ السّنابِكِ[٤]

قال الشَّيخ : ولقد قضيتُ العَجَبَ من هذا المُسْتَدْرِكِ ، ومن ضَلالِهِ عن طريق الرَّشادِ فيما قَصَدَهُ من المعنى ، ورواه فى الاستشهاد ، وذلك أنّ شعر طَرَفَةَ إنما هو :

---

(١) هذا ما فى م . وفى الأصل : « كالمشاهدة » .

(٢) ويقال يلندد أيضا .

(٣) ابن جنى : « أكثر من ترى يروى هذا البيت أرجيته بالراء ، فإذا تعالى شيئا رواه أوجأته ، وكلاهما تصحيف ، وإنما هو أوجيته بالواو ، أى ذللته وقهرته . كذلك رويناه وكذلك وجدته أيضاً فى شعر القبيلة » .

(٤) ديوان طرفة ٥٦ بهذه الرواية عينها فى نهاية القصيدة . قال صانع ديوانه : « ولم يرو الشنتمر هذا البيت » .

ومازَالَ شُرْبِي الرَّاحِ حَتَّى أَشَرَّنِى صَدِيقى وحتَّى ساءنى بعضُ ذَلِكَ[(١)]
وحتَّى يقولَ الأقربُونَ نَصَاحَـةً دَعِ الغيَّ واصرِمْ حَبْلَهُ من حِبَالِكَ[(٢)]
وحتَّى تناهَوْا عن أذاتِىَ بعد ما أصابَ الوَجَى منهم مُشَاشَ السّنابِكِ

فقوله : « حتى تناهَوْا » ليس مما فَسَّره واستشهد له بسبيلٍ ، إنما يُرِيدُ طَرَفَة أنه أَبْعَدَ غايته فى الخسارة ، وتمادَى فى تعاطى الصِّبا والجَهالة ، فلم يُصِخْ لناصحٍ ، ولم يَرْعَوِ لعاذلٍ ، حتَّى نَفَضُوا أيديهم من إنابَتِه ، ويَئسوا من قَبُولِهِ وإعتابه ، فألقَوا حَبْلَهُ على غَارِبِهِ : وصاروا من بين ناسبٍ له إلى الشَّرِّ ، ومسىء إليه فى القولِ ، وقاذفٍ إيَّاهُ بالغَىّ ، فأفْضَتْ بهم الحال إلى أنْ تناهَوْا بعد أن بَلَغ منهم العناء كلَّ مبلغ ، وأثّر فيهم الإعياء والإحْفَاء أشَدَّ تأثير . ألا ترَى أنه جَعَلَ الوَجَى فى المُشَاشِ من السّنابِكِ منهم . فهذا ما عليه فى الرواية ، والذَّهابِ عن طريقة الشاعر . وبَعْدُ فإنَّهُ لا يقال أوجَيْتُ الدّابةَ عنِّى ويُراد الإحفاء ، ولم يُسْمَع فى التّذليل ذكر الحَفَى والوَجَى مُسْتَعَارًا كما سُمِعَ السَّكُّ والوَسْمُ فيه . وبُعْدُ الغَوْصِ[(٣)] لا يُدْرَى على ماذا يَهْجُمُ بصاحبه . والرواية الصحيحة « أرْجَأْتُهُ » و « أَرْجَيْتُه » وهما لُغتان ، والهَمْزُ أفصَحُ . قد قُرِئَ : ﴿ تُرْجِئُ من تشاء مِنْهُنَّ ﴾ و ﴿ تُرجِى ﴾ . ويُروى : « أوحَيْتُه » ، ويروى : « أزجيتُه » والمعانى تتقاربُ[(٤)] فى الكل . يقول : رُبَّ خَصْمٍ هكذا أنا وحَّيْتُه[(٥)] عن نفسى وصرفْتُه ، وقد أبْصرَ رُشْدَهُ ، وعرَف مقدار نفسِه ، فعاد إليه بعد أن كان يشتطُّ فيما له ، ويتغابَى عما عليه . والقَصْدُ : ما لا سَرَفَ فيه ، ولذلك قيل اقتَصِدْ فى

(١) ديوان طرفة ٥٥ واللسان (شرر) مع تحريف . أشره : نسبه إلى الشر .
(٢) الديوان : « ذر الجهل واصرم حبلها » .
(٣) م : « الغرض » .
(٤) م : « والمعنى يتقارب » .
(٥) وحاه توحية : عجله .

كذا . وطريقٌ قاصِدٌ ، إذا كان على حَدِّ الاستواء . ومن كلامهم : ضَلَّ عن قَصْد الطريق ، كما قيل : ضَلَّ عن سواء السَّبيل . قال الراجز[١] :

إنّى إذا حَارَ الجبانُ الْهُدَرَهْ[٢] رَكِبْتُ من قصد الطريقِ مَنْجَرَهْ[٣]

وقوله : « وكويْتُه فوق النَّواظر » ، يشبهه قول الآخر[٤] :

ولَوْ غَيْرُ أَخْوَالِي أرادُوا نقيصتي جَعَلْتُ لَهُمْ فوق العَرانينِ مِيسَمَا

أى كَوَيْتُهُ مِنْ عَلِ فوق نَاظِرِه ، أى وَسَمْتُه بِسَمةٍ من الذّلِّ اشتهر بها ، ولم يمكنْه إخفاؤها . ويقال لمن يُتوعَّد بالإذلال والتَّشويه : لأَسِمَنَّك وَسْماً لا يفارِقُكَ . ولذلك قال جرير :

لمَّا وَضَعْتُ على الفرزدق مِيسَمِى وضَغَا البَعيثُ جَدَعْتُ أنفَ الأخطلِ

وكما يجعلون هذه السِّمة فى الجبين يجعلونها فى الأنف ، ولذلك قال الأعشى :

* أَنْفَ مَنْ أَنْتَ وَاسِمُ[٥] *

وفى القرآن : ﴿ سَنَسِمُهُ على الخُرْطُوم ﴾ . فإن قيل : لم أتى بقوله من عَلِ ، وقد قال فَوْقَ النواظر ويُعْلَم منه أَنَّهُ أعلى ؟ قيل : إنّ التقدير كَوَيْتُه من علِ فوقَ النواظر ، أى من أعْلاَه فوق ناظره ، وفيه التّقديم والتأخير ، ولو سكت عَلَى من عَلِ لكان يجوز أن يكون فوق النَّواظر ودون النَّواظر ، لـكنه بيَّن أنّ قَصْدَهُ إلى الجبين بميسمه . والمعنى شَهَرْتُه بإذلالى ، ووَسَمْتُه بكَيِّى حيثُ يظهر للناظرين ولا يخفى . وانتصاب « فوقَ » يجوز أن يكون على البَدَلِ من الضمير فى كويتُه ،

(١) هو الحصين بن بكير الربعى . اللسان (هدر) .

(٢) الهدرة كهمزة : الساقط . ويروى : « الهذرة » بالذال المعجمة ، وهو بالمهملة أجود .

(٣) المنجر : الطريق المستقيم . اللسان (هدر ، نجر) . م : « منحره » .

(٤) هو المتلمس . ديوانه نسخة الشنقيطى .

(٥) قطعة من بيت له يرو كاملا فى ديوانه ٥٧ ، بل روى على هذه الصورة الناقصة :

. . . . . يغنيك واعمد لغيرها بشعرك واعلب أنف من أنت واسم

لأن « فَوْقَ » من الظُّروفِ المتمكنة . ويجوز أن تجعلَه ظرفاً تُرِيدُ كَوْنَه في هذا المكان مما علا مِنْهُ . وإنما لم يَبْنِ من علٍ لأنّه جَعَلَهُ نكرةً ، كما تقُولُ أتَيْته قَبلاً أي أوّلا ، وأنْتَ لا تَقْصِدُ إلى أنه مُضَافٌ إلى مَعرِفَةٍ مخصوصةٍ ، فاعلمه . ومنه[1] :

* كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْل من عَلِ[2]

فالكسرة في الموضعين كسرة إعراب ، وإن شئت جعلته معتلَّ الآخِرِ لا مَنْقُوصاً كشَجٍ وقَاضٍ ، وجعلتَهُ في النِّيَّةِ مُضَافاً ، فيكون مَعْرِفَةً وتنوى ضَمّة البناء في موضع لامه ، كما تنويها في الياء من قَاضٍ وغازٍ إذا ناديت بهما واحدًا بعينه . وفي عَلِ لُغَاتٌ كثيرةٌ ، وله نَحْوٌ في البناء والإعراب لَيْسَ لأخواته من الغايات ، وليس هذا موضعَ شرحه .

١٠

وقال سَعْدُ بن نَاشِبِ بن مَازِنِ بن عَمْرو بن تميم[3] :

١ — سَأَغسِلُ عَنّي العارَ بالسَّيْفِ جَالِبا عَلَيَّ قضاءَ اللهِ ما كان جَالِبَا

القضاء ، أصله الحَتْمُ والإيجاب ، ثم يستعمل في إكمال الصُّنْع والفَراغ من الشيء . ولهذا قيل قُضِيَ قضاؤُكَ ، أي فُرِغَ من أَمْرِكَ . وفي القرآن : ﴿ فقضاهُنّ سَبْعَ سَمواتٍ ﴾ . ويروى : « قضاءَ اللهِ » بالرفع والنصب ، فإذا رفعتَه فإنه يكون

(١) م : « ومثله » . والبيت التالي لامرئ القيس في معلقته .

(٢) صدره : * مكر مفر مقبل مدبر معا *

(٣) شاعر إسلامي ، كان من شياطين العرب ، وهو صاحب يوم الوقيط في الإسلام بين تميم وبكر بن وائل . الشعر والشعراء ٦٧٧ والخزانة (٣ : ٤٤٤ — ٤٤٦) واللآلي ٧٩٢ — ٧٩٤ . وفي شرح التبريزي : أنه كان أصاب دما فهدم بلال داره .. واشتقاق « ناشب » من قولهم رجل ناشب ، أي ذو نشب .

فاعلا لِجَالباً عَلَيّ ، وما كان جَالِباً فى موضع مَفْعولِه(١) ، ويكون القضاء بمعنى الحكم . والتقدير : سأغسل العارَ عن نفسى باستعمال السَّيف فى الأَعْدَاء ، فى حال جَلبِ حكمِ الله علىّ الشىء الذى يجلبه . وإذا نَصَبَ القضاء فإنه يكون مفعولاً لِجَالِباً وفاعِلُهُ ما كان جَالِباً ، ويكون القضاء الموت المحتوم والقَدَر المقدور ، كما يقالُ للمَصِيدِ الصَّيْدُ ، وللمَخلُوق الخلقُ . والمَعنَى جَالِباً المَوْتَ عَلَيَّ جالِبُهُ . وذَكَرَ بعضُهم أنّ « كان » من قوله ما كان جَالِباً فى مَعنى صار . قال : ومثله :

بِتَيهَاءِ قَفْرٍ والمَطِيُّ كأنَّهُ قَطَا الحَزْنِ قد كانت فِرَاخًا بيوضها(٢)

لأن المعنى قد صارت .

٣ — وَأَذْهَلُ عَنْ دَارِى وأَجعَلُ هَدْمَهَا لِعِرْضِىَ مِنْ باقِى المَذَمَّةِ حَاجِبَا(٣)

الذُّهول : تَرْكُ الشّىءِ متناسيًا له ومتسلِّيا عنه ، ومنه اشتقاق ذُهْلٍ . يقول : إذا ضاق المنزلُ بى حتى يصيرَ دارَ الهوان انتقلت عنه ، وأَجْعَلُ خَرَابَهُ وقاية للنَّفس(٤) من العار الباقى ، والذَّمِّ اللاحق . وهذا قَرِيبٌ من قوله :

* وإذا نَبَابِكَ مَنْزِلٌ فتحوَّلِ(٥)

وهو ضدّ المعنى الذى يقصِدونه بالثَّبات فيه والصَّبرِ عليه ، من الإقامة فى دار الحفاظ والافتخار به ، لأنّ الانتقال ثَمَّ هو الجالب للعار ، كما أن الأقامة هنا هو الجالب . فمن ذلك قوله :

(١) م : « مفعولة » .

(٢) البيت لابن أحمر فى اللسان (كون) . ونسبه ابن يعيش فى شرح المفصل إلى ابن كنزة . ويروى : « كأنها » .

(٣) انظر الإشارة إلى هدم بيته فى ترجمته السالفة .

(٤) م : « لنفسى » .

(٥) لعبد قيس بن خفاف التميمى ، كما فى حماسة البحترى ١٧٩ . وصدره :

* احذر محل السوء لا تحلل به *

وتُقيمُ فى دارِ الحفاظ بيُوتُنا زَمنًا ويَظعَنُ غيرُنا لِلأَمْرُعِ[(١)]

ومنه قوله :

يُقال مَحبِسُها أَدنَى لمَرتَعِها وإنْ تعادَى بِبَكْءٍ كُلُّ مَحلُوبِ[(٢)]

وفى ضِدِّه قولهُ :

دَارُ الهَوانِ لِمَنْ رآها دارَهُ أفَراحلٌ عنها كَمن لم يَرحَلِ

وقول الآخر :

ولَسْنَا بمُحتلِّينَ دَارَ هَضِيمَةٍ مَخافَةَ مَوتٍ إن بِنا نَبتِ الدَّارُ

وانتصبَ « حاجبا » على أنه مفعولٌ ثانٍ لأَجْعَلُ ، لأنه بمعنى أُصَيِّرُ . والتقدير : أجعل هَدْمَها حاجِبًا لِعِرْضِى ، ومانِعاً من باقى الذَّمّ . ولـ « جعلت » غيرَ هذا مواضعُ ، يكون بمعنى خَلَقْتُ وأنشأت فيتعدّى إلى مفعولٍ واحد ، كقول الله تعالى : ﴿ وجَعَلَ الظُّلماتِ والنُّورَ ﴾ ؛ ويكون بمعنى سَمَّيْتُ ، كقوله تعالى : ﴿ وجَعَلُوا الملائكةَ الذينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمٰنِ إناثًا ﴾ ؛ ويكون بمعنى ظَنَنْتُ ، تقولُ : جَعَلتُه عَبْدًا وشتَمْتُهُ ، أى ظَنَنْتُه ؛ ويكون بمعنى طَفِقَ فلا يتعدّى . تقول : جَعَلَ يُكَلِّمُهُ ، أى أقْبَلَ . وعلى هذا قوله :

جَعَلْتُ وما بِى مِنْ جَفاءٍ ولا قِلًى[(٣)] أزورُكُمُ يَوْمًا وأَهْجُرُكم شَهْرا

٣ – ويَصْغُرُ فى عَيْنِى تِلادِى إذا انْثَنَتْ يَمِينِى بإدْراكِ الذى كُنت طَالِبَا

أراد بقوله « يصغُر » صِغَر القدر وخِفّته ونَزارَتَهُ فى الهمِّ والفِكْرِ .

---

(١) للحادرة الذبيانى فى المفضليات (١ : ٤٣) . و « للأمرع » ضبطت فى الأصل بضم الراء وفى م بفتحها ، وهما روايتان .

(٢) لسلامة بن جندل فى المفضليات (١ : ١٢٢) .

(٣) فى الأصل : « عن جفاء » ، والوجه ما أثبتنا من م .

وخصّ « التلاد » وهو المَالُ القديم ، لأنَّ النفس بمثله أضَنُّ ، وبه أنْفَس ، وله أَضْبَطُ . نبّه بهذا الكلام على أنه يَخِفُّ على قَلْبِه تَرْكُ الدار والوَطن خوفاً من التزام العار ، كذلك يقلُّ فى عينه إنفاق المالِ عند انصراف اليدِ حائزةً للمطلوب ، جامعةً له . وجوابُ « إذا » قُدِّم عليه وهو قوله « يَصْغُرُ » ، فأمّا قوله « كنت طالِباً » ، فقد حُذِف منه الضمير العائد إلى الذى ، والتقدير كنت طَالِبَهُ .

٤ — فإنْ تَهدِموا بالغَدْرِ دارِى فإنّها تُراثُ كَرِيمٍ لا يُبَالِى الْعَوَاقِبَا

الهَدْمُ : القَلْعُ والتخريبُ ، ويسمَّى المهدوم هَدَمًا . قال :

* كأنَّهُ هَدَمَ فى الجَفْرِ مُنْقَاضُ[1] *

وتوسعوا فيه فقيل للثوب الخَلَقِ هِدْمٌ ، وجمْعه أهدَامٌ . وقيل عَجُوزٌ متهدّمة أى هَرِمَةٌ فانِيَة . وتَهدَّمَ عليه من الغَضَب ، كما يقال تَهجَّمَ . والغَدْرُ : تَرْكُ الوفاء ، ومنه غادرتُهُ ، والغدير . وكأنَّ هذا الرجل كان أخلَّ بدارِه لنائبةٍ نابَتْهُ[2] فصار يخاطِبُ أعداءهُ ويريهم قِلةَ فِكرِه فيما تجرى عليه أحواله من جهتهم ، وفيما تُفْضِي عواقبُ أمرِه إليه معهم ، فيقول : إنْ تخرِّبوا دارِى غدْرًا منكم فإنّها ميراث رَجُلٍ هكذا ، ويعنى بِهِ نَفْسَهُ ، وسَمَّى مِلْكَهُ ميراثاً وهو حَىٌّ ، والمعني أنّه سيُورَثُ ، وهذا تسمية الشَّىء المتنقّل فى أيدى مُلاكه والمتصرّفين فيه على التشبيه : ميراثاً ، وإن لم يتنقَّل بالأسباب والأنساب . على ذلك قول الله عزّ وجل : ﴿ وللهِ مِيراثُ السَّموات والأرض ﴾ ، وقولُه : ﴿ وأورثَكُم أرْضَهُم وديارَهُمْ وأموالَهُمْ ﴾ . وتُراث ، أصله وُرَاثٌ ، والتاء فيه كالتاء فى تُكأةٍ وتُخَمَةٍ . وقوله : « تُرَاثُ كَريمٍ » أراد بالكَرَمِ التنزُّه عن

---

(١) فى الأصل : « منفاض » ، صوابه فى م واللسان (هدم) . وصدره :

* تمضى إذا زجرت عن سوأة قدما *

(٢) انظر ما سبق فى ترجمته من هدم بلال داره .

الأقذار ، والتَّباعُدَ مِن جوالِبِ العار : على ذلك قول الله تعالى : ﴿ وإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ . وقوله : « لايبالى العواقبا » يقال : ما بَالَيْتُه بَالَةً وبالِيَةً ومبالاةً وبِلاء ، وما باليت به . وكأنه أُخِذَ من البَلاَءِ ، واستعمل فى المفاخَرَةِ وتَعدَادِ الخِصال الحسَنَة عند المُنافَرَةِ ، ثم كَثُر استعماله حتَّى صار يُقَالُ فى الاستهانة بالشَّىء . ويشهد لهذا الذى قلناه قولُ الآخر :

مَالِى أَرَاكَ قائمًا تُبَالِى وأنتَ قد مُتَّ من الهُزَالِ[1]

أى تفاخر .

٥ — أخِي عَزَماتٍ لا يُرِيدُ عَلَى الّذى يَهُمُّ به من مَقْطَعِ الأمْرِ صَاحِبَا

يقال : ما له عَزْمٌ وما له عَزِيمَةٌ ، أى تَثَبُّتٌ وصبرٌ فيما يعزِم عليه . وحقيقة العزْم : توطين النَّفس وعَقْدُ القلب على ما يُرَى فِعْلُه ، ولذلك لم يَجُزْ على الله عزّ وجلّ . والاعتزامُ : لزوم القَصْدِ وترك الانثناء ، ولذلك قيل اعتَزَمَ الفرسُ على الجرى . يصف نفسَه بأنّه صاحب همٍ وأخو عَزَمَاتٍ ، مستبِدٌّ برأيه فيها غيرُ متّخِذٍ رفيقًا ، ولا مستنصرٍ أخًا وصديقًا . و « مَقْطَعُ الأمْرِ » أراد فَصْلَه والخروج منه . ويُرْوَى : « أخِي غَمَرَاتٍ » وهى الشدائد . ويُروى : « من مُفْظِعِ الأمر » وهو من فَظُعَ الأمْرُ وأَفْظَعَ ، فَظَاعَةً وإفْظَاعًا ، وهو فَظِيعٌ ومُفْظِعٌ . أو من أَفْظَعَنِي الأمْرُ فَفَظِعْتُ به ، أى أعيانى فضِقْتُ به ذرعا . وقوله : « صاحِبا » صِفَةٌ فى الأصل استُعْمِلَتْ استعمالَ الأسماءِ ، فلم يَجْرِ مَجْرَى أسماء الفاعلين ، ويَجرى على طريقته قولُهم والِدٌ .

٦ — إذَا هَمَّ لم تُرْدَعْ عَزِيمَةُ هَمِّهِ ولم يَأْتِ ما يأتى من الأَمْرِ هَائِبَا

الهَمُّ : ما تُجِيلُ لِفعله وإيقاعه فِكْرَكَ . والهِمَّةُ : اسم الحالة التى تكون

(١) أنشد الرجز فى اللسان (بلا) .

عليها فى ذلك . ويقال فى المَثَلِ لمن يُعيَّر[1] بطول الأَمَل : « تَهُمُّ ويُهَمُّ بك » ، ومنه المُهِمَّات ، وهذا يخبر عن نفسه بأنّه يتبع الرأى الأوّل . وهذا طريقة الفُتَّاكِ لأنّ الرجوع عن الرّأْى إلى غيره طريقةُ من يتدبَّرُ العواقب فيَترك[2] الشَّيء إلى الشيء لما يرجُوهُ من حُسْنِ المَآب . فقال : إذا هَمَّ هذا الرجل بشىء أنفَذَ عزيمَتَهُ ولم يَرْدَعْهَا ، ولم يَفْعل ما يفعله خائفاً . ومثله قول الآخر :

جَسُورٌ لا يُرَوَّعُ عِنْدَ هَمٍّ ولاَ يَثْنِي عزيمَتَه اتِّقاء

ويقال : رَدَعْتُه فَارْتَدَعَ ، أى كَفَفْتُه ورددته رَدْعًا . ومنه الرُّدَاع فى العِلَّةِ وهو النُّكْسُ ، يقالُ رُدِعَ رَدْعًا ورُدَاعًا . والهَيْبَةُ تكون من الذُّعْرِ ومن الإجلالِ جميعاً ، ويقال للجبان هَيُوبُ وهَيُوبَةٌ ، والهاء للمبالغة ، وللمحتشَم مَهِيبٌ . وفى الحديث : « الإيمانُ هَيُوبٌ » . ويقال : تهيَّبْتُ الشىءَ وتهيَّبَنى بمعنًى ، لمَّا كان لا يَلتَبِس ، ومثله من المقلوب كثير .

٧ — فيالَ رِزامٍ رَشِّحُوا بى مُقدِّمًا إلى المَوْتِ خوّاضاً إليه الكتائبا[3]

ويروى : « الكرائبا » . الفاء من قوله « فيالَ رِزَامٍ » النِّيَّةُ بها استئناف ما بعدها وإن نُسِقَ بها جملةٌ على جملة . واللامُ من يال رِزَام ، هو لامُ الاستغاثة ، ورِزَامٍ ينجرُّ به وهم المدعوُّون . وأصل حركة لام الإضافة إذا دَخَل على ظاهرٍ الكسر ، ولهذا إذَا عُطِف على هذه اللام بلام أخرى كُسِرَت الثانية ، تقولُ : يالَزيدٍ لِعمرو ، ولكن هذه فُتِحَتْ لكون ما بَعْدَها مُنادًى ، ووقوعِ المنادَى على هذا الحدّ موقعَ المضمرات ، فكما قيل لكَ وله ، قيل يالَزَيْد . وقوله « رشِّحوا بى مقدِّما » بكسر الدال بمعنَى متقدِّما ، فهذا كما يقال وَجَّهَ بمعنى توجَّه ، ونَبَّه بمعنى تنبَّه

(١) كذا فى النسختين . وليست « يغتر » .
(٢) فى الأصل : « فينزل » ، ووجهه من م .
(٣) ابن جنى : « هذا البيت شاهد على إعمال فعال إعمال اسم الفاعل » .

ونكَّبَ بمعنى تَنَكَّب . وعلى هذا قولهم مُقَدِّمة الجيش ، ومن فتح الدال فالمعنى على أنّه يُقدَّم ليقيَهُم بنفسه . « خَوَّاضاً إليه الكتائبا » ، انتصب الكتائب على أنه مفعول خوّاضٍ . ويُروى « الكرائب » وهى الشدائد جمع كَرِيبَة ، والأصل فى الكَرب : الغَمّ الذى يأخذ بالنَّفَس . والتَّرشيح أصله التَّنْبيت والتَّربية ، ومنه قيل رَشَّحَتِ المرأةُ ولدَها إذا درَّجْتهُ فى اللَّبَنِ ، ثم قيل رُشِّحَ فلانٌ لكذا ، توسُّعاً . ومعنى البيت : يا بنى رِزام هَيِّئُوا بى رَجُلاً يَتقدَّم إلى الموت ولا يَحيد عنه ، مقتحِما الجيوش والشدائد غير متنكِّب ولا حائد . ويروى : « رَشِّحوا بى مُقْدِماً » ، وتلخيصه : رَشِّحوا بترشيحكم رجلاً هذه صفتُه ، فأقام الصّفةَ مقام الموصوف .

٨ – إذا همَّ ألقَى بينَ عينَيْهِ عزْمَهُ وَنَكّبَ عن ذِكرِ العواقِبِ جانبا[١]

قوله : « ألقى بين عينيه عزمَه » ، أى جعله بمرأًى منه لا يغفُل عنه ، وقد طابق فى المعنى لَمّا قابَل قولَهُ ألقَى بين عينيه عزمَهُ ، بقوله : نَكّبَ عن ذكر العواقب جانبا . ومثْله قول الآخَر :

* ولا ناظِرٌ عند الوَغَى فى العواقِبِ *

وانتصب «جانباً» على أنه ظَرْفٌ . وَنكّب يكون بمعنى تنكَّب . والمعنى أنَّه إذا هَمَّ بالشىء جَعَلَهُ نَصْبَ عينيه[٢] إلى أن ينفُذ فيه ويخرج منه ، ويصير فى جانبٍ من الفكرِ فى العواقب . ويجوز أن ينتصبَ جانباً على المفعول ، ويكونُ نَكّب بمعنى حَرَّف . والمراد انحرفَ عن ذكر العواقب وطَوَى كَشْحَهُ دُونَهُ . وسمَّى المعزوم عليه عَزْماً على عادة العرب فى وصف الفاعل والمفعول بالمصادِر .

(١) مثله ما أنشده له البكرى فى اللآلى ٧٩٣ :

إذا هم ألقى بين عينيه عزمه وصمم تصميم السريجى ذى الأثر

(٢) كذا ورد فى النسختين ، بفتح النون ، وهو من أخطائهم ، والصواب ضم النون . وفى اللسان : « القتيبى : جعلته نصب عينى بالضم ، ولا تقل نصب عينى » ، يعنى بالفتح –

٩ ــ ولم يَسْتَشِر فى أَمْرِهِ غَيْرَ نَفسِهِ ولم يَرْضَ إلاَّ قائمَ السَّيْفِ صَاحِبَا

مِثلُ المِصراع الأول قول ابنِ هَرْمَةَ :

* ولاَ ينْتَجِى الأَدْنَيْنِ فيما يُحَاوِلُ *

ويقارب الثانى قول الآخر :

* فَفِى السيفِ مَوْلًى نَصْرُهُ لا يُحَارِدُ *

والشاعر يصف استبدادَه وتفرّدَه عند ما يَدْهَمُه بما يأتيه[1] فِعْلاً ورَأْياً . وإنّما نبَّهَ على الرأى بقوله : « لم يَسْتَشِرْ » ، وعلى الفعل بقوله : « ولم يَرْضَ إلا قائمَ السّيف صاحبا » . وانتصبَ قائم على أنّه استثناء مقدّم . ألا تَرَى أن الأصل ولم يَرْضَ صَاحباً إلا قائم السيف . ولو أتى على هذا لـكانَ الوجْهُ أن يكون بَدَلاً ، فَقَدَّم المستثنى كما ترى .

١١

وقال تَأَبَّطَ شَرًّا[2] :

١ ــ إذا المرءُ لم يَحْتَلْ وقد جَدَّ جِدُّه أَضَاعَ وقَاسَى أَمْرَهُ وَهْوَ مُدْبِرُ

قولُه « لم يَحْتَلْ » ذهب بعضُهم إلى أن الحيلة مأخوذة من قولهم حَالَ الشىء ، أى انقلبَ عن جهتِهِ[3] ، كأنّ صَاحِبَها يريد أن يستنبط ما يَحُولُ[4] عند غيره

(١) هذا ما فى م . وفى الأصل : « وما يأتيه » .

(٢) هو ثابت بن جابر بن سفيان الفهمى ، وسمى تأبط شراً لأنه تأبط سيفا وخرج فقيل لأمه : أين هو ؟ فقالت : تأبط شراً وخرج ، وهذا أشهر ما قيل فى سبب تلقيبه . وكان أحد لصوص العرب المغيرين ؛ قرينا للشنفرى وعمرو بن براق . الشعراء ٢٧١ وشرح الأنبارى للمفضليات ١ ــ ٢ ، ١٩٥ ــ ١٩٦ والأغانى ١٨ : ٢٠٩ ــ ٢١٨ والاشتقاق ١٦٢ ــ ١٦٣ ــ والخزانة ١ : ٦٦ ــ ٦٧ واللآلى ١٥٨ ــ ١٥٩ .

(٣) م : « عن وجهة » . (٤) يحول بالحاء كما فى النسختين ، ولعلها « يجول » .

ولذلك قيل : فُلانٌ حُوَّلٌ قُلَّبٌ . وقولُه « جَدَّ جِدُّهُ » أى ازداد جِدُّه جِدًّا . ويكونُ مثلَ قولِه :

* حتى أستَدقَّ نُحولُها *

المعنى ازداد دَقيقُها دِقَّةً ، ويجوز أن يكونَ المعنى صار غَيْرُ الجِدّ جِدًّا بمآله[١] ، وهذا كما يُقال رِيعَ رَوْعُه ، وخَرجتْ خوارجُه ، وجُنَّ جُنونُه ، وقال الهُذَلِى :

* يُذْعَوْنَ حُمْسًا ولم يَرْتَعْ لَهُمْ فَزَعُ *

وإنما هو ريع أَمْنُه ، وخرجت دَوَاخِلُه ، ولم يَرْتَعْ لهم أَمْنٌ . فَسَمَّى الشىء بما آل إليه . وقولُه « أَضاعَ » يجوز أن يكون معناه وَجَد أمرَه ضائعاً ، ويجوز أن يكون بمعنى ضَيَّع . ويقال : ضاع الشىء ضَيْعةً وضَياعاً ، وتركهم بضَيْعَةٍ ومَضِيعةٍ . وإذا أَخَذ الرجُلُ فيما لا يَعْنيه ، قيل : فَشَتْ عليه الضَّيْعة . ويقاربه قولهم :

* اتَّسع الخَرْقُ على الرَّاقع[٢] *

وقوله : « وهو مُدْبِرُ » يجوز أن يكون الضمير للأَمْر ، والمعنى قاسَى أمرَه ، أى شقِىَ به وهو مُوَلٍّ فائتٌ . ويجوز أن يكون الضمير للمرء ، والمعنى عالَجَ أمرَه وكابَدَه مُدْبِراً فيه غيرَ مُقْبِلٍ ولا مَنْصورٍ ، ومعنى البيت إذا الرجُل لم يَطلُب رشده ولم يُنْفِذ الحيلةَ فى إصلاح أمرِه ، فى الوقت الذى يجب أن يَفعَلَه ،

(١) م : « بما آل إليه »

(٢) عجز بيت لشقران السلامى فى المجتنى لابن دريد ٧٨ ، أو لابن حمام الأزدى فى المؤتلف ٩٢ . وصدره :

* كنا نداريها فقد مزقت *

ونحوه قول أبي عامر جد العباس بن مرداس ، فى العينى (٢ : ٣٥١) :

لا نسب اليوم ولا خلة اتسع الخرق على الراتق

وقد صار الأمر جِدًّا لا شُبْهَةَ فيه ، عالَجَه وهو هكذا ، أو عالجه والأمر هكذا . ومثله :

ولكنَّ مَن لا يَلق أمراً يَنُوبُه بِعُدَّتِه يَنزِلْ به وهو أعزَلُ

٢ ـ ولكنْ أَخُو الْحَزْمِ الذى ليسَ نازِلاً به الخطْبُ إلاَّ وهْوَ لِلْقَصْدِ مُبْصِرُ

السائرُ عنهم فى مَثَلٍ قولُهم : « رَوِّئْ تحزُمْ ، فإذا روّأْت فاعزِمْ » ، فيقول : صاحبُ الحزْم هو الذى يَستعدُّ للأمر قبل نزوله ، ويدبِّره قبل فوْتِه ، حتى إذا نزَل به يكونُ عارفًا بالقصة فيه ، سالكا للوجْهِ الذى يفصِلُهُ منه . وهذا كما قيل فى المَثَل : « قَبْلَ الرِّماءِ تُملأُ الكنائنُ[1] » . والحزْمُ فى اللغة : الشَّدُّ والضبط ، ومنه الحِزَام ، والحَزْمة ، والحَيْزومُ ، والمَحْزِم : والخَطْب : الأمر المطلوب ، ويقال : خطَبْتُ الأمر فأَخطَبَ ، كما تقول طَلَبْتُه فأَطْلَبَ .

٣ ـ فذاكَ قَرِيعُ الدّهرِ ماعاشَ حُوَّلٌ إذا سُدَّ منه مَنْخِرٌ جاشَ مَنْخِرُ

« ذاك » أشار به إلى أخى الحَزْم . و « قريعُ الدَّهرِ » يحتمل وجهين : يجوز أن يكون فى معنى مختار الدهر ، ويكون من قَرَعْتُ الشىءَ أى اخترْتُه وخَصَصتُه بقُرعَتى ، ويقال هو قَريعُهم وقريعتُهم وقِرِّيعهم بمعنًى واحد . ويجوز أن يكون بمعنى مَن قرَعَهُ الدهر بنوائبه حتى جرَّب وتبصَّر . ويكون قريع فى الوجهين فَعيلاً فى معنى مفعول . ولا يمتنع أن يكون المراد بقريع الدهر فَحْلَ الدهر ، ويكون فى هذا الوجه قريع فى معنى فاعل ، لأنه يَقرَعُ الناقة أى يضربها . وما تقدَّم أحسن . وقوله « ما عاشَ » فى موضع الظَّرْف ، والمعنى مُدَّةَ عيْشِه . وقولُه « إذا سُدَّ منه مَنْخِرُ » مَثَلٌ للمَكروبِ المُضيَّقِ عليه ، وهذا كما استُعمل

---

(١) الكنائن : جمع كنانة ، وهى جعبة السهام .

فيه الخَنْقُ والخِنَاق . وأصل المنخر فى الأنف من النخير ؛ ويسمى النُّخْرة أيضاً . والجميع النُّخَر . والنخير : مدّ النَّفَس ، ومنه نَخِيرُ الحمار . وقيل نُخْرَتا الأنفِ : حَرْفاهُ . وجاشَتِ القِدْرُ : غَلَتْ . وجاشَ البحرُ : اهتاجَ ، وأصلُهُ التحرُّك فى الموضعين والاضطراب ؛ ومنه الجيش واحِدُ الجيوش . والمعنى : لافتنانه فى الحِيَل لا يؤخَذُ عليه طريقٌ إلاّ نَفَذَ فى آخَرَ . و « الحُوَّل » : الكثير التحوُّل فى الأمورِ . ويقال هو قُلَّبٌ وحُوَّلٌ ، وفى معناه رَجُلٌ حَوِلٌ وحَوَالِيٌّ . قال ابن أحمر[1] :

أو يُنْسِئَن يَوْمِي إلى غَيْرِهِ ... أنّى حَوَالِيٌّ وأنّى حَـذِرْ

ويقال : هو ذو حَوْلٍ وحَوِيل ، وفى المثل : « لو كان ذا حيلة تحوّل » . فأمّا قولهم : هو ذو مَحْلَةٍ[2] ، فهو فى معنى مَحَالَةٍ ، وَلَيْسَ من بنائِهِ ، لأن الميم فى مَحْلَة أصلية ، وفى مَحَالَةٍ زائدة .

٤ ـ أَقُولُ لِلحْيَانٍ وقَدْ صَفِرَتْ لَهُمْ ... وِطَابِى ويَوْمِى ضَيِّقُ الحَجْرِ مُعْوِرُ[3]

من كلامهم : « نعوذ بالله من صَفَرِ الإناء ، وقَرَعِ الفِناء » . وهذه الاستعارة من شُمول القَحْط وهَلاَكِ المال . ولِحيان : بَطْنٌ من هُذَيْل كان تَأَبَّطَ شَرًّا راغَمَهُمْ ووَتَرَهُم ، فكانوا يطلبون غَفلتَهُ ، حتى اتفَّق منه الصُّعودُ إلى الجبل الذى وصفَه ليشتار العسل ، ولم يكن له إلا طريقٌ واحد ، فجاءوا وأخذوا عليه ذلك الطّريق ، فقال : أقول لهم ، يعنى عند مخاطبتِهِ إيّاهم وهو على الجبل . وقوله

---

(١) فى اللسان (حول) : « ويقال للمرار بن منقذ العدوى » . وروايته عند التبريز : « أو ينسأن » .

(٢) ضبط فى م بضم الميم ؛

(٣) الحجر ، كذا وردت فى النسختين بتقديم الحاء وفتحها وهو الناحية . وتفسير المرزوقى يحتم هذه الرواية عنده . وفى مطبوعات الحماسة : « الجحر » بتقديم الجيم المضمومة . وفى شرح التبريزى : « وذلك أن الحشرة إذا لجأت إلى جحر ضيق لا منفذ له وصل إليها الطالب » . فتفسيره يعين روايته كذلك .

« وقد صَفِرتْ لهم وِطابى » يحتمل وجوهًا : يجوز أن يكون المعنى وقد خلا قلبي من ودِّهم . وبعضهم يستضعف هذا ويقول : ومتى كان يَودُّهم ؟ وهذا اللفظ كيف يفيد هذا المعنى . ويمكن أن يُقال فى ذلك إنَّما أراد وِطابَ ودِّى . وهذا كما قال بِشْر :

وإذْ صَفِرَتْ عِيَابُ الوُدِّ مِنكُمْ ولم يك بيننا فيها ذِمامُ[(١)]

كأنه تبيّن منهم أنّهم لا يُبْقُون عليه ، ولا يَرعَون ذِمامًا لَهُ ، فلا رِعَةَ ولا رِقةَ لديهم ، ولا بُقْيَا ولا محافظة عندهم ، فصار اعتقاده فيهم كما بانَ له اعتقادهم . فيه . فلهذا قال ما قال . ويجوز أن يكون المعنى أشرفَتْ نفسى ، بسببهم ولتعرُّضهم وهَمِّهم بانتهاز الفرصة لما أمكنهم ، على الْهَلاك . ويكون هذا من قوله :

* ولو أدركْنَهُ صَفِرَ الوِطَابُ[(٢)]

وفى طريقته قول الآخر[(٣)] :

هَرَقْنَ بساحُوقٍ جِفَانًا كثيرةً وأَدَّيْن أُخْرى من حَقِينٍ وحازرِ

وقال غيره :

ياجَفْنَةً كنَضيحِ الحَوْض قد كُفِئَتْ بِثْنِي صِفِّينَ يعلو فوقها القُتَرُ[(٤)]

ويجوز أن يكون أشار بالوِطاب إلى الجسم ، أى كاد تفارقُه الرُّوح . وهذا كما يقال : الإنسان[(٥)] : زِقٌّ مَنْفُوخٌ . ويجوز أن تكون الإشارة إلى

(١) فى المفضليات (٢ : ١٣٥) : « فإذ صفرت » .
(٢) لامرئ القيس فى ديوانه ١٦٠ ، وصدره :
* وأفلتهن علباء جريضا *
(٣) هو سلمة بن الخرشب الأنمارى ، كما فى المفضليات (١ : ٢٦) وانظر معجم البلدان (ساحقوق) .
(٤) عجز هذا البيت من م ، وهو ساقط من الأصل .
(٥) فى الأصل : « للإنسان » وأثبتنا ما فى م .

ظروف العَسَل التى اشتارها[(١)] لأنه لما تيقّن قَصْدَهم لِقَتْلِهِ وتَرْكَهُمْ مسامحتَه صَبَّ العسلَ على الجبل من الجانب الآخر وركِبَهُ متزلِّقاً عليه ، حتَّى لحِقَ بالسَّهل . قولُه : « ويَوْمِى ضَيِّقُ الحَجْرِ مُعْوِرُ » ، أى ضَيِّقُ الناحية مُمْكِنٌ . ويقال فى الحَجْر الحَجْرَةُ أيضا . وفى المَثَل : « يَربِضُ حَجْرَةً ويَرْتَعِى وَسَطًا » . ومُعْوِرٌ ، من أَعْوَرَ لكَ الشىء ، إذا بَدَتْ لكَ عورَتُه ، وهى موضع المَخافةِ . قال الله تعالى فى الحكاية عن المنافقين لما قَعَدوا عن نُصْرَة النبيِّ صلى الله عليه وسلم : ﴿ إنّ بيوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾ أى واهيةٌ يجب سَتْرُها وتحصينُها بالرِّجال ، وكما قيل يومٌ مُعْوِرٌ قيل مكان معورٌ ، أى مَخُوفٌ . ويقال : عَوِرَ المكانُ إذا صار كذلك ، وقرئ : ﴿ إنّ بيوتَنَا عَوِرَةٌ[(٢)] ﴾ . وقال بعضُهم : كلُّ ما طلبْتَه فأمْكَنك فقد أعْوَرَكَ وأَعْوَرَ لكَ . ومعنى البيت : أقول لهؤلاء القوم والحالُ هذا ، وهو أنّى قد جعلتُ لنفسى طريقاً إلى الخلاص منهم أوْ أنِّى أشرفْتُ على الهلاكِ واليَوْمُ يوم شديدٌ عَسِيرٌ .

٥ ــ هُمَا خُطَّتَا إمَّا إسَارٌ ومِنَّةٌ وإما دَمٌ والقَتْلُ بالحُرِّ أَجْدَرُ

الخُطَّةُ مأخوذةٌ من الخطِّ ، وهى تجرى مجرى القصّة ، وإن كان لها مواضع تنفرِد بها ، وحَذَف النون من « خُطتَا » إذا رَفَعْتَ « إمّا إسَارٌ » استطالةً للاسم ، كأنه استطال خُطَّتَا ببدَلِه وهو قولُه إما إسَارٌ ، كما استطال الشاعرُ الآخرُ الموصول [بصلته ، والموصوفَ[(٣)]] بصفَتِه فقال :

أَبَنِي كلَيْبٍ إنَّ عَمَّىَّ اللَّذَا قتَلاَ المُلُوكَ وَفَكَّكَا الأَغْلاَلا[(٤)]

---

(١) كذا فى م . وفى الأصل : « الذى اشتاره » . والعسل يذكر ويؤنث .

(٢) هذه قراءة ابن عباس ، وابن يعمر ، وقتادة ، وأبى رجاء ، وأبى حيوة ، وابن أبى عبلة ، وأبى طالوت ، وابن مقسم ، وإسماعيل بن سليمان عن ابن كثير . وقرأ الجمهور بإسكان الواو . تفسير أبى حيان فى (سورة الأحزاب) .

(٣) التكملة من م .

(٤) البيت للأخطل فى ديوانه ٤٤ . ونسب فى الضرائر للآلوسى ٦٨ إلى الفرزدق ، وهو خطأ . وبنو كليب هم قوم جرير . وعما الأخطل هما : عصم بن النعمان ، ودوكس بن الفدوكس .

فحذَفَ النون من اللَّذَا . ومثله فى الحذف قول الآخر[١] :

لها مَتْنَتَـــانِ خَظَاتا كما أَكَبَّ على سَاعِدَيْهِ النَّمِرْ

فحذف النون من خظاتا . وقول الآخر :

لَنَا أَعْنُزٌ لُبْنٌ ثَلَاثٌ فَبَعْضُها لأولادها ثِنْتَا وما بيننا عَنْزُ[٢]

ويجوز أن يكون الحذف على وجه الحكاية ، كأنَّه قال : هُمَا خُطَّتَا قولِـكُم إمَّا كذا وإمَّا كذا ، فلما نَوَى ذلك حَذَفَ النونَ للإضافة . وكأنهم كانوا يُدِيرونَهُ على الخصْلَتين[٣] ، فأخذ يتهكّم عليهم ويحكى مقالتَهُم ، ونحوُه قولُ الخليلِ فى قَوْلِه : ﴿ ثم لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كلِّ شِيعَةٍ أَيُّهم أشدُّ على الرَّحْمٰنِ عُتِيًّا[٤] ﴾ ، قال معناه لَنَنْزِعَنَّ من المتشايعين الذى يقال لِعُتُوِّه أيُّهم أشدّ ؛ فحَكَى . وقولُه :

* فأَبِيتُ لا حَرِجٌ ولا مَحْرُومُ[٥] *

وإذا جَرَرْتَ « إمّا إسَارٍ » يكون حذف النون لنيّة الإضافة ، والتقدير : هُمَا خُطَّتَا إسارٍ ومِنَّةٍ . والمعنى ليس [لى[٦]] إلا واحدةٌ من خَصْلَتَيْنِ اثنتين على زُعمِكم[٧] : إما استئسارٌ والتزامُ مِنَّتِكم إنْ رأيتم العفو ، وإمَّا قتلٌ وهو بالحرِّ أجدر من التعرّض لما يُخزِيه ويُكسِبه الذلّ . فهاتان الخصلتان هما اللتان أشار إليهما

(١) هو امرؤ القيس . ديوانه ١٤ .

(٢) أنشد هذا البيت التبريزى وابن جنى كذلك ، ولم ينسباه .

(٣) انظر مثيل هذا التعبير فيما مضى ، ص ٤٥ س ١٨ .

(٤) كذا وردت الآية بهذا الضبط فى النسختين ، وهى قراءة الجمهور ، وانفرد حمزة والكسائى وحفص بالقراءة بكسر العين والجيم والصاد فى « عتيا » و« جثيا » وصليا » . انظر تفسير أبى حيان (٦ : ٢٠٨) . والكلام بعد هذه الكلمة إلى « أشد » ساقط من م .

(٥) للأخطل فى ديوانه ٨٤ وسيبويه (١ : ٢٥٩) . وأنشده فى المخصص (٨ : ٦٩ ، ١٦ : ١١٠) . وصدره :

* ولقد أبيت من الفتاة بمنزل *

(٦) هذه من م .

(٧) الزعم : مثلث الزاى ، كما فى القاموس . وتكاد النسختان تجمعان على ضم الزاى فى كل موضع ترد فيه هذه الكلمة ، كما هنا .

بقوله هما خُطّتان ؛ وقد ثلَّثهما بخطّة أخرى ذكرها فيما بعد . وفى هذا الكلام تهكّم وهُزْء . وقوله : « والقتل بالحرّ أجدر » يسمَّى اعتراضا لوقوعه بين ما عدّدَه من الخصال .

٦ — وأخرى أُصادِى النَّفسَ عَنها وإنَّها ... لَمَوْرِدُ حَزْمٍ إنْ فَعَلْتُ ومَصْدَرُ

المصاداة : إدارة الرَّأى فى تدبير الشىء والإتيانُ به على أتقَنِه ، ومنه يقال : إنّه لصَدَى مالٍ ، إذا كان حَسَنَ القيامِ به . يقول : وهاهنا خَصْلةٌ أخرى أدارِى نفسى فيها ، وأداوِرها عليها ، وإنّها للموضِعُ الذى يَرِدُهُ الحزم ويَصدُر عنه إن فعلتُ . وهذا إنّما قسّم الكلامَ هذه الأقسامَ لأنّه رآهم يبنون أمرَه عليها ، ولأنَّه نظر إلى جهتى الجَبَل فعلِمَ أنّه إنْ رَضِىَ الطريق التى عليها بنو لِحيَانَ لنفسه طريقاً كان فيها إحدى الحالتين : من الأَسْرِ أو القَتْل ، على ما كانوا يزعمون ويقولون . وإن احتال للجهة الأخرى والحزمُ فيها ، لأنَّ خلاصه منها ، كان أمراً ثالثا . ثم اقتصَّ ما فعله[1] . وقوله « وإنّها لمورِدُ حَزْمٍ » اعتراضٌ أيضا ، لوقوعه بين قوله وأخرى أصادى النفسَ عنها ، وبين تبيين كيفية مزاولته لها وشَرْحِهَا .

٧ — فَرَشْتُ لها صَدْرِى فزَلَّ عن الصَّفَا ... بِهِ جُؤْجُؤٌ عَبْلٌ ومَتْنٌ مُخَصَّرُ

الفَرْش : البَسْط ، ثم توسّعوا فيه فقالوا : فَرَشْتُه أمرى ، وافترَش لسانَهُ فتكلَّم كيف شاء . وقوله « لها » الضمير للخَصْلةِ التى عبّر عنها بقوله « وأخرى » . يقول : فَرشت من أجْل هذه الخُطّة صدرى على الصَّفا . وهذا حين صَبَّ العسلَ فزَلِقَ [به] عن الصَّفَا . أى بصدْرِه صَدْرٌ ضخم ومَتْنٌ دقيق ، والصَدْرُ والمَتْنُ صَدْرُه ومَتْنُه ، ولكن أخرجَه مخرجَ قولهم : لَقِيتُ بزَيْدٍ الأسَدَ[2] ، وزَيد هو

(١) م : « على ما فعله » .

(٢) هذا مما يسميه البلاغيون « التجريد » ، ويسمون الباء فى مثل هذا باء التجريد .

الأسد عندهم . وَوَضَع فرشت موضع أَلْقَيْتَ ووضَعْت . ويقال : فَرَشْتُ ساحتي بالآجُرّ ، وافترشت الشاة للذّبح إذا أضْجَعْتَها . وذكر بعضهم أنه يجوز أن يكون الضمير من « لها » للصَّفاة ، والكلمة مقلوبةٌ ، والمعنى فَرَشْتُها لصدرى . وفى هذا إضمارٌ قَبلَ الذِّكر والقلب ، وإذا كان كذا فالأوّلُ هو الوَجْه .

٨ـ فَخَالَطَ سَهْلَ الأرْضِ لمْ يَكْدَحِ الصَّفَا بِهِ كَدْحَةً والموْتُ خَزْيَانُ يَنْظُرُ

الخَلْط أصله تداخل أجزاء الشّىء فى الشىء ، وقد تُوُسّع فيه حتَّى قيل : رَجُلٌ خَلطٌ[1] ، إذا اختَلَط بالنّاس كثيراً . وجاء فى الحديث : « لا خِلاط ولا وِرَاطَ » ، وفى المثل : « ليس أَوَانَ يُكْرَهُ الخِلاَطُ » . يقول : أسْهَلْتُ ولم يؤثّر الصَّفا فى صدرِى أثراً ، لاَ خَدْشًا ولا خَمْشًا ، والموتُ كانَ طَمِعَ فِيَّ ، فلما رآنى وقد تَخلَّصْتُ بقِىَ مُسْتَحْيِيًا ينظُر ويتحيَّر . والواو من قَوْلِه « والموت » واوُ الحالِ . وهذا من فصيح الكلام ، ومن الاستعارات المليحة . وقد حُمِل قولُ الله عزّ وجلّ : ﴿ وأنتم حِينئذٍ تنظُرون ﴾ على أنْ يكون المعنى[2] تتحيّرون . وقد سَلَكَ أبو تَمّام مَسلكَ هذه الاستعارة فقال :

* إن تَنْفَلِتْ وأُنوفُ المَوْتِ راغِمَةٌ[3] *

ويقال إنّ الموضع الذى يقع عليه كان بينه وبين الطَّرِيق الذى عليه بنو لحيان أميالٌ عِدَّةٌ . وقوله « يَنْظُر » يجوز أن يكون فى موضع الحال ويجوز أن يكون خَبَراً بعد خَبَر ، ويكون معناه فى مقَابَلتِي . ويقال : بُيُوتُهم تَتَناظر ، إذا تقابَلَتْ ، لأنَّ النَّظَرَ تَقَلِيبُ العين نحو المرئِيّ وفى مقابلته . لذلك صَحَّ أن

(١) كذا ضبط فى الأصل ، وضبط فى م بضم الخاء واللام ، وهما لغتان صحيحتان . ولغة ثالثة « خلط » بكسر الخاء . وشاهد الأخير فى اللسان قوله :

وأنت امرؤ خلط إذا هى أرسلت يمينك شيئاً أمسكته شمالكا

(٢) م : « بمعنى » . (٣) م : « إن تنقلب » . وعجزه فى الديوان ٩٨ :

* فاذهب فأنت طليق الركض يا لبد *

يقال للأعمى : نَظَر إلىّ ، ويجوز أن يكون معنى يَنْظُر يَعلمُ حُسْنَ حِيلتى وغَنَائِى فيما يَدهَمُنى . وفُسِّر قولُه تعالى : ﴿ يُسَاقُونَ إلى المَوْتِ وهُمْ يَنظُرون ﴾ ، أى يعلمون ذلك ويتيقّنون . وقوله « لم يَكدَح الصَّفَا » قيل الكَدْح بالأسنانِ والحجَر دون الكَدْم ، ومنه قيل المكدَّح المكدَّمُ فى حمار الوحش ، لتعضيض بعضها بَعْضاً . وقوله « خَزْيَانُ » يجوز أن يكونَ من الخِزى : الهَوانِ ، ويجوز أن يكون مِنَ الخَزَايةِ : الاستحياء .

٩ — فَأُبْتُ إلى فَهْمٍ ولم أكُ آيبًا ... وكَمْ مِثْلُها فَارَقْتُها وهى تَصْفِرُ(١)

يقولُ : رجعتُ إلى قبيلتِى فَهْمٍ ، وكِدْتُ لا أَؤوبُ ، لأنِّى شافَهْتُ التَّلَفَ . ويجوز أن يُريدَ : ولم أَكُ آيباً فى تقديرهم وظنّهم . واختارَ بعضهم(٢) أن يُرْوَى : « فَأُبْتُ إلى فَهَمٍ وما كِدتُ آيبا » وقال : كذا وجدتُه فى أصلِ شِعْرِه . قال : ومِثْلُه فى أنَّهُ رَدَّ إلى الأَصْلِ وَوَضَع اسم الفاعل(٣) موْضعَ الفعل قولُ الآخَر :

أَكْثَرْتَ فِى العَذْلِ مُلِحًّا دائما ... لا تُكْثِرَنْ إنِّى عَسَيْتُ صَائما(٤)

والمثل السائر : « عَسَى الغُوَيْر أَبْؤُسا » . ولا أدرى لِمَ اختار هذه الرواية ؟ ألأَنّ فيها ما هو مَرْفُوضٌ فى الاستعمال شاذٌّ ، أم لأنه غَلَبَ فى نَفْسِهِ أنَّ الشاعرَ كذا قالَهُ فى الأَصْلِ ؟ وكلاهما لا يُوجِبُ الاختيار . عَلَى أنِّى قد نَظَرتُ فوجدتُ

(١) مثلها ، ضبطت فى الأصل بالجر ، وفى م بالرفع . وفى الخزانة (٣ : ٥٤١) أنه يروى بالجر والرفع والنصب . فالجر على أن كم خبرية ، والنصب على أنها استفهامية ويكون مثلها صفة لنكرة محذوفة تقديره كم مرة مثلها ، والرفع على معنى كم مرة وقع مثلها .

(٢) هو ابن جنى فى التنبيه على الحماسة . قال التبريزى : « وتكلم المرزوقى على اختيار أبى الفتح هذه الرواية رادا عليه ولم ينصفه » .

(٣) هذا ما فى م . وفى الأصل : « اسم الفعل » . والذى فى التنبيه : « فاستعمل الاسم الذى هو الأصل : المرفوض الاستعمال موضع الفعل الذى هو فرع » .

(٤) فى الخزانة (٤ : ٧٩) : « نسب إلى رؤبة بن العجاج ولم أجده فى ديوان رجزه »

أبا تمّامٍ قد غيَّر كثيراً من ألفاظ البيوت التى اشتملَ عليها هذا الكتاب ، ولعلهُ لو أنشَرَ الله الشُّعراءَ الذين قالوها لتبعوه وسَلَّموا له . ويُروَى : « ولم آلُ آيباً » والمعنى لم أدعْ جَهْدِى آيباً وفى الإياب . والأول أحْسَنُ . وكم مِثْلِهَا ، أى كم مِثْلِ هذه الخُطَّة(١) فارَقْتُهَا بالخروج منها ، وهى مغلوبَةٌ تَضْغُو(٢) وأنا الغالب . وصَفِير الطائر معروف ، ومنه ما فى الدار صَافِرٌ ، أى ذو صفير .

١٢

وَقَالَ أَبُو كَبِيرٍ الهُذَلِىُّ(٣) :

١٥ — وَلَقَدْ سَرَيْتُ على الظَّلَامِ بِمِغْشَمٍ جَلْدٍ من الفِتْيَانِ غَيْرِ مُثَقَّلِ(٤)

يقال سَرَى يَسْرِى سُرًى ، وأَسْرَى إسرَاءً بمعنى ، وهو سَيْرُ الليل . وفى القرآن : ﴿ سُبْحَانَ الذى أَسْرَى بِعَبْدِهِ ليلا ﴾ . وعلى الظلام ، أى فى الظلام موضعه نَصْبٌ على الظّرف . ويقال فَعَلْتُه ظَلَامًا ولَيْلاً فى مُقَابَلَةِ فعلتُه نهارًا . ويقولون : عِمْ ظَلَامًا وعِمْ صَبَاحًا ، وهذا كما جعلوا فى مقابَلة اليومِ اللّيلةَ . ويجوز أن يكون على الظلامِ فى موضِعِ الحالِ ، أى وأنا على الظلامِ ، أى راكبٌ له . يقول : ولقد سَرَيْتُ لَيْلاً برجُلٍ غَشُومٍ قَوِىٍّ من الرِّجالِ غَيْرِ منسوبٍ إلى الثِّقَلِ والكسلِ فى الأمورِ . فإن قال قائلٌ : إذا كان السُّرَى لا يكون إلا ليلاً

(١) وفى التنبيه : فأنث المثل حملا على المعنى ، لما كان المراد به الحال والصورة التى ذكرها » .

(٢) الضغاء : صوت الذليل المقهور . م : « تصفر » . وانظر بيت جرير فى ص ٦٦ .

(٣) اسمه عامر (أو عويمر) بن الحليس ، وهو مخضرم ذكره بعضهم فى الصحابة . الشعراء والشعراء بتحقيق الشيخ أحمد شاكر ٦٥٢ والإصابة والخزانة (٣ : ٤٦٦ — ٤٧٣/ ٤ : ١٦٥ — ١٦٧) والعينى (٣ : ٥٤ — ٥٧) واللآلئ ٣٨٧ . قال التبريزى : « أحد بنى سعد بن هذيل » .

(٤) قصيدة هذه المقطوعة فى ديوان الهذليين (٢ : ٨٨ — ١٠٠) .

فلِمَ قال على الظلام ، ولم جاء فى القرآن : ﴿ أسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾ و : ﴿ فأَسْرِ بِعبَادِى لَيْلاً ﴾ ؟ قلتَ : المرادُ تَوَسُّط الليل والدخولُ فى معظَمه ، تقول : جاءَ فلانٌ البارحةَ بِلَيلٍ ، أى فى معظَمِ ظُلْمَتِهِ وتَمَكُّنِ ذلك الوقتِ من لَيلَتِهِ . والجَلْدُ : الصُّلب القوىُّ ؛ ومنْهُ الجَلَدُ من الأرضِ . وإنَّما قال « مِغْشَمٍ » لأنه جَعَلَهُ كالآلةِ فى الغَشْمِ ، ومِفْعَلٌ بناءٌ لهذا المعنى ، ويريد به تَأَبَّطَ شَرًّا . وكان لأبى كَبيرٍ مَعَهُ قِصَّةٌ معروفة[١] ، والأبيات مَقْصُورَةٌ عليها ، وناطِقَةٌ بها أو بأكْثَرِها . والغَشْمُ والاعتِسَافُ يتقاربان . ويقالُ غَشَمَ الوَالِى رَعِيَّتَهُ غَشْمًا . وفى كلام بعضهم : « أَسَدٌ حَطُومٌ خَيْرٌ من سلطان غَشُومٍ » . ويجوز أن يكون معنى « غَيْرِ مُثقل » أى كان حَسَنَ القَبُولِ ، مُحَبَّبًا إلى القلوب .

٢ ــ مِمَّنْ حَمَلْنَ بِهِ وَهُنَّ عَوَاقِدٌ حُبُكَ النِّطَاقِ فَشَبَّ غَيْرَ مُهَبَّلِ

قولُه : وهُنَّ عواقِدٌ حُبُكَ » حكايةُ الحال وإن كان ذلك فيما مضى . ومثْلُه قوله تعالى : ﴿ وكَلبُهُم باسِطٌ ذِرَاعيْهِ بالوَصيدِ ﴾ . ويُرْوَى : « مِمَّا حَمَلْنَ به » أى هو من الحَمْلِ الذى حَمَلنَ به . والضميرُ فى حَمَلْنَ للنِّساء ولم يَجْرِ لَهُنَّ ذِكْرٌ ، ولكن لمَّا كان المرادُ مفهومًا جازَ إضمارها . ويُرْوَى : « مِمَّنْ حَمَلْنَ به » ، والمعنى : هذا الفتى من الفتيان الذين حَمَلَتْ أُمهاتُهم بهم وهُنَّ غيرُ مستعدّاتٍ للفِراشِ ولا واضعاتٍ ثِيَابَ الحَفْلَةِ[٢] فنشأ مَحْمُودًا مَرْضِيًّا ، لم يُدْعَ عَلَيْهِ بالهَبَلِ

(١) كان أبو كبير قد تزوج أم تأبط شراً ، وكان تأبط شراً يبدى الكراهة لأبى كبير ويرتاب به وهو صغير ، فلما كبر وترعرع خشى أبو كبير بأسه فاحتال ليقتله وخرج به فى غزوة ودفع به إلى بعض الأعداء ولكنه تمكن من الفتك بهم ، ثم حاول أبو كبير أن يغتاله فى نومه فكان يختبره بأن يرمى بحصاة إليه فيهب من نومه سريعاً ، فعل ذلك مراراً إلى أن عرف أنه لا يمكن اغتراره فى نومه ، وكف عن عزمه ، وقال فى ذلك ما قال . انتهى ملخصا من التبريزى .

(٢) الحفلة : الاحتفال والجد ، يقال رجل ذو حفلة إذا كان مبالغاً فيما أخذ فيه ، وأخذ للأمر حفلته إذا جد فيه . يقول : غير متبذلات ملقيات ثيابهن .

والثَّكَلِ[١] . وإنما قيل : مِمَّنْ حَمَلْنَ به ، لأنه رَدَّ الضَّميرَ على لَفْظِ مَنْ ، ولوْ رَدَّ على المعنى لقال بهم . وفى القرآن فى موضع : ﴿ ومِنْهُم مَن يَستمِعُ إليك ﴾ ، وفى آخَر : ﴿ ومِنهم من يَسْتَمِعُون إليك ﴾ . وحُكى عن بعضهم : إذا أردْتَ أن تُنْجِبَ المرأةُ فَأَغْضِبْها عند الجماع . وأنشد :

تسنَّمْتُهَا غَضْبَى فَجَاءَ مُسَهَّدًا وأَنْفَعُ أوْلَادِ الرجالِ المُسَهَّدُ

وكذلك يقال فى ولد المذعورة : إنّه لا يُطاق . والحُبُك : الطَّرائق . والنِّطَاقُ : ما تَشُدُّ[٢] المرأةَ فى حَقْوِها . والرواية : « حُبُكَ الثِّياب » ، لأنّ النِّطَاقَ قد جاء من بَعْدُ فى صِفَةِ أمِّ المُغْشَمِ فتكرّر ، ولأنّ النِّطاق لا يكونُ لَهُ حُبُكٌ وطرائق . وواحد الحُبُكِ حَبِيكٌ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ والسَّماءِ ذاتِ الحُبُك ﴾ . وقال الباهلِيُّ : الحُبْكَةُ والحِبَاكُ : الإزار أيضا . وقد احتبكَتِ المرأة . وذكر بعضهم أن المُهَبَّل : المعتوه الذى لا يتماسَك[٣] فإن صَحَّ ذلك فكأنّهُ من الإسراع ، يقال جَمَلٌ هِبلٌّ[٤] .

٣ ــ ومبرَّأً من كلِّ غُبَّرِ حِيضَةٍ وفَسَادِ مُرْضِعَةٍ وداءٍ مُعْضِلِ[٥]

غُبْرُ الحَيْضِ وغُبَّرُه : بَاقيهِ قبل الطُّهْرِ . وكذلك غُبْرُ اللَّبَنِ : باقيه فى الضَّرْعِ . وتزوّجَ رَجُلٌ من العَرَبِ بامرأةٍ[٦] مُسِنَّةٍ فقيل له فى ذلك ، فقال : « لَعَلِّى أتغبَّرُ منها وَلَدًا » . والحِيضَةُ والحَيضُ وَاحِدٌ . والغُبَّرُ يكون جَمْع غَابِرٍ أيْضاً . ولم يَرْضَ بلفظ التَّبرئة حتى أتى بلفظ الكلِّ مَعَهُ تأكيداً ، كأنّه نَفَى قليل ذلك

(١) كذا ضبط فى م . وضبط فى الأصل بالضم ، وهما لغتان .
(٢) م : « ما تشده » . (٣) م : « يتمسك » .
(٤) كذا ضبط فى الأصلين . ويقال أيضاً : هبل بكسر الهاء وفتح الباء .
(٥) حيضة ، بكسر الحاء فى النسختين فى متن البيت وشرحه ، وفى اللسان أنه الاسم من الحيض ، وأما الحيضة بالفتح فاسم المرة منه .
(٦) م : « امرأة » .

وكثيرهُ . وأضاف الفسادَ إلى المُرْضِعَةِ لأنه أرادَ الفسادَ الذى يكونُ من قِبَلها . وهم يُضِيفُون الشىء إلى الشىء لأدنى مناسَبَةٍ . ويروى « مبرأً » بالنصبِ والجرّ ، فإذا نصبتَهُ فإنّه ينعطِفُ على « غيرَ مُهَبَّلَ » ، كأنه قال : شَبَّ فى هاتين الحالتين . وإذا جَرَرْتَهُ ينعطف على قَوْلِهِ « جَلْدٍ من الفتيان » كأنّه بِمُغْشَمٍ جَلْدٍ ومبرّإ . والمعنى أن الأمّ حملت به وهى طاهِرٌ ليس بها بَقِيَّةُ حَيْضٍ ، ووضَعَتْه ولا دَاءَ به استصحَبَهُ من بطنها فلا يقْبَلُ عِلاَجًا ، لأنَّ داءَ البَطْنِ لا يفارِق . ولم تُرْضِعْهُ أمُّهُ غَيلاً ، وهى أن تسقِيَه وهى حُبْلَى بعد ذلك . ويروى عن أمّ تأبَّطَ شرًّا قالت : « ما وضَعْتُهُ يَتْنًا ، ولا أرضعْتُه غَيْلاً ، ولا أبتُّه مَئِقًا ، ولا رأيتُ بنفسى دَمًا . ولقد حَمَلْتُ به فى لَيْلَةٍ مظلمة وتحتَ رأسى سَرْجٌ ، وعلى أبيهِ درْعٌ » . وإنّما تريد بهذا الكلام الآخِرِ[1] ما تقولُ العربُ من أن المرأةَ إذا أُكْرِهَت على الوطْء ، أو وُصِئَت وهى مذعورة ، أنجبت وأذْكَرَت . الداء المُعْضِل : الذى لا دواء له كأنه أعضل الأطباء وأعياهم ، وأصل العَضْل المنع ، ومنه عَضَّلت المرأةُ إذا نَشِبَ ولَدُهَا فى بطنِها فلم يَخْرُجْ . وعَضَلْتَها : منعتَها التزويج ظلما .

٤ – حَمَلَتْ به فى لَيْلَةٍ مَزْؤُودَةٍ كَرْهًا وَعَقْدُ نِطَاقِهَا لم يُحْلَلِ

الزَّأْدُ[2] : الذُّعر ، وقد زُئِدَ فهو مزؤود . والمعنى حملت الأمُّ بهذا المِغْشَم . ويُروى « مزؤودةً » بالنصب على الحال للمرأة ؛ ويروى « مزؤودةٍ » بالجر ، ويجوز فيه وجهان : أحدُهما أن تجعله صفةً لِلَيْلَةِ ، كأنه لمَّا وقع الزُّؤُود والذُّعر فيها جعَلَهُ لها ، والأكثر فى المجاز والاتِّساع أن يُنسَب الفعلُ إلى الوقت فيُؤتَى به على أنه فاعل ، كما قيل : نهارُه صائمٌ ، وليلُه قائمٌ . وحَسُن هذا لأنّ الظَّرف قد يقدَّر

(١) م : « الأخير » .

(٢) يقال زأد بالفتح والتحريك ، وزؤد بالضم ، وزؤود كسرور .

تقدير المفعول الصحيح ، بأن يُنزع منه مَعْنَى فِى ، كما قال الشاعر :

* ويَوْمٍ شَهِدْناهُ سُلَيْماً[(١)] *

فعلى ذلك تقول شُهِدَت الليلةُ ، وزُيِّدَت اللَّيلة ، وليلةٌ مشهودة ومزءودة . ويجوز أن يكون انجرارُه على الجِوار ، وهو فى الحقيقة للمرأة ، كما قيل : هذا جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبٍ . وهذا لميلهم إلى الحَمْل على الأقرب ، ولأمْنهم الالتباس . وانتصاب « كَرْهًا » على أنه مَصْدَر فى موضع الحال ، والتقدير كارهةً . ومعنى البيت بما تقدّم ظاهر . وقولُه : « عَقْدُ نِطَاقِهَا لم يُحْلَل » ، ابتداء وخبرٌ ، والواو للحال . وأظهر التَّضعيف فى قوله لم يُحْلَل ، وهو لغةُ تميمٍ ، ووجه الكلام لَمْ يُحَلّ . والنِّطاق : ما تَنْتَطِق به المرأةُ : تشدُّ به وسَطَها للعمل . قال الأصمعىّ : كنّ فى القديم ينتطقن بخَيطٍ أو تِكَّةٍ . وذات النِّطاقين : أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنه . والمِنطَقةُ أُخِذَت من هذا . والمعنى أُكرِهَتْ ولم تحُلّ نطاقَها . وحُكى عنها فى وصف ابنها قالت فيه : « إنّه والله شيطان ، ما رأيتُه قطُّ مستثقِلاً ولا ضَحِكاً ولا همّ بشىء منذُ كان صبيًّا إلاّ فعلَه ، ولقد حَمَلْتُ به فى ليلةٍ ظلماء وإنّ نطاقى لمشدود[(٢)] » .

٥ - فأَتَتْ به حُوشَ الفُؤادِ مُبَطَّنًا سُهُدًا إِذَا ما نَامَ لَيْلُ الهَوْجَلِ

حُوشُ الفؤاد وحُوشِىُّ الفؤاد : وحشِيُّه ، لحدَّته وتوقُّده . ورجُلٌ حُوشِىٌّ : لا يُخالِط الناس . وليلٌ حوشىٌّ : مظلم هائلٌ ، وكذلك إبلٌ حوشٌ وحوشِيَّةٌ أى وحْشِيَّةٌ . وهذا كما يقال : ليلٌ سُخَامٌ وسُخَامِىٌّ : أسْوَد . وقيل : الحُوشُ :

---

(١) كلمة « سليما » ليست فى م . والبيت بتمامه كما فى سيبويه (١ : ٩٠) والكامل ٢١ ليبسك :

ويوم شهدناه سليما وعامراً قليل سوى الطعن النهال نوافله

ورواية المبرد وابن جنى : « ويوما » .

(٢) كذا فى م والتبريز . وفى الأصل : « مشدود » .

بلاد الجن . مبطَّنا : خميص البَطْن[1] . وقولُه « نامَ ليلُ الهَوْجَلِ » ، جعل الفعل للَّيل ، لوقوعه فيه . والمعنى نام الهَوْجَلُ فى ليله . والهوْجلُ : الثقيل الكَسْلاَنُ ذو الغفلة . يقول : أتت الأمُّ بهذا الولد متيقِّظًا حذِرًا ، حديدَ الفؤاد ذَكِيًّا ، يَسْهَرُ إذَا نامَ الثَّقيل البليد . والسُّهاد والسَّهَد[2] : السَّهَر . ورَجُلٌ سُهُدٌ ومُسَهَّدٌ . ويقولون للملدوغ : سَهِّدُوه لا يَسْرِ فيه السّم . وقيل الهوْجَل : الأحمق لا مُسْكَةَ به . قالوا : وبه سُمِّىَ الفَلاَةُ لا أعلامَ بها ولا يُهْتَدَى فيها : الهوْجَل .

٦– وإذا نَبَذْتَ لَه الحَصَاةَ رأَيْتَه فَزِعًا لوَقْعَتِها طُمُورَ الأَخْيَلِ[3]

يقال : نبذْتُ الشىءَ من يدى ، إذا طرحتَهُ ، وتوسَّعوا فيه فقيل صبىٌّ منبوذٌ ، ونابذْتُ فلانًا ، إذا فارقتَه عن قِلًى . والحصى : صغار الحجارة[4] . والشاعر إنما يَحكى ما رآه منه ؛ وذلك أنّ أبا كبير ذُكر أنه كان أراد أن يغتالَه ، وكان يطلُبُ منه فرصةً ينتهزها فى نومِهِ أو غَفْلته مع أنه كان لا يجترئ عليه ، فكان يَروز أحوالَه ليتمكَّن من مراده فيه . والمعنى إذا رميتَه بحصاةٍ وهو نائمٌ وجدتَه ينتبه انتباهَ مَنْ سمِعَ بوقعتها هدَّةً عظيمة ، فيطْمُرُ طُمُورَ الأخْيَل ، وهو الشِّقِرَّاق . وانتصاب « طمورَ » بما دلّ عليه قولُه « فزِعًا لوقعتها » ، كأنه [رأيتَه[5]] يَطْمُرُ طُمُوره ؛ لأنَّ الخائف المتيقِّظ يفعل ذلك . والطُّمور : الوَثْب ؛ ومنه قيل فَرَسٌ طِمِرٌّ ، أى وثّابٌ . وذكر أبو العباس أن الطِمِرَّ فى وصف الفَرَس

---

(١) ابن جنى : « قوله مبطناً من ألفاظ السلب لا الإثبات . وأصل هذه الأحرف وهى بطن أن تجىء لإثبات البطن ، كالبطن والبطين والمبطان ونحو ذلك . ومبطن هنا أى خميص البطن ، فهو من سلب ذلك المعنى لا إثباته » .

(٢) ويقال سهد بالضم ، وسهاد كذلك .

(٣) رواه التبريزى : « ينزو لوقعتها » ، ثم نبه فى الشرح على رواية : « فزعا لوقعتها » .

(٤) م : « ضعاف الحجارة » . (٥) هذه من م .

هو المُشْرِف ، ومنه قيل الموضع العالى : طَمَارِ . وفزِعًا انتصابه على الحال ، وجواب إذا قولُه رأيْتَهُ . وقال بعضُهم : الأَخْيَل : الشاهِينُ . ومنه قيل تَخَيَّلَ الرَّجُل ، إذا جَبُن عند القتال فلم يتَثبت . والتَّخَيُّل : المُضِيُّ والسُّرْعةُ والتلوُّن .

٧ — وإذا يَهُبُّ من المَنَامِ رأيْتَهُ كَرُتُوبِ كَعْبِ السَّاقِ لَيْسَ بزُمَّلِ

أصلُ هَبَّ تحرَّك واضطرب ، ثم قيل هَبَّ من نَوْمِهِ هَبًّا[١] ، وهَبَّتِ الريح هُبُوباً ، وهَبَّتِ النّاقة فى سيرها هِبَاباً ، وهَبَّ التَّيْسُ هبيباً . وأهْبَبْتُ السّيفَ : هَزَزْتُه . يقول : إذا استيقَظَ هذا الرجُل من منامه انتصب فى مضجعه سريعاً كانتصاب كَعب السَّاق فى الساق ، وهو ليس بضعيفٍ . وإنّما يعنى شهامَتَه وتشمُّرَه فى تلك الحالة . وكَعْبُ الساق مُنْتَصِبٌ أبدًا فى موضعه ، فلذلك شَبَّهَهُ به . والرَّاتب : القائم ، ومنه المراتب . وتحقيق الكلام : وإذا يَهُبُّ رأيت رُتُوبَه كَرُتُوبِ كَعْبِ الساق ، لكنّه حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه . وهذا التّشبيه يجرى مجرى التصوير . والزُّمَّل والزُّمَّال والزُّمَّيْلَة ، كلّه الضَّعيف ، واشتقاقه من التلفُّفِ كأنّه متساقِطٌ لا مُتَشَمِّرٌ مُتَجرّدٌ .

٨ — ما إنْ يَمَسُّ الأَرْضَ إلاّ جانِبٌ منه وحَرْفُ الساق طَيَّ المِحْمَلِ

إنْ ، زيد لتوكيد النفْى ، ويبطِّل عمل « ما » بانضمامه إليه فى لغة من يُعْمِله . وانتصب طىَّ على المصدر مما دَلّ عليه ما قبله ، لأنّه لما قال ، ما يمسُّ الأرضَ منه إذا نامَ إلا جانبُه وحَرْفُ السَّاقِ ، عُلِمَ منه أنّ الرَّجلَ مَطْوِىٌّ غيرَ سَمِينٍ ، وهَضِيمُ الكَشْحِ غير ثقيل . والمعنى أنّه إذا نام لا يتبسّط[٢] على الأَرْضِ ولا يتمكّن منها بأعضائه كلها ، فِعْلَ من يُرْخِيه نومُه ويَتمكّن منه ، حتّى لا يكاد يتجمّع

(١) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ، وإثباتها من م .
(٢) م : « ينبسط » .

ويتشَمّر عند الانتباه إلا بعد مزاولةٍ وتهيُّؤٍ يُعْمِلُه فى كلِّ عضو . وهذا من أبياتِ كتاب سيبويه[١] . واحتجّ به بقوله « طىَّ المَحملِ » . وأراد بالمِحمل حمائل السَّيف ، وهذا كما يُقال : هو كالجديل ، وكالزِّمام . والمِحملُ والحِمالةُ بمعنًى .

٩ ــ وإذا رَمَيْتَ بِهِ الفِجَاجَ رَأَيْتَهُ   يَهْوِى غوارِبَها هُوِىَّ الأجْدَلِ

قال الخليل : الفَجُّ : الطَّريق الواسع فى قَبَل[٢] جَبَلٍ ونَحْوِهِ ، والجميعُ الفِجَاجُ . وغارِبُ كلِّ شىء : أعلاهُ ، ومنه غارِبُ البعير . والشّاعرُ يحكى فى هذا أيضاً عنه ما رآه منه عند استصحابه له ، فيقول : إذا وجَّهْتَه فى طُرُق الجبل[٣] رأيتَه يَقْصِدُ عَالِيَها قَصْدَ الصَّقْرِ . والهُوِىّ بضم الهاء ، هو القَصْدُ إلى أعْلَى ، وبفتح الهاء القَصْدُ إلى أسفل . على ذلك قولُه :

* هَوِىَّ الدَّلْوِ أسْلَمَه الرِّشَاءُ[٤] *

ولا تَخْتَرْ فى رواية البيت على الضَّمّ . وأُنشِد فيه قوله[٥] :

كأنّ هُوِيَّهَا خَفَقَانُ ريحٍ   خَرِيقٍ بينَ أعْلاَمٍ طِوَالِ[٦]

ويروى : « مخارِمَها » . والمخارِمُ : جمْع المَخرِمِ ؛ وهو منقطَعُ أنْفِ الجبل . والخَرْمُ : أنف الجبل ، وجَمْعُه خُرُومٌ . ومن فصيح كلامِهِمْ : « هذه يَمينٌ طَلَعتْ

(١) كتاب سيبويه (١ : ١٨٠) .

(٢) ضبط فى الأصل واللسان بضمتين ، وليس بشىء . وقد ضبط فى م بالتحريك . والقبل ، بالتحريك : سفح الجبل . وفى اللسان : « يقال انزل بقبل هذا الجبل ، أى بسفحه » .

(٣) م : « الجبال » .

(٤) الدلو ، تذكر وتؤنث . ويروى : « أسلمها » . والبيت لزهير فى ديوانه ٦٧ . وصدره :

* فشج بها الأماعز وهى تهوى *

(٥) هذا ما فى م . وفى الأصل : « وأنشد قوله فية » .

(٦) للأعلم الهذلى . اللسان (خرق) .

فى المخارمِ » ، وهى التى تَجعل لصاحبِها منها مَخْرَجا . والأجْدَلُ ، مِن جَدَل الخلْقِ .

١٠ — وإذا نَظَرْتَ إلى أَسِرَّةِ وجْهِهِ   بَرَقَتْ كَبَرْقِ العارِضِ المُتَهَلِّلِ

الخطوط التى فى الجبهة الأغلب عليها سِرَارٌ ويجمع على الأَسِرّة ، والتى فى الكف الأغلبُ عليها سِرَرٌ و سُِرٌّ ويُجمع على الأسرار . قال :

أُنظر إلى كَفٍّ وأسرارِها   هَلّ أنت إن أوعدْتَنِي ضَائرِى[1]

وقد قيل : الأَسِرّة : الطرائق . يقول : إذا نظرْتَ فى وجه هذا الرّجل رأيتَ أساريرَ وجهِه تبرُق وتُشرِق إشراقَ السَّحابِ المتشقِّق بالبَرْقِ . يصفُه بحُسْن البِشْر وتَطَلُّق الوجْهِ فى[2] كلِّ حال . والعارِضُ : ما يعرض فى جانبٍ من السماء من السَّحاب . وعلى ذلك العارضُ فى الأسنان ، ولهذا قيل العارضان لما يبدو من جانبيها . ويقال : تهلَّلَ الرجُل فَرَحًا ، واهتلّ ، إذا افترَّ عن أسنانه فى التبسُّم .

١٣

قال آخر ، ويقال إنها لتأبَّطَ شَرًّا[3] :

١ — إنِّى لَمُهْدٍ من ثَنَائِي فَقَاصِدٌ   به لابْنِ عَمِّ الصِّدْقِ شَمْسِ بنِ مالكِ[4]

لا يُقال فى الهدِيّة إلاّ أهديتُ . ويُقال فى العَروس : هَدَيْتُها وأهدَيْتُها

(١) البيت للأعشى فى ديوانه ١٠٧ واللسان (سرر) . وعجزه لم يرو فى م . وهو فى الأصل : « ضائر » بالروى المرفوع ، وهو خطأ .

(٢) الكلام بعده إلى نهاية شرح هذا البيت ساقط من م .

(٣) عند التبريزى : « وقال تأبط شرا » . وقد سبقت ترجمة تأبط شرا فى المقطوعة ١١ . وعبارة الإنشاد هذه وما بعدها من البيتين الأولين وشرحهما ساقط من م .

(٤) شمس ، بفتح الشين هى الرواية التى اعتمدها المرزوقى . وسيأتى تنبيه على رواية ضم الشين .

جميعًا . والأصل واحد ، لأنَّ المعنى على القَصْدِ والدّلالة ، فيقول : إنى أمدح ابنَ عمِّى الـكريمَ الصادقَ فى الودِّ شَمس بن مالك ، بما أقْصِدُ به راغِبًا ، وأُنفِذُهُ إليه مُتْحِفًا . والمعنى : إنِّى فى غيبتى منه وحضورى له ، مولَعٌ بالثناء عليه ، فلا أُخْلِيهِ من المَدْحِ فى الحالتين جميعا . واللامُ فى قوله : « لابن عمّ الصدق » يجوز أن يتعلّق بمُهْدٍ ، يقال : أهديتُ له كذا ، وعلى هذا تكون أعْمَلْتَ الفِعْلَ الأوّل ، وما أهْدَاه يكون محذوفًا لعِلْمِ السامع بأنه يُريدُ شِعْرَهُ وتقريظَهُ . وكان الأجْوَدُ أن يقال فقاصِدٌ إيّاهُ به ، ويجوز أن يكون على قَوْلِ من يزيد « مِنْ » فى الواجب[1] أن يكون قوله ثانِى مفعولَ مُهدٍ ، فيكون أهْدَاهُ مذكورًا . ويجوز أن يتعلّق اللام بقولِهِ فقاصدٌ ، يقال قَصَدْتُه بكذا وقصَدْتُ له به . وعلى هذا تكون قد أعْمَلْتَ الفِعْلَ الثانى ، وهو المختار إذا جَمَعْتَ بين فعلين عند أصحابنا البصْريّين ، ويُقال هذا ثوبُ صِدْقٍ وأخو صِدْق ، وُضِع الصِّدْقُ موضع الفَضْلِ والصَّلَاح . والتَّسمية بالشَّمس كالتسمية بالبَدْرِ والهِلَال . وذكر بعضُ المتأخّرين[2] أنه يروى « شُمْسِ بن مَالك » بضمّ الشين ، قال : ويكون هذا فى أنّه عَلَمٌ لهذا الرجل فقط ، كَحَجَرٍ فى أنّه عَلَمُ أبى أوسٍ الشاعِرِ ، وأبى سُلْمَى فى أنه عَلَمُ أبى زهير الشاعر . والأعْلام لا مضايقة فيها .

---

(١) الأكثر فى « من » أن تكون زيادتها بعد النفى ، كما فى قوله تعالى : « ما جاءنا من بشير » . وفى التنبيه لابن جنى : « وسيبويه لا يرى زيادة من فى الواجب وأبو الحسن يراه ويحكى عن العرب فى تصحيحه قولها : قد كان من مطر ، وقد كان من حديث فخل عنى ، أى كان مطر وكان حديث » .

(٢) يعنى بذلك ابن جنى . ونصه فى التنبيه : « ومن رواه شمس بضم الشين فيحتمل أن يكون جمع شموس سمى به ، منه قول الأخطل :

شمس العداوة حتى يستقاد لهم وأعظم الناس أحلاما إذا قدروا

ويجوز أن يكون ضم الشين على وجه تغيير الأعلام نحو معديكرب ... وغير ذلك مما غير عن حال نظائره لأجل العلمية الحادثة فيه . وليس فى كلام العرب شمس علماء إلا هذا الموضع ، ولا فى كلامهم حجر علماً إلا أبو أوس الشاعر ، ولا فى كلامهم سلمى بضم السين إلا أبو زهير ابن أبى سلمى » .

٢ ــ أَهُزُّ بِهِ فى نَدْوَةِ الحَىِّ عِطْفَهُ كَمَا هَزَّ عِطْفِى بِالهِجَانِ الأَوَارِكِ

عِطْفُ كُلِّ شىء : جانبُه . ويقال ثَنَى عِطْفَهُ ، إذا أعْرَضَ وجَفَا . وكأنّ القَوْسَ والرِّداء سُمِّيَا عِطَافاً لاشتمالهما عند التوشّح بهما على العِطْف . يقول : أُحَرِّكُ بالثَّناء جانبَه كما حَرَّكَ جانبى بمطيّته ، أى أَسُرُّهُ بذلك حتّى يرتاح ويطرب كما سَرَّنى حتَّى اهتززت . والهِجَان : الإبل البيض الكرام . والأوارك : التى رَعَتِ الأَرَاكَ ، يُقَالُ أَرَكَتِ الإبل فهى أَرِكَةٌ . وقال ابن السكّيت : الأوارك التى تَرْعَى الأَرْكَ[1] ، وهو نَبْتٌ . والنَّدْوَةُ أصلُه الجَمْع ، ويقال نَدَاهُم النّادى ، أى جَمَعَهم . وانْتَدَى القَوْمُ وتنادَوا ، إذا تجمَّعوا . ومنه دار النَّدْوةِ . والنَّدِىّ : المجلس ، والجميع أَنْدِيةٌ . ويقع لفظُ هِجَانٍ للواحد والجمع ، يقال ناقَةٌ هِجَانٌ ونُوقٌ هِجَانٌ ، ومثله دِرْعٌ دِلاَصٌ ، ودروعٌ دِلاَصٌ ، وذلك لأنّ فِعَالاً وفَعِيلاً يتشاركان كثيرًا ، وكما جُمِعَ فَعيلٌ فِعَالاً كذلك جُمِعَ فِعَالٌ فِعالاً . ألا تَرَى أنّ العدد والوزنَ فيهما واحِدٌ وحرف المدّ من كل واحدٍ بإزاء ما فى الآخَر ؟ فإذا كان كذلك حُمِل عليه ، إلاّ أنّ فِعالاً إذا كان جَمْعًا يُنْوَى بحركاته وألِفه أنّها حركات بنائه وهو جَمْعٌ لا واحِد ، كأنّ الكسرةَ فى أوّلِهِ الكسرةُ التى فى أول ظِرافٍ وكِرَامٍ ، لا الكسرة التى فى أولِ حِمَارٍ وإزارٍ ، وكذلك أَلِفُهُ فاعلَمْه .

٣ ــ قَلِيلُ التَشَكِّى لِلمُهِمِّ يُصِيبُهُ كَثِيرُ الهَوَى شَتَّى النَّوَى والمسالكِ

المُهِمّ يجوز أن يكون من الهَمِّ الذى هو الحزْن ، ويجوز أن يكونَ من الهَمّ الذى هو القَصْد . يَقُولُ : هو صَبُورٌ على النوائب والعِلاّت ، لا يكادُ يتألّم

(١) كذا ضبط فى الأصل بالفتح ، وضبط فى القاموس بالكسر .

مما يَعْرُوه من المهمّاتِ . واستعمل لفظ القليلِ والقَصْدُ إلى نَفْي الكُلِّ ، وهذا كما يقالُ فُلانٌ قَليلُ الاكتراث بوعيدِ فُلانٍ ، والمعنى لا يكترث . وعلى ذلك قولُهم : قَلّ رجُلٌ يقولُ كذا ، وأقلّ رجُلٍ يقول كذا . والمعنى معنى النفى ، وليس يرادُ به إثباتُ قليلٍ من كثير . فإن قيل : من أين ساغ أن يُستعمل لفظُ القليلِ وهو للإثبات فى النفى ؟ قلتَ[1] : إنّ القليل من الشىء فى الأكثرِ يكون فى حكمِ ما لا يُعتَدُّ به ولا يُعرَّجُ عليه ، لدخولِه بخفةِ قدْرِه فى مَلَكَةِ الفناء ، والدُّروس والامّحاء ، فلما كان كذلك استُعمل لفظه فى النفى على ما فى ظاهرِه من الإثباتِ محترزين من الرد ، ومُجْملين فى القوْلِ ، وليكونَ كالتعريضِ الذى أثَرُه أبلَغ وأنكَى من التصريح . وقولُه : « كثيرُ الهوَى » طابَقَ القليلَ بقوله كثيرٌ ، من حيث اللفظ لا أنّه أثبت بالأوّلِ شيئًا نَزْرًا فقابلَه بكثير . والمعنى أنّه كثيرُ الهمّ مختلفُ الوجه والطرُق ، لا يوقَف منه على مَدَى غَوْرِه فى الأمور ، ولا يَقِف به أمَلُه على فَنٍّ لا يتجاوزه[2] إلى الفنون . ويريدُ بالهوى الجِنْس وكذلك النوَى ، وهى وِجْهَتُه التى ينويها . ومثله قول الآخر :

. . . . باقٍ   عَلَى الحدثانِ مختلِفُ الشُّؤون[3]

٤ ــ يَظَلُّ بمَوْماةٍ ويُمْسِي بغيرِها   جَحِيشاً ويَعْرَوْرِى ظُهُورَ المَهالِكِ

المَوْماةُ : المَفازة ، ووزنه فَعْلَلَةٌ ، وجمعها موامٍ . وإنما قال « يُمْسِي بغيرها » ولم يقُل يَبيت ، لأنّ قصدَهُ إلى أن يصفَهُ بأنه يقطَع فى بياض نهاره مَفازةً ، ولو قال يبيت لم يتبين منه ذلك . فيقول : بقطع المفاوزَ لاكتساب المكارم ، فتراهُ

---

(١) كذا ضبط بفتح التاء فى النسختين فى أشباه هذا الموضع .

(٢) م : « فلا يتجاوز » .

(٣) صدره عن التبريزى : * شديد مجامع الكتفين باق *

يكون نَهارَه بمفازةٍ فإذا[1] أتى عليه المَساء تجده فى أخرى فريداً وحيداً — ويقال : حَلَّ فُلانٌ جحيشاً ، أى منفردًا — ويركَبُ ظهور المَهالك وللعاطب غير مستصحبٍ رفيقاً ، ولا مستجمعٍ سلاحًا . وهذا كما يقال : أعرَوريتُ الفرسَ ، إذا ركبتَه عُرْيًا . وكانت طباعُهم أنَّ من كَدَّ نفسَه وابتذلَها ، وتوَحَّشَ فى المهالك ولزِمَها ، وتعرَّضَ للمعاطبِ ولم يتوقَّها ، كان ذلك أدْعَى إلى ما يُنَوِّهُ به ويميِّزه عن رِجالِ جِنْسِه . وانتصب « جحيشاً » على الحال ، وقولُها بغيرها لا يجوز أن يكون مستَقرًّا فاعلَه .

٥ ـ ويَسْبِقُ وَفْدَ الرِّيحِ من حيثُ يَنْتَحِى بِمُنْخَرِقٍ من شَدِّهِ المتدارِكِ

قوله « من حيث ينتحى » يجوز أن يكون للممدوح ، ويجوز أن يكون لوفْد الرِّيح ، لأنَّ المراد أنّه يسبقُه وإن أعطاهُ مُهْلَةً . ومعنى ينتحى : يَقْصِد . والشاعر إنّما يصف خفّتَهُ وتشَمُّرَهُ وجِدَّهُ وتيقُّظه ، فيقولُ : من حيث اعتَمَد فى السَّير جاء سابقاً للريحِ بعَدْوٍ له واسعٍ من عَدْوِه . المتدارِك : المتتابع . وجَعَل العَدْوَ منخرِقاً[2] لاتِّساعه . والمتدارِك . المتلاحِق . ويقال : أَدْرَكَ فلانٌ عِدَّةً من أصحابه ، أى لَحِقَهُم وشاهَدَ أيامَهُم . وأخذ أبو تمّام هذا فزاد عليه وإن كان فى لفظة ركاكة ، فقال :

فَمَرَّ ولو يجارِى الريحَ خِيلَتْ لديْهِ الرِّيحُ تَرْسُفُ فى القُيُودِ[3]

٦ ـ إذا خاط عينَيهِ كَرَى النَّوْمِ لم يَزَلْ له كالِئٌ من قَلْبِ شَيْحَانَ فاتِكِ[4]

الـكَرَى : النوم الخفيف ، وكأنه مأخوذٌ من كَرَيْتُ ، إذا عَدَوْت عَدْواً

(١) هذا ما فى م . وفى الأصل : « فإن » .

(٢) م : « متحركا » ، والصواب ما فى الأصل .

(٣) يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف الطائى . وقبله :

رآه العلج مقتحماً عليه كما اقتحم الفناء على الخلود

(٤) رواه التبريزى : « إذا حاص » ، وهى بمعنى خاط ، ثم نبه على رواية « خاط » .

شديداً . فقوله : « خاط عينيه » يريد مَرَّ فيه ، وليس يريد التمكُّن منه حتى يَجعلَ أجفانه كالمَخيطة . ومنه قَوْلُه :

* حَتَّى تُخَيَّط بالبياضِ قُرُونى[1] *

وأضافَ الكَرَى إلى النَّوم كما يُضاف البعض إلى الجِنْس ، كأنّ النوم لجنس الفِعْل ، والكَرَى لما كانَ على جهةٍ مخصوصةٍ . يقول : إذا نامَ النَّوْمَةَ التى أشارَ إليها لم يَزَلْ له رقيبٌ وحافِظٌ من قَلْبِ رَجُلٍ جَادٍّ فى الأمور ، مفاجِئٌ عِرِّيض ، وهذا الرّجُل هُوَ هُوَ . كأنه يريد إذا نام عينُه لا ينامُ قلبُه . والشَّيْحَانُ والشَّائِحُ والشِّيحُ : الحذِر الحازم . قال الهُذلىّ :

* وشايَحْتَ قَبْلَ اليَوْمِ أنَّكَ شِيحُ[2] *

والفاتِكُ : الذى يفاجِئُ غيره بمكروهٍ أو قَتْلٍ . وفى الحديث : « الإيمانُ قَيَّدَ الفَتْكَ[3] » . وقال الدُّرَيْدِى : هو الذى إذا هَمَّ بالشىءِ فَعَل .

٧ ــ ويَجْعَلُ عينيهِ رَبِيئَةَ قَلْبِهِ إلَى سَلَّةٍ من حَدِّ أَخْلَقَ بَاتِكِ[4]

يُرْوَى :

إذا طَلَعَتْ أولَى العَدِيِّ فَنَفْرُه إلى سَـلَّةٍ[5] ... ...

(١) ويروى : « تَخَيَّط » . والبيت لبدر بن عامر الهذلى ، فى اللسان والمقاييس (خيط) . وصدره :

* تالله لا أنسى منيحة واحد *

(٢) لأبى ذؤيب الهذلى فى ديوانه ١١٦ واللسان والمقاييس (شيح) . وصدره :

* بدرت إلى أولاهم فسبقتهم *

(٣) ويروى : « قيد الفتك » على المصدرية . وفى اللسان : « ومنه الحديث : أن رجلا أتى الزبير فقال له : ألا أقتل لك عليا ؟ فقال : فكيف تقتله ؟ فقال : أفتك به . فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قَيَّد الإيمان الفتك ، لا يفتك مؤمن » .

(٤) رواه التبريزى : « أخلق صائك » ولم يفسر الصائك ، وهو المتغير الريح . ثم روى رواية أخرى قال فيها « وهى أسلم الروايتين » . وهى كما رواها :

إذا طلعت أولى العدى فنفره إلى سلة من صارم الغرب باتك

(٥) انظر الحاشية السابقة .

وهى أَسْلَمَ الروايتين . والعَدِيُّ : الرَّجّالة الذين يَعْدُون قُدَّام الخيل . وهو اسم صِيغ للجَمْع ، كالـكَليب والضَّئِين . وعلى الرواية الأولى يقول : لا يَغْفُلُ قَلْبُه عن التحفُّظ ، وعينُه دَيْذَبَانُهُ إلى سَلِّ سيفه . فإنْ قيل : كيف يكون العَيْنُ دَيذَبان القلب ، وهذا يقول إذا نام بعينه لم ينَمْ بقلبه ، أم كيف تَصِحّ هذه الرواية وفيها يتكرّر معنًى واحدٌ فى مصراعَى البيتين ، وهل الواجب فى هذا إلاّ أن يقال إنّ القلبَ هو دَيذبان العين ، لأنّ العين نائمةٌ والقلب منتَبِهٌ ؟ قلتَ : إنّه وصَفَ حالتين ، بالمتقدِّم صِفةُ حال النّوم ، والثانى هو صفةُ حال اليقظة . والمعنى أنّ العين رقيب القلب ، والمنتظر لإظهار ما يكرَهُهُ وتغييرِه ، فإذا كره القلبُ شيئا كان العينُ صاحبَه الذى يُظهره ، فهو ربيئَتُه إلى نَزْعِ السَّيْفِ وتجريدِه ، وإنكارِه ما أنكره وتغييره . والأَخْلَقُ : الأَمْلَس . والباتِكُ : القاطع . وقوله « إلى سلةٍ » يجوز أن يكون إلى بمعنى مع ، كما تقول هذا إلى ذاك ، أى مع ذاك ، ويجوز أن يكون المعنى أنّها ربيئَته إلى أن يستلّ سيفَه ، وبعد ذلك فالعمَلُ للقلب ، ويكونُ إلى للانتهاء . وقوله : « من حَدِّ أَخلَقَ » فيه تَوَسُّع ، لأن السَّيف يُسْتَلّ من الغِمْدِ فيصير مسلولاً . ألا ترَى قولَه :

إذا سُلَّ من جَفْنٍ تأَكَّلَ أَثْرُهُ   على مثلِ مِصحاةِ اللُّجَيْنِ تأَكُّلا(١)

وهذا جعَل الجفْنَ مسلولاً والسيف مسلولاً منه . ألا ترى قولَه : « إلى سَلَّةٍ من حَدِّ أَخلَقَ » ، فهو فى ذلك كقولِهم : أدخلتُ الخُفَّ فى رِجْلى ، والقَلَنْسُوَةَ فى رأسى .

٨ — إذَا هَزَّهُ فى عَظْمِ قِرْنٍ تَهَلَّلَتْ   نواجِذُ أفواهِ المَنَايا الضواحِكِ

مثله قول الآخر :

سَقَاهُ الرَّدَى سَيْفٌ إذا سُلَّ أَوْمَضَتْ   إليه ثنايا الموتِ من كلِّ مَرْقَبِ

(١) لأوس بن حجر فى ديوانه ٢٠ واللسان (صحا) .

وإن كان هذا وصَفَ السيفَ وقوَّةَ صاحبه فى الضرْب . والمعنى أنه مَتَى حرَّكَه فى الضريبة ضَحِكَ الموت عِلماً بظفره بالمضروب . وذِكْرُ التهلُّلِ والناجذِ مَثَلٌ وتصويرٌ للمراد . وقوله « المنايا الضَّواحك » . أى التى من شأنها أن تَضحك عنــد الظفَر بمطلوبها ، وإنمــا قال « فى عَظم قِرن » إيذاناً بأنّه لا يتعرّض له إلا من يقارنه بأساً وشدَّة ، وكذلك هو لا يُعمل هذا السيفَ إلاَّ فى عَظم من يقارنه حَزْمًا ونَجْدةً . ونسبةُ التهلل إلى النواجذ مجاز وسَعَةٌ ، وهذا كما يقال سُرَّ فلانٌ بكذا حتى صار لــكل سِنٍّ له ضَحِكٌ . وقد سُمِّيَتْ ما يبدو من الأسنان عند الضحِك الضواحِك .

٩ ـ يَرَى الْوحْشَةَ الأُنْسَ الأَنيسَ وَيَهْتَدِى بحيثُ اهْتَدَتْ أُمُّ النُّجُومِ الشَّوَابِكِ

قوله : « يرى الوحشةَ الأُنْسَ » أى ذلك مذهبُه . وهذا كما يقال هو يرَى رأْى أبى حنيفة ، أى يذهب مَذْهبَه . فيقول : أُنْسُ هذا الرّجُل التامّ فى التفرُّدِ الذى يعُدُّه غيرُه وَحشةً . وإتْباعه الأُنْسَ الأنيس تأكيدٌ وإظهارٌ للمبالغة . وهذا كما قيل : ظِلٌّ ظليلٌ ، وداهيةٌ دَهْيَاء . وهم يَبنون من لفظ الشىء ما يُتْبعونه به طريق التأكيد . وقوله : « يهتدى بحيث اهتدَتْ » يصِفُ عِلمَه بالطُّرُق واستغناءه عن الدليل . وقد قيل فى « أُمِّ النجومِ » إنه الشمس ، وقيل هو المَجَرَّة . والمعنى أنه يهتدى بحيث تهتدى الشمسُ . ويُسمّى مُعظم الشىء أُمَّه . والشمسُ أعظمُ الـكواكب . ويسمَّى جامع الأشياء أُمَّها ، يُعنَى[1] أنها تأوى إليه . والشَّوابك : المشتبكة . وإذا جعلت أُمّ النجومِ المَجَرَّة فيجوز أن يكون المعنى أنه يهتدى بالـكواكب التى تجمعها ، فجَعَل الفِعْل لها لاجتماعها فيها . ويجوز أن يكون المعنى أنه يستغنى عن الدليل كما تستغنى تلك .

(١) م : « بمعنى » .

١٤

قال بعض بني قَيْس بن ثَعْلَبَةَ ، ويقال إنها لبَشَامَةَ بن جَزْءٍ[(١)] النَّهْشَلي :

١ — إنّا مُحَيُّوكِ يا سَلْمَى فَحَيِّينَا وإنْ سَقَيْتِ كِرَامَ الناسِ فاسْقِينا

يقول : إنَّا مُسَلِّمُون عَلَيْكِ أَيَّتها المرأة فقابلينا بمِثْله ، وإن خَدَمْتِ الكِرامَ وسَقَيْتِهِمْ فَأَجْرِينا مُجْرَاهُم فإنّا منهم . والأصل في التحية أن يقالَ حَيَّاكَ اللهُ ، ثم اسْتُعْمِلَ في غيرِهِ من الدُّعاء عند اللِّقاء . وأما قولُه :

ولَكُلُّ ما نالَ الفَتَى قد نِلْتُهُ إلا التَّحِيهْ[(٢)]

فالمراد به تحِيَّةُ المُلُوكِ خَاصَّةً ، وهو قولهم: أَبَيْتَ اللَّعْنَ ! وقيل في سَقَيْتِ إنَّ معناهُ : إن دَعَوْتِ لأَماثِلِ الناس بالسُّقْيَا فادْعِي لنا أَيْضًا . والأَشْهَرُ في الدُّعاءِ أن يُقال فيه سَقَّيْتُ فُلاَنًا فيُثَقَّل ، [والحجة في التخفيف قول أبي ذؤيب :

سَقَيت به دارَها إذ نأت وصدَّقت الخالَ فيه الأَنُوحا[(٣)]]

وعلى هذا يكونُ في الكلامِ إضمارٌ ، كأنه قال : وإن سَقَيْتِ بظَهْرِ الغَيْبِ الكِرَامَ بالدُّعاء عند ذِكْرِهم فافعلى بنا مِثْلَهُ ، وقُولِي سَقَاكُم اللهُ . وقد فَصَلَ بعضُهم بين سَقَيْتُ وأَسْقَيْتُ بأنْ قال: أَسقيتُهُ : جَعَلْتُ له سُقْيَا يَفعل بها ماشاء ، وسقَيته : أعطيته ماءً لفيه . ومثلُه كَسَوْتُهُ وأَكْسَيْتُهُ ، لأن معنى كَسَوْتُهُ

---

(١) كذا في النسختين . وعند التبريزي والمبرد ٦٥ والبغدادي (٣ : ٥١٥) : « حزن » . وكذلك عند ابن جني في المبهج . قال : « والحزن : الموضع الغليظ » . قال البغدادي : « والظاهر أنه إسلامي كما يظهر من شرح المبرد لأبياته » . أي لتنبيهه على أنه أخذ بعض معانيه من شعراء إسلاميين . انظر الكامل ٦٥ — ٦٧ ليبسك . ونسب ابن قتيبة الأبيات في الشعر والشعراء ٦٢٠ إلى نهشل بن حرى ، وفي عيون الأخبار (١ : ١٩٠) إلى بشامة .

(٢) لزهير بن جناب الكلبي في اللسان (حيا) والمعمرين ٢٦ .

(٣) التكملة من م . والبيت لم يرو في قصيدة أبي ذؤيب التي على هذا الوزن والرو . انظر ديوانه ١٢٩ — ١٣٦ لكنه نسب إليه في اللسان (أنح) ، وفسر الخال فيه بأنه المتكبر .

أَلبَسْتُهُ ، وأَكْسَيْتُه جَعَلْتُ لَهُ كِسْوَةً[١] ، وبعضُهم يجعلهما سواءً ، ويحتجُّ ببيت لبيد :

سَقَى قَوْمِي بَنِي مَجْـدٍ وأَسْقَى نُمَيْرًا والقبائلَ من هِلاَلِ[٢]

وإذا فُصِلَ بينهما فى البيت لم يختلَّ به لفظا ولا معنًى ، كما أنه إذا سُوِّىَ بينهما لم يختلّ معنًى ولا لفظا ، فكأنه لا حُجَّة فيه لواحدٍ من القَوْلَيْنِ . والقَصْدُ فى الدعاء بالسُّقْيَا إلى أن يُمِدَّ اللهُ المدعُوَّ له بما يزيد فى نمائِهِ ونَضارته . ألا تَرَى الآخرَ قال لما دَعا على ما تَسَخَّطَهُ[٣] :

إذا سَقَى اللهُ أرضاً صَوْبَ غادِيَةٍ فلا سَقَاهُنَّ إلا النارَ تَضْطَرِمُ

فذكر ما يُحرِق ويَستأصِل .

٢ـ وإنْ دَعَوْتِ إلى جُلَّى ومَكْرُمَةٍ يوْمًا سَرَاةَ كِرَامِ النَّاسِ فادْعِينَا

جُلَّى فُعْلَى ، أجراها مجرى الأسماء ويُرادُ بها جليلةٌ . كما يُرادُ بأَفْعَلَ فاعِلٌ وفعيلٌ ، نحو قولِه تعالى : ﴿ وَهوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ ، أى هَيِّن ؛ وكما قال :

* فتلكَ سَبِيلٌ لَسْتُ فيها بأَوْحَدِ[٤] *

أى بواحدٍ ؛ وكقولك : الله أكبر ، تريدُ كبير . يقول : إنْ أشَدْتِ بذكر خيار الناس بجليلةٍ[٥] نابَتْ ، أو مَكْرُمَةٍ عَرَضَتْ وسَنَحَتْ ، فأشيدى بذكرنا أيضاً . وهذا الكلام ظاهره استعطافٌ لها ، والقصدُ به التوصُّلُ إلى بيانِ

(١) ضبط فى النسختين بكسر الكاف ، ويقال كسوة أيضا بالضم .

(٢) وكذا روايته فى اللسان والتبريزى والديوان ١٢٧ . قال الطوسى : « مجد ابنة تيم بن غالب بن فهر بن مالك ، وهى أم كلاب وكليب ابنى ربيعة بن عامر بن صعصعة » . وفى م فقط : « بنى بدر » .

(٣) م : « ما يسخطه » .

(٤) صدره كما فى أمالى القالى (٣ : ٢١٨) :

* تمنى أناس أن أموت وإن أمت *

(٥) م : « لجليلة » .

شرفه واستحقاقه ما يستحقُّه الأفاضل الأشراف، والأماثل الكرام. ولا سَقْيَ ثَمَّ ولا تحيَّةَ ولا دُعاء ولا مَغَاثة. ألا ترى كيف اشتغل بمقصوده من الافتخار فيما يتلو هذا البيت. وهم كما يتخلصون من التشبيبات وغيرها إلى أغراضهم على اختلافها[1] فإنهم قد يتوصَّلون بمبادئ كلامهم إلى أمثالها، فتقلّ المؤونة، وتخفّ الكُلْفة. ولهذا نظائرُ وأشباهٌ تجيء فيما بعد. والسَّرَاة في الناس، والشَّراة بالشين معجمةً في المال والخيْلِ. وفي حديث أمّ زرع[2]: «فنَكَحْتُ بعدَهُ رَجُلاً سَرِيًّا، رَكِبَ شَرِيًّا، وأخذ خَطِّيًّا، وأرَاحَ عَلَيَّ نَعَمًا ثَرِيًّا». والجُلَّى بالألف واللام: تأنيث الأجلّ، كما يقال الأكبر والكُبرى، وكما قيل السَّبْعُ الطُّوَل جمع الطُّولَى. ولا يُحذف الألفُ واللام منه حينئذ، لأنَّ أصْلَه يكونُ أفعَلَ الذى يَتِمُّ بمِنْ. ويقال لكلِّ ما علاَ شيئاً: جَلَّلَهُ، ومنه الجَلاَلة.

٣— إنَّا بَنِي نَهْشَلٍ لا نَدَّعِي لِأَبٍ ... عَنْهُ وَلاَ هُوَ بالأَبْنَاءِ يَشْرِينا[3]

نَدَّعِي: نَفْتَعِلُ من الدِّعْوَة. وقوله «عنه» تَعَلَّقَ به. ويقال ادَّعى فلانٌ في بنى هاشِمٍ، إذا انتسبَ إليهم؛ وادَّعى عَنْهم، إذا عَدَل بنسبِهِ عنهم. وهذا كما يقال: رَغِبْتُ في كذا ورَغِبْتُ عن كذا. وقوله: «لأبٍ» أى من أجْلِ أَبٍ ولمكان أَبٍ. وانتصاب «بنى» على إضمارِ فِعل، كأنه قال: أَذْكر بنى نَهْشَل. وهذا على الاختصاص والمَدْح. وخبر إنّ «لا نَدَّعِي». ولو رَفَعَ فقال: بنو نَهْشَلٍ، على أن يكون خبر إنّ لكان لا نَدَّعِي في موضع الحال. والفَصْل بين أن يكونَ اختصاصًا وبين أن يكون خبَرًا صُرَاحًا: هو أنّه لو جَعَلَهُ خبرًا لَكَانَ قَصدُه إلى تعريف نفسِه عند المخاطَب، وكان لا يَخْلُو فِعْلُهُ لذلك من

(١) في الأصل: «على اختلافهم»، وأثبتنا ما في م.

(٢) انظر حديث أم زرع في أوفى رواياته عند السيوطي في المزهر (٢: ٥٣٢).

(٣) التبريزي: «إن كان الشعر للقيسي فالرواية: إنا بني مالك».

خُمُولٍ فيهم ، أو جَهْلٍ من المخاطَبِ بشأنهم. فإذا جُعِل اختصاصًا فقد أَمِنَ هو الأمرين جميعا . فقال مفتخرًا : إنَّا نَذْكر من لا يخفى شأنُه ، لا نَفْعَلُ كذا وكذا . وإنَّما قُلتُ خبرًا صُرَاحًا ، لأنَّ لفظ الخبرَ قد يُستعار لمعنى الاختصاص، لكنه يُسْتَدَلُّ على المُرَادِ منه بقرائنه ؛ على هذا قولُه :

* أَنَا أَبُو النَّجْمِ وشِعْرِى شِعْرِى[1] *

ومعنى البيت : إنا لا نَرْغَبُ عن أبينا فننتَسِبَ إلى غيره ، وهو لا يرْغَبُ عنا فيتبنَّى غيرَنا ويبيعَنا به ، لأنه قد رَضِىَ كلٌّ منا بصاحبه ، عِلْمًا بأن الاختيار لا يَعْدُوه لو خُيِّرَ فاختار . ويقال : شَرَيْتُ الشيءَ بمعنى بِعْتُهُ واشتريتُه جميعاً ، ومنه الشَّرْوَى ، وهو المِثْلُ .

٤ — إنْ تُبْتَدَرْ غايةٌ يَوْمًا لمكْرُمَةٍ تَلقَ السوابقَ مِنَّا والمُصَلِّينا

يقال : بادَرْتُهُ مكان كذا وكذا[2] ، وإلى مكانِ كذا . قال :

* فبادَرَهَا وكَجَاتِ الخمرْ *

وكذلك يقال : ابتدَرنَا الغَايَةَ وإلى الغَايةِ . وقولُه : « لمكرمةٍ » أى لاكتسابِ مكرمةٍ . ويجوز أن يكون اللامُ مُضِيفةً للغاية إلى المَكْرُمَةِ ، كأنّه يريدُ تَسَابُقَهُم إلى أقْصاها . يقُولُ : إن تُسْتَبَقْ نهايةُ مَجْدٍ أو غايَةُ مكرمةٍ ترَ السابقينَ مِنّا والتَّالينَ أيضا مِنَّا . وإنّما قال « المصلِّين ولم يقل المُصَلِّيَات مَعَ السَّوَابق ، لأنّ قَصْده إلى الآدميّين ، وإن كان استعارَهُما من صفات الخيل . ويجوز أن يكون أخرجَ السابقَ لانقطاعِه عن الموصوف فى أكثر الأحوالِ ،

(١) الرجز ينطق بنسبته إلى قائله ، وهو أبو النجم العجلى .

(٢) وكذا الثانية ، ليست فى م .

ولغيابته عن المُجَلِّي وهو اسم الأول منها[١] إلى باب الأسماء تَجْمَعه على السَّوابق، كما يقال كاهِلٌ وكواهلُ، وغاربٌ وغواربُ. والمُصَلِّي هو الذي يتلو السابق فيكون رَأْسُه عند صَلاَهُ. والصَّلَوان: العظمان الناتئان من جانبي العَجُز. وقال الدُّرَيدي: هو العظم الذي فيه مَغْرِز عَجْبِ الذَّنَب. وقال بعض أهل اللغة: هما عِرْقان في موضع الرِّدف.

٥ — لَيْسَ يَهْلِكُ مِنَّا سَيِّدٌ أَبَدًا إِلاَّ افْتَلَيْنَا غُلاَمًا سَيِّدًا فِينَا

نبّه بهذا الكلام على أنّ مَن يستحق السيادة فيهم يكثُر ولا يقلُّ، فمتى دَرَجَ منهم رئيسٌ ترشَّح[٢] لسدّ مكانِهِ واحدٌ. وهذا مثْلُ قوله:

وإنِّي من القوم الذين هُمُ هُمُ إذا مات منهم سيِّدٌ قام صاحِبُه[٣]

والافتلاء: الافتطام والأخْذُ عن الأمر، ومنه الفَلُوّ. والمعنى هنا الترشيح والتهيئة والصرفُ عما عليه إلى الرِّياسة. و«أبداً» في المستقبل بمنزلة قَطُّ في المُضِيّ. والقصدُ أنهم كلَّ وقتٍ على ذلك، فلا يحتاجون إلى الاستعانة بالأجانب دون الأقارب. والأبَدُ: الدَّهر، وقيل سُمِّيت الوَحْشُ أوابِدَ لأنها تُعَمَّر على الدَّهرِ، حتى لا تموتُ إلا بآفة. وأن يكُون من التأبُّد التوحُّش أحسَنُ، وإن أمكن رَدُّ الكلِّ إلى أصلٍ واحد.

٦— إنَّا لَنُرْخِصُ يومَ الرَّوْعِ أنْفُسَنَا وَلَوْ نُسَامُ بها في الأَمْنِ أُغْلِينَا[٤]

---

(١) م: «منها».
(٢) م: «رشح».
(٣) البيت للقيط بن زرارة كما في الحيوان (٣: ٩٣). ونسب إلى أبي الطمحان القيني في الكامل ٣٠ والوساطة ١٥٩. وذكر التبريزي أن البيت أيضا نظير قول أوس بن حجر:

إذا مقرم منا ذرا حدنا به تخمط منا ناب آخر مقرم

(٤) في الكامل ٦٧ أنه أخذه من قول الأجدع الهمداني:

« أُغلينا » الألف للإطلاق ، والنون ضمير الأنفس ، ومعنى أُغلينَ: وُجِدَتْ غاليةً أو جُعِلَتْ غاليةً . وهو هكذا أجْوَد ، وليس يُريد أنهم مع الغلاء يمكّنون منها ، بل المرادُ قطعُ المَقْدُرَةِ عنها . ومثْل هذا :

نُعَرِّضُ للسُّيوفِ بكلِّ ثَغْرٍ خُدُودًا لا تُعَرَّضُ للسِّبَابِ[1]

فيقول : نَبتذل أنفسَنا فى الحروبِ ولا نصونُها ، ولو عُرِضَ علينا إذالتُها فى غيرها لامتَنَعْنا . وهذا لِحرْصِهِمْ على تخليد الذِّكر الجميل ، والأبانة عن مَحَلّ النفس فى الشجاعةِ . والرُّخْصُ فى السِّعر : سُهولتُه ولينُه ، وهو من قولهم فيما أظن امرأةٌ رَخْصةٌ ، إذا كانت ناعمةً . وقولُه : « ولو نُسامُ بها » أى نُحمَل على أن نَسومَ بها . ويقالُ سامَ بسلعته كذا وكذا ، واستامَ أيضاً ، وأَغْلَى السَّوْمَ والسِّيمَةَ . وأَسَمْتُهُ أنا ، أى حَمَلْتُه على أن سامَ . ولا يمتنع أن يكون قولُهم : سُمْتُه خَسْفا ، أصله من ذاك وإن استُعْمِل فى المكروه ، ومنه قولُه تعالى : ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ . وفى البيت طِباقٌ بذكر الإرخاص والإغلاء ، والرَّوْع والأمن ، فى موضعين ، وهو حسنٌ جيِّد .

٧ — بِيضٌ مَفارِقُنا تَغْلِى مَرَاجِلُنا نَأْسُو بأموالنا آثارَ أَيْدِينا

يُروى : « بِيضٌ معارفنا » ، وهى الوجوه . والمراد بذلك نَقاء العِرضِ وانتفاء الذّمّ والعيْب . ويقال : امرأةٌ حسنةُ المعارِف ، أى الوجْهِ بما يشتمِلُ عليه . وقيل الأنفُ وما والاهُ . وقيل : الحُسْنُ فى الأنف ، والمَلاحةُ فى

— لقد علمت نسوان همدان أننى لهن غداة الروع غير خذول
وأبذل فى الهيجاء وجهى وإننى له فى سوى الهيجاء غير بذول

ومن القتال الكلابى حيث يقول :

أنا ابن الأكرمين بنى قشير وأخوالى الكرام بنو كلاب
نعرض للطعان إذا التقينا وجوها لا تعرض للسباب

(١) عند التبريزى : « إذا التقينا نفوسا » .

الأسنان . وواحدُ المعارِفِ مَعْرَفٌ ومَعْرِفٌ[١] ، وكأنَّ الوجهَ سُمِّىَ بها لأنّ معرفةَ الأجسام وتمييزها تقعُ[٢] بها . والأشهر والأحسن « بيضٌ مفارقُنا » . ويجوز أن يكون أراد ابيضّت مفارقنا من كثرة ما نقاسى الشدائد . وهذا كما يقال أَمْرٌ يُشيِّبُ الذَّوائب . وفى القرآن : ﴿ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ . و « تَغْلِى مراجلُنا » أى حروبُنا ، كقول الآخَر[٣] :

تَفُورُ علينا قِدْرُهُم فَنُدِيمُها ... ونَفْثَؤُهَا عَنَّا إذا حَمْيُها غَلاَ

ويجوز أن يكون المراد : ابيضّت مفارقُنا لانحسار الشّعر عنها ، باعتيادِنا لُبس المَغافر والبَيْض ، وإدماننا إيّاه ، ويكون هذا كما قال :

قد حَصَّتِ البيضةُ رأسى فما ... أَطْعَمُ نَوْمًا غَيْرَ تَهْجَاعِ[٤]

وتكون المراجِلُ على هذا كنايةً عن الحروب أيضا . ويجوز أن يكون المراد : ابيضّت مفارقنا من كثرة استعمالنا للطِّيب ، ويكون كقول الآخر :

* جَلاَ الأَذفَرُ الأحوَى من المِسْكِ فَرْقَهُ[٥] *

ويكون على هذا معنى « تغلِى مراجلنا » أى قدورُنا للضِّيافة ، ويجوز أن يُريدَ : مَشِيبُنَا مَشِيبُ الكرام ، لا مشيب اللئام . وأنشد ابن الأعرابى فى نوادِره :

وشِبْتَ مَشِيبَ العَبْدِ فى نُقْرَةِ القَفا ... وشَيْبُ كِرامِ النّاسِ فوق المَفَارِقِ

وعلى هذا يُحْملُ المراجِلُ على أنّ المُراد بها قدور الضيافة . فأمّا قولُهُ : « نأسو

---

(١) ذكر فى اللسان والقاموس « المعرف » مفتوح الراء فقط .

(٢) هذه الكلمة من م ، وفى أصلها « يقوم » وكتب تحتها « تقع صح » إشارة إلى الصواب .

(٣) هو النابغة الجعدى ، كما فى اللسان (فثأ) ومقاييس اللغة (دوم) .

(٤) لأبى قيس بن الأسلت الأنصارى ، كما فى المفضليات (٢ : ٨٤) .

(٥) روى فى الكامل ١٠٣ ليبسك والبيان (٣ : ٣٠٥) :

جلا المسك والحمام والبيض كالدمى ... وفرق المدارى رأسه فهو أنزع

وانظر للخلاف فى نسبة الشعر الخزانة (٢ : ٥٣٢) .

بأموالنا آثارَ أيدينا » فإنما يريد ترَفُّعَهم عن القَوَدِ ودَفْعَ أطماع النَّاس عن مُقَاصَّتِهم ، فيداوون جراحاتِهم ببذل الأُرُوشِ والدِّيات . والأَسْوُ : مداواة الجُرْح وإن استعمِل فى موضع الإصلاح . قال :

والأُساةُ الشُّفَاةُ للدَّاءِ ذى الرِّيـــبةِ والمُدْرِكون الأَوْغَامِ(١)

ويُقال للضّارّ النّافع : يَشُجُّ ويأسُو . ومنه اشتقاق الإسوَة ، ويقال الأُسْوَةُ أيضا . ويُروى أنّ مُصْعَبَ بن الزُّبير لما انهزمَ الناسُ عنه يومَ مَسْكِنَ جعل يُقاتِل ويتمثّل :

وإنَّ الأُولَى بالطَّفِّ من آلِ هَاشِمٍ تَأَسَّوا فَسَنُّوا للكِرَام التأسِّيَا(٢)

وفى البيت مع حُسن المعانى التى بيَّنْتُها توازُنٌ فى اللفظ مستقيم ، وسلامةٌ ممّا يجلب عليه التَّهجين .

٨ ـ إنّى لَمِنْ مَعْشَرٍ أَفْـنَى أَوائِلَهُم قَوْلُ الكُمَاةِ أَلا أَيْنَ المحامُونا(٣)

يقاربه قول الخَنْساء :

* أَقَلَّتْ مُسامَاةُ الرِّجَال عَدِيدَنا *

فيقول مفتخرًا إنّى لمِن قومٍ أهلَكَ أسلافَهُم قولُ الأبطال لَهُمْ ألا أين الذّابّون والمُحَامون ؟ فكانوا يتقدّمون ويفنَوْن . والكُمَاةُ : جمع الكَمِيّ ، وهو من قولهم كَمَى شهادتَه ، إذا كتمَها ؛ لأنَّ الشُّجاع يستغنى بالفَعَالِ ، عن الدَّعْوَى والمَقَال ، فكأنّه يستُر أمره وشأنه لوقت الحاجة ، ولأنّه إذا سَكَتَ دَلَّ على صِفَاتِه بلاؤُهُ .

٩ ـ لو كانَ فى الألفِ منّا واحِدٌ فدَعَوْا مَنْ فَارِسٌ خَالَهُمْ إيّاه يَعْنُونا

---

(١) فى الأصل : « للأرغام » بالراء ، صوابه بالواو كما فى م . والأوغام : الترات ، واحدها وغم .

(٢) كذا ورد إنشاده فى النسختين . وفى اللسان والكامل ١٠ :

* تآسوا فسنوا للكرام التآسيا *

(٣) رواية التبريزى : « قيل الكماة » .

يعنى بقَوْلِهِ « فَدَعَوْا » أعلنوا الاستغاثة بيَال فُلانٍ ، ومَن فَتًى ، ومه أشبهه . ويقال خِلتُهُ أَخَالُه خَيْلاً ومَخِيلةً وخَيَلاناً(١) . وهذا مثل قول طَرَفَةَ :

إذا القومُ قالوا من فَتًى خِلْتُ أنّنِي عُنِيتُ فلم أَكْسَلْ ولم أتبَلَّدِ

وقد زاد هذا عليه بقوله « لو كان فى الألف مِنّا وَاحِدٌ » . لأنّ ذلك قال : إذا القومُ قالوا من فَتًى ، فنصب نفسه مع قومه ؛ وهذا جَعَلَهُ مُنضمًّا مع الكثرة إلى الغرباء . وإنما قال : « مَن فارِسٌ » فَنَكّر ، كما قال طَرَفَةُ : « من فتًى » فنكّر . ولم يُعرّف واحدٌ ، منهما ، لأنّ السُّؤال بالمنكّر لشدة إبهامه يكون أشمَلَ لتناوله واحِدًا واحدًا لاسيَّا وليس القصد فى الاستفهام إلى معهودٍ معيَّن ، ولا إلى الجِنْس فيقال : من الفَتَى ، ومن الفارس . وفى هذه الطريقة قولُ الآخَر :

إذا القومُ قالوا مَن فتًى لعظيمةٍ فَمَا كُلُّهُمْ يُدْعَى ولكنّه الفتى

وبيت بشامة أجْوَد الثلاثة . وقد أحسن الفرزدق كلَّ الإحسان لمّا أشار إلى هذا المعنى فقال :

إذا ما قيل يا لَحُماةِ قَوْمٍ فَنَحْنُ بدَعْوَةِ الداعِى عُنِينَا

١٠ – إِذَا الكُمَاةُ تَنَحَّوْا أَنْ يَنَالَهُمُ حَدُّ الظُّبَاتِ وصلناها بأَيْدِينَا(٢)

إنّما قال حدّ الظُّبات – وظُبَةُ : السّيف حَدُّه – لأنّه أراد المضارب بأسْرِها . وكما صَلَحَ أن يُقال أَصابَتْهُ ظُبَةُ السيفِ صلح أن يُقَالَ حَدُّ الظُّبَةِ . وقيل الظبَةُ : طَرَفُ السيف ، والشباةُ حَدُّ طَرَفِه . يقولُ : إذا الأبطالُ تباعَدُوا عن المصادمة والمكافحة ، مخافة أن ينالَهُم حَدُّ السيوف مَدَدْنا أبْوَاعَنا إليهم بِها(٣) أو وصلناها ، وفى هذا المعنى قوله :

(١) ضبط فى النسختين بكسر الخاء . وفى اللسان والقاموس « الخيلان » بالتحريك .
(٢) رواية التبريزى : « أن يصيبهم » .
(٣) فى الأصل : « بنا » ، والكلمة ساقطة من م .

إذَا قَصُرَتْ أَسْيَافُنَا كان وَصْلُهَا   خُطَانا إلى أعـدائِنَا للتّضارب(١)

وقوله « تنحّوا أن ينالَهم » أى تنحوا أن ينالهم ، ومخافة أن ينالهم ؛ فلمّا حُذِفَ مِنْ وَصَلَ الفِعْل فَعمِل . وعلى هذا قولهم : تَحَصَّنَ فلانٌ أن يُطْلَبَ ، وقول الله تعالى : ﴿ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلّوا ﴾ . وقوله : « وصلناها بأيدينا » أى إذا عَجزت جعلْنا وُصَلَها أيدينَا . وهذه الأبيات إذا تُؤُمِّلَت فكلٌّ منها غاية يدعُو إلى نفسِه لَفْظًا ومعْنًى .

١١ — وَلاَ تَرَاهُمْ وَإِنْ جَلَّتْ مُصِيبَتُهُمْ   مع البُكَاةِ على من مَاتَ يَبْكُونا

يصف تعوُّدهم للثُّكْل ، وإلْفَهم للمصائب والقتل ، وأنَّ قلوبهم قد مَرَنَتْ عليها حتّى قَسَتْ ، فلا يبكون مع البكاةِ على من قُتِلَ منهم . ومثله قول عمرو بن كلثوم :

مَعَاذَ الإلٰه أن تَنُوحَ نِسَاؤُنَا   على هَالِكٍ أو أن نَضِيجَ من القَتْل

١٢ — وَنَرْكَبُ الكُرهَ أَحْيانًا فَيَفْرُجُهُ   عَنَّا الحِفَاظُ وَأَسْيَافٌ تُوَاتِينَا

يجوز أن يكون هذا كما قال الآخر :

* فخالَفْنَا السُّيوفَ على الدهْرِ *

ويجوز أن يكون أراد بالسيوف رجَالاً كأنّهم السيوف مضاء ونفاذًا . والأوّل أولَى . وإنما يصِفُ خِطارَهُم بمُهَجهم ، وركوبَهم المهالك ، ورمْيَهم بأنفسهم المَرَامِيَ المُعْطِبَةَ . فيقول : إذا فعلْنا ذلك فى الوقت بعد الوقت ، وسَّعَتِ المضايقَ عنَّا مُحافَظَتُنَا على الكرم وصَبْرُنا على الشدائد ، واستمالنا سُيوفَنَا المطاوعةَ لنا . ومعنى

(١) كذا جاءت الرواية فى النسختين . والمعروف فى رواية بيت قيس بن الخطيم :

إذا قصرت أسيافنا كان وصلها   خطانا إلى أعدائنا فنضارب

وللأخنس بن شهاب التغلبى فى المفضليات (٢ : ٧) :

وإن قصرت أسيافنا كان وصلها   خطانا إلى القوم الذين نضارب

يفرُجُه : يكشِفه ويوسِّعه . ويقال : فَرَج الله غَمَّه وفرَّجه ، بالتخفيف والتشديد . ومنه سمِّى ما بين القوائم : الفروج . وإطلاق لفظ الفَرج على العَوْرَةِ يجرى مجرى الـكنايات . وعلى هذا قيل : رجُلٌ فُرُجَةٌ ، إذا كان كشَّافًا لأسراره .

١٥

عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثى ، ويقالُ إنَّهُ للسَّمَوْءَل ابن عَادِيَا اليهودىّ :

١ ــ إِذَا المرءُ لمْ يَدْنَسْ مِنَ اللُّؤْمِ عِرْضُهُ فكلُّ رِدَاءٍ يرتَدِيهِ جَمِيــلُ

يقال : دَنِسَ دَنَسًا ، وتَدَنَّسَ تَدَنُّسًا ، إذا تكلّفه . فيقول : إذا لم يتدنّس الرجلُ باكتساب اللُّؤْم واعتياده فأىُّ مَلْبَسٍ لَبِسَهُ بعد ذلك كان حَسَنًا جميلا . وذِكر الرِّداء هاهنا مُسْتَعَار ، وقد قيل : ردَّاه اللهُ رداءَ عَمَلِه ، فجُعِل كنايةً عن مكافأة العبْد بما يعمَله ، أو تشهيره به ، كما جَعَله هذا الشّاعر كنايةً عن الفِعْلِ نفسِه . وتحقيقه : فأىُّ عملٍ عَمِلَهُ بعد تَجَنُّبِ اللُّؤم كان حَسَنًا . واللؤم : اسمٌ لخصالٍ تجتمع ، وهى البُخل واختيار ما تتَّقيه المروءة[٢] ، والصَّبرُ على الدنيَّة ، ودناءةُ النّفسِ والآباءِ . وإذا يَتضمَّن معنى الجزاء ، والفاء مع ما بعده جوابه . وليس هنا من قول عمرو بن معديكرب :

ليس الجمـــــالُ بمئزرٍ فاعـلمْ وإنْ رُدِّيتَ بُرْدَا

---

(١) لم يذكر التبريزى النسبة الأولى فى صدر الإنشاد ، ولكنه ذكرها قبل تفسير البيت الأول . قال : « ويقال إنها لعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثى ، وهو إسلامى » . وهو السموءل ابن غريض بن عاديا ، المضروب به المثل فى الوفاء ، لأنه أسلم ابنه حتى قتل ولم يخن أمانته فى أدراع أودعها عنده امرؤ القيس . انظر الأغانى (١٩ : ٩٨ — ١٠٠) وابن سلام ١٠٩ . وهذا الإنشاد وما بعده من الكلام إلى البيت الثالث — ما عدا سطرا قبله — ساقط من م .

(٢) فى الأصل : « يتقيه » وعند التبريزى : « ما تنفبه » ؛ والمؤدى متقارب .

فيُعتقَد أنّه يريد بالرّداء الثيابَ بسبيلٍ ، فاعلمْه .

٢ ــ إذا المرْءُ لم يَحمِلْ على النَّفْسِ ضَيْمَهَا فلَيْسَ إلى حُسْنِ الثَّنَاء سَبيلُ[١]

يقول : إذا المرء لم يَحْمِل ظُلْمَ نفسِه عليها ، ولم يصبِّرها على مكارهها ، فليس له طَريقٌ إلى الثَّناء الحسن . وهذا يشير إلى كَظْم الغيظ ، واستعمال الحِلْم ، وترك الظُّلْمِ والبَغْى مع ذويه ، والصَّبر على المشاق ، وإهانة النفس فى طلب الحُقوق ؛ لأنّ مَنْ تعوّد هذه الأشياءَ علا ذِكْرُه ، وحَسُنَ ثناؤه . ويقال : ضامَهُ ضَيْماً ، وهو مَضِيمٌ ، إذا عَدَلَ به عن طريق النَّصَفَةِ واهتضمه . ومنه قيل : قعد فى ضِيم الجَبَلِ ، أى فى ناحيةٍ تَنْعدِل إليه[٢] . وكما استُعْمِلَ الضِّيمُ من ضَامَ ، كذلك استُعمل الهِضْمُ واحدُ أهْضَامِ الوَادى من هَضَمَ . ويَبْعُدُ من طريق المعنى أن يُرِيدَ بقوله « ضَيْمَهَا » ضَيْمَ الغَيْر لها فأضافَ المَصْدَرَ إلى المفعول ، لأنَّ احتمالَ ضَيْم الغَيْر لهم يأنَفُون منه ، ويعدّونَه تذلُّلاً .

٣ ــ تُعَيِّرُنا إنا قليـلٌ عَدِيدُنَا فقُلْتُ لها إنَّ الكِرَامَ قَليـلُ

يقال عَيَّرْتُه كذا ، وهو المختار الحَسَنُ ، وقد جاء عَيَّرته بكذا . قال عَدِىٌّ :

أيُّهَا الشامِتُ المُعَــيِّرُ بالدَّهْـ ـرِ أَأَنْتَ المــبَرَّأُ الموفُورُ

والمعنى أنكرَتْ منّاً قلّة عَدَدِنا فعدّته عاراً ، فأجبْتُها وقلتُ إنّ الكِرامَ يقِلّون . والكَرَم : اسمٌ لخصالٍ تُضادُّ خِصالَ اللُّؤمِ ، وقد ذكرناها[٣] . وهذا الاعترافُ الذى حصل منه إنما هو اعترافٌ بقلّة العدد لا بقلّة القَدْرِ والغَناء .

---

(١) التبريزى : « وإن هو لم يحمل » .

(٢) فى الأصل : « فى ناحيته يتعدك إليه » تحريف . وفى الحماسة : « فى ناحية تعدل إليه » .

(٣) فى تفسير البيت الأول ص ١١٠ .

ألا تَرَى أنه رَجَعَ عليه بالنّفى فى البيت الثانى فقال :

* وما قَلَّ مَن كانت بقاياه مِثْلَنَا *

على أن قولَه « إنّ الكرام قليل » يشتمل على معانٍ كثيرة : وهى وَلوعُ الدّهر بهم ، واعتيام الموت إيّاهم ، وقلة النّسل فيهم ، واستقتالهم فى الدّفاع عن أحْسَابِهِم ، وإهانتُهمْ كرائم نفوسهم مخافةَ لزوم العار لهم ، ومحافظتُهم على عِمارة ما ابتناه أسلافُهم . وكلُّ ذلك يقلّل العَدَد ، ويقصر المَدَد . وقليلٌ وكثيرٌ يوصف بهما الواحد والجمع .

٤ — وما قَلَّ مَن كانَتْ بقَايَاهُ مِثْلَنَا شَبَابٌ تَسَامَى لِلعُلاَ وكُهُولُ

الهاء من قوله « بقاياه » راجعة إلى لفظ « مَنْ » لأنّ معناه الكثرة . ولو ردّ عليه[1] لقال بقاياهم . يقول : وما حصَلت القِلّةُ فى القَدْر والغَناء ، ولا لَحِقت الذِّلّةُ فى اللِّقاء والدفاع لأسلافٍ أخلافُهم نحنُ ، شبّانٌ وكُهُولٌ يتسامَون فى اكتساب المعالى ، ويترقّون فى درجات الفضل . و « شبابٌ » مَصْدَرٌ فى الأَصْل ووُصِفَ به ، ولذلك لا يثنّى ولا يُجْمَع . يقال شَبَّ الصبىّ يَشِبُّ شَبَاباً . وقولُه « تَسَامَى » أراد تَتَسَامَى ، فحذف إحْدَى التاءين استثقالاً للجمع بينهما . فإن قلتَ : هَلّا أُدغمَت كما أُدغِمَتْ فى اُدّراك — والأصل تدارك ؟ قلت : ليس هذا موضعَ إدغام ، لأنّه فعل مضارع . ألا تَرَى أنه لو أُدْغِم لاحتيج إلى جَلْب ألف الوصْل لسكون أوّله ، وألفُ الوصل لا يدخل على الفعل المضارع . والكَهْل : الذى قد وخَطه الشيب ، ومنه اكْتَهَلَ النَّبْتُ ، إذا شَمِلَهُ النوْر .

٥ — وما ضَرَّنا أَنّا قليلٌ وجارُنا عزيزٌ وجارُ الأكثرينَ ذليلُ

فى هذا الكلام تعريض بعشيرة من جاذبه الكلام[2] . يقول : وما يضرّنا

(١) أى على المعنى . وفى م : « عليهم » .
(٢) م : « بالكلام » .

قلّةُ عددنا وجارُنا فى عِزٍّ ، وجار من لهم العدَدُ والكثرة فى ذُلّ . وقوله : « وما ضَرَّنا » يجوز أن يكون ما حَرْف نفى ، والمعنى لم يضُرَّنا ؛ ويجوز أن يكون اسمًا مستفهَما به على طريق التّقرير ، والمعنى أىُّ شىء يَضُرُّنا . والواو من قوله : « وجارُنا عزيزٌ » واو الحال ، أى لا يضرُّنا ذلك والحال هذا . وكذلك الواو من قوله : « وجار الأكثرين ذليل » واو الحال . وإنّما صَلَح الجمع بين الحالين لأنّهما لذاتين مختلفتين ، ولو كانا لذات واحدةٍ لم يَصْلُح . والعِزُّ والعزازة استُعمل فى القُدرَة والمَنْع ، وفى الصَّلابة والشِّدّة . ويقال : تعزَّز اللّحم ، لأنّ الكلَّ يرجع إلى أصل واحد ، كما أنّ الذُّل والذِّل الذى هو ضدُّه استُعمِل فى الانقياد والسُّهولة واللِّين والوَطاءة ، إذ جميعُه يدعو إلى شىء واحد . وفى طريقته :

فجارُكَ عند بيتك لحمُ ظَبْيٍ وجارِى عند بيتى لا يُرامُ

وقول الآخر[1] :

* وهم يَمْنَعون جارَهم أن يُقَرَّدَا[2] *

٦ — لنَا جَبَلٌ يَحْتَلُّهُ من نُجِيرُهُ مَنِيعٌ يرُدُّ الطَّرْفَ وهو كَلِيلُ[3]

ومثله :

لنا هَضْبَةٌ لا يدخُلُ الذُّلُّ وَسْطَهَا ويأوِى إليها المستجيرُ ليُعْصَمَا

وأراد بذكر الجبل العِزَّ والسموّ . فيقولُ : لنا جبلُ عِزٍّ يدخُله من نُدْخِله فى جوارِنا ، ممتنعٌ على طالِبِه ، يَرُدُّ لإشرافه وسُمُوقه طَرْفَ الناظر إليه وهو حسير .

(١) هو الحصين بن القعقاع ، كما فى اللسان (سنت ، ألس) .
(٢) صدره : * هم السمن بالسنوت لا ألس بينهم *
(٣) فى الأصل : « برد الطرف » ، صوابه فى م والتبريزى .

ومنيعٌ : اسم الفاعل من مَنُعَ مَنَاعَةً ومَنَاعًا[١] ، ومنه المَنَعَةُ . ويجوز أن يكون فعيلاً فى معنى مفعول ، أى ممنوع منه ، وكما استُعْمِل المنيع فى العِزِّ استُعْمِل أيضا فى العِفَّةِ ، فقيل امرأة منيعةٌ وممتنعةٌ[٢] أى عفيفةٌ . وحَلَّ واحتلّ بمعنًى . والطَّرْف : النّظَرُ والعين جميعا . وقال الدُّرَيْدِىّ : طَرْف العين امتداد لَحْظِها[٣] .

٧ — رَسَا أَصْلُهُ تَحْتَ الثَّرَى وَسَمَا بِهِ إلى النَّجْمِ فَرْعٌ لا يُنَالُ طَوِيلُ

رَسَا الجَبَلُ : ثبتَ أصلُه فى الأرض . ومنه رسَتِ السُّفُن ، إذا انتهت إلى قَرار البَحر[٤] . والرُّسُوُّ والرُّسوخ يتقاربان . والثَّرَى : النَّدَى . وما تحت الأرض ثرًى . ويقال : ثرًى ثَرِىٌّ ، على المبالغة . يقول : ثبت أصلُ هذا الجبل — وهو يريد العزّ على ما بيّنت — تحت الأرض وارْتَفَع به أَعْلَى طويلٌ لا ينال إلى محلّ النَّجم . والمرادُ : عِزُّنا أصلُه تحت الأرض السّابعة ، وفَرْعُه عند النجم . ومعنى لا يُنال : لا يُوصَلُ إليه ولا يُحَصَّلُ مثلُه . وكما كان يقال فى الرَّفيع الشّأن العالى القدْر : هو فى النجم وهو فى السُّكَاك ، وكان قصْده فى الفَرْع أنه مديدٌ حتَّى اتّصل بالنجم ، زاده صِفَةً فقال طويل . وقد طَابَقَ الرسُوَّ بالسُّمُوّ ، كما قابل الأصل بالفَرْع . ونقله أبو تمام فقال :

لنا نَبعَةٌ فرعُها فى السماء وفى هامة الحوتِ أَعْرَاقُها

٨ — وإنّا لَقَوْمٌ ما نَرَى القَتْلَ سُبَّةً إذا ما رأَتْهُ عَامِرٌ وسَلُولُ

كان وجه الكلام أن يقول : ما يَرَوْن القتل سُبَّةً ، حتّى يرجع الضمير من

---

(١) هذا المصدر مما لم يرد فى المعاجم المتداولة .

(٢) م : « متمنعة » .

(٣) نبه التبريزى إلى أنه روى بيت آخر بعد هذا البيت فى بعض الروايات ، وهو :

هو الأبلق الفرد الذى سار ذكره يعزّ على من رامه ويطول

(٤) م « إلى قرار الأرض » ، والمؤدى واحد . وفى اللسان : « ورست السفينة ترسو رسوا : بلغ أسفلها القعر وانتهى إلى قرار الماء ، فثبتت وبقيت لا تسير » .

صفة القوم إليه ولا تَعرَى منه ، لكنّه لمّا عَلِمَ أنّ المُرَادَ بالقَوْمِ هُمْ قال : ما نرى . وقد جاء فى الصّلة مثلُ هذا ، وهو فيه أفْظع ، قال :

* أنا الذى سَمَّتْنِ أُمّى حَيْدَرَهْ[١] *

والوجه « سَمّته » حَتَّى لا يَعْرَى الصّلةُ من ضمير الموصول . قال أبو عثمان للمازنىّ : لولا صحّة موردِهِ وتكرُّره لردَدته . فَضَّل عشيرته فى الصّبر على الموت ، والثّبات فى الحرب على عامرٍ وسَلُول ، وهما قبيلتان[٢] . فيقول : إذا حَسِبَ هؤلاء القتل والقتال عارًا ومنقصةً عدّها عشيرتى فخرًا ومكرُمةً . والسُّبّة : ما يُسَبّ به ، كما أن الخُدعةَ ما يُخدَع به . وأصل السَّبّ : القَطْع ، ثم اسْتُعْمِلَ فى الشَّتم . وهذا كما يقال : فلانٌ يُقَطِّعُ أعراضَ الناس . وقولُه : « ما نَرَى » أى لا نجعل ذلك مذهبًا .

٩ – يُقَرِّبُ حُبُّ الموتِ آجالَنا لنَا وتَكْرَهُهُ آجالُهُمْ فَتَطُولُ[٣]

قوله : « يقرب حبُّ الموت » أى حبُّنا للموت . وجعل فى مقابلته : « وتكرهُه آجالهم » لأنّه يشتمل على ما يوفّيها حَقّها من اللّفظ . وإنْ كانت[٤] من حيث المعنى قد حَصَلَتْ : ويبعِّد بُغْضُهُمْ إيّاه آجالهم . ويكون الشّاعر مُلِمًّا فى المصراع الأوّل بقول الآخر :

* رأيتُ الكريمَ الحُرَّ ليس له عُمْرُ *

لأنه يشير إلى أنهم يُغْتَبَطون لاقتحامهم المنايا ، وحِرْصهم على ملابسة

(١) لعلى بن أبى طالب ، كما فى اللسان (حدر ، سندر) .

(٢) التبريزى : « يعنى عامر بن صعصعة . وبنو سلول هم بنو مرة بن صعصعة بن معاوية ابن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان » .

(٣) ﻫ و : « يقصر حب الموت » ، كما سيأتى ، وكما عند التبريزى .

(٤) الضمير فى « كانت » للمقابلة . فى الأصل : « وهو وإن كانت » . م : « وهو وإن كان »

الحروب ، وأن أولئك يعمرّون لمجانبتهم الشرور ، وزهدهم فى مجاذبة العدوّ[١] .
ويجوز أن يكون أضافَ الحُبَّ من قوله « حُبُّ الموت » إلى الفاعل ، فيكون المعنى : يقرِّبُ حُبُّ الموت لنا آجالنا ، ويكون هذا كقول طَرَفَة :

أرَى الموتَ يعتامُ الكِرامَ ويصطفِى عَقِيلَةَ مالِ الفاحِشِ المتشـدِّدِ

ويكون على هذا قوله « وتكرهه آجالهم » محمولا على أنه إذا كرهت آجالهم الموتَ فقد كره الموتُ آجالهم أيضاً . ألا ترى قول دُرَيد :

أبَى القَتْلُ إلا آلَ صِمَّـةَ إنّهُم أبَوْا غيرهُ والقَدْرُ يَجرِى إلى القَدْرِ

وقول مُتمِّم :

* أرَى الموت طَلاَّعًا على مَن تَرَفَّعَا[٢] *

وإذا كان كذلك فالتقابل فى هذا الوجه حاصلٌ أيضاً . وبعضهم روى : « يُقصِّرُ حُبُّ الموت » واختارهُ ، ليكون القِصَرُ بإزاء الطول . وهم لا يُراعون مثل هذا إذا تناسبت المعانى وتقابلت ، ويكون ذلك منهم كالمتبرئ[٣] من التكلّف . ألا ترى أبا ذُؤَيْبٍ الهُذَلِيَّ قال :

وَشِيكُ الفُصُولِ بَعيدُ القُفُول إلا مُشاحًا به أو مُشِيحَا

وقد كان يمكنه أن يقول بطىء القفول فلم يُراعِ ذلك . وقد أحسَنَ عنترة كلَّ الإحسان فى سُلوكِ هذه الطريقة ، حين قال :

* ليْسَ الكريمُ على القَنَا بمُحَرَّمِ[٤] *

(١) م : « محاربة العدو » .
(٢) م : « توقعا » . وفى المفضليات (٢ : ٧٠) :

فلا تفرحن يوماً بنفسك إننى أرى الموت وقاعاً على من تشجعا

(٣) م « كالمبرأ » .
(٤) صدره :

* فشككت بالرمح الأصم ثيابه *

١٠ ـ وَمَامَاتَ مِنَّاسَيِّدٌ حَتْفَ أَنْفِهِ ولا طُلَّ منا حيثُ كان قَتِيلُ(١)

« حتفَ » انتصب على الحال ، ولم يُستعمل منه حُتِف ولا هو محتوف . وليس هذا مثل تبَسَّمَتْ ومِيضَ البَرْقِ(٢) ، فاعلمه . يقول : لم يَمُتْ رئيسٌ منّا على فراشِهِ ، بل مات ميتةً كريمةً فى الحرب تحتَ ظِلالِ السُّيوف والرّماح ، ولا أُبطِلَ دَمُ قتيلٍ منَّا حيث كان ، وعلى يدِ مَن اتفَّق . وهذا غاية ما يَتحَمَّدُ به الفُتَّاك وأبناء الحروب ، حتَّى إنّ بعضهم اعتذرَ عمن مات على فراشه فقال :

بِحَمْـدٍ من سِنانِكَ لا بِذَمّ أبَا قُرَّانَ مُتَّ على مِثَالِ(٣)

وفى هذه الطريقة قولُه :

كُتِبَ القَتْلُ والقِتَالُ عَلَيْنَا وعلى الغانياتِ جَرُّ الذُّيولِ(٤)

وقوله : « مات حتف أنفه » يقال إنّ أوّل مَن تكلم به النبىُّ صلى الله عليه وسلم . وتحقيقُه : كان حتفُه بأنفه ، أى بالأنفاس التى خرجت من أنفه عند نُزوع الرُّوح ، لا دَفْعةً واحدة . ويقال خُصَّ الأنفُ بذلك لأنه من جهته ينقضى الرَّمَق . ويقال : طُلَّ دمه يُطَلُّ طَلاًّ ، إذا أُهْدِر .

١١ ـ تَسِيلُ على حَدِّ الظُّبَاتِ نُفُوسُنَا وليست على غَيْرِ السيوف تَسِيلُ

يُروى : « تسيل على حدِّ السُّيوف نفوسُنا » . ولم يقل وليست على غيرها تَسِيلُ فى الروايتين ، لأنّهم يكررون أسماء الأجناس والاعْلام كثيرًا ،

(١) التبريزى : « ويروى :

* وما مات منا سيد فى فراشه *

وهذه الرواية رواية من يجعل القصيدة جاهلية » .

(٢) أى ليس من المنصوب على أنه مصدر مرادف .

(٣) المثال : الفراش . وفى قول الأعشى :

بكل طوال الساعدين كأنما يرى بسرى الليل المثال الممهدا

(٤) لعمر بن أبى ربيعة . الأغانى (٨ : ١٣٣) وزهر الآداب (٣ : ٧٦) وعيون الأخبار (٢ : ٤٩) .

ولا سيّما إذا قصدوا التفخيم بها . كما قال عَدِيٌّ :

لاَ أرَى الموت يسبقُ الموتَ شىءٌ   نَغَّصَ الموتُ ذَا الغِنَى والفقيرا

وفى الرواية الثانية — وهى المشهورة — أضافَ الحدَّ إلى الظُّبَات . وهذا فيه وجهان : أحدُهما أن يكون أراد بالظُّبَاتِ السيوفَ كلَّها ثمّ أضاف الحدّ إليها ، والمعنى : تسيل على حَدِّ السيوف دماؤنا وليست تسيل على غيرها . وهذا كما يُسَمّى السيفُ كما هُوَ نَصْلاً ، وكما يُسَمَّى السّهْمُ نَصْلاً كما هو . والثانى أن إضافة الحدِّ إلى الظُّبات كإضافة البعض إلى الكلّ ، ويكون التقدير : تسيل على الحدِّ من الظُّبَاتِ ، وتكون الظُّبَاتُ مَضَارِبَ السيوف . فإن قيل : كيف تبجّح بأن تكون دماؤهم تسيل على حَدِّ السيوف لا على غيره ؟ قلتَ : إنّ الدماء قد تُسال بالعِصِيّ وبغيرها مما لا يكون شرَفًا ، فعَدّ القِتلةَ التى تكون بالسَّيف أكرم . ألا ترَى أنّ بنى أسَدٍ يُسَمَّون « عبيد العَصَا » لمّا كان حُجْرٌ أبو امرئ القيس حينَ أوقع بهم قتلهم بها ، لتكون قِتلتهم ذميمة . وقد قُتل كثيرٌ منهم بالجلاميد والصُّخور ، ولذلك قال بعضهم :

جلاميدُ أملاء الأكُفّ كأنها   رءوسُ رِجالٍ حُلِّقَتْ فى المواسم (١)

وقال آخر (٢) :

ولا نُقَـــاتِلُ بالعصـ   ـىّ ولا نرامى بالحجارهْ

إلاّ عُـــلالَةَ أو بُدَا   هَةَ سابحٍ نَهْدِ الجُـزَارهْ

وإذا كان الأمر على هذا فمعنى التبجّح أن تكون منيّتهم بالسيوف ظاهرة .

وأما قوله :

لو بأبَانَيْنِ جاء يخطُبُهـا   رُمِّلَ ما أنفُ خاطبٍ بدَمِ (٣)

(١) انظر البيان (٣ : ١٥) والكامل ٣٣٣ ليبسك .

(٢) هو الأعشى . ديوانه ١٤٤ — ١١٥ .

(٣) لمهلهل بن ربيعة ، كما فى معجم البلدان (أبانان) .

فإنّ الفَحْل الهجِينَ إذا تعرّض للناقة الكريمة قُرِعَ أنفُه بالعصا وضُرِبَ وجْهُهُ بها ، فهو من ذاك مأخوذ .

١٢ ـ صَفَوْنا فلم نَكْدُرْ وأَخْلَصَ سِرَّنَا إناثٌ أَطابَتْ حَمْلَنا وفُحُولُ[1]

أشار بهذا الكلام إلى كَرَمِ المَناصِب والمَناسِب ، وطيب المَنبِتِ والمَغرِس . فيقول : صَفَتْ أنسابُنا فلم يَشُبْها كُدُورَةٌ . وخَلَّصَ نِكاحَنا أُمَّهاتٌ طَيَّبَتْ حَمْلنا ، وآباءٌ كَرَّمَتْ عُرُوقَنا . ويقال : كَدِرَ الماء يَكْدَرُ كَدَرًا وكُدُورا وكُدُورةً ، وهو أكْدَرُ وكَدِرٌ . وفى ضِدِّه صفا الماء يَصْفُو صُفُوًّا ؛ والصَّفاء الاسم . ومن أمثالهم : « خُذْ ما صَفَا وَدَعْ ما كَدِرَ » . والسِّرُّ : النِّكاحُ . وسِرُّ الشيء : خالصُه . ويجوز أن يكونَ قولُهم سُرِّيَّةٌ فُعْلِيَّة من هذا .

١٣ ـ عَلَوْنا إلى خَيْرِ الظُّهُورِ وحَطَّنا لوقتٍ إلى خيرِ البطون نُزولُ

يصف تردُّدَهم فى شَرَف المَصْعَد والمنحدر ، وكرم العُنْصر والمتحوّل ، كما ذكر طهارة المَنكِح والمولِد ، وجلالة المُعتَلَى والمستقرّ ، فيقول : عَلَوْنَا فى خير الظهور ، أى حصلنا فى أعلى المراتب من ظهور أكرم الآباء ، وحَدَرَنا منها لوقتٍ معلومٍ ـ يُشير إلى وقتِ الأطهار ـ نزولٌ إلى خيرِ البطون من أشرف الأمهات[2] . والمعنى أنَّا كِرام الأطرافِ . وهذه الأبيات إذا تُؤُمِّلت أدّى التأمُّل منها إلى سلامة اللفظ والمعنى من كل مَعاب[3] ، وحُصُولِ الفخامة والجلالةِ لها فى كل جانبٍ وبابٍ .

---

(١) نكدر ، ورد بفتح الدال فى النسختين ، ويجوز ضمها ، فإن ماضيها مثلث الدال كما فى القاموس .

(٢) أى نزول من ظهور آبائهم إلى خير بطون من أشرف أمهات .

(٣) معاب ، أى عيب ، وفى الاصل : « مصاب » صوابه فى م .

١٤ـ فنحنُ كماء المُزْن مافى نِصَابِنَا كَهَامٌ ولا فينا يُعَدُّ بَخِيلُ

ماء المطر أصفَى المياه عندهم ، فشبَّه صفاء أنسابهم بصفاء ماء المطر . والمُزنُ : السحابُ . وقوله : « ما فى نصابنا كَهَامٌ » ، أى ليس فينا كليل الحدِّ ، ولكن كُلٌّ منا ماضٍ نافذٌ ، ولا فينا بخيل فيُعَدَّ . وهو نَفْىٌ للبخل رأساً ، وليس يريد أن فيهم بخيلاً ومع ذلك لا يعدُّ[(1)] . ومِثْلُهُ :

* ولا تَرَى الضَّبَّ بها يَنْجَحِرْ[(2)] *

أى ليس بها ضَبٌّ رأساً فينجحر ، ومثل هذا كثير . ويقال كَهَمَ وكَهُمَ يَكْهَمُ ويَكْهُمُ كَهَامةً ، فهو كَهَامٌ وكَهِيمٌ . يقال ذلك للرّجُل إذا ضَعُف ، وللسيَّف إذا كَلَّ .

١٥ـ نُنْكِرُ إنْ شِئنَا على الناسِ قَوْلَهُمْ ولا يُنْكِرُون القَوْلَ حِينَ نَقُولُ

هذا مثل قول الآخر :

وما يستطيعُ الناسُ عَقداً نَشُدُّه ونَنْقُضُهُ منهمْ وإن كان مُبْرَمَا[(3)]

يصف رياستَهُم وعلوَّ كلامهم ونفاذَ حُكمِهم ، ورجوعَ الناس فى المهمّات إلى رأيهم ، والاعتمادَ على تدبيرهم[(4)] ومَشُورتهم . فيقول : نُغَيِّرُ ما نُرِيدُ تغييرَه من قول غيرِنا ، وأحَدٌ لا يَجسُرُ على الاعتراض علينا ، والإنكارِ لقولنا ، انقياداً لهوانا ، واقتداءً بحزمِنَا . وهذا كما قال الأعشى :

(١) لا يعد ، ساقطة من الأصل ، وإثباتها من م .

(٢) البيت لابن أحمر ، كما فى الخزانة (٤ : ٢٧٣) . وصدره :

* لا تفزع الأرنب أهوالها *

(٣) عند التبريزى : « نشده » و « وينقضه » .

(٤) فى الأصل : « فى تدبيرهم » ، وأثبتنا ما فى م .

* كُلٌّ سيَرْضَى بأن يُلْقَى له تَبَعا[1] *

١٦ — إذا سيِّدٌ مِنَّا خَلاَ قامَ سيِّدٌ قَؤُولٌ لِمَا قال الكِرَامُ فَعُولُ

يشبهه قول حاتم :

إذا مات منَّا سيِّدٌ قامَ بَعْدَهُ نَظيرٌ له يُغْنِي غَنَــاهُ ويَخْلُفُ

وقولُ عُرْوَةَ :

إذا ماتَ منهمْ سيِّدٌ قامَ بَعدَه عَلَى مجـدِه غمرُ المروءة سيِّدُ[2]

١٧ — وما أُخْمِدَتْ نارٌ لنادُونَ طارقٍ ولا ذَمَّنَا فى النازِلِينَ نَزِيلُ

أراد بقوله « نارٌ لنا » نار الضيافة . يقول : نُدِيم إيقادَها فلا تُطْفَا دون طارِقِ ليلٍ . والضيفُ إذافارَقَنا حَمِدَنا ولم يَذُمَّنا ، لحُسْنِ توفُّرِناعليه ، واحتفالِنا عند سَوْق الخير إليه . والنَّزِيل ، كالرَّفيق والجليس والأكيل . والطُّرُوق يَختصّ باللَّيل . وسُمِّىَ النجم طارقاً لذلك .

١٨ — وأيَّامُنَا مَشْهورَةٌ فى عَدُوِّنا لها غُرَرٌ معلومةٌ وحُجُولُ

يقول : وقَعاتُنا مشهورةٌ فى أعدائنا معلومةٌ ، فهى بين الأيّام كالأفراس الغُرِّ المُحَجَّلَةِ بين الخَيْل ، يُعرَف بلاؤنا فيها ، وحُسْنُ آثارِنا عند النُّهوض لها . وهذا كما قال :

* وإمَّا يَـكُنْ يومٌ أغَرُّ مُحَجَّلُ *

والتحجيل : أن يبيضَّ من الأوظِفة مواضعُ الحِجْلِ ، وهو القَيْدُ والخَلخَالُ .

---

(١) كذا فى الأصل ، وفى م : « يلفى لها » ، وفى الديوان ٨٦ : « بأن يرعى له » . وصدر البيت :

* تلقى له سادة الأقوام تابعة *

(٢) عجز هذا البيت من م . والبيت لم يرو فى ديوان عروة .

فإذا ارتفع التحجيل حتى يبلغ الفخذين فما فَوْقُ فهْوَ التجويف . قال طُفَيْلٌ :

* شَمِيطُ الذُّنابَى جُوِّفَتْ فهى جَوْنةٌ[(١)] *

١٩ــ وأَسيافُنا فى كل غَرْبٍ ومَشْرِقٍ بها من قِرَاعِ الدَّارِعِينَ فُلُولُ

مثله قولُ النابغةِ :

وَلاَ عَيْبَ فيهم غيرُ أن سيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلولٌ من قِرَاعِ الـكتائب

يقول : قد تَفَلَّلَتْ سيوفُنا بما نضارب بها الأعداء ، فى مشارق الأرض ومغاربها . وقال : « من قِرَاعِ الدَّارِعِين » ، لأن الغَرَض أن يكون عدوُّهم على غاية الاحتراز منهم ؛ وفى أكمل الاستعداد لهم . وقوله : « فى كل غَرْبٍ وَمَشْرِقٍ » ظَرْفٌ لِقراع الدّارِعِين . أى بأسيافنا فُلُولٌ من القِراع فى كل غربٍ ومَشْرِق .

٢٠ــ مُعَوَّدَةٌ أَلاَّ تُسَلَّ نِصَالُهَا فَتُغْمَدَ حتى يُسْتَبَاحَ قَبِيلُ[(٢)]

مثله قَوْل الآخر[(٣)] :

بأيْدى رِجالٍ لَمْ يَشِيمُوا سيوفَهُمْ ولَمْ تَـكْثُر القَتلَى بها حين سُلَّتِ

(١) عجزه كما فى الديوان ٦٠ واللسان (شمط ، جوف)

* بنقبة ديباج وريط مقطع *

(٢) فى الأصل : « قبيل » ، وصواب الرواية من م والتبريزى ، وهو ما يقتضيه التفسير بعده .

(٣) هو سليمان بن قتة ، أو الفرزدق . ديوانه ١٣٩ واللسان (شيم) والكامل ١٧٤ ليبسك والعمدة (٢ : ١٥١) . وقال المبرد « وهذا البيت ظريف عند أصحاب المعانى ، وتأويله لم يشيموا : لم يغمدوا . ولم تكثر القتلى ، أى لم يغمدوا سيوفهم إلا وقد كثرت القتلى حين سلت » . وقال ابن رشيق : « أراد لم يغمدوا سيوفهم إلا بعد أن كثرت بها القتلى ، كما تقول : لم أضربك و [أنت] لم تجن على إلا بعد أن جنيت على . وقال آخرون : أراد لم يسلوا سيوفهم إلا وقد كثرت بها القتلى . كما تقول : لم ألقك ولم أحسن إليك إلا وقد أحسنت إليك . والقولان جميعا صحيحان ، لأنه من الأضداد » .

وانتصبَ « مُعَوَّدَةً » على الحال . ويجوز أن تُرْفَعَ على أن تكون خَبَرَ ابتداءٍ مُضْمر ، والعامل فيه إذا كان حَالاً ما يَدُلُّ عليه قولُه : « بها من قِرَاعِ الدَّارعِينَ فُلُولُ » . فيقول : عُوِّدَتْ سيوفُنَا ألّا تُجرَّدَ من أغمادها فتُرَدَّ فيها إلا بعد أن يُسْتَباحَ بها قبائِلُ . ويقال : عَوَّدْتُه كَذَا فتعوّدَهُ واعتادَهُ . والعادةُ من العَوْدِ وهو الرُّجُوعُ ، ولذلك قالوا للمُواظِبِ على الشيء : هو معاوِدٌ له . وقولُه « فَتُغْمَدَ » ، يُقال غَمدتُ السَّيفَ وأغْمَدْتُه ، وأصْلُه السَّتْر ، ومنه تغمَّدَهُ الله برحمته .

٢١ ـ سَلِى إنْ جَهِلْتِ النَّاسَ عَنّا وعَنْكُمُ(١) وليْسَ سَوَاءً عَالِمٌ وجَهُولُ

يُرْوَى : «عَنّا فتَخبِرِى» . كأنّه استدلّ على تصحيح ما ادّعاها من الخصال التى عَدَّدَها بشهادة النّاسِ له وتصديقهم مَقَالَهُ . يقولُ : سَلِى النّاس عَنَّا إن جَهِلتِ ما حَكَيْتُه من أفعالنا حتى تُخبَرى فتؤمِنى به وتَسْكُنِى إليه ، فليس العالمُ بالشى كالمخمِّنِ أوالمُجوِّز أو الشَّاكِّ أو الحادِسِ أوالمقدِّر(٢) . والعِلْمُ قد يَحْصُل بإخْبارِ المخبرين كما يَحْصُل بالمشاهدة ، فلذلك دَعَاهَا إلى ما دَعَا من السُّؤَالِ والكَشْف . وقولُه :«فَتُخبَرِى» ينتصب بأنْ مضمَرَةً وهو جواب الأمر بالفاء . والسَّواء يكونُ مَصْدَراً وَوَصْفاً فى مَعْنَى مُسْتوٍ . يقال : هذا دِرْهَمٌ سَوَاءٌ ، أى مُسْتَوٍ ؛ وهذا دِرْهَمٌ سَوَاءٌ أى استواءٌ ، كما تقولُ هذا دِرْهَمٌ تَمَاماً ، أى تَمَّ تَمَاماً . وفى القرآن : ﴿ فى أَرْبَعَةِ أيّامٍ سَواءً للسَّائلين ﴾ أى مستويات ، وقرئ ﴿ سَوَاءٍ(٣) ﴾ على المصدر كأنّه قال : استواءً . حَكَى أبو الحسن الأخفشُ : هُمَا سَوَاءٌ وهما سَوَاءان .

(١) التبريزى : « عنا وعنهم » .

(٢) م : « أو المقلد » .

(٣) قراءة النصب على الحال هى قراءة الجمهور . وقرأها بالجر على النعت زيد بن على ، والحسن ، وابن أبى إسحاق ، وعمرو بن عبيد ، وعيسى ويعقوب . وقرأها أبو جعفر بالرفع ، أى هو سواء . تفسير أبى حيان (سورة فصلت) .

٢٢ ـ فإنَّ بني الدَّيَّانِ قُطْبٌ لقومِهم تدورُ رحاهُمْ حولَهُمْ وتجولُ

القُطْبُ : الحديدة في الطَّبَقِ الأسفلِ من الرحَى يدور عليها الطَّبَقُ الأعْلَى . وسُمِّيَ قُطْبُ السَّماء لما يَدُورُ عليه الفَلَكُ . وعلى التشبيه قالوا : فُلانٌ قُطْبُ بني فُلانٍ ، أي سَيِّدُهُم الذي يَلُوذون به ، وهو قُطْبُ الحَرْبِ .

١٦

الشَّمَيذَرُ الحارِثيُّ :

قال الدُّرَيْديُّ : شميذر : دابَّةٌ زعموا ، ولا أحْسِبُهَا عَرَبيَّةً صحيحةً .

قال البَرقيُّ : هذا الشِّعر لسُوَيْدِ بن صُمَيْعٍ المَرْثَديِّ ، من بني الحارث ، وكان قُتِلَ أخُوهُ غِيلَةً فقتَل قاتِلَ أخيه نَهارًا في بعض الأسْوَاقِ من الحَضَرِ .

١ ـ بَني عَمِّنَا لا تذكُرُوا الشِّعْرَ بَعْدَمَا دَفَنْتُم بِصَحْرَاءِ الغُمَيْرِ القَوَافِيَا

الصحراء : اسم للمكان الواسع ، وجَمْعُهُ صَحارٍ وصُحَرٌ . قال :

* أتِيٌّ مَدَّهُ صُحَرٌ ولُوبُ(١) *

وأصْحَرَ القَوْمُ : بَرَزُوا إليها ، ومنه قيل لقيته صَحْرَةَ بَحرةَ ، أي عِيانًا ومُبارَزَةً . يقول : دَعُوا التَّفاخُرَ في الشِّعْرِ وبالشِّعر ، فإنَّكم قَصَّرْتُم بصحراء الغُمَيْرِ ولم تُبْلُوا فيها فتنطلِق ألسنتكم لَدَى المساجَلَة ، وتستجيب قوافي الشعر لكم ، إذا أردتم نَظْمَها وإنشادَها ، عند المنافَرَة والمحاكَمَةِ ، لأنَّكم أمَتُّمْ قوافيَ الشِّعر ودفنتموها . فكما أنَّ الميِّت لا يُجيب إذا دُعِيَ ، كذلك لا يُجِيبُكم الشِّعر إذا أردتموه ، مع سُوءِ بلائكم ، وقُبْحِ آثارِكُم . والقافية : آخر البيت المشتملُ على

(١) لأبي ذؤيب الهذلي في ديوانه ٩٢ واللسان والمقاييس (صحر) . وصدره :

* سبي من يراعته نفاه *

ما بُنِيَ عليه القصيدة . وقد يُسمَّى البيت كما هو قافيةً . قال :

وقَافِيَـةٍ مِثْلِ حَدِّ السِّنَانِ تَبْـقَى ويَذْهَبُ من قَالَهَا(١)

قال الأخفش : وتسمَّى القصيدة بأسْرِهَا قافيةً . قال :

* فَمَنْ لِلقَوَافِي بَعْدَ كعب يَحُوكُهَا(٢) *

٣ــ فَلَسْنَا كَمَنْ كُنْتُم تصيبُونَ سَلَّةً فنَقْبَلَ ضَيْمًا أو نُحَكِّمَ قَاضِيَا

فى هذا الكلام تعريضٌ بقومٍ أشار إليهم بقوله : « كمن كنتم » ، وتصريحٌ المخاطَبين ، ومُجَاهَرَةٌ(٣) بالقَوْلِ ، فهو يرميهم بالضَّعف وأنّهم إذا نالوا من العَدُوِّ شيئا نالُوهُ سَرِقَةً . فيقولُ : لسنا كالذين كنتم تنالونَهُمْ سَرِقَةً ، فنلتزِمَ لكم الضَّيم ، أو ننْصِبَ حاكِمًا يقضى بيننا وبينكم . وأشار بالضَّيْمِ إلى التغميض على ما يكون من سَرِقتهم . وكأنَّ القومَ الذين أشار إليهم وانتفى من أن يكون حالُهُ كحالهم ، كانوا يقابِلُون سَرِقَتَهُم وتَجاسُرَهُمْ عليهم إمّا بالتغميض ، وهو التزامُ الضَّيْمِ عِنْدَهُ ، وإمّا بالمرافَعَةِ إلى الحاكِم ونَصْبِ المتوسِّط ، والعَجْزُ فى حُكْمِه . وانتصاب « نقبل » على أنه جوابُ النّفى بالفاء . ويقولون : فى بنى فُلانٍ سَلَّةٌ ، أى سَرِقَةٌ . وانتصابُ سَلَّةً على أنه مَصْدَرٌ فى موضِعِ الحال ، والتقدير : تصيبونهم سالِّينَ وساقِين .

٣ــ ولَكِنَّ حُكْمَ السَّيْفِ فِيكُمْ مُسَلَّطٌ فَنَرْضَى إذا ما أَصْبَحَ السَّيْفُ رَاضِيَا

يقولُ : مَتَى عَدَوْتم طَوْرَكُمْ ، أو خَرَجْتُمْ من حَدِّكُمْ ، فإنّا نُسَلِّطُ السيفَ

(١) البيت للخنساء ، كما فى اللسان .

(٢) البيت لكعب بن زهير فى الشعر والشعراء ١٠٣ ، ١٠٧ . وعجزه :

* إذا ما مضى كعب وفوز جرول *

(٣) م : « ومجاهدة » .

عليكم، ولا نَرْضَى إلا بحُكْمه فيكم . فمتى رَضِىَ رَضِينا[1] ، وفى طريقته قوله :

* ونَشتِمُ بالأفعالِ لا بالتَّكلُّمِ *

٤ ـ وَقَدْ سَاءَنِى مَاجَرَّتِ الحَرْبُ بَيْنَنَا   بَنِى عَمِّنَا لو كانَ أَمْرًا مُدَانِيَا

دَلَّ بقوله : « لو كان أمْرًا مُدَانيا » على أنه لم يسُؤه ما جَنَتِ الحربُ بينهم ، لأنّه وقع بالاستحقاق . ألا ترى أنّه قال ساءنى ذلك لو كان الأمرُ المؤدِّى إليه أمرًا مُدَانيًا ، وكنّا نعرفُ للاحتمالِ فيه موضعا ، وللصَّبْرِ عليه مَجَالاً ومَذْهَبًا . فأمّا والشّأن مُسْتَفْحِلٌ ، وتعدّيكم متفاقمٌ ، فإنّه لا يَسُوءنى . وقوله : « لو كان أمْرًا مُدَانيا » ، أراد لو كان الأمرُ أمرًا أَمَمًا اساءنى . وإذا كان كذلك فجواب لو متقدِّم ، وتلخيصه : لو كان ما تردَّدْنا فيه قريبًا لساءنى ما جنته الحرب بيننا ، ولكن الآن لم يَسُؤْ . وهذا تعظيم لما كان منهم إليهم ، وكالاعتذار عن الأخذ بالفَضْل عليهم ، وتَرْكِ الصَّفح عنهم .

٥ ـ فإنْ قُلْتُمُ إنّا ظَلَمْنا فلَمْ نكُنْ   ظَلَمْنَا ولكنّا أَسَأْنَا التَّقاضِيَا

رواه بعضهم : « فإن تَزْعُمُوا أنّا ظَلَمْنَا » . والزُّعْمُ فى دَفْعِ الدَّعْوَى أبلَغُ ، وإنما نبّه بهذا الكلام على أنه لا يَعُدُّ ما عُومِلُوا به ظُلْمًا ، مع كَوْنِ ابتدائه منهم ، وإن كان فيه سَرَفٌ . فيقولُ : إنِ ادّعيتُم علينا أنّا ظلمناكم فإنّا لم نظلمْكم ، مع عُدوانكم ، وسَبْقِكم إلى الشرّ وتهييجه ، ولكنّا أسأْنا فى تقاضيكم الحقَّ ، وإيفائكم الجزاء ، حين استخرجْنا بالعُنْفِ والقَهرِ ، ومجاوزَةِ الأدنى من الأمرَيْنِ إلى الأقصَى . فكأنه سَمّى ما عَدّه أولئك ظلما سُوءَ تَقاضٍ . والظُّلْمُ قيل فيه : إنه وضْعُ الشىء فى غير موضِعِه ، ولذلك قيل للأرضِ الصُّلْبةِ إذا حُفِرَتْ : مظلومةٌ ، وللسِّقاءِ إذا تُنُوولَ ما فيه قبل إدراكه : ظَلِيمٌ . وقيل : الظُّلْمُ :

(١) فى الأصل : « فمن رضى رضيناه » ، وأثبتنا ما فى م .

انتقاصُ الحق . قوله « فلم نَكُنْ ظَلَمْنا » إذا كانَ من حكم الجواب أن يكون طِبْقًا للابتداء ومبنيا عليه ، فمن الواجب عليه كان أن يقول : فإن قُلتُم إنّا كُنّا ظلمْنا . ألا تَرَى أنّا نقُولُ فى قولِ الله تعالى : ﴿ وما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ ﴾ إنه كان جوابَ قائلٍ قال كان الله سيعذِّبُهُمْ . فنَفَى على حَدِّ الابتداء وطريقته ، لـكنَّ الشاعر حَذَفَ مِن الابتداء كُنّا ، لأن ما فى الجواب يَدُل عليه .

١٧

وَدّاكُ بن نُمَيْلٍ المازِنِىّ

قال البَرقىّ هو وَدَّاكُ بن سِنَانِ بن نُمَيْلٍ(١) :

١ ــ رُوَيْدَ بَنِى شَيْبَانَ بَعْضَ وَعِيدِكُم ... تُلاَقُوا غَدًا خَيْلِى على سَفَوَانِ

رويْدًا : تصغيرُ إرْوادٍ ، وهو مصدر أَرْوَدتُ فلانًا ، على طريق التَّرخيم ، وانتصابه بفعلٍ مضمرٍ دَلَّ عليه لفظُه . وأكثر ما يجىء تصغير الترخيم يجىء فى الاعلَام ، وقد يُجْعَلُ رُوَيْدًا اسْماً لارْفُقْ ، فَيُبْنَى حينئذ كما يُبْنَى أَخَوَاتُهُ من أسماءِ الأفعالِ . على ذلك ما جاء فى المَثَلِ من قَوْلهم : « رُوَيْدَ يَعْلُونَ الجَدَدَ » . وقد تُزَادُ كاف الخطاب عليه فيقال : « رُوَيْدَكَ » ، على ذلك قولُهُمْ : « رُوَيْدَكَ الشِّعْرَ يَغِبَّ » . وقوله : « بعضَ وعيدِكم » انتصب بفعلٍ مُضْمَرٍ دَلَّ عليه رُوَيْدَ ، لأنَّ مع استعمالِ الرِّفْق كَفًّا عن بعض الوعيد ، فكأنَّه لما قال

(١) نميل ، وردت هكذا بالنون فى الأصل فى هذا الموضع وسابقه ، وهى رواية نص عليها التبريزى فيما يلى . ويبدو أن « وداكا » شاعر جاهلى ، ولم نعثر له على ترجمة . التبريزى : « وداك فعال من الودك والدكة ، وأصله الصفة ، ألا ترى أن فعالا بابه بالصفة ، وقلما توجد فى الأسماء . وفى الكتاب من ذلك الكلاء والجبان . قال أبو الفتح : وزادنا أبو على الفياد : ذكر اليوم . ووجدت أنا الجيار ، وهو السعال أو نحوه ، والصاروخ أيضا . ونميل : تصغير نمل أو نامل على الترخيم . ويقال فيه أيضا نميل بالنون » .

أَرْوِدوا يا بنى شيبانَ قال : كُفُّوا بَعْضَ الوعيد . وهذا تهكُّمٌ وسُخْرِيَّةٌ[١] . وقوله : «تلاقوا» ، الجَزْم على أنّه جوابٌ للأمر الذى دلّ عليه رُوَيْدًا . وإنّما جُعِلَ للأمْرِ الجوابُ لأنَّه ضُمِّنَ معنى الجزاء والشَّرْطِ . وسَفَوانُ : اسمُ ماءٍ قالوا هو من البَصْرَةِ على أميالٍ . ومعنى البيت مفهوم . وقولُه « غداً » لم يُشِرْ به إلى اليوم الذى يَلى يومَهُ ، وإنما دَلّ على تقريب الأمر ، فكأنه قال : تُلاقُوا خَيْلِي قريباً على هذا الماءِ[٢] .

٣ـ تُلاقُوا جِيادًا لا تَحِيدُ عن الوَغَى إذا ما غَدَتْ فى المأْزِقِ المُتَدانِى

الوَغَى ، أصله ، الجَلَبَةُ والصّوتُ ، وكذلك الوعَى بالعين غير معجمة . قال :

* كأنّ وَعَى الخُموشِ بجانِبَيْها[٣] *

وجِيَاد هاهنا : جمع جَوَادٍ ، يقال فَرَسٌ جوادٌ : عتيقٌ ، وخيلٌ جيادٌ : عِتاقٌ . وفى غير هذا المكان يكون جمع جَيِّدٍ . وتُلاقُوا بدل من تُلاقوا الأوّل . نَبَّهَ بهذا على أنّ المرادَ بالخيل الفُرْسانُ ، على عادتهم فى قولِهم الخَيْلُ والرَّجْلُ . قال الله تعالى : ﴿ وأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ ﴾ ، ولهذا قال فيما بعده :

---

(١) السخرية ، وردت فى النسختين بتشديد الياء ، وهو مصدر سخر به ، كما فى اللسان ، ولم ترد فى القاموس . والسخرية بتخفيف الياء اسم منه .

(٢) ابن جنى : « وبنى شيبان منصوب على نداء المضاف البتة فى القولين جميعا ، كقولك مع التنوين رفقا يابنى شيبان ، وكذلك حاله إذا بناه وجعله اسما للفعل فى الأمر كأنه قال : رويدكم يابنى شيبان ، أى انتظروا الأمر يابنى شيبان . فإن قلت : فهل تجيز أن تكون بنى شيبان مع كون رويد اسما للفعل مجرورا بإضافة رويد هذه إليه ، كما تقول فى الكاف والميم ، من رويدكم إنها مجرور بإضافة هذا الاسم المبنى عليه ويستدل على أنها اسم لا حرف خطاب بما حكاه سيبويه عنهم من قولهم رويدكم أجمعين وأجمعون ، فأجمعين توكيد للكاف والميم ، وأجمعون توكيد الضمير المرفوع فيه . فالجواب أن ذلك لا يجوز هنا ، من قبل أن هذه الأسماء المسمى بها الأفعال لا يؤمر بها الغائب ، وإنما هى موضوعة لأمر الحاضر » .

(٣) للمتنخل الهذلى ، كما فى اللسان (خمش ، وعى ، وغى) وديوان الهذليين (٢ : ٢٥) . وصواب الرواية « بجانبيه » لأنه فى صفة ماء . وعجزه :

* وعى ركب أميم ذوى زياط *

« تُلاقُوهُمْ فتعرِفُوا كيف صَبْرُهُمْ » . ويجوز أن يكون أراد بالخيل الدوابَّ ، ووصفها بأنها لا تَجْبُنُ عن الوَغَى ، لِدَوَام مُمارستها له ، وتعوّدِها إيّاهُ . ثم خَبَّرَ فى قوله : « تُلاقوهم » عن أربابِها ، فيقول : أَرْفِقُوا تُلاقُوا فُرْساناً كِرَامًا لا تَمَلُّ الحروبَ ولا تَعْدِلُ عنها إذا ابتكرَتْ فى مَضيقٍ منها ، تتلاحَمُ فيه الفُرسان وتتَدَانَى فيه الأبطالُ والشُّجعان . وإنّما قال ذلك لأنّه مع التدانى لا يكون إلاّ التّجالُد ، وعندهُ تَشْكَلُ الأُمّهات . والمَأْزِقُ : المَضِيقُ ، وكانَّ أصلَهُ من الأَزْق فى الحَرْبِ ، فهو مَفْعِلٌ منه .

٣— تُلاقُوهُمْ فتَعْرِفُوا كَيْفَ صَبْرُهُمْ عَلَى ماجَنَتْ فِيهِمْ يدُ الحدَثانِ

قوله « على ما جنت » يريد على جنايةٍ . وموضعه نصبٌ على الحال ، والعامِلُ فيه تَعرِفُوا . أو تُلاقُوا . يقول : تُلاقُوا من بلائهم ما يُسْتَدَلُّ به على حُسن صبرهم وثَباتهم فى جِلادِهِم ، هذا مع تحامُل الزّمان عليهم ، وسوء تأثير الدَّهر فيهم . وأصل الصّبر : الحبْسُ ، ومنه قُتِلِ فلانٌ صَبْرًا . وحَدَثُ الدَّهْرِ وأَحْداثُهُ وحَدَثاتُهُ وحوادثه : نوازِلُهُ .

٤— مَقَادِيمُ وَصَّالُونَ فى الرَّوْعِ خَطْوَهُمْ بِكُلِّ رقيقِ الشَّفْرَتَيْنِ يَمَانِ

مَقَادِيمُ : جمع مِقْدَامٍ . ويشبه هذا البيت قوله :

إذا قَصُرَتْ أسيافُنا كان وَصْلُها خُطَانا إلى أعدائنا للتضارُبِ(١)

وقد مرَّ مثلُه ، لكنّ فى هذا قَلْبًا ، وذاك أنه قال : وَصَّالُون خَطْوَهُمْ بكلِّ رقيق الشفرتين ، وكان الواجب أن يقول : كُلَّ رقيقِ الشفرتين بِخَطْوِهِمْ . ألا تَرى أنه قال : إذا قَصُرَتْ أسيافنا وصلناها بخُطانا ؟ وقال الآخر :

(١) سبق البيت فى ص ١٠٩ .

* نَصِلُ السيوفَ إذَا قَصُرْنَ بخطْوِنا(١) *

ومثل هذا البيت فى القَلبِ بل فى تبيين جواز القلب ، وقول حُمَيد بن ثَوْرٍ :

نَصِلُ الخُطَى بالسَّيفِ والسيفَ بالخُطَى   إذَا ظنَّ أن السَّيْفَ ذا الأَثْرِ قاصِرُ

٥ — إذَا استُنْجِدُوا لم يَسْأَلُوا من دَعَاهُمُ   لِأَيَّةِ حَرْبٍ أم بأيِّ مَكانِ(٢)

هذا مثل قوله :

لا يَسألون أخاهم حين يَنْدُبهم   فى النائبات عَلَى ما قالَ بُرْهانا(٣)

والمعنى : إنّا لا نَطْلُب العِلَلَ على المستنجِد توصُّلا إلى دفعِهِ أو مَطْلِهِ ، ولكنّا نعجّل غَوْثَهُ على كلِّ حالٍ . والاستنجاد : الاستصراخ . ورجل مِنجادٌ : مِغْوَان ، وقد أَنْجَدَنِى ، ويقالُ هُوَ نَجْدٌ من قومٍ أَنْجَاد . ومثله قولُ الآخر :

كُنّا إذا ما أتانا صَارِخٌ فَزِعٌ   كانَ الصُّرَاخُ له قَرْعَ الظَّنَابِيبِ(٤)

١٨

سَوَّار بن المُضَرِّبِ السَّعْدِى(٥) :

من سَعْدِ بنى تَمِيم . وقال البَرْقِىّ : من سعد بنى كلاب .

١ — فَلَوْ سَأَلَتْ سَرَاةَ الحَىِّ سَلْمَى   عَلَى أنْ قد تَلَوَّنَ بى زَمَانِى

(١) لكعب بن مالك الأنصارى كما فى الخزانة ٣ : ٢٢ والسيرة ٧٠٥ — ٧٠٦ وشرح شواهد المغنى ١٢٢ . ونسبه ابن قتيبة فى الشعر والشعراء ٢٧٩ إلى ربيعة بن مقروم . وعجزه :

* قدما ونلحقها إذا لم تلحق *

(٢) م : « أم لأى مكان » .

(٣) البيت ٤ من الحماسية الأولى .

(٤) لسلامة بن جندل فى المفضليات (١ : ١٢٣) .

(٥) المضرب بتشديد الراء المفتوحة ، ذكر التبريزى أنه سمى بذلك لأنه شبب بامرأة فحلف أخوها ليضربنه بالسيف مائة ضربة ، فضربه فغشى عليه ، فسمى مضربا لذلك . وهو شاعر إسلامى ، ذكر المبرد فى الكامل ٢٨٩ ، ٦٦٦ أنه هرب من الحجاج ، وقال :

أقاتلى الحجاج إن لم أزر له   دراب واترك عند هند فؤاديا

وذكره الآمدى فى المؤتلف ١٨٣ .

سَراةُ الناسِ : خيارُهُمْ . وشَراة الإبل بالشين معجمةً : كرامُها . وقد مَرَّ ذِكْرُه[١] . وقال الخليل : السَّرْوُ : سَخاءٌ فى مُرُوَّةٍ . وسَرَا يَسْرُو فهو سَرِىٌّ وقومٌ سَرَاةٌ ، ولم يجئ على فَعَلَةٍ غيرها . يعنى أن فَعَلة يُختصُّ بها الصَّحيح فى الجمع دون المعتلّ ، وذلك كالفَجَرةِ والفَسَقَةِ . وتلوُّن الزَّمان يشير به إلى تصاريفِهِ بالخير والشّر ، والنَّفع والضَّر . فيقول : لو بحثَتْ هذه المرأة بالسُّؤال عن أحوالى على تبَدُّل الأَبْدال ، وتغيُّر النَّفْع والضَّر بى فيما مضَى ، وتَنَقُّل الأحداث علىَّ مرةً بعد أخرى . وجواب « لو » يجىء من بعدِ قولِه : « أَنْ تَلَوَّنَ » ، وأَنْ إذا وُصِلَ بالماضى أفاد حَدَثًا ماضيًا ، وإذا وُصِلَ بالمستقبل أفاد حَدَثا مُستَقبلاً .

٢ ــ لَخَبَّرَها ذَوُو أَحْسابِ قَوْمِى وأعدائى فـكلٌّ قَدْ بَلاَنِى

قولُه : « لخبَّرها » جوابُ لو . وأَحْساب : جمع حَسَبٍ ، وهو ما يُحْسَبُ ويُعَدُّ عند التفاخُر . يقول : لو سألَتْ لأنبأها بخبرى أشرافُ قومى ، وأماثِلُ أعدائى ، فكلٌّ منهم قد خَبَرَنى . يشير بهذا الكلام إلى أنّ زعماء قبيلته وذَوِى الشرف من رَهْطِه ، يعترفون له بالفَضْلِ ، ويشهدُونَ له بما يَكْسِبُه جميلَ الذِّكر ، وأنّ أعداءه على ما قاسَوْا من وقَعاته بهم ، وكابدوا من بَدَراتِه فيهم ، لا يَجحدون تَبْريزَه ، ولا يُنكِرون تقديمَه . ومَن اعترَف له بالفضل مُواليه ومُعاديه ، وصَدَّقه فى دعواه أقارِبُه وأجانبُه ، فهو النهايةُ فى الكمال ، والغايةُ عند البحث عن الفَعَالِ . وقولُه : « فـكُلٌّ قد بلانى » اعتراضٌ حَصَل بين خَبَّر ومفعولِه ، وهو قوله « بذَبّى الذم » ، والفاء دخلت معلّقةً لجواب الجلةِ بها .

٣ ــ بِذَبّى الذَّمَّ عن حَسَبِى بمَالِى وزَبُّونَاتِ أَشْوَسَ تَيَّحَانِ

الباء من قوله « بذبّى » تتعلق بقوله لخبَّرها . وكأنّ الإخبار بحسن دِفاعِهِ

(١) انظر البيت ٢ من الحماسية ١٤ .

عن حَسَبِهِ بمالِهِ ، وكرَمِ مُحافظته على شرفه وحاله ، من تزكية ذوى الأحْسَاب من عشيرته وثنائهم عليه ، والإنباء بدفعِهِ مَعَرَّة الأشْوَسِ التَّيَّحان ، من إخبار أعدائه وشهادتهم له . فكما أَجْمَلَ فى الأول أجمل فى الثانى ، ثقةً بأن مسامع عند التفصيل يردُّ كُلاًّ إلى موضعه . وإنما خَصَّ ذوى الأحسابِ من قومِهِ لأنّ شهادتَهم أوجَه ، والتحاسُد لهم أشملُ ، والقَرينَ بمقَارِنه أعلم . وقوله : «زَبُّونات» فَعُّولات من الزَّبْنِ ، وهو الدَّفع . والتَّيَّحان : العِرِّيض المِقدام ، وهو فَيعَلاَن بفتح العين ، ولا يجوز أن يُرْوَى بكسرها ، لأن فيعِلان لم يجئ فى الصحيح فيُبْنَى المعتلّ عليه قياساً . وفيعِلٌ كسيِّدٍ من الأبنية المختصةَ بالمعتَلّ . ومثْل تَيَّحان هَيَّبانٌ ، وهما صفتان حكاهما سيبويه بالفتح ، ومثالهما من الصحيح قَيْقَبانٌ وسَيْسَبانٌ . وتَيَّحانٌ ، مَن تاحَ له يَتُوحُ ويَتِيحُ افتنان ، إذا أشرف وتهيّأ . ورجُلٌ مِتْيَحٌ ، ويقال قَلْبٌ مِتْيَحٌ أيضاً . وأُتيح له كذا . ومثْلُ الزَّبُّون البَيُّوت ، وهو السَّقيطُ[1] ، والهَمُّ المُبايتُ لصاحبه . يقال زَبَنَتْهم الحربُ ، وحَرْبٌ زَبُونٌ وطَحُونٌ . والزِّبْنِيَةُ واحد الزَّبَانِىّ من هذا . وَفِعْلِيَةٌ من الأبنية التى تلزمُها الهاء . والأشْوَسُ : الذى يُعْرَفُ فى نظرِه الغَضَبُ والحِقْدُ ، ثم استُعمل فى المتكبِّر والمَهيب .

٤ — وأَنِّى لا أَزالُ أَخَا حُرُوبٍ إِذَا لم أَجْنِ كُنْتُ مِجَنَّ جَانِ

فى هذه الطريقة قول الآخر :

وَلَمْ يَجْنِها لـكنْ جَناها وَلِيُّهُ فآسَى وآداه فكان كمن جَنَى[2]

ويُرْوَى : « وأنّى لا أزال أخا حُرُوب » فيعطف على بذبّى الذَّمَّ ، ويكون موضِعُه جرًّا ، ويكون هذا مما شَهِدَ به الأعداء له أيضاً . فإن كسرت إنّى

(١) السقيط ما سقط من الندى على الأرض .

(٢) آداه : عاونه . وهذه رواية م . وفى الأصلى : « وآذاه » بالذال معجمة .

فهو على الاستئناف والانقطاع عما قبله . والمعنى : إنّى أَلْبَسُ الحروبَ وأمارسُها دائمًا ، فإذا لم يكن لى من أحوالى وزمانى ما يبعثنى على مُجاذَبةِ الأعداء ومدافعتهم ، طلبت من قد شَقِيَ بمثل ذلك ، فدافَعتُ دونه وحامَيتُ عليه ، لأنى لا أصبِرعلى حالِ السلامة والسِّلْمِ . ومثله قول الآخر :

وما إنْ تراهُ الدَّهْرَ إلا مُغَرِّرًا   بنَفْسٍ أَبَتْ إلا صِعَابَ المَرَاكِبِ

١٩

آخر[١] :

١ ــ ولقَدْ شَهِدْتُ الخَيْلَ يَوْمَ طِرَادِهَا   فَطعَنْتُ تحتَ كِنانَةِ المُتَمطِّرِ[٢]

يقال : تَمطَّرَ الرَّجُل ، إذا أَسْرَع . ويقال مَطَرَ بِهِ ، وقَطَر به ، إذا بادر[٣] . وأراد بالخيل الفُرسان ، كأنَّه يخاطب بهذا الكلام مَن شَهِد معه المعركة ، نخبِّره بمعاملته المتمطِّرَ الذى عَهِدَهُ ، وقولُه : « تحت كِنَانَةِ » أشار به إلى المَقتَل . وهذا المتمطّرُ كأَنَّه كان بارَزَهُ ، أو أراد أن يُبادِرَ إلى أمْرٍ ، فحال بينه وبينه . والكِنانَةُ من الكَنِّ : السِّتْر ، لأنه يُصَانُ بها النَّبْلُ .

٢ ــ ولَقَدْ رأيْتُ غَدَاةَ شُلْنَ عَلَيْكُمُ   شَوْلَ المَخَاضِ أَبَتْ على المُتَغبِّرِ[٤]

يُروى : « ولقد رأيتُ الخيلَ شُلْنَ عليكُمُ » ، أى شائلة . والتقدير : وقد شُلْنَ . وأراد بالخيل هاهنا الدوابّ ، وهى تَشُولُ بأذْنَابها إذا اشتدّ عَدْوُها ؛

(١) التبريزى : « قال أبو رياش : هذه الأبيات لبعض بنى تيم الله بن ثعلبة ، يوم أوارة . وأوارة : موضع ، وهو الموضع الذى أحرق به عمرو بن هند بنى دارم » .

(٢) أشار التبريزى إلى رواية : « لبابة المتمطر » ، وقال : اللبابة : ثوب يتلبب به الرجل على ثيابه ، إذا تحزم لحرب » .

(٣) التبريزى : « والمتمطر : اسم رجل من لخم ، وهو من قولهم : تمطر الرجل ، إذا أسرع » .

(٤) ترتيب هذا البيت عند التبريزى ثالث الأبيات ، وثالثها هنا ثانيها عنده .

ويُستدَلُّ بذلك منها على قوة ظَهرِها . فيقول : لقد رأيتكم منهزمين والخيل تَعْدو عليكم رافِعةً أذنابَها ، رَفْعَ النُّوقِ الحَوامِلِ لها إذا طُلب حَلَبُ غُبْرِ لبنِها . والغُبْر : البقيّة تبقَى من اللّبن فى الضّرْع . ويُقالُ تَغبَّرْتُ الغُبْرَ ، كما يُقالُ تَحَلَّبْتُ المحلوب . والمَخاضُ لا واحدَ لها من لفظها ، وهى اسم مفردٌ موضوع للنُّوق الحوامل ، والواحد من غير لفظها : خَلِفَةٌ . وقوله : « أَبَتْ على المتغبِّر » قَدْ معه مضمرة ، وهو واقعٌ موقع الحال . أراد : رأيتُ الخيلَ شائلةً أَذنابَها عليكم شَوْلَ المَخاضِ آبيَةً على المتغبِّر . ومن روى : « ولقد رأيت غَدَاة » فقد أضمر مفعول رأيت ، وهو الخيل . وساغ ذلك ، لأنّ قوله ولقد شهِدتُ الخيلَ — وإن أُريد به الفُرسان — يدلُّ عليه .

٣— ونُطاعِنُ الأَبْطَالَ عن أَبْنَائِنَا وَعَلَى بَصَائِرِنا وإنْ لم نُبْصِرِ

ذَكَر الأبناء كِنايةً عن الحُرَم ، كما قال الآخر :

* نُقَاتِلُ الأَبْطَالَ عن بَنِينَا *

والبصائر : جمع بَصيرة ، وهو ما يستدِلُّ به الرجُل من رأيه وعَقْلِه على ما يَغِيب منه . وعلى ذا سُمِّيَت الطَّرِيقةُ من الدم بصيرة ، لأنّهُ يُستدلُّ بها على الجُرْحِ ، وفُسر قوله :

رَاحُوا بصائرُهُم على أكتافِهِمْ وبصيرتى يَعْدُو بهَا عَتَدٌ وأَى[(١)]

على الوجهين جميعاً . فإذا جعلنها بصائر الرأى يكون المعنى خَلَّفُوا آراءهم وطرحُوهَا ، كما يقال تركْتُ الرّأى بموضع كذا وكذا ، وجَعَلْتُ غَداً منِّى عَلَى ظَهْرٍ[(٢)] . ومعنى « وبصيرتى يعدُو بها عَتَد وأَى » أنّ رأيه معه نافِذٌ مستمرٌّ ،

(١) للأسعر الجعفى من قصيدة فى أول الأصمعيات طبع ليبسك. وأنشده فى اللسان (وأى) .
(٢) م : « بظهر » .

وإذا جَعَلْتَها بصائرَ الدَّمِ يكون المعنى أنّهم مهزومون مَكْلُومُون(١) فى ظهورهم وأقفائهم ، فدماؤهم على أكتافهم . ومعنى « وبصيرتى يعدو بها عَتَدٌ وأى » فى هذا الوجه أن دَمِى سَالِمٌ فى نفسى وفَرَسى يَعْدُو بى . ومعنى البيت : إنا ندافع عن حُرَمِنَا وحريمنا ، وعلى ما يعترض فى الوقت ، نَفْعَلُ ذلك وإن لم نُبْصِرْ عاقبة الأمر ، ولم نَتَتَبَّعْها بالفكر فيها ، وتأمُّل نتائجها ، فَنَعْلَمَ مَوَادَّها . وهذا شأنُ الفُتَّاك فيما يُمَشُّونه من أحكام الحرب وينفّذونه ، ويفْتِلونه من أسباب الجِذاب والنِّزاع ويُبْرِمونه . وقد قيل فى هذا البيت إنّه كما حُكِىَ عن مُسَيْلِمَةَ حين قال لبنى حنيفة : « قاتِلوا عن أحسابِكم ، فأمّا الدينُ فلا دينَ » . وكأنّ المعنى على هذا : وعلى بصائرنا فى الحرب عند المحافظة على الشرف وإن لم نُبْصِرِ أمرَ الدين . وهذا بعيدٌ متعسّفٌ ، وإذا تأمَّلْتَهُ ظَهَرَ لك . وفى الطريقة الأولى قول القُطَامِىّ :

وخَيْرُ الأمْرِ ما اسْتَقْبَلْتَ مِنْهُ وَلَيْسَ بأنْ تَتَبَّعَهُ اتِّباعا

وسمعت بعضَ أصحاب المَعانِى يقول : المعنى إنّا نُقاتل الأبطالَ جَرْيًا على عادةِ النّاسِ عند نَظَرِهم لدُنياهم ودينِهم ، فى الذَّبِّ عن الحُرَمِ والعشيرةِ والشَّرَفِ ، وعلى الأديان والاعتقادات والبصائر ، وإنْ لم نُبْصِرْ وجْهًا واحدا من هذه الوجوه نُقاتِلْ أيضاً ، لأنّ هَمَّنا القتلُ والقتال . قال : فَحُذِفَ مفعولُ وإن لم نُبْصِرْ لأنّ المراد مفهوم . وكذلك حُذِفَ جوابُ إنْ ، لأنّ فيما تقدَّم دليلاً عليه .

---

(١) م : « مكلمون » .

٢٠

القَطَرِىُّ بن الفُجَاءةِ المـازِنِى (١)

١ — لا يَرْكَنَنْ أَحَدٌ إلى الأحجامِ   يومَ الوَغَى مُتَخَوِّفًا لِحِمَامِ

قَصدُه إلى البعثِ والتحضيض ، على التغرير بالنفس والتعريض . ألا تَرَى أنه يحثُّ بهذا الكلام على ترك الفِكر فى العواقب ، ورَفْض التحرُّز خوفاً من المعاطِبِ . ويُنبِّه على أن الحذَر لا يُنجِي من القَدَرِ ، وأن الأجَلَ إذا جاء لم تُغْنِ معه قُوّة الأمل ، فيقول : لا يَميلَنَّ أحدٌ إلى هَجْرِ الإقدامِ ، والسكونِ إلى الإحجام فى الحرب مُتَخَشِّعاً من الموت . والإحجامُ : مطاوعةُ حَجَمْتُ أى كَفَفْتُ ودفَعْتُ . فهو كالإكْبابِ فى أنه لمطاوَعَةِ كَبَبْتُ . ويقال حَجَمْتُ البعير ، إذا خَطَمْتَهُ بما يمنعه من العَضّ ، ويُسَمَّى ذلك الشىء الحِجَامَ .

٢ — فَلَقَدْ أَرَانِى للرِّماحِ دَرِيئَةً   مِنْ عَنْ يَمِينِى مَرَّةً وأَمَامِى

الدَّرِيئَةُ تُهمَز ولا تُهمَز ، فتُجعل من الدَّرْءِ وهو الدَّفْعُ ، ومن الدَّرْيِ وهو الخَتْل ، ولهذا سُمِّيَت الدابّة التى يختل بها الصيدُ ليُمْكِنَ فيُرمَى : دَرِيَّةً ، والحَلْقةُ التى يُتعلَّمُ عليها الطَّعن دَرِيئةً . ويُمكن حَمْل البيت عليهما جميعاً . فإذا جَعَلتَ الدَّرِيئة الحَلْقةَ يقول : لا يفعلنَّ ذلك أحدٌ وليعتبرْ بحالى ، فلقد رأيتُ نفسى فى غير وقتٍ وحالٍ ، وكأنى للرّماح بمنزلة الحَلْقةَ التى يُتعلّم عليها الطعن ، فتأتينى الرِّماحُ من جوانبى كلّها ثم سَلِمْتُ . وإنما اقتصَرَ على ذِكْر

(١) قطرى أحد زعماء الخوارج ، خرج زمان مصعب بن الزبير لما ولى العراق نيابة عن أخيه عبد الله . وكانت ولاية مصعب فى سنة ٦٦ للهجرة ، فبقى قطرى عشرين سنة يقاتل ويسلم عليه بالخلافة ، وكان الحجاج يسير إليه جيشا بعد جيش فيهزمه ، ولم يزل كذلك حتى توجه إليه سفيان بن الأبرد الكلبى فظهر عليه وقتله سنة ٧٨ . وقطرى : نسبة إلى موضع بين البحرين وعمان . وليس قطرى اسما له ، بل اسمه جعونة بن مازن . وفيات الأعيان .

اليمين والقُدَّام لأنه يَعْلم أن اليسار فى ذلك كاليمين . فأما الظَّهْر فإن الفارس لا يُمكِّنُ منه أحداً . وإذا جَلعتَ الدَّريَّةَ الدابّة الموصوفة يكون المعنى : فلقد أرانى وقد اتُّقِيَ بى فصِرْتُ سُتْرةً لغيرى من الطَّعن ، كما تكون تلك الدابّةُ سُتْرةً للصائد[١] والطعنُ يتناولُنى . وعلى هذا يكون معنى « للرِّماح » من أجل الرِّماح . والأوّلُ أحسنُ . وقوله : « مِنْ عن يمينى » مِنْ تَعلَّقَ بِفِعْلٍ دلّ عليه قولهُ أرانى دَريئةً للرِّماح ، وهو تأتينى وما يَجرِى مَجْراهُ . وعَنْ من قولهِ « عن يمينى » اسمٌ هاهنا ، وليس بحَرْفٍ . والمعنى من جانبِ يمينى ، ومثله قول الأعشى[٢] :

* مِنْ عَنْ يمين الُحبَيَّا نَظرَةٌ قَبَلُ[٣] *

وقول الآخر :

* مِنْ عَنْ يمينِ الدَّارِ والحائطِ *

٣ ــ حَتَّى خَضَبْت بما تَحدَّرَ مِن دَمِي أَكْنافَ سَرْجى أَو عِنانَ لِجامِي

وقوله « أو عِنان لجامى » ، أو هاهنا ليست للشّك ، وإنما هى التى يُراد بها أحدُ الأمرين على طريق التعاقُب ، أى إمّا ذا وإمّا ذا . ولك أن تريد الجمعَ ، لأن أصل « أو » الإباحة . وهذا كما يُسأل الرجل فيقال له : ما كان طعامُكَ فى بَلَدِك ؟ فيقول : الِحنطة ، أو الأرز . والمعنى أحد هذين ، على أن يكون كلُّ واحد منهما بدلاً من صاحبه أو الجميع . ومعنى البيت : انتصبتُ للرِّماح حتى خَضَبْتُ بما سال من دمى إمّا عِنانَ لجامى وإمّا جوانبَ سَرْجى ، أى على

(١) فى الأصل : « للصيد » وأثبتنا ما فى م .

(٢) كذا . والصواب أنه القطاعى ، كما فى اللسان (عنن) وديوان القطاعى ٥ .

(٣) صدره : * فقلت للركب لما أن علا بهم

حَسَب ما اتَّفق من الطعن . فالعِنان لما سالَ من أعاليه ، وجوانب السَّرج لما سال مِن أسافله .

٤ — ثم انصرفْتُ وقد أصَبْتُ ولم أُصَبْ جَذَعَ البَصِيرَةِ قارِحَ الإقدام

الجذوعةُ قبل الإثناء بسَنَةٍ ، والدَّهْرُ لجِدَّتِه يُسمَّى جَذَعًا ، وكذلك يقال لمن يُرَى فى أمرٍ ما على حالةٍ واحدة : هو جَذَعٌ فيه . وانتصابُ « جَذَعَ البصيرةِ » على أنه حالٌ وهو نَكِرَةٌ . والمعنى ثم انصرفت مع ما وصفْتُ من حالى واتَّفق مع ضِيق المجال عَلَىّ ، وقد نِلْتُ ما أردتُ من الأعداء ولم ينالوا منِّى ما أرادوا ، وأنا على بصيرتى الأولى لم يَبْدُ لى فى الاقتحام ، ولا غَلَبَ فى اختيارى التَّطرُّف والانحراف ، بل صار إقدامى فى الحرب قارِحًا لطُولِ ممارستى ، وتكرُّر[1] مبارزتى ، وإن كان بَقِىَ رأْيى فيه جَذَعًا . وهذا يريدُ به ما يَترقَّى فيه الإنسان من التدرُّب والتمرُّن عند مزاولةِ الأعمال ، ومن بقاء وَلُوعِهِ بها ، وحِرْصِهِ عليها على حَدِّه فى أوّل الشأن . وكما جعَلَ هذا القُروح والجُذُوعة : البصيرة والإقدام ، قال أبو تمّام :

* كَهْلُ الأَناةِ فَتَى الشَّذَاةِ[2] *

فنقَلَه كما ترى . واقتدى به البحترىُّ فقال :

* إقدامُ غِرٍّ واعتزامُ مُجَرِّبِ[3] *

وقد أشار الأعشى إلى كلِّ ذلك فى قوله :

---

(١) فى الأصل : « وتكنه » ، وأثبتنا ما فى م .

(٢) هو بتمامه كما فى الديوان ٢٠٧ :

كهل الأناة فتى الشذاة إذا عدا للحرب كان القشعم الغطريفا

(٣) فى ديوان البحترى ٢٠ :

ملك له فى كل يوم كريهة إقدام ليث واعتزام مجرب

* تَمَهَّـلَ فى الحَرْبِ حَتّى امْتَهن[١] *

وفى طريقته قَوْلُ أبى الغولِ :

وَلاَ تَبْلَى بَسَالَتُهُمْ وإنْ هُمْ   صَلُوا لِلْحَرْبِ حِينًا بعد حِينِ[٢]

٢

الحَرِيشُ ، ويُرْوَى للعَبَّاسِ بن مِرْدَاسٍ[٣] :

١ — شَهِدْنَ مَعَ النَّبِيِّ مُسَوَّماتٍ   حُنَيْنًا وَهْىَ دَامِيَةُ الحَـوَامِى

الحَوَامِى من الحِمَايَة ، وهى المَنْع . وكما جَعلوا للحوافر حوامىَ سَمَّوا ما يُطْوَى به البئرُ من الحجارة وغيرها ليحمى جوانبها من التَّشَعُّثِ والتهدُّم : حَوَامِىَ . يَصِفُ خَيلاً فيقولُ : حضرتْ حُنينًا مع النبى ، صلى الله عليه وسلم وعلى آلهِ ، مُعْلَمَاتٍ وقد دَمِيتْ جوانبُ حوافرها لـكثرة العَدْوِ ، ولِمَا لحِقَها من التَّعَب . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم غَزَا هَوَازِنَ بوادى حُنَيْن ، ورئيسُ هوازنَ مَالِكُ بن عَوْفٍ النَصرىُّ ، وهو اليوم الذى قتل فيه دُرَيْد ابن الصِّمَّـة الجُشَمِىُّ . وإنما قال « مُسَوَّماتٍ » لأنهم أعلموا أنفسَهم بعلامَاتٍ لِيَبِينَ بها فضلُ كلٍ منهم وبلاؤه . والسِّيماءُ : العلامَةُ ، وقد فُسِّرَ قوله تعالى : ﴿ والخَيْلِ المُسَوَّمَةِ ﴾ على ذلك . وكذلك قوله تعالى فى موضع آخر : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجوههم مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ .

(١) كذا فى الأصل ، وفى م : « امتحن » . وفى الديوان ٢١ : « حتى اتخن » . واللسان (ثخن) : « حتى اثخن » . وصدره :

* عليه سلاح امرئٍ ماجد *

(٢) انظر الحماسية ٣ : ٤ .

(٣) التبريزى : « وقال الحريش بن هلال القريعى ، ويروى للجحاف بن حكيم بن عاصم » . والحريش هذا مختلف فى صحبته . انظر الإصابة ٢٠٨٣ . وأما العباس بن مرداس فهو صحابى من المؤلفة قلوبهم . انظر ترجمته فى الشعر والشعراء ٢٥٩ والأغانى (١٣ : ٦٢ — ٧٠) والخزانة (١ — ٧١ — ٧٤) والمرزبانى ٢٦٢ — ٣٦٣ . على أن الأبيات رواها الأعلم فى شرح الحماسة لخفاف بن ندبة . انظر الإصابة ٢٠٨٣ .

٢ ـ وَوَقْعَةَ خَالِدٍ شَهِدَتْ وَحَكَّتْ سَنَابِكَهَا على البَـلَدِ الحرامِ

أصلُ الحكِّ صَدْمُ جسمٍ بآخَر وترديده عليه ليؤثِّر فيه. وتَوَسَّعوا فيه فقالوا: حَكَّ هذا الأمرُ فى صدرى، لِمَا يَتَرَدَّد فى خاطرك. وهو يتحكّك بفلانٍ أى يتعرَّض له، حتّى إنّهم يقولون للشَّىء الخفىّ: هو حَكِيك نَحِيت[1]. ويَعنى خالد بن الوليد بن المُغيرَة. وأشار بهذا إلى فتح مكّة، وإنّما نسَبَها إلى خالدٍ لأنَّ النبى صلى الله عليه وسلم استعمل خالدًا يومَ الفتح على الخيل فلقِىَ قريشاً بالخَنْدَمَة[2]، فقاتلهم وهَزَمهم. فيقولُ: وحضرَتْ أيضاً وقعةَ خالدٍ يومَ الفتح، وحَكَّت أطراف حوافرها بأرضِ الحَرَم. والمُراد بيانُ طولِ مُمارستها للحروبِ والوَقَعات، وتردُّدِها فى تَحَمُّل أعباء الشَّرِّ والمَشَقّات.

٣ ـ نُعَرِّضُ للسُّيوفِ بكلِّ ثَغْرٍ خُدُودًا ما تُعرَّضُ لِلِّطَــامِ

مِثْلُه:

نُهِينُ النُّفوسَ وهُونُ النُّفو سِ يَوْمَ الـكَرِيهَةِ أَوْقَى لَهَا[3]

يقول: نبتذل فى الحروب أنفسنا طلباً لصيانتها، ونَسْتَقْتِلُ فنتعرَّض ولا نَتَقَبَّض[4] عنها، بل نبذُل لها وجوهَنا التى هى حَرَمُ النُّفوسِ، ولو عُرِضَ علينا فى السِّلْمِ والسَّلامةِ بذلُها لِلِّطَام، لا نِفْنَا منه وامتنعنا. والمعنى: نتاقَى السيوفَ بخُدودِنا إذا كَسَبْنَا ذِكْرًا، وإنْ صُنَّاهَا عن الأذى اليسير. وأكْشَفُ من هذا وأشْرَفُ قولُ الآخَر:

(١) فى الأصل: «مخبث»، صوابه فى م.

(٢) الخندمة: جبل بمكة.

(٣) للخنساء، كما فى الحيوان (٦ : ٤٢٧). على أن أقرب تمثيل له هو قول القتال الكلابى، فى الكامل ٦٧:

نعرض للطعان إذا التقينا وجوها لا تعرض للسباب

(٤) م: «ننقبض».

ويبتذِلُ النَّفْسَ المَصُونَةَ نَفْسَهُ إذا ما رأى حَقًّا عليه ابتذالَها[١]

٤— ولَسْتُ بخالعٍ عنِّى ثيابى إذا هَرَّ الكُماةُ ولا أرامِى[١]

الثِّيابُ يَعنى بها السِّلاح ، وهذا كما يُسمَّى بَزًّا . ألاَ ترَى قَوْلَ الآخر :

* بَزُّ امرئٍ مُسْتَبْسِلٍ حازمٍ[٢] *

وقول الهُذَلىّ :

* فَوُقِّرَ بزٌّ ما هُنَالِكَ ضَائعُ[٣] *

يعنى السَّيف . وهَذا يحتمل وجهين : يجوز أن يكون المعنى لا أَنْزَعُ ثيابى وقتَ هَرِيرِ الأَبطال تشمُّراً وتَخَفُّفاً ثم لا أُبْلِي ولا أَجْتَهِد ، ولكن إذا وطَّنْتُ نفسى على الشَّرّ تقصَّيْتُ أبلغَ ما يكون منه بأبلغ ما يكون من بَلائِي . وموضع « ولا أرامى » نَصْبٌ على الحال ، أى لا أفعل ذلك غَيْرَ مُرَامٍ . ويَعْنِي بالمُراماةِ مدافعةَ الخَصْمِ ومجاهَدَتَه بكلِّ ممكن ومُعْرِض . وليس يريدُ الرَّمْىَ بالنِّبَال . وقد توسَّعُوا فى الرَّمْيِ والمراماةِ حتّى استُعمِل فى الافتخار ، واستُعير لتأثير الدَّهر والشَّيب ولِنَظَر المحبوبِ المُفْتَتِن . ويجوز أن يكونَ نَفَى الأمرين جميعاً فقال : لا أخلَعُ ثيابى تخفيفاً عن نفسى فى التَّولِّى والانهزام عند هَرِيرِ الشُّجْعَان ، ولا أُرامِى أيضاً ، يعنى الرَّمْىَ بالنِّبالِ ، ولكن أتلقَّى الشَّرَّ وأصْدِمُهُ بوجهى . ويشهد لهذا أوَّل البيتِ التالِى له ، وإنّما قال ذلك لأنَّ المُرَماةَ تكون من بعيد فتُخطِئُ وتصيب ، وعند المكافحة[٤] تَثْكَلُ الأمّهات .

---

(١) هذا ما فى م . وفى الأصل : « نفسها » .

(٢) لأبى قيس بن الأسلت الأنصارى فى المفضليات (٢ : ٨٥) برواية : « حاذر » . وعجزه : * للدهر جلد غير مجزاع *

(٣) لقيس بن عيزارة الهذلى فى ديوان الهذليين (٣ : ٧٨) . وصدره :
* فويل ام بز جر شعل على الحصى *

(٤) م : « المفاتحة » .

٥ — ولـكنى يَجُولُ الْمُهْرُ تَحْتِي — إِلَى الغاراتِ بالعَضْبِ الْحُسَامِ

العَضْبُ : القَطْعُ والمَنْع ، ثم قيل سَيْفٌ عَضْبٌ ، أى قاطِعٌ ، كما قيلَ ضَيْفٌ فى الضَّائف(١) . وقال الخليل : سُمِّىَ السيفُ حُسَاماً لأنه يحسِم العَدُوَّ عمَّا يُرِيدُ من بلوغ عَدَاوته . وقوله : « بالعَضْبِ » ، أىْ ومَعِى العَضْبُ ، وهو فى موضع الحال . ومعنى البيت ظاهر .

٢٢

ابْنُ زَيَّابَةَ التَّيْمِى :(٢)

مأخوذٌ من زَيَّبَ الرَّجُل(٣) .

١ — نُبِّئْتُ عَمْرًا غارزًا رَأْسَهُ — فى سِنَةٍ يُوعِـــدُ أخْوَالَهْ

جَعَل غَرْزَ الرأس كناية عن الجَهْلِ والذَّهَابِ عما عليه وله من التحفُّظ . ونُبِّي وأُنْبِيْ مما يتعدَّى إلى ثلاثة مفاعيل . فَعَمْرًا انتصب على أنه مفعول ثانٍ . وغارزًا ، انتصب عَلَى أنه مفعولٌ ثالث ، ورأسه انتَصَبَ من غارزاً . وأرادَ بالسِّنَةِ : الغَفْلة ، وهى ما يحدثُ من أوائل النَّوْم فى العَين ولم يستحكِمْ بَعد . وهذا من أحسن التَّشبيه وأبلغ التعريض . والإيعادُ إذا كان على ما وَصَفَ حقيقٌ بالتَّهجين . يَدُلُّ على ذلك قولُه .

---

(١) الضائف : الذى يضيف القوم ضيفا وضيافة ، أى ينزل بهم ويميل إليهم .

(٢) هو عمرو بن الحارث بن همام ، أحد بنى تيم اللات بن ثعلبة ، شاعر جاهلى ، وزيابة أمه . يقول فيها :

يا لهف زيابة للحارث الـ — صابح فالغـانم فالآئب

وقال أبو رياش : هو فارس مجلز عمرو بن لأى . انظر اللآلى ٥٠٤ .

(٣) التبريزى : « زيابة اسم مرتجل للعلم ، وهو فعالة أو فيعالة أو فوعالة ، من لفظ الأزيب ، وهو النشاط » .

وَسْنَانُ أَقْصَدَهُ النعاسُ فرنَّقَتْ   فى عيْنِهِ سِنَةٌ وليس بنائمِ[1]

وقد فَصَلَ الله تعالى بينهما بقوله : ﴿ لا تأخُذُه سِنَةٌ ولا نَوْمٌ ﴾ . والفِعلُ وَسِنَ يَوْسَنُ وسَنًا . وموضع « يُوعِدُ » نَصْبٌ على الحال . ومعنى « غارزا رأسَهُ » : مُدْخِلاً ؛ ومنه الغَرْزُ بالإبَر . ويقال : غَرَزَ فُلاَنٌ رِجْلَهُ فى الغَرْزِ ، أى فى الرِّكاب . وتوَسَّعوا حتَّى قالوا : اغترَزَ فلانٌ فى ركاب القَوْلِ .

٢ – وَتِلْكَ منه غيْرُ مَأْمُونَةٍ   أن يَفعَلَ الشىءَ إذا قالَهُ

هذا الكلام تهكُّمٌ وسُخْرِيَّةٌ ، وفى طريقته قول الآخر :

وأما أخو قُرْطٍ فلستُ بساخِرٍ   فقولاَ ألا يا اسْلَمْ بمُرَّةَ سالما

قال هذا ومُرَّةُ مُعَرَّضٌ لكلّ بلاء . « أن يَفعل » موضِعُهُ رَفْعٌ على البدل من قوله وتلك منه . والمعنى تلك الخَصْلَةُ لا يؤمَنُ وقوعُها من عَمْرٍو ، وهو فِعْلُهُ لما يقولُه .

٣ – الرُّمْحُ لا أَمْلأُ كَفِّى به   واللِّبْدُ لا أَتْبَعُ تَزْوَالَهُ

هذا التمدّح منه تعريضٌ بخَصْمه وإزراءٌ بفروسيّته ، وإشارةٌ إلى أن أضدادَ هذه الأوصاف مجتمعة فيه . فيجوز أن يكون المعنى : إنّى لا أقتصِرُ مِن تعاطِى أنواعِ السلاح على الرُّمح فقط ، ولكنِّى أجمع فى الاستعمال بينها . وهذا كما يُقال : مَلأَ كَفِّه من كذا[2] فليس فيه موضِعٌ لغيرِهِ . ويجوز أن يكون المعنى : [إنِّى أستعمل رمحى بأطراف أصابعى لحذقى واقتدارى ، ولا آخذه بجميع كفِّى[3]] . وهذا كما يقالُ : أقبِصُهُ ولا أَقْبِضُهُ ؛ لأن القبصَ : الأخْذُ بأطراف الأصابع ، والقَبْضَ بالكَفِّ كُلِّها . ومثلُه قول الآخر[4] :

(١) لعدى بن الرقاع ، كما فى اللسان (رنق) .
(٢) فى الأصل : « من هذا » وأثبتنا ما فى م .
(٣) التكملة من م .
(٤) هو عبد يغوث بن وقاص الحارثى . المفضليات (١ : ١٥٦) .

* لَبِيقًا بتصريف القَنَاةِ بَنَانِيَا[1] *

وقولُه : « واللِّبْد لا أَتْبع تَزَوَالَهُ » أراد : ألزم ظهر دابّتى ، وإنْ مالَ اللِّبدُ لم أَمِلْ معه . وهذا كما قال أبو النجم :

أَدْرَكَ عَقْلاً والرِّهانُ عَمَلُهْ ثَقْفٌ أعالِيـهِ وقارٌ أَسْفَلُهْ[2]

أى كأنه يُلْصِقُ الأسفل بظهر الفَرَس فلا يَزُول ولا يَميل .

٤ — والدِّرْعُ لا أَبغِى بها ثَرْوَةً كل امرئٍ مُسْتَودَعٌ مالَهُ

لولا أنّ قَصْده فى التمدُّح إلى التعريض بالمخبَرِ عنه لـكان لا معنى لهذا الـكلام . ألا تَرَى أنّ قولَه : « والدِّرْع لا أبغى بها ثروة » وقد فُسِّر على أنه يجوز أن يكون المراد : لا أقتنى الدِّرع لـكى اتَّجِرَ فيها فأتموّل . وتَرْكُ التِّجارة فى الأسلحة ليس فيه كبير تَمَدُّح[3] . ويجوز أن يكون المعنى : لا أعدُّها سبباً فى ارتفاق المَغانم فأُثْرِىَ ، ويكون كقول عنترة :

يُخْبِرْكِ من شَهِدَ الوقيعةَ أننى أَغْشَى الوَغَى وأعِفُّ عند المَغْنَمِ

وقوله : « كلُّ امرئٍ مُسْتَوْدَعٌ مَالَهُ » ، يريدُ به : المال ودائعُ عند النّاس ، ولا بدّ من ارتجاعها والتقاضى بها وإن أُمْهِلُوا مُدَّةً ، فلم أتَّجِرْ فى دِرْعِى أو لم ألبَسْها لتَغَنُّمِ الأنفالِ بها ، والمالُ هذه حاله عند أربابِهِ . ويكون هذا كما قال الآخَرُ[4] :

ومَا المالُ والأَهْلُونَ إلاّ ودائعٌ ولا بُدَّ يَوْمًا أن تُرَدَّ الودائعُ

ويجوز أن يكون « ما » من قوله « مَالَهُ » بمعنى الذى ، فيكون المعنى : كلّ

(١) صدره : * وكنت إذا ما الخيل شمصها القنا *
(٢) م : « نقف » بالنون .
(٣) هذا ما فى م . وفى نسخة الأصل : « كثير تمدح » .
(٤) هو لبيد . ديوانه ٢٢ طبع ڤينا ١٨٨٠ .

امرئٍ مُرْتَهَنٌ بأجلِه ، وبالذى كُتِبَ له ، ولا يمتنع أن يكون أشار بـ « ما » إلى ما يُقتنى من أعْراض الدنيا . ويروى : « كلُّ امرئٍ مُسْتَوْدِعٌ مَالَهُ » بكسر الدال ، والمعنى أنَّ ما يجمعه المرء بكسْبه إذا جاء مَحْتُومُ القضاء يتركُه لغيره لا مَحالة ، فلِمَ أرغبُ فيه وفى ادّخاره ، وأزهدُ فى اكتساب المحامد والمَعالِى ؟ وهذا الكلام نهايةٌ فى التنقُّص ممن عَرَّضَ به ، وغايَةٌ فى الطَّعن عليه ، والقَدْح فى عَادَته . ويُروى : « والدِّرْع لا أبْغِى بها نَثْرةً » ، وهى الواسعة . والمعنى : إنّى أكتَفِى من الدِّرْع ببَدنةٍ ، فلا أطلُب ما يفيضُ فَيْضًا ، ويجب مع هذه الرِّواية والتفسير أن يكون معنى المِصْرَاع الثّانى : كلُّ امرئٍ مُرْتَهَنٌ بأجله ، ومُمهَّلٌ ليومه .

٥ – آلَيْتُ لَا أَدْفِنُ قَتْلَاكُمُ فَدَخِّنُــــوا المَرْءَ وسِرْبالَهُ[1]

هذا البيت لم أجِدْهُ فى نسخٍ كثيرة ، فيغلب فى ظنّى أنّه ليس من الاختيار . وعلى ما بِهِ فله قِصَّةٌ مشهورةٌ زَعَمُوا . وهى أنه يُرْوَى فيه أنّ واحداً من المُخاطَبين كان أحْدَثَ فى حَرْبٍ حَضَرَها خَوْفًا على نَفْسه ، فَعرَّضَ الشاعرُ بهم وذَكَّرهم سوء بلائهم ، وضَعْفَ ثباتِهم . وإنّما يُرِيدُ أنهم إذا صُرِعُوا فى المعركة عُثِر منهم إنْ لم يُطَيِّبُوا على مِثل ما فَعَلَهُ ذلك الواحد المُعَرَّضُ به ، أو استُدِلَّ بالرّائحة عليه فافتضحوا . وهذا تهكُّمٌ أيضاً وتعييرٌ بالاتِّفاق السيّئ . وآلَيْتُ معناه حَلَفْتُ ولفظُه لفظ الخبر ، والمعنى معنى القَسَم . وربَّما قالوا : آليت على نفسِى .

---

(١) بين هذا البيت وسابقه بيت رواه التبريزى وهو :

إنّكَ يا عمرو وتَرْكَ النَّدى كالعَبْدِ إذْ قَيَّدَ أجمالَهُ

وقال : « قال ابن السكيت : أنت كالعبد اقتصر على موضع يرعى فيه ولا يتعزب بإبله . وقال غيره : أى إنك قد تركت الندى واكتساب الشرف به ، فلا تستفيد ، كالعبد يقيد أجماله وينام فيستريح . وطلب الشرف إنما يكون مع التعب » .

٢٣

الحارِثُ بن همّام الشَّيْبَانِىُّ(١)

١ ــ أَيَا ابنَ زَيَّابَةَ إن تَلقَنِي لا تَلْقَنِي في النَّعَمِ العَازِبِ(٢)

النَّعَمُ يُذكَّرُ ويؤنَّث ، والتذكير فيه أغلب . وفائدته فى الإفراد الإبلُ فى الأَكْثَر ، وإذا جُمِعَ دَلَّت على الأزواج الثمانية(٣) . يُعرِّضُ بأنَّهُ راعٍ فيقولُ : يا ابْنَ زَيَّابَةَ إنّك لا تجدنى راعيًا يبعد فى المَرْعَى بإبلِهِ . والمعنى أنت كذلك ، ويُقالُ : مالٌ عازِبٌ وعَزَبٌ(٤) ، إذا بَعُدَ عن أَهْلِهِ . ورَوْضٌ عَازِبٌ : بعيد المَطْلَب .

٢ ــ وتَلقَنى يَشْتَدُّ بى أَجْرَدٌ مُسْتَقْدِمُ البِركَةِ كالرّاكِب

قوله : « وتلقنى » عَطَفَه على الجواب ، لأنه يَصْلح أن يكون جَوَابًا . ألا تَرَى أنه لو قال : إن تَلْقَنِي تلقنى كذا ، لَصَلَحَ ؟ يقول : تلقانى يَعْدُو بى فَرَسٌ قصيرُ الشَّعْرِ ، متقدِّمُ الصَّدْرِ ، مُشْرِفٌ كالرّاكِب ، [أى إشرافُه إشرافُ الراكب(٥)] لا المركوب . ويَشْتَدُّ : يَفْتعلُ من الشّدّ ، وهو العَدْو . ويقال : استَقْدَمَ وتَقَدَّمَ ، واستأخر وتأخّر ، بمعنًى . والبِرْكَةُ ، كُسِرَ باؤها عند اتِّصال الهاء بها ، لولا ذلك لقيل بَرْكٌ بفتح الباء .

(١) الحارث بن همام بن مرة بن ذهل بن شيبان ، شاعر جاهلى .

(٢) ابن زيابة ، مضت ترجمته قريبًا ، وهو ابن الحارث بن همام . ولهذه المقطوعة استبعد بعضهم أن يكون ابن زيابة هو عمرو بن الحارث بن همام ، وارتضى القول الآخر .

(٣) هى الضأن والمعز والإبل والبقر ، ذكورها وإناثها . انظر الآيتين ١٤٣ ، ١٤٤ من سورة الأنعام .

(٤) كذا فى النسختين ، والمعروف « العزيب » .

(٥) التكملة من م .

٢٤

فأجابَهُ ابنُ زَيَّابَةَ

١ ــ يا لَهْفَ زَيَّابةَ للحارثِ الـ ـصَّابِحِ فالغـــانِمِ فالآيِبِ

يجوز أن يكون أورد هذا الـكلام ساخِرًا متهانِفًا ، ومستهزِئًا متهكِّمًا ، فوصفه بهذه الصِّفات وكان الأمرُ بخلافه ، ويقرِّبُ هذا أنّ ما قَبْل هذه المقطوعةِ فى مثل هذه الطريقة . ويجوز أن يكون ذَكَر ما كان منه[1] على الحقيقة ، فهو يتحسَّرُ لمـا رأى من فَلَاحِه فى غَزَاتِه ، وسلامتِه فى مآبِه . ويقولُ : يا حَسْرةَ أُمِّى[2] من أجْل هذا الرَّجل فيما ارتفع له من المراد فى الغَزْو ، وجُمِعَ له من السلامة والوَفْرِ . والصابحُ ، يجوز أن يكون فى معنى مُصْبِحٍ ، كما قال :

* حين لاحَتْ للصابحِ الجوْزاء[3] *

والغارةُ وقتُها الغَدَاة ، فلذلك قال : للحارث المُصْبِح عندنا والغانِم منّا . والترتيب الذى يفيدُه الفاء جارٍ على سَنَنِه ، كأنه أرادَ للحارثِ الغازى نَحْوَنا والغانم منّا ــ والغُنْمُ بعد الغَزْو ــ فالآيبِ إلى قومِهِ ــ والأوْبَةُ بعد الاستغنام . ويجوز أن يكون الصابحُ من صَبَحْتُ القومَ ، إذا أتيتَهُمْ صباحًا . وفى المَثَل السائر « صَبَحْناهم فَغَدَوْا شَأْمَةً[4] » . وهذا الوجْهُ أوْجَهُ وأجوَدُ . واعلم أن الصِّفة إذا جاءت للتَّبيين وإزالة اللَّبْس عن الموصوف ، فالوَجْهُ أن يُعْمَدَ

(١) هذا ما فى م . وفى الأصل : « أن يكون ذكر منه » .

(٢) فى الأصل : « ياحسرة بى » ، وفى م : « ياحسرة أى » .

(٣) لأبى زبيد الطائى . الحيوان (٥ : ٢٣١) والخزانة (٣ : ٢٨٣) . وصدره :

* أى ساع سعى ليقطع شربى *

(٤) ذكره الميدانى فى مجمع الأمثال وقال : « أى أوقعنا بهم صبحاً فأخذوا الشق الأشأم ، أى صاروا أصحاب شأمة ، وهى ضد اليمنة » .

إلى أخصِّها بالموصوف ، وأحَقِّها بالبيان والشرح ، حتى تُغْنِى عن العُدُول عنها إلى غيرِها من الصِّفات . فإن اتَّفَق بعد ذلك لَبْسٌ حينئذٍ يُزال بما يُضَمُّ إليه . وإذا جاءت للتعظيم أو التهجين فإنه قد يُوالَى بين عِدَّةٍ منها بحروف النَّسَقِ ومِنْ دونِها : تقول : جاءنى زيدٌ الظريفُ الكاتبُ الفاضلُ العالِمُ : وإن أتيت بالواو العاطفة متخلِّلةً له ساغَ[1] ، فإن قيل : إذا كانت الصفةُ هى الموصوفَ ، والشىء لا يُعطفُ على نفْسِه ، فكيف جازَ عطفُ بعضِ الصفاتِ على بعض ؟ قلتَ : تَغايُرُ المعانى الحاصلةِ بها وقوّةُ اتِّصالِ بعضِها ببعضٍ فى بابَىِ الصِّلَة والصِّفَةِ ، سَوَّغَ ذلك فى ألفاظِها .

٢ ــ واللهِ لوْ لاقَيْتُهُ خالِيًا لَآبَ سَيْفانا مَعَ الغالِبِ

أَقسَمَ بالله فيقول : والله لو لقيتُه منفرِدًا عن أشياعه لحصَلَ سيفانا للغالب معاً . وذَكَرَ السَّيفينِ والمرادُ جميعُ ما معهم من بَزِّهما وسِلاحِهما ، لعلوّ شأنهما . وجعَل الفِعْلَ للسَّيفين على المجاز . والمعنى : لو خَلَوْتُ به لقتلْتُه أو قتلَنى .

٣ ــ أنَا أبنُ زَيَّابَةَ إنْ تَدْعُنى آتِكَ والظَّنُّ عَلَى الكاذِبِ

قوله : « والظنُّ على الكاذب » يجرى مَجْرى الأمثال ، ويكون مبنيًّا على ما قال لبيد ، وهو :

واكذِبِ النَّفْسَ إذا حدَّثتَها إنّ صِدْقَ النفسِ يُزْرِى بالأَمَلْ

والمعنى : كلٌّ منا يحدِّثُ نفسه ويَكذِبها ، ثم الظنُّ على من لا يتحقق أمَلُه . ويجوز أن يريد : أنا المعروف المشهور ، إنْ دَعَوْتنى لمبارزتك جئتك ، فإن كنتَ تظنُّ غير هذا فظنّك عليك ، لأنك تَكْذِبُ نفْسَك فيما تتوهّمه من قُعودى عنك ، أو نُكولى عن الإقدام عليك . ويجوز أن يكون المعنى :

(١) هذا الصواب من م . وفى الأصل : « لما ساغ » .

إنَ تَدْعُنى أجِبْك ، فإن ظننت أن تـكون الغالب فظنُّك عليك ، لأنك تكذِب نفسك .

٢٥

الأَشْتَرُ النَّخَعى(١) :

١ـ بَقَّيْتُ وَفْرِى وَانْحَرفتُ عن الْعُلاَ ... ولَقِيتُ أَضْيافى بوجْهِ عَبُوسِ

الوَفْر : المالُ الـكثير . والعَبُوس : الـكالح عن غَضَبٍ ، وتوسَّعوا فقالوا : يومٌ عَبُوسٌ ، أى شديدٌ . وهو جِبْسٌ عِبْسٌ ، فى اللئيم . وهذا من الأيْمان الشريفة ، واللفظُ لفظُ الخبَر ، وظاهرُه الدُّعاء ، ومحصولُه القَسَم . فيقول : ادّخرتُ مالِى ولم أفرِّقه فيما يَكسِبُ لى حَمْداً ، فِعْلَ البُخلاء ، وزهِدْتُ فى اكتساب المعالى والمآثر زُهْدَ الأدنياء ، وتلقَّيت الأضياف(٢) بوجه رجلٍ كالحٍ إن لم أفعَل كذا . ومثْلُه فى اليمين قولُ النابغة :

* إذًا فلا رَفَعَتْ سَوْطِى إلىَّ يَدِى(٣) *

٢ــ إنْ لم أَشُنَّ على ابن حَرْبٍ غَارَةً ... لم تَخْلُ يَوْمًا من نِهَابِ نُفُوسِ(٤)

شَنُّ الغَارَةِ مُعْجَمَةً ، وسَنُّها معجمةٍ : صَبُّها . وأصل جميعِها فى الماء ،

---

(١) الأشتر : لقب له ، واسمه مالك بن الحارث بن عبد يغوث بن مسلمة بن ربيعة النخعى الكوفى . أدرك الجاهلية ، وكان من أصحاب على ، شهد معه الجمل وصفين وغيرهما ، وكان ممن ألب على عثمان وشهد حصره ، وولاه علىّ بن أبى طالب مصر بعد صرف قيس بن عبادة عنها ، فلما وصل إلى القلزم شرب شربة عسل فمات سنة ٣٨ . ولقب بالأشتر لأن رجلا ضربه فى يوم اليرموك على رأسه فسالت الجراحة قيحاً إلى عينه فشترتها . الإصابة ٨٣٣٥ وتهذيب التهذيب ومعجم المرزبانى ٣٦٢ . التبريزى : « وفى الشعراء آخر يقال له الأشتر بن عامر ، أحد بنى عوف بن ولاد بن تيم اللات . ومنهم الأشتر الحامى الأزدى من بنى حمامة من أزد عمان » .

(٢) م : « أضيافى » .

(٣) صدره : * ما قلت من سيىء مما أتيت به *

(٤) التبريزى : « ابن حرب ، يعنى معاوية بن أبى سفيان » .

ثم حَصَلَ التوسُّع فيها . يقول : تَصَوَّرتُ بتلك الصورة التي ذكرتُها وأقسَمْتُ بها ، إن لم أُصُبَّ على هذا الرجل خَيْلاً لا تخلو يَوْمًا من اختلاسِ نُفُوسٍ ، وانتهابِ آجال . وسَمَّى الخَيْل غارةً لمّا كانت من قِبَلِها تكون . وموضع « لم تَخْلُ يَوْمًا » نَصْبٌ على الصفة للغارة ، أي خَيْلًا جَرَتْ عادتُها بذلك . والنِّهابُ يجوز أن يكون مصدرَ ناهَبْتُهُ ويُسْتَعْمَلُ في المُغَاورة والمُماراة ، ويجوز أن يكون جَمْع النَّهبِ . وجوابُ « إن لم أَشُنّ » فيما تقدم .

٣ــ خَيْلًا كأمْثَالِ السَّعَالِى شُزَّبًا تَعْدو بِبِيضٍ فى الكَرِيهَةِ شُوسِ

الشُّزَّب[١] : الضُّمَّر . والشُّوس : جمع أَشْوَس . ويقال شَاسَ يَشُوسُ وشَوِسَ يَشْوَسُ ، إذا عُرِفَ في نظرِه الغضب أو الكِبْر . وانتَصَب « خَيْلاً » على أنه بدلٌ من غارَةً . وشَبَّهَ الخَيلَ في ضُمْرِهَا وسُرعَةِ نَفَاذِها بالجنّ . وانتَصَب « شُزَّبًا » على أنَّهُ صِفَةٌ للخيل ، لأنّ قولَهُ « كأمثالِ » ، أيضًا صِفَة . ويجوز أن يكون حَالاً للمُضْمَر في كأمْثَالِ السّعالِي . والمعنى : خيلا تشابه السَّعالى في حَالِ شُزُوبها وضُمْرِها . وقولُه : « تَعْدُو ببيضٍ » أيضًا صِفَةٌ ، إمَّا لقوله شُزَّبًا ، وإما للأوّل تَعْدُو برجالٍ كِرَام ، متكبِّرين في الحرب ، ذوى أَنَفَةٍ .

وإذا جُمِعَ بين مفرداتٍ وجُمَلٍ في الوصْفِ ، فالترتيب المختار تقديم المفردات على الجُمَل ، وقد جاء البيت على ذلك . والعَرَبُ تجْعَلُ البياضَ كِنايَةً عن الكَرَمِ ، كأنَّها تُرِيد نقَاء العِرْض . على ذلك قولُه :

* أُمُّكَ بيْضَاءُ مِنْ قُضَاعَةَ . . .[٢] *

وكما فَعَلُوا هذا جَعَلُوا الغُرَّ كناية عن الكِرام ، وربَّما قالوا غُرّانٌ .

---

(١) هذا ما في م والتبريزى . وفي الأصل : « الشزوب : الضمر » يقرآن على المصدرية .

(٢) البيت بتمامه كما في شرح ديوان زهير ٥٢ واللسان (بيض) :

أمك بيضاء من قضاعة في الـ ـبيت الذى يستكن في طنبه

فأمّا قولُهم : « بيض الوجوه » فالمراد أنّهم لم يفعلوا شيئاً يَشينُهم فيغيِّرلوَنهُم عند ذكره . وقد قالوا فى ضِدِّهِ : « أَوْجُهُهُمْ كالُحمَم » ، و « سُودُ الوُجُوه » . وأما الشَّوَسُ فكما وُصِف به الرِّجالُ وُصِفَ به الخيلُ أيضا ، والُمراد به عِزّةُ النّفس . وقوله « فى الكريهة » للحوق الهاء بها أُلحق بباب الأسماء ، ويُستعمل فى نوازِل الدَّهر وشدائد الأمر . وهو ظَرْفٌ إن شئتَ لما دَلَّ عليه قَوْلُهُ « بيضٌ » من الكرم ، وإنْ شئت لقوله شُوسٌ . والكرم فى الكرائهِ : نزاهة النَّفس عن لوازم العار .

٤ ــ حَمِىَ الحديدُ عليْهِمُ فكأنَّهُ وَمَضَانُ بَرْقٍ أو شُعَاعُ شُمُوسِ

شُعَاعُ الشَّمْس : انتشار ضوئِها . ويقال : أشَعَّتِ الشّمسُ : انتشر شُعاعُها . يقول : حَمِيَت الأسلحةُ يومَ الوَغَى لصبرهم وثباتهم ، وطول مُقامِهِم . ثمَّ شَبّهَ لمعانَها بوَمَضَان البَرْق أو شعاع الشمس ، وجَمَع الشُّموس لاختلاف مطالعها . والوَمَضَان : مَصْدَر وَمَضَ ، وكذلك الوَمْض والوَمِيض . ويقال فى فِعله أَوْمضَ أيضا .

٢٦

مَعْدَانُ بن جَوَّاسٍ الكِندىّ(١) :

ودخَلَ هذان البيتان فى الباب لما اشتملَا عليه لفظًا ومعنًى من الفظاظة والقسوة .

---

(١) معدان بن جواس بن فروة بن سلمة بن المنذر بن المضرب بن معاوية بن عامر بن سلمة بن شكامة بن شبيب بن السكون السكونى الكندى ، وكان له حلف فى ربيعة . مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام ، ونزل الكوفة وكان نصرانيا فأسلم فى أيام عمر بن الخطاب ، وقام الزبير بن العوام بأمره . الإصابة ٨٤٣٥ ومعجم المرزبانى ٤٠٧ . على أن هذه الحماسية تنسب أيضاً إلى أبى حوط حجية بن المضرب السكونى ، وهو شاعر جاهلى فارس . نص على ذلك التبريزى ، وكذا الآمدى فى المؤتلف ٨٥ .

١ـ إنْ كان ما بُلِّغْتِ عَنِّى فَلامَنِي صَدِيقِى وشَلَّتْ من يَدَىَّ الأنامِلُ[١]

قولُه « صديقى » يجب أن يُرِيدَ به الكثرةَ لا الواحد . ويقال : شَلَّتْ يَدُهُ شَلَلاً . وهذا من الجنس الأوّل فى أنَّ لفظَه لفظُ الخبر ، والمعنى معنى الدُّعاء ، والمراد القسم . وقوله « فلامنى » لامنى فى موضع رفع على أنه خبر ابتداء محذوف ، كأنه قال : فأنا لامنِي . والفاء مع ما بعده جواب إنْ . والمعنى : إن كان ما أُدِّىَ إليكِ عنّى حقًّا ففعلت ما استحققتُ به لَوْمَ الصديق ، واسترْخَتْ أصابعى . فإن قيل : اليمين والشَّرط[٢] كيف يصحّ ؟ قلت : هذا كلام مُبْطِلٌ لما ادُّعِى عليه ، نافٍ له ، فاليمين تناوَلَتْ نَفْىَ ما أُثْبِتَ فيه ، ودفعَ ما قُرِفَ به . ودَلَّ على ذلك فَحْوى الكلام . ويجوز فى « كان » أن يكون التامَّةَ لا الناقصةَ ، فيكتَفِى بالفاعِل ولا يَحتاجَ أن يُضْمَر بَعْدَهُ « حَقًّا » . والمَعْنَى إنْ وقع ما بُلِّغْتِ عنّى وحَدَث . وتخصيصه للأنامل لأنّ أكثر المنافع بها . وجازَ إضمارُ خبر كان إذا جعلتها ناقصةً لأنّ فى الكلام والحال دليلاً عليه ، ولأنّ دخُولَه على المبتدإ والخبر ، فكما يُحذَفُ الخبر فى ذلك الباب يُحذف هنا .

٢ـ وكَفَّنْتُ وَحْدِى مُنْذِرًا بِرِدائِهِ[٣] وصَادَفَ حَوْطًا من أعادِىَّ قاتِلُ

وَحْدِى انتَصَبَ على المصدر ، وهو فى موضع التَّوَحُّد . وفى النَّحويين من يجعله وإن كان مَعْرفةً فى موضع الحال . يقول : وفُجِعْتُ بِمُنْذِرٍ وأُحوِجْتُ إلى أن أباشرَ تكفينَه وتجهيزَهُ بنفسى — وهذا مما يزيد المُصَابَ كَلْمًا ودَاءً — وصَادَفَ ابنى من أعدائى من لا يُبْقِى عليه[٤] . وأَعَادِىَّ بنَاهُ على الفتح لخفّته ،

(١) بلغت ، بخطاب المؤنثة كما فى النسختين . وعند التبريزى : « بلغت » بخطاب المذكر .

(٢) م : « اليمين فى الشرط » .

(٣) م : « فى ثيابه » . التبريزى « فى ردائه » .

(٤) التبريزى عن أبى محمد الأعرابى أن الصحيح نسبة الشعر إلى حجية بن المضرب . وأن المنذر هو أخو حجية ، وأن حوطا هو ابنه الذى كنى به . ثم روى عنه سبب الشعر =

ولأنه الأصل فى ياءِ الضمير إذَا حُرِّكَ . وعلى هذا تقولُ : هؤلاء بَنِيَّ ومعطِيَّ، وهذا قاضِيَّ . وأعادِيّ يجوز أن يكون أفَاعِلَ وأضافهُ ، ويجوز أن يكون أفاعيل كأبابيت وخَفَّفَهُ ، كما خُفِّفَ أثافٍ ثم أضافهُ . ويجوز أن يكون لمّا رَامَ الإضافةَ اجتمع ثلاث ياءاتٍ فَحَذَفَ مَدَّةَ أفاعيل .

٢٧

عامِرُ بن الطُّفَيْلِ الـكِلاَبِىُّ(١) :

١ـ طلِّقْتِ إنْ لم تَسْأَلِى أَىُّ فارسٍ حَلِيلُكِ إذْ لاَقَى صُدَاءً وخَثْعَمَا

جعَلَ الإقسام عليها بمـا يضيِّق طريقها فى التجوُّز والإهمال ، لمَّـا وَلاَّها البحثَ والسؤال . هذا إذا جعلْتَ الكلامَ دُعاءً . يقولُ : بِنْتِ من زَوْجِكِ إن لم تُفَتِّى بالسؤال عن أحوالِه حين لاقَى هاتين القبيلتين ، هَلْ أبْلَى فى ملاقاتهما ، وكيف ثبَتَ فى وجوهِما . ويجوز أن يكون طُلِّقْتِ وعيداً توعَّدَها به إن لم تَنتَهِ إلى مرسومِها(٢) . والحَلِيلُ : الزَّوج ، سمِّىَ بذلك لأنه يُحالُّ

=« أن النعمان بن المنذر أغار على بنى تميم فنذروا به ومعه بكر بن وائل والصنائع من العرب ، وكان فيمن معه حجة بن المضرب ، وكانت أخته فكيهة بنت المضرب تحت ضمرة بن ضمرة ، فنذر بنو تميم بالنعمان بن المنذر فهزموه ، فاتهم النعمان حجية أن يكون أنذرهم فقال . . . » وأنشد البيت وما بعده .

(١) عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب العامرى ، وهو ابن عم لبيد ، وكان فارس قيس . وكان عامر أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال له : تجعل لى نصف ثمار المدينة وتجعلنى ولى الأمر من بعدك وأسلم ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « اللهم اكفنى عامراً واهد بنى عامر » . فانصرف وهو يقول : لأملأنها عليك خيلا جرداً ، ورجالا مرداً ، ولأربطن بكل نخلة فرساً ! فطعن فى طريقه فمات وهو يقول : غدة كغدة البعير ، وموت فى بيت سلولية ! الشعراء ٢٩٣ — ٢٩٥ والخزانة ١ : ٤٧٣ — ٤٧٤ والمؤتلف ١٥٤ والمرزبانى ٣٢٢ والأغانى ١٥ : ٥٠ — ٥٦ والنقائض ٦٥٤ — ٦٧٨ .

(٢) م : « مرسومه » .

صاحبته . وخَثْعَمُ هو خَثْعَم بن أنمارٍ . والخثعمة : التلطُّخ بالدم . ويقال : كانوا تحالفوا فغمسوا أيديَهم فى دَمِ بعيرٍ نَحَرُوه واجتمعوا عليه فسُمُّوا خَثْعَمًا . ومفعول تَسْأَلِى محذوفٌ ، المراد تسألى الناس . وقوله « أيُّ فارس » هو المسألة ، وهو فى موضع المفعول أيضاً . وجواب الشرط مُقَدَّم ، كأنه قال : إن لم تسألى الناسَ عن هذه المسألة فأنتِ مطلّقةٌ من بَعْدُ ، أو فجَعَل الله خاتمةَ أمرِكِ ذلك .

٣ ــ أَكُرُّ عليهِمْ دَعْلَجًا وَلَبَانُهُ إذا ما اشْتَكَى وَقْعَ الرِّماحِ تَحَمْحَمَا(١)

أَجْمَلَ فى اقتصاص بلائه ، ثِقَةً بأنّ بحثَها واستقصاءها يأتى على تفاصيله . يقول : أَعْطِفُ فرسى دَعْلَجًا عليهم ، حالاً بعدَ حالٍ ، وكرًّا بعدَ فرٍّ ، وإذا اشتكى من كثرةِ وقوعِ الطَّعن بصدره حمحم . وجعَل الفعل للصَّدر على المجاز والسَّعةِ لكونه موقِعَ الطعن . هذا إذا رَوَيْتَ : «ولَبَانُه» بالرفع ، لأن بعض الناس روى «ولبانَه» بالنصب ، كأنه فرَّ من أن يكون الاشتكاء والتحمحُم للَّبان على كثرة نسبة الاشتكاء إلى الأعضاء الآلمة ، فوقَعَ فيما هو أقبح ؛ لأن المرادَ أكرُّ عليهم فرَسى ، فلا معنًى لعطف اللَّبان عليه . وسمعت من يجعله من باب تكرير البعض من الكلِّ بالعطف عليه ، وإن كان داخلاً فيما دَخَلَ فيه على وجه الاختصاص وتفخيم الشأن ، كقولِهِ عزّ وجل : ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ﴾ . قال : ووجه الاختصاص أنّ الذَّكَرَ بصدره ، كما أنّ الأنثى بعَجُزِه . والدَّعْلَجُ : المَرِحُ فى السَّيْرِ والتردُّدِ ، ويُوصَفُ به الفَرَسُ

---

(١) التبريزى عن أبى محمد الأعرابى : الصواب :

أقدم فيهم دعلجاً وأكره إذا أكرهوا فيه الرماح تحمحما

والبيت لعبد عمرو بن شريح بن الأحوص بن جعفر بن كلاب ، فارس دعلج ، قاله يوم فيف الريح ، وليس هو لعامر بن الطفيل . وأنشده فى تصداق ذلك لمروان بن سراقة الجعفرى :

وعبد عمرو منع القياما ودعلجا أقدمه إقداما

والبعيرُ والحمارُ ، وذكر بعضهم أنه يقال فى الضَّبِّ الهائج أيضاً . [وقد أحسنَ عنترةُ كلَّ الإحسان حينَ سلكَ هذا السبيل فقال :

فازورَّ مِن وَقْعِ القنا بلَبَانِهِ   وشكا إلىَّ بعَبرةٍ وتحمحُمِ[1]]

٢٨

زُفَرُ بن الحارثِ الكِلابىّ[2] :

١ - وكُنَّا حَسِبْنا كلَّ بيْضَاءَ شحْمَةً   ليَالِيَ قَارَعْنَا جُذَامَ وحِمْيَرَا[3]

حكى الأصمعىُّ فى الأمثال : « ما كلُّ بيضاء شَحْمَةً ، ولا كُلُّ سَوْدَاء تَمْرَة » . والمعنى : ليس كلُّ ما أشبه شيئاً ذلك الشىء . ومعنى البيت : ظَنَنَّا لما التقينا مع جُذَامَ وحِمْيَرَ أنَّ سبيلَهم سبيلُ سائر الناس، وأنَّا سَنَقْهَرُهم قَهْرًا قريبًا ثم وجدناهم بخلاف ذلك ، لكون أصلهم من أصلنا ، واجتماعِهم فيما تَمَيَّزْنا فيه عن سائر الناسِ مَعَنَا ، وجُذَامُ أبو هذه القبيلة فسمِّيت به ، وأصلُه الجَذْم : القَطْع ، وبه سُمِّىَ الداءُ المعروف جُذَامًا ، وقيل للمقطوع اليد : أَجْذَم . وحكى بعضُهم : ما سَمِعْتُ لَهُ جَذْمةً ولا زَنْجَمَةً ، أى كلمةً ، لتقطُّع الصَّوت بها عند النُّطق . والقَرْعُ : ضَرْبُ الشىء بغيره ، ثم توسَّعُوا فقالوا : قَرَعْتُ باطِلَه بحَقِّى ، وقَرَعَ الشارِبُ جبهتَهُ بالإناء ، إذا استوفَى ما فيه .

٢ - فلمَّا قَرَعْنَا النَّبْعَ بالنبعِ بَعْضُهُ   ببَعْضٍ أَبَتْ عيدانُهُ أن تَكَسَّرا

بعضَه ، انتصب على البدل من النَّبْع . وجوابُ لمّا قولُه « أَبَتْ » .

---

(١) هذه التكملة من م .

(٢) زفر بن الحارث الكلابى ، أحد بنى عمرو بن كلاب ، كان قد خرج على عبد الملك ابن مروان وظل يقاتله تسع سنين ثم رجع إلى الطاعة . وكان سيد قيس فى زمانه ، وكان على قيس يوم راهط . وزفر من التابعين ، سمع عائشة ومعاوية ، وروى عنه ثابت بن الحجاج . الكامل ٥٣٣ والجهشيارى ٣٥ والمؤتلف ١٢٩ وشرح شواهد المغنى ٣١٣ .

(٣) التبريزى : « ليالى لاقينا » .

وتكسّرَ أصله تتكسّر . والشاعر اعترف بأنَّ أصل أولئك نَبْعٌ ، كما أنّ أصلهم نَبْعٌ ، النَّبْعُ خَيْر الأشجار التى يُتَّخذ منها القِسِىّ وأصلبها ، كما أن الغَرَبَ شرُّها وأرخاها ، فجعلت العرب تَضْرِبُ المثل بهما فى الأصل الكريم واللَّئيم ، حتى إنَّ بعض المُحدَثين قال :

هَيْهَاتَ أَبْدَى اليقينُ صَفْحَتَهُ وبَانَ نَبْعُ الفَخَارِ مِنْ غَرَبِهِ

فيقول : لما قَرَعْنَا أصلَهم بأصلنا أبت العيدانُ من التكسّر . والمعنى أنّ كُلاًّ مِنَّا أبى أن ينهزم عن صاحِبِهِ . فالعيدان مَثَلٌ للرجال ، والنَّبع مَثَلٌ للأَصْلِ .

٣ — وَلَمَّا لَقِينَا عُصْبَةً تَغْلِبِيَّةً يَقُودُونَ جُرْدًا للمنيَّةِ ضُمَّرَا

يقال تغلِبِىٌّ وتغلَبِىٌّ ، والكسر أكثر ، ومن فَتَح فلتوالى الكسرات والياءين . وهذا كما قالوا : نَمَرِىٌّ فَرَدُّوا من فَعِلٍ إلى فَعَلٍ . يقول : لمّا لقينا جماعةً من بنى تغلب[1] يقودون للحَرْبِ خَيْلاً ضُمَّرًا قِصَارَ الشعور . وجواب لمّا فيما بعد ، وهو سقيناهم . وإنّما احتاج إلى الجواب متى كان عَلَمًا للظرف ، لأنّه يجىء لوقوع الشىء لوقوع غيره . وجَعَل الخَيْل جُرْدًا لأنّ العِرَابَ منها تكون كذلك . واللام من قوله « للمنيّةِ » يجوز أن يتعلّق بيقودون ، ويجوز أن يُتعلّق بقوله ضُمَّرا ، أى ضُمِّرَتْ لَهَا .

٤ — سَقَيْنَاهُمْ كأسًا سَقَوْنَا بِمِثْلِها ولكنَّهُم كانُوا على المَوْتِ أَصْبَرَا

يقول : قابلناهم بمثلِ ما بدءونا به من سَقْى كأس الموت ، لكن القتل كان فيهم أعمّ ، ولهم أشمل . وجَعَل ذلك فيهم كالصّبر منهم عليه[2] . ويقرُب أن

---

(١) التبريزى : « يعنى تغلب بن حلوان ، بن عمران بن الحاف بن قضاعة ، لأن الظافر فى يوم مرج راهط كان لكلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان ، وليس لتغلب وائل هنا مدخل » .

(٢) ذهب التبريزى إلى أن هذا التفسير خطأ ، وأن المعنى أنه شهد لهم بالغلبة واعترف أنهم أهل صبر ، وقد أقر بهزيمة قومه فى قوله :

ولم تر منى نبوة قبل هذه فرارى وتركى صاحبىَّ ورائيا

يكون قول الله تعالى : ﴿ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾ على هذا الوجه . كأنّ النّارَ حَقّتْ عليهم وَوَجَبَتْ ، بما كان منهم من المعصية ، فجعل ذلك فيهم كالصَّبر منهم عليه ، ولذلك قال بعض المفسّرين فى معناه : ما أعملَهُم بعمل أهل النار . كأنَّ إصرارَهم على ذلك العمل كالصَّبر منهم على النار . وردُّ الآيةِ إلى البيت وإجراء القول فيها على هذا الحدّ غريبٌ حَسَنٌ . وقوله : « أَصْبَرَ » أى أصْبَرُ منّا ، وأفعل الذى يتمّ بِمِنْ يُحذف منه « من » فى باب الخبر دون الوَصْف . وساغ ذلك لأنّ الخبر كما يجوز حَذْفُه بأسْرِهِ لقيام الدلالة عليه يجوز حَذْف بعضِهِ أيضاً له

٢٩
عَمْرُو بنُ مَعْدِيكَرِبَ(١) :

حَكَى ابن الأعرابىّ : قالوا مَعْدِيكَرِبَ لأنه عَدَا الفسادَ . والكَرب : الفَسَاد .

١ – وَلَمَّا رَأَيْتُ الْخَيْلَ زُورًا كَأَنَّهَا جَدَاوِلُ زَرْعٍ خُلِّيَتْ فَاسْبَطَرَّتِ(٢)

اسبطرَّتْ : امتدَّتْ ، والسِّبَطْر والسَّبطُ بمعنًى واحد . يقول : لمّا رأيت الفُرسان منحرفين للطَّعن ، وقد خلّوا أعنَّةَ دوابِّهم وأرسلوها ، وقرَّطوا آذانَها بها ، فكأنها أنهارُ زَرْعٍ أُرْسِلَتْ مِيَاهُهَا فامتدَّتْ بها . والتشبيه وَقَعَ على جَرْيِ الماء فى الأنهار لا على الأنهار ، كأنّه شبَّه امتدادَ الخَيْلِ فى انحرافها عند الطَّعْنِ بامتداد الماء فى الأنهار ، وهو يطّرِدُ ملتوياً ومضطرباً . وكما وَصَفَ الخَيْلَ

(١) هو أبو ثور عمرو بن معديكرب الزبيدى ، كان من فرسان العرب المشهورين بالبأس فى الجاهلية ، وأدرك الإسلام وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ارتد بعد وفاته فيمن ارتد من اليمن ، ثم هاجر إلى العراق فأسلم ، وشهد القادسية وأبلى فيها . الشعر والشعراء ٣٣٢ والأغانى (١٤ : ٢٤ – ٣٩) والخزانة (١ : ٤٢٢ – ٤٢٦) وكتب الصحابة .

(٢) التبريزى : « أرسلت فاسبطرت » .

فى انحرافِها بزُورٍ وُصِفَتْ أيْضًا بنُكْبٍ، فقال بعضهم:

* لِأَعْدَائِنَا نُكْبٌ إِذَا الطَّعْنُ أَفْقَرَا *

فالنُّكْبُ: جَمْعُ أنْكَب، وهو الذى ينحطُّ أحد مَنكِبيه عن الآخَر، كما أنّ الزُّور جمع أَزْوَر، وهو المُعْوَجّ الزَّوْر. وهذا من التشبيه الحسن الصائب. وقوله: « خُلِّيَتْ فاسبطرّت » جُعِلاَ للجداول على المجاز والسَّعةِ، لأنّ المياه هى التى تخَلَّى وتمتدّ. وهذا كما يقال نَهْرٌ جارٍ، وإنْ كان الماء هو الذى يجرى.

٢ – فَجَاشَتْ إِلَيَّ النفسُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَرُدَّتْ على مَكْرُوهِهَا فاستقرّتِ[1]

فجاشت إلىّ النفس أول مرة. اعترض بعضُهم فقال: لولا أنّه جَبُن لما جاشت إليه النَّفس. قال: ومثلُه فى الرداءة قول عنترة:

إذْ يَتَّقُونَ بِيَ الأَسِنَّةَ لَمْ أَخِمْ عَنْهَا ولكِنِّى تَضَايَقَ مُقْدَمِى

هَلاَّ قال كما قال العباس بن مرداس:

أَشُدُّ على الكتيبة لا أُبَالِى أَحَتْفِى كان فِيهَا أَمْ سِوَاها

قال الشيخ: وليس الأمر كما توَهّم، لأن ما ذكرَهُ عمرٌو وعنترة بيانُ حالِ النَّفس، ونفسُ الجبانِ والشُّجاع على طريقةٍ واحدةٍ فيما يَدْهَمُهَا عند الوهلة الأولى، ثم يختلفان: فالجبانُ يَرْكَبُ نفرتَه[2]، والشُّجاع يدفعُها فيثبُتُ. فأمّا قول العباس ابن مرداس فليس مما ذكرَاها بسبيلٍ، وإنما هو بيانُ الحالة الثانية وما يعزمُ عليه بعد الاعتصام والمراجعة والتمسُّك. فاعلمْه إن شاء الله. وقولُه: « أوّلَ مَرّةٍ » وذاتَ مَرّةٍ، لا يكونانِ إلاّ ظَرْفَيْنِ؛ لأنّ مَرّةً ليس باسْمٍ للزمان لازمٍ، وإنّما هو مُدْخَلٌ عليه. فإذا قلتَ مرّةً فإنما حقيقتُها فَعْلَةٌ واحدةٌ، ويجوز أن

(١) م والتبريزى: « فردت » بالفاء.

(٢) هذا ما فى م والتبريزى. وفى الأصل: « نفسه ».

يكون وقتا واحدًا . ويجوز أن يكون الفاء فى « فجاشت » زائدةً ، فى قول الكوفيين وأبى الحسن الأخفش ، ويكون جاشت جَوَابًا لِلَمَّا . والمعنى : لمّا رأيتُ الخَيْلَ هكذا خافَتْ نَفْسِي وثَارَتْ . وطريقةُ جُلِّ أصحابنا البصريين فى مثله أن يكون الجواب محذوفا ، كأنه قال : لما رأيتُ الخَيْلَ هَكَذَا فجاشَتْ نَفْسى ورُدَّت على ما كَرِهَتْهُ فقرّتْ ، طَعَنْتُ أو أبْلَيْتُ . ويَدُلُّ على ذلك قولُه : « علامَ تقولُ الرمح يثقل ساعدى إذا أنا لم أَطْعُنْ » ، فحَذف طَعَنْتُ أو أبْلَيْتُ لأنَّ المراد مَفْهُومٌ . وهذا كما حذفوا جَواب لو رأيتَ زَيْدًا وفى يده السيف ! وعلى هذا الكلامُ على المذهبين فى قوله تعالى : ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وفُتِّحَت(٢) أَبْوَابُها﴾ ، وفى قول امرئ القيس :

فَلَمّا أَجَزْنَا سَاحَةَ الحَىِّ وانْتَحى   بِنَا بَطْنُ خَبْتٍ ذِى قِفَافٍ عَقَنْقَلِ

وحذفُ الجواب فى مثل هذه المواضع أبْلَغ وأدلّ على المرادِ وأحْسَنُ ، بدلالة أن المولى إذا قال لعبده : « واللهِ لئن قُمتُ إليك » وسَكَتَ ، تزاحمَتْ عليه من الظُّنون المعترضة للوعيد ما لا يتزاحم لو نَصَّ من مؤاخذته على ضَرْبٍ من العذاب . وكذلك إذا قال المتبجِّحُ : « لو رأيتنى شابًّا » وسكتَ ، جالتِ الأفكار له بما لم تَجُلْ به لو أتى بالجواب .

٣ — عَلَامَ تَقولُ الرُّمْحُ يُثْقِلُ سَاعِدِى   إِذَا أَنَا لَمْ أَطْعُنْ إِذَا الخَيْلُ كَرَّتِ

« ما » فى الاستفهام إذا اتّصل بحرفِ جرّ يُحذف الألفُ من آخره تخفيفاً ، على ذلك فِيمَ وبِمَ ولِمَ ، إلاّ إذا اتَّصَلَ ما بِذَا فقلت : بماذا ولماذا ، لأنه يُترَكُ على تمَامِهِ(١) . وقوله : « تَقُولُ الرُّمْحُ » يُرْوى بفتح الحاء وضمّها ، فإذا

(١) وقد يترك على تمامه مع عدم اتصاله بذا . وقرأ عكرمة وعيسى : « عما يتساءلون » . وقال حسان : على ما قام بشتمنى لئيم   كخنزير تمرغ فى رماد
انظر المغنى فى (ما) والخزانة (٢ : ٣٥٧) والبيان (٣ : ١٢٥) .

(٢) كذا فى النسختين . وقرأ عاصم وحمزة والكسائى وخلف والأعمش بتخفيف التاء . وباقى القراء بتشديدها .

نَصَبْتَ فلأنك جعَلْتَ تَقُولُ فى معنى تَظُنُّ . وهُم ــ عند الخطاب والكلام استفهام ــ يحملون القول على الظَّنِّ . على ذلك قَوْلُه :

* فَمَتَى تَقُولُ الدَّارَ تَجْمَعُنَا[1] *

أى متى تظنُّ ذلك فتقول ، فجعل القولَ يَدُلُّ على الظَّنِّ لَمَّا كان القَوْلُ تَرْجَمَةً عن الظَّنِّ . والخِطَابُ والاستفهام يحتملان مالا يحتمل غيرها . وإذا رفَعْتَ الرُّمْحَ فالقَوْلُ مَتْرُوكٌ على بابه ، والرُّمْحُ يرتفع بالابتداء ، والكلامُ حكايةٌ ، وما بَعْدَ الْقَوْلِ إذا كان كَلاَمًا مُفِيداً يُحْكَى . ومعنى البيت : على أىِّ شىء ولأىّ وجهٍ تقول : أَحمِلُ الرُّمْحَ فيُثْقِلُ ساعِدِى إذا لم أُعْمِلْهُ إذا حَصَلَ الكرُّ من الخَيْلِ بعد الفرِّ ، واشْتَدَّ عليهم الأمْر . والمعنى بأى حُجَّةٍ أحمِلُ السِّلاَحَ إذا لَمْ أُبْلِ فى الحَرْبِ ولم أَسْتَعْمِلْهُ فى وَقْتِهِ . وهذا الكلامُ إسْقَاطٌ للتبجّح بالبَلاَءِ الذى كان منه أيضا . وقولُهُ : « إذا أنا لم أَطْعُنْ » أى لم يُثْقِل ساعِدِى الرمْحُ فى وقت تَرْكِى الطَّعْن زَمَانَ كَرِّ الخيل ، فإذا الأوّلُ ظَرْفٌ لقوله يُثْقِلُ ، وإذا الثانى ظَرْفٌ لقوله لم أَطْعُن .

٤ ــ لَحَا اللهُ جَرْمًا كُلَّمَا ذَرَّ شَارِقٌ وُجُوهَ كِلاَبٍ هَارَشَتْ فازْبَأَرَّتِ

ازْبَأَرَّ : انتفش حتّى ظهر أصولُ شعره . قال :

فهو وَرْدُ اللَّونِ فى ازبئرارِه وكميتُ اللَّونِ ما لم يزبئِرّ[2]

كُلَّمَا انتصب على الظَّرْف ، و« وجُوهَ » انتصَبَ على الشَّتْم والذّمِّ ، والعامِلُ فيه فِعْلٌ مُضْمَرٌ وهو أَذْكُرُ . كأنّه شَبَّهَ وجوههم بوجوه الكِلاَبِ فى الحالة المذكورة . ويجوز أن يكون انتصابه على البَدَل من قَوْلِهِ « جَرْمًا » . ومعنى

(١) لعمر بن أبى ربيعة ، كما فى اللسان (قول) . وصدره :
* أما الرحيل فدون بعد غد *
(٢) البيت للمرار بن منقذ فى المفضليات (١ : ٨١) .

لحَا الله : قَشَر الله ، أى فَعَل ذلك بهم غَدَاةَ كُلِّ يَوْمٍ ، أذْكُرُ قَوْمًا يُشْبِهُون الكِلاَبَ إذا واثَبَت غيرَها وساوَرت ، فانتفشت وتجمّعتْ للوثب ؛ وتلك الحالةُ من أحوالها أشْنَعُ وأنكَر . وهذا تحقيقٌ للشَّبَه ، وتصويرٌ لقباحة المنظر . والذَّرُور فى الشمس أصلُه الانتشار والتفريق . قال :

* كالشَّمس لم تَعْدُ سِوَى ذرورِها *

أى طلوعِها وانتشار ضوئِها . قال الخليل : المهارشَةُ من الكلابِ وغيرها كالمُحارشَةِ . ويقال : فلانٌ يُهارِشُ بين الكَلْبَيْنِ .

٥ — فلَمْ تُغنِ جَرْمٌ نَهْدَهَا إذْ تلاقيَا ولٰكِنَّ جَرْمًا فى اللقاءِ ابْذَعَرَّتِ[1]

جَرْمٌ ونَهْدٌ : قبيلتان من قُضَاعة[2] . ومعنى ابذعرّت : تفرّقَتْ . وأضافَ نَهْدًا إلى ضمير جَرْمٍ ، لاعتماده كان عليها ، واعتقاده الاكتفاء بها . والمعنى لم تنصُرْها فكانت تكتفى بها وتَغْنَى ، ولكنّ جَرْمًا انهزمت ، وهَامَتْ على وجهها فمَضَتْ ، واصطلت نَهْدٌ بنارِ الحرْبِ ، فمَسَّتْ حاجَتُها إلى من يؤازرها ، ويناهض الأعداء معها .

٦ — ظَلِلْتُ كأنِّى للرِّماحِ دَرِيَّةٌ أُقاتِلُ عن أبناء جَرْمٍ وفرَّتِ

يقول: بقيتُ نهارى منتصباً فى وجوه الأعداء ، والطعنُ يأتينى من جَوَانبى ، وكأنى للرِّماح بمنزلة الحَلْقَةِ التى يُتعلَّمُ عليها الطعنُ ، أَذُبُّ عن جَرْمٍ وقد هَرَبَت هىَ . ويجوز أن يكون : كأنِّى للرِّماحِ صَيْدٌ . فقد حكَى أبو زيد أنه يُقال

(١) رواية التبريزى : « إذ تلاقتا » .

(٢) التبريزى : وكانت جرم ونهد فى بنى الحارث بن كعب ، فقتلت جرم رجلا من بنى الحارث يقال له معاذ بن يزيد ، فارتحلت جرم فتحولوا إلى بنى زبيد قوم عمرو بن معديكرب ، فجاءت بنو الحارث يطلبون بدم صاحبهم ، فعبى عمرو جرما لبنى نهد ، وتعبى هو وقومه لبنى الحارث ، فكرهت جرم دماء بنى نهد نفرت ، وانهزمت بنو زبيد ، فلامهم عمرو » .

للصيد خاصةً دَرِيّة ، غيرُ مهموزةٍ ، ودَرَايا ؛ كأن هذا من دَرَيْتُ أى خَتَلْتُ .
فأمّا الدابة التى يُسْتَتَرُ بها من الصَّيدِ ، فإذا أُكْثَبَ رُمِيَ من خَلْفِها ، فذَكَرَ
أبو زيدٍ أنها تسمَّى دَرِيئةَ الصيدِ ، بالهمز . قال : ويقال : دَرأْتُها نحوَ الصَّيد
وإلى الصيد وللصيد ، إذا سُقْتَها . وكأنّ هذا من الدَّرْءِ ، وهو الدفع . وقد تسمَّى
تلك الدابّة الذَّرِيعة والسَّيِّقةُ والقَيِّدة . وأنشِدْتُ عن أبى العبّاس المُبَرِّدِ ، رحمه
الله ، أنشدنيه حمزة بن الحسن ، قال : أنشدنيه على بن سليمان الأخفش عنه :

إذا نَصَبْنَا لقوْمٍ لا نَدِبُّ لهم كما تَدِبُّ إلى الوحشيَّة الذُّرُعُ(١)

الذُّرع : جمع ذريعة ، كصحيفة وصُحُف . وإن جعلت « كأنى » فى موضع
الحال فأقاتل فى موضع الخبر لظَلِلت حينئذ .

٧ ــ فلو أنّ قومِي أنطقتنى رِماحُهم نَطَقْتُ ولكنَّ الرِّماح أَجَرَّتِ

النُّطق استُعمل فى الكلام وغيره ، ولذلك قيل مَنْطِق الطير ، ثم توسَّعوا
فقالوا : نَطَقَ الكتابُ بكذا . يقولُ : لو أنّ قومى أَبْلَوْا فى الحرب واجتهدوا
لافتخرت بهم ، وذكرْت بلاءهم ، ولكنَّ رماحَهم أجرّت لسانى ، كما يُجَرُّ
لسان الفَصِيل . وجَعَل الفعلين للرِّماح لأن المراد مفهومٌ فى أن التقصير كان منهم
لا منها . والإجرار : أن يُشَقَّ لسانُ الفصيل للرماح فيُجعلَ فيه عُوَيْدٌ لئلاّ
يرضَع أمه . وقد استُعمل الإجرار فى الرُّمح إذا تكسَّر فى المطعون . قال :

* أجرَّهُ الرُّمحَ ولا تُهالَه(٢) *

---

(١) أنشد فى اللسان (ذرع) :

وللمنية أسباب تقربها كما تقرب للوحشية الذرع

(٢) فى اللسان : « فتح اللام لسكون الهاء وسكون الألف قبلها . واختاروا الفتحة لأنها من جنس الألف التى قبلها ، فلما تحركت اللام لم يلتق ساكنان فتحذف الألف لالتقائهما » ــ وقبله :

* ويهاً فداء لك يا فضاله *

وفى طريقه قوله : « أنطقتنى رماحُهم » قول الآخر[١] :

أقولُ وقد شَــدُّوا لسانى بِنِسْعَةٍ أَمَعْشَرَ تَيْمٍ أَطْلِقوا عن لِسَانِيَا

لأنّ المعنى أحسِنوا إلىَّ ينطلِقْ لسانى بشكركم .

٣٠

سَيَّارُ بنُ قَصِيرٍ الطائىّ

١ — لو شَهِدَتْ أُمُّ القُدَيْدِ طِعَانَنَا بِمَرْعَشَ خَيْلَ الأرمَنِىِّ أَرَنَّتِ[٢]

جواب لو ، «أرنّت» . يقال رَنَّ وأَرَنَّ بمعنًى واحد . ومَرْعَش من ثغور أرمِينيَةَ . وأُمُّ القُدَيد ، قيل هى امرأته . والخيل ينتصب من قوله « طِعَانَنَا » . ومعنى البيت : لو حَضَرت هذه المرأةُ مطاعنَتَنا بمَرْعَش خَيْل هذا الرّجل الأرمَنِىِّ لَوَلْوَلَتْ وضَجَّتْ ، إشفاقاً علينا ، لـكثرتهم وقلَّتِنا . والباء من قوله « بمَرْعَشَ » تعلَّقَ بطعاننا ، وهو ظَرْفُ مكان له قد عَمِلَ فيه . وإنما قلت هذا لئلا يُتوهَّم أنه تعلَّق بشهِدَتْ ، وأنه فى موضع الحال للخيل أو المطاعنين ، فيكون قد فُصِلَ به بين الصِّلة والموصول ، وهما طعاننا وخيل الأرمَنِىِّ .

٢ — عَشِيَّةَ أَرْمِى جَمْعَهُمْ بلَبَانِهِ ونَفْسِى وقد وَطَّنْتُها فاطمأَنَّتِ

لَبَان الفرس : صدره . ويقال : وطّنْت نفسى على كذا فتوطَّنت ، أى حَمَلتُها عليه فذَلَّت . وانتصب « عَشيَّة » على أنه ظَرْفٌ لِطعَانِنا . ويجوز أن يكون ظرفاً لِشَهِدَت ، ولا يجوز أن يكون ظرفاً لأرمى ؛ لأن أَرمى أضيفت عشيَّة إليه ، والمضاف إليه لا يعمل فى المضاف . ومعنى البيت : عشِيَّةَ أحمِلُ عَلَى القوْمِ ولا أُبالى إن كانت عَلَىَّ أوْ لِى ، لأنى وطّنت نفسى على الشر فألفته

(١) هو عبد يغوث بن وقاص الحارثى . المفضليات (١ : ٥٥)

(٢) أنشد هذه الأبيات ياقوت فى (مرعش) بدون نسبة .

وسكنَت إليه. فمن روى: «ونفسيَ قد وطّنتها» يكون الواو للحال، ونفسي يرتفع بالابتداء، ووطَّنتُها في موضع الخبر. ومن رَوَى: «ونَفْسِي وقد وطَّنْتُها» فإنّ نفسي يكون في موضع الجر عطفاً على بلَبانه، أي أرمي جيشهم بنفسي وفرسي، ويكون قد وطّنتها في موضع الحال. وتحقيق الكلام: وقد وطّنتها على الشر فسَكَنت إليه، ورضِيَت به. ومثلُه قول عنترة:

ما زِلْتُ أرْمِيهِمْ بقُرْحة مُهرِى ولَبَانِ لا وَكِلٍ ولا هَيَّابِ

وقول الآخر:

مازِلْتُ أرميهم بثُغرَةِ نَحْرِه وفارسِه حتى ثأرتُ ابنَ وَاقِد[1]

٣ ـ وَلاحِقَةِ الآطالِ أَسْنَدْتُ صَفَّها إلى صَفٍّ أُخرَى من عِدًى فاقْشَعَرَّتِ

إنما نَكَّرَ قولَه «عِدًى» لينبّه به على اختلافهم وكثرتِهم، وأنّ ذلك لتوفُّر فضائلِهم، وتظاهُرِ عزِّهم ورياستِهم، إذْ كان الحسَدُ يتبع ذلك، ولأنهم يَتِرُونَ مَن لا يَذِلّ لهم، ولا يَهوَى هواهم. يقول: ورُبَّ خَيْلٍ قد لحقَت بطونُها بظهورها[2]، وارتفعت جنوبُها إلا متونها، أنا أمَلْتُ صَفَّها إلى صَفِّ خَيْلٍ مِثلِها من الأعداء، فخافت لقلّتنا وكثرتهم. وأصل الاقشعرارِ تقبُّض الجلد وانتصابُ الشَّعر، وقد تكلَّمَ الناسُ في قول امرئ القيس:

* والقَلْبُ من خَشْيَةٍ مُقْشَعِرْ[3] *

فقال بعضهم: الاقشعرار لا يصحُّ في القلب، لأنه يُخبَرُ به عما عليه شَعَرٌ، ولا شَعَرَ على القلب. وقال غيرُه: إنما هو كنايةٌ عن الوَجَل، ولمّا كان

(١) في الأصل: «وبوجهه حتى»، ولا يستقيم به الوزن. وهو من الطويل مع الخرم في أوله. وأثبتنا ما في م. (٢) م: «وظهورها».

(٣) هو بتمامه، كما في الديوان ٩:

فبت أكابد ليل التما م والقلب من خشية مقشعر

الاقشعرارُ يقع عنده كُنِيَ به عنه . وإذا كان كذلك فكأنه قال : والقَلْبُ من خَشْيَةٍ وَجِل .

٣١

بعضُ بني بَوْلانَ من طَيِّئٍ(١)

بَوْلان فَعْلاَن ، من قولهم رجُلٌ بُوَلَةٌ ، إذا كان كثير البَوْل . والبُوَال : داءٌ يصيب الغنم فيبول حتى يمُوتَ .

١ – نحنُ حبَسْنَا بنى جَدِيلَةَ فى نارٍ من الحَرْبِ جَحْمَةِ الضَّرَمِ

جَدِيلةُ من الجَدْلِ ، وهى فيما زعموا أمُّهُم . والجَدْلُ : الفتلُ . قال الدُّرَيْدِى : جَدِيلةُ من قولهم امرأةٌ مجدُولةٌ ، إذا كانت قَضِيفَةً . ويقال ضَرِمَتِ النارُ ، إذا التهبت ، تضرَمُ ضَرَمًا . ولهذا ما تلتهب به النارُ سريعًا من الحطب قيل له الضِّرَام . فيقول : حبسنا هؤلاء القومَ على نارٍ من الحربِ شديدة الالتهاب . والجَحْمَةُ : مَصدَرُ جَحِمَتِ النارُ فهى جاحمةٌ ، إذا اضطرَمَت ؛ ومنه الجحيم . قال : وُصِفَت النار بالجحيم لحُمْرَتِها ، ولذلك سُمِّيَت عَيْنُ الأسد(٢) جَحْمَةً ، لأنها تتراءى بالليل كأنها نار . وقال الدُّرَيْدِى : الجَحْمَةُ العين ، لغةٌ يمانيَّةٌ . وعين الأسَد خاصَّةً فى كلِّ اللغات الجَحْمَة .

٢ – نستَوْقِدُ النَّبْلَ بالحضيضِ ونَصْطاد نُفُوسًا بُنَتْ عَلَى الكَرَمِ

قولُهُ « نَسْتَوْقِدُ النَّبل » من فصيح الكلام ، كأنّه جَعَل خروج النار من

(١) التبريزى عن أبى محمد الأعرابى : « هذا الشعر لرجل من بلقين ، وسبب ذلك أن القين بن جسر وطيئا كانوا حلفاء، ثم لم تزل كلب بأوس بن حارثة حتى قاتل القين يوم ملكان ، فحبسهم بنو القين ثلاثة أيام ولياليها لا يقدرون على الماء، فنزلوا على حكم الحارث بن زهدم أخى بنى كنانة بن القين ، فقال شاعر القين يومئذ : نحن حبسنا » .

(٢) فى الأصل : « عين الشمس » تحريف ، صوابه فى م والتبريزى واللسان .

الحجَر عند صَدْمة النَّيل استيقادًا منهم . والوَقْدُ ، توسَّعُوا فيه حتَّى قِيلَ قَلْبٌ وقادٌ . فإن قيل : هَلاَّ قال نستقدِحُ النَّبل ، فكان أصَحَّ ؟ قلتَ : الذى قاله أفصح ؛ وقد قيل زَنْدٌ مِيقادٌ ، إذا كان سريعَ الوَرْيِ . وقال الخليل : كلُّ ما تلألأ فقد وَقَدَ ، حتى الحافر . يقول : تنفذ سهامُنا فى الرَّمْيَّة حتى تَصِلَ إلى حَضيض الجبل فتخرجَ منه النار لشدة رَمْيِنَا ، وقوة سواعِدنا ، ونصيد بها نفوساً مبنيَّة على كَرَمٍ . أى نقتل الرؤساء ومن تَكْرُمُ نفسه وتَعِزُّ حياتُه . وقوله « بُنَتْ » أصله بُنِيَتْ ، فأخرجه على لغة طيِّئٍ ، لأنهم يقولون فى بَقِيَ بَقَى ، وفى رُضِيَ رُضَى . ولهذا قال بعضهم :

* على مِحْمَرٍ ثَوَّبْتُمُوه وما رُضَى [1] *

وقالوا فى بادِيَة : باداة ، كأنهم يفرّون من الكَسْرَة بعدها ياء إلى الفتحة ، فتنقلب الياء ألفاً . والحَضِيضُ : قرار الأرض عند سفح جَبَلٍ . والنَّبْلُ لا واحِدَ له من لفظه .

٣٢

وقال رُوَيْشِدُ بن كَثِيرٍ الطائىُّ :

١ — يأيُّها الراكِبُ المُزْجِى مَطِيَّتَه سَائِلْ بنى أَسَدٍ ماهذه الصَّوْتُ [2]

المَطِيَّةُ من المَطا ، وهو الظَّهْرُ . ويقال مَطَاهُ وامتطاه ، إذا ركبه . وَلِلحُوق الهاء به صار اسماً ، وقد مر مثله . ويُروى : بَلِّغ بنى أَسَدٍ » . وقوله : « ما هذه

(١) لزيد الخيل ، كما فى نوادر أبى زيد ٨٠ والأمالى (٣ : ٢٤) وشرح شواهد المغنى للسيوطى ١٦٥ . واللسان (أتم) . وصدره :

* أفى كل عام مأتم تجمعونه *

(٢) التبريزى : « هــذه الأبيات شاذة فى الشعر القديم ، لأن العادة قد جرت إذا استعملوا هذا الوزن أن يكون اللين فيه كاملا ، وذلك أن يكون قبل الروى ألف أو واو قبلها ضمة ، أو ياء قبلها كسرة . وقوله : الصوت ، قد جاء بالواو وما قبلها مفتوح » .

الصوتُ » الجملة فى موضِـع المفعول ، وارتفع الصوت على أنه عطف البيان . يُخاطِبُ الراكبَ السائقَ لمطيّته بإعجالٍ ، يسألُه أن يُبلِّغ بنى أَسَدٍ عنه عن طريقِ الفحص والاستعلام : ما هذه الجَلَبَةُ . وهذا الكلامُ تهكُّمٌ وسخرِيّة ، لأنه هو الذى أثار عليهم ما اهتاجوا له ، وجَلَبَ عليهم ما أشكاهم . وإنما قال ما هذه الصوت ، والصوت مُذكَّر ، لأنه قَصَدَ به إلى الصيْحَةِ والجَلَبَةِ . وهذا كما قال حاتمٌ :

أَمَاوِىَّ قد طالَ التجنُّبُ والهَجْرُ وقد عَذَرَتْنِى فى طِلَابِـكُم العُذْرُ

يريد المعذرة . وكما قال الآخر(١) :

وكان مِجَنِّى دونَ من كُنْتُ أَتَّقِى ثلاثُ شُخُوصٍ كاعِبَانِ ومُعْصِرُ

فأَنَّث الشُّخوصَ لأنه قصد بها إلى النفوس . وحكى عن أبى عمرو ابن العَلاء أنه سَمِـع بعضَهم يقول : « جاءته كتابى فاحتقرها » . قال أبوعمرو : فقلت : أتقول جاءته كتابى ؟ قال : نعم ، أليست هى صحيفة ؟ وقد قيل : لمّا كانت الشُّخوصُ شُخوصَ النِّساء أنّث العدد . وقوله : « الراكبَ المُزْجِى » الراكب يقع على راكب البعير خاصةً ؛ لأن راكب الخيل يقال له فارس . والمُزْجِى ، يُقال زَجَا الشىءُ يزجو زَجْوًا وزَجَاءً ، وأَزْجَيْتُه أنا وزجَّيْتُه ، إذا استحثثته . ومنه زَجَاء الخَرَاجِ . وفى هذا الكلام دَلالةٌ على أنه ليس يُقْنِعُه ما أوقعهم فيه . ألا تَرَى أنه يتوعّد بالاستئصال إن لم يصح عُذرُهم . ويجوز أن يكون المراد بقوله « ما هذه الصوت » ما الذى يتأدَّى إلىَّ عنكم ، ويتحدَّث به الناس من شانِـكم وقصتِكم . ويقال : ذَهَب صوت هذا الأمر فى الناس للتحدُّث به ، وذهب صِيتُ بنى فلانٍ فى الناس إذا ذُكِروا بالخير . فكأنّه على هذا يوهمهم

(١) هو عمر بن أبى ربيعة ، من قصيدته التى مطلعها :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر غداة غد أم رائح فمهجر

أنه لم يصحّ عندَه ما يُقال ، وأنهم إن لم يقيموا المعذِرة والدّلالة على براءة الساحة حينئذ عاقَبَهم . وهذا المعنى فى نهاية الحُسْن(١) .

٢ ـ وقُلْ لهُمْ بادِرُوا بالعُذْرِ والتَمِسوا قَوْلاً يُبَرِّئُكم إنّى أنا المَوْتُ

مفعول بادروا محذوف ، كأنّه قال : بادِرُوا العِقابَ بالعُذر ، أى سابِقُوه . يقول : قُلْ لَهُمْ : سارِعوا بالعُذْر فيما ركبتموه واطلبوا قولاً يُبَرِّئُ ساحَتكم ، إنّى أنا حَتْفُكم إنْ لم تفعلوا ، أى أقرِّب حَيْنَكم ، وأسْعَى فى هلاككم إن لم تفعلوا . ويقال : لَمَسَ والتمسَ فى معنى طلب . على ذلك قولُ الله تعالى حاكيًا عن مسترِقة السمع: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ فوجَدْناها مُلِئَتْ حَرَسًا شديدًا﴾ ، أى طلبناها . وقال الشّاعر :

أَلاَمُ عَلَى تبَكِّيهِ وَأَلْمَسُهُ فلا أَجِدُهْ

و « يبرئكم » فى موضع الصِّفة للقول ، أى قولاً مبرِّئًا لكم من الذنب .

٣ ـ إنْ تُذْنِبُوا ثم يأتيني بَقِيَّتُكُمْ فَمَا عَلَيَّ بذَنْبٍ عِندَكم فَوْتُ(٢)

قولُه « بذَنبٍ » أى بسبب ذَنبٍ ، وقد حَذَفَ المضاف وأقام المضاف إليه مقامه ، كأنّه قال بجزاءِ ذَنْبٍ ، ويقال : « لا فوتَ عليك فى كذا » ، كما يقالُ لا بأس عليك . والمعنى : لايفوتك . وفى هذا الكلام إيذانٌ بأنه مستعمِلٌ الأناةَ والحلم معهم ، ثقةً بأنّهم لا يفوتونه . يقول : إن تُجْرِموا ثم يصحّ عندى تعمُّدُكم فى إجرامكم وتيقُّنكم ما يلحقكم من لائمةٍ وعيْبٍ(٣) وأنكم أقدمتم مستهينين ، وبمن يأخذُكم نكيرُهُ غير حافلين ، فما يفوتنى

(١) كذا فى م . وفى الأصل : « فى نهاية » فقط .

(٢) يروى أيضا : « تقيتكم » كما نص التبريزى . ويروى : « بقيتكم » كما سيأتى .

(٣) م : « وعتب » .

مكافأتُكم ، ولا يُعْيِينى مؤاخذتكم ومحاسبتكم . ورُوِى: «ثم يأتينى بقيّتُكم» وفُسِّر على وجهين : أحدُهما أنَّ المعنى ثمَّ تأتينى خياركم وأماثلكم ، يقيمون معذرةَ أنفسِهم ، ويبيِّنون أنَّهم لم يساعدوكم لا بالرأى ولا بالفعل . وهذا كما يقال: فُلَانٌ من بقية أَهْلِهِ ، أى من أفاضلهم . والآخر أن يكون المعنى : ثمَّ تأتينى بقيّتكم الذين لم يذنبوا متنصِّلين بأنهم قد فارقوكم وأسلموكم ، لعظيم جنايتكم ، وخلعوا رِبْقَةَ النُّصْرةِ والمعاوَنَةِ لكم .

٣٣

أُنَيف بن حَكَمٍ النَّبْهَانِىّ(١)

١ – جَمَعْنَا لَهُمْ مِنْ حَىِّ عَوْفِ بن مَالِكٍ   كتائبَ يُرْدِى الْمُقْرِفِينَ نَكَالُهَا

الكَتيبةُ من الجيش : ما جُمِع فلم ينتشر . وقولُه : « يُرْدِى » مع ما بعدَهُ فى موضع الصِّفة للكتائب . يقول : جمعنا لهؤلاء القوم جُيوشًا من خُلَّصِ العرب تُهلك عُقوبَتُها الذين فى نَسبِهم هُجْنَةٌ أو إقْرَافٌ إذا ركوا عليهم. وهذا يجوز أن يكون تعريضًا بمنا بذِيه ووعيدًا لهم . والإقراف يكون من قِبَل الفحل ، والهُجْنَةُ من قبل الأمّ . وذَكَرَ المُقْرِفين ولم يذكر الهُجَنَاء لأنَّهم وإن كانوا يأخذون مأخذَهم فى أنه لا يَخلُصُ نَسَبُهُمْ ، [ولا يصفُو سببُهم(٢)] ، فنافيهم أشدّ نقدًا ، ومزيفهم أنكرَ دَفعًا . وكان عَنْتَرة العَبْسِى هجينًا فقال :

إنّى امرؤٌ من خَيرِ عَبْسٍ مَنْصِبًا   شَطْرِى وأَحِمى سائرى بالْمُنْصُلِ

[نافيًا للإقراف(٣)] ، فجعل أحد شَطْرِيه من خير عَبْس ، وجعل الباقى يحميه من الذّم باستعمال السَّيف يوم الرَّوْع ، وحسنِ البلاء فى الحرْب ، حتَّى

(١) التبريزى والمبهج : « أنيف بن زبان النبهانى » .
(٢) التكملة من م .
(٣) التكملة من م . وما بعده إلى « عبس » ساقط من م .

يُلْحِقَهُ بالخُلَّصِ ، ولا تَقْعُدَ به هُجْنَتُه عن الدُّخولِ فى زُمْرَةِ الصُّرَحاء .

٢ ــ لَهُمْ عَجُزٌ بالحَزْنِ فالرَّمْلِ فاللِّوَى وقد جاوَزَتْ حَيَّىْ جَدِيسَ رِعَالُهَا

الرَّعيل: قطعةٌ من الخيل متقدِّمَةٌ ، وتوسَّعوا فقالوا : أراعيلُ الرِّياح . ويقال: استَرْعَلَ فُلَانٌ ، أى خَرَجَ فى الرَّعيل الأول . يقول : سَوَابِق هذه الكتائب وأوائلُها قد جاوزت بلادَ طَسْمٍ وجَدِيسَ ، ولواحِقُها قد شُحِنَتْ بها هذه المواضع . وبين بلاد حَيَّىْ جديسَ والبقاع التى ذكرها مَسَافَةٌ بعيدة . واللِّوى ، حيثُ يرِقُّ الرّملُ فيخرج السائر فيه إلى الحَزْن . وطَسْمٌ وجَدِيسُ : أمّةٌ من العرب بادوا وانقرضوا . وقيل أراد بالحَيَّيْن جَدَسًا(١) وجَدِيسًا ، وذَكَرَهُم والقَصْدُ إلى ديارهم وبلادهم ، ورتَّبَ المواضع الذى عدّدَها بالفاء ، وجعل أعجاز الكتائب فيها تكثيرًا لها .

٣ ــ وتَحْتَ نُحُورِ الخَيْلِ حَرْشَفُ رَجْلَةٍ تُتَاحُ لِغِرّاتِ القُلُوبِ نِبَالُها

رَجْلَةٌ موضوعةٌ لأدنَى العدد ، بدلالة أنّك تقول : ثَلاثَةُ رَجْلَةٍ . ومن عادتهم أن يُقَدِّمُوا الرَّجّالة عند تعبئة الجيش ، ليستَنِدُوا إلى الفُرسَان . وقوله : « وتحت نُحورِ الخيل حَرْشَفُ رَجْلَةٍ » أراد قطعة من الرَّجّالة . ومعنى تُتاحُ : تُقَدَّرُ وتُهَيَّأُ . ويقال : تَاحَ له كذا وَأَتَحْتُهُ أنا ؛ رَجُلٌ مِتْيَحٌ . وموضِعُهُ جَرٌّ على الصِفة لرَجْلَةٍ . فيقول : تحت صدور الدوابّ قِطْعَةٌ من الرَّجّالة تُقَدَّرُ نِبالُها للقلوبِ الغافِلة ، أى لا يُشْعَر بهم فإذا نبالُهم تَعمل هذا العمل . والحَرْشَف ، الأصل فيها أن تُستعمل فى الجراد ، ثم استُعير للجماعةِ من الرَّجّالة على التَّشبيه ، وقال امرؤُ القَيْس :

كأنّهم حَرْشَفٌ مَبْثُوثٌ بالجوِّ إذ تَبْرُقُ النِّعَالُ

(١) فى القاموس : « وجدس محركة : بطن من لخم ، أو هو تصحيف والصواب بالحاء المهملة »

وغِرّاتٌ : جمع غِرّة ، وهى صفةٌ ، يقال رجُلٌ غِرٌّ وغَرِيرٌ ، وجاريةٌ غِرّةٌ وغَرِيرةٌ ، ومصدره الغَرَارة .

٤ ـ أَبَى لَهُمُ أَن يَعْرِفُوا أَنَّهُم بَنُوا نَاتِقٍ كانَتْ كَثِيرًا عِيَالُها

هذا الكلام من صفة الكتائب . و« أن يعرفوا » فى موضع المفعول لِأَبَى ، وفاعِلُه قولُه «أنهم بنو ناتق» . وقولُه « كانت» من صفة الناتق . يقول: مَنَع لهم معرفةَ الضَّيم كثرتُهم وتَرادُفُهم . والناتق: المرأة الكثيرة الأولاد . وجَعَل العِيال كِنايةً عن الأولادِ ، وهو جمعُ عَيِّل ، كجَيِّد وجِيَاد . يقال : عند فلان كذا عَيِّلاً ، وهو مُعْيِلٌ ومُعَيَّلٌ[1] : كثير العيال . والفِعل من ناتقٍ نَتَقَتْ تَنْتِقُ نَتْقًا .

٥ ـ فلمّا أَتيْنَا السّفْحَ من بَطْنِ حائلٍ بحيْثُ تَلاقَى طَلْحُها وسَيَالُها

الباء من قول « بحيث » تعلّق بفِعلٍ دَلَّ عليه أَتينا ، كأنه قال : حَصَلْنا بحيث تَلاقَى طلحها وسيالُها . وموضعُه من الإعراب نَصْبٌ على الحالِ للمضمرين فى أَتيْنا . والسَّفْحُ : أسفل الجَبَل ، ولاشتهاره بما وُضع له أغْنَى عن إضافته إلى الجبل . والطَّلْحُ والسَّيَالُ : شجَرانِ . فيقول : لما بلغنا أسفَلَ الجبل من بطن هذا الوادى بحيث التقى هذان الجنسان من الشجر . وهذا إشارةٌ منه إلى موضِع العِراكِ والقِتال . وجوابُ لمّا فيما بعده .

٦ ـ دَعَوْا لِنزَارٍ وانْتَمَيْنَا لِطَيِّئٍ كأُسْدِ الشَّرَى إقدامُها ونِزَالُها

انتمينا : انتسبْنا ، أى قالوا يا لَنِزَارٍ ، وقلنا نحن : يا لَطَيِّئٍ ، مشابهين للأسود . وقوله « كأُسْد الشَّرَى » حذَف المضاف وأقام المضاف إليه مَقامه ، كأنه قال : وكإقدام أُسْد الشَّرَى إقدامُها ونِزالُها وجاز الحذفُ لأنه لا يلتبس

---

(١) كذا فى الأصل . وفى م : « مُعَيِّل ومتعيِّل » ، وكلاهما صحيح .

وجهُ التشبيه بغيره . ومعنى « دَعَوْا لنزار » : انتسبوا إلى نِزار . وهذا الاعتزاء الذى أشار إليه قد يفعله الفارسُ عند الطعن والضرب أيضاً ، يقولُ الواحدُ منهم : خُذْها وأنا من بَنى فلان ، وأنا فلان بن فلان .

٧ ــ فلمَّا الْتَقَيْنا بَيَّنَ السيْفُ بيْنَنَا لِسَائلَةٍ عَنَّا حَفِيٍّ سُؤَالُها

الإحفاء يكون فى السُّؤال عن الشَّىء ، ويكون فى طلب الشَّىء من الغير ، وهو المبالغةُ فيهما ، والذى بيّنه السّيفُ هو حُسْن بلاءِ أحدِ الفريقين وزيادَتُه فيما يُحْمَدُ من الصَّبر والثَّبَاتِ على صاحِبِه . وقد حَذَفَه من اللَّفظ لأنَّ الفاعيل تُحذف كثيراً إذا دَلَّ الدَّليل عليها . ومعنى قولِه : « لسائلةٍ عَنَّا حَفِيٍّ سُؤَالُها » أنَّ الإحفاء فى السُّؤال والاستقصاءَ فى البحث ، ممّا يزداد معه بيِّنات الأحوال ، وجَليّات الأمور . وجَعَل الحَفِيَّ للسُّؤال على المجاز والسَّعَة . وفُسِّر قولُه تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ : كأنَّ المعنى كأنك عالمٌ بها ، لمّا كان الإحفاء فى المسألة حقيقاً بأن يؤدِّىَ إلى العِلم بالمسئول عنه . والسَّائلةُ يجوز أن يريد بها قبيلةً ، ويجوز أن يريد بها امرأةً . وجَعَل قولَه « السَّيْفُ » كنايَةً عن أنواع السِّلاح ، بدلالة أنّه أعادَ ذكر استعمال السَّيف فيما بعده ، لَمّا فَصَّل أحْوالَهُم وفَسّر مقاماتِهِم فقال : ولَمّا عَصينا بالسُّيوف » .

٨ ــ ولَمّا تَدَانَوْا بالرِّمَاحِ تَضَلَّعَتْ صُدُورُ القَنَا مِنْهُمْ وَعَلَّت نِهَالُها

يقول : ولما تقارَبْنَا باستعمالِ الرّماح رَوِيَت القَنا من دمائِهِمْ ، وصار النَّاهِلُ منها عَالًّا . والنَّهلُ : الشُّربُ الأوّلُ ، والعَلَلُ : الشُّرب الثانى كأنَّهم عاوَدُوا الطَّعنَ وكرُّوا حالاً بعد حال . والتَّضَلُّع ، حقيقته أن يُستعمل فيما له ضِلعٌ ، وعند الارتواء تنتفخ الأضلاع ؛ واستعاره ها هنا . ويقال : تَضَلَّعَ شِبَعاً ، وتَحَبَّبَ رِيًّا . وخَصَّ الصُّدُورَ لأنَّ الطَّعْن بها . ويقال عَلَّ إبِلَهُ يَعُلُّ ويَعِلُّ ، فَعَلَّتْ

هِيَ . وإن شئت على هذا رَوَيْتَ : « وعَلَّتْ نِهالُهَا » ، وإن شئت رويت : « وعُلَّتْ » .

٩ ـ وَلَمَّا عَصِينَا بالسُّيُوفِ تَقَطَّعَتْ وسائلُ كانت قَبْلُ سِلْمًا حِبَالُهَا

وَسَلْتُ إليه وَسِيلةً ، أى تقَرَّبْتُ إليه بقُرْبَةٍ . ويقال تَوَسَّلْتُ أيضا . وفى القرآن : ﴿ وابْتَغُوا إليْهِ الوَسِيلَةَ ﴾ . ويقال . عَصِيتُ بالسَّيف[1] ، إذا ضَرَبْتَ به ، وعَصَوْتُ بالعصا . وجَعَل انبتَاتَ الوسائل وانقطاعَ الأواخيِّ عند استعمال السُّيُوف لأنَّ الأمر يَشْتَدُّ عندَهُ ، والقِناعَ يكشف مَعَهُ . ولهذا لَمَّا استُوصِف عَمْرو بن معديكرب أنواعَ السِّلاح قال فى السيف : « عِندَهُ تَثْكَلُ الأمَّهاتُ » . وقولُهُ : « كانَتْ قَبْلُ سِلْمًا حِبَالُها » ، يريد به أنّ حبال تلك الوسائل كانت مفتولَةً على الصُّلْح[2] فتقطَّعت باستعمال السيوف ، لأنّ كُلًّا منها صار واتِرًا وموتوراً ، فسقطَ الملامةُ من بينهم .

١٠ ـ فَوَلَّوْا وأَطْرَافُ الرِّمَاحِ عَلَيْهِمُ قَوَادِرَ مَرْبُوعَاتُها وطِوَالُهَا

قَوْله : « وأطراف الرِّماح » فى موضع الحال للمضمرين فى ولَّوْا . وذَكَر الأطرافَ لأنَّ الطَّعْنَ بها يقع ، وإن كانت الرِّماح بأسْرِها مَقْصُودَةً . يقول : انهزموا وأسِنَّةُ الرِّمَاحِ متمكّنةٌ منهم ، ومُقْتَدِرَةٌ عليهم ، طِوَالُهَا وأوساطُها . والمَرْبُوع والمُرْتَبِع[3] : ما كان بين القصير والطويل ، ومنه رَجُلٌ رَبْعَةٌ . وإنّما قال ذلك لأنّ المنهزمين إذا مَنَحوا أكتافَهم لمن يَطْلُب أثرهم ويقصِد النِّكاية فيهم ، فتأثير الأسلحة على اختلافها متقارب . وارتَفَع « مربوعاتُها » على البَدَل من الأطراف . وهذا يُبيِّنُ أنّ القَصدَ بها إلى جميعها ، لا إلى بعضها .

---

(١) كذا جاءت هذه اللغة فى الأصل وم . ويقال أيضاً : عصاه يعصوه ، وعصاه يعصاه .

(٢) كذا فى م مع أثر تصحيح من الناسخ . وفى الأصل : « الصلاح » .

(٣) المرتبع ، بفتح الباء وكسرها ، كما فى اللسان (ربع ٤٦٣) ، وجاءت اللغة الأولى فى م ، والأخيرة فى الأصل .

٣٤

قال عَمْرُو بْنُ مَعْدِيكَرِب (١) :

١ — لَيْسَ الجَمَالُ بِمِئْزَرٍ فَاعْلَمْ وَإِنْ رُدِّيتَ بُرْدَا

قوله « فاعلم » اعتراضٌ تأكّدَ به الكلام ، ومثله قوله تعالى : ﴿ فلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجومِ . وإِنَّهُ لَقَسَمٌ لوْ تَعلَمُونَ عَظِيمٌ . إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ ؛ لأن قوله « وإن رُدِّيت » متعلِّقَ بما قبلَه تعلُّقُ جواب القَسَم بالقَسَم . يقول : ليس جمالُ المرءِ فيما يلبَسُه من الثياب وإن استَسرَى الملابسَ واختار أرضاها وأكملَها . وكانوا يأتزِرون ببُرْدٍ ويرتدون بآخر ، ويُسَمَّيان حُلَّةً ، وباجتماعهما كان يكمُل اللبُوس ، حتى كانت خِلْعَة ملوكهم لا تعْدُوهما . ولذلك سُمِّيَ من سُمِّيَ ذا البُرْدَيْن . قال :

أيا ابنةَ عبـــدِ الله وابنةَ مالكٍ ويا ابنةَ ذى البُرْدَين والفَرَسِ الوَرْدِ (٢)

وقولُه : « وإن رُدِّيتَ بُرْدًا » فى موضع الحال ، كأنه قال : ليس جمالُكَ بمئزر مُرَدًّى مَعَهُ بُرْدًا . والحال قد يكون فيه معنى الشَّرط ، كما أنّ الشرط يكون فيه معنَى الحال . فالأوّلُ كقولِك : لافعَلَنَّه كائناً ما كان ، أى إن كان هذا وإن كان هذا . والثانى كبيت الـكِتاب :

* عاوِدْ هَرَاةَ وإن مَعْمُورُها خَرِبا (٣) *

لأنّ الواوَ منه فى موضع الحال ، كما هو فى بيت عَمْرٍو ، وفيه لفظ الشرط ومعناه ، وما قبله نائبٌ عن الجواب . والمعنى : إن خَرِبَ معمور هراة فعاوِدْها . وكذلك بيت عمرو ، تقديره : إن رُدِّيت بُرْدًا على مئزرٍ فليس الجمالُ ذلك .

(١) سبقت ترجمته فى المقطوعة ٢٩ .
(٢) البيت لحاتم الطائى . وابنه عبد الله هى ماوية بنت عبد الله زوج حاتم . وذو البردين عامر بن أحيمر بن بهدلة . انظر حواشى البيان (٣ : ٣٠٩ — ٣١٠) .
(٣) كتاب سيبويه (١ : ٤٥٧) .

٢ — إنَّ الجَمالَ مَعادِنٌ   ومَناقِبٌ أَوْرَثْنَ مَجْــــدا

أراد أنّ جمال المرء فى أصوله الزّكيّة ، وأفعال له كريمةٍ تورث المجد والشرف . والمَعْدِنُ ، هو من عَدَن بالمكان عَدْنًا وعُدُونًا ، إذا أقامَ . وكذلك عَدَنَتِ الإبلُ فى الحَمْضِ ، وقيل المَعْدِنُ اشتقاقُه من عَدَنْتُ الحَجَر ، إذا قَلَعْتَه . وإذا جَمع الرجلُ بين الشرف الموروث والمستحدث المكسوب فهو النهايةُ . ومَناقِبُ الإنسان : ما عُرِف فيه من الخصال الجميلة ، والطَّرائق الحميدة ، والوحدة مَنْقَبةٌ . والنَّقِيبُ كأنّه منه . قال الدُّرَيدِيّ : يقال نَقيبٌ بَيِّنُ النَّقابةِ بالفتح ، مثل كفيلٍ بيّن الكَفَالة . فأما التعريف فمصدَرُهُ العِرافةُ بالكسر : والمَجْد : الشرف والرِّفعة ، وسُمِّيَت الأرض المرتفعة مَجْداً ونجداً به . ويجوز أن يكون أصله الكثرة ، يقال أمجَدْتُ الدّابّةَ علَفًا ، أى وَسَّعتُه لها .

٣ — أَعْدَدْتُ لِلحَدَثَانِ سَا   بغَةً وعَــــدَّاءً عَلَنْدَى

أعْدَدْتُ واعتَدْتُ واحد ، والاسم العُدّة والعَتاد . يقول : هَيَّأْت لنوائب الدَّهْرِ ، أى لدفْعِها دِرعًا واسعةً وفَرسًا ضخمًا جَيِّدَ العَدْو كثيره . والعَلَنْدَى أَلِفُهُ للإلحاق ، كسفَرْجَل . وأصل الكلمة ثلاثِيٌّ ، والنون والألف زائدتان ، فهو من العَلْد . قال الخليل : هو الغليظ الشَّديد من كلِّ شيء . والدلالة على أن الألف للإلحاق أنّك تقول للمؤنث عَلنداةٌ ، وأنّك تنوِّن فتقول عاندًى . وذكر بعضهم أنَّ العَلَندَى : الضَّخم من الإبل والخيلِ جميعا ، وجمعه عَلانِد وإن شئت عَلادٍ ، كما قالوا فى حَبَنْطًى حَبَانِطُ وحَبَاطٍ . وفرسٌ عَدَّاءٌ وعَدَوَانٌ ، إذا كان كثير العَدو .

٤ — نَهدًا وذَا شُطَبٍ يقُـ   ـدُّ البَيْضَ والأبدانَ قَدًّا

نَهْدًا ، أى فرسا غليظا . والنُّهود فى الثدى : بيانُ حجمه ونُتوُّه من هذا —

وسَيْفًا ذا شُطَبٍ : ذا طرائق ، يقطع البَيْض والدُّروع قَطْعًا . والقَدّ : القَطْعُ طُولًا ، والقطُّ : القطع عرضا . والبَدَنُ من الدرع : قدر ما يَسْتُر البَدَنَ . ويقال سَيْفٌ مُشَطَّبٌ : فيه شُطُوبٌ وطرائق .

٥ — وعلِمْت أنّي يَوْمَ ذَا كَ مُنَازِلٌ كَعْبًا ونَهْــــدَا

قوله : « يومَ ذاك » يجوز أن يُشَارَ بذلك إلى أمْرٍ قد عَلِمَهُ السامعون ، وهو الحرْب ، لأنّ النِّزال يكون فيها . ويجوز أن يكون أشار به إلى السِّلاح الذى زَعم أنه أعدَّه . ويومُ السِّلَاحِ : يوم الحرب . ويجوز أن يكون أشار به إلى الحدَثان ، لأنه قد قال « أعدَدْتُ للحَدَثان » . ومعنى البيت : علمْتُ أنّ مُنازِلٌ هؤلاء فأعددتُ لهم هذا السِّلاح ، لعلمى بالحاجة إليه . والحازِمُ يتهيّأُ للأمر قبل وقوعه ، فكأنه قال : فعَلْتُ ذلك بحزامتى[1] ، وعلمى بموارد الأمور ومصادرها .

٦ — قوْمٌ إذَا لبِسُوا الحَدِيـ ـدَ تَنَمَّرُوا حَلَقًا وَقِدًّا

انتصب حَلَقًا على أنه بَدَلٌ من الحديد ، ويُريدُ به الدُّروع التى نُسِجَتْ حَلْقتين حلقتين . والقِدُّ ، أراد به اليَلَب ، وهو شبه دِرْعٍ كان يُتَّخذ من القدّ . ويروى : « خُلقًا وقدًّا » ويكون انتصاب خُلُقًا على التمييز ، أى تشبَّهوا بالنَّمِر فى أخلاقهم وخِلَقِهم . ودَلّ على الخِلَق قوله قَدًّا . ومعنى الرواية الأولى أنهم إذا لبِسُوا الحديد الدروع واليلَب تشبَّهوا بالنَّمِر فى أفعالهم فى الحرب . ويجوز أن يُريدَ بتنمَّروا تلوّنوا بألوانِ النَّمر ، لطُول ثَبَاتِهم وملازمتِهم الحديد ، وحينئذ يصحّ أن يكون انتصاب حلَقًا على التمييز . والمعنى الأوّل أجود . فإن قيل : كيف دخل قولُه : « وقِدًّا » بالعطف على حَلَقًا فى أن يكون بدلاً من الحديد

(١) م : « لحزامتى » .

وليس منه ؟ قيل : لمّا كان يُغْنى غَنَاء دِرع الحديد ، جاز أن يصحبه فى أن يكون بدلاً . وقوله « إذا لبِسُوا الحديد » ظَرْفٌ لتنمّرُوا .

٧ ــ كلُّ امرئٍ يجْرِى إلَى يوْمِ الهِيَاجِ بمَا استَعَدَّا

هذا كما قيل فى المَثَل : « قبل الرِّماء تُملأُ الكنائن[1] » ، فيقول : كلُّ رَجلٍ يَجرى إلى يوم الحرْب بما أعَدَّه واستعدَّه . والضمير من صلة « ما » محذوفٌ استطالةً للاسم . ويجوز أن يكون استعدَّ فعلاً ليوم الهياج لا لكل امرئٍ ، ويكون معناه بما كلَّفَ يوْمُ الهياج أن يُعَدَّ له . يقال : استعددته كذا ، أى سألته أن يُعِدَّ .

٨ ــ لمّا رأيتُ نِسَاءنا يَفْحَصْنَ بالمَعْزَاء شَدَّا

الأمعز والمَعْزَاء : الأرض الحَزْنَةُ ذاتُ الحجارة ، والجميع المُعْز والأماعز والمَعْزاوات . والأصل فى المَعَز الصَّلابة . ويقال رجل ماعِزٌ ومَعِزٌ . ويُروى : « يَفْحَصْن » ، ومعناه يؤثّرن لشدّة العَدو فى المَعْزاء ، حتَّى يصير به لآثارهن كالأفاحيص . ويقال : استَضْحَك فلانٌ حتى فَحَص برجلَيْه . وقيل على التوسُّع : فَحَصْتُ عن الأمر . وينتصب « شَدَّا » على أنْ يكون مفعولاً له ، كأنّه قال : يَفْحَصن بالمَعْزَاء لشَدِّهنّ ويجوز أن يكون شَدًّا مصدرًا فى موضِع الحال ، أى يفعلن ذلك بالمعزاء شَادَّاتٍ . ويروى : « يَمْحَصْن » ، والمَحْصُ : العَدْو الشديد ، وينتصب شَدًّا على أنَّه مصدرٌ من غير لفظه ، كأنّه قال يشدُدْن شَدًّا ويمْحَصْن مَحصًا . وجواب لَمَّا قولُه « نازلت » ، وسيجىء من بعده . وإنَّما عَمِلت النِّساء ما ذَكَر إشفاقًا من الغارة والسِّباء .

---

(١) انظر ما سبق فى ص ٧٦ .

٩ — وبَدَتْ لَمِيسُ كأنَّها بَدْرُ السَّماء إذا تبَدَّى[1]

قولُه : « كأنَّها بدرُ السماء » فى موضِـع الحال للمرأة ، أى بَدَتْ مُشْبِهَةَ البَدْر ، وقولُه : « إذا تبدّى » ظَرْفٌ لما دَلّ عليه كأنّ من معنى الفِعْل . يقول : وبرزَتْ هذه المرأةُ كاشفةً عن وجهها سافرةً ، كأنَّها قد أرسلت نِقابها . ودَلَّ على هذا بقوله : « كأنّها بدرُ السَّماء إذا تَبَدَّى» . وإنما فَعَلَتْ كذلك لأحد وجهين : إمّا للتّشبُّه بالإماء حتى تأمَنَ السِّباء ، أو لما تَداخَلَها من الرُّعب . وفى طريقته :

وَنِسْوَتُكُمْ فى الرَّوْعِ بادٍ وُجُوهُهَا يُخَلْنَ إمَاءً والإماء حَــرَائِرُ[2]

١٠ — نَازَلْتُ كَبْشَهُمُ ولَمْ أَرَ من نِزَالِ الـكَبْشِ بُدَّا

لا بُدَّ يستعمل استعمالَ لا محالة ، وتحقيقه لا مَحِيدَ ولا معْدِل . ومنه قولُهم : استبدَّ فلانٌ بالأمر ، أى انفرَدَ به . والبَدَدُ والتَّبَدُّد : مَصْدَرُ الأبَدّ . وهذا جواب قوله : « لما رأيتُ نساءنا يَفْحَصْنَ » . وكَبشُ الـكتيبة : رئيسها[3] . فيقول : لمّا رأيت الأمْرَ على ما ذكرْتُ أنِفْتُ وقصدْتُ رئيسَ الأعداء وملاقاتَه ولم أجِدْ من ذلك بُدًّا . وإنَّما قال : « نازلتُ كبشَهُم » ليُرِىَ أنَّه ممن تدعوه نفسُه إلى مُجاهدة الرُّؤساء والتعرُّضِ لهم فى الحرب ، وأنّه ممن لا يرضَى عن المبارَزة بالمنزِل الأدْنَى . والرَّئيسُ متى كان واثقا بنفسه طلبَ أمثالَه ، واستَغْنَى من مبارزة مَن لا يُؤبَه له ، وتفادَى منها ، إلاَّ عند الضَّرورة .

(١) روى التبريزى بعد هذا بيتاً لم يروه المرزوقى ، وهو :
وَبَدَتْ مَحاسِنُهـا الّتى تَخْفَى وكانَ الأمر جِـدًّا

(٢) البيت لسبرة بن عمرو الفقسى . وهو من أبيات الحماسة .

(٣) ابن جنى : « أعاد لفظ الكبش دون ضميره لأنه موضع تفخيم وتعظيم ، وكان إعادة لفظ المعظم أوكد وأفخم » .

١١ – هُمْ يَنْذِرُونَ دَمِى وأَنْـ ـذِرُ إنْ لَقِيتُ بأَنْ أَشُدَّا

يقول : هم يقولون لله علينا سَفْكُ دَمِ عمرو ، وأنا أقول لله علىَّ أن أحملَ عليهم وأبذُلَ نفسى لهم ، ثقةً بكفايتى واستهانةً بنذرِهم . ويقالُ فى الحَمْلة : شددنا عليهم شَدَّةً صادقةً ، وشدة غير كاذبةٍ ، إذا أرادوا المبالغة .

١٢ – كَمْ مِنْ أَخٍ لِىَ صالِحٍ بَوَّأْتُهُ بِيَــدَىَّ لَحْدَا

بوّأتُه مُبَوَّأَ صِدْقٍ : أنزلتُه . والمَباءة : المَنزِل . وإنما فرَغَ من التبجُّح بالشجاعة ثم ذكر صبرَه على البلاء ، وتوطِينَ نفسه على اللَّأْواء ، فيقول : كم من أخ موثوقٍ به فُجِعْتُ بموته ، وأحوِجتُ إلى تولى دفنِهِ ، ومباشرةِ تجهيزه . وهذا إذا ابتُلِى به المرءُ كان أعظَمَ لجزَعِه ، وأنكَى فى قلبه .

١٣ – ما إن جَزِعْتُ ولا هَلِـ ـعْتُ ولا يَرُدُّ بُكاىَ زَنْدَا[1]

الهَلَعُ : أَفْحَشُ الجزع ، لأنه جَزَعٌ مع قِلَّة صبر . وقد فسَّره التنزيل فى قوله تعالى : ﴿ إنّ الإنْسانَ خُلِقَ هَلُوعًا . إذا مَسَّهُ الشرُّ جَزُوعًا . وإذا مَسَّهُ الخيرُ مَنُوعًا . إلاّ المُصَلِّينَ ﴾ . لأن المعنى أن الإنسان لا يصبر على ضَيْرٍ ، ولا على خَيْرٍ ، فكأنّه قال : ما حزِنْت عليه حُزنًا هيِّنًا قريبا ، ولا فظيعاً شديدا . وهذا نَفْىٌ للحُزْنِ رأسًا ، فهو كقولك : ما رأيتُ صغيرَهم ولا كبيرَهم . وقد أعطى التّرتيبَ حقَّه لأنّه ارتقى فيه من الأدْوَنِ إلى الأعلى ، إذ كان قوله « ما إنْ جَزِعْتُ » وإن كان مستصلَحًا لجميع أنواعه مُفيداً للأدْوَان ، وقد جاء بعدَهُ « ولا هَلِعْتُ » ، وقوله : « ولا يَرُدُّ بُكاىَ زَنْدَا » ، وكان بعضُ الناس

---

(١) أشار التبريزى إلى رواية ابن دريد :

ما إن جزِعت ولا هلِعْـ ـت ولا لطمت عليه خدا

يرويه : « ولا يرُدُّ بُكاى زَيْدًا » ، وزعَمَ أنه أخٌ له . ورأيت مَن زعَمَ أنه فتَّشَ عن نَسَبِ عمرٍو فلم يجد له نَسِيبًا(١) ولا شقيقاً يسمَّى زيدا . على أنّ قوْلَه « كم مِن أخٍ لِىَ صالحٍ » لا يلائمه — فيما يقتضيه سِياقُ اللفظ ونظام المعنى ، ومع إفادته الكثرة — أن يُقابَل بِوَلاَ يَرُدّ بكاى أخى زَيْدًا مع تخصُّصِه . فأما من روى « زَنْدَا » فبعض الشيوخ كان يقول : أراد ولا يَرُدّ بكاى شَرَرَة ، فذكرَ الزَّنْدَ وأراد ما يَخْرُج منه عند القَدْح . وأحسَنُ من هذا أن يكون ذكر الزَّندَ تقليلاً لعائدة الحُزْنِ لو تكلَّفَه عند ما دَهَمَه من الفَجيعة بالأخ المذكور . وهم يستعملون الزَّنْدَ فى هذا المعنى ، كما يستعملون الفُوفَ والنَّقير والقِطمِير والفَتيل . وحكى أبو زيدٍ أنهم يقولون إذا قلُّوا مالَ الرجل : « زَنْدَانِ فى مُرَقَّعَةٍ(٢) » . وهذا المعنى حسنٌ ، والشاهدُ له قويٌّ . ورأيت فى بعض النُّسخ : « ولا يردُّ بكاى رَدًّا » ، وهذا حسنٌ أيضا ، ويكون المعنى : ولا يرُدّ بكائى مردودا . والمعنى : ولا يُغنى بكائى شيئا . وفى كلام الناس : هذا الأمرُ أرَدُّ عليك ، أى أنفعُ وأجْدَى . وإنما عَقَّبَ نَفْىَ الجزَع بهذا الكلام تنبيها على أنّ صبرَه عن تأدُّبٍ وتبصُّرٍ ومعرفةٍ بالعواقب ، وحُسْنِ تأمُّل .

١٤ — أَلْبَسْتُهُ أثْوَابَهُ وخُلِقْتُ يَوْمَ خُلِقْتُ جَلْدَا

يقول : تولَّيت تكفينَه وتجهيزَه بنفسى ، وخُلِقتُ صبوراً حين خُلِقتُ . وهذا يريدُ به أنه جمع إلى الجَلاَدة المكتسَبة جَلادَة الخِلقَةِ والطبيعة .

١٥ — أَغْنِى غَنَاءَ الذَّاهِبِينَ نَ عدٌّ للأعداء عَدّا

قول « الذاهبين » يجوز أن يريدَ بهم مَن انقرضَ من عشيرته وذويه ، ويكون المعنى أنه المعتَمَدُ عليه بعدهم ، ويجوز أن يريدَ بهم المتغيِّبين عن

(١) فى الأصل « نسباً » صوابه فى م .
(٢) المرقعة : كناية أو خريطة قد رقعت . أمثال الميدانى .

المشاهدِ والمَعارِكِ . وقولُه « أَعَدُّ للأَعداءِ عَدًّا » يجوز أن يكون المعنى : يقال فيَّ للأَعداء : خُذُوا فلانًا فإنه يُعَدُّ بكذا وكذا من الفرسان . ويقال إن عمرا كان يعدّ بألف فارسٍ . ويجوز أن يكون المعنى أُهَيَّأُ للأَعداءِ مَعْدُودًا ، فيكون عَدًّا انتصابه على الحال ، وموضوعًا موضِعَ المعدود ، وأُعَدُّ مستقبل أُعْدِدْتُ ، أى هُيِّئت . وفى الأول يكون مَصدَرًا لأُعَدُّ . والواحد لا يصح عَدُّه ولكنْ كأنه يقال فيه : إنه يقوم مقام كذا وكذا من العَدَد . ويروى « أَعُدُّ للأَعداءِ » بفتح الهمزة ، ويحتمل وجهين من المعنى : أن يقول أعدُّ لهم وقَعاتى وأيَّامِى عند المفاخرة والمنافرة عَدًّا ؛ وهذا معنى حَسَنٌ . والآخر أن يكون المعنى : أَعُدُّ لهم كلَّ ما يُحتاج إليه من عَدَدٍ وعُدَّةٍ ، وهذا يؤْذِنُ بأنه يدبِّرُ أمرَ الحربِ ؛ ويُرْجَعُ إليه فى أسبابها والجمع لها وهذا يرجع معناهُ إلى معنى مَن يَروِى « أُعِدُّ للأَعداء » بضم الهمزة وكسر العين . وفى هذه الرواية يجوز أن يكون عَدًّا مفعولاً به ، والمعنى : أُعِدُّ لها معدوداتها .

١٦ – ذَهَبَ الَّذِينَ أُحِبُّهُمْ وَبَقِيتُ مِثْلَ السَّيْفِ فَرْدَا

يقول : فُجِعْتُ بأَحبَّائى وبَقِيت منفرِداً بالسِّيادة ، فأَنا كالسَّيْف لا يُجْمع اثنان منه فى غِمدٍ . ويجوز أن يكون : بقيت لنفاذى فى الأمور ومضائى كالسيف . وفرْدًا ينتصب على الحال ، أى منفرِدًا .

٣٥

وقال عمروٌ أيضاً :

١ – ولَقَدْ أَجْمَعُ رِجْلَيَّ بِهَا حَذَرَ المَوْتِ وإِنِّى لَفَرُورْ(١)

هذا كلام من جَمَع إلى شجاعَتِه وإقدامه حَذَرًا وحَزَامَةً ، وإلى جرأته وتهوُّره

(١) هذه المقطوعة رويها فى الأصل مقيد بالسكون ، وهى فى م مطلقة الروى بالضم . وقال التبريزى : « من الرمل الأول إذا أطلقت ، ومن الثانى إذا قيدت ، مردف فى الضربين جميعاً ، والقافية من المتواتر إذا أطلقت ، ومن المترادف إذا قيدت » .

رِفقًا وأصَالَةً ، ثم يكونُ عارفًا بوقت كلٍّ منها ، وبالحالة الموجِبة لاختياره بَعْضَها . وأَجْمعُ رِجْلَيَّ ، أي أستَحِثُّ فَرَسِي . وهو من فصيح الكلام ، ومن العبارة التي تصوِّر المعنى . ومن لفظِهِ وبابِهِ قولُهم : جَمَعْتُ يَدِي على كذا[1] ، ورفَعْتُ يَدِي عن كذَا . وحَذَرَ الموت ، انتصب على أنّه مفعولٌ له ، والضميرُ من قولِهِ : « بها » للفرس . والمعنى : أركُضُها وأستدِرُّ جريَها ، ذَهابًا في الفِرار ، واحترازًا من الموت إذا كانَ الوقتُ وقْتَهُ ، وإنّى لـكثيرُ الحربِ إذا كان الهربُ أغْنَى ، وإلى مراغمة العدوِّ أدْعَى .

٢ ـ وَلَقَدْ أَعْطِفُهَا كارِهَةً حِينَ للنَّفْسِ مِنْ الْمَوْتِ هَرِيرُ

يقول : كما أهْربُ وقت الهرب فإنِّى أعطِفُ وقتَ العطف ؛ لأنَّ الـكرَّ والفرَّ من شأنى ، والإقدامَ والإحجام عادتِي ودَأْبِي . وأشار بقوله : «حين للنَّفس من الموت هَرِير » إلى شدة الأمر وتفاقُم الخطْب . أي أعْطِفُ الفَرَسِ وهي كارهةٌ في الوقت الذي تَهِرُّ النفسُ وتضِجّ من شِدّة البَلْوَى . والهَرِير ، قيل هو دون النُّباح .

٣ ـ كُلُّ ما ذلك مِنِّي خُلُقٌ وبِكُلٍّ أنا في الرَّوعِ جَدِيرُ

« ما » زائدةٌ . وأشار بقوله : « ذلك » إلى ما قدَّمَه من الـكرِّ والفرّ . أي كلُّ ما وَصَفْتُ عادةٌ منّى وطبيعةٌ ، وبفعلِ كُلِّه أنا خَليقٌ في الرَّوع . ويقال : هو جَدِيرٌ بكذا ، وجدير لـكذا ، وجديرٌ أن ينال كذا ، ولقد جَدُرَ جَدَارَةً ، وأجْدِرْ به أن يفعَلَهُ . قال :

---

(١) في الأصل : «على يدى» ، وأثبتنا ما في م .

* جَدِيرُونَ يَوْمًا أن يَنَالُوا ويَسْتَعْلُوا[١] *

٤ — وابنُ صُبْحٍ سَادِرًا يُوعِدُنى   مَا لَهُ فى النَّاسِ ما عِشْتُ مُجِيرْ

قال الدُّريدى : يقال أَتَى فُلانٌ أَمْرَهُ سادرًا ، إذا جاءه من غير جهته . يقول : وهذا الرّجلُ مع ما ذكرتُ من قِصَّتِى فى الحرب يتهدّدُنى ساهيًا لاهِيًا ، ومَا لَهُ عاصِمٌ منِّى فى الناسِ ما عِشْتُ . وموضِعُ « ما عِشْتُ » ظَرْفٌ ، بيانُه أنَّ ما مع الفعل فى تقدير المصدر ، واسم الزمان محذوف معه ، كأنه قال : مدَّةَ عيشى .

٣٦

قَيْسُ بن الخَطِيمِ الأوسِىُّ[٢] :

١ — طَعَنتُ ابنَ عبدِ القَيْسِ طَعْنَةَ ثائِرٍ   لَهَا نَفَذٌ لَوْلاَ الشَّعاعُ أَضَاءَها[٣]

الشَّعُّ والشَّعَاعُ : المتفرِّق . ومنه شَعَّ الغارَةَ ، وتَطَايَرَ القومُ شَعَاعًا . يقول : طَعَنْتُ هذا الرجُلَ طَعْنَةَ طالبٍ بالدّم فاتِكٍ[٤] لا بُقْيَا معها ، ولا تقصيرَ

(١) لزهير فى ديوانه ١٠٣ . وصدره :

* بخيل عليها جنة عبقرية *

(٢) هو قيس بن الخطيم بن عدى بن عمرو الأوسى ، شاعر فارس ؛ كان له فى وقعة بعاث التى كانت بين الأوس والخزرج قبل الهجرة أشعار كثيرة ، كان بينه وبين حسان بن ثابت منافسة : كان حسان يذكر ليلى بنت الخطيم أخت قيس فى شعره ، وكان قيس يذكر عمرة امرأة حسان فى شعره . وذكره بعض المؤرخين فى الصحابة خطأ ، فقد ذكر أصحاب المغازى أنه قدم مكة فدعاه النبى صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام ، وتلا عليه القرآن فقال : إنى لأسمع كلاما عجيباً فدعنى أنظر فى أمرى فى هذه السنة ثم أعود إليك . فمات قبل الحول . انظر الإصابة ، والخزانة (٣ : ١٦٨ — ١٦٩) والأغانى (٢ : ١٥٤ — ١٥٩) ومعاهد التنصيص (١ : ٦٧) .

(٣) روى التبريزى هذه المقطوعة تسعة أبيات ، إذ روى بين البيتين الخامس والسادس بيتين آخرين سننبه عليهما فيما سيأتى .

(٤) م : « قاتل » .

فى المبالغة فيها ، لها نَفَذٌ ، أى خَرْقٌ ، لولا انتشار الدَّم لأضاءها . وأضاءها جواب لَوْلاَ ، والمبتدأ وهو « الشَّعَاع » خبرُه محذوف ، كأنّه قال : لولا الشَّعَاع مانِعٌ لأضاءها النَّفَذُ . ومن رَوَى « الشُّعَاعُ » بضمّ الشين ، فإنّه يُرِيدُ به نُورَ الشَّمس . والأوّل أَجْوَدُ وأشهر . ويقال : أشَعَّتِ الشَّمسُ ، إذا امتدّ نُورُها وانتشر .

٢ — مَلَكْتُ بها كَفِّى فأنْهَرْتُ فَتْقَها يُرَى قائمًا مِنْ دُونِها ما وَرَاءها

يُروى : « يَرَى قائمٌ من دونها مَن وراءها » و« ما وراءها » ، ويُروى : « يَرَى قائمًا » أيضاً . ويقال : مَلَكْتُ العَجِين وأمْلَكْتُه ، إذا بالغْتَ فى عَجْنِهِ وشدّدت . وكان الأصمعىّ يمتنع من أمْلَكت ، فيكون المعنى شَدَدت بهذه الطعنةِ كَفِّى ووسَّعتُ خَرْقَها حتى يَرَى القائمُ من دونها الشىء الذى وراءها . وهذا التفسير فى ملكتُ تفسير القدماء . ويجوز أن يكون معنى « ملكت بها كَفِّى » أى تمكّنت من فعلها ، فأطقْتُ تصريفَ كَفِّى فى إيقاعها على مرادى . وهذا كما يقول[1] : أنا أمْلِكُ هذا الأمر ، إذا كان قادِراً عليه . وكأنه أشار بهذا الكلام إلى أن الطعنةَ لم تكن على دَهَشٍ واختلاس ، ولكن عن تمكُّنٍ واقتدار . ويروى : « يُرَى قائما مِن دونها مَنْ وَراءها » و « ما وراءها » ومن روى « مَن وراءها » فالمعنى يُرَى مَن وراءها إذا كان قائما مِن دونها . ووراء ههنا بمعنى خَلْف ، وإن كان يقع على الخَلْف والقُدَّام جميعا . ومِن دُونِها ، أى من قُدَّامِها . وبيت الأعشى على هذا ، وهو قوله :

* تُرِيكَ القَذَى من دُونِها وهى دُونَه[2]

أى تريك الخمرةُ فى الزجاجة القَذَى من قُدَّامِها ، وهى قُدَّام القَذَى ؛

(١) فى النسختين : « تقول » .

(٢) عجزه كما فى ديوان الأعشى ١٤٧ :

* إذا ذاقها من ذاقها يتمطق *

أى تريك الزُّجاجةُ ما خلفها من قدّامها لصفاء الخمرة فيها . ومعنى أَنْهَرْتُهُ : وسَّعْتُه حتى جعلته كالنَّهر سَعَةً . والنهر نفسه سُمِّىَ بذلك لاتّساعه . ومنه المَنْهَرَةُ ، وهى فَضَاءٌ بين بُيُوتِ الحىّ يلقُون فيه كُنَاسَتَهُم . وفى هذا الوَصْفِ سَرَفٌ مُسْتَنْكر وخروجٌ عن القَصْدِ مُسْتَهْجَن . ويجرِى مَجْراه فى الغُلوّ قول مُهَلْهِل :

فلوْلاَ الرِّيحُ أُسْمِعَ أَهْلَ حَجْرٍ صَلِيلَ البَيْضِ يُقْرَعُ بالذُّكُورِ(١)

واستعمل عنترةُ لَفظَ الإنهار مع اقتصادٍ فقال :

أَنْهَرْتُ لَبَّتَهُ بأَحْمَرَ قانِئٍ ورَشَاشِ نافِذَةٍ على الأثوابِ

٣ — يَهُونُ عَلَىّ أنْ تَرُدَّ جِرَاحُها عُيُونَ الأَوَاسِي إذْ حَمِدْتُ بَلاءَها

الأواسِى : النِّساء المداويات للجِراح ، والفِعْل منه أَسَوْت . ويقال للرِّجال الآسُونَ والأُساةُ . وإنما ذَكَر النِّساءَ لأنهم يأْنَفُونَ من الصناعات ، ويعلّمونها العَبيد والإماء وحرائرَ النساء أحيانًا ، إذ لم يكُنَّ فى غايةٍ بعيدةٍ من الشَّرَفِ . وقوله « أن تَرُدّ » موضعُهُ رَفْعٌ على أنه فاعِل يَهُون . و « إذ حَمِدْتُ » ظَرْفٌ ليَهُونَ ، وهى حكاية حالٍ ماضية . والمعنى : يخفّ عَلَىّ رَدُّ جِراح هذه الطعنة عيونَ النِّساء المداويات لها ، إذ حَمِدْتُ أثرى فيها . وبلاءها ، يجوز أن يكون المراد بلائى فيها ، ويجوز أن يريد ببلائها شدّتَها وفظاعتَها . والمصادر تُضَاف إلى الفاعِلين والمفعولين جميعا .

٤ — ساعَدَنى فيها ابن عمرو بنِ عامرٍ زُهَيْرٌ فأَدّى نعمةً وأَفَاءَها(٢)

---

(١) انظر البيان (١ : ١٢٤) والحيوان (٦ : ٤١٨) ونقد الشعر ٨٤ ، والموشح ٧٤ ، والعمدة (٢ : ٧٠) والأغانى (٤ : ١٦٤) .

(٢) التبريزى : « خداش فأدى » . وروى من الخبر : أن خداش بن زهير كان للخطيم والد قيس عنده يد ، فدل قيسا على قاتل أبيه وأعانه عليه ومكنه من أن ينال ثأره . وقد ساق الآمدى فى المؤتلف ١٠٧ نسب خداش ، وهو خداش بن زهير بن ربيعة بن عمرو بن ربيعة بن عمرو بن عامر بن ربيعة بن عامر بن صعصعة .

يجوز أن ينتصب نعمةً على الحال ويكون مفعول أدَّى محذوفاً كأنه قال : فأدَّاها نِعمةً ويَدًا يَستحِق عليها شُكْرًا ، ويجوز أن ينتصب على أنه مفعول أدّى ، ويكون المعنى : ساعَدَنى فى هذه الطعنة زُهير بن عمرو ، فأدَّى صنيعة كانت لى عندهُ بمُساعدته ، واتخذها مَغْنَماً لنفسِهِ أيضا . ويجوز أن يكون أفاءها من الفىء : الغنيمة ، وهذا قول أبى عبيدة . ويجوز أن يكون أفاءها من الفَىْءِ : الرجوع ، أى أدّاها ورجعها إلى مُصْطَنِعِها ، لأن الأيادى قُروضٌ فى الصالحين .

٥ ــ وكنتُ امْرأً لاأَسمَعُ الدَّهْرَسُبَّةً أُسَبُّ بها إلاَّ كَشَفْتُ غطاءها(١)

يُرْوَى « لا أَسَمعُ » و « لا أُسمَعُ » . ومن الغِطاء قيل غَطَا الليلُ ، وغطا عليهم الشرُّ وغيره . يقول : كنت رَجُلاً لا أُعيَّرُ شيئاً طول الدَّهر إلا بيَّنْتُ للناس براءةَ ساحَتِى منه . وحقيقةُ « كشفْتُ غِطاءها » أى لم أتْرُك السُّبَّةَ ملتبسةً على سامِعِها ، فكان يتردّد بين تصديقها وتكذيبها ، بل أَبَنْتُ أمرَها(٢) وأظهرتُ وجهَها ، حتى بان للناس اختلاقُ السابِّ بها ، وكِذَابُه فيها . والسُّبَّةُ ، كالغُمَّةِ والغُصَّةِ وما أشبهها . وذهب بعضُهم إلى أن المعنى : إذا رُميت بعَيْبٍ كان حَقًّا عَلَىَّ مَحْوُه عن نفسى ، بما استأنفُه من سَعْيِى . والأوّل أحسن .

٦ ــ مَتَى يأتِ هذا الموتُ لاتَبْقَ حاجةٌ لِنَفْسِىَ ، إلاّ قد قَضَيْتُ قضاءها(٣)

(١) روى التبريزى بعده هذا البيت :

فإنِّىَ فى الحرب الضَّروس مُوَكَّلٌ بإقدام نفسٍ ما أريد بقاءَها

وقال فى تفسيره : « الضروس : الشديدة ، من ضرس البئر ، وهو طيها بالحجارة . ويروى : العوان ، وهى التى قوتل فيها مرة بعد مرة » . ثم روى بعد هذا البيت الزائد ، البيت رقم ٧ لرواية « إذا ما اصطبحت أربعاً » .

(٢) م : « بأن أبنت أمرها » .

(٣) روى هذا البيت عند التبريزى مؤخراً عن تاليه ، ثم روى بعدهما :

يُرْوَى « لا يُلفِ حاجةً » على أن يكون الفعل للموت ، و « لا تُلْفَ حاجةٌ » على ما لم يسم فاعله ، أى لا توجد . يقول : أجتهد فى إدراك الآثار (١) ، وطلب الأوتار ، قبل دُنُوِّ الأجل ، فمتى جاء الموت لا يجدْ حاجةً تتعلّق نفسى بها قبلُ إلاّ وهى مقضيّةٌ . ومعنى « قَضَيْتُ قضاءها » أى فرغْتُ منها كقضائى لأمثالها . وقوله « هذا الموت » يجوز أن يكون تصوُّرُه [حاضراً (٢)] لمعرفته بإدراكه لا محالة ، وأشار إليه . ويجوز أن يكون لدوام استقتاله وتحدّثه بمجيئه ، وكوْنه من همّه ، أشار إليه على جهة التقريب له .

٧- إذا ما شَرِبْتُ أَرْبعًا خَطَّ مِئْزَرِى وأَتْبَعْتُ دَلْوِى فى السَّماحِ رِشَاءها (٣)

يقول : إذا شربْتُ أربعةَ أكؤسٍ جَررتُ مِئْزَرِى ، فأثَّرَ فى الأرض خُيَلاءَ وكِبرًا ، وتمّمْتُ ما بَقِيَ علىّ من السَّماح فى حال الصَّحْوِ ، كأنّ معظَمَهُ فعَلَهُ صاحِيًا ، والباقى منه تَمَّمَهُ فى حال السُّكْرِ . وهذا الكلام يجرى مجرى المثل للمعنى الذى بَيَّنْت . حَكَى الأصمعىُّ أنّهم يقولون : « أَتْبِعِ الفَرَسَ لجامَها » ، و « أَتْبِعِ الدَّلْوَ رشاءها » ، أى تَمِّمْ ما بقِيَ عليك من أمرك . وكأنه يُضرِبُ لمن جاد بالكثير وترَكَ القليل الحقير . وهذا أجود من قول عنترة العبسىّ ، وإن

— ثأرتُ عَدِيًّا والخطيمَ فلم أضِعْ ولايةَ أشياخٍ جُعِلتُ إزاءَها

وقال فى تفسيره : « ثأرته : طلبت بثأره ثأراً . والثأر : المصدر . والثأر : المطلوب بالدم ، سمى بالمصدر . يقال فلان الثأر المنيم ، أى هو الذى إذا قتل أنام طالب الدم عن الطلب . والمثؤور به : المقتول . والثؤرة : المصدر على فعالة . قال الشاعر :

طلبت به ثأرى وأدركت ثؤرتى بنى عامر هل كنت فى ثؤرتى نكسا

وقوله : جعلت إزاءها ، جعلونى أقوم بها . من قولك : فلان إزاء مال ، إذا كان يقوم بإصلاحه » .

(١) آثار مقلوب أثآر ، جمع ثأر . كما فى اللسان .

(٢) التكملة من م .

(٣) التبريزى : « إذا ما اصطبحت أربعا » كما سبق التنبيه .

كان مفضّلاً عند كثير من الناس على قول عمرو بن كُلثوم ، وقول عنترة :

وإذا انتشيْتُ فإننى مُسْتَهْلِكٌ مَالِى وعِرْضِى وافِرٌ لم يُكْلَمِ
وإذا صَحَوْت فَمَا أُقَصِّرُ عن نَدًى وكَمَا علمْتِ شمائلى وتكرُّمِى

وبيت عمرو :

مُشَعْشَعَةً كأَنَّ الحُصَّ فيها إذا ما الماء خَالَطَهَا سَخِيناً

لأنّ هذا قال : إنا نتسخّى إذا شربنا الخمر ممزوجة . وما قاله عنترة فى بيتين أشار إليه قيسٌ فى مِصْرَاع . وكان ابنُ الأعرابى يذهب فى قوله « سخينا » إلى أنه يقال ماء مُسَخَّنٌ وسَخِينٌ ، وإن كان فعيلٌ فى معنى مُفَعَّل قليلا . وانتصب عنده على أنه حال للماء . ويكون المراد على طريقته : كأنّ الحُصّ فيها إذا مُزِجَ بماء سخين . وهذا لهَرَبه ممّا استقبحه الناسُ . وهو حَسَنٌ ، لكنَّهُ يقتضى أن يكون بلادُهم صُرُوداً[1] .

٣٧

الحَارِث بن هِشَامٍ المَخْزُومِىُّ[2] :

وهو أخُو أبى جَهْلٍ لعَنَهُ الله . وكان هرب يوم بدرٍ لمّا أنزَلَ الله تعالى النَّصْرَ على رسوله عليه السلام .

١ ــ اللهُ يَعْلَمُ ما تَرَكْتُ قِتَالَهُمْ حَتَّى عَلَوْا فَرَسِى بأَشْقَرَ مُزْبِدِ

---

(١) الصرود : البلاد الباردة ، يقابله الجروم ، وهى البلاد الحارة .

(٢) الحارث بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ، كان شريفا مذكورا ، شهد بدرا مع المشركين وكان فيمن انهزم ، فعيره حسان بقوله :

إن كنت كاذبة الذى حدثتنى فنجوت منجى الحارث بن هشام
ترك الأحبة أن يقاتل دونهم ونجا برأس طمرة ولجام

فأجابه الحارث بهذه الحماسية ، ثم شهد أحدا مشركا أيضا ، ثم أسلم يوم فتح مكة ، واستشهد يوم اليرموك . الإصابة ١٥٠٠ والسيرة فى غير ما موضع .

أخذ يستشهد ربَّه ، وينفصل من هربه ، بأنّه لم يأته إلّا بعد غلبة اليأس من نفسه عليه إن ثَبتَ ، وإلّا بعدَ أن ضُرِّج بالدّم الشامل له ولفَرسه . ومثلُه قولُ مهلهل :

لَمْ أَرِمْ حَوْمَةَ الكتيبة حتّى حُذِيَ الوَرْدُ من دُمِيٍّ نِعَالا[1]

وهذا قاصِرٌ عن درجة ما تقدّم ، لأنّه يعتذر مما آثَرَه من الهرب فى وقته ، وذاك أورده موردَ المتبجِّح ، وأنّه خُلُقُه ومذهبُه ، لعِلْمِه بمصادر الحروب ومواردها . وقوله : « الله يعلم » لفظُه لفظ الخبَر ، والقصد إلى الحلِف ؛ لأنّه يستشهد ربّه فيقول : علم اللهُ ما تركتُ مقاتَلتَهم ، حتَّى جرحونى فسال مِنّى على فرسى دمٌ أشقر كثيرٌ ، علاه زَبَد .

٣ ــ وعَلِمتُ أَنّى إنْ أُقاتِلْ واحِدًا أُقْتَلْ ولا يَضْرُرْ عَدُوِّى مَشْهَدِى[2]

أراد : وحتى عَلِمْتُ . وإنما أَطلقَ لَفْظَةَ عَلِمْتُ لارتفاع الشُّبَه عن اعتقادِه ذلك[3] . وانتصب واحداً على الحال ، والمعنى منفرداً ، وواحِدٌ هاهنا صفةٌ ، والمعنى : وحتى تيقَّنْتُ أنى إنْ ثَبَتُّ فى وجوههم ، وأنتصِب منفردًا لمقاتَلتهم قُتِلْتُ ، ولا يَضُرّ حضورى أعدائى . ونبّه بقوله : « ولا يَضْرُرْ عدوِّى مَشْهدى »

(١) الدمى : جمع دم . وفى م : « من دماء » وهما بمعنى .

(٢) روى التبريزى بيتاً بين هذا وسابقه ، وهو :

وشَمِمْتُ ريحَ الموتِ من تلقائهم فى مأزِقٍ والخيلُ لم تتبدَّدِ

قال التبريزى : « ويروى : ووجدت . وهو مثل ، ومعناه أنه غلب ظنه أنه لو وقف قتل . والتلقاء ، مأخوذ من لقيت ، فيجوز أنه يستعمل فى معنى اللقاء . وعلى ذلك حملوا قول الراعى :

أملت خيرك هل تأتى مواعده فاليوم قصر عن تلقائك الأمل

وأكثر ما يستعمل تلقاء فى معنى نحو الشىء ، كما جاء فى الكتاب العزيز : تلقاء أصحاب النار . أى نحوهم » .

(٣) هذا الصواب من م والتبريزى . وفى الأصل : « لإيقاع الشبه على اعتقاده ذلك » .

أنه لو كان فى ثباته ضَرَرُ عدوّ لثبتَ فى وجهه، ولم يُبالِ بقَتْله. وقولُه « عَدُوِّى » يفيد الكثرة وإن كان لفظُهُ موحَّدًا.

٣— فَصَدَدْتُ عنهمْ والأَحِبَّةُ فيهمُ   طَمَعًا لَهُمْ بِعِقابِ يَوْمٍ سَرْمَدِ[١]

يقال: صَدَّ فُلَانٌ عنِّى، إذا صَرَفَ وجهَه صدودًا، وصددته أنا عن كذا صَدًّا. وحُكِىَ أصدَدْتُه، وليس بشىء. يقول: أعرَضْتُ عنهم ودماؤهم وأَسَراؤهم فيهم، ولم أَنَلْها ولم أظفَرْ بها. وهذا يدُلُّ على أنه كان موتورًا. وإنما حاربَهم لطَلَبِ دماءٍ كانت له فيهم. وقوله « الأحبّة » على هذا التفسير يجب أن تكون أحبَّتَهُم. ويجوز أن يريد بالأحبَّةِ أحبَّةَ نفسه، ويكون المراد: ودماء أحبّتى وأُسَرَاى فيهم. وقوله « طَمَعًا » انتصب على أنه مفعول له، وهو الذى يسمَّى مصدرًا لِعلَّة. والمعنى: فعلت ذلك لطمعى فى أن يُعْقِبَ الله تعالى لى يومًا يُرْصِدُ الشرَّ لهم، ويمكّننى منهم، فأنتهزُ الفرصةَ وأروِى الغُلّة[٢]. ويقال: رَصَدْتُ فلانًا بالمكافأة، ورَصَدْتُ له أيضًا وأرصدته، وأنا مُرْصِدٌ لفُلانٍ بما كان منه حتى أكافئه. ويجوز أن يكون انتصاب « طَمَعًا » على أنه مصدرٌ فى موضِع الحال، والتقدير: صددت عنهم طامِعًا. والعقاب يجوز أن يراد به العاقبة، ويجوز أن يراد به المكافأة. يقال: أولاهُ خيرًا فعَقَبَه بشرٍّ، عُقْبَةً وعِقابًا وعُقْبَى. وإذا كان للفَرس بعد انقطاع جريه جَمَامٌ قيل له عِقابٌ، وهو من ذاك. ومن روى « يوْمٍ سَرْمَدِ » فالسَّرمد قال الخليل: هو دوام الزَّمان واتصالُه من ليل أو نهار، واستدلَّ بقوله تعالى: ﴿ قُلْ أرأيتم إنْ جَعَلَ اللهُ عليكمُ اللَّيلَ سَرْمَدًا إلى يوم القيامة ﴾، فيكون المعنى: بعقابِ يومٍ طويلٍ

(١) كان حقه أن يثبت فى المتن رواية « مرصد » لأنها الرواية التى جعلها أساسا فى التفسير، كما صنع التبريزى من جعله رواية « مرصد » أساسا فى المتن والتفسير.

(٢) هذا ما فى م. وفى الأصل: « غليلى ».

يتّصل زمانه ، ويمتدّ بلاؤه . وأيّام الغمّ والمحنة توصف بالطُّول ، ولهذا قيل : مَضَى لفلانٍ يومٌ كأيّامٍ ، وشهرٌ كدهرٍ .

٣٨

قال الفَرّارُ السُّلَمِىّ (١) :

١ ـ وكتيبةٍ لَبَّسْتُها بكتيبةٍ حتى إذا التَبَسَتْ نَفَضْتُ لها يَدِى

هذا يتبجّح بأنه مِهْياجُ شرٍّ وأذًى ، وجَمّاعٌ بين كتائبَ شتّى تتقاتل من دونه ، ثم يَخرج هو من بينهم غير مُبالٍ بما يُجْرُونَ إليه ، ولا مفكّرٍ فيما يَنْتج من الشرّ فيهم . فيقول : رُبَّ كتيبةٍ خلَطْتُها بكتيبةٍ ، فلما اختَلَطَتْ نفضْتُ يدى منهم ولهم ، وخلَّيتهم وشأنَهم . وكتيبة ، أُلْحِقَ الهاء بها لأنه جُعِل اسمًا ، وهو من كَتَبْتُ أى جَمَعْتُ . وتوسَّعُوا فى النَّفْضِ ـــ وأصلُه الإلقاء والإماطة ـــ فقيل : نفَضْتُ اليَدَ من فُلانٍ ولفُلانٍ أشدَّ النَّفض ، إذا وَكَلْتَه إلى نفسه ، يائسًا من رَجْعَتَه ، وفى ضِدِّه يقال : قبَضْتُ عليه كَفِّى ، وجَمَعْتُ عليه يَدِى . وقد قالوا : نفَضْتُ الطريقَ أيضًا ، وفرّقتُ النَّفَضَةَ فى الطُّرُق . وذكر بعضُهم (٢) أنَّ قولَه : « حتى إذا التَبَسَتْ نفَضْتُ لها يَدِى » و « بها يدى » ، المراد به قنَّعْتُ فَرسى بسَوْطِى ، كأنه لما ضربَ فرسَه إنما نفَضَ يَدَه . يَصفُ سُرعةَ ضَربِه بالسَّوْط ، وأنه لا كُلْفَةَ عليه به . قال : وهذه السرعة مستَحَبَّةٌ فى ضرب السَّوط ، كما يستحبُّ فى العمل بالسِّلاح . ومن رَوَى « بها » يجوز أن

---

(١) الفرار شاعر مخضرم ، أدرك الجاهلية والإسلام ، واسمه حبان (ويقال حيان) بن الحكم . أعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم راية سليم يوم الفتح ثم نزعها منه وأعطاها يزيد بن الأخنس . وكان الفرار ممن شهد حنينا . وسليم ، بالتصغير : اسم قبيلته . انظر الإصابة ١٥٥١ .

(٢) يعنى بذلك ابن جنى ، والنص الذى نقله المرزوقى مثبت فى كتاب التنبيه لابن جنى .

يُرِيدَ المِخْصَرة . انتهَتِ الحكاية عنه . والتعجُّبُ من إدراكه لهذا المعنى يَمنَعُ من الكلام عليه . فسبحان من لا يحتاج إلى التفسير .

٢ــ فتَرَكتُهم تَقِصُ الرِّماحُ ظُهورَهُم ... من بَيْنِ مُنْعَفِرٍ وآخَرَ مُسْنَدِ

قوله « تَقِصُ » أى تَكسِرُ في موضِع الحال لهم . وكذلك قوله « من بين مُنْعَفِرٍ وآخر مُسْنَدِ » والعاملُ في الأول تركْتُهُم ، وفى الثانى تَقِصُ . يقول : فارقتُهُم والرِّماح تختلفُ بالطعنِ بينهم ، وتكسر ظهورهم ، فهُمْ من بَيْنِ مصروعٍ أُلْقِيَ فى العَفَرِ ، وهو التُّراب ، وآخرَ مطعُونٍ أو مجروحٍ ، وقد أُسْنِدَ إلى ما يُمسِكُه وبه رَمَق .

٣ــ ما كانَ يَنفَعُنِي مَقالُ نِسائِهِم ... وقُتِلْتُ خَلْفَ رِجالِهِم لا تَبْعَدِ[1]

قول « ما كان » يجوز أن يكون ما استفهامًا وكان تجعَلُهُ الناقِصَةَ ، ويجوز أن يكون نَفْيًا وتَجْعَل كانَ مؤكِّدَةً ، ونبَّهَ بهذا الكلام على أنّه لو ثبَتَ لم ينفَعْهُ الثَّبات . فيقول : أىَّ شىء كان ينفعنى قولُ النّوادِبِ لى لا تَبْعَد وقد قُتِلْتُ . ومعنى لا تَبْعَد : لا تَهلِك . يقال بَعِدَ ، إذا هَلَكَ ، وبَعُدَ ، إذا نأى . وكانوا يَدُلّون بهذه اللَّفظة عند النُّدْبَةِ بها على مَسَاس الحاجة إلى حياة المندوب ، وقلَّة الاستغناء عنه . وإذا كان كذلك فالوجه أن يُنْدَبَ به من كان مَحْمُودَ الحياة ، وعزيزَ الفِقْدان . وقولُهُ خَلْفَ رِجالِهِم » نَبَّهَ على أنّه لو ثَبَتَ لكان يَدفعُ وجهَ الكتيبة ، ويصير واقِيًا لأصحابه ، وحائلاً بين الأعداء وبينهم ، فلا يمكنهم تجاوُزه إلّا وقد فرَغوا منه . فلهذا قال « وقُتِلْتُ خَلْفَ رجالهم » . وموضع « لا تَبعَد » وهو حكايةٌ ، رَفْعٌ أو نَصْبٌ على أنّه بَدَلٌ أو مَفْعُولٌ من مَقَالِ نسائِهِمْ . وقوله وقُتِلْتُ ، فى مَوْضِع الحال للمضمَرِ فى يَنفعُنِى ، والعامِلُ فيه مَقَالُ أيْضًا ، وخَلْفَ رجالِهِم حالٌ للمُضْمَرِ فى قُتِلت .

---

(١) التبريزى : « دون رجالها » .

٣٩

وقال بَعْضُ بنى أَسَدٍ[1] :

١ – يَدَيْتُ على ابنِ حَسْحَاسِ بنِ وهْبٍ ... بأَسْفَلِ ذِى الجَدَاةِ يَدَ الكَرِيمِ[2]

إنما عُدِّى يَدَيْتُ بعَلَى ، لأنّه أُجْرِى مجرى أنعَمْت . وهم يَحمِلون النَّظيرَ على النَّظير ، كما يحملون النقيض على النقيض . وقال الأخفش : يقال يَدَيْتُ عِنْدَه وأَيْدَيْتُ جميعا ، إذا اتّخذْتَ عندَهُ صنيعةً ، وإن كانَتْ أَيْدَيْتُ فى هذا المعنى أَشْهرَ من يَدَيْتُ ، لأنّ يَدَيْتُ اشتهر فى أَصَبْتُ يَدَهُ ، كما تقول : رأَسْتُه ووَجَهْتُه وصدَرْتُهُ ، إذا أَصَبْتَ هذه الأعضاءَ منه . ومعنى هذا البيت : اتَّخذْتُ عند هذا الرجل بهذا المكان يَداً غَرّاءَ ، وصنيعةً شريفَةً ، مِثْلُها يَفْعَلُه الكِرَامُ . وقولُه : « يَدَ الكريم » نَبَّهَ على هذا المعنى الذى ذكرناه ، ويجب أن يكون مصدر يَدَيْتُ يَدْيًا ، مِثل جَرَيْتُ جَرْيًا ، لكنه وضَعَ اليَد مكانه . فإن قيل : ما تُنكِر أن يكون اسمَ الحَدَثِ ، وقد حُذِف لامُهُ كما حُذِف من اسم العين ؟ قلت : اسمُ الحَدَث لم يَكْثُر كَثْرةَ اسم العين ، وإذا كان حُذِف اللام من اسم العين حُذِفَ لكثرة الاستعمال ، فيجب أن يكون اسمُ الحَدَثِ الذى لم

---

(١) هو معقل بن عامر الأسدى . ذكر التبريزى من سبب الشعر « أن معقل بن عامر الأسدى أخا حضرمى بن عامر ، وهو فارس الدهماء ، مر يوم جبلة على ابن الحسحاس بن وهب الأعيوى وهو صريع ، فاحتمله إلى رحله وداواه حتى برئ ، ثم كساه وأداه إلى أهله » .

(٢) الجداة ، بالدال المهملة هى رواية الأصل ومعجم البلدان . قال ياقوت : « موضع فى بلاد غطفان » . وفى م والتبريزى : « الجذاة » بالذال المعجمة . وذكر ياقوت أنها لغة فى « الجداة » بالدال المهملة ؛ ومهما يكن فالكلمة مفتوحة الجيم . لكن نقل التبريزى عن النمرى أن الرواية المشهورة « الجذاة » بكسر الجيم . وابن حسحاس ، نقل التبريزى أنه يروى : « ابن حساس » .

يكثر استعمالُه لا يَجرى مجراه . وقوله : « ابن حَسْحاسٍ » من الحَسْحَسةِ ، وهو إحراق الجِلْد بالنار .

٢ ــ قَصَرْتُ له مِنَ الحَمَّاءِ لَمّا   شَهِدتُ وَغابَ عن دارِ الحَميمِ

القَصْرُ : الحَبْسُ والردُّ ، ومنه القَصْرُ والقُصارَى : الغايةُ . والحَمَّاء : تأنيث الأحمّ ، وهو الأسود من كل شيء . والحُمَم : الفَحْمُ . وجارية حُمَمَةٌ ، أى سوداء . وهذا تفسير النِّعمة التى اتخذها عنده . فيقول : لمّا وجدته جريحاً ، وفى المعركة طريحاً ، قد غابَ عنه ذَوُوه والمشفِقون عليه ، حَبَسْتُ عليه فَرَسى فأرْدَفْتُه . وجوابُ لمّا مقــدّم ، وهو قَصَرْتُ . كأنه قال : لمّا رأيته كذا حَبَسْتُ عليه فَرَسى . وحذف مفعول شهدتُ لأنه أمِنَ الالتباس . وقوله : « وغابَ عن دارِ الحميم » كان وجْهُــه أن يقول : لمّا شهدْتُه وغاب حَميمُه ، لــكنّ المعنى لا يُخيل[1] . والحَميمُ : القريب المُشْفِق . والحامّةُ : خاصّةُ الرَّجُل من أهلِه وولدِه ، ويقالُ هو الأحَمُّ من ذوى قرابته[2] ، أى الأخَصُّ .

٣ ــ أُنبِّئُه بأنَّ الجُرْحَ يُشْوِى   وَأنّك فَوْقَ عِجْلِزَةٍ جَمُومِ

هذا مما تَمَّمَ به الصَّنعةَ عنده ، بعد أن ارتَدَفَهُ ، وذلك أنه ســلاّهُ بقوله « الجُرْح يُشْوِى » ، ومَنّاه بقوله « وأنّك فوق عِجْلِزَةٍ جَمُومِ » . ويقال : رَمَاهُ فأشْوَاه ، إذا أصاب غيرَ المَقتَل . والجَمُوم : الذى لا ينقطع جَرْيُه . والعِجْلِزة : الصُّلْبَةُ . وبِئْرٌ جَمُومٌ من هذا ، لأنّ ماءها يَغُورُ أحياناً ثم يَعُودُ ويَغْزُر . والمُرَادُ : أنَّ تبليغَكَ المأمَنَ به سَهْـلٌ ، وأنّ ما بك[3] من الجُرْحِ هَيِّن .

(١) يقال أخال الشيء : اشتبه ، وهذا الأمر لا يخيل على أحد ، أى لا يشكل . اللسان .
(٢) هذا ما فى م . وفى الأصل : « من ذى قرابة » .
(٣) فى الأصل : « ما بان » ، صوابه من م والتبريزى .

٤ – وَلَو أَنِّى أشَاءُ لـكُنْتُ مِنْهُ مَـكانَ الفرْقَدَيْنِ من النُّجُوم

يُبَيِّن بهذا أنه تَبَرَّع بما فَعَل ، وأنه لم يَلزمْهُ لزومَ الواجب الذى لا يَسُوغُ الإخلاَلُ به ، فيقول : لو شئت لبعُدتُ منه بُعْد الفَرقدين من النُّجُوم السَّيَّارَة ، وهى التى يحلُّ فيها النَّيِّران ، والفَرْقَدَان لاحُلُولَ فيه[1] ،وهذا يجرى مجرى قَوْلِهم : « هو مِنّى مَناطَ الثُّريَّا » فى أن المراد به التَّبعيد ، ويجوز أن يريد بَعُدتُ منه بُعد الفرقدين ، ثم بيَّن أنَّ الفَرْقَدَيْنِ من النجوم ، فيكون من النجوم تبييناً ، كقوله تعالى ﴿ فاجتَنِبُوا الرِّجْسَ من الأَوْثانِ ﴾ . ويجوز أن يريد بالنُّجوم نباتَ الأرض ، لأنَّ كلَّ ما طَلَع فقد نَجمَ ، ويكون المعنى بُعْدَ الفَرقدين من الأَرْضِ ومنابتها ، ويكون فى هذا المعنى شبه إلْغَازٍ فيضعُف .

٥ – ذَكَرْتُ تعِلَّةَ الفِتْيَانِ يَوْمًا وإلْحَـاقَ الملامة بالمُليم

بَيَّنَ بهذا الـكلام أنه اتَّقى بما فَعَل تَوَجُّهَ الذّمِّ إليه من الناس ، فيقول : أخطَرْتُ ببالى ما يَتعلَّل به الفتيانُ فى محافِلِهم ومجالِسِهم ، وتقبيحهم من أخبارِ الناس ما يُستحقُّ بفعله أو بتَرْكِه عندهم ذَمٌّ ، فيُلحِقُون بِهِ اللَّوْمَ ، ويهجِّنُونَهُ فى أحكام الفُتُوَّةِ . ومَصدرُ قوله « ذَكَرْتُ » الذُّكْر بضم الذال لأن هذا كان بالقَلْب ، والذِّكْرُ بكسر الذال باللسان . والمُليمُ : الذى يَأتى بما يُلاَمُ عليه . قوله « تَعِلَّةَ » مصدر علَّـتُهُ ، فهى كالتَّقدمة والتـكرمة . ويجوز أن يكون تسميتهم المُعَلِّلَ ، وهو يَوْمٌ من أيام العَجُوز ، من هذا ، كأنَّه يعلِّل النّاس بشىء من تخفيف البرد .

(١) ذزل الفرقدين لتلازمهما منزلة المفرد .

٤٠

وقال الشَّدّاخُ بنُ يَعمَرَ الكِنانىُّ [١] :

١ — قاتِلِي القَوْمَ يا خُزاعُ وَلا يَدْ خُلْـكُمُ مِنْ قِتالِهِمْ فَشَلُ [٢]

يُروَى « قاتِلُوا » و « قاتِلِي » على اللفظ مَرّةً وعلى المعنى أخرى ، وجَعَلَ النَّهْيَ فى اللَّفْظ للفَشَل ، والمُرادُ لا تفشلوا . وهذا بَعْثٌ وتحضيض ، فيقول : حاربى [٣] أعداءكِ [٤] يا خُزَاعة ، ولا يتداخَلْكم الجُبْنُ والضَّعف منهم . وخُزاعة ، قال الخليل : هو من خَزَعَ عَن أصحابه إذا تخلف ، لأنّهم تَخَلَّفُوا عن قَوْمِهِمْ بمكّةَ أيّامَ سَيْلِ العَرِم .

٢ — القَوْمُ أَمْثالُكُمْ لَهُمْ شَعَرٌ فى الرَّأسِ لا يُنْشَرُونَ إن قُتِلُوا [٥]

يبيّن بهذا الكلام أنّهم ناسٌ كما أنّ خُزَاعَةَ ناسٌ ، فيقول : لا تَهابُوهُمْ فإنّ خِلْقَتَهُم كخِلْقَتِكُم ، وإنّهم إذا قُتِلوا لم يَحْيَوْا مِنْ فَوْرِهم ، فيرجِعُوا إلى القتال . هذا

(١) الشداخ بن يعمر الكنانى ، شاعر جاهلى ، من بنى كنانة بن خزيمة . وكان من خبر هذه الأبيات كما روى التبريزى ، أنه كان بين بنى كنانة وخزاعة حلف على التناصر والتعاضد على سائر الناس ، فاقتتلت خزاعة وبنو أسد فاعتلتها بنو أسد ، فاستعانت خزاعة ببنى كنانة ، فذكر الشداخ قرابة بنى أسد ، فخذل كنانة عن نصرة خذاعة ، وبهذا السبب انحدرت بنو أسد من تهامة إلى نجد غضبا على بنى كنانة إذ لم تنصرهم .

(٢) ابن جنى : « هذا الشعر من البحر المنسرح ، وإنشاده على هذا الظاهر يكسره ، وذلك أن أول المنسرح لا يجوز فيه فاعلن ، ويروى : فقاتلى ، وإذا روى هكذا كان وزنه مفاعلن ، وهذا جائز فيه ، لأنه خبن مستفعلن » .

(٣) م : « جازى » .

(٤) فى الأصل : « أعدائى » ، والوجه ما أثبتنا من م .

(٥) ابن جنى : « وضع الرأس موضع الرؤوس كقوله :

* فى حلقكم عظم وقد شجينا *

مبالَغةٌ فى الاستحثاث و التَّجسير . وجَعَل قولَهُ : « لَهُمْ شَعْرٌ فى الرَّأْسِ » بما بَعْدَهُ ، تفسيرًا للماثلة وتَبْيِينًا . وجواب إن قُتِلُوا فيما تَقَدَّم عليه .

٣ ـــ أَكُلَّمَا حَارَبَتْ خُزَاعَةُ تَحْـ ـدُونِي كَأَنِّى لِأُمِّهِم جَمَـــلُ

قولُه « كأنى لأُمِّهم » فى موضع الحال ، أى تحدونى مُشْبِهًا جملاً لأُمِّهِمْ . وكلَّما ظَرفٌ لقوله تحدونى . وكأنّه قال : تَحْدونى خُزاعة كلَّما حَارَبَتْ ، أى تسوقُنِى لنَصْرِها والدِّفاعِ عنها ، كأنى ناضِحٌ لأمِّهم يُسْتَقَى عليه الماء ، فيُقال له أقْبِلْ بالدَّلْوِ وأدْبِرْ . وذَكَر الأمَّ تغليظًا للقولِ وتخشينًا . وقولُهُ « أكلَّما » ، كأنَّه أقْبَلَ على إنسانٍ بَعْد أن كانَ بَعَثَهُمْ وجَرَّأهم على قتالِ أعدائهم ، فقال على طريق الإنكار ما قال .

٤١

وقال الْحُصَيْنُ بن الْحُمامِ المرىُّ(١) :

١ ـــ تَأَخَّرْتُ أَسْتَبْقِى الحَيَاةَ فَلَمْ أَجِدْ لِنَفْسِى حَيَاةً مِثْلَ أَنْ أَتَقَدَّمَا

يجوز أن يكون هذا مثل قَوْلِهِم : « الشُّجَاعُ مُوَقًّى » . وفى طريقته قولُ الآخر :

أكانَ الجَبَانُ يُرَى أَنَّهُ سَيُقْتَلُ قَبْلَ انقضاءِ الأَجَلْ

(١) الحصين بن الحمام المرى ، من مرة غطفان ، وهو مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان ابن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان . والحمام ، بضم الماء ، قيل إنه عرق الخيل . وهو شاعر جاهلى مقل . قال أبو عبيدة : اتفقوا على أن أشعر المقلين فى الجاهلية ثلاثة : المسيب بن علس ، والمتلمس ، وحصين بن الحمام المرى . والشعراء ٦٣٠ والاشتقاق ١٧٦ والاستيعاب وأسد الغابة والإصابة ، والمؤتلف ٩١ والأغانى (١٢ : ١١٨ – ١٢٤) والخزانة (٢ : ٧ – ٩/٣ : ٣٥٢ – ٣٥٥) .

فَقَدْ تُدْرِكُ الحادِثُ الجَبَانَ ويَسْلَمُ منها الشُّجَاعُ البَطَلْ

ومثلُه قولُ الآخَرِ (١) :

نُهِينُ النُّفُوسَ وهُونُ النُّفو سِ يَوْمَ الكَرِيهَةِ أَوْقَى لَهَا

ويجوز أن يقول : أحْجَمْتُ مُسْتَبْقِيًا لِعَيْشِى ، فلم أَجِدْ لنفسى عَيْشًا كما يكونُ فى الإقدام ، وذلك لأنَّ الأُحدوثَةَ الجميلة ، والنُّجْح عند الناس فى المَبَاغِي الحميدة ، إنما يكون بالتقدُّمِ لا بالتأخُّرِ ، وبالافتخار لا بالانحراف ، ومن ذَكِرَ بالجميل وتُحُدِّث عنه بالبلاءِ الحسَنِ حَيِيَ ذِكْرُه واسمُه ، وإنْ ذَهَبَ أثَرُهُ وجِسْمُه . وقولُهُ : « حَيَاةً مِثْل أن أتقدّم » معناه حياةً تُشْبِهُ الحياة المكتسبة فى التقدّم وبالتقدُّم .

٢ — فَلَسْنَا عَلَى الأَعْقَابِ تَدْمَى كُلُومُنَا ولَكِن على أَقْدَامِنَا تَقْطُرُ الدَّمَا (٢)

أراد : لَسنا بدامِيَةِ الكُلُومِ على الأَعْقَابِ . ولو لم يجعل الإخبارعن أنفُسِهِم لكان الكلام لَيْسَتْ كُلُومُنا بداميَةٍ على الأَعْقَابِ . فيقول : نتوجَّه نحو الأَعْدَاءِ فى الحَرْب ولا نُعْرِضُ عنهم ، فإذا جُرِحنا كانَتِ الجراحاتُ فى مُقدَّمِنا لا مُؤَخَّرِنا ، وسالت الدِّماء على أقدامنا لا على أعقابِنَا . وقولُه « تَقطُرُ الدَّما » إذا رُوِيَتْ بالتاء كان المعنى تَقطُرُ الكُلُومُ الدَّمَ ، فيكون الدَّما مفعولا به . ويقال: قطرَ الدَّمُ وقَطَرْتُهُ ، وهذا وَجهٌ حَسَن ، وإن شئتَ جَعَلتَ الدَّمَ منصوباً على التمييز ، كأَنّه أراد تَقْطُرُ دَمًا ، وأدْخَلَ الألِفَ واللَّامَ ولم يعتدّ بهما ، كقول الآخر (٣) :

* ولا بِفَزَارَةَ الشُّعْرِ الرِّقَابا (٤) *

---

(١) هو الخنساء ، كما سبق فى حواشى ص ١٤٠ .

(٢) رواية ابن جنى : « الدما » بكسر الدال على أنه مقصور « الدماء » . وذكر ابن جنى فى روايته أيضا : « تُقْطِر الدِما » . من قولهم أقطرت الدم ، أى أسلته .

(٣) هو الحارث بن ظالم المرى . المفضليات (٢ : ١١٤) .

(٤) صدره : * فما قومى بثعلبة بن سعد *

ويجوز أن يُرْوَى « يَقطُرُ الدَّمَا » بالياء ، ويكون الدَّمَا فى موضع الرّفع على أنَّهُ فاعِل يَقطُر ، لـكنَّهُ رَدَّه إلى أصله فأتى به مقصوراً وإن كان الاستعمال بحذف لامِهِ . ومثل هذا البيت قولُ القُطَامِيِّ :

لَيْسَتْ تُجرَّحُ فُرَّاراً ظُهورُهم وفى النحورِ كُلُومٌ ذات أَبْلادِ

٣ — نُفَلِّقُ هامًا من أُناسٍ أَعِزّةٍ علينا وهُمْ كانوا أَعَقَّ وأَظْلَمَا

يقول : نُشَقِّقُ هاماتٍ من رجال يَكْرُمونَ علينا لأنهم منّا ، وهم كانوا أسبَقَ إلى العُقوقِ وأوْفَرَ ظُلْمًا ، لأنهم بدءونا بالشّرّ ، وألجؤونا إلى القتال ، ونحن منتقِمون ومُجازُون .

٤٢

وقال رجلٌ من بنى عُقَيْلٍ (١) :

وحارَبَهُ بنو عمّهِ فقتل منهم :

١ — بكُرْهِ سَرَاتِنا ياآل عَمْرٍو نُغَادِيكُم بمُرْهَفَةٍ صِقَالِ

الـكُرْهُ بالضم : المشقّة ، والـكَرْه بالفتح الإِكراه . وسَرَاةُ القومِ : خِيارُهم . فيقول : بمشقّةِ رؤسائنا وكراهتِهم نباكِركم بسيوفٍ مُحَدَّدة الحدّ (٢) مصقولةٍ ، وإنما قال « بكُرْهِ سَرَاتِنا » لأنّ الرؤساء يحبون التألُّفَ بين العشيرة وإصلاحَ ذات البين ، وتركَ التدابر والاختلاف ، إذْ كان عِزُّ الرئيسِ بأصحابه ، وحِشمتُهُ فى نفوس مُنابذيه بقوّةِ ذَوِيهِ وأقاربه . ويجوز أن يكونَ ذَكَرَ السَّراةَ والمراد الجميعُ . والمعنى : على كُرْهٍ منّا نقاتِلُكُمْ ولـكنكم ألجأتمونا إليه . وجمع

(١) التبريزى : « عقيل : تصغير عقل أو عقل مصدر عقل ، ويجوز أن يكون تحقير عقيل تحقير الترخيم ، ويجوز أن يكون تصغير عقال وتصغير أعقل تصغير الترخيم منهما » .

(٢) م والتبريزى : « مرققة الحد » .

صقيلاً وهو فعيل بمعنى مفعول على صقالٍ وذلك على غير بابه، لأن التكسير على فِعَالٍ يكون فى الأصل فَعِيلٍ إذا كان بمعنى فاعِلٍ، نحو ظَرِيفٍ وظِرَافٍ وكَرِيمٍ وكِرَامٍ، ومثلُه قولُهم فَصِيلٌ وفِصَالٌ، وساغ ذلك لاتِّفاقهما فى الزِّنة والوصفِيَّة. ورُوِى: «بمُرْهَفَةِ الصِّقَال»، وتكون إضافةُ المُرْهَفَةِ إلى الصِّقال كإضافةِ البعض إلى الكلّ، لأن المعنى بالمُرهفة[1] الحدُّ من الصِّقال، أى من السيوف المصقولة[2].

٢ – نُعَدِّيهِنَّ يَوْمَ الرَّوْعِ عَنْكُمْ وإنْ كانت مُثَلَّمَةَ النِّصَالِ

قوله «نعدّيهن» أى نصرفُهنّ. ويقال: عَدِّ الهمَّ عنك، أى اصرفه. والبيت يحتمل وجهين: أحدهما أن يكون المعنى نَصرِفُ السيوفَ عنكم إبقاءً عليكم، وكراهيةً لاستئصالكم، وإن كانت نِصَالُها قد تَفَلَّلَتْ من كثرة ما نُقَارِع بها الأعداءَ. ويجوز أن يكون المعنى: نصرفُها وإن تثلمَت بكُمْ وفيكم، لأن القدرةَ تُذْهِبُ الحفيظة، ولأن ما يَجْمَعُنا يدعو إلى البُقْيا، والأخذ فيكم بالحُسْنَى.

٣ – لهَا لَوْنٌ من الهامات كَابٍ وإنْ كَانَتْ تُحَادَثُ بالصِّقَالِ

قولُه «من الهامات» أى من دماء الهامَاتِ ومن التأثير فيها. يقول: لهذه السيوف لَوْنٌ متغيِّرٌ قبيحٌ، لكَثْرةِ ما يُسْفَكُ بها الدِّماءُ، وإن كانت يُجدَّدُ صَقْلُها كلَّ يومٍ. والمحادَثةُ: إعادةُ الماءِ إلى السيفِ بالصَّقْل. وقد قال الحسن رحمه الله فيما حُكِىَ عنه من مواعِظِه: «حادِثوا هذه القلوبَ فإنها سريعةُ الدُّثور، واقدَعوا هذه الأنفسَ فإنها طُلَعَةٌ». وقولُه «كابٍ» من قولِهم كَبَا

(١) والتبريزى: «بالمرققة».

(٢) وذكر ابن جنى أن الصقال هنا أيضا مصدر صقلت، وتأويله: بمرهفة عند الصقال، كما أن قوله «بضة المتجرد» معناه بضة عند المتجرد.

وَجْهُه ، إذا اربَدَّ [واسودّ] . وكَبَا نُورُ [الصُّبْحِ و[1]] الشمس ، إذا نَقَص وأظلَمَ . وجوابُ إن كانَتْ فيما تقدَّم عليه ، والجملة فى موضِع الصِّفة للمُرْهَفة .

٤ ــ وَنَبْكِى حِينَ نَقْتُلُكُمْ عَلَيْكُمْ ... وَنَقْتُلُكُمْ كأَنَّا لا نُبَالِى

وَصَفَ حُسْنَ صَبْرِهم ، على ما يتَّفِقُ من نائبةٍ ، ويتجدَّدُ من عارضِ حادثةٍ ، فيقول : نبكى قتلاكم إذا قتلناكم لما يجمَعُنا وإيَّاكم من الرَّحِمِ الماسَّة ، والقرابة الدانية ، ونقتلكم إذا أحوجتمونا إلى قتلكم ، كأنّا لا نبالى بما يمنع من ذلك ، أو يدعو إلى الجزَعِ له . وقولُه « نُبالِى » نُفاعِلُ من البَلاَءِ . فإذا قال لا أُباليه كأنه أراد : لا أحتفِلُ به فأُعادّهُ بلائى وبلاءه وأُفاخِره . هذا أصْلُه ، وقد مَضَى . وحكى سيبويه : ما أُباليه بالةً ، وذكر أن البالَةَ كالحانةِ ، وأنه حُذِفَ ياؤه حَذْفَ تخفيفٍ لا حَذْفَ قِياسٍ .

٤٣

وقال القَتَّالُ الكلابِىُّ[2] :

١ ــ نَشَدْتُ زِيَادًا والمَقامَةُ بَيْنَنا ... وذَكَّرْتُهُ أَرْحامَ سِعْرٍ وَهَيْثَمِ

يقال : نَشَدْتُكَ اللهَ والرَّحِمَ ، وناشَدْتُكَ اللهَ ، أى سألتك بالله وبالرَّحِمِ .

---

(١) هذه من م .

(٢) القتال لقب غلب عليه ، واسمه عبد الله بن المجيب بن المضرجى بن عامر بن كعب بن عبد الله بن أبى بكر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة . وهو شاعر إسلامى . وكان من حديث هذا الشعر كما روى التبريزى وأبو الفرج أن القتال كان يتحدث إلى ابنة عم له ولها أخ غائب ، فلما قدم رأى القتال يتحدث إلى أخته ونهاه ، وحلف له لئن رآه ثانية ليقتلنه . فلما كان بعد ذلك رآه عندها ، فأخذ له السيف ، ورآه القتال فخرج هاربا وخرج فى أثره ، فلما دنا منه ناشده القتال بالله والرحم ، فلم يلتفت إليه ، فبينا هو يسعى وقد كاد يلحقه وجد رمحاً مركوزاً عند بيت ، فأخذه القتال ثم عطف عليه فقتله . وانظر ترجمته فى الأغانى (٢٠ : ١٥٨ — ١٦٦) والمؤتلف ١٦٧ والخزانة ٣ : ٦٦٧ — ٦٦٨ والشعر والشعراء ٦٨٦ — ٦٨٧ .

يقول : أقسَمْتُ على زيادٍ بالله وأهلُ المجلس بيننا حاضرُون ، ولِمَا يأتيه كُلٌّ منّا مُشَاهِدُون(١) ، وذكَّرْته ما يجمعنى وإيَّاهُ من الرّحِمِ من جهة هذين الرجلين ، وإنَّما ذكَّرَهُ بهذا على زُعْمِهِ طَلَبًا للصُّلح ، أو استظهاراً بإقامَةِ الحجج عليه ، وإلقاءِ مغاليق البَغْى إليْه .

٣ ـ فلمَّا رَأَيْتُ أَنَّه غَيْرَ مُنْتَهٍ أَمَلْتُ لَهُ كَفِّى بِلَدْنٍ مُقَوَّمِ

يقول : لمّا وجدْتُه لا ينتهى بالقَوْلِ ، ولا يَرْعَوِى بالزَّجر ، حدرْتُ له كفّى برُمحٍ ليّنٍ مثقّفٍ فطَعَنْتُهُ . وقوله « أمَلْتُ لَهُ » ، أى من أجْلِهِ « كَفّى بِلَدْنٍ » ، من فصيح الكلام ، وبليغ الكنايات .

٣ ـ ولَمَّا رأيْتُ أنّى قد قَتَلْتُهُ نَدِمْتُ عليْهِ أىَّ ساعَةِ مَنْدَمِ(٢)

يقول : لمّا بَانَ لى إتيانُ تلك الطَّعنة عليه نَدِمْتُ فى وقْتٍ لم تنفع الندامة فيه ، لفوت الأمْرِ فى الإبقاء . وهذا فى إظهار التحسُّر به كقول الآخر(٣) :

* ودِدْتُ وأينَ ما مِنّى ودَادِى(٤) *

وانتصب أىَّ ساعَةٍ على الظرف ، لأن أيًّا لما كان للبعض من الكلّ جُعِلَ حُكْمُهُ حُكْمَ المُضافِ إليه من جميع الأجناس .

---

(١) م : « شاهدون » .
(٢) هذا ما فى م والتبريزى . وفى نسخة الأصل : « فلما رأيت » .
(٣) هو عمرو بن معديكرب . اللآلى ٦٣ .
(٤) صدره : * تمنانى ليلقانى قييس *

٤٤

قَيْس بن زُهَيْرٍ العَبْسىّ[١]

١ — شَفَيْتُ النَّفْسَ من حَمَلِ بن بَدْرٍ ... وسَيْفِي من حُذَيْفَةَ قد شَفَانِي

كان حَمَلُ بن بَدْرٍ قتل مالك بن زُهير أخا قيس، فظفِر به وبأخيه حذيفة فقتلهما. يقول: اشتفيْتُ بقتل حَملِ بن بَدْرٍ. ثم قال: وشفانى سيفى أيضاً من أخيه حذيفة، لأنَّه أتى عليه لمَّا أعملْتُه فيه. وهذا مما جرَى بين عَبْسٍ وفزَارَة بسبب دَاحِس والغبراء.

٢ — فإنْ أَكُ قد بَرَدْت بِهِمْ غَلِيلِي ... فلَمْ أَقْطَعْ بِهِمْ إلَّا بَنَانِي

يقول: إن سَكَّنْت لَوْعَتِي بمجَازاتهم، وبَرَّدتُ غُلَّتِي، فإنِّى لم أقطع بهم إلاّ أطراف أصابِعِي. وذلك أن عِزّى كان بهم، وكانوا كالكفّ، فلما ماتُوا وأعوزَنِي التبجُّح بمكانهم[٢]، والاستعلاء على العدوّ بهم، صِرْتُ كمن قُطِعَتْ أنامِلُهُ. ومن الأمثال فى هذه الطريقة: «بالسَّاعِدِ تَبْطِشُ الكَفّ».

٤٥

وقال الحَارِثُ بن وَعْلَةَ الذُّهْلِيّ[٣]:

الوَعْلَةُ: الصخرة المشرفة من أعلى الجبل.

---

(١) قيس بن زهير: شاعر جاهلى، كان سيد عبس، وكانت له ضلع كبيرة فى حرب داحس، وهو صاحب داحس. انظر أمثال الميدانى (١ : ٢٥٠) والأغانى (٧ : ١٤٣/١٦ : ٢٣) والعقد وكامل ابن الأثير وغيرهما، فى حرب داحس والغبراء.

(٢) التبجح: الافتخار.

(٣) شاعر جاهلى، ذكر نسبه فى الأغانى (٢٠ : ١٣٢) والمؤتلف ١٩٧ قال «الحارث بن وعلة بن المجالد بن يثربى بن الديان بن الحارث بن مالك بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة». وهو غير الحارث بن وعلة الجرمى. انظر المفضليات (١ : ١٦٢ — ١٦٣).

١ ـ قَوْمِي هُمُ قَتَلُوا أُمَيْمَ أَخِي فإذا رَمَيْتُ يُصِيبُنِي سَهمِي

يقول : قَومى ، يا أميمةُ ، هم الذين فَجَعُونى بأخى ووتَرونى فيه ، فإذا رُمْتُ الانتصار منهم عاد ذلك بالنِّكاية فى نفسى ، لأنَّ عزّ الرجل بعشيرته ، وهذا الكلامُ تَحَزُّنٌ وَتفَجُّعٌ وليس بإخبار .

٢ ـ فَلَئِنْ عفَوْتُ لأَعْفُوَنْ جَلَلاً وَلَئِن سَطَوْتُ لأُوهِنَنْ عَظْمِي

عَفَا عن المُذْنِبِ والذَّنبِ عَفْوًا ، إذا صَفَحَ . وحَذَفَ حرف الجرِّ فوصَلَ لأَعْفُوَنْ بنفسِهِ . والكلامُ تَحَسُّرٌ وتَوَجُّع . يقول : إنْ تركْتُ مؤاخذَتَهم ، وأُطَّرَحْتُ طَلَبَ الانتقام منهم ، صَفَحْتُ عن أمْرٍ عظيم ، وإن سَطَوْتُ عليهم أضعَفتُ عَظْمِي ، وهدَدت رُكْنِي . والجَلَلُ يزعم أهل اللُّغَةِ أنَّهُ من الأضداد ، يَقَعُ على الصَّغير والكبير ، وهاهنا يُرادُ به الكبير . وكذلك فى قوله :

* ومِنَ الأَرْزَاءِ رُزْءٌ ذُو جَلَلْ[1] *

والسَّطْو : الأخذ بعُنْف . وفى كلِّ واحدٍ من المصراعين يمينٌ مُضْمَرَةٌ ، جوابها فى الأوّل لأَعْفُوَنْ ، وفى الثانى لأوهِنَنْ . واللام من لئن فى الموضعين موطِّئة للقَسَم .

٣ ـ لَا تَأْمَنَنْ قَوْمًا ظَلَمْتَهُمْ وَبَدَأْتَهُمْ بالشَّتْمِ والرَّغْمِ

حَوَّلَ الكلام عن الإخبار تَوَجُّعًا على عادتهم إلى الخطاب ، متوعِّدًا .

يقول : لا تَسْكُن إلى ناحية قوم اهتَضَمْتَهُم وبدأتَهُم بسَبِّهِمْ واطِّراحهم ، وإسقاطِهم وتذليلِهم . وظَلَمتَهم مع ما بَعدَه من صفة القوم . والرَّغْم مصدر رَغَمْتُ فلانًا إذا قلت له رَغمًا أو فَعلتَ به ما يَرغَم به أنفُه ويُذِلّه . والرَّغام : التُّراب ،

(١) للبيد فى ديوانه ص ١٧ . وصدره :

* وأرى أربد قد فارقنى *

وحكى الخليل : أرغمتُه : حملتُه على ما لا يقدِر على الامتناع منه .

٤ — أَنْ يَأْبِرُوا نَخْلاً لِغَيْرِهِمُ والقَــولُ تَحْقِرُهُ وقد يَنْمِى

موضع قولِه « أن يأبِرُوا » نصبٌ على البدَل من قومًا فى البيت الذى قبلَهُ ، كأنّه قال : لا تأمنْ أَبْرَ قومٍ ظلمتَهم وأوحشْتَهم نخلاً لغيرهم . ويقال : أبَرْتُ النخلَ وأبَّرْته ، إذا ألْقَحْتَهُ . وجعل هذا الكلام وعيدًا فى مفارقة القوم الذين وصَفَهم إيّاهم ، وتقويتِهم لأعدائهم بعـد الانتقال إليهم ، وإصلاحِهم الفاسد من فَخْرِهِم وأمْرِهم نُصرَةً لهم ، وجعل قَوْلَهُ « أن يأبِروا » كناية عن هذا المعنى ، كما قال طَرَفَةُ :

وَلِىَ الأَصْلُ الذى فى مثلِه يُصْلِحُ الآبِرُ زَرْعَ المؤتبِرْ

وقد قيل : أراد : لا تأمَنْ قوماً أسأت فى معاملتهم أن يتركوا أرضَهم وديارَهم ويَلحقوا بالأعداء فيأْبِروا نَخيلهم ويتصرّفوا فى مِهَنِهم ، ليكونوا معهم عليكم . والأوّل أحسن وأغرب . وقوله « والقول تَحْقِرُه وقد يَنْمِى » يجوز أن يكون ضرَبه مثلاً فى التّهاوُن بما لا يجوز التهاوُنُ فيه ، ويجوز أن يشيرَ بالقول إلى ما يقوله فى شِعره هذا ، ويريد أنّه سيزداد بانضمام الفعل إليه .

٥ — وَزَعَمْتُمُ أنْ لا حُلُومَ لنــا إنَّ العَصَا قُرِعَتْ لذِى الحِلْمِ

زَعم زُعْمًا وزَعْمًا ومَزْعَمًا ، وأكثر ما يستعملُ فيه ما كان باطلاً أو فيه ارتيابٌ . ولذلك يقال : تَزَعَّم ، أى تكذّب ؛ وزَعَمٍ فى غير مَزْعَمٍ ، أى طَمِع فى غير مَطْمَعٍ . و « أنْ لا حُلوم » أنْ فيه مخفَّفة من الثقيلة . أراد : زعمتم أنه لا حُلوم لنا . والهاء ضميرٌ للأمر والحديث ، و « لا حُلومَ » فى موضع الخبر . أراد : وزعمتم أنّ الأمر والشأن لا عقول لنا ، فإنْ كان الأمر على ما زعمتم فنبّهونا أنتم ، فإنّ عامِرَ بن الظَّرِب حَكَمَ العربِ كان يُقرَعُ له العصا فينبَّه ، لما

كان يَزِيغُ فى الحُكْم لكَبْرَتِه وسِنّهِ . وهذا الكلام تهكُّم وسخريَّة . ومثله قولُك لمن أنكَرَ عليك ما لا يُشَكُّ فى صلاحه وصحّته : إنْ كان ذلك فاسداً فصحِّحه أنت . وهذا ظاهرٌ . وذو الحِلْم الذى قُرِعَ له العصا مختلَفٌ فيه ، فتدَّعيه اليمنُ وتقول : هو عَمْرو بن حُمَمَة الدَّوْسىُّ ، رَوى ذلك الشّعبىُّ عن ابن عباس رضى الله عنه . وتدّعيه مُضَرُ ، فتقول : هو عامرُ بن الظَّرِب العَدْوَانىّ ، وإياه عَنَى ذو الإصبَع فى قوله :

ومِنْهُمْ حَكَمٌ يَقْضِى ولا يُنْقَضُ ما يَقْضِى

وتدّعيه ربيعة فتقول : هو قيس بن خالد الشّيبانى ، وهو جدُّ بِسْطام بن قيس بن مسعود بن قيس بن خالد .

٦ ــ وَوَطِئْتَنَا وَطْئًا عَلَى حَنَقٍ وَطْءَ المُقَيَّـدِ نابِتَ الهَرْمِ

يقول : أثّرتَ فينا تأثير الحنِق الغضبان ، كما يؤثّر البعير المقيَّد إذا وطىء هذه الشُّجَيرة . وخصَّ المقيَّدَ لأن وطْأتَه أثقل ، كما خصَّ الحنِقَ لأن إبقاءهُ أقلُّ . والهَرْمُ : ضَرْبٌ من الحمض ، يُقالُ جملٌ هارِمٌ ، وإبلٌ هَوَارِم إذا رَعَت الهَرْم . وانتصب وطْءَ المقيَّدِ على البَدَل ، أى وطْئاً يُشبه هذا الوطْءَ . ومما حُكِىَ عن العرب : « أعوذُ بالله من طِئَة الذليل » ، أى من أن يطأنى ، لأن وطأته أشدُّ ، لسوء مَلَكتِه ، كما قال الآخر[1] :

* ولم يَغلِبْكَ مِثْلُ مُغَلَّبِ *

وعَلَى هذا قيل : ضَرَبتُه ضَربة الجبان ، وضبطته ضبطةَ الأعمى .

٧ ــ وَتَرَكْتَنَا لَحْماً عَلَى وَضَمٍ لو كُنْتَ تَسْتَبْقِى مِنَ اللّحْمِ

(١) هو امرؤ القيس . ديوانه ١٧٧ . والبيت بتمامه :
وإنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب

هذا مَثَلٌ يُضربُ في الانقياد والذُّلّ . ولذلك يقولون : « النِّساء لَحمٌ على وَضَمٍ إلاَّ ما ذُبَّ عنه » . يقول : تركتَنا لا دِفاعَ بنا ، كاللَّحم على خِوَانِ الجزّار يتناوَلُه مَن شاء ، لو كُنْتَ تترك مِنّا بقيّة ، وتطلب علينا بقيّة . والمعنى أنّك تَرُومُ استئصالَنا ، فلستَ ترضى بالإذلال . وجواب لو فيما تقدّم عليه .

٤٦

وقال أعْرَابِيٌّ

قَتَل أخوهُ ابنًا له فقدِّم إليه ليقتاد منه ، فألقى السَّيف وهو يقول :

١ ــ أَقولُ للنَّفس تأْسَاءً وتَعْزِيَةً إِحْدَى يَدَيَّ أصابَتْنِي ولم تُرِدِ

التَّأساء : تَفعال من الإسْوَة . ويقال إسْوَةٌ وأُسْوَةٌ ، فيُضَمُّ أوّله ويُكْسَرُ ، وانتصابُه على أنَّه مصدرٌ في موضع الحال . أي أقول متأسّياً بغيري ، ومسلّيا لنفسي : جَنَى عَلَيَّ أخي الذي مَحَلُّه مني محلُّ إحدى يَدَيَّ ، سهواً لا إرادةً لَمَسَاءَتِي وخطأً لاَ عَمْدًا . وقوله « إحدى يَدَيَّ » في موضع المبتدأ و « أصابتني » خَبرُه ، وقوله « ولم تُرِدْ » في مَوْضِع الحال ، والجملة في موضع النَّصب على أنه مفعول لقوله أقول .

٢ ــ كلاَهُمَا خَلَفٌ من فَقْدِ صَاحِبِه هَذا أخِي حِينَ أَدْعُوهُ وَذَا وَلَدِي

يقول : كلُّ واحدٍ من الأخ الواتر والابن المفقود يصلُح لأن يُرْضَى به عِوَضًا من فِقدانِ الآخَر ، فإن اقتدت من الأخ منتصفاً للابن فقدتُهما جميعاً ، فاستبقائي أخي هو على كلِّ حالٍ أقرَبُ وأعْوَدُ[1] .

(١) أعود . أي أكثر عائدة ؛ والعائدة : الفائدة .

٤٧

وقال إِيَاسُ بْنُ قَبِيصَةَ الطَّائىُّ(١) :

١ – ما وَلَدتنى حاصِنٌ رَبَعِيَّةٌ لَئِنْ أنا مَالَأْتُ الهَوى لاتِّبَاعِهَا

امرأةٌ حاصِنٌ وحَصَانٌ ، أى ممتنعة(٢) عن الرَّفَثِ ، عفيفةٌ . ومصدره الحَصَانة والحُصْن ، وربعِيَّةٌ : منسوبةٌ إلى ربيعة : وهذا الكلام خبرٌ يجرى مجرى اليمين ، واللام من « لَئِن » يُؤْذِن بأن الكلام قَسَمٌ ، فيقول : لست ابنَ امرأةٍ من بنى ربيعة كريمةٍ عفيفةٍ إنْ كنت شايَعْتُ الهوى وتابَعْتُهُ فى طَلَبِ امرأةٍ . والمعنى : لستُ لِرِشْدَةٍ إن فعلتُ ذلك . ومالَأْتُ ، مأخوذٌ من قولهم : هو مَلِئٌ بكذا ، وقد مَلُؤَ يَمْلُؤُ مَلاءَة . وجواب الشَّرط فيما تقدم .

٢ – ألم ترَ أنّ الأرضَ رَحْبٌ فسيحةٌ فَهَلْ تُعْجِزَنِّى بُقْعَةٌ من بِقَاعِهَا

قال الخليل : البُقعة : قطعة من الأرض على غير هيئة التى إلى جنبها ، واستشهد الشاعر لنفسه فى إنكار ما انتفَى من فعله بقوله : ألم ترَ أنّ الأرض ، لأن ألم ترَ وإن كان لَفْظُه لفظَ الاستفهام ، كلمةٌ يُوَاقَفُ بها المُخاطَبُ فى تحقيق الأمور ، وتثبيت الخطوب ، وربما صَحِبها معنى التعجُّب . فيقول : إنك تعلم أن الأرض واسعةٌ عريضةٌ ، وأنّ بِقاعَها لا تَنْبُو بى ، ولو نَبَتْ لم تُعجزْنى ، فكما أنّى فى هذا بهذه الصفة ، فكذلك أنا فى الأوّل . ومذهب هذا الكلام

(١) كان إياس هذا عاملا لكسرى على عين التمر وما والاها إلى الحيرة ، وقد جعله كسرى على رأس العرب فى يوم ذى قار ، الذى كان بين بكر بن وائل ، وبين الفرس وأحلافهم من تغلب وطيئ وضبة وتميم وبهراء وتنوخ ، وقد هزمت الفرس وأحلافها ، وقال فى ذلك رسول الله : « هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم ، وبى نصروا » ، وفى أثناء عمالته بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم . الأغانى (٢٠ : ١٣٤ ، ١٣٨) والتنبيه والإشراف ١٥٨ ، ٢٠٧ – ٢٠٨ .

(٢) م : « متمنعة » .

مذهب قول القائل عند تحقيق أمرٍ وتصويره للمخاطَب : إن هذا حَقٌّ كما أنى حاضرٌ، وكما أنك تسمع وتُجيب .

٣ — ومَبْثُوثةٍ بَثَّ الدَّبا مُسْبَطِرَّةٍ   رَدَدتُ عَلَى بِطَائِها من سِرَاعِها

يقول : رُبَّ خَيْلٍ متفرِّقةٍ ممتدَّةٍ فى وجه الأرض امتدادَ فِرَاخ الدَّبا وتفرُّقِها — والمعنى أنهم يمُوجُون فى انتشارهم ، كما أن الجراد إذا انبثَّتْ ماجَ بعضُها فى بعض — أنا رددت أوّلها على آخرِها ، وحَبَسْتُ متقدِّماتها على متأخّراتها ، حتى لِحقَت الأعجازُ بالصدور ، واختلطت اللَّواحق بالسَّوابق . ويقال : هم يتهافَتُون تهافُتَ الفَراش ، ويتماوَجون تماوُج الجراد .

٤ — وأقْدَمْتُ والخَطِّىُّ يَخْطِرُ بيننا   لِأَعلَمَ مَنْ جَبَانُها مِنْ شُجَاعِها

قولُه « والخطىّ » واوه واو الحال . واللام من « لِأعلم » لام العلّة . يقول : تركتُ الإحجام ، وآثرتُ الإقدام ، ورماحُ الخطِّ تختلف بالطَّعن ، وتحكُم للشَّجاعة على الجُبْن ، لأتبيَّنَ الضعيفَ من القوىّ ، والمتقدّم من المتخلِّف . والمعنى فعلت ذلك ليَبِينَ فضلى على غيرى .

٤٨

وقال رجل من بنى تميم[١]

وطَلَبَ منه ملك من الملوك فَرَساً يقال له[٣] سَكَابِ فمنعه إياها :

١ — أَبَيْتَ اللَّعْنَ إنَّ سَكَابَ عِلْقٌ   نفيسٌ لا تُعَارُ ولاَ تُبَاعُ[٢]

قولُه « عِلْقٌ نفيسٌ » أى مالٌ يُبْخَل به . وهذا كما يقال : هو عِلْقُ مَضِنَّة .

(١) هو عبيدة بن ربيعة بن قحفان بن ناشرة بن سيار بن رزام بن مازن ، كما فى كتاب الخيل لابن الأعرابى ٦٢ حيث أنشد الأبيات . وفى همذان فرس يقال له سكاب ، فارسه الأجدع بن مالك . الخيل لابن الأعرابى ٩٩ — ١٠٠ .

(٢) كذا فى النسختين والتبريزى ، ذكر للفظ ، وأنث بعد ذلك للمعنى .

(٣) رواية ابن الأعرابى : « ليست بعلق يستعار ولا يباع » .

ويقال : عالَقْتُه بعِلقٍ وعِلْقِه ، إذا خاطَرتَهُ بكرائم المال . يقول : مُنِعْتَ أن تفعَل ما تَستحِقُّ به اللّعن ، إنّ فرسى سَكَابِ مَتَاعٌ نَفِيسٌ ، وعِلقٌ كريم ، لا يُعْرَضُ للبيع ، ولا يُبذَلُ للإعارةِ . و « سَكَابِ » إذا أعربته منعته الصَّرْف ، لأنّه عَلَمٌ ، فلحصول التعريف فيه والتأنيث مع كثرة الحروف يُمنَع الصرف . والشاعر تميميٌّ ، وهذا لُغَةُ قومِه . وإذا بَنَيْتَهُ على الكسْرِ أجريته مجرى حَذَامِ ، لأنّه مؤنث معدول معرفةٌ ، فلمشابهته بهذه الأوصاف دَرَاكِ ونَزَالِ يُبْنَى ؛ وهذه اللُّغة حجازيّة . واشتقاق سَكَابِ من سَكَبْتُ إذا صببتَ . ويقال في صفة الفرس : هو بَحْرٌ وسَكْب . وقوله : أَبَيْتَ اللَّعْنَ ، تَحِيَّةٌ كان يُسْتَعْطَفُ بِهِ الملوك . وأَصْلُ اللَّعن : الطَّرْد . وقول الشاعر[١] :

وَلَكُلُّ ما نَالَ الفَتَى قَدْ نِلْتُهُ إلا التَّحيَّهْ

يعنى إلاّ أن يقال لى : أبيت اللعن ، لأنّه تحيّة الملوك . وكأنّه قال : نِلتُ كلَّ شىء إلا المُلْك .

٢ — مفدَّاةٌ مُكَرَّمَةٌ عَلَيْنَا يُجَاعُ لها العِيَالُ ولا تُجَاعُ

يقول : لعزّتها على أربابها تُفَدَّى بالآباء والأمّهات ، وتُؤثَر تكريماً لها على العيال عند الإضافة والإقتار ، فيَجَوَّعُ العيال ولا تجوَّع هذه .

٣ — سَلِيلَةُ سَابِقَيْنِ تَنَاجَلاَها إذا نُسِبَا يَضُمُّهُمَا الكُرَاعُ[٢]

يقول : هى وَلَدُ فَرَسَيْن سابقَيْن ، إذا نُسِبَا ضَمَّ مَنَاسِبَهُمَا ومناصِبَهُما الكُرَاعُ ، وهو فَحْلٌ كريم معروف . وسَلِيلَةُ أُلحِقَ الهاء بها وإن كان فعيلاً

(١) هو زهير بن جناب الكلبى ، كما سبق فى حواشى صفحة ١٠٠ .

(٢) ابن الأعرابى : « يضمهما إذا نسبا » .

فى معنى مفعول ، لأنّه جُعِلَ اسْمًا ، كما تقول هى قتيلة بنى فُلاَن . ومعنى سُلَّ : نُزِعَ . ويقال : نَجَلاَ ولدَهُما وتناجلاه ، بمعنى واحد ، قال :

* إذْ نَجَلاَهُ فِنعْمَ ما نَجَلاَ(١) *

وأصلُ الـكُرَاع فى اللُّغة : أنفٌ يتقدَّم من الجَبَل ، فسُمِّى هذا الفحلُ به لعِظَمِهِ . وأمّا الـكُراع الاسم الجامعُ للخيل ، فهو غَيْرُ ذَا .

٤ — فلا تَطْمَعْ أَبَيْتَ اللَّعْنَ فِيها ... وَمَنْعُكَهَا بِوَجْـهٍ يُسْتَطَاعُ

يقول : ارفَعْ طَمَعَك فى تحصيل هذه الفرس ، أبيْتَ أن تأتى ما تستحق به اللّعن ، ودَفْعُكَ عنها يُقْدَرُ عليه بوجْهٍ ما وبحيلة ما . والمعنى : إنّى لا أُسْعِفُك بها استَبَعْتَهَا أو استَوْهَبْتَهَا ، ما وجدتُ إلى الردِّ طريقاً ، فلا تطمع فيه مادامت لى هذه الحالة . وقوله « ومنعُـكها » أى منعُك عنها . ويقال مَنَعْتُكَ كذا ، ومَنَعْتُكَ عن كذا ، وأمّا المَنَعَةُ العِزُّ(٢) فهو مصدرٌ كالحركة والجَلَبة مِن مَنَع مَنَاعَةً ومَنَاعًا ، فهو مَنِيع .

٤٩

وقالت امرأةٌ من طَيِّءٍ(٣) :

١ — دَعَا دَعْوَةً يَوْمَ الشَّرَى يَالَمَالِكٍ ... ومن لا يُجَبْ عندَ الحَفِيظَةِ يُكْلَمِ

يقول : استغاثَ هذا الرّجلُ فى يوم اجتماعنا بالشَّرَى – وهو مكانٌ معروف اتفقت فيه وقعةٌ فنُسب يومُها إليه – استغاثةً وقال : يالَمَالِكٍ ؛ ومَن لا يُجَب

(١) للأعشى فى ديوانه ١٥٧ . وصدره :

* أنجب أيام والداه به *

(٢) م : « العزة » . والمنعة تقال بفتح النون وإسكانها .

(٣) هى بنت بهدل بن قرفة الطائى ، أحد لصوص العرب زمان عبد الملك بن مروان كما سيأتى فى التفسير .

إذا استَصرَخ ، ولم يُغثْ إذا استَنْصَر ، يُهتَضَمْ ويُجرح . وقوله « يا لَمَالكٍ » اللام فيه للإضافة ، وإنما فُتِحَ لأنّه دَخَل على ما هو واقعٌ موقع المضمر ، فكما يُفتح لام الإضافة مع المضمَر كذلك فُتح مع المُنادَى لوقوعه موقِعَهُ . فإن قيل : فما المدعوُّ ؟ قلتَ : : مالك ، كأنه قال : دُعائى لمالكٍ . والحفيظةُ : الخَصْلَةَ التى يُحفَظ الإنسانُ عندها ، أى يُغضَبُ . وكذلك الحِفْظَةُ . قال :

* وحِفظَةٍ أكَنَّها ضَميرى[1] *

وقوله « يُكلَمِ » كناية عن الغَلَبة أو القتل .

٣ — فياضَيْعَةَ الْفِتْيَانِ إذْ يَعْتِلُونَهُ ببَطْنِ الشَّرَى مِثْلَ الْفَنِيقِ الْمُسَدَّمِ

الفنيق : الفَحل المُفَنَّق لا يُرَكَب لكرامته على أهله . والمُسَدَّم : الفحل الهائج الممنوع . ويقال : عَتَلَه يَعتِلُه ويَعْتُلُه جميعاً ، إذا قادَه بعُنْف . ومعنى « يا ضَيْعةَ الفتيان » وإن كان لفظُه لفظَ النداء ، معنى الخبر ، كأنّه قال : ضَاعَ الفتيان جدًّا . فيقول على وجه التعجُّب والاختصاص : ما أضْيَعَ الفتيانَ فى ذلك الوقت وفى تلك الحالة . كأنَّه لَمَّا لم يُنْصَر فى تلك الحالة ولم يَحْضُرْه فَتًى يُعينه كان الفتيانُ ضائِعين ، إذ كانوا يعْنُفون فى قوْدِهم إيّاه ، وهو كأنّه فحل مشدود الفم خوْفاً من صِيَالِه ، فلا يُناكر بنفسه[2] ، ولا يدَافع أحد دونَه . وذكر بعضهم أن هذا المقتولَ هو بَهْدَل بن قِرْفَة ، أحد بنى نبهان ، وأُخِذ بسبب دم ابن جَعْدَةَ المخزومى[3] فقُتل بالمدينة صَبْرًا . وما اقْتُصَّ فى الأبيات يدل على خلافه[4] .

(١) للعجاج فى ديوانه ٢٦ واللسان (حفظ) .

(٢) المناكرة : المحاربة والقتال .

(٣) هو عون بن جعدة بن هبيرة بن أبى وهب المخزومى ، كما ذكر التبريزى .

(٤) قال التبريزى : « بل الذى اقتص فى الأبيات يدل على صحته » . ثم نقل نصا طويلا من كتاب أخبار اللصوص للسكرى .

٣ـ أَمَا فى بَنِى حِصْنٍ مِن ابنِ كَرِيهَةٍ   من ٱلقَوْمِ طَلَّابِ ٱلتِّرَاتِ غَشَمْشَمِ

هذا الكلام بَعْثٌ وتحضيض لأبناء حِصْن . والغَشَمْشَم : الذى يركبُ رأسه ولا يَهَابُ الإقدامَ على شىء . والكلام لفظُهُ استفهامٌ ، والمعنى معنى التَّمنِّى ، كأنّه يَبْعثُ ويُحضِّضُ مَن يَطْلُب دمَه إذْ فاتَ نُصْرتُه حَيًّا . فيقول : أمَا فى هذه القبيلة ابنُ حَرْبٍ مُتَنَاهٍ فى طلب الدَّم وإدراكِ الثأر ، ظَلُومٌ غَشوم ، يركب الكرائهَ والأمورَ الصَّعبة ، غير مُرْعَوٍ ولا منْقبِض .

٤ـ فَيَقْتُلَ جَبْرًا بامرئٍ لم يَكُنْ لَهُ   بَوَاءً ولكن لا تَكَايُلَ بالدَّمِ (١)

جَبْرٌ هو القاتل لِوَلىّ هذه المرأة . ويقال : باء فلانٌ بفلانٍ يبُوء بواءً ، إذا ارتُضِىَ لقَتْلِهِ بدلاً منه . وأَبَأْتُ فلاناً بفلانٍ ، أى قَتَلتُه . وانتصب « يقتُلَ » على أنه جواب التمنّى بالفاء ، والعامل فى الفعل أن مضمرة ، أى أَمَا فيهم رجُلٌ هكذا فيَقتُلَ هذا الرجلَ برجل لم يكن له نظيرًا ، فيكون فى دمه وفاءً بدمه ، ولكنْ سقطت المكايلة فى الدماء منذُ جاءَ الإسلام ، فَلاَ يُقتل بدل الواحد إلاّ واحدٌ ، شريفاً كان أو وضيعًا .

٥٠

وقال بَعْضُ بنى فَقْعَسٍ (٢) :

١ـ رَأَيْتُ مَوَالِىَّ ٱلأُولَى يَخْذُلُونَنِى   عَلَى حَدَثَانِ الدهرِ إذ يَتَقَلَّبُ

الموالى ها هنا : أبناء العم . والأُولَى فى معنى الذين ، ويخذلوننى من صِلَتِه . يقول : رأيتُ أبناء عمِّى هم الذين يقعدون عن نُصرتى على تقلُّب الزّمانِ ، وتصرُّف الحَدَثان . وقولُه « على حَدَثان الدَّهْر » فى موضع الحال ، أى

(١) فى الأصل : « حبر » بالحاء المهملة فى المتن والشرح ، وأثبتنا ما فى م والتبريزى .
(٢) التبريزى : « قيل هو مرة بن عداء الفقعسى » .

يخذلوننى مُقَاسِيًا لما يحدث فى الدّهر أوانَ تقلُّبه وتغيره .

٢ — فَهلاّ أَعَدُّونِى لِمِثْلِى تَفَاقَدُوا إِذِا الخَصْمُ أَبْزَى مائلُ الرأْس أَنْكَبُ[1]

قوله : « تفاقدوا » دعاء ، وقد اعترض بين أوّل الكلام وآخره ، ولكنّه أكّد ما يقتضّه فَصَلَحَ لذلك . يقول : هَلاّ جعلونى عُدَّة لرجلٍ مثلى ، فقد بعضُهم بعضا وقد جاءهم الخَصْمُ متأخِّر العَجُز مائل الرأس منحرفا . وهذا تصويرٌ لحال المُقاتل إذا انتصب فى وجه مقصوده ، وهو أبلغُ فى الوصف من كلّ تشبيه ، ومثله قول الآخر[2] :

* جاءوا بمَذْقٍ هَلْ رَأَيتَ الذئبَ قَطّْ *

ألا تَرى أنه صوَّر لون المذْق لَمّا قال : هل رأيت الذئب قط ؟ وقوله : « إِذِ الخصم » هو حكاية الحال المتوهَّمَة ، وهو الرواية المختارة . وقد رُوِى : « إِذَا الخَصْمُ » والجُمْلَة التى تبيّن بها إذَا هذه يجبُ أن يكون فيها فِعْلٌ ، وقد عَرِيَتْ منه ها هنا ، وأظُنُّ أنّ الأخفش جَوّزَ مثله . والمعنى : لِمَ أفاتونى أنفسَهم ، وهلا ادَّخرونى ليوم الحاجة إذا كان الخصم هكذا . وأراد بالخَصم الجنس . وقال الأصمعىّ : البزَى : تأخُّر العَجُز . وقال غيره : هو إشرافُ وسَط الظَّهر على الاسْت . والبيت يشهد للأصمعىّ . والنّكَبُ : شِبْه الميل فى المَشى ومنه الأنكب من الإبل ، وهو الذى يَمشِى فى شِقّ .

٣ — وَهَلاَّ أَعَدُّونى لمثْلِى تَفَاقَدُوا وفى الأرض مَبْثُوثٌ شُجَاعٌ وَعَقْرَبُ

الكلام فى « تفاقدوا » وأنّه دعاء واعتراض ، على ما مرّ . وإنّما وكرّر

(١) إذا ، كذا ورد رسمها فى النسختين بالألف مع كسر الذال ، وذلك لتقرأ بالروايتين ، إذ وإذا . قال ابن جنى : « فمن رواه إذ حكى الحال المتوقعة كقول الله سبحانه : إذ الأغلال فى أعناقهم . ومن رواه إذا فهو كقوله آتيك إذا زيد قائم . وهذا جائز على رأى أبى الحسن ، وذلك أنه يجيز الابتداء بعد إذا الزمانية المشروط بها » .

(٢) قيل هو العجاج . الخزانة (١ : ٢٧٧) .

ما كرّره على وجه التأكيد ، وتفظيعاً للأمر . والمعنى : هلّا جعلونى عُدَّةً لرجُلٍ مثلى فى البأس ، فَقَدَ بعضُهم بعضاً . وقد انتَشَرَ فى الأرض أعداءٌ كثيرة ، وأنواعٌ من الشر فظيعة . والشُّجَاع : الحَيَّة . وَكَنَى بالعَقْرَبِ وبه عَنِ الأَعْدَاء والشَّرِّ . وارتفاع شُجَاعٌ ، يجوز أن يكون على البَدَل ، ويجوز أن يكون على الابتداء ومبثُوثٌ خَبَرٌ له قُدِّم عليه ، ويجوز أن ينصب مبثوث على الحال ، ويُجعل فى الأرض الخَبَرَ(١) . ولم يُثَنَّ مبثوث لأنّ القصد بالشُّجاع والعقرب إلى خيل الأعداء والشرّ ، فكأنهما شيءٌ واحد .

٤ ـ فَلَا تأخُذُوا عَقْلًا من القَوْمِ إنَّنِي أَرَى العَارَ يَبْقَى وَالمَعَاقِلُ تَذْهَبُ

لك أن ترفَعَ المعاقِل على الاستئناف ، ولك أن تحمله على ما قبلهُ فتعطِفَهُ على العار . يقول : لا ترغبوا فى قبول الدِّية فإنه عارٌ ، والعار يبقى أثرُه ، والأموال تفنى . والمعاقِلُ : جمع المَعْقُلَة . والمَعْقُلَةُ والعَقْلُ : الدِّيةُ ، وأصله الإبل كانت تُعْقَلُ بفناء وَلِىّ المقتول ، وهو مصدرٌ وُصِفَ به . وحكى الأصمعىُّ : صار دَمُهُ مَعْقُلَةً على قومه ، أى صاروا يَدُونَهُ .

٥ ـ كَأَنَّكَ لم تُسْبَق من الدَّهْرِ لَيْلَةً إذا أنت أدركتَ الذى كُنْتَ تَطْلُبُ

يقول : مَن أدركَ ما طلبه من الثأر فكأنه لم يُصَبْ ولم يُوتَرْ . وهذا بَعْثٌ وتحضيض على طلب الدّم والزُّهدِ فى الدّية . وفى طريقته قول الآخر(٢) .

كأَنَّ الفتَى لم يَعْرَ يَوْمًا إذا اكْتَسَى ولم يَكُ صُعْلوكاً إذا ما تَمَوَّلَا(٣)

لكنّ هذا بَعْثٌ على طَلَب المال .

(١) ابن جنى : « فمن نصب فإنه وصف نكرة قدم عليها فنصب على الحال منها ، كقولك : * لمية موحشاً طلل قديم *

(٢) هو جابر بن ثعلبة الطائى ، كما فى الكامل ٢٩٩ ليبسك . وفى الحماسية ٩٥ أنه جابر بن الثعلب .

(٣) التبريزى : « ولم يك فى بؤس إذاما تمولا » .

٥١

وقال آخَرُ :

١ — فَلَوْ أَنْ حَيًّا يَقْبَلُ المالَ فِدْيَةً لَسُقْنا لَكُمْ سَيْلاً من المالِ مُفْعَما

انتصب فِدْيةً على الحال من المال ، والمُراد به الإبلُ لا غير ، ونَكَّر قولَهُ « حَيًّا » وهو يقصد به قَصْدَ حَيٍّ بعينه ، لأنّ المراد كان مفهوماً عند من عَرَفَ القصّة ، فجعله كالتّعريض . وقوله « سَيْلاً مُفْعَمًا » والسَّيْلُ يُفْعَمُ به الشيء ، يجوز أن يكون من باب هَمٌّ ناصِبٌ وما أشبَهَهُ ، ويكون المعنى سَيْلاً ذا إفْعامٍ ، ولكنَّ أكثَر ما يجيء معنى النِّسبة فيما كان للفاعل ، كطالِقٍ ومُرْضِعٍ . ومثله قولهم نَخْلَةٌ مُوقِرٌ . ويجوز وهو الأجْوَدُ أن يكون عَبَّر عن الكثرة بقوله مُفْعَمُ كما عُبِّرَ في قولهم شِعْرٌ شاعِرٌ وَمَوْتٌ مَائتٌ عن التّناهي بلفظ فاعل ، وإن كان الموت لا يموت ، والشِّعر لا يشعُرُ ، كما أنّ السَّيْلَ لا يُفعَمُ . وقد قيل امرأةٌ فَعْمَةُ المُخَلْخَلِ ، أي غليظةٌ كثيرةُ اللَّحْم عليه . والمعنى : لو كانت معاملتُنا مع حَيٍّ يَرَى قَبول المال فداءً لأرضيناه بالمال الكثير .

٢ — ولكِنْ أَبَى قومٌ أُصِيبَ أخُوهُمُ رِضَى العَارِ واختاروا على اللَّبَنِ الدَّما

يقول : ولكن امتنع قومٌ أصبْنَا صاحِبَهُم من الرِضا بالدنيَّة ، وآثروا طَلَبَ الدم على قَبُول الدِّيَةِ . وجعل اللَّبَنَ كنايةً عن الإبل تؤدَّى عَقْلاً ، [لأنّه[1]] منها ، وكما نَكَّر حَيًّا في البيت الأول نكَّر أيضاً في الثاني قوله « أَبَى قَوْمٌ » ، والغَرَضُ بهما على حَدٍّ واحد ، ولا يجوز أن يكون « يَقْبَلُ المالَ فِدْيَةً » صِفَةً لقوله حَيًّا ، لأنه يَبقَى أنّ بلا خبر . فأمّا قولُه « أُصِيبَ أخوهم »

(١) التكملة من م .

فهو صِفَةٌ لقوله قَوْمٌ . وقوله « رِضَى العارِ » العارُ فى موْضِع المفعول ، أى أبَوْا أن يَرضَوا العار خُطَّةً لأنفسهم .

٥٢

وقالت كَبْشَةُ أُخْت عَمْرو بن مَعْدِيكَرِب[1] :

١ — أَرْسَلَ عَبْدُ الله إذْ حَانَ يَوْمُهُ إلى قَوْمِهِ لا تَعقلوا لهُم دَمِى

الشعر لـكبشة أخت عبد الله[2] . والـكلام بَعْثٌ وتهييجٌ . وإنما تَكلَّمَتْ به على أنه إخبارٌ عما فعله عبد الله وأقامَهُ من الوَصَاةِ عند الوفاة ، فتقول : راسل عبد الله بن معديكرب لما دنا أجَلُه قومَه وذويه ، بأن لا تَعْقِلوا دَمِى . وغَرَض كَبْشَةَ تحضيضُهم على إدراك الثَّأر ، وتركِ التباطؤ والتّكاسُلِ فيه ، وإن كانت آمنةً من مَيْلهم إلى قَبُول الدِّية ، فغلَّظَت القولَ لتهتاج حمِيّتهم . ويقال عَقَلْتُ فُلاناً ، إذا أعطيتَ ديتَهُ . وجَعَل هذا المفعول الدَّمَ لأنَّ المراد مفهوم ، كأنه قال : لا تأخذوا بَدَلَ دَمِى عَقْلاً . ويقال عَقَلتُ عن فلانٍ ، إذا غَرِمْتَ عنه دِيَةَ جنايتِه أو أَرْشَها .

٢ — ولا تأخذوا مِنهُم إفالاً وأَبْكُرًا وأُتْرَكَ فى بيْتٍ بِصَعْدَةَ مُظْلِمِ

الإِفَالُ : جَمْعٌ وواحدهُ أَفِيل ، وهى صِغارُ الإبِلِ ، والأبْـكُر : جَمع البَكْر ، وهو الفتِىُّ منها . يقول : لاتأخذوا من قَتَلَتِى صِغارَ الإبل وبكارَتَها ، فتتركونى فى قَبرٍ مُظلم بصَعْدَةَ ؛ وهو مكان باليَمَن . وإنما جعَلَ قبرَهُ هكذا ، لأنهم كانوا يزعمون أن المقتول إذا ثأروا به أضاء قبره ، فإنْ أُهْدِرَ دَمُه أوقُبِلَتْ دِيَتُهُ بقى ،

---

(١) سبقت ترجمة أخيها عمرو فى الحماسية ٢٩ . التبريزى : «كبشة اسم مرتجل علماً ، وليس بتأنيث كبش ، لأن ذلك لا مؤنث له من لفظه ، إنما هى نعجة» .

(٢) عبد الله أخو كبشة وأخو عمرو بن معديكرب .

قَبْرُهُ مُظلماً . فإن قيل : لِمَ ذَكَرَ الإِفَالَ والأبْكُرَ وما يؤدَّى في الدِّيات لا يكون منهما ؟ قُلْتَ : أراد تحقير الدِّيات ، وهذا كما يقول الرَّجُلُ إذا أراد تحقير أمْرِ خِلْعَةٍ فازَ بها إنسانٌ : إنما أُعْطِيَ خِرَقًا وفُلُوسًا ! وإنْ كانت الثِّياب المُعْطَاة كِسوةً فاخِرةً ، والمَالُ الموفَّر جائزةً سنيّةً . وانتصَبَ « وأُتْرَكَ » بإضمار أن وهو جَوابُ النَّهْي بالواو .

٣ ـ وَدَعْ عَنْكَ عَمْرًا إنّ عَمْرًا مُسَالِمٌ ... وَهَلْ بَطْنُ عَمْرٍو غيْرُ شِبْرٍ لِمَطْعَمِ

عَمْرو هو أخوها ، وكان يُعَدُّ بألفِ فارس ، ولم يكن ممن يُسالِمُ ولا سيَّما في طلب دمِ أخيه . وإنمَّا رَمَتْه بهذا الكلام لتهيِّج منه وتبعَثَهُ على التعجُّل في دَرَكِ الثأر ، والتسرُّع في الانتقام . وقولُهُ : « وهل بَطْنُ عَمْرٍو غير شبرٍ لمطعم » تزهيدٌ في الدِّيَةِ ، وهذا كما رُوِي في الخبر : « وهل بَطْنُ ابنِ آدَمَ إلا شِبْرٌ في شِبْرٍ » لمَّا أُرِيد تَزْهِيدُهُ في الدنيا وحُطَامِهَا . أى ما يَصْنَعُ بالمال وجوفُه يمتلئُ باليسير . وعمْرٌو لم يكن ممَّن يميل إلى الدِّيَة ، كما لم يكن يميل إلى المسالمة ، ولكنَّ المرادَ ما ذكرناه من التحضيض والحثّ .

٤ ـ فإن أنتُمُ لم تَثأرُوا واتَّدَيْتُمُ ... فَمَشُّوا بآذانِ النَّعامِ المُصَلَّمِ

الصَّلْمُ : قَطع الأُذُن من أصلها ، ومنه الصَّيْلَمَ : الدّاهِية المستأصلة . واتَّديتم ، معناه قَبِلْتُمُ الدِّيَةَ . يقال : ودَيْتُه فاتَّدى ، كما يقال وَهَبْتُهُ فاتَّهَبَ ، أى قَبِل الهِبَـةَ . وفي الحديث : « هَمَمْتُ ألا أتَّهِبَ إلاَّ من قُرَشِيٍّ أو أنصاريّ » ومثله قضَيْتُه الدَّيْنَ فاقتضَاه ، أى قَبِله وتوفَّرَهُ . وقوله : « فَمَشُّوا » أى امشُوا . وضَعَّفَ الفعل للتكثير . ومن روى « فمُشُّوا » بضم الميم فمعناه امسَحوا ؛ ويقالُ لمنديلِ الغَمَرِ : المَشُوشُ . والمعنى : إنْ لم تقتلوا قاتِلي وقبلتم دِيَتي فامْشُوا أذلاءَ بآذانٍ مُجَدَّعةٍ كآذان النَّعامِ . ووصَف النَّعام بالمُصَلَّم تصويرًا لهـا ، وإن كانت

خِلْقَةُ جميعها ذلك . ومن أحاديثهم عن البهائم : « ذهبت النّعامة تطلُب قَرْنَيْن فجُدِّعَت آذانُها[١] » . ومن روى « فمُشُّوا » فالمعنى امسحوا بآذانكم مجدَّعةً مُثْلَةً بكم كآذان النّعام .

٥ ــ ولا تَرِدُوا إلا فُضُولَ نسائِكُمْ إذا ارْتَمَلَتْ أَعْقَابُهُنَّ من الدَّمِ

تَرَمَّلَ وارْتَمَلَ إذا تَلطَّخَ بالدم . قال :

* إنّ بَنِيَّ رَمَّلُونى بالدَّمِ[٢] *

ويجوز أن يكون هذا الكلام دعاء عليهم[٣] ، أى أحلّكم الله محلّ من ذا صفتُه . وعلى هذا يكون قوله « فمَشّوا » من البيت الأول أيضاً[٤] . وإن شئت جَعَلْتَهُ نَهْيًا ، وفمشّوا أمراً . والمعنى : إذا فعلتم ذلك فتأخَّروا فى المواطن كلها والمَناجع ، وتخلّفوا عن المشاهد والموارد ، وألبَسُوا الذُّلَّ راضِينَ به ، فإنّ مآل أمركم[٥] مع تضييعكم دمَ صاحبكم إلى مثل ذلك . وكان عادتُهم إذا وَرَدوا المياه أن يتقدَّم الرِّجالُ ثُمّ العضاريط والرُّعاةُ ، ثم النِّساء ، إذا صَدَرَتْ كلُّ فِرْقةٍ عنه ، فكنَّ يَغْسِلْنَ أنفسهنّ وثيابَهنّ ويتطَّهرن آمِنَات مما يزعجهن غيرَ مستعجلات ، فمَنْ تأخَّرَ عن الماء حتى تَصْدُرَ النِّساء فهو الغاية فى الذُّلِّ . وجَعَلَ النِّساء مُرْتَمِلَاتٍ بِدَمِ الحيض تفظيعاً للشّأن ، وتدنيساً للماء . والأعقاب واحدها عَقِبٌ ، وهو موخر الرِّجْل . يقال : وَلّى على عقبَيه ، إذا انصرف راجعاً عن مطلوبه .

---

(١) انظر الحيوان (٤ : ٣٢٣ ، ٣٩٨) .
(٢) لأبى أخزم الطائى ، كما فى اللسان (رمل) .
(٣) فى الأصل : « عليه » وفى م : « عليكم » ، والوجه ما أثبتنا .
(٤) أى يكون على معنى الدعاء .
(٥) كذا فى م . وفى الأصل : « فإن مآ لكم » .

٣٣

وقال عَنْتَرَةُ بن الأخرس المَعْنِيُّ من طيّئ[١] :

١ ـ أَطِلْ حَمْلَ الشناءةِ لى وبُغْضِي وعِشْ ماشِيتَ فانظرْ من تَضيرُ[٢]

يقال : شَنِئْتُهُ شَناءة وشَنْئًا[٣] وشَنَآنًا[٤] ومَشْنَأَةً ، إذا كان بُغْضًا مختلطًا بعداوةٍ وسوء خُلُقٍ ، كما أنّ الشَّنَفَ اسمٌ لشِدّةِ العداوة . يقول : أَدِمْ احتمال الضَّغائن والبُغْض لى ، وعِشْ مدّة مشيئتك فتأملْ من يضُرُّهُ ذلك . ويقال ضَارَهُ يَضِيرُهُ ، وضَرَّهُ يَضُرُّهُ بمعنًى واحد . وانتصب موضع ماشيت على أنه ظَرْفٌ . و « مَنْ » مفعول تضير ، لأنّه استفهام فلا يَعْمَل فيه ما قبله . أى انظُر تضير مَنْ .

٢ ـ فمَا بِيَدَيكَ خَيْرٌ أَرْتَجِيهِ وَغَيْرُ سدودِكَ الخَطْبُ الكَبيرُ[٥]

بَيَّنَ وجْه استهانَتِهِ به ، وقلّةَ مُبالاتِهِ ببَغضائه وعداوته . فيقول : لا نَفْعَ عِنْدَكَ أعلّق رجائى به ، وغيرُ إعْرَاضِكَ هو الخَطْبُ الكبير ، فأما إعراضُك فأهْوِنْ به وأحْقِرْ بكونه . وأرتجيه ، فى موضع الصِّفة للنَّفع ، أى نَفْعٌ مُرْتَجًى .

٣ ـ أَلَمْ تَرَ أَنَّ شِعْرَكَ سارَ عَنِّى وشِعْرِى حَوْلَ بَيْتِكَ ما يَسِيرُ[٦]

---

(١) ويعرف أيضاً بعنترة بن عكبرة ، وعكبرة اسم أمه . قال الآمدى فى المؤتلف ١٥٢ : « شاعر محسن وفارس » . والعنترة : واحدة العنتر ، وهو الذباب الأزرق ، فهو اسم منقول كما فى المبهج لابن جنى . والمعنى : نسبة إلى معن بن عتود .

(٢) رواية الآمدى : « حبل الشناءة » بالباء . قال التبريزى : « الرواية الجيدة : حمل الشناءة بالميم . ويروى : حبل الشناءة ، بالباء ، وهو استعارة حسنة أيضاً ، جعل للشناءة حبلا » .

(٣) هذه مثلثة الشين . (٤) الشنآن بسكون النون وفتحها .

(٥) وكذا رواية الآمدى . وفى م والتبريزى : « نفع أرتجيه » .

(٦) شعرك ، أى شعرى المقول فيك ؛ وشعرى ، أى شعرك المقول فىّ . والأوفق رواية الآمدى والتبريزى : « إن شعرى سار عنى وشعرك » .

هذا تقريرٌ له فى بيان فَضْله عليه ، وسلامة عِرْضه من قَرْفِهِ إياه . يقول : ألم تَعْلَمْ أن شِعرك الذى قلتَه فىَّ لم يَعْلقْ بى ذَمُّهُ ، لأنّه كان كَذِباً وزُورا ، وشعرى الذى قلتُه فيك يطوف حول دارك وبيتك ولا يفارقُك ، لأنّه كان صِدْقاً . ويجوز أن يكون المعنى : ألم تَرَ أن شِعْرِى الذى قلتُه فيك سَارَ عنّى ، لأنّ الرواة احتملوه استجادَةً له واستلذاذاً ، وشعرك الذى قلتَه فىَّ مُلاَزِمٌ لك لزُهْد الناس فيه لَمّا كان سَفْسَافاً . وساغَ الوجْهان جميعاً لأنّ المصدر يُضَاف إلى المفعول كما يُضَاف إلى الفاعل ، فعلى ذلك جاز أن يقول شعرُكَ ويريدُ شعرى القَول فيك . وروى بعضهم :

ألم تر أنّ شِعرى سارَ عنِّى وشِعرُكَ حوْل بيتك ما يسيرُ

وهذا الراوى(١) صرّح بالتفسير الثانى .

٤ ــ إِذَا أَبْصَرْتَنِى أَعْرَضْتَ عَنِّى كَأَنَّ الشَّمْسَ مِنْ قِبَلِى تَدُورُ

فى طريقته قول أوس :

إذ يَشْزِرُنَ إلىَّ الطَّرْفَ عن عُرُضٍ كأنّ أعيُنَهم من بِغْضَتى عُورُ

يقول : إذا رميتَنى ببصرك لم يمكنك مَلْؤه منّى بُغضاً وعداوة ، حتى تَعْرِضَ عنى فعلَ الناظرِ إلى الشمس ، فكأن الشمس تدور من جهتى . فأما قول الآخَر :

* نَظَرٌ يُزِلُّ مَوَاطِئَ الأَقْدَامِ *

فهو صفةُ نظر المهيب المعظَّم . وفى نَظَر الناظرين على اختلافهم ما يستدلُّ به على أحوالهم ، وستذكر ما يجىء عنه مُبَيَّناً من بَعْدُ .

---

(١) هذا ما فى م . وفى الأصل : « وهذه الرواية » .

(٢) صواب روايته : « نظراً » . وصدر البيت كما فى البيان (١ : ١١) .

* يتقارضون إذا التقوا فى موقف *

٥٤

وقال الأحوص بن محمد[(١)] :

١ ــ إنّى عَلَى ما قَدْ عَلِمْتِ مُحَسَّدٌ أَنْمِي عَلَى البَغْضَاءِ والشَّنَآنِ

عَلِمتِ بمعنى عَرَفتِ ، ولهذا اكتفى بمفعولٍ واحدٍ . ومعنى البيت . إنى مرموقٌ محسودٌ على ما قد عَرَفتِهِ من أحوالى ، زائدٌ كلَّ يومٍ على بغضاءِ الناسِ وشنآنهم لى ، ويكون قوله « على ما قد عَلِمتِ » ، وقوله « على البَغْضَاءِ » جميعا فى موضع الحال . والعامل فى الأوّل قوله مُحَسَّدٌ ، وفى الثانى أَنمِي . ويجوز أن يكون على ما قد عَلِمْتِ من صِلَةِ مُحَسَّدٍ ، كما تقول حَسَدْتُه على كذا . وقال بعضُ الناس : الشنآن : بُغْضٌ يختلط به عداوة وسوء خُلُق ، فلهذا جاز الجمعُ بينه وبين البَغْضاء . وقال غيره : بل هُمَا بمعنى واحد ، واللفظان إذا اختلفا على اتفاقِ معناهما جاز الجمعُ بينهما تأكيداً . واحتجّ بقوله :

* وهِندٌ أَتى من دُونِها النَّأْىُ والبُعْدُ[(٢)] *

قال : ولا خلاف بين أهل اللغة أنه لا فَصْل بينهما .

٢ ــ ما تعتَرِينى من خُطوبِ مُلِمَّةٍ إلاّ تُشَرِّفُنى وتُعْظِمُ شَانِى

أضاف الخطوب إلى مُلِمَّةٍ لأنه أراد بها أوائلَ أمرٍ عظيم ، وجوانب شَرٍّ

---

(١) هذه العبارة ساقطة من الأصل ، وإثباتها من م . وعند التبريزى : وقال الأحوص ابن مد بن عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح الأنصارى » . والأحوص : لقب له ، ومعناه الضيق العين ، واسمه عبد الله . وهو شاعر إسلامى أموى ، من شعراء المدينــة ، وقد نفاه عمر بن عبد العزيز من المدينة لتهم وجهت إليه . الشعر والشعراء ٤٩٩ وابن سلام ١٣٧ — ١٤٠ والأغانى (٤ : ٤٠ — ٥٨) والخزانة (١ : ٢٣١ — ٢٣٤) .

(٢) للحطيئة فى ديوانه ١٩ . وصدره :

* ألا حبذا هند وأرض بها هند *

فظيع . وأصل الخَطْب الطَّلَب ، يقال خَطَبْتُ كذا فأخْطَبَنِى ، كما تقول طَلَبْتُه فأطْلَبَنى ، فكأنه أراد أوائل مُلِمةٍ وأسباباً لها تَطَلُّبُه . ويقال : هذا خَطْبُ أَمْرٍ عظيمٍ ، وهذا خطبُ أمرٍ يسير . فيقول : ما يَطْرُقُ ساحتى أسبابُ نازلةٍ شديدةٍ إلاّ عَظَّمَتْ شأنى ، ورفَعَتْ قَدْرِى ، لأنه يُعْرَفُ بلائى فيها ، وحُسْن مَخْلَصى منها ، فازددْتُ فى عيون الناس وقلوبهم .

٣ ـ فإذا تَزُولُ تَزُولُ عن مُتَخَمِّطٍ تُخْشَى بَوادِرُهُ لَدَى الأقْرانِ(١)

المتخمِّطُ : المُتَغَضِّبُ لَهُ سَوْرَةٌ والتهابٌ ، واستعير فى آذِىّ البحر وأمواجِهِ إذا التجَّتْ . قال :

* خَمِطِ التَّيّارِ يَرْمِى بالقَلَعْ(٢) *

يقول : إذا انكشفت تلك الخُطُوبُ والملِمَّات انكشفت عن رَجُلٍ تمكبّرٍ يُخَاف فلتاتُهُ وَبَدَرَاتُه عند نُظَرائِهِ فى البأس والشِّدَّة . والمعنى : إنَّ الدَّواهىَ إذا نَزَلت بساحتى لا تَلين لها عريكتى ، ولا تُحَصِّل عَلَىّ تَذَلُّلاً لم يكن من قَبْلُ لِى . وقولُه : « تُخْشَى بوادره » فى موضع الصفة للمتخمِّطِ . ولم يَرْضَ حتَّى يَجعل البوادِر مَخْشِيَّةً عند أشباهه ، فكملت الصِّفة ، وتمكَّنت القافية .

٤ ـ إنِّى إذا خَفِىَ الرِّجالُ وَجَدْتَنِى كالشَّمْسِ لا تَخْفَى بكلِّ مَكَانِ

إنِّى إذا خَفِىَ مواقِعُهم من قلوب الرؤساء ، ومواضِعُهم من صدور المجالس فأنا بخلافهم . يصف اشتهارَه فى الأماكن وجلالَته فى النُّفوس ، فيقول : إذا غَشِىَ الرِّجالَ خُمُولُ ألْفَيْتَنِى فى شُهرتى ونباهتى كالشَّمس التى يَتَّصل شُعاعها بكلِّ مكان ، ويُعْرَف شأنُها فى كلِّ نفسٍ وكلِّ زمانٍ .

(١) ابن جنى فى التنبيه : « على الأقران » .
(٢) لسويد بن أبى كاهل اليشكرى فى المفضليات (١ : ٢٠٠) . وصدره :
* ذو عباب زبد آذيه *

٥٥

قال الفَضْلُ بن العَبّاسِ بن عُتْبَةَ بن أبى لَهَبٍ(١) :

١ — مَهْلاً بنى عَمِّنَا مَهْلاً مَوَالينا   لا تَنْبُشُوا بيننا ما كان مَدْفُونَا

المَهْلُ والمَهَل والمُهْلَةُ تتقارب فى أداءِ معنى الرِّفق والسكون . ويقال : لا مَهْلَ لَكَ ، ومالَكَ من مَهْلٍ . قال :

يقولون مَهْلاً يا جَمِيــلُ وإننى   لأُقْسِمُ مَا بى عَنْ بُثَيْنَةَ من مَهْلِ(٢)

يقول : رِفْقًا يا بنى عمِّنا ، رفقا موالينا . وهذا التّـكرار يريد به التأكيد . ويجوز أن يكون هذا الكلام تهكّمًا ، ويجوز أن يكون رآهم ابتدءوا فى أمرٍ لم يأمَنْ مَعَهُ من تفاقُم الشّأن ، واستفحال الخطب ، ما لا يَقْدِرُ على تلافيه ، فاسترفقَهم لذلك . وقولُه : « لا تَنْبُشُوا بيننا » أى لا تُثِيرُوا ما كان مستورًا من الشّر . وذِكر الدَّفْن والنَّبش استعارةٌ فى الإظهار والكتمان .

٢ — لا تَطْمَعُوا أنْ تُهِينُونا وَنُكْرِمَكُمْ   وأنْ نَكُفَّ الأَذَى عنكمْ وتُؤْذُونَا

يقال : طَمِع فلانٌ فى كذا طَمَعًا وطَمَاعِيَةً ومَطْمَعًا . وأوْصَل الفِعْلَ بنفسه من دُون فى ، لأنَّ أَن الخفيفة والشديدة إذا اتَّصل بها حروف الجرّ حَسُنَ حذفُها لطولِ الكلام بها . تقول : أنا راغبٌ فى أن أَلْقَاكَ ، وطَامِعٌ فى أن يُحْسِنَ زَيْدٌ إلَيْكَ ، وحَرِيصٌ على أن أصِلَكَ . ولو قُلْتَ : أنا راغِبٌ أن ألقاكَ ،

---

(١) هو المسمى بالأخضر اللهبى ، لقوله :

وأنا الأخضر من يعــرفنى   أخضر الجلدة من بيت العرب

وهو شاعر خبيث متمكن . معاصر للأحوص والفرزدق ، وكان يميل إلى الوليد بن عبد الملك منقطعاً إليه ، فلما مات الوليد جفاه سليمان وحرمه . الأغانى (١٥ : ٢ — ٩) والمؤتلف ٣٥ والمرزبانى ٣٠٩ واللآلى ٧٠٠ — ٧٠١ .

(٢) الشعر ينطق بنسبة قائله ، وهو جميل .

وطامِعٌ فى أن يُحسن زيدٌ إليك ، وحريصٌ على أن أَصِلَكَ ، ولو قلت : أنا راغب أن ألقاك ، وطامع أن يحسن زيد إليك ، وحريص أن أصلك لجاز . ولو جَعَلْتَ مكان أن المصدر فقلتَ : أنا راغِبٌ فى لقائك ، وطامِعٌ فى إحسانِ زَيْدٍ إليك ، وحَرِيصٌ على صِلَتِكَ ، لم يجُزْ حذف حرف الجرّ . لا تقول : أنا راغب لقاءك ، وطامع إحسانَهُ إليك ، وحريصٌ صلتَك ؛ لأن ما كان يطول الكلام به لم يَحصُل . يقول : لا تُقَدِّروا أنكم إذا أهنتمونا قابلناكم ، بالإكرام ، وأنّكم إذا آذيتمونا كفَفْنا عن أذاكم ، لأنّ عزّتنا تَمْنَعُ من ذلك .

٣ — مَهْلاً بَنِى عَمِّنَا عَنْ نَحْتِ أَثْلَتِنَا سِيرُوا رُوَيْدًا كَمَا كُنْتُمْ تَسِيرونا

هذا الكلام فيه تهكُّم فيقول رِفْقًا يا بنى عَمِّنَا عن ثَلْبِنَا ، والوقوع فينا ، وسيروا على هِينَةٍ(١) ووقارٍ ، وسكينةٍ وانخفاض ، على عادتكم المتقدِّمة ، وسنّتِكُم المعهودة ، ودَعُوا ما استأنفتموه من الأخلاَق المنكَرة ، والسِّيَر الذميمة . والأَثْلَة : شجرةٌ تُجْعَلُ مَثلاً لِلعِرض ، فيقال : فُلاَنٌ يَنْحَتُ أَثْلَة فلانٍ ، إذا ذَمَّهُ وتَنَقَّصه . وقوله « سيروا رُوَيْدًا » أراد سِيرُ واسَيْراً تُرْوِدُون فيه ، أى تَرْفُقُونَ فيه وتَسْكُنُون . « كما كنتم تَسِيرُونا » أى ارجِعوا إلى مثل سيرتكم الأولى ، وإلى طريقتكم المُثْلَى ، واتركوا ما ابتدعتموه ، فإنّا لا نحتمله ولا نُصَابِرُكم عليه . وروى بعضهم بَدَلاً من المِصْرَاع الثانى :

* مَهْلاً بنى عَمِّنَا مَهْلاً موالينا *

ويُحمل التكرار فيه على أنه تَوَعُّد وتأكيد .

٤ — اللهُ يعْلَم أَنَّا لا نُحِبُّكمُ ولا نَلُومُكُمُ أَلاَّ تُحِبُّونا

استَشْهَدَ ربّه فى انتفاء الحبّ عن قلوبهم ، وذكر أنّهم لا يلومونهم إذا

(١) م : « هيبة » .

لم يحبّوهم . كأن المعنى أنّ القلوبَ مَجْبُولَةٌ على حُبِّ المُحْسِنِ وبُغْض المُسىء ، فإذا ارتفَعَ التّعامُل بالإحسان ممـا بينهم ، وحَدَثَ التجاذُب بالإساءة فيهم ، فالتَّحابُّ لا محالة ساقطٌ ، والتباغُض حاصِل .

٥ — كلٌّ لَهُ نِيَّةٌ فى بُغْضِ صَاحِبِهِ بِنِعْمَةِ اللهِ نَقْلِيكُمْ وتَقْلُونَا

يقول : كلٌّ واحدٍ منا ومنكم من قبلُ وإلى الآنَ له نيّةٌ صادقة لصاحبه فى العداوة والبغضاء ، وعقيدةٌ خالصة فى القطيعة والجفاء ، فبحمد اللهِ ومَنِّه وجزيل مِنَحِه قد استمرّ أمْرُنا على أنّا نبغضكم وتبغضوننا . وقوله « بنعمة الله » هو كما جاء فى القرآن : ﴿ ما أنْتَ بِنعمةِ رَبِّكَ بمَجْنُونٍ ﴾ . وقوله « نقليكم وتقلونا » إشارةٌ إلى الحال . وحَذَفَ المفعول من الثانى لأنَّ فى الـكلام ما يدُلّ عليه . ويجوز أن يكون أراد وتقلونَنَا فحَذَفَ الثَّانيةَ عن الإعراب ، وهى لغة حجازية . ومثله :

* قَدْ رُفِعَ الفَخُّ فماذا تَحْذَرِى[1] *

يريد تحذرين ، وعلى هذا قولُ الآخر :

* إلَى من بالحَنِينِ تُشَوِّقِينِى *

وهذا يؤيِّد مذهب سيبويه فى تجويزه للشاعر حذف حركة الإعراب عند الضرورة .

---

(١) نسب فى حياة الحيوان للدميرى إلى طرفة بن العبد . وقبله :

يالك من قبرة بمعمـر خلا لك الجو فبيضى واصفرى

ونقرى ما شئت أن تنقرى

٥٦

وقالَ الطِّرِمّاحُ بن حَكِيم الطائيُّ[1] :

١ — لَقَدْ زَادَنِى حُبًّا لِنَفْسِى أَنَّنِى ... بَغِيضٌ إلى كلِّ امرئٍ غيرِ طَائِلِ

قوله «أننى بغيض» فى موضع الفاعل، والمعنى: زادنى بَغَاضتى إلى كل رجلٍ لا فَضْلَ فيه ولا خَيْرَ عنده، حُبًّا لنفسى، لأنَّ التمايزَ بينى وبينه والتباينَ، هو الذى أدّاه إلى بُغضى، ولو كان بيننا تشاكلٌ وتقاربٌ لمَا نبَا عنّى ولا أَبغضَنى. وهذا الكلام تعريضٌ بمنابذٍ له. وقوله « غير طائل » هو من طال عليهم يطول طَوْلاً. والطَّوْل: الفَضْل. وقال الخليل: يقال للشّىء الدُّونِ الخسيس: هذا غير طائل، والمذكَّر والمؤنَّث فيه سواء. ويقال: زِدتُ فضلاً كما يقال ازددتُ فضلا وزادنيه كذا.

٢ — وأنِّى شَقِىٌّ باللِّئامِ ولا تَرَى ... شَقِيًّا بهم إلّا كريمَ الشمائِلِ

قولُه « وأنى شقىٌّ » أصله أنّنى، لكنّه حذَف النون الأولى من أنّ تخفيفاً لأنّه اجتمع ثلاث نونات. وهو محمول فى الإعراب على أننى فى البيت الأول ومعطوف عليه، فيقول: وزادنى حُبًّا لنفسى أيضاً شِقْوَتى باللِّئام حتى تَنَقَّصونى واغتابونى، ثم قطع الإخبار وكأنّه أقبل على مُخاطَبٍ ملتفتاً إليه فقال: ولا تَرَى أحداً يشقَى بهم إلّا وهو كريم الطبائع، مجانِبٌ لهم بعِرضه وأصلِه، وخُلُقِه وفعلِه.

---

(١) هو الطرماح بن حكيم بن نفر بن قيس بن جحدر، شاعر خطيب، وكان يعد فى المعلمين، وهو من فحول الشعراء الإسلاميين وفصحائهم، ومنشؤه بالشام، وانتقل إلى الكوفة بعد ذلك، وكان صديقا للكميت على ما كان بينهما من تباعد فى النسب والبلاد، وكان يمدح خالد ابن عبد الله القسرى. الأغانى (١٠ : ١٤٨ — ١٥٣) والمؤتلف ١٤٨ والعينى (٢ : ٢٧٦ — ٢٧٨) والشعر والشعراء ٥٦٦.

ويقال شَقِيتُ شِقْوَةً [وشَقَاوةً][1] وشَقَاء . والشمائل : الطَّبائع ، واحدها شِمَالٌ . قال :

* أَلُومُ وما لَوْمِى أخى من شِمَالِيَا *

ثم يقال : هو حسَن الشَّمائل ، والمراد به الهَيْئه والشَّكل .

٣ ـ إذَا مارآنى قَطَّعَ الطَّرْفَ بينه وبينَى فِعْلَ العارف المتجاهِلِ

رجع إلى اقتصاص[2] الحال بينه وبين من عَرَّض به فيقول : إذا أبصرنى المُبَاغِضُ لى ارتدَّ طَرْفُه عنِّى ، وقطَّع نَظَره إلىَّ ، فِعْلَ مَن يَعْرِف الشَّىء ويتكلَّف جهلَهُ . وقوله « قَطَعَ الطرْفَ بينه » ، الطَّرْفُ : مصدر طَرَفْتُه ، إذا أبصرتَه . وعلى هذا قوله :

* تَحْسَبُ الطَّرْفَ عليها نَجْدَةً[3] *

وقد يراد بالطَّرف العين أيضاً فيكون اسما للجارحة والحَدَث جميعا . وانتصب « فعلَ العارف » على المصدر مما دَلّ عليه قَطَّع الطَّرفَ بينه وبينى . والمتجاهِل : متكلِّف الجهل . وعلى هذا : تعامَى ، وتعارَجَ ، وتخازر . وفى طريقته لفظاً ومعنًى قولُ الآخر :

* تَشَاوَسْ يزيدُ إنَّنى مَن تأمَّلُ *

٤ ـ مَلَأْتُ عَليه الأرضَ حتَّى كأَنها من الضِّيقِ فى عَينيهِ كِفَّةُ حابِلِ

يقال : ملأْتُ عليه الأرضَ ، إذا ضيَّقتَها عليه . وملأْت منه الأرض ، إذا نمَّت وقعدتَ بذكره . والحابل: ناصِبُ الحِبالة . ويقال حَبَلْتَ الصَّيْدَ واحتَبَلْتُهُ ، إذا أخذتَه ؛ وتوسعوا فيه فقالوا : احْتَبَلَهُ الموتُ بحبائله . والكِفَّةُ ، يجوز أن يريدَ

(١) هذه من م .

(٢) فى نسخة الأصل : « اختصاص » ، صوابه فى م .

(٣) فى الأصل : « علينا » صوابه فى م . وهو لطرفة فى ديوانه ٦٤ . وعجزه :

* يا لقومى للشاب المسبكر *

به الحفيرة التي ينصِبُ الحابلُ فيها الحِبالة . ويجوز أن يُرِيدَ بها قُتْرَتَهُ ، ويجوز أن يريد بها عَين الحِبالةِ ، لأنَّها تُجعل كالطَّوْق . وهذا أقرب لأنّ الخليل فسَّر الـكِفَّةَ على ذلك . وجاز إضافتها إلى الحابل كما يجوز إضافةُ نفْسِ الحِبالةِ إليه ، والمعنى : ضَيَّقتُ عليه الأرضَ على اتّساعِها ، لشدَّة بغضِه لى ، أى حتّى كأنّها برُحْبِها فى عينيه كِفّةُ حابلٍ إذا اجتمع فيها مَعِى . وهذا يشير به إلى تضادِّ الطَّبْعَيْن ، وتبايُن الخُلُقَيْن ، وأنَّه لو أمكنَه لا نتفى وجودُه فى الأرض انتفاء الضدّ للضدّ ، قلةَ موافقةٍ وكثرة مُخالفَة .

٥٧

وقال بَعْضُ بنى فَقْعَسٍ(١) :

١ – وذَوِى ضِبَابٍ مُظْهِرِينَ عَدَاوَةً قَرْحَى القُلوبِ معاوِدِى الإِفْنادِ

يقول : رُبَّ قوم ٍ ذَوِى أحقادٍ وضغائن ، مجاهِرِين بعداوتى ، مراجِعين حالاً بعد حالٍ قولَ الفُحْش فىَّ ، مُتَقَرِّحِى الأفئدة لشدّة الحسد والبُغْضِ لى ، فعَلْتُ بهم كذا . وجواب رُبَّ فيما بعد . وذَكَر قَرَحَ القَلْبِ مَثَلاً فى العَداوة ، كما يُذكر مرضُه مثلاً فى النِّفاق . على ذلك قول الله تعالى : ﴿ فى قلوبهم مَرَضٌ فزَادهم الله مَرَضاً ﴾ . فأما ذكر الصَّعَر والشَّوَس فهو من هذا الباب ، لـكنَّه تصوير حال المباغِض أو المتكبِّر فى نظره ، أو إقباله أو التفاته ، وكذلك ما يشبهه . وقوله « معاودى الإفناد » الإفناد بكسر الهمزة : مصدر أفنَدَ الرجل ، إذا أتى بالفَنَد . وإذا رُوِى « الأَفناد » بفتح الهمزة فهو جمع الفَنَدِ ، وهو الفُحْشُ والخطأ فى

---

(١) التبريزى : قال أبو محمد الأعرابى : الصواب أنه لمرداس بن جشيش ، أخى بنى سعد ابن ثعلبة بن دودان بن أسد بن خزيمة .

الرأى . ويقال فى اللَّوْم : فَنَّدْتُه ، لأنّه يجمع تخطئة الرأى وذِكْرَ القبيح . والضِّباب : جمع الضَّبّ ، وهو الحِقْد . قال :

* يا رُبَّ ذِى ضِغنٍ وضَبٍّ فارِضِ[1] *

ويقال : فلان خَبٌّ ضَبٌّ ، إذا كان مُنكراً فى المعاداة .

٢ ــ ناسَيْتُهُمْ بَغْضاءَهُمْ وتركْتُهُمْ ... وهُمُ إذا ذُكِرَ الصَّدِيقُ أَعادِ

يقول : رُبَّ قَوْمٍ هكذا أنا نَسِيتُ بُغْضَهم لى حتَّى نَسُوا أيضا ــ لأنَّ المُناساة تكون من اثنين فصاعِداً ــ وتركتُهم وهم من جملة الأعداء ، إذا مُيِّزَتْ بالذِّكر الأصدقاء . وقوله « الصديق » أراد به الجنس .

٣ ــ كَيْما أُعِدَّهُمُ لِأَبْعَدَ مِنْهُمُ ... وَلَقَدْ يُجاءُ إلى ذَوِى الأَحْقادِ

يقول : لم أُكاشِفْهُمْ ، ولا أظهرتُ لهم عِلْمِى بعداوتهم ، بل استمررت فى مداجاتهم ومساترتهم ، وعركت بجَنْبِى ما بَدَرَ من هَفَواتهم ، طَلَباً لأنْ أُعِدَّهُمْ لمن هو أَبْعَدُ شأْوًا فى العداوة[2] ، أو أشدُّ تأخُّراً فى الالتحام والقَرابة . ثم قال : ولقد يُضطَرُّ الإنسان إلى نُصْرَةِ بنى الأعمام وإن كانوا مُنْطَوِين على ضغائن ، فإذا قاتَلَ ببعضِهم بَعْضًا لاءَمَهُ ذلك ووافقه ، وحصلت الدَّبْرة[3] على من حَصَل ، إذْ كان فيه تفانيهم ، واشتفاء الصُّدُور منهم . وهذا كما قيل لبعض حكماء العَرَب ما تقولُ فى ابن العم ؟ قال : عدوُّك وعدوّ عدوك .

(١) انظر الحيوان (٦ : ٦٦) ومجالس ثعلب ٣٦٤ واللسان (فرض) .

(٢) التبريزى عن أبى محمد الأعرابى أن الصواب : لأبعد قرابة منهم . قال : وهو مثل قول حضرمى بن عامر :

ولقد طويتكم على بللاتكم ... وعلمت ما فيكم من الأذراب

كيما أعدكم لأبعد منكم ... ولقد يجاء إلى ذوى الأنساب

(٣) الدبرة ، بالفتح : الظفر والنصرة ، كما اللسان (٥ : ٣٥٣) .

٥٨

وَقالَ يَزِيدُ بن الحَكَمِ [(١)] :

١ — دَفَعْناكُمُ بالقَوْلِ حَتَّى بَطِرْتُمُ وبالرَّاحِ حَتَّى كانَ دَفْعُ الأَصابِعِ

يقول : دَرَّجناكم في استبقائكم [(٢)] ورتَّبْنا القول والفِعْل في استفاءتكم وإصلاحكم ، فوعَظناكم أوّلا باللّسان وضرب الأمثال في الجِدال ، حتى أبطرَكم ذلك وزادكم إغراءً ، فارتقينا من القَول إلى الدَّفع بالرّاح ، وتقبيح ما تأتونه بأحسن المَسّ ، فلما لم يُغْنِ شيءٌ من ذلك عَدَلْنا منه إلى الدفع بالأصابع ، وما بينَ هذه المنازلِ من التفاوُت في الخشونة واللِّيان معلومٌ عند ذوي الألباب . ومَرّ بي فيما قرأتُه من مجاوبات قُرَيْش ، أن بعضهم قال لآخر منهم مستضعِفاً لما أوردَهُ عليه : هذا دَفْعٌ بالرّاح ! فقال مجيبا : كلاّ إنّ معها الأصابع ! وقوله « حتى كان دَفْع الأصابع » انتصب دَفْع على أنه خبر كان ، واسمه مُضْمَر كأنه قال : حتى كان الدفعُ دفعَ الأصابع . ولك أن ترفعه على أن يكون اسمه ، وتضمر الخبر ، كأنه قال : حتى كان دفعُ الأصابع دَفْعَنا ، أو على أن يكون كان بمعنى حَدَث ، فتكتفي بالفاعل ، وهي التي تُسمَّى كان التامَّة .

٢ — فلمّا رَأَيْنا جَهْلَكُمْ غَيْرَ مُنْتَهٍ وماغابَ مِنْ أَحْلامِكُمْ غيرراجِعِ

يقول : ولمّا وجدناكم لا تَرعَوُون لمواعظكم ونُذُركم ، ولا يعاودكم ما عَزَبَ من بصائركم وعقولكم ، ولا يقف الجهلُ بكم على غايةٍ لا متجاوَزَ وراءها ، ولا يُغني ما استفرغْنا فيه الوُسْع من رَدِّكم وزجرِكم ، رَاجَعْنا أنفسَنا

---

(١) التبريزي : « يزيد بن الحكم الكلابي » . وهذا غير يزيد بن الحكم الثقفي ، المترجم في الأغاني (١١ : ٩٦ — ١٠٠) والخزانة (١ : ٥٤ — ٥٦) .

(٢) م : « درجنا في استصلاحكم » .

مُنْكِرِين ومتعجِّبين ، وأقبلنا نُباحِثُ عن أُصولنا وفروعنا مُعتزِين[١] ، لنقفَ على ما وَطَّأ لكم مراكِبَ العُقوق ، وحسَّنَ فى آرائكم تخطِّىَ موانع الحقوق ، إلى نَكْث قُوَى العُهود .

٣ — مَسِسْنَا من الآباء شَيْئًا وَكُلُّنَا   إِلَى حَسَبٍ فى قَوْمِهِ غَيْرِ واضِعِ

قوله « مَسِسْنا » يجوز أن يكون بمعنى أَصَبْنا واختَبَرْنا ، لأن المَسّ باليد قد يُقصَدُ به الاختبار ، ويجوز أن يكون بمعنى طلبْنا . وقد قال بعضُ الناس فى قول الله تعالى : ﴿ لا يَمَسُّه إلاّ المُطَهَّرُون ﴾ : إنّ المعنى لا يطلُبه . قال : واللَّمْس كالمسّ فى أنه يوضع فى معنى الطَّلَب . قال : وعلى هذا يُحمَل قولُ الله جلّ ثناؤه : ﴿ وَإِنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا[٢] ﴾ . فمِن الأوّل قولُهم : مَسَّهُ الكِبَرُ ، وأفضى الرّجل إلى امرأته إفضاءً مَسِيسٍ . ومن الثانى مَسَاسُ الحاجة . فأما قولهم : به مَسٌّ من جنون ، فيصحُّ أن يكون من الأوّل ومن الثانى جميعاً . وهذا كما يُقالُ : به لَمَمٌ من جُنُونٍ ، وأصلُه من اللَّمّ وهو الجَمْع أو الإلمام . وقوله « وكلُّنا إلى حَسَبٍ » أى يَنتَمِى وننتمى[٣] . فـ « إلى » تعلَّق بهذا وما أشبَهه من المُضمَرات . وهذا كما يقال : أنا منك وإليك . وقوله « كلُّنا » أى كلُّ واحدٍ منَّا ، يعنى أهلَ بيتهم . ألاَ ترَى أنه قال « إلى حَسَبٍ فى قومه » . ومعنى البيت : لمّا اشتدَّ لَجَاجُهم وطال تمادِيهِم ، وصاروا لا يَنزلون عن مراكِبِ البَغْى ، ولا يَرْجِعونَ عن الذّهاب فى طُرُق الفساد ،

---

(١) م : « معتبرين » .

(٢) وإنا ، وردت بكسر الهمزة فى النسختين . وقد اختلف القراء فى كسر همزة إن وفتحها فى اثنى عشر موضعاً من هذه السورة ، وهى سورة الجن ، فقرأ بعضهم بالكسر فى جميعها ، وبعضهم بالفتح فى جميعها ، وبعضهم بالكسر فى بعضها والفتح فى بعضها الآخر . إتحاف فضلاء البشر .

(٣) م : « أى ننتمى وننتهى » .

نَظَرْنا : أىُّ عِرْقٍ يقتضى مُنْكَرَ الخلاف معنا ، وما الذى يوجب التدابُرَ من الأنساب والأسباب بيننا ، فلمَسْنا أطرافَ أبُوّتنا ، واستشفَفْنا جوانبها ، ووجدنا كلاًّ منّا ينتمى إلى حَسَبٍ يرفعُهُ ولا يضَعُه . ويقال : وضَعْتُه ، إذا حَطَطْتَ منه . وَوضُع الرجُلُ ، وهو وضيعٌ بيّن الضِّعة والضَّعَة . والتوضيعُ : التأنُّث والانكسار من هذا . ويقال : دابّةٌ حَسَنةُ الموضوع ، وضِدُّه المرفوع . وبعيرٌ عارِفُ المُوَضَّعِ ، أى ذَلُولٌ عند الرُّكوب .

٤ — فَلَمَا بَلَغْنَا الأُمّهَاتِ وَجَدْتُمُ بَنِي عَمِّكُمْ كانوا كِرَامَ المَضَاجِعِ

جَعَل المضاجِعَ كنايةً عن الأزواج . وهذا كما يُكْنَى عنهنّ بالمفارش . قال :

سُجَراءُ نَفْسِى غيرِ جمعِ أُشَابَةٍ حُشُدٍ ولا هُلُكِ المفارِشِ عُذَّلِ

يعنى أنّ أمهاتِهم عفائف . فيقول : لما تقصَّينا بالبحث والكشف أنسابَ آبائنا ، وعلائق[1] وُصَلِها فلم نجد فيها مَغْمَزًا ، ولا إلى ما ذَممْنا من أخلاقِكم منها داعيًا ، عَدَلْنا إلى النظر فى أنساب أمهاتنا ، والتوصُّل إلى مكنون وشائجها ، ومجهول مواصلها ، فألفيتم أبناءَ عمِّكم كانوا كرامَ الفُرُش . وهذا من أحسن المعاريض ، لأن المراد : كانت أُمهاتُنا أشرفَ من أمهاتكم ، فعلمنا أن ماخالفتمونا فيه ، وصرتم على حَرْفِ مباينةٍ لنا من أجْلِه ، شىءٌ يرجع إليهنّ . وإنما قال « وجدتم » ليكون كالتقرير لهم ، ويصيرَ ما ادُّعىَ من الفَضْل عليهم باتّفاقٍ منهم . وذكر بعضُهم أنه كان يجب أن يقول : وجدتمونا ، فوضع بنى عمكم مكان « نا » ، وهو أخصُّ من بنى عمكم ، بدلالة أن ما يكون للنفس أخصُّ مما يكون للغائب ، وإذا كان كذلك فقد وضع الأدْوَنَ موضعَ الأخص .

(١) م : « وعلق » .

وليس الأمر على ما قال، لأن الرَّجُلَ إنما يريد بنى عمِّكم الآباءَ ، وقد قدَّمَ ذكرَهم فى قوله « مسِنْنامن الآباء » . ألا ترى أنه قال : كانوا كِرامَ المضاجع . وإذا كان الأمرُ على هذا ، كان الواجب عليه أن يقول : وجدتم آباءنا كانوا ، لا وجدتمونا .

٥٩

وقال جَابِرُ بن رَالَانَ(١) :

١ — لَعَمْرُكَ مَا أَخْزَى إذا ما نَسَبْتَنِي ... إذَا لم تَقُلْ بُطْلاً عَلَيَّ ومَيْنَا

لَعَمْرُكَ مبتدأ ، وخَبَره محذوف، فكأنه قال لَعَمْرُكَ ما أقسِمُ به ، ولا يُستعمل فى اليمين إلا بفتح العين ، وإن كان ضَمُّها لغةً فيه . و « أخْزَى » يجوز أن يكون من الخِزْى : الهَوَان ، ويجوز أن يكون من الخَزَاية : الاستحياء . والبُطْل يُراد به الباطِلُ . والمَيْنُ : الكَذِبُ ، وقَدْ مَانَ ، وهو مَائنٌ ومَيُونٌ . والمعنى : وبقائك ما أستحيى أو ما أهُونُ ولا أذِلُّ متى ما ذَكرتَ أسلافى وآبائى ولم تقلْ باطلا ، ولم تَدَّعِ علىَّ زُوراً . وقوله « إذا ما نسبْتَنِي » ظَرْفٌ لقوله ما أخْزَى . و « إذا لم تَقُلْ » يجوز أن يكون بدلاً منه . ولولا أنه كرّر « إذا » لكان الكلام ما أخْزَى إذا ما نسبتنى ولم تقلْ بُطْلاً ومَيْناً . ولا يجوز أن يكون العاملُ فى إذا « ما نسبْتَنى » لأن ذا قد أُضيف إليه وبُيِّن به ، والمضاف إليه لا يُعمل فى المضاف . ويجوز أن يكون إذا الأولى بما اتَّصل به وماعمِلَ فيه الجملةُ فى جواب إذا الثانية ، كأنّه قال : إذا لم تَقُلْ بُطْلاً فلعَمْرُكَ ما أخْزَى إذا ما نَسَبْتَنِي . وانتصب « بُطْلاً » على أنّه

---

(١) التبريزى : « جابر بن رالان السبنسى » . ثم قال : « من همز رألان فهو فعلان من لفظ الرأل ، ومن لم يهمزه احتمل أمرين : أحدهما أن يكون تخفيف رألان ، كقولك فى تخفيف رأس راس ، والآخر أن يكون فعلان من رولت الخبز فى السمن ونحوه ، إذا أشبعته منه » .

مفعول لم تقل ، لأن القول يُحكى بعده الجمل فيعمل فى مواضعها لا فى لفظها ، ويقع المُفردُ بعده — إذا كان معنى الجملة — منصوبا به .

٢ــ ولكنّما يَخزَى امْرُؤٌ يَكْلِمُ اسْتَهُ قَنا قَوْمِهِ إذا الرِّماحُ هَوَيْنا(١)

هذا تعريض بالمخاطَبِ ، يقول : أنا لا أُخْزَى إذا ذُكِرَ مَسْعَاةُ آبائى على حَدِّهَا وحَقِّهَا ، إنّما يَخْزَى لذلك رَجلٌ هذا صفته ونَعْتُه ، وهو أنّه يَجرح استَه ، لكونه مولّيًا ومنهزماً ، رماحُ قومه إذا شُرِعَتْ للطَّعْن . وإنما قال « قَنَا قَوْمِهِ » لأنه أشار فى تعريضه إلى حالةٍ اتّفقت للمُخاطَب مع أبناء عمِّه . وكلُّ جرحٍ صَغُر أو كَبُر فهو كَلْم .

٣ــ فإن تُبْغضُونا بِغْضَةً فى صدورِكم فإنّا جَدَعْنا مِنْكُمُ وَشَرَيْنا

قوله « فى صدوركم » بما تَعلّق به فى موضِع الصفة للبِغْضَة . والمعنى : إن انطَوَتْ صدورُكم لنا على بِغْضَةٍ راسخةٍ فيها ، متمكِّنةٍ منها فغيرُ مستنكَرٍ عندنا ولا مُسْتَطْرَف من أحوالنا ، لأنّ ما ارتكبْناه فيكم من جَدْعِ الأنوف وبيع النُّفوس بإذلالنا إيّاكُم ، وبما أخذناه فى فدائكم ، يوجب البغضاء ، ويقتَضِى الشَّنآن .

٤ــ ونَحْنُ غَلَبْنَا بالجبال وعِزِّها ونَحْنُ وَرِثْنَا غَيِّثًا وبُدَيْنَا

يعنى بالجبال أجَأ وسَلْمَى وهضابَهما ، ولذلك جمع . وقوله « وعِزّها » أراد وعزّ أربابها وسكّانها . ويجوز أن يريد العزّ الذى يحصل لهم عند التحصُّن بها . وطَيِّئ أبداً تفتخر بذلك ، لأنّهم إذا اعتصموا بها لم تتوصَّل الأعداء إليهم فيها . وغَيِّثٌ وبُدَيْنٌ : قبيلتان(٢) . يريد : وَرِثْنَا أحسابَهم ومفاخِرَهُم . وغيِّث :

(١) التبريزى : « تكلم استه » .

(٢) التبريزى : « وغيث وبدين : اسما رجلين من طيئ » .

فَيْعِلٌ من الغَوْثِ ، وفى بُطون طَيِّئٍ بطنٌ يقال لهم الغَوْثُ ، ومنهم أبو زُبَيْدٍ الطائىّ .

٥ — وأَىُّ ثَنَايَا المَجْدِ لَمْ نَطَّلِعْ لَهَا وأَنْتُم غِضَابٌ تَحْرُقُونَ عَلَيْنَا

الاستفهام هنا يجرى مَجرَى النَّفى ، كأنه قال : ما ثَنِيّةٌ من ثنايا المجد إلّا طَلَعْنَا لها . والثنيّ : فعيلة من ثَنَيْتُ ، أى عَطَفْتُ وصَرَفْتُ ، وكما اسْتُعْمِلَتْ فى الجبال استُعْمِلتْ فى الأمورِ والخُطَّات[1] . قال :

وثَنِيَّةٍ من أَمْرِ قَوْمٍ وَعْرَةٍ فَرَجَتْ يَدَاى فكان فيها المَطْلَعُ

فلذلك ذكرها هنا مثلا ، والمعنى : إنَّ مَطَالِعَ الشَّرف على توعُّرِها أو تَسَهُّلِها ارتقَيْنَا إليها ، وأنتم تتهدَّدوننا فى غضبِكم ، والحَرْق : حَرْقُ أحد النابين بالآخر . وقد حَرَقَ نابه يحرِقُ ويَحْرُقُ ، حَرْقًا وحُرُوقًا[2] ، من الغَيْظِ . وذكر الخليل : حَرِيق النَّاب كصريف الناب . و « فلان يَحْرُقُ عَلَىَّ الأُرَّم » ويروى « الأُرَّم » . والأَرْم : الأكل ، والأَزْم : العضّ ، وهما جميعاً بالأسنان ، والمعنى يَحْرُق عَلَىَّ أسنانَه . والمتوعِّدُ يفعل ذلك يُظهر به شدّةَ الغيظ . واكتفى بقوله « يحرُقون » عن ذكر المفعول ، لأنَّ المراد مفهوم . ويقال : اطَّلَع عليه وله ، إذا أشْرَفَ . والمعنى إنّا رددنا على حَسَدِكم لنا ، وتغيُّظكم فينا ، قوّة وشرفًا ، وعِزةً وكَرمًا ، حتَّى لم تُبقِ غايةً من المَجْدِ إلاّ ارتقينا إليها وعَلَوْناها .

---

(١) الخطاطات : جمع خطة ، وهذا ما فى م . وفى الأصل : « والخطاب » .
(٢) حرق ، هذه لازمة ومتعدية ، يقال حرق ناب البعير ، وحرق البعير نابه أيضا .

٦٠

وقال سَبْرَةُ بن عَمْرٍو الفَقْعسِى(١)

وعيّره ضَمْرةُ بن ضمرةَ النَّهشلىُّ كثرةَ إبله .

١ ـ أَتَنْسى دِفاعِى عَنْكَ إذْ أَنْتَ مُسْلَمٌ ... وَقَدْ سَالَ من ذُلٍّ عَلَيْكَ قَرَاقِرُ(٢)

لفظُه لفظ الاستفهام ، والمعنى معنى الإنكار . أى لِمَ تَنْسَى مُدافَعتى عنك حين كنتَ مخذولاً لا ناصِرَ معك ، وقد امتدَّ سيل الذلِّ نحوك فسأل عليك . فإذْ ظَرْفٌ لدِفاعى . وقُراقِر : اسمُ وادٍ ، ويكون ذكره مثلاً . ومن كلامهم : « سال عليه الذُّلُّ ، كما يسيل السَّيل » . ولا يمتنع أن يكون لحقه ما لحقَه من الذلّ من ناحية قراقِر ، فلذلك خَصَّهُ . وقولُه « إذ أنتَ مُسْلَمٌ » يقال أَسْلَمْتُهُ وسَلَّمْتُهُ ، إذا خَلَّيْتَ بينه وبين مَن يريد النِّكاية فيه . وأَسلَمْتُ الصبىَّ فى حِرْفةٍ ، إذا أَرْسَلْتَهُ فيها . وقوله « وقد سال » فى موضع الحال ، أى أَسلمْتَ وحال ذلك .

٢ ـ ونِسْوَتُكُمْ فى الرَّوْعِ بادٍ وجُوهُها ... يُخَلْنَ إماءً والإماءُ حَرَائِرُ

قولُه «ونسوتكم» مع خبَره جملةٌ انعطفت على قوله « وقد سال من ذُلٍّ »

---

(١) التبريزى : « ذكر أبو عبيدة أن سبرة بن عمرو قال هذه الأبيات فى منافرة عباد ابن أنف الكلب ومعبد بن نضلة بن الأشتر الفقعسى . . . تنافرا إلى ضمرة بن ضمرة بن جابر بن قطعن بن نهشل بن دارم ، وبينهما مائة من الإبل خطر ، فقال عباد لضمرة : لك مائة من الإبل ، وتنفرنى على معبد . ففعل ، فهو أول من ارتشى من حكام الجاهلية » . وقد روى ياقوت الأبيات (فى قراقر) .

(٢) ذكر التبريزى عن أبى محمد الأعرابى أن الصواب : « وقد سال من نصر عليك قراقر » ، قال : يعنى نصر بن قعين بن الحارث بن ثعلبة بن دودان بن أسد بن خزيمة. يقول : دافعتهم عنك حين سال الوادى بهم عليك .

وهذا وصفُ الحال التى مُنِىَ بها حين نَصَرَه مخاطِبُه . والمراد : ونساؤكم تَشَبَّهْن بالإماء ، مخافةَ السِّبَاء ، حتى تبرَّجْنَ وبرزْن مكشوفاتٍ ناسياتٍ للحياء وإن كنّ حرائر . وإنما قال هذا لأنهم كانوا يَقْصِدون بسَبْى من يَسْبُون من النساء إلحاقَ العار ، لا اغتنامَ الفداء والمال ، ولما كان الأمرُ على هذا فالْحُرّة كانت فى مثل ذلك الوقتِ تتشبّه بالأَمَةِ ، لكى يُزْهَدُ فى سَبْيِها . ومعنى و « الإماء حرائر » : واللائى يُحْسَبْن إماءً حَرائرُ . ولو قال يُخَلْن إماءً وهنّ حرائر لكان مأخذُ الكلام أقربَ ، لكنّه عدل إلى « والإماء حرائر » ، ليكون الذِّكر به أفخم ، والاقتصاص(١) أشنع وأعظم . وقال « بادٍ وجوهها » لتقدُّم الفعل ، وأنّ تأنيث الوجوه غير حقيقى ، ولو قال بادِيَةٌ وجوهُها لجاز . وفى هذه الطريقة قول الآخر :

وَخِمارِ غانيةٍ عَقَدْتُ برأسها أُصُلًا وكان مُنَشَّرًا بشمالها

٣ ــ أَعَيَّرْتَنَا أَلبانَها ولُحومَها وذلكَ عارٌ يابنَ رَيْطَةَ ظَاهِرُ

يريدُ على وجه الإنكار والتقريع : لِمَ عيّرتَنا ألبانَ الإبل ولحومَها واقتناءُ الإبلِ مُباحٌ لا محظورٌ فى القديم والحديث ، والانتفاعُ بلُحمانها وألبانها مُسَوَّغٌ غير مردودٍ فى الدِّين والعقل ، وتفريقُها فى المحتاجين إليها إحسانٌ ومعروف يَجلُبان(٢) الحمْدَ والشكر . وذلك عار ظاهرٌ ، أى زائلٌ . قال أبو ذؤيب :

وعَيَّرَها الواشُونَ أَنِّى أُحِبُّها وتلكَ شَكاةٌ ظاهرٌ عنك عارُها

ومن هذا قولُك : ظَهَرَ فوق السّطح ، وقولك : جعلتَهُ منّى بظَهْرٍ ، وقوله تعالى : ﴿ اتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ﴾ . ويجوز أن يريد بالظاهر أنّ الحال فى أنّ

---

(١) كذا فى م . وفى الأصل : « والقصاص » .

(٢) كذا ضبط بضم اللام فى النسختين ، وهى إحدى لغتين : ضم اللام وكسرها فى المضارع .

ذلك ليس بعارٍ ظاهِرَةٌ غَيرُ مُلبِسَةٍ ولا خافيةٍ . ويقالُ عيَّرْتُه كذا وهو الأفْصَحُ ، وعيَّرتُه بكذا . قال عديٌّ :

أيُّها الشَّامِتُ المعيِّرُ بالدَّهْرِ (١) ....

والواو من قوله « وذلك عارٌ » واو الحال ، أى أتعيِّرُنا والحال ذلك .

٤ — نُحَابِى بها أَكْفَاءنا ونُهِينُهَا   ونَشْرَبُ فى أَثْمَانِهَا ونُقَامِرُ

بيّن وجوه تصرُّفهم فيما عَـيَّرَهم به ، فقال : نجملها حِباءً لنظرائنا فنتهادى بها ، ونُسهِّلَ تمكن العُفاةِ والزُّوَّار منها ، بابتذالها وإهانتها — وحذَفَ ذِكْرَ مَن أُهِينَتْ له لأن المراد مفهوم — ونبيعها فنصرفُ أثمانَها إلى الخمر والإنفاق ، ونَضرِب بالقِداح عليها فى المَيسِر عند اشتداد الزَّمان ، فنفرِّقُها فى الضُّعفاء والمحتاجين إليها . وفى تَعْدادِ هـذه الوجوهِ إبطالٌ لـكلِّ ما أُوهِمَ أو ادُّعِيَ يَلْحَقُ من العار فى اقتنائها وادِّخارها . وروى بعضهم : « نُحَايِى بها أكفاءنا » على أن يكون نُفاعِلُ من الحياةِ ، أى نعايِشُهم بها ونجامل ؛ وليس بشىء ، فلا تُعَرِّجْ عليه .

٦١

وقال آخر من بنى فَقْعَسٍ (٢) :

١ — أيَبْغِى آلُ شَدَّادٍ عَلَيْنَا   وما يُرْغِى لشَدَّادٍ فَصِيلُ

مخرجُ هذا الكلامِ مخرجُ الكلام المتقدّم ، فى أنه إنكار وتقريعٌ ، وفيه إشارة إلى ما يتضمنه قول الآخَر من التَّبخيل ، وهو :

(١) تمامه ، كما فى الأغانى (٢ : ٣٤ ساسى) : « أأنت المبرأ الموفور » .

(٢) التبريزى : « قال أبو هلال : هو لعمرو بن مسعود بن عبد مرارة » .

فَلاَ واللهِ ما لَبَنِي بِرَبٍّ ولا لَحْمِي عَلَيَّ ولا سِلاَئى(١)

أى ما لَهُم يَبْغُون علينا وحالُهم فى أنفسهم ما هو نهايةُ البخل والشُّوم ، والدِّقَّةِ واللوم ، حتى لا يُحْمَلَ فَصِلٌ لهم على إرْغاء بأن يُفْصَلَ بينه وبين أمِّه بنَحْرٍ أو هِبَةٍ ، ضَنًّا به ، وإشفاقاً عليه . أى إنهم لا يَسُوغ لهم البَغْىُ مع هذه الحال . ويجوز أن يكون قوله « وما يُرْغَى لشدّاد فَصِلٌ » يراد به ما لهم فصيلٌ فيُرْغَى ، كما قال الآخر(٢) :

* ولا تَرَى الضَّبَّ بها يَنْجَحِرْ *(٣)

والمعنى : لا ضَبَّ بها فينجحر . يَرميهم بالفَقر والفاقة ، وضَعف المُنَّة ، وقصور الاستطاعة . ويقال : أَرْغَى فلانٌ فصيلَه ، وإذا حَمَلَه على الرُّغاء ، وأَرْغَى فُلاَنٌ فُلاناً وأَثْغَى ، إذا أعطاه إبلاً وغنما . ورَوَى بعضهم : « وما يُرْغِى » بكسر الغين ، أى لا يُعمل بالفصيل ما يَحْمِل أُمَّه على الرُّغاء له . وليس بشىء .

٢ — فإنْ تَغمِزْ مَفَاصِلَنَا تَجِدْنَا غِلاَظًا فى أنامِلِ مَنْ يَصُولُ

هذا تعريضٌ وإيعادٌ ، فيقول : إنْ رُزْتمونا وجدتمونا غِلاظاً على مَن يصولُ علينا ، جُفَاةً عند من يَسُومُنَا مكروها . والمعنى:لانُسْتَلان عند الامتحان . وجَعَل الغَمْز غَمْزَ للفاصل كنايةً عن الاختبار . وحُكِى عن بعضهم(٤) : « لا أُغْمَزُ كتَغمازِ التِّين » ، ولذلك صَلَح أن يقولَ اسْتَغْلَظْتَنَا فى أناملِهمْ . وخَصَّ الأنامل لأنَّ الانفتال عن الشىء والإقبال عليه بسلامتها من الآفات يَقْوَى .

---

(١) أى لا أجل اللبن بمنزلة المعظم المبجل ، أو المالك لى ، بل أبذله وأهينه للضيف .

(٢) هو عمرو بن أحمر ، يصف فلاة . الخزانة (٤ : ٢٧٣) .

(٣) صدره : * لا تفزع الأرنب أهوالها *

(٤) هو الحجاج ، قالها فى خطبة له بمسجد الكوفة . البيان (٢ : ٣٠٩) .

٦٢

وقال جَزْءُ بن كُلَيْبٍ الفَقْعَسِيُّ :[(١)]

١ — تَبَغَّى ابنُ كُوزٍ والسَّفَاهَةُ كاسْمِها ... لِيَسْتَادَ مِنَّا أَنْ شَتَوْنَا لَيَالِيَا

قوله « والسَّفاهةُ كاسمِها » اعتراضٌ دخل بين تَبَغَّى ومفعولِه . والأصل فى السَّفَه : الخِفَّة . ويقال : زِمامٌ سفيه ، لاضطرابه ، كما يقال زمام عَيَّار[(٢)] . فيقول : تَطَلَّبَ هذا الرّجُل ما تطلّبه سفهًا ، وفعلُ السفاهةِ قبيحٌ كما أنّ اسمَها قبيح . وإنّما قال هذا لأنّ التسفه كما تُنكِر العقولُ والقلوبُ ذاتَهُ وفعلَه ، كذلك تَمُجُّ الآذانُ والصُّدورُ اسمَه . فإن قيل ما اسمُ السّفاهةِ حتى قال : والسّفاهةُ كاسمِها ؟ قلتَ : قولُه والسفاهة ، أراد ما يُسمَّى سفاهة ، أى المسمى بهذا الاسم ، كما أنَّ الاسمَ الذى هو السَّفَه قبيح . إلا أنّه لمّا لم يجِدْ إلى العبارة عن الذّات طريقًا إلا باسمه قال : والسفاهة . ويجوز أن يكونَ أراد بتَبَغَّى : أَدخَلَ نفسَه فى البَغْيِ ، حين عَدَا طَوْرَه ، وَسامَنَا مواصلتَه ، كما يقال تشجَّع وتمرَّأ . وقوله « ليستاد مِنَّا أنْ شتَونا لياليا » أتى بالفعل واللام ، لأنَّ تبغَّى مثل أراد . فكما قال الله عزّ وجلّ : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بأَفْوَاهِهِمْ ﴾ ، وقال الشاعر :

* أرادتْ لِتَنْتَاشَ الرِّواقَ فلم تَقُمْ *

والمعنى يريدون إطفاء نور الله ، وأرادت انتياشَ الرِّواق — كذلك قال هذا :

---

(١) التبريزى : « قال أبو محمد الأعرابى : هو جرير بن كليب ، لا جزء . وقد ذكر جريرا فى المؤتلف ٧١ وقال : « جرير بن كليب بن نوفل بن نضلة الشاعر . كذا ذكر ابن حبيب فى كتابه الذى ذكر فيه شعراء القبائل ، ولم يذكر له شعرا ، ولا وجدت له فى قبائل بنى أسد ذكرا . وهو إسلامى » .

(٢) م : « عيال » كشداد . وكلاهما متجه . فالعيار : الكثير المجىء والذهاب . والعيال : المتبختر الميال .

تبغى ليَسْتَاد ، والمعنى تَبَغّى الاستيادَ منا ومُراد الشاعر تطلّبَ النِّكاحَ فى سادتنا من أجل أنّا دخَلْنا فى الشِّتاء . والمعنى من أجل أنّا افتقَرْنا واشتدَّ الزمان علينا فأثَّرَ فينا . قوله « أن شَتَوْنا » موضعُه نَصْبٌ ، أصلُه لأَنْ شَتَونا ، فلمّا حُذِف الحرف الجارُّ وَصَل الفعلُ فَعَمِل . ومعنى شَتَونا : قَحِطْنَا [1] وأَقَمْنَا فى القَحْطِ ، كما تقول شَتَونا بمكانٍ كذا . ويقال : اشْتَيْنَا ، إذا أُريد دَخلْنا فى الشتاء .

٢ ــ فما أَكبَرُ الأشياءِ عندى حَزَازَةً ... بِأَنْ أُبْتَ مَزْرِيًّا عليك وزَارِيَا

انتصب « حزازةً » على التميز ، فيقول : ليس انصرافُك عنّا عَاتِبًا علينا حين لم نُسْعِفْك بمُرادِكَ ، ولم نُجِبْك لمّا خَطَبْتَ من خَطبتَ إلى ملتَمَسِك ، ومَعِيبًا عندنا حين عَدَوْتَ طَورك فتجاوزْتَ مستحَقَّك وقَدْرَك ، بشىءٍ يكبُرُ عندى تقطيعه [2] فى الصَّدر ، وتأثيره فى النَّفس . أى إرغامُك وإسخاطك يهون علينا . والباء الذى فى قوله « بأَنْ أُبْتَ » هو الباء الذى فى قولك ما زيدٌ بمنطلقٍ . ويقال : زَرَيْتُ عليه فِعْلَهُ ، إذا عِبْتَ عليه فِعلَه ؛ وأَزْرَيْتُ به ، إذا وضَعْتَ منه وقَصَّرْتَ به . وقوله « وزاريا » أى وزاريا علينا ، فحذف لأنَّ المراد مفهوم .

٣ ــ وإنّا عَلَى عَضِّ الزّمانِ الذى تَرَى ... نُعَالِجُ من كُرْهِ المَخَازِى الدَّوَاهِيَا

يقول : إنّا نقاسى هَرَبًا من المكروه [3] الشدائد ، ونصبر تفاديًا منها على العظائم [4] . هذا ــ ما تَرَى من نكاية الحَدَثان ، وسوءِ تأثيرِ الزّمان ، وقَصدِه إيّانا بالمكاره والبلاء ، والمَفاقر والضَّرّاء . وهذا تنبيهٌ على أنَّ محافظتَهم على

(١) ضبط فى الأصل بضم القاف ، وفى م بفتحها ، وكلاهما صحيح وإن كانت لغة الفتح أعلى وأكثر . ففى القاموس : « وقحط الناس كسمع ، وقحطوا وأقطحوا بضمهما قليلتان » .
(٢) م : « تفظيعه » .
(٣) م : « من مكروه المخازى » .
(٤) فى الأصل : « بجنى العظائم » ، وأثبتنا ما فى م .

الشّرف يمنعُهم من مناكحة مَن ليس بكُفْءٍ لهم ، وأنَّ مُسَاعَفَتَهم إيَّاه بما طلبَه مُخزِيةٌ عندهم . وقوله « على عضّ الزمان » موضعه موضع الحال . والمعنى : إنّا منكوبين وفقراء نفعل ذلك حَذَرًا من العار .

٣ — فَلاَ تَطْلُبَنْهَا يابْنَ كُوزٍ فإنّه غَذَا النَّاسُ مُذ قَامَ النبيُّ الجَوارِيَا

يقول : لا تُطلبِ التزوُّجَ بالمرأة التى خطبْتَها يابن كوز ، فلك فى سائر النِّساء مندوحةٌ ، سِيَّمَا ومنذ بَعَثَ اللهُ عزَّ وجل النبي عليه السلام ، وقام بأداء الرسالة عنه ، رَبَّى الناسُ البناتِ وتركوا وَأْدَهُنّ فكثُرْن[1] . ويقال : غَذَاهُ يغذوه غَذْوًا ، وتغذّى بكذا . والغِذاء : الطَّعام والشَّراب .

٥ — وإنَّ التى حُدِّثْتَها فى أُنُوفِنا وأَعْنَاقِنا من الإباء كما هِيَا

يقول : وإنّ النخوة التى أُبْلِغْتَهَا ، والحميَّة التى حُدِّثْتَها ، باقيةٌ فى أُنوفنا حتى لا نشَمَّ بها مَرْغَمَةً ، وفى أعناقنا ورءوسنا حتى لا نَلْوِيَهَا إلى مُخْزِيَةٍ ومَنْقَصَةٍ هى حاصلةٌ فيها كما أُبْلِغْتَ ؛ فالامتناعُ من مِثل ما سُمْتَ معروفٌ منَّا ، ومأخوذ به فى عاداتنا ، فلا نستَطرِفُه . وقوله « فى أنوفنا » فى موضع المفعول الثالث لحدِّثْتَهَا . وقوله « كما هيا » فى موضع خبر إنّ ، وما زائدة . أراد كَهِيَ ، أى هى باقيةٌ بحالها ، مستمرّةٌ على طريقها . ويجوز أن يكون هى مبتدأ ، وكما فى

(١) التبريزى : « وأصل الوأد الثقل ، وذلك أنها كانت تثقل بالتراب . وأول من منع عن الوأد صعصعة بن ناجية جد الفرزدق ، وذلك أنه أضل ناقتين له فخرج فى بغائهما ، فلما أجنه الليل رفعت له نار فأمها ، فإذا شيخ وامرأة ماخض ، فسلم فرد الشيخ فسأله عن الناقتين ، فقال : وجدتهما وقد أحيانا الله بهما . ثم قال الشيخ لنساء كن عنده : إن جاءنا غلام فما أدرى ما أصنع به ، وإن جاءتنا جارية فاقتلنها ، ولا أسمعن صوتها . فجاءت جارية ، فاشتراها صعصعة بناقتيه وجمله الذى ركبه فى طلبهما ، وجعل ذلك سنة ، فكل من أراد أن يئد ابنة له جاءه فاشتراها منه بلقحتين وجمل ، فجاء الإسلام وقد فدى ثلثمائة موءودة ، فقال الفرزدق :

وجدى الذى منع الوائدات وأحيا الوئيدة لم توأد

موضع الخبر . ويقولون : كما أنا كما أنت ، أى تشابَهْنا ، ويكون ما نَكِرَةً غير موصوفة . ويجوز أن يكون حذَف صفَتَه كأنه قال : كما حُدِّثْتَه أى كشىء حُدِّثْتَه . وإنما خَصّ « فى أنوفِنا وأعناقِنا » بالذِّكْر لأنه يقال فى الكِبْر والصُّعوبة : فى أنفِ فلانٍ خُنزُوَانةٌ ، وزَمَّ فُلانٌ بأنفِه ، وأنفُه أنفُ الليث ، وهو أَحْمَى أنْفًا من أن يَقبَل كذا . ويقولون : فى خدِّه صَعَرٌ ، وفى عنقِه صَوَرٌ وصَيَد ، وفى ناظره شَوَسٌ وَصَادٌ . قال يصف سُيوفًا .

* يُدَاوَى بها الصادُ الذى فى النَّوَاظِرِ *

٦٣

وقال زِيادَةُ الحارِثِىُّ[1] :

١ ــ لَمْ أَرَ قَوْمًا مِثْلَنَا خَيْرَ قَوْمِهِمْ أَقَلَّ بِهِ مِنَّا على قَوْمِنَا[2] فَخْرَا

ينتصب قولُه « خير قومِهِمْ » على أنه بدلٌ من قوله « قوْمًا » . ويجوز أن يكون صفة . و « أقلّ » ينتصب على أنه مفعول ثان ، و « فَخْرًا » ينتصب على التمييز . وقوله « به » الضمير منه يرجع إلى ما ذكره ودلَّ عليه من قولِهِ « خير قومِهِم » يريد أقل بكونهم خيِّرين . ومثله قول القائل :

* إذا زُجِرَ السَّفيهُ جَرَى إليه[3] *

أى إلى السَّفه . وتقدير البيت : لم أرَ خيرَ قومٍ مثلَنا أقَلَّ بذاكَ فَخْرًا منَّا

---

(١) شاعر إسلامى ، كان بينه وبين هدبة بن الخشرم مهاجاة ومناقضة ، وقد قتله هدبة فى قصة رواها أبو الفرج . وهو زيادة بن زيد بن مالك بن عامر بن قرة بن خنيس بن عمرو ابن عبد الله بن ثعلبة بن ذبيان بن الحارث بن سعد بن هذيم . الأغانى (٢١ : ١٦٩) .

(٢) التبريزى : « على قومهم » .

(٣) عجزه كما فى الخزانة (٣ : ٣٨٣) وأمالى ابن الشجرى (١ : ٦٨ ، ٢/٣٠٥ : ١٣٣ ، ٢٠٩) :   * وخالف والسفيه إلى خلاف *

على قومنا . والمعنى إنّا لا نبغى على قومنا ، ولا نتكبَّر عليهم ، بل نَعُدّهم أمثالَنا ونظراءَنا ، فنباسِطُهم ونوازِنُهم قوْلاً بقوْلٍ ، وفعْلاً بفِعْل .

٢ — وما تَزدَهِينَا الكِبْرِياءُ عَلَيْهِمُ ... إذا كَلَّمُونا أن نُكَلِّمَهُمْ نَزْرا[1]

ينتصب قولُه « نَزْرًا » على أنه صفةٌ لمصدر محذوف ، كأنه قال : نكلِّمهم كلاما نَزْرًا . والمعنى لا يستخفُّنا التكبُّر إلى أن نَتَعَلَّى عليهم ، ونقلِّل الكلامَ معهم تَرَفُّعًا عن مساواتهم ، بل نباسِطُهم ونكاثرهم فى القوْل والسؤال ، إيناسًا لهم وتسكينا منهم . ويقال : زهاه وازدهاه بمعنًى . والأصل فى ازدهى : ازتهى ، لأنه افتعل من الزَّهو ، لكنه أبدل من التاء دالاً تقريبًا للحرف من الزاى . وقوله « أن نكلِّمهم » أراد لأن نكلِّمهم ، فحذف حرفَ الجر . و « أن » يُفعلُ به ذلك كثيرًا .

٦٤

وقال ابنهُ مِسْوَرٌ :

حين عَرَض عليه سعيد بن العاصِ سبْعَ دِياتٍ بأبيه[2] فأبَى . ويقال : هى لعَمِّه :

١ — أبَعْدَ الذى بالنَّعْفِ نعْفِ كُوَيْكِبٍ ... رَهِينَةِ رَمْسٍ ذى تُرَابٍ وجَنْدَلِ

---

(١) روى التبريزى بعده بيتا ، وهو :

ونحنُ بنو ماءِ السَّماءِ فلا نرى ... لأنفُسِنا من دون مملكةٍ قَصْرا

وقال فى تفسيره : « القصر هاهنا : الغاية . يقال قصرك أن تفعل كذا . وماء السماء : إمرأة كانت فى حسنها وصفاء بشرتها مثل ماء السماء فسميت به . وماء السماء الملك سمى بذلك لأنه كان للناس بمنزلة المطر فى جوده . يقول : نحن بنو ملك فلا نرى لأنفسنا غاية دون أن نكون ملوكا » .

(٢) انظر خبر مقتله فى الأغانى ، فى الموضع الذى سبقت الإشارة إليه .

ألف الاستفهام دخل هاهنا على معنى الإنكار ، وتناول الفعلَ الذى فى صدر البيت الثانى ، لأنّ ألف الاستفهام يطلُبُ الأفعال . والمعنى : أُذكَّرُ بالإبقاءِ بعد المدفون بنَعْفِ هذا الجبل — وهو ما استقبلك منه — المَرْهُونِ فى قبرٍ ذى تُراب وحجارة . والنَّعْفُ ، اشتُقَّ منه انْتَعَفَ له ، أى تعرَّض . والمناعَفَةُ : المعارضَةُ من رجلين فى طريقين يريد كلُّ واحدٍ سبْق الآخر . وقيل النَّعْفُ : المكان المرتفع فى اعتراض . وقوله « رهينة » جعله اسماً فلهذا ألْحَقَ الهاء بها . والرمْس : القبر . ويقال رَهَنْتُه رَهْناً بمعنى رَهَنْتُ عنده ، وأصلُه من اللزوم والدوام ويقال هذا لك رَاهِنٌ . والأصل فى الرَّمْسِ : التغطية ، يقال رَمَسْتُه بالتراب ؛ ومنه الرياح الرَّوامِس .

٢ — أُذَكَّرُ بالبُقْيَا على مَنْ أَصَابَنِى وبُقْيَاىَ أَنّى جاهِدٌ غيْرُ مُؤْتَلِ

يقول : أَأُسامُ الإبقاءَ على من وتَرَنى ؟ إبقائى عليه أَنّى أجتهد فى قَتْلِه ، ولا أقصِّر . والإبقاء لا يكون الجُهْدَ ، ولكنّ المعنى : يكون هذا منِّى عِوَضًا من ذاك . ومثله قول الآخر (١) :

* تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ (٢) *

والبُقْيَا : اسمٌ على فُعْلَى ، مبنىّ من الإبقاء وفى معناه ، والواو منه واو الحال ، ولو لم يأت به لكان الكلام على الاستئناف والإنقطاع مما قبله . ويقال : لا آلُوفى كذا ولا آتَلِى ، أى لا أقصِّر ، ولا آلُو كذا ، أى لا أستطيعُه .

٣ — فإلاَّ أَنَلْ ثَأْرِى من اليَوْمِ أو غدٍ بنى عمِّنا فالدَّهْرُ ذو متطوَّلِ (٣)

(١) هو عمرو بن معديكرب . الخزانة (٤ : ٥٣) .

(٢) صدره : * وخيل قد دلفت لها بخيل *

(٣) ابن جنى : « يحتمل متطول هذا أمرين : أحدهما أن معناه ذو تفضل وإيصال لى إلى بغيتى ، والآخر ذو متطاول ، أى فيه طول ، فإن تأخر ما أرومه الآن لم أيأس منه فيما بعد ، وهذا أظهر الوجهين ، لأن الشعر بمثله ورد كثيراً . وتكون هذه لغة فى تطاول الدهر ، وتطول يعتقب عليها تفاعل وتفعل ، كقولهم تكأده الأمر وتكاءده ، وتكايس وتكيس » .

يقول مُخْبِرًا عن صبْرِه وحُسنِ رِفْقِهِ فى طلب الأمور ، وأنّه لا يتسلَّطُ عليه الملالُ وإن تراخَى المطلوب ، وتدافَع الوقت فى الحصولِ ، فيقول : إن لم أُدْرِكْ ثأرى قريباً يا بنى عمِّنا ففِى الدهرِ تطاوُلٌ ، والزّمان بتبديل الأبدال وتحويل الأحوال كافِلٌ ، وله ضامِنٌ ، وما يتعسَّر فى وقتٍ يتيسَّرُ فى آخَر . وذِكْر اليومِ والغَدِ إشارةٌ إلى تقريب الوقت فى المستقبل ، كما يقال فى الماضى : كان بالأمس يفعل كذا . ومُتَطَوَّلٌ : مصدرٌ مثل تَطَوُّلٍ .

٤ — فلاَ يَدْعُنِى قَوْمِى ليومِ كريهةٍ　　لَئن لم أُعَجِّلْ ضَرْبَةً أو أُعَجَّلِ

جَزَم « يَدْعنى » بلا على أنّه دعاء ، والمعنى : لادُعيتُ لكشف مكروه ، ولا للدّفْع عن مظلومٍ ، إن لم أعجِّل ضَرْبةً لمن وتَرَنى ، أو يعجِّلْها لِى . والمعنى : إنْ لم أقتله أو يقتلْنى . وهذا الكلام وإن كان لفظُه لفظَ الدُّعاء فالمعنى معنى القَسَم . وقوله : « أو أعجَّل » أراد : أو لم أعجَّل لمثلها ، فحذَف . وفى هذا بيانٌ للتوعُّد بالإقدام ، والتسرُّع إلى القتل أو الاستقتال بعد الإمكان .

٥ — أَنَخْتُمْ علينا كَلْكَلَ الحربِ مرّةً　　فنَحْنُ مُنِيخُوها عليكم بكَلْكَلِ (١)

---

(١) روى التبريزى بعده ثلاثة أبيات ، وذكر ابن جنى أولها ، وهى :

يقولُ رجالٌ ما أُصيبَ لهم أبٌ　　ولا من أخٍ أقبِلْ على المال تعقَلِ
كريمٌ أصابته ذئابٌ كثيرة　　فلم يدرِ حتى جِئْن من كلِّ مَدخلِ
ذكرتُ أبا أروَى فأسبلتُ عَبرةً　　من الدَّمع ما كادت عن الدمع تنجلى

قال التبريزى : « يقول : يشيرون على بأخذ الدية ولم يصبهم ما أصابنى ، ولعلهم لو أصيبوا بما أصبت به لم تقنعهم الدية » . وقال : « ويروى : حتى جئن من غير مدخل . أراد بالذئاب الأعداء . وقوله : حتى جئن من غير مدخل ، أى من مداخل كثيرة . ويقع فى بعض النسخ : ديات كثيرة » .

وقال ابن جنى فى تفسير أول الأبيات الزائدة : « عطف الثانى — يعنى كلمة أخ — على ما من عادته أن يزاد فى الأول . ألا ترى إلى جواز قوله : ما أصيب لهم من أب ؟ وهذا مثل قوله : بدا لى أنى لست مدرك ما مضى　　ولا سابق شيئاً إذا كان جائيا » .

هذا الكلام تهدُّدٌ ، وضمانٌ فى أنَّه سيكافئهم على ما بدأوا . والمعنى : سنؤثِّر فيكم كما أثَّرتم فينا ، ونُنْزِلُ الحربَ بكم كما أنزلتموها بنا . ويقال : أنَخْتُ البعير فاستناخ وبَرَك ، ولا يقال فناخ . وتقول فى شدة التأثير : بَرَكَ عليهم الدَّهرُ بكلكله ، ووطئهم بمناسمه ، وأنْحَى عليهم بجِرانِه . وهذا جَعَل الكلكلَ هو المُناخ فى صدر البيت ، وفى العَجُز جَعل الحربَ مُناخَةً بكلكلها . وكلُّ ذلك أمثالٌ ، والمعنى مِن جميعها ظاهر .

٦٥

وقال بعضُ بنى جَرْمٍ من طَيِّئ :

١ — إخالُكَ مُوعِدِى بِبَنِى جُفَيْفٍ وَهَالَةَ ، إننى أنْهاكِ هَالاَ

فى قوله « إخالُ » ضرْب من الاستهانة ، يقول : أحسَبُك تُهدِّدنى ببنى جُفَيفٍ وبِهالَة . ثمَّ أقبلَ على هالَة فقال : إنِّى أزجُرُكِ عن التحكك بنا ، ونُصْرَةِ من ينابِذُنا . ومثل هذا الكلام يُسمَّى التفاتاً . والعرب قد تجمع فى الخطاب أو الإخبار بين عِدَّةٍ ، ثم تُقْبِل أو تلتفت من بينهم إلى واحدٍ لكونه أكبرَهم ، أو أحسنَهم سَماعًا لما يُلقَى إليه ، أو أخصَّهم بالحال التى تَنطق بالشَّكوى بينهم ، فتفرِده بكلام . على هذا بيت الهُذَلىّ[1] :

* أَحْيَا أبا كُنّ ياليلَى الأماديحُ *[2]

فقال أبا كُنَّ ، ثم قال ياليلى . ويقال : خِلت أَخالُ ، وإخال طائيةٌ ، فكثر استعمالُها فى ألْسنةِ غيرِها ، حتّى صار أَخالُ كالمرفوض . والهَالَةُ : الدّارة

(١) هو أبو ذؤيب الهذلى . ديوان الهذليين (١ : ١١٣) .

(٢) صدره : * لو كان مدحة حى أنشرت أحداً *

ويروى فى عجزه : * أحيا أبوتك الشم الأماديح *

حَوْل القَمر ، فى اللغة ، وإذا أنَّث خطابها فإنّه جعلها قبيلةً ، وإذا ذَكَّرها فعلى إرادة رجُلٍ هوأبو القبيلة ، وإذا جُمِع فعلى المعنى . وفى جميع ذلك قد صرَّف كلامه .

٢ ــ فإلاّ تَنْتَهِى يا هَالَ عَنّى أَدَعْكَ لمن يُعادِينِى نَكَالاَ

يقول : إنْ لم تنزجرى عنّى ولم ترتدعى بكلامى ، أجعلْك لأعدائى عِبْرةً رادعة ، وعقوبةً زاجرة . والنَّكَال : اسم لما يُجعل عبرة للغير ، ويقال نَكَلَ يَنْكُلُ ، ونَكِلَ يَنْكَل لغتان ، الأولى تميميَّة والأخرى حجازية .

٣ ــ إذَا أخْصَبْتُم كُنْتُم عدوًّا وإن أَجْدَبْتُمُ كنتمْ عِيَالاَ

يصفهم بالأَشَر والبطَر وسوءِ الحِفاظ ، والتعجُّل إلى الشّرّ ، فيقول : إذا نلتم الخير وطاوَعكم الوُجْدُ خرجتُمْ لنا أعداء ، ثم إن أثّر فيكم الدّهْر أوْ ضَغَطَكم البؤس والضُّرُّ ، أوَيْتم إلينا ، ولحقتم بجملتنا ، فاحتجنا إلى أن نُموِّنكم .

٦٦

وقال آخر[(١)] :

١ ــ اللُّؤْمُ أَكْبَرُ مِنْ وَبْرٍ ووالِدِهِ واللؤم أكْرَمُ من وَبْرٍ وما وَلَدَا

فضَّل اللؤمَ فى اللَّفظ عليهم وعلى أسلافهم ، والقصدُ به إلى تفضيله على أخلاقهم وأفعالهم وطباعهم ، لأنَّ الشَّرط تشبيه الأحداث بالأحداث ، والذَّوات بالذَّوات . وإذا كان كذلك فقد حُذف المضافُ وأقيم المضافُ إليه مَقامَه ،

(١) التبريزى : «قال أبو هلال : لم يذكر أبو تمام اسمه واسمه الحكم بن زهرة . قال الجمحى : زهرة أمه ، وهو الحكم بن المقداد بن الحكم بن الصباح ، أحد بنى مخاشن بن عصيم ، ثم أحد بنى زهرة بن قيس بن عمرو بن ثرملة بن مخاشن بن شمخ بن فزارة ، ويعرف بالحكم الأصم الفزارى . وقال أبو رياش : هو لعويف القوافى» . ونسب فى معجم المرزبانى ٢٧٨ إلى عويف القوافى .

كأنّه قال : اللؤم أَكْرم من أخلاق وَبْرٍ وأخلاق والدِه ، وقوله « ووالدِهِ » دخل فيه كلُّ أبٍ لهم ، كما دَخَل فى قوله « وما وَلَدَا » كلُّ وَلَدٍ لهم . واللُّؤم : خصالٌ مُنْـكَرة ، إذا اجتمعتْ سمِّيت لؤما ، كدناءه النّفسِ والآباءِ والبُخلِ مردَّدًا فيهم ، والنَّظَر فى الأمور التافهة المخزية . وَوَبْر فى اللغة : دُوَيْبَـةٌ أصغر من السِّنّور طحلاء اللون تَرجُن فى البُيوت[1] ، وجمعه وِبَارٌ . ويُسمَّى بها ، ثم جُعِلت للقبيلة[2] . فإن قيل : لِمَ لَمْ يقل : ومن وَلَدَا ؟ قلتَ : أشار إلى الجنس وما يقع للأجناس .

٢ — قَوْمٌ إذا ما جَنَى جانِيهِمُ أَمِنوا ... من لُؤْمِ أَحْسَابِهِمْ أن يُقْتَلوا قَوَدَا

يقول : همْ قومٌ إذا جَرَّ واحدٌ منهم جَرِيرةً أَمِن جميعُهم ، لدقَّةِ أصولِهم ، وَلُؤْمِ أحسابهم ، أن يؤاخَذوا كلُّهم بها ، فـكيف الواحد منهم . كأنّ القبيلةَ بأسْرِها لا يُعَدُّون بَواءً لِقتيلٍ فيُقتلوا به ، فالأمْنُ الذى شَمِلهم عند اتِّفاق الجنايات منهم لهذا . والقَوَدُ : أن يُقتَل القاتلُ بالقتيل ، فيقال : أقَدْته به . وإذا أتى الرجل صاحبَهُ بمكروهةٍ فانتقم منه بمِثْلِها ، قيل : استقادَها منه ، وهذا كما قال الآخَرُ :

* مَن ذا يَعَضُّ الـكلْبَ إن عَضَّا *

ونقله أبو تمّـام فقال :

أمَّا الهِجَاءُ فدَقَّ عِرْضُكَ دُونَهُ ... والمَدْحُ عنك كما عَلِمْتَ جَليلُ
فاذهَبْ فأنتَ طليقُ عِرْضِكَ إنَّهُ ... عِرْضٌ عَزَزْت به وأنتَ ذليلُ

٣ — اللُّؤْمُ دَاءٌ لوَبْرٍ يُقْتَلون به ... لا يُقْتَلون بداءِ غَـيْرِهِ أَبَدَا

أشار بهذا إلى أنَّ مطامعَهم الخسيسة تُرْديهم ، وإسفافَهم لها يعرّضهم للقتل

---

(١) ترجن هنا بالراء ، وهى تطابق تدجن بالدال وزناً ومعنى . والرجون والدجون : الإقامة . (٢) التبريزى : « وبر بن الأضبط : قبيلة من كلاب » .

ويهلكهم ، فقال : هذا داؤهم لا يُقتلون إلا به ، ولأنَّ حَيْنَ كلِّ حائنٍ فيما يَغلِب به وعليه . ويجوز أن يريد أنّه لما ترفَّع القصاص عنهم عند وقوع الجرائر منهم ، كانت القِتلةُ الكريمة فيهم أزهد ، وعنهم أبعد ، ولا يموتون إلا بدائهم الذى هو اللؤم . والموت قد يُسمَّى قَتْلاً . وإنَّما أدخل هذه الأبياتَ فى الباب لقوله « قَوْمٌ إذا ما جَنَى جانيهم أمنوا » فلما ذَكَر من يجتهد فى إدراك الثَّأر من جهته تيسّر أو تعسّر ، ذَكَر أيضا ما يُضادّه ممن يُرغَبُ عنه ويُزهَد فى النَّيْل منه ، ترَفُّعاً عن مكافأته . وهذا عادتُه فى إتْباع الشَّىء بضدّه ، فاعلمْه .

٦٧

وقال آخر :

١ ــ أَلَا أَبْلِغَا خُلَّتِي رَاشِدًا وصِنْوِى قديمًا إذا ما اتَّصَلْ

قديمًا ، انتصَبَ على الظَّرْف لقوله خُلَّتِى . والمراد : أَبلِغَا خليلى قديمًا راشِداً ، وصِنْوى إذا ما انتَسَبَ . والصِّنْوانِ : الفرعان يخرُجان من أصلٍ واحدٍ . ويقال للأَخَوَينِ هما صِنوانِ ، تشبيهاً بذلك ، ولعمّ الرجل صِنْوُ أبيه . ويقال صِنْوٌ ، وصِنوانِ فى التثنية ، وصِنوانٌ فى الجميع ، ولا يُعرفُ له نظير إلا قِنْوٌ . فيقول : راشِدٌ خليلى القديمُ ، ونسيبى القريبُ ، فأبلغاه عنى رسالةً . وفى جَمْعِه بين خُلَّتِى وصِنْوِى ، وتأخيره قديما إذا ما اتّصل ، ما ذَكَره أبو العباس المبرِّد رحمه الله ، من أن العرب تَلُفّ الخبرَيْنِ لَفًّا ، ثم تَرْمِى بتفسيرهما جملة ، ثقةً بأن السامع يَرُدُّ إلى كلٍّ ما لَهُ .

٢ ــ بأنّ الدَّقِيق يَهِيجُ الجَلِيلَ وأنّ العَــــزِيزَ إذا شَاءَ ذَلّْ

الباء دخل للتأكيد ، وموضع أنّ مفعول ثانٍ من أَبلِغا . فيقول : أَبلِغاهُ

أنّ صغيرَ الأمورِ يجنى الكبير ، وأن العزيزَ من الرجال متى أراد عاد ذليلاً ، بأن يَعْدُوَ طَوْرَهُ ، ويشتغل بما لا يهمّه . ومثل هذا قولهم : « الشرُّ يبدؤه صغارُه » ، وقول شاعرهم[(١)] :

* الحربُ أوّلَ ما تكونُ فُتَيّةٌ[(٢)] *

وقول الآخر[(٣)] :

* كم مَطَرٍ بَدْؤُهُ مُطَيْرُ[(٤)] *

٣ ـ وأنّ الْحَزَامَةَ أن تَصْرِفُوا لِحَيٍّ سِوَانا صُـــدُورَ الأَسَلْ

هذا الكلام تحذيرٌ وإنذار . يقول : وأبلغاه أنّ الحزمَ فى صَرْف أعنّة خيلكم إلى غيرنا ، فإنكم لا تقومون لنا إذا هَيَّجْتُمونا ؛ والرأىَ فى أن تعدلوا بصدور رماحكم إلى طعنِ مَن سوانا ، فإنكم لا تكملون لدِفاعنا ، ولأنّ الكَرْهَ لا يُخرج منّا إلا إباءً وامتناعا .

٤ ـ فإن كُنْتَ سيِّدَنا سُدْتَنَا وإنْ كُنْتَ للخَالِ فاذْهَبَ فَخَلْ

العرب تقول : « سيِّدُ القوم أشقاهم » . ولذلك قال شاعرُهم[(٥)] :

وإنّ سيادةَ الأقوامِ فاعْلَمْ لها صُعَدَاءُ مَطْلَعُها طَوِيلُ[(٦)]

(١) هو عمرو بن معديكرب . شروح سقط الزند ١٦٧٨ .
(٢) عجزه : * تسعى بزينتها لكل جهول *
(٣) هو أبو تمام . البيان والتبين (٣ : ٦٧) .
(٤) صدره : * رب قليل جنى كثيراً *
(٥) هو الأعلم الهذلى . ديوان الهذليين (٢ : ٨٧) والبيان (١ : ٢/٢٧٥ : ٣/٣٠٢ : ٢١٨) .
(٦) صعداء ، كذا وردت فى النسختين ، وكذا فى أصل ديوان الهذليين نسخة الشنقيطى وشرح السكرى لأشعار الهذليين ، ونسخة مكتبة فيض الله من البيان والتبيين . وضبط فى اللسان (صعد) بفتح الصاد وسكون العين ، وفسره فقال : « أكة صعود وذات صعداء يشتد صعودها على الراقى » . وأما الصعداء بضم ففتح ، فهو التنفس بتوجع ، وهو المشقة أيضاً .

فيقولُ : إن رُمْتَ سيادَتَنا مِن وجهِها ، وبالآلات التي يُحتاجُ إليها في تحصيلها ، تمَّ لك ذلك ؛ وإنْ كنتَ للكِبْر فاذهَبْ فاحْسَبْ أنَّكَ سَيِّدٌ ، فإنك لا تكون . هذا إذا رويتَ « فَخَلْ » بفتح الخاء . وإن رويتَ « خُلْ » بضمِّها فالمعنى : اذهب وتكبَّرْ ، فإنّا لن ننقادَ لك ، واستعمالُ البَغْيِ والصَّلَف والكِبْر لا يزيدُنا إلاّ إباءً عليك ، وتمادياً في اللَّجاج معك . والخال : الكِبْرُ . واختالَ الرّجُلُ فهو مُخْتَالٌ وخَالٌ أيضاً . قال الشّاعر :

* إذا تَجَرَّدَ لا خَالٌ وَلا بَخَلُ *

ويقال خَالَ يَخُولُ ويَخَالُ خَوْلاً وَخَالاً ، وفي الظنّ يُقَالُ خَالَ يَخَالُ لا غير . وقوله « فاذهب » أمرٌ من قولِكَ ذَهَبَ يقول كذا . وعلى هذا قول الشاعر :

* فاذْهب فما بِكَ والأيّامِ من عَجَبِ[1] *

وكذلك قولُك لِلغريم : قُمْ فاعْطِني حَقِّي . فالأمر في الحقيقة بالعطيّة لا بما سِوَاهُ . وأجرِي مَجْرَاهُ قَوْلُهُمْ : أخذ يتمسّك بكذا ، وطَفِق يَتحدّث بكذا ، وجعل يشتمني . وخرجوا في التوسُّع إلى أن قالوا : قام يَهْزَأُ بي ، وقَعَدَ يظنّ أنه أمير[2] . وليس القصْد إلى فعله القيامَ والقعود ، ولكن زيادةً كالتّصوير للحال والتأكيد للقِصّة .

---

(١) البيت من أبيات سيبويه الخمسين التي لم يعرف لها قائل . انظر الكتاب (١ : ٣٩٢) والخزانة (٢ : ٣٣٨) والإنصاف ٢٧٣ . وصدره :

* فاليوم قربت تهجونا وتشتمنا *

(٢) م : « أمين » .

٦٨

وقال بعضُ بَنِى أَسَدٍ :

١ – كِلاَ أَخَوَيْنَا إِنْ يُرَعْ يَدْعُ قَوْمَهُ ذَوِى جَامِلٍ دَثْرٍ وَجَمْعٍ عَرَمْرَمِ

يقوله رجلٌ اقتتَل فريقان من قومه على بئرٍ ، فيقول : كِلاَ صاحبَينا إن يُفْزَعْ يستغِثْ بقومٍ ذوى عَدَدٍ وعُدَّةٍ . والجاملُ : الإبلُ ، وهو اسم صيغ للجمع . والدَّثْرُ : الكثير . والعَرَمْرَم : الجيش العظيم . وعُرَامُ الجيش : حدُّهم وكثرتُهم . وانتصب « ذوى » على الحال . والجزاء مع جوابِهِ خبرُ المبتدأ ، وهو كِلاَ .

٢ – كِلاَ أَخَوَيْنَا ذُو رِجَالٍ كأَنّهم أُسُودُ الشَّرَى مِنْ كُلِّ أَغْلَبَ ضَيْغَمِ

يقول : كلُّ واحدٍ من صاحبينا مؤيَّدٌ برجالٍ كأنَّهم أسودُ هذه المأسَدَةِ ، من كلِّ ليثٍ غليظ العُنق ، شديد . وضَيْغَمٌ : فَيْعَلٌ من الضَّغْمِ ، وهو العضّ . وكِلا مُوحَّد اللفظ ، موضوع للمثنَّى؛ لكنّ المرادَ به هنا كلٌّ واحدٍ .

٣ – فمَا الرُّشد فى أن تَشْتَرُوا بنعيمِكُم بَئِيسًا ولا أن تَشْرَبوا الماء بالدّمِ

يدعوهم إلى المصالحة ، ويعرِّفهم أنّه لا خَيْرَ فى مَاءٍ ، يَصِلُون إليه بإراقة دماء؛ ويزهّدهم فى خِصْبٍ ونَعيمٍ ، يَحْصل عن عَيْشٍ بَئِيسٍ ، فيقول : ليس الصَّلاَحُ والنَّجاحُ فى أن تستبدلوا بنعيمكم بُؤسًا ، وبسلامتكم هُلْكاً ، ولا أن تشربوا الماءَ بسَفْك الدِّماء . والبئيس ، يكون مَصْدَرًا كالبُؤْس ، ويوضع فى مقابلة النَّعيم كما فعلَهُ هذا ، ويكون صفَةً ، على هذا قول الهُذلىّ[1] :

ومَعِى لَبُوسٌ للبئيس كأنّهُ رَوْقٌ بجبهةِ نِعاجٍ مُجْفِلِ

وهو الرّجل الشُّجاع ذُو البأس .

(١) هو أبو كبير الهذلى . ديوان الهذليين (٢ : ٩٨) .

٦٩

وقال حُرَيْثُ بنُ عَنَّابٍ[1] :

١ ــ تعَالَوْا أفاخِرْكُمْ : أأعْيَاوفَقْعَسٌ   إلى المَجْدِ أَدْنى أم عَشِيرَةُ حَاتِمِ

يقول : هَلُمُّوا أنافِرْكُم : أهؤلاء البطونُ أقربُ إلى المجد أم رَهْطُ حاتم ؟ وبنو أعيا : مِن بنى سعد بن قيس ، وبنو فقعس : حىٌّ من بنى أَسَد . وروى بعضهم : « أأعيار فَقْعَسٍ » ، يريد رؤساء فَقْعَسٍ . ورغم أنَّ أعيا لا يعرفه اسمَ قبيلةٍ ، وأنّ هذا تصحيف استدركه . فأما إنكاره لأعْيَا قبيلةً فلا وجْهَ لَهُ لأنَّ بنِى أَعْيَا من قبائل سعد بن قيس ، وهو مَشْهُورٌ ذكره النَّسَّابُونَ وغيرهم ، وَوَهْب بن أعْيَا بنِ طَرِيفٍ الأسَدى ، معروفٌ معدود فى الأعلام . وأمَّا من طريق النَّظم فلَأَنْ تكون القبيلةُ مقابلةً بمثلها ، ومذكورةً فى المنافرة مَعَها ــ أحسَنُ من أن يُقابَلَ الأفراد بالقبيلة . و « أَعْيَار » إشارةٌ إلى الأفراد ، لأنَّه يُراد بها الرّؤساء . يقال : هو عَيْرُ قومِهِ ، أى سَيّدهم . هذا وقد رجعنا إلى نُسَخٍ مختلفات المصادر ، فوجدناها متوافقةً فى تحمُّلها « أعْيَا وفَقْعس » . وإذا كان

---

(١) عناب ، بالنون ، كما فى م . قال ابن جنى فى المبهج . « اسم مرتجل غير منقول . وهذا أحد الأمثلة التى جاءت على فعال اسما لا صفة ، وهى الكلاء ، والجبان ، والفياد : ذكر اليوم ، والجيار فى الصدر وهو أيضاً الصاروج ، والعقار : أحد الأنبتة ، وعناب هذا الرجل والحطار : دهن طيب . ويجوز أن يكون عناب من العنب كتمار من التمر » . وحريث ، ذكره الآمدى فى المؤتلف ١٦١ وقال أحد بنى نبهان بن عمرو بن الغوث بن طيىء . شاعر محسن مكثر ، وهو القائل :

أترجو حيى أن تجىء صغارها   بخير وقد أعيا حييا كبارها

فأخذه الفرزدق فقال :

أترجو كليب أن تجىء صغارها   بخير وقد أعيا كليبا كبارها

وقال أبو محمد الأعرابى فيما نقله عنه التبريزى : « وهو فى عصر عمر بن الخطاب وبعد ذلك إلى زمن معاوية » .

كذلك لا يجوز العُدُول عمَّا قاله الشَّاعر إلى ما لم يقله . وقوله « أأعيا وفَقَعسٌ » استفهام فى الأصل نُقِلَ عن بابه ، والمعنى : أنافركم بالقضية التى تكون نتيجة هذا الاستفهام ، وقوله « أدْنى إلى المَجدِ » لم يُثَنِّه وإن كان خَبَرًا عن اثنين ، لأنّه افعلُ الذى يتم بِمِنْ ، وقد دَخل عليه الاستفهام ، فيجب أن يستوى فيه الواحد والاثنان ، والمذكَّر والمؤنّث . وهذا الكلام لو أتى به على وجهه لكان : أم عَشِيرةُ حاتِم أدنى إلى المَجْدِ منهم ، لكنّه حَذَفَ إذْ كان المرادُ مفهوما . وإنّما جاء على حرف الاستفهام ليُبَصِّرُوا ضَلالَتَهم . وفى طريقته بيت جرير :

هَلُمُّوا نُحَاكِمْكُمْ فَفِي الحُكْمِ مَقْنَعٌ إلَى الغُرِّ من آلِ البِطَاحِ الأَكَارِمِ

والتقدير : أنافِرْكم أيُّهم أَمْجَدُ وأَعْرَف . وحاتمٌ المذكورهو حاتم بن عبدالله الطائى . و « تَعالَ » كان يقولُه من هو فى رابيةٍ للمتسفِّل ، لأنه تفاعَلَ من العُلُوّ ، فكثُر استعماله حتَّى جرى مجرى هَلُمَّ ، فصار المتسفِّل يقوله عند الدُّعاء المُستَعْلِي .

٣ — إلى حَكَمٍ من قَيْسِ عَيْلانَ فَيْصَلٍ ومن آخَرَ حَيَّىْ ربيعة عَالِم

قيل : أراد بأحد الحَكَمين عامر بن الظَّرِب[1] وبالآخر دَغْفَلًا النَّسَّابَةَ . والفَيْصل : الذى يفصِلُ الأمور ، والياء دَخَلَتْهُ لتلحقه ببناء جعفر ، كما أنّ الضَّيْغَم فَيْعَلٌ من الضَّغْم ، والبناءانِ بحصول الياء فيهما صارا صِفَتَيْن بعد أن كانا مصدرَيْن ، لأنّ فَصْلاً من دون الياء مصدرُ فَصَل ، كما أنّ ضَغْمًا من دون الياء

---

(١) التبريزى : « وقال النمرى : الحكم من قيس عيلان عامر بن الظرب العدوانى ، والآخر الذى هو من حى ربيعة دغفل . وحيا ربيعة : بكر وتغلب ، ورجل واحد لا يكون من حيين ، وإنما يريد من أحد حيى ربيعة » . وقال أبو محمد الأعرابى معترضاً على ذلك : « كيف يكون الحكم من قيس عيلان هاهنا عامر بن الظرب ، وهو قبل الإسلام بمائتى عام ، ومتى لحقه حريث بن عناب وهو فى عصر عمر بن الخطاب وبعد ذلك إلى زمن معاوية ؟ ! وإنما عنى بالحكم من قيس عيلان هرم بن قطبة بن سيار بن عمرو الفزارى . والحكم من حيى ربيعة دغفلا النسابة . وحيا ربيعة : ذهل بن شيبان بن ثعلبة ، وذهل بن ثعلبة ، وهو عم ذهل بن شيبان ، وعم الرجل أبوه » .

مصدر ضَغَمَ ، فلمَّا حَصَل الياء فيهما وُصِفَ بهما وأفادَا مبالغَةً في المعنى . ألا تَرى أنّ فَيْصَلاً يفيد ما لا يفيده فاصِلٌ ، وكذلك ضَيْغَمٌ يُفيد ما لا يُفيد ضاغِم ، فاعلمْه .

٣ — ضَرَبْناكُمُ حتى إذا قامَ مَيْلُكُمْ ضَرَبنا العِدَى عنكم بِبِيضٍ صوارِمِ

قام له بمعنى تقَوَّمَ وتركَ الخلاف ، وقام عليه بمعنى دَاوم ولازَم . وفي القرآن : ﴿ إِلَّا ما دُمْتَ عَلَيْه قائماً ﴾ . يقول : قَدَعنا كم[1] بالمكروه ، حتَّى إذا بانَ لنا فَيْئتكُمْ واستقامتكم ، حينئذٍ ذبَبْنا الأعداء عنكم بسيوفٍ قواطع . والمعنى : نعاملكُم بمعاملةِ الأعداء ، فإذا استقمتم لنا وذهب الخلافُ عنكم ، ضممنا كم إلى أنفسنا ، وحَمَيْنَا عليكم مع الأولياء .

٤ — فحُلُّوا بأَكْنَافِي وأَكْنافِ مَعْشَرِي أَكُنْ حِرْزَكُمْ في المَأْقِطِ المتلاحِمِ

في جمعه للأكناف ظهورُ تَجَبُّرٍ فيهم ، وأخْذٌ بالتَّعَلِّي عليهم . يقول : انزِلُوا بجَنابي وجَناب عشيرتي ، وتحَصَّنُوا بِفِنائي وفِناء قومي أَكُنْ كَهْفَكُمْ في المَضِيق من الحرب المتلاصق . والمتلاحِم ، يجوز أن يكون من الْتِحام ، لأنّ كلَّ شيء كان متبايناً ثم تلازَمَ[2] يُقالُ فيه : الْتَحَمَ وتَلاَحَم ، ويجوز أن يكون من المَلحَمَةِ ، لأن أهلها يتلاحمون فيها . يقال : لَحَمْتُه فهو لَحِيمٌ ، أى قتلتُه . قال الهُذَليُّ[3] :

* فَلاَ رَيْبَ أَنْ قَدْ كانَ ثَمَّ لَحِيمُ[4] *

٥ — فقَدْ كانَ أَوْصاني أَبي أَنْ أُضِيفَكُمُ إليَّ وَأَنْهَى عَنْكُمُ كُلَّ ظالِمِ

(١) م : « فرعناكم » ، أي علوناكم .
(٢) كذا في الأصل ، وفي م : « تلان من » ، والأخيرة محرفة .
(٣) هو ساعدة بن جؤية الهذلي . ديوان الهذليين (١ : ٢٣٢) واللسان (حصر ، لحم) ومقاييس اللغة (ريب ، لحم) .
(٤) صدره : * فقالوا تركنا القوم قد حصروا به *

نَبَّه بهذا الكلام على استعلائه عليهم قديماً وحديثاً ، وأنهم كانوا لهم كالخوَلِ والتَّبَعِ ، وأن الأسلاف كانت تُوصِى الأخلافَ بهم لتطاوُلِ أيامهم فى جَنبتهم ، واكتفاف العناية بهم من ماضيهم وغابِرِهم .

٧٠

وقال إبراهيم بن كُنَيْفٍ النَّبْهانِىُّ :(١)

١ — تَعَزَّ فإن الصَّبْرَ بالحرِّ أَجْمَلُ وليسَ على رَيْبِ الزَّمان مُعَوَّلُ(٢)

الخطاب بهذا الكلام للنَّفْس على طريق التَّسلية ، فيقول : تصبَّرْ فإنَّ الصَّبر بالرجل الكريم أحسَنُ من التخشُّع فيما لا يَحْسُن الخضوع فيه وله . والأصلُ فى الصَّبرِ الحبْسُ ، ومنه قولهم : قُتِلَ فلانٌ صَبْرًا . وقولُه « وليْس على رَيْبِ الزمان مُعَوَّلُ » ، يريد به أنّ الأحداثَ لا تقف على شىء بحُكم واحد ، ولكنها تتنقَّل وتتبدل ، فلا مُتَّكَل عليها ، ولا مُعتَمد على عَهدها ، فهى كما تُحْسِنُ تُسِىء ، وكما تُدْوِى تُدَاوِى ، وكما تَجْمَعُ تُفرِّق . وقوله « تَعَزَّ » هو من عَزَا الرَّجُلُ وعَزِىَ الرجل ، إذا صَبَر عَزَاءً ، ورَجلٌ عَزِىٌّ أى صَبورٌ . وفى بناء تَفعَّل زيادةُ تكلُّف ، ودلالة على فرط تعمُّلٍ . والمُعَوَّل : المَحملُ والمتَّكَلُ .

(١) قال البكرى فى اللآلى ٤٣٠ : « شاعر إسلامى » .

(٢) بعده عند التبريزى أبيات ثلاثة وهى :

فلو كانَ يُغْنِي أن يُرَى المرءُ جازعاً لحادِثةٍ أو كان يُغنِى التذلُّلُ

لكانَ التعزِّى عند كل مصيبةٍ ونائبةٍ بالحُرِّ أوْلَى وأجْمَلُ

فكيفَ وكلٌّ ليس يَعْدُو حِمَامَه وما لامرئٍ عما قَضَى اللهُ مَزْحَلُ

والحرّ أصلُه الأعتقُ من كلِّ شيء والأكرم ، ولذلك قيل لِمَا بدا من الوجه فى اللِّقاء : حُرُّ الوَجهِ . قال الشاعر(١) :

* لقد شانَ حُرَّ الوجهِ طَعْنَةُ مُسْهِرِ(٢) *

٢ — فإنْ تكنِ الأيامُ فينا تبدَّلَتْ بِبُؤسَى ونُعْمَى والحوادِث تَفعَلُ

قوله « والحوادث تفعل » يسمى اعتراضا ، ومثل هذا من الاعتراض يَزيد القصة تأكيداً ، وهو ها هنا حائلٌ بين الجزَاء وجوابِه ، لأن جوابَ إنْ تكُنْ قولُه « فما ليَّنَتْ مِنَّا قناةً صَليبَة » وحَسُنَ الكلامُ به جِدًّا إذ كان تأكيداً لما يقتصُّه من تحوُّل الأحوال ، وتحقيقاً لما شكاهُ من رَيبِ الزمان ، وبَعْثاً على التَّسلى ، وأَخْذِ النفسِ بالتأسِّى . فيقول : إن كانت الأيام دارت فينا بالنَّعماءِ مَرَّةً وبالبأساء أخرى — وهذا عادةُ الدهرِ وحوادثِه — فما غيَّرتْ منّا شيئا .

٣ — فما ليَّنَتْ مِنّا قناةً صليبةً ولا ذَلَّلَتْنا لِلَّذِى ليسَ يَجْمُلُ(٣)

ذِكْرُ القَنَاةِ مَثَلٌ ، وقد مَضَى الكلام فى مِثلِه . وأبين ما يُسْتَشْهَد به فى استعارتها للإباء والتشدُّد قولُه :

كانت قَنَاتِى لا تلينُ لغامزٍ فألانَها الإصباحُ والإمْساءُ(٤)

وهذا البيت بيانٌ لفائدة الصبر الذى دعاه إليه ، وبَعَثَ نفسَه عليه ، لأن

(١) هو عامر بن الطفيل . ديوانه ١١٩ والشعر والشعراء ٢٩٣ .

(٢) صدره : * لعمرى وما عمرى على بهين *

(٣) التبريزى : « للتى ليس تجمل » .

(٤) فى الكامل ١٢٥ ليبسك : « وقال بعض شعراء الجاهلية » . والبيت مع قرين له فى الكامل وعيون الأخبار (٢ : ٣٢٢) . ونسبا فى زهر الآداب (١ : ٢٠١) إلى عمرو بن قميئة .

الصابرِ على الشدائد حَقيقٌ بألاّ يتذلَّلُ لما لا يحسُنُ به ، ولا تَجْمُل الأُحدوثة فيه عنه ، وألاّ يتليَّن لما كان يَتصلَّبُ له من قبلُ . فإن قال قائلٌ : فإذا كان غاية الصبر ومعناه هذا ، فإلى أىِّ شىء دعا نفسَه بقوله : تَعَزَّ فإن الصبر بالحُرِّ أجَلُ ؟ وقد خبَّرَ عن نفسِه بأنه آخِذٌ بما هو حقيقتُه ؟ قلتَ : يجوز أن يكون معنى « تَعَزَّ » دُمْ على التَّعزِّى ، ويكون بناء الأمرِ لما هو الحال ، ولا يريد استئنافُه ، كما أن قولَ الله عزّ وجلّ : ﴿ يأيُّها الذينَ آمَنوا آمِنوا بالله ورسولِهِ ﴾ معناه دُوموا على الإيمان . ويجوز أن يكون أمرِ نفسَه فى المستقبل بما كان عادتهم فى المُسْتَقْدَم .

٤ — ولَـكن رَحَلْنَاها نفُوساً كَرِيمةً تُحَمَّلُ ما لا يُسْتَطاعُ فتَحمِلُ[(١)]

يجوز أن يكون معنى رَحَلْنَاها رَحَلْنَا لها نفوساً ، والضمير للحوادث ، ويكون هذا كقولهم كِلْتُكَ وكِلْتُ لك ، ووَزَنْتُكَ وَوَزَنْتُ لك ، ويكون نفوساً مفعولاً لِرَحَلْنا . ويجوز أن يكون الضمير أعنى ضمير المنصوب فى « رحلناها » للنفوس ، على أن يكون مفعولا . وأتى بالضمير قبل الذِّكْر ، ثم جعلَ قولَه نُفُوساً بدلا منها ، على طريق التبيين . وقولُه « ولـكِنْ » حَرْفٌ يُستدرَك بها بَعْدَ النفى ، فيكون المعنى ما تذلّلنا للنوائب ، ولـكن هيَّأنا لها نفوساً تأنف من الرِّضا بالدنيّة ، فلا تَنْسى كَرَمَها ، وتُكلَّفُ أمورًا لا تنهض بها فتتكلَّفها . وفى وصف النفوسِ بالكرم إشارةٌ إلى الظَّلَف والعفّة ، والتَّأبِّى من المُخْزِيَةِ ، ومجانبة الريبةِ ، والنفور من كلِّ قبيحة . ولذلك قال الله عزّ

(١) بعده عند التبريزى :

وقَيْنا بِحُسْنِ الصَّبْرِ مِنَّا نفوسَنَا فصَحَّتْ لنا الأعراضُ والنّاسُ هُزَّلُ

وجلّ فى صفة المختارين من عباده المزكِّين(١) : ﴿ والذينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وإذَا مَرُّوا باللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ . فأما قولُه « رَحَلْناها » فى الاستعارة ، فكما يقال استَحْملتُ فلانًا نفسى ، وركِبَتْنى ظُلاماتٌ وما أشبهَها . وحُكى : هو يَرْحَله بما يَكرهُه ، أى يرْكَبُه ؛ ولا رَحَلْتُكَ بالسيف ، أى لا عَلَوْتُك .

٧١

وقال آخَرُ :

١ ــ وكَمْ دَهِمَتْنِي من خُطُوبٍ مُلِمَّةٍ صَبَرْت عَليْها ثم لم أَتَخَشَّعِ

يقول : مراراً كثيرة فاجأتنى خُطوبٌ شديدةٌ ، ونزلَتْ بى ، فحَبَسْتُ نفسى عليها ، وتجلدت لها ، فلم يَظهَرْ فى مَناظِرى خُشوعٌ ، ولا بَدَا فى جوارحى خُضوع . وموْضِعُ كم على هذا التأويل ظَرْفٌ . « ومِنْ » على طريقة الأخفش تكون زائدة ، لأنه يُجوِّز زيادة « مِنْ » فى الواجب ، ويَستدِلُّ من المسموع بقول بعضهم : « قد كان من مَطَرٍ فَخَلِّ عَنِّى » وبغيره . فكأنه قال : كم مَرّةً دهَمَتْنى خطوبٌ كثيرة . ويكون قولُه صَبَرْتُ عليها صفةً للخطوبِ . ويجوز أن يكون كم فى موضع الابتداء ، ومن خُطوبٍ هو بيانٌ له ، وقد فصَل بينهما بخبره ، وهو دهمَتْنى ، وتقديره كم من خطوبٍ دهمتنى ، أى كثيرٌ من الخطوب . فأمّا فائدة العطف بثُمّ من قوله « ثُمّ لم أَتَخَشّع » فهو إبانة الاستمرار فى الصَّبر ، وإن طالت المُهْلة إلى أن انكشفت تلك الملمّات العارضة وانفرجت . ومعنى دهَمَنى : فاجأتنى ، ومنه الدَّهْم ودَهْماء الناس .

٢ ــ فأدركْتُ ثأرِى والذى قد فعلتُمُ قلائدُ فى أعناقِكُم لم تُقَطَّعِ

(١) المزكين ، كذا ضبطت بكسر الكاف فى النسختين ، أى الذين زكوا أنفسهم . وفى كتاب الله : « قد أفلح من زكاها » .

يقول : أصَبْتُ ما طَلَبْتُهُ ، وتقاضَيْتُ به ممن كان لى عنده ثأرٌ أَوْ وِتْرٌ ، فاستنزلته عنه ، وما فعلتم من القُعودِ عن نُصْرَتى ، وخِذلانى فيما نابنى ازِمَكُمْ ، فكأنَّها قَلائد وأطواقٌ لا تَنحلُّ عنكم ولا تنقطع . وهذا تحقيقٌ للزوم العار لهمْ فيما أَتَوْا . ومثله قول بِشْر :

* وقُلِّدَهَا طَوْقَ الحمامةِ جَعْفَر *

يصفُ غَدْرَةً ارتكبوها . ومثلُه فى القرآن : ﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيامَة ﴾ .

٧٢

وقال عُوَيْفُ القَوافِى(١) :

١ – ذَهَبَ الرُّقَادُ فما يُحَسُّ رُقَادُ مِمَّا شَجَاكَ ونَامَتِ العُوادُ(٢)

يقول : طارَ النَّومُ فلا يُعرفُ له أَثرٌ ، مما دَهَاكَ وحَزبَكَ ، ونام الذين كانوا

(١) عويف القوافى الفزارى ، وهو عوف بن معاوية بن عتيبة بن حذيفة بن بدر ، سمى عويف القوافى لبيت قاله ، وهو :

سأكذب من قد كان يزعم أننى إذا قلت شعراً لا أجيد القوافيا

وهو شاعر مقل من شعراء الدولة الأموية ، مدح الوليد وسليمان ابنى عبد الملك ، وعمر ابن عبد العزيز . البيان (١ : ٣٧٤) ومعجم المرزبانى ٢٧٧ – ٢٧٨ والأغانى (١٧ : ١٠٥) والاشتقاق ١٧٣ .

قال أبو رياش : « وكانت أخته عند عيينة بن أسماء فطلقها ، فكان مراغما لعيينة وقال : الحرة تطلق لغير بأس ! فلما أخذ الحجاج عيينة فحبسه قال عويف هذا الشعر » .

(٢) روى التبريزى بعده :

خبرٌ أتانى عن عيينةَ موجِعٌ كادت عليه تَصَدَّعُ الأكبادُ
بلَغَ النُّفوسَ بلاؤه فكأننا موتَى وفينا الرُّوح والأجسادُ
يَرجون عَثرةَ جَدِّنا ولو انهم لا يَدفعون بنا المكارهَ بادُوا

يعودونك ولم يَسْهَرُوا لك . والمعنى : إنّى اختُصِصْتُ فيك بما عَرِىَ منه عُوّادُك ، وتَحمَّلت من الجَزَع ما سَقَطَ عنهم وخَنَّ عليهم . والرُّقاد والرُّقود : النّوم بالّليل ، وعرّف الأوّلَ تعريف الجنس ، ونَكّر الثانى لأنّه أراد نَوْعًا من الجِنس ، كأنّ المرادَ : ذهبَ النومُ على اختلافِه حتّى ما يُرَى لنَوْعٍ منه مُخْتَصٍّ أثَرٌ .

٢ — لَمَّا أتانِى عن عُيَيْنَةَ أَنَّه أَمْسَتْ عليه تَظَاهَرُ الأقيادُ[1]

قوله « لَمَّا أتانى » ظرْف لقوله « نَخَلَتْ له نَفسِى » لأنّ لَمّا إذا وليَهُ الفِعْل الماضى ، كان علماً للظرف ، وفُسّرَ بحِين . والمعنى : حين تَسَاقَطَ إلىّ عن هذا الرجل وتأدّى أنّهُ أُسِرَ وَقُيِّدَ بقَيدٍ بَعْد قَيْد ، فارَقَنِى ما كنت أخامِرُهُ وأنطوى عليه من التنكُّر له ، وأزَلْتُ عن نفسى ما استجفيته فيه ، لأنَّ الكريم يرقُّ لمثله من الكِرام عند النَّوازل . ومعنى التظاهر : أنْ يَصِير الشَّىء فوق الشىء فيَقْوَى . ويقال : ظاهَرَ بين ثَوبين ، إذ لبِسَ أحدَهما فوق الآخر . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَظَاهَرا عَلَيْهِ ﴾ معناه تعَاوَنا ، ومنه قولهم : هو ظَهْرٌ ظهيرٌ ، أى قوىٌّ فى الاستغاثة .

٣ — نَخَلَتْ لَهُ نَفسِى النَّصِيحَةَ إِنَّهُ عِنْدَ الشَّدائد تَذْهَبُ الأحْقَادُ

يقول : أَصْفَتْ عند ذلك نَفسى له النُّصْحَ ، لأنَّ الضغائن تُفارِق عند الشدائد . وهذا الكلام هو بيان عِلّة مفارقة ضِغْنه ورجُوعه إلى سلامة الصَّدْر له . وقد ذكر فيما بَعْدَهُ ما يَدُلُّ على حسن الإنصاف من النَّفس ، والاعتراف بالفضل للغَير . ويجوز أن يُرْوَى « أنه » بفتح الهمزة ، والمعنى لأنَّه عند الشَّدائد . وإذا رُوِىَ بالكسر يكون على الاستئناف .

(١) التبريزى : « أمسى عليه » .

٤ — وذَكَرْتُ أَىَّ فَتًى يَسُدُّ مَكَانَه بالرِّفْدِ حين تَقَاصَرُ الأَرْفَادُ

مصدر ذَكَرْتُ فى هذا الذُّكْر بضم الذال ، لأنّه بالقلب . وقوله «بالرِّفد» ، يريد ببذْل الرِّفد ، فحذَفَ المضاف . يقول : أَجَلْتُ فى فِكْرِى ، وقُلْتُ فى حديث نفسى : لو خَلَّى مكانه مَنْ كان يَسُدُّ مَسَدَّه ، ومَن يُعْطِى عَطَاءه عند تقاصُر العطايا وتراجُع المعونات . وهذا إشارةٌ إلى زَمان الجَدْب والقَحْط وقتَ تَنَافُس النّاسِ فى المتملَّكات ، والدَّفع عنها بإعْداد العِلاَّت . والمعنى : إنّ مِثْلَه لا يُوجَدُ ولا يُظْفَرُ به فى مثل ذلك الوقت ، فإذا كان كذلك فكيف يَسْمَحُ المُنصِفُ به لدَهرِه ، أو كيف ينطوى الصدْرُ على السُّلُوِّ عنه والخُلُوِّ منه ، مع شدة الحاجة إليه . ويقال : رَفَدْتُ الرّجل رَفْدًا إذا أعطيتَه ، ثم سُمِّىَ العطيَّةُ رِفْدًا بكسر الراء ، وجَمْعه الأرفاد . وأرفَدْتُه مَحْكِىٌّ لكنه ليس بالمتخيَّر . وتَقاصَرُ ، أصلُهُ تتقاصَرُ فحذف إحدى التاءين تخفيفاً ، وهو فى موضع الجر بإضافة حين إليه .

٥ — أَمْ مَنْ يُهِينُ لَنا كَرائِمَ مَالِهِ ولَنا إذا عُـــدْنا إليه مَعَادُ

أمْ هذه هى المنقطعة ، والاستفهام دَخَل فى الكلام على طريق التوجُّع والتلهُّف لما جَرَى على عُيَينه المذكور . والمعنى : لو فقدناه مَن كان يبذُل لنا عقائلَ أمْوَاله ، ومتى شئنا وجَدْنا عنده معادًا فلا يَمَلُّ السُّؤال ، ولا يُغِبُّ النَّوال ؛ وهذا الكلام تنبيهٌ على أنّه كان يُدِيم الإحسان ، ولا يَحُولُ عطاء يومه دون عطاءِ غَدِه . وقوله « كرائمَ مالِهِ » ، جَمْع كريمةٍ ، وقد أُجْرِى مَجْرى الأسماء حتّى جاء فى الحديث : « إذا جاءكم كريمةُ قومٍ فأكرموه[1] » .

(١) قاله صلى الله عليه وسلم ، فى إكرام جرير بن عبد الله لما ورد عليه فبسط له رداءه وعممه بيده . اللسان (كرم) .

٧٣

وقال بِشْرُ بن المُغِيرَة(١) :

١ — جَفانى الأَمِيرُ والمغيرةُ قد جَفَا وأَمْسَى يَزِيدُ لِى قد ازْوَرَّ جانِبُهْ(٢)

أراد بالأمير المهلَّب بن أبى صُفْرَةَ . والمغيرَةُ أخوه ، ويزيد ابنُه . وقائل هذا الشعر بِشر بن المغيرة ، وهو أحدُ الفُرسان المشهورين(٣) ، فيقول : جفانى عَمِّى المُهَلَّبُ ، وأبى المغيرة ، وصار يزيد ابن عمى لاقتدائه بهم منحرِفاً عنِّى ، غير مائلٍ إلىّ . والازورار : الانحراف ، وهو من الزَّوَر : نُتُوٌّ أحدِ شِقَّى الصدر واطمئنان الآخر : ويقال رَجُلٌ أَزْوَرُ ، وامرأةٌ زوراء .

٢ — وكلُّهُمُ قدْ نالَ شِبْعًا لبطْنِهِ وشِبْعُ الفَتَى لُؤْمٌ إذا جَاعَ صاحِبُهْ

أراد بالكلّ الاتحاد لا الجميع . يقول : كلٌّ واحدٍ منهم قد نال من الدُّنيا وأعراضِها قَدْر ما يشبعه ويمكنه الاكتفاء به ، ثم قال : وشِبْعُ الإنسان لُؤْمٌ إذا لم يُشْرِكْ صاحِبَهُ فيه فيبقى جائعاً . أى هو كذلك فى ذلك الوقت ، وعلى تلك الحالة . والشِّبْعُ لا يكون لُؤْمًا ، لكنَّ التفرُّد به من دون ذَوِيه على حاجةٍ منهم إليه يكونُه(٤) ، فرَمَى بالكلام على ما تَرَى لأنَّ المراد منه مفهوم . والفَرْقُ بين الشِّبْع والشِّبَع ، أن الشِّبْع بسكون الباء : القَدْر الذى يُشْبِـع ، والشِّبَع بفتح الباء :

(١) قال التبريزى : « ويروى أن اسمه كان بُسْراً » . وقال أيضاً : « وكان بشر بن المغيرة بخراسان مع المهلب فلم يوله شيئاً » .

(٢) يزيد ، ضبطت فى الأصل بضمتين فى أعلى الدال وضمة فى وسطها لتقرأ بالصرف وعدمه ، وذلك مع كلمة « معا » فوق الضمتين .

(٣) م : « المشهورين » .

(٤) أى يكون لؤما .

الامتلاء من الطعام ، وقد استعمل الشِّبَع فى غير الطّعام فيقال : أشْبَعْتُ الثوبَ صِبْغاً ، وكذلك فى كلِّ ما وفّرتَه من القول وغيره ، حتّى قيل تَشَبَّع الرّجُلُ ، إذا تَكَثَّر .

٣ — فيا عَمِّ مَهْلاً واتّخِذْنى لِنَوْبَةٍ   تُلِمُّ فإنّ الدهْرَ جَمٌّ نوائبُه[1]

قولُه « مَهْلاً » معناه رِفْقاً ودَعِ العجلة . ويحرَّكُ الهاء منه فيقال ائت كذا على مَهَلٍ ومَهْلٍ جميعا . ويقال : ما بى عن كذا مَهْلٌ ، أى إنِّى فيه مستعجِل . وفى هذا بعض التوعُّد والتطنُّز وإنْ كان ظاهرُه أنه يَستعطف المُهلَّب ويُعرّفُه أنَّ الدّهرَ ذو غِيَرٍ وذو ألوان فلا يُؤمَن بوائقُه ؛ وأنّه قد يُحتاج إلى المُسْتَغْنَى عنه لحادثةٍ تَحْدُثُ . فيقول : ادَّخِرْنى لِنَوْبةٍ تَنزِل ، وهى المصيبة أو النَّكبة ، ولا تَطَّرِحْنى اغتراراً بالأَمْنِ ، فإنَّ الدَّهْرَ كثير النوائب ، وشيك التحوُّل . وقولُه « يا عَمِّ » حَذَفَ الياء منه لوُقوعه موقعَ ما يُحْذَفُ فى هذا الباب ، وهو التنوين ، ولأنّ باب النّداء بابُ إيجاز ، ولأن الكسرة تَدُلُّ عليه .

٤ — أنا السَّيْفُ إلّا أَنَّ للسَّيْفِ نَبْوَةً   ومِثْلِىَ لا تَنْبُو عَلَيْكَ مَضارِبُهْ

يُفَضِّلُ نفسَه فى نفاذِه فى الأمور ومضائه ، على السَّيف ؛ فقال أوّلاً : أنا السَّيف ، أى أشْبِهُهُ ، ثم تَلافَى فقال : إلّا أن السَّيْفَ رُبَّما نَبا عن الضَّريبة وكَبَا ، ومثلى لا تَكِلُّ ولا تَنْبُو حُدُودُه عن شىءٍ تُلاقيه . وفى هذه الطريقة قول جرير :

وليس لسَيفى فى العظام بقيَّةٌ   ولَلسَّيفُ أشوَى وقعةً من لِسَانيا

والمَضارِبُ : جمع مَضرِبٍ ، وهو الموضع الذى يُضرَبُ به من السيف .

---

(١) التبريزى : « جم عجائبه » .

٧٤

وقال بعض بنى فَقْعَس (١) :

١ — يأيُّها الرَّاكِبانِ السَّائِرانِ مَعًا قُولاَ لِسِنْبِسَ فَلْتَقْطُفْ قَوافِيها

الراكب : اسمٌ لمن ركب حيوانًا إلا الفرَس ، فإنه يقال لراكبه فارسٌ متى أطلِقَ . ومَعًا ، انتصب على الحال ، ومعناه مُصْطحِبين ومجتمعين . فيقول : يأيها السائران المصطحِبان ، قولاَ لهذه القبيلة لتتركْ قولَ الشِّعر ، أو تتوقَّفْ قليلا حتى تتباطأَ قوافيها عنِّي (٢) . وفى هذا الكلام ضَرْبٌ من الاستهزاء بهم ، وإشارةٌ إلى التجبُّر والتعَلِّى عليهم . والقَطوفُ من الدوَابِّ : الذى فى خَطْوِه بُطءٌ مع تقارُب . وجعلَ فعلَ الأمرِ للقوافى على السَّعة والمجاز . وسِنْبِسُ هم المأمورون . وهذا كما يقال فى النَّهْى : لا أَرَيَنَّكَ هاهنا ، والمخاطَبُ هو المنهِىُّ ، لأنّ المعنى : لا تكن هاهنا فأراكَ . ثم بيَّن هذا الشاعرُ الوجهَ الذى أوجَبَ منه اطِّراح الافتخار ورفضَ الهجاء له ، فقال :

٢ — إنِّى امرؤٌ مُكرِمٌ نفسى ومُتَّئِدٌ مِن أن أُقاذِعَها حتى أُجازِيها

يقول : إنى رجلٌ أَرْبأ بقدْرى عن مكايلتهم ، وأترفَّع عن موازنتهم ، وأتوقَّف عن مُلاحاتهم ، طلبًا لمجازاتهم . والتقدير : لا أُقاذِعُها لكى أُجازِيَها ، لأنّ حتى الداخلةَ على الفعلِ مرّةً يكون بمعنى كَىْ ، ومرّةً يكون بمعنى إلى أن .

(١) التبريزى : « وقال بعض بنى عبد شمس من فقعس » .

(٢) جعل « تقطف » هنا من القطاف وهو بطء الدابة . وأما أبو رياش فجعلها من قطف الثمرة بمعنى قطعها ، أى لتدع قول الشعر فيما بيننا وبينها . وأما النمرى ففسرها من القطف : جنى الثمرة ، أى إن فعلنا بهم شراً فهو جناية قوافيهم عليها . وهذا القول الأخير حسن جداً ، إلا أن ما بعده يدل على أنهم لم يجازوهم بعد ، لقوله : إنى امرؤه مكرم نفسى ومتئد . وعلى هذين المعنيين تكون « تقطف » متعدية . وعلى ما فسره المرزوقى تكون لازمة .

ويجوز أن يكون المعنى : لا أُقاذِعُها إلى أن أُجازِيَها ، أى أوّلاً أُجازيها فعلاً لأرى القُدرة عليها ، ثم حينئذ أجازيها بالـكلام . والأول أحسن . ثم أخذ يقتصُّ ما كان منهم لمّـا طلب مكافأتَهم بالفعل . والمُقاذعة : المُفاحَشة . ويقال قَذَعْتُه ، إذا رَمَيْتَه بالفُحْش . ومتَّئِدٌ : مُفتعِلٌ من التُّؤَدةِ ، وهى الرِّفْق .

٣ — لمّا رَأَوْهَا مِنَ الأَجْزَاعِ طالِعَةً شُعْثًا فَوَارِسُهَا شُعْثًا نَوَاصِيهَا

يقول لمّـا رأوا الخيلَ بارزةً لهم ومفاجئةً إياهم من أجزاعِ الوادى — وهى جوانبها — مُغبَرَّةَ النَّواصى مغبرّة الفرسان . وجواب لمّـا فيما بعده . ويقال شَعِث شَعَثًا وشُعوثةً ، وهو أَشْعَثُ وشَعِثٌ . وأضمرَ الخيل فى قوله « لما رأوها » وإن لم يَجْرِ لها ذِكْرٌ ، لأن الحالة الحاضرة تدلُّ عليه . ويجوز أن يكون تقدَّم ذكرها فيما تُرِكَ من أبياته .

٤ — لاذَتْ هُنَالِكَ بالأَشْعَافِ عالِمَـةً أَنْ قد أَطاعَتْ بلَيْلٍ أَمْرَ غاوِيها

يقول : التجأتْ فى ذلك الوقتِ إلى قُلل الجبال وأعالى الهضـاب ، عارفة سوء اختيارها فى تحكُّـكها بى ، وتعرُّضِها بالشِّعر لى ، وأنَّها قد ائتمرت لغواتها بِلَيْلٍ . وذِكْر الليل هاهنا إشارةٌ إلى حَيْرَتها فيما أَتَتْه من تَرْكها الرَّشاد ، وقَبولها مَشورة الغُواة . والأَشْعافُ : جمع الشَّعَفَة ، وهى أعلى الجبل ، وأعلى كلِّ شىء ، ولذلك قيل شَعَفة القَلْب لرأسِه عند معلَّقِ النِّياط . وهنالك ظرف ، ويكون للزَّمانِ والمكان جميعا ، وزيادة اللام تكون للتأكيد فيه ، كأنّ البُعدَ فيما يُشار إليه بهُنالِك أبلغُ مما يكون فيما يشار إليه بهناك . وهذا على طريقةِ ما تقوله فى ذلك وذاك . وقوله « أنْ قد أطاعت » أن فيه مخفَّفة من الثقيلة ، أى عالمة أنها قد أطاعت . ويقولون لمـا لا يُعمَل بتثبُّتٍ وحُسن تدبُّر : « هذا

أمرٌ قد قُدِّرَ بليْل » . وعلى هذا قوله تعالى : ﴿ بَيَّتَ طائفةٌ منهم غيْرَ الذى تَقُول ﴾ .

٧٥

وقال آخر فى ابنٍ له :

١ ــ لا تَعذُلى فى جُنْدُجٍ إن جُنْدُجًا ولَيْثَ عِفِرِّينٍ لَدَىَّ سَوَاءُ

يخاطب لأئمةً عَذَلتْهُ فى التوفُّر على ابنه جُنْدُجٍ واختصاصه إيّاهُ واستخلاصه ، وذكر الخليل أن جُنْدُجًا فى اللُّغة : رَمْلَةٌ طيّبة تُنْبِتُ ألوانًا من النبات . فيقول : لا تلوميني فى أمر جُندجٍ ، إنّ جُندجًا وليثَ هذه المَأْسَدَةِ متساويان عندى . وقد قيل فى ليث عِفرِّين : إنّها هى التى تصيد الذُّبابَ وثبًا ، فشبّهه فى كَيْدِهِ ومكرِه به ، وقد وُصِفَ الخبيثُ المُنْكَر بالعِفْر والعِفْرِيَةِ وعَفَرْنَى ، ويقال أيضا للأسد عِفْرٌ وعَفَرْنَى . وقيل هو أشدُّ عَفَارَة ، واستعفَرَ فلانٌ . وحكى الأصمعى أنّ ليث عِفِرِّينَ دابّة كالحِرباء يتحدّى الراكبَ ويضرب بذنَبه(١) . وقيل عِفِرِّينَ : موضع نُسِبَ إليه ، وقيل عِفِرِّين : فِعِلِّين من العَفَر ، وهو التُّراب ، لأنّ عادة الأسدِ أنْ لا يصيب من فريسته حتى يُعفِّرَه ، يشهد لذلك قولُ الآخَر فى صفته :

* ولا نالَ قَطُّ الصَّيْدَ حتى تَعَفَّرا(٢) *

وذكر بعضُهم أنّ ليثَ عِفِرِّين كقولهم : لَيْثُ لُيُوثٍ ، لأنّه يقال المُنْكَر الداهية عِفِرٌّ ، ويوصَف به الأُسود والرِّجال . ويكون على هذا عِفِرِّين جمعَ جَمْعَ السَّلامة كالأقْوَرِينَ ، ومرَّ بى أنّ قولهم ليث عفِرِّين يستعمَل فى المدح والذّمّ وسَوَاءُ : مصدرٌ فى الأصل وُصِفَ به .

---

(١) م : « تتحدى الراكب وتضرب بذنبها » .

(٢) م « حتى يعفرا » .

٢ — حَمَيْتُ على العُهَّار أطهارَ أُمِّه وبعضُ الرِّجال المُدَّعين جُفَاءُ

يُبيِّن فى هذا الكلام انتفاء الرَّيْبِ عن مشابهته له ، وتقبُّله إيَّاه ، وأنّه لا يُشَكُّ فى كونه من صُلبه ، فيقول : حَفظْتُ أطهارَ أُمِّه عن الزُّناة ، لأنى اخترتُها من بيتِ العفّة ، وأَرومة الكرم ، ومَغْرِسِ النَّجابة ، والعِتْق والشَّهامة[1] ودَعوَاىَ حقٌّ ، وبعض دَعاوَى المُدَّعِين كالذى يَعْلو السَّيلَ ويحتملُه من سَقَطِ الأرض . والمراد بقوله : وبعض دَعَاوَى الرجال ، فحذف المضاف وأقامَ المضافَ إليه مقامه . والعَهْر والعُهُور : الفجور . ويجوز أن يريد بقوله « حَمَيْتُ على العُهَّارِ » ما أراد امرؤ القيس بقوله :

* وأَمْنَعُ عِرْسِى أن يُزَنَّ بها الخالى[2] *

أى بِفَرْط غَيرتى وكمال رُجوليَّتِى وتمام محاسِنى . وإنّما خَصَّ الأطهار لِمَا فى المَحِيض من الاعتزال ، وكما قال الآخر[3] :

* دُونَ النِّساء ولو باتَتْ بأَطْهَارِ[4] *

وذكر بعضُهم أنَّ المراد بقوله جُفَاءٌ : وبعضُ الرجال محمولٌ دعِىٌّ ، فهو كالجُفَاء لا يُعتدُّ به . والصَّحيح الأوّل .

٣ — فَجاءَتْ به سَبْطَ العِظَامِ كأنَّما عِمامَتُهُ بَيْنَ الرِّجَالِ لِوَاءُ

---

(١) قال أبو محمد الأعرابى : إنما وصف الشاعر ابن أمة . يقول : لم أسبها كما تسيب الإماء فجاءت به لرشدة . وإذا وقفت على قصة البيت عرفت مصداق ما قلته . أكتبنا أبو الندى قال : كان رجل من بنى جناب من بلقين عنده ابنة عم ، له منها ابن يقال له سيار ، وكان له ابن من أمة يقال له دملج ، فكانت الحرة إذا رأته يلطف دملجا ببعض اللطف لامته وغضبت ، فأنشأ يقول :

ألائمى فى دملج إن دملجا وشركة سيار إلى سواء
شغلت عن العشاق أطهار أمه وبعض الرجال المدعين زناء

(٢) صدره : * كذبت لقد أصبى على المرء عرسه *

(٣) هو الأخطل . ديوانه ١٢٠ وشرح شواهد المغنى ٢٢١ .

(٤) صدره : * قوم إذا حاربو شدوا مآزرهم *

يقول : جاءت الأمُّ بهذا الولد وهو تامُّ العظام مديدُ القامة ، فكأنَّ قامتَه رمح ، وكأنَّ عمامتَه إذا توسَّطَ الرِّجالَ لواءٌ محمول عليه . وأحسن صنعةً منه قولُ مسلمٍ ، وإن كان هذا سليما من العَيْب .

يَقُومُ مَعَ الرُّمْحِ الرُّدينيِّ قَامَةً وَيَقْصُرُ عنه طُوُل كلِّ نِجادِ

وفى طريقته قولُ الآخر[١] :

* يَكَادُ يُسَاوِى غَارِبَ الفَحْلِ غاربُهُ[٢] *

٧٦

وقال آخر[٣] :

١ — إذا كانَ أولادُ الرِّجالِ حَزَازَةً فأنتَ الحلالُ الحُلْوُ والباردُ العَذْبُ[٤]

إذا يتضمَّن معنى الجزاء ، ولهذا احتاج إلى الجواب فجُعل بالفاء . فيقول : إذا كان الأولاد تقطيعاً فى الصدور وتحزيزاً فى القلوب ، لعقوقهم واستعمالهم الجفاء فى موضع البِرِّ مع آبائهم ، فأنْتَ العَسَل مَشُوباً بالماء العذْب . وقد وصف بعضُهم كلاماً فقال : « هو السِّحْرُ الحلال ، والعَذْبُ الزُّلال » . ويشير الشّاعر إلى سهولة جانبِه ، وحُسن طاعته ، ودماثة خُلقه . وقال الخليل : الحزازة : وَجَعٌ فى القلبِ من غَيْظٍ أو أَذًى . والحَزَّاز أيضا كذلك ، وأنشد بيت الشَّمَّاخ :

(١) هو فرعان بن الأعرف ، يقوله فى ابنه منازل . الحماسية ٦٠٣ .

(٢) صدره : * لربيته حتى إذا آض شيظما *

(٣) قال أبو رياش : هو لأبى الشغب العبسى ، وقال أبو عبيدة : للأقرع بن معاذ القشيرى .

(٤) أول المقطوعة عند التبريزى :

رأيت رِباطاً حينَ تم شَبابُهُ وولّى شَبابى ليس فى بِرِّه عَتْبُ

قال : « ليس فى بره عتب ، أى ليش فيه فساد . قال أبو هلال : الوجه أن يقال إنه لا يمن ببره فينكر منه ذلك ، يقال عتبت على الرجل عتبا ، إذا أنكرت عليه شيئاً من فعله . ويجوز أن يقال : إنه يعم بالبر جميع أهله فليس يعتب عليه أحد منهم ، أو يقوم بجميع ما يحتاج إليه أبوه فلا يعتب عليه فى شىء » .

* وفى الصَّدر حَزَّازٌ من اللَّوْمِ حَامِزُ(١) *

٢ — لنا جانبٌ منْهُ دَمِيثٌ وجانِبٌ إذَا رَامَهُ الأَعداء مُمْتَنِع صَعْبُ

خاطَب فى الأوّل ثم عَدَلَ فى الثانى إلى الإخبار ، وهذا عادتُهم إذا افتنُّوا فى كلامهم ، نظموا أو نثروا ، لِمَا فى التحوّل من سهولةِ تجاوبِ الألفاظ ، وتلاؤمِ طرائق النظام . فيقول : لنا مِن هذا الولد خُلُق سَجِيح ، ومذهبٌ فى البرِّ فسيح ، فهو هَيِّنٌ لَيِّنٌ معنا ، وللأعداء منه إذا طلبوه أو جرّبوه جانبٌ خشِنٌ مِدْفَعٌ ، وطريق صعب مُتْلِفٌ ، وخُلُق وعْرٌ شَرِسٌ . ولم يقل وللأعداء جانب ولكنْ عَطَفَ الثانىَ على الأوّل ، بمعنى أنّ أحدهُما لاجتذاب الخير ، والآخر لدِفاع الشرّ . فكأنّ التقدير : ولنا منه جانب مُعَدٌّ للأعداء ذلك صفتُه ، فصار الجانبان لهم فى اللفظ ، والقسمةُ ثابتة فى المعنى . والدَّماثة : سهولة الخُلُق ولينُ الجانب . ويروى « ممتنِعٌ صَعْبُ » ، و « مَتْلَفَةٌ صَعْبُ » ، والمعنى ظاهر .

٣ — وتأخُذُه عند المكارِمِ هِزَّةٌ كما اهتزَّ تحت البارحِ الغُصُنُ الرَّطْبُ

البارحُ : ريحٌ حارةٌ تجىء من قِبَل اليمن . فيقول : تملكُه عند اكتساب المكارم أريحيَّة يهتزّ عندها اهتزازَ الغُصْن الرَّطب ، الذى جرى الماء فيه ، إذا هبّت عليه البارح . و « كما اهتزّ » أراد كاهتزاز . وقوله « تحت البارح » حسَنٌ جدًّا ، لأنّ الريح تعلو الغُصُونَ فى مرورها . وقد نسبوا البارحَ إلى النجوم إذا ذكروا الأنواء . قال :

أيا بارحَ الجوزاءِ ما لَكَ لا تَرَى عِيَالَكَ قد أمسوا مَرَامِيلَ جُوَّعا(٢)

---

(١) صدره فى ديوان الشماخ ٤٩ واللسان (حزز ، حمز) :
* فلما شراها فاضت العينُ عبرة *

(٢) انظر الأزمنة والأمكنة للمرزوقى (١ : ٢١٦) ومجالس ثعلب ٤٩٠ .

هذا يقولُه بعض المتلصِّصة . وعِيالُها : السُّرّاقُ ، وذلك أنّ البارِح تَحمِل الغُبار وتَدْرُس الآثار ، فتَجْسُر المتلصِّصة على السَّعى ، وتُمَكِّنُهم السرقة .

٧٧

وقال آخر (١) :

١ ـ وفارقْتُ حتَّى ما أُبالِى مِنَ النَّوَى وإنْ بَانَ جِيرَانٌ علىَّ كِرامُ (٢)

يُروى : « مَنِ انْتَوى » وهو افتَعَل من النَّوى ، وهى الوِجهة المنويّة للقوم ، أو البُعْد . يقول : ألِفْتُ مفارقة الوَطَنِ والإخوانِ شيئاً بعد شىء ، واعتدتُ التّباعُدَ عنهم يَوْماً بعد يوم ، حتَّى لا أبالى مَن انتوى منهم أو نأى ، وإنْ كَرُموا علىَّ عند المجاورة . ومن روى : « لا أُبالِى من النَّوَى (٣) » فمعناه لا أحتفل به ، والأوّل أحسن . فإن قيل : كيف تعلّقَ « حتى » بفارقْتُ ؟ وما معناه ؟ قلتَ : أراد تكرَّرَت للمفارقةُ علىَّ وقتاً بعد وقْت ، وحالاً بعد حَالٍ ، إلى أن صِرْتُ لا أبالى بالفِراق . فمعنى حتَّى : إلى أنْ . وقولُه «فَارَقْتُ» مُسْتصلَحٌ للقليل والكثير فانصرَف إلى الكثير ، بدَلالة أنَّ المتمرِّن بالبلاء قديماً ، والمتحكِّك به كثيرا ، هو الذى يستهين به كثيراً ، دون من مَارَسَهُ يسيرا ، وعالَجه حديثا .

٢ ـ فقد جَعلَتْ نفسِى هى النَّأْيِ تَنطوى وعيْنِى على فَقْدِ الصـــديقِ تَنامُ

جعلَتْ نفسى ، بمعنى طَفِقَتْ وأقبلَتْ ، ولذلك لا يتعدّى . فيقول : أخذَتْ نفسى تَصبرُ على النأى ، وتنطوى على الفِراق ، فلا يظهر منها جزَعٌ ، ولا تبوحُ بشَكْوٍ ، وعينى تنام على فقد الصديق منهم فلا تسهر ، ولا تبكى

(١) التبريزى : «وذكر أنه لعبد الصمد بن المعذل ، وقيل للحسين بن مطير » .
(٢) التبريزى « ويروى : وفارقت حتى ما أحن من النوى » .
(٣) كذا فى النسختين مع اتفاقهما فى صلب البيت أنه « ما أبالى » .

فتذرِف . وهكذا النفسُ إذا وُطِّنَتْ على الشدائد ، وتمرَّنَتْ بالمصائب . وقوله « تَنطوى » أَصْلُ الطَّىِّ الثَّنْى والقَبْضُ ، ومنه الطاوى والطَّيَّان .

٧٨

وقال آخر (١) :

١ — رُوِّعْتُ بالبَيْنِ حتَّى ما أُرَاعُ له   وبالمصــــائبِ فى أهلِى وجيرانى

يقول : فُزِّعْتُ بالفِراق مرّةً بعد أخرى ، وثانيةً بعد أُولى ، حتى صِرْتُ لا أَرتاعُ له ، وواظبَتِ المصائبُ علىّ واتَّصَلَتْ فى الأَهْلِ تارةً ، والإخوان أخرى ، حتى صارت الرَّزايا بالإِلْف كأنها مرازِئُ وعطايا . والكلام فى حتَّى واتصالِه ومعناه على ما تقدّم .

٢ — لم يَترُكِ الدهرُ لى عِلقًا أَضَنُّ به   إلا اصــــطفاهُ بِنَأْيٍ أو بهِجْرانِ

يقول : لم أَدّخِرْ لنفسى عِلْقًا نافَسْتُ فيه إلا زاحمنى الدهرُ عليه فاستأثر به ، إما بإيقاعِ بُعدٍ بيننا ، أو إحداثِ هِجرانٍ توسَّطَنا . وأصــلُ العِلْق : المال الـكريم ، وجمعه أَعْلَاقٌ وعُلُوقٌ . واستَعارهُ هاهنا .

٧٩

وقال طُفيلُ الغَنَوِىُّ (٢) :

١ـ وما أنا بِالمستَنْــكِرِ البَيْنَ إنَّنى   بِذِى لَطَفِ الجِيرانِ قِدْمًا مُفَجَّعُ

---

(١) التبريزى : « قال أبو العلاء : هذا يروى لمؤرج السدوسى ، وكان مؤرج يكنى أبا قيد » .

(٢) هو طفيل بن عوف ، أو هو طفيل بن كعب الغنوى . كان من أوصف الناس الخيل وكان يقال له فى الجاهلية المحبر ، لحسن شعره . وطفيل شاعر جاهلى فحل كان أكبر من النابغة وليس فى قيس فحل أقدم منه . الأغانى (١٤ : ٨٥ — ٨٧) والخزانة (٣ : ٦٤٢ — ٦٤٣) والعينى (٣ : ٢٤ — ٣١) والاشتقاق ١٦٥ والمؤتلف ١٤٧ ، ١٨٤ والاقتضاب ٣٢٧ والشعر والشعراء ٤٢٢ .

يقال : نَـكِرَ وأنكَرَ واستنكرَ بمعنًى واحدٍ . فيقول : أنِسْتُ بفراقِ الأحبّة بعد نَفْرَتِي(١) ، وببُعْد ذوى اللَّطَفِ عَقْبَ(٢) قَلَقِى ، وذلك لأنِّى فُجِّعْتُ بالخُلطاء والجِيران قديماً ، حتَّى صار كالعادة المألوفة . وقوله « بذى لَطَفِ الجيران » أراد بلطيف الجيران ، أى باللطيف منهم . وقِدْمًا ظرف للمُفَجَّع .

٢ ــ جَدِيرٌ بِهِم من كل حيٍّ صَحِبْتُهُمْ   إذا أَنَسٌ عَزُّوا علىَّ تَصَدَّعُوا

يقول : أنا خَليقٌ بالبَيْن من كلِّ حيٍّ أجاورُهم إذا استَوْقَفْتُ قُرْبَهُمَ ، واستحليت السَّكُوْنَ معهم ، حتَّى لا يَعِزُّ عَلَىَّ أُنَاسٌ إلاَّ تفرّقوا عن كَثَبٍ . والأنَسُ : الطَّائفة من النّاس . يقال : رأيت معه أنَسًا كثيراً ، أى نَاساً . تَصَدَّعوا : تفرَّقوا . ومنه يقال تصدَّعتِ الأرضُ بفُلانٍ ، إذا تغيَّبَ هَارِباً .

٨٠

وقال الرَّاعِي(٣) :

١ ــ وَقَدْ قَادَنِي الجِيرَانُ حِيناً وقُدتُهُمْ   وفَارَقْتُ حَتَّى ما تَحِنُّ جِمَالِيَا(٤)

يقول : جَذَبَنِى الخُلَطَاء زماناً وجذَبتُهم ، حتى كُنتُ فى حُـكْم من لا يَصبِرُ عنهم ، ولا يفكُّ منهم ، كالقائد للشَّىء وهو مقودٌ لهُ ، لأنّ من كان هذه صِفَتَه مع شىء فهو يلزمُه ولا يفارِقُه . والآن فارقْتُهم فلا أَحِنُّ إليهم ، ولا أَنْزِعُ نحوهم .

(١) م : « نفرى » .

(٢) كذا بسكون القاف فى النسختين ، وهى لغة صحيحة .

(٣) الراعى لقب له ، واسمه عبيد بن حصين بن معاوية ، أو حصين بن معاوية النمرى ، وإنما قيـــل له الراعى لأنه كان يصف الإبل فى شعره . وهجاه جرير لأنه كان اتهمه بالميل إلى الفرزدق . الأغانى (٢٠ : ١٦٨ ــ ١٧٣) والمؤتلف ١٢٢ والخزانة (١ : ٥٠٢ ــ ٥٠٤) والاشتقاق ١٧٩ والنقائض فى مواضع كثيرة . والشعر والشعراء ٣٧٧ ــ ٣٨١ .

(٤) البيتان فى معجم البلدان (وهبين) .

ونَسَبَ الحنينَ إلى جِمالِهِ وإن كان المُرادُ النَّفس ، لأنَّها فى الحنين أقلُّ صَبْرًا حتَّى ربما تَهِيم على وجوهها ، وتَنِدُّ عنْ صواحبِها ، طَلَبًا للإلْف ، وجَرْيًا مع الهَوى . وعلى هذا قال مَن قال فى مخاطَبة راحلتِه وقد رآها :

فإنِّى مِثْلُ ما تَجِدِينَ وَجْدِى ولـكنْ أصحبَتْ عَنْهمْ قَرُونِى(١)

٢ ــ رجاؤُكَ أَنْسَانِى تَذَكُّرَ إخوَتِى ومَالُكَ أَنْسَانِى بِوَهْبِينَ مَالِيَا

يقولُ : أمَلِى فيكَ أنسانى الفكر فى إخوتى وأهل بيتى ، وطمعى فى مالكَ أنسانى مالى بوَهْبِينَ . وهذا قاله لأنّه يُرى أنّ رجاءه فيه لتَحَقُّقِه صار مؤثّرًا على ذكر وطنه وعشيرته ، وأنَّ ما طَمِع فيه من مالِه لمَّا كان أكثرَ ممَّا ملكه بوهبين صار مُنْسِيًا له .

* * *

وهذه المقطوعات بما اشتملت عليه من الفظاظة والقَسوة ، وذِكر قلّة الفِكر فى الأوطان والأحبَّة ، وتناسِى العُهود والأذِمَّة ، ومفارقة الأماكن المألوفة . والحِلَلِ المورودة ، وشَكْوى النّفس إلى التنائى والغُرْبَةِ ، دَخَلَتْ فى باب الحماسة . وبمِثْلِ هذه المناسبة دخل فيه كثير من نظائرها . وسَنَدُلّ عليها إذا انتهينا إليها .

٨١

وقال آخر :

١ ــ وإنّا لَتُصْبَحُ أَسْيَافُنَا إذا ما اصْطَبَحْنَ بيَوْمٍ سَفُوكِ

يرْوَى « تُصْبَحُ » بفتح الباء على ما لم يسمَّ فاعله ، فيكون المعنى : إنَّا لَتُسْقَى أسيافنَا الصَّبُوحَ بيومٍ سَفُوكٍ إذا ما اصْطَبَحْن . ومن روى « لَتُصْبِحُ » بكسر الباء فخَبَرُ تُصْبِحُ فى البيت الثانى ، وهو « منابرُهُنَّ بُطُون الأَكُفّ » . والمعنى : إنّا لتصير أسيافنا إذا شَربَتِ الصّبوح فى يوم سَفُوكٍ للدماء بهذه الحالة .

(١) فى اللسان (قرن) : « أسمحت عنهم قرونى » . والبيت لرجل من بنى كليب . انظر ص ٢٩٥ .

ونسبَةُ السَّفْكِ إلى اليَوْمِ مَجازٌ لَمَّا كان يقَعُ فيه ، فهو كقولهم : نَهَارُهُ صَائِمٌ .

٢ ـ مَنَابِرُهُنَّ بُطُونُ الأَكُفّ وأَغْمَادُهُنَّ رءوسُ المُلُوكِ

أراد أنها تُنْتَضَى فتَخْطُبُ واعظةً للأعداء زاجرةً ، ومُنْذِرَةً للكُماةِ محذِّرَةً ، لكنّ منابرَهُنَّ أكُفُّ الضاربين ، وأغمادها إذا أغمدت رءوس المُلوكِ المعظَّمين . وهم يتبجَّحون بقتل الملوك وقِتالها . ويقرُبُ من هذا قولُه :

* يكونُ جَفِيرَها البَطَلُ النَّجيدُ *

وقوله :

من عَهْدِ عادٍ كان معروفاً لنا أَسْرُ الملوكِ وقتْلُها وقِتالُها

والمنابرُ : مواضِع النَّبْر ، وهو الصوت ، لأنها نُصِبت للخطب والمواعظ والتحميدات .

٨٢

١ ـ لا يَمنَعَنَّكَ خَفْضَ العيْشِ فى دَعَةٍ نِزَاعُ نَفْسٍ إلَى أَهْلٍ وأَوْطانِ[1]

يقول : لا يُزَهِّدَنَّكَ اشتياقُك إلى السَّكْن ، وحنينُك إلى الوَطن ، فى إيثار سَعَةِ العيش ورَغدِهِ مع الرّاحة والسُّكون . ويُرْوَى : « نُزُوعُ نَفْسٍ » والنزوع اشتهارُه فى الكَفِّ عن الشيء ، والنِّزاعُ فى الشوق ، وإن كان جائزاً وقوعُ أحدِها موقعَ الآخر فى التشوُّف . ويقال ناقةٌ منازِعُ ونَزُوعٌ . وقد أنزَعوا ، إذا حَنَّتْ إبلُهم . والنَّزْعُ : الجَذْب ، ويقال : خَرَجَ نازعَ يَدٍ ، إذا خرَج عن الطاعة .

٢ ـ تَلْقَى بكُلِّ بِلادٍ إنْ حَلَلْتَ بها أَهْلاً بأَهْلٍ وجِيرَاناً بجِيرَانِ

(١) جعل التبريزى الرواية الأولى : « نزوع نفس » ، ثم نبة على رواية « نزاع » .

هذا تسليةٌ للنفس عن الأهل . يقول : تجدُ بكلّ بلد تنزِلُ به أهلاً بدلاً من أهلِك ، وجيراناً بدلا من جيرانِك . والعربُ تقولُ : هذا بذاكَ ، أى هو عِوَضٌ منه . وإنما ضَمَّنَ أبو تمّام هذه الأبياتَ بابَ الحماسة ، لما قدَّمتُه من أنها صادرةٌ عن قَسْوةٍ شديدةٍ ، وقلّةِ فِكرٍ فى التحوُّل عن الإلْف والعادة ، ولإنّ تَرْكَ الوطن والإخلال بالعشيرة يُضَمُّ إلى القتلِ وتَلف النفس ، فالصبر عليه كالصبر على القتل . ألا ترى قوله تعالى : ﴿ ولَوْ أنّا كَتَبْنا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أنفسَكم أَوِ اخرُجوا من ديارِكم ما فعَلوه إلاّ قليلٌ منْهم ﴾ .

٨٣

وقال بعض بنى أَسَدٍ(١) :

١ — إلاّ أَكُنْ مِمّنْ عَلِمْتِ فإنّنى إلَى نَسَبٍ مِمّنْ جَهِلْتِ كَرِيمِ

يقول : إن لم أكُن ممن عرَفْتهم بالشرف ، فإنى أنتمى إلى شرَفٍ كريم ممن جهِلْتِهم . كأنه يريد : ليس الاعتبارُ بما تَعُدِّينه شرَفاً أو تعرفينَه نَسَبًا ، لكنّ الاعتبار بحصول الكَرَمِ على أىّ وَجْهٍ حصَل ، وحَوْزِ المَجْد وإنْ جَهِلَه من جَهِل . وقولُه « إلَى نَسَبٍ » يتعلقُ بفعل مضمَرٍ ، كأنه قال : فإننى أنتَمِى إلَى نسبٍ .

٢ — وإلاّ أكُن كلَّ الجَوادِ فإنّنى عَلَى الزّادِ فى الظَّلماءِ غَيْرُ شَتيمِ

يقولُ : إن لم أكُن النهايةَ فى الجودِ فإنى لا أُشْتَمُ بسبب الزاد فى الليلة المظلمة ، فلا أُذَمُّ لصَرْفى الضيف عن نفسى بالعِلل الكاذبة فى الشَّتْوَةِ القَحِطة . وقد اشتَمَل قولُه « على الزادِ فى الظَّلماءِ » على ما بَيَّنّا وأكثرَ منه . وهذا الذى خَبَّرَ

(١) التبريزى : « قيل لعبد العزيز بن زرارة » .

به عن نفسه هو الجُودُ ، لـكنه أراد أن يُرِىَ من نفسه تَرْكَ ادّعاء النّهايات ، والأخذِ بالاقتصاد فى الحالات ، وإن كان تَناهَى من حيث اقتصَدَ . ويقال زَيْدٌ الشُّجاع كلُّ الشجاع ، والمعنى أنه الكاملُ فى معناه . ومن هذا الباب قولُه عزّ وجلّ : ﴿ وإنّا أو إيّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أو فى ضَلَالٍ ﴾ . وهذا كلامُ من نظر لنفسه وغَيْرِه ، وتبيّن ما عليه وله ، فأثبَتَ ما أَثبتَ فى أحسن مِعْرَضٍ ، ودفع ما دَفع بألطفِ تعريضٍ . وتعلّق على من قوله : « على الزاد » بشتيم وإن كان مضافاً إليه ، لأنه أُجْرِىَ غير مَجْرَى لا ، لأنهما للنَّفْى ، فحُمِل الـكلام على المَعْنى فـكأنه قال : إنّنى على الزادِ لا أشتِمُ . ونزيد هذا شرحًا فيما بَعدَه .

٢ — وإلاّ أكُنْ كلَّ الشُّجاعِ فإنّنى بضَرْبِ الطُّلَى والهامِ حَقُّ عَلِيمِ

هذا كالبيت الذى قبله . يقول : إن لم أكُنِ النّهاية فى الشّجاعة ، والمعنى إن لم يكن فِعلِى النهاية فيما يفعلُه الشجاع ، فإننى عالمٌ حقًّا بضرْب الرءوس والطُّلَى . والمتناهِى فى الشجاعة لا يَتعدَّى فعلُه هذا ، لـكنّه سَلَكَ طريقته فيما قَبْلَهُ . الطُّلَى : الأعناق وأعراضها ، والواحدةُ طُلْيَةٌ . والباء من قوله « بضَرْب الطُّلَى » تعلّق بقوله عليم .

فإن قيل : كيف سَاغَ ذلك والمُضاف إليه لا يعمل فيما قَبْلَ المضاف ؟ قُلْتَ : لمّـا كان قَوْلُه « حَقُّ عَلِيم » لا زيادةَ فيه إلا التوكيد لم يُعْتَدّ بالمضاف ، فحُمِل الـكلام على المعنَى لا على اللّفظ ، فـكأنّهُ قال : إنّنى بضَرب الطُّلَى عليمٌ جدّا . ويجرى هذا المَجْرَى إجازتُهم لقول القائل أنتَ زَيْدًا غير ضاربٍ ، مع امتناعهم من إجازة أنت زَيْدًا مِثْلُ ضاربٍ ، لمـا كانت مَعْنَى غَيْرِ معنى لا ، فَحُمِلَ الـكلام على المعنى لا على اللفظ ، حتّى كأنه قيل : أنْتَ زَيْدًا لا ضَارِبٌ . فاعلمه ، وبالله التوفيق .

٨٤

وقال عَمْرو بن شَأْس (١) :

١ ـ أَرَادَتْ عِرَارًا بالهَوَانِ ومَنْ يُرِدْ   عِرَارًا لَعَمْرِى بالهَوَانِ فقد ظَلَمْ

المُضْمَرَةُ فى أرادت رابَّةُ عِرَارٍ ، فقال والدُهُ عَمْرٌو : أرادت امرأتى إهانةَ عِرَارٍ والاستخفافَ به ، ومن يطلبْ ذلك فى مثلهِ فقد وضعَ الشىءَ فى غير موضِعِه . فإن قيل : هل تَفْصِلُ بين قولهِ أرادت عِرَاراً بالهوان وبين قوله لو قال أهانت عراراً ؟ قلتَ : بَلَى ، لأنَّ معنى أرادتْهُ بالهوان أرادت كونَهُ لها وصحبتَه إياها باستعمال الهوانِ معه ، فيجوز أن يكون الهوانُ واقعاً ، ويجوز أن يكون غيرَ واقعٍ . ومعنى أهانَتْه : ابتذلَتْهُ وأذَلَّته . فهو إخْبارٌ لوقوع الفعل به فيما مضى . ويجوز أن يكون معنى ظَلَمَ : تَحَيَّفَ حَقَّهُ وبَخَسَهُ .

٢ ـ فإنْ كُنْتِ مِنِّى أو تُرِيدِينَ صُحْبَتِى   فكُونِى له كالسَّمْنِ رُبَّتْ لَهُ الأَدَمْ

نَقَلَ الكلامَ عن الإخْبارِ إلى الخطاب ، على عَادَةِ تفَنُّنِهم . يقول : إنْ كُنْتِ تَهْوَيْنَ هَوَاىَ ، أو تُرِيدِينَ الكَوْنَ مَعِى ومصاحبتى ، وإن انْطَوَيْتِ فى حُبِّه على مُخَالَفَتِى ، فكُونِى له فى تَصَنُّعِكِ كأنكِ موافقةُ الظّاهِرِ للباطنِ ، جاريَةٌ معَهُ على الحَدِّ الواحد من حُسْنِ العِشْرَةِ ، وإظهارِ المَيل والمَوَدّة . والسَّمْنُ

(١) عمرو بن شأن الأسدى ، قال الجمحى : «كثير الشعر فى الجاهلة والإسلام ، وهو أكثر طبقته شعراً» . وأسلم فى صدر الإســلام وشهد القادسية . وقال ابن قتيبة : «وهو أبو عرار ، وفيه يقول عمرو لامرأته» . وأنشد الأبيات . الشعر والشعراء ٣٨٩ والجمحى ٤٦ ـ ٤٧ والمرزبانى ٢١٢ ـ ٢١٣ واللآلئ ٧٥٠ ـ ٧٥١ والأغانى (١٠ : ٦٠ ـ ٦٣) . وقال التبريزى : «هو مخضرم أدرك الإسلام وهو شيخ كبير ، وكانت له امرأة من قومه وابن من أمة سوداء يقال له عرار ، فكانت تعيره إياه وتؤذيه ويؤذيها ، فأنكر عمرو أذاها له» .

إذا رُبَّ نِحْيُهُ لم يتغير . يريد فلا تتعيّرى أنتِ أيضاً . ومعنى رُبَّتْ له أى من أجْلِهِ ، والأَدَمُ : جمعٌ ، يقالُ أدِيمٌ وأدَمٌ . وله نظائرُ قليلة : إهَابٌ وأَهَبٌ ، وأفِيقٌ وأَفَقٌ ، وعَمُودٌ وعَمَدٌ .

٣– وإن كُنْتِ تَهْوَيْنَ الفِرَاقَ ظَعِينَتِي فَكُونِي له كالذِّئْبِ ضاعتْ لهُ الغَنَمْ

يقول : وإن كنتِ تُؤْثِرين مفارقتي وتميلين إلى التّباين عنّى فأسِيئى عِشْرتَه وكونى له كالذّئب ضاعتِ الغنم من أجل وُقوعه فيها . والمعنى عاشِرِيه عِشْرَتَهُ لها . ويجوز أن يريد بقوله « ضاعت له الغنم » فاتَتْه الغنم بعد أن أمْكَنَتْه . والسَّبُعُ إذا شارفَ فريسته ثم فَاتَهُ كان ذلك مُهَيِّجًا له ، وداعِياً إلى الفساد فيما يُمكنه[1] .

٤– وإلاّ فَسِيرِى مِثْلَ ماسَارَ راكِبٌ تَجَشَّمَ خِمْسًا ليس فى سَيْرِهِ أَمَمْ

هذا كما يقال على طريق الوعيد أو إظهار الزُّهْد لمن يُؤْمَرُ شيئا : اعْمَلْ كذا وكذا وإلاّ فَدَعْهُما ولا تَعْمَل أحدَهُما فلا حاجةَ لنا فيه . يقول : وإلاّ فلا تُحْسِنِي إليه وفارقيني مِن وقتِك . وهذا إظْهَارٌ لزهده فيها ، واطّراح تَكلُّفِ الاشتراطات مَعَها . ثم قال : ليكن سَيْرُكِ سَيْرَ الرّاكِبِ تكلَّفَ وُرودَ الماء لِخِمسٍ ، وليس فى سَيْرِهِ قَصْدٌ ولا قُرْبٌ . وقوله « مِثْلَ ما سار راكِبٌ » أى سَيْرًا يُشابه سَيْرَهُ . وقوله « تَجَشَّم » من صِفَةِ راكب . والأمَمُ : القربُ ، ويقال أَمْرِى من أمرِكُمْ أَمَمٌ . ويُرْوَى : « ليس فى سيره يَتَمْ » أى إبطاء[2] .

٥– فإنّ عِرَارًا إنْ يَكُنْ ذَا شَكِيمَةٍ تُلاَقِينها منه فما أَمْلِكُ الشِّيَمْ

يقول : إنّ عِرَاراً إنْ يكن ذا سوء خُلُقٍ تُمْنَيْنَ به وتَشْقَيْنَ بمقاساته ، فإنى

---

(١) زاد التبريز : « وهذا تهدد منه لها ، وليس هو على حقيقة الأمر » .

لا أملِكُ تغييرَ الطبائع والخلائق . وكأنّه جوابٌ لاعتذارها مِن قلّة الملاءمة بينهما . والشّكيمةُ : الحدُّ والشِّدّة . ويقال : إنّه لشديدُ الشّكيمة ، أى شديد العارضة . ويجوز أن يكون شَكيمةُ اللّجام — وهى الحديدة المعترِضة منه فى الفم — مأخوذاً منه ، والجميع الشكائم .

٦ — وإنّ عِرارًا إن يكُنْ غيرَ واضحٍ   فإنِّى أُحِبُّ الجَوْنَ ذَا المَنكِبِ العَمَمْ

يقول : وإنّ وَلَدِى عِراراً إن لم يكن وَضىءَ الوجه ممسوحًا بالجمال ، فإنّى أحِبُّه على سوادِه وتمام خَلْقِه . وهذا كأنه إسْقاطٌ لقول من يُزَيّفُ ابنَه ويُعَيِّرُه القُبحَ والدّمامةَ . وكان عِرارٌ هذا أحَدَ الفُضَلاء ، وتوجَّه عن المُهَلّب بن أبى صُفْرة إلى الحجّاج رسولاً فى بَعض فُتوحه ، فلما مَثَل بين يَدَى الحجّاج لم يعرفْه ، وازدراه ، فلما استَنطقه أبانَ وأعرَبَ ما شاء ، وبلغ الغاية والمرادَ فى كلّ ما سأل ، فأنشدَ الحجّاجُ : « أرادت عِراراً بالهَوَان ... » . الأبياتَ متمثّلاً ، فقال عِرارٌ : أنا أيّدَ الله الأميرَ عِرارٌ ! فأُعجِبَ به وبذلك الاتفاق . وفى هذه الطريقة قول المأمون لإبراهيم بن المَهدِىّ :

إن يكن للسَّوَادِ فيك نَصِيبٌ   فبَيَاضُ الأخلاقِ منك نَصِيبِى

والعميمُ والعَمَمُ : الطويل التامّ من كلّ شىء . والجون الأسود هاهنا ، ويُجْعل من الأضداد .

٨٥

وقال آخر (١) :

١ — لولاَ أُمَيْمةُ لم أَجْزَعْ من العَدَمِ   ولم أُقاسِ الدُّجَى فى حِنْدِسِ الظلَمِ

(١) التبريزى : « وهو إسحاق بن خلف » .

يُرْوَى : « ولم أَجُبْ فى الليالى حِنْدِسَ الظُّلَمِ » . والمبتدأ بعد لولا يُحذَفُ خَبَرُه أبداً ، ويُستغنَى بجواب لَوْلاَ عنه . والتقدير : لولا أُمَيْمةُ مانعةٌ لم أَجْزَع . فيقولُ : لولا ابنتى أميمة لم أَخَفِ الفقر ولم أَرْحَلْ فى طَلَب المال ، ولم أركب الليل ، فكنت أجوبُ ظَلْماءه ، وأُكابدُ أهوالَه . والحِنْدِس : شدة الظُّلمة ، وقد اشتُقّ منه الفعل ، فقيل : حَنْدَسَ الليلُ فهو مُحَنْدِسٌ[1] . ومعنى لم أَجُبْ : لم أَقطع . وقاطِع المواضع المُظْلمة كأنه قاطعٌ للظُّلْمة . ومن رَوَى « ولم أُقاسِ الدُّجى » يريدُ أهوالَها . وإضافة الحِنْدِس إلى الظُّلَم كإضافة البعض إلى الكلّ ، أى فى الشَّديد من الظُّلَم . ويقال تَحَنْدَس الرَّجُل[2] ، إذا ضَعُف وسَقَط .

٢ – وزادنى رَغْبَةً فى العيْشِ مَعْرِفَتى ذُلَّ اليَتيمةِ يَجْفُوها ذَوُو الرَّحِمِ

يقول : زادنى حِرْصًا على الدُّنيا ورَغْبةً فى العَيْشِ فيها ، عِلْمِى بذلِّ اليتيمة وقد جَفاها أقاربُها ، وأُطَّرَحها أهْلوها . وموضع « يَجفُوها » من الإعراب نَصْبٌ على الحال لليتيمة ، والعاملُ فيه ذُلّ اليتيمة . والتقدير : زادنى مَعرفتى بذُلّ اليتيمة إذا جَفاها ذَوُوها رَغْبَةً فى العَيْش ومُهْلَةِ العُمْر .

٣ – أُحاذِرُ الفَقْرَ يَوْمًا أن يُلِمَّ بها فَيَهْتِكَ السِّتْرَ عن لَحْمٍ على وَضَمِ

قوله « أن يُلِمّ بها » موضعُهُ نَصْبٌ على البَدَل من الفقر . والمعنى : أُحاذِر إلمامَ الفَقْرِ بها فيَكْشِفَ السِّترَ عَمّن لا دِفاعَ به ، فتناوَلَهُ من شاء بما شاءَ . والعربُ تقُولُ : « النِّساء لَحْمٌ على وَضَمٍ إلا ما ذُبَّ عَنْهُ » . والوَضَمُ : خِوَانُ الجزّارِ والخبّاز ، ومَوضِعُه مِيضَمَةٌ ، والجميع المَواضِم .

٤ – تَهْوَى حياتِى وأَهْوَى مَوْتَها شَفَقًا والمَوْتُ أَكْرَمُ نَزّالٍ على الحُرَمِ

---

(١) هذا الفعل ومشتقه مما لم يرد فى المعاجم المتداولة .
(٢) ورد فى القاموس ، ولم يرد فى اللسان .

يقول : تحبّ ابنتى بقائى لها ، وأنا أودُّ مَوتَها إشفاقاً عليها ، وخوفاً من ابتذالٍ يَلحَقُها ، وابتلاء بمن لا يَعرفُ لها ما يُعرَفُ لمثلها ، ثم قال : والموتُ أكْرمُ نَزّالٍ على الحُرَمِ ، كما قيل : « نِعمَ الخَتَنُ القَبْرُ » و « دَفْنُ البناتِ من المَكرُمَات » . وانتصب شَفَقًا على أنه مفعولٌ له .

٥ — أَخْشَى فَظَاظَةَ عَمٍّ أو جَفَاءَ أَخٍ ... وكُنْتُ أُبقِي عَلَيهَا من أَذَى الكَلِمِ

هذا تفسير قوله « أهْوَى مَوْتَها شَفَقًا » يريد : أُشْفِقُ من مغالَظَةِ عَمٍّ لها ، أو جَفْوَةِ أَخٍ تَلْحَقُهَا ، وأنا كنت[1] أُبقِي عليها من إيذائها بالكَلِمِ فَضْلاً عن غَيْرِها من الأفعال . يقال : رَجُلٌ فَظٌّ ، إذا كان قاسِيَ القَلْب غليظَ القولِ . والكَلِمُ : جمع كلمةٍ . ومعنى : « أَذَى الكَلِمِ » الأذَى الذى يَلحقُ من الكَلِم .

وهذه الأبيات مع ما يشبهها لمّا ضادّت ما قبلها فى تضمُّنِها رِقة القَلْبِ ، والتعطُّفَ على الوَلَدِ والأَهْلِ ، أتْبَعَها بها . وكلُّ ذلك كالعارض ثم يَعُود إلى ما بنى عليه الباب . وهذا عادةُ أبى تمام فى أبواب هذا الاختيار . ويشبهها قول الآخر[2] :

لَقَدْ زَادَ الحياةَ إلىَّ حُبًّا ... بَنَاتِى إنَّهُنَّ من الضِّعَافِ
أُحاذِرُ أن يَرَيْنَ البُؤْسَ بَعْدِى ... وأن يَشْرَبْنَ رَنْقًا بعد صافِ[3]
وأنْ يَعْرَيْنَ إن كُسِىَ الجَوَارِى ... فَتَنْبُو العَيْنُ عَنْ كَرَمٍ عِجَافِ

(١) م : « وإنما كنت » .
(٢) هو أبو خالد القنانى ، كما فى الكامل ٥٢٩ ليبسك واللسان (كرم) .
(٣) الكامل : « أن يرين الفقر » .

٨٦

وقالَ خَطَّابُ بن المعلَّى(١) :

١ – أنزَلَنِي الدَّهرُ على حُكْمِهِ ⁂ من شَامِخٍ عَالٍ إلى خَفْضِ

يقول للدّهرِ حُكْمٌ مَعْرُوفٌ ، وطَرِيقٌ مألوفٌ ، فى رَفْعِ الوضيع ، وحطِّ الرفيع ، فأَجْرَى حُكْمَه عَلَيّ ، وأنزَلَنِي عن رُتْبَةٍ عَالِيَةٍ إلى مَنْزِلَةٍ مُنْخَفِضَةٍ ، والخَفْضُ : ضِدُّ الرَّفع ، وهو مَصْدَرٌ وُضِع موضِعَ المفعول . يريدُ إلى مكان منخفض .

٢ – وغَالَنِي الدَّهرُ بوَفْرِ الغِنَى ⁂ فلَيْسَ لِى مَالٌ سِوَى عِرْضِى

يرْوَى : عالَنِي « ومعناه غلبنى ، ويروى : « غالنى » ومعناه أهْلَكنى بارتجاع عَوَارِيِّه من المال ، واستلابِ ما كنتُ وُفِرْتُ(٢) به من العَتَادِ ، فمالى مَالٌ سِوَى نفْسى ، وليس النَّفْسِ من المال فى شىء . ومَوْضِعُ « سوى » نَصْبٌ على أنه استثناءٌ خارجٌ ، وهذا الاستثناء يتأكّد به انتفاء الغِنَى . ومثله قوله :

ولا عَيبَ فيهم غَيْرَ أنَّ سُيُوفهم ⁂ بِهِنَّ فُلُولٌ من قِرَاعِ الكَتَائِبِ(٣)

ويجوز أن يكون المعنى : ليس لى غِنًى سوى غنى نَفْسِى ، فحذَفَ المُضَافَ ، والمعنى : إنَّ نَفْسِي غَنِيّةٌ فلا تَطْمَعُ فى المكاسِب الوضيعة ، ولا تتدنس بالمآكل الخبيثة . وقوله « بوفرِ الغِنَى » أى بِسَلْبِ وَفْرِ الغِنَى ، فحذَفَ المُضَافَ . ويتعلّق الباء منه بقوله غالَنِي . والوفْرُ : كثْرةُ المال ، وأضافَهُ إلى الغنى ، لأن المراد المال الذى يَحْصُلُ

(١) كذا باتفاق النسختين . التبريزى : « حِطان بن المعلى » وذكر عن اشتقاقه عن أبي العلاء : « حطان فعلان من الحط » .

(٢) م : « وقرت » بالقاف .

(٣) البيت للنابغة الذبيانى فى ديوانه ٦ .

به الغِنَى . وهم يضيفون الشيءَ إلى الشيء لأدنى مناسبة بينهما ، سَوَاء كان له أو عَلَيْه ، أو معه أو فيه ، أو من أجْلِهِ ، أو مما يليه . ويجوز أن يكون مَوْضِع « بوَفْر الغِنى » نَصْبًا على الحال للدَّهْرِ ، كما تقول : فاتنى فُلَانٌ بكذا ، والمعنى فَاتَني مستصْحِبًا لَهُ . ومثله : جاء فى أَطْمارٍ ، أى لابِسًا لها . ويجوز أن يكون حملَ الـكلام على المعْنى ، فَعَدَّى غَالَنِي تَعْدِيَةَ فَجَعَنِي ، لأنه فى معناه ، فـكأنه قال : فَجَعَنِي بوفر الغِنى وأصابنى .

٣ — أبـكانِىَ الدَّهْرُ وَيارُبَّمَا أضْحَـكَنى الدَّهْرُ بمـا يُرْضِى

قولُه « بما يُرْضِى » يدُلُّ على أنه أضمَرَ مع قولِهِ أبكانى الدهرَ شيئا يكونُ فى مقابَلتِهِ ، وحذف لأنّ المراد مفهومٌ . والمعنى أبكانى الدهرُ بما يُسْخِط . وقوله « يارُبَّمَا » المُنادَى فيه محذوف ، كأنه قال : يا قوم رُبَّما . وهذا النداء على وجْهِ التحسُّر والتوجع من معاملة الدهر وسوء تَنَقُّلِه . وقولُه « رُبَّما » « ما » هذه دخلتْ كافَّة لِرُبَّ عن العمل ، ومخرِجةً لها إلى أن تَصيرَ مشتركةً حتّى جازَ وقوعُ أضحكنى بَعدُه . ومثلُه قولُه تعالى : ﴿ رُبَّمَا يَوَدُّ الذين كَفَروا[(١)] ﴾ . ومعنى البيت : أبكانى الدهر بما أسخَطَنى ، ويا قَوْمِ ربما أضحكنى الدهرُ فيما مضى بمـا أرْضانى . وفى طريقتِهِ قولُ الآخر[(٢)] :

فإنْ تـكُنِ الأيّامُ أحْسَنَّ مَرّةً إلىَّ فقد عادتْ لهُنَّ ذُنُوبُ

٤ — لولاَ بُنَيّاتٌ كَزُغْبِ القَطَا رُدِدْنَ من بَعْضٍ إلَى بَعْضِ

---

(١) قرأ نافع وعاصم وأبو جعفر بتخفيف الباء فى ربما ، والباقون بتشديدها . إتحاف فضلاء البشر ٢٧٤ . وقد وردت فى النسختين بتشديد الباء . ومما يجدر ذكره أن « رب » لم تقع فى القرآن إلا فى هذه الآية من سورة الحجر على كثرة وقوعها فى لسان العرب . تفسير أبى حيان (٥ : ٤٤٢) .

(٢) هو كعب بن سعد الغنوى . أمالى القالى (٢ : ١٤٩) .

بُنَيَّاتٌ فى موضع المبتدأ ، وجاز الابتداء به لكونه محدوداً[1] بما اتصل به من الصفات . وجوابُ لولا « لكان لى مُضطرَبٌ واسعٌ » وهو أول البيت الذى يليه ، واستغنى به عن خبر المبتدإ ، والتقدير : لولا بُنَيّاتٌ صفاتهنّ هذه مانعةٌ لى لفَعَلْت . ومعنى البيت : لولا بُنَيَّاتٌ لى صغيراتٌ كفِراخ القَطَا التى عليها الزَّغَب — وهو الشَّعرُ اللَّيِّن لصغرهنّ — اجتمعنَ لى فى مُدَّةٍ يسيرةٍ ، فمِنْ ثانيةٍ بعد أُولَى ، وواحدةٍ إلى جنب أخرى فكثُرْنَ — لكان كذا . ومثلُه :

تَجَمَّعْنَ مِنْ شَتَّى ثَلَاثًا وَأَرْبَعًا ... وواحدةً حتَّى أجتمَعْنَ ثمانِيَا

أى جِئْن متواليات . ويُروى : « رَدَدْنَ مِن بعضٍ إلى بعضٍ » ، بفتح الراء من رَدَدْن وإضافة البعض ، والمعنى : قوَّسْنَنِي وحَنَيْنَ ظهرى . ويجوز فى الرواية الأولى أن يكون المعنى أنّ هذه البنات زُوِّجن فرُدِدْنَ مع بناتٍ لهنّ صغار . ويقال : ابنتك مردودة ، أى مطلَّقةٌ . وإلى فى موضع مَعَ ، يقالُ هذا إلى ذلك أى معه . ويكون « من بَعضٍ إلى بعضٍ » فى موضع الحال ، أى رُدِدْنَ مع غيرهن . وقد شَبَّهَ الحُطَيْئَةُ وغيرُه الأولادَ بزُغْبِ القَطَا ، فقال :

ماذا تقولُ لأفْراخٍ بذِى مَرَخٍ ... زُغْبِ الحَوَاصِلِ لا ماءٌ ولا شَجَرُ

يجوز أن يُرْوَى « رُدِدْن » على ما لم يسمّ فاعله . و « من بعضى إلى بعضى » مُضافَيْن . والمعنى : كُنّ فى صُلْبى ، فلما ولَدْتُهنّ صِرْنَ فى كَبِدِى فهى تحترق عليهنّ لفرط شفقتى :

٥ — لكانَ لى مُضْطربٌ واسعٌ ... فى الأرْضِ ذاتِ الطُّولِ والعَرْضِ

المضطرَبُ يكون الاضطرابَ ، ويكون موضع الاضطراب . يقول : لولا خَوْفى من ضَياعِهِنّ وإبقائى عليهنّ ، لكان لى مَجَالٌ واسعٌ ، ومذهَبٌ فسيحٌ

(١) فى الأصل : « محذوفا » ، صوابه فى م والتبريزى .

فى الأرض الطويلة العريضة . وإنما تلوَّمْتُ ولزِمْتُ مكانى هذا لهنّ وبسببهنّ .

٦ — وإنما أولادُنا بَيْنَنا أكبادُنا تمشى على الأرضِ[1]

يقول : محلُّ أولادنا من أنفسنا فيما بيننا وإن كانت ماشيةً على الأرض محلُّ الأكباد من الأجواف . ويقال « الوَلد فِلذَةٌ من الكبد » ، أى قِطعةٌ . وقولُه « تمشى على الأرض » فى موضع الحال للأولاد ، وبيننا ظَرْفٌ لتمشى . والتقدير : أولادُنا وهى ماشيةٌ على الأرض بيننا أكبادُنا . وقوله « إنما » يدخُل لتحقيق الشىء على وجْه مع نفى غيره عنه .

٨٧

وقال حيّان بن ربيعة[2] :

١ — لقد عَلِمَ القبائلُ أنَّ قوْمى ذوُو جِدٍّ إذا لُبِسَ الحْديدُ[3]

يقول : شَهِدَتِ القبائلُ أنَّ قومى يَجِدّون فى الحرب إذا تَدَجَّجَ أهْلُها فى الأسلحة ، ويُبْلُون فيها ولا يُقصِّرُون . و « إذا لُبِس الحديد » ظَرْفٌ لقوله « ذوُو جِدٍّ » كأنه قال : إنهم يجتهدون فى ذلك الوقت . وأنّ قوْمى مع ما بَعدَه سَدَّ مَسَدّ مفعولَىْ عَلِمَ .

---

(١) بعده عند التبريزى :

لو هبّت الرِّيحُ على بعضهم لامتنَعَتْ عَيْنِى مِن الغُمْضِ

(٢) التبريزى : « قال أبو هلال : هكذا قال أبو تمام . ونحن نقول : هو حيان بن عليق بن ربيعة الطائى ، أخو بنى أخزم ثم أحد بن عدى بن أخزم بن أبى أخزم بن عمرو بن ثعل . وفى نسخة أبى أحمد : جبار بن ربيعة ، وهو غلط ، وليس فيهم جبار بن ربيعة ، إنما هو جبار بن جزء بن ضرار ، ابن أخى الشماخ ، وجبار بن مالك بن حمار الشمخى من فزارة ، وجبار بن عمرو بن عميرة الطائى ، ويعرف بالأسد الرهيص . وأما جبار بن ربيعة فليس بمعروف ولا مذكور » .

(٣) التبريزى : « ويروى : ذوو حد . والحد : السلاح » .

٣ — وأَنَّا نِعْمَ أَحْلاَسُ الْقَوَافِى إذا اسْتَعَرَ التَّنافُرُ والنَّشِيدُ

يقول : ويشهدون أيضاً أنّه نِعمْ أصحابُ القوافى وأربابُها نحن ، إذا التهبَتْ نارُ التفاخُر والتناشُد والتحاكم . والحِلْس ، أَصْلُهُ البَرْذَعَةُ و ما يَلِى الظَّهْر تحت الرَّحْل ، ثم يُستعمل على طريق التَّشبيه على وجهين : يقال فى الذّمِّ : فُلانٌ كالحِلْسِ المُلْقَى ، فيمن لا غَناء عنده ولا كفايةَ إذا حَزَبَهُ أمرٌ . ويقال فيمن لَزِمَ ظهورَ الخَيْل : هم أَحْلاَسُها ؛ وهذا إذا مَدَحُوا بالفروسيّة . ثم قالوا : ما هذا من أحْلاَسِ فُلاَنٍ ، أى ليس من آلاتِه . وقد مَرّ بى أيضاً أنه يقال للكِفْل الذى ليس بفارسٍ : هو كالحِلْس . وأحْلاَسُ البيت : ما يُلْقَى تحت حُرِّ مَتاعه :

٣ — وَأَنَّا نَضْرِبُ المَلْحَاءَ حَتَّى تُوَلِّىَ والسُّيُوفُ لَنا شُهودُ(١)

يقول : وشهدوا أيضاً أنا نُضارِبُ الكتيبةَ البيضاءَ لكثرة سلاحِها فنَغْلِبُهم حتى تُوَلِّىَ منهزِمَةً ، وسيوفُنا لها حاضِرةٌ نَكْتَسِحُهُم بها فى الهَرَب أيضاً ، والمَلْحَاء من المَلَحِ ، وهو البَيَاضُ . يقال : كَبْشٌ أَمْلَحُ . ويُرْوَى « نَضْرُبُ المَلْحَاءَ » بضمّ الراء . ويقال : ضاربْتُهُ فضَرَبْتُهُ أَضْرُبُهُ ، أى غَلَبْتُه فى الضِّراب .

٨٨

وقال الأَعْرَجُ المَعْنِىُّ(٢) :

١ — أَنَا أَبُو بَرْزَةَ إذْ جَدَّ الْوَهَلْ(٣)

---

(١) م : « لها شهود » .

(٢) التبريزى : « معنى طيئ » . وقيل الصحيح أنها لعمرو بن يثربى » . والأعرج المعنى هو على بن عمرو بن سويد بن ريان الأعرج الطائى المعنى ، وقيل اسمه سويد بن عدى . وهو شاعر مخضرم . معجم المرزبانى ٢٥١ .

(٣) التبريزى : « ويروى : أنا أبو بردة » . وقد روى التبريزى الأشطار الخمسة الأولى بترتيبها هنا ، ثم روى بعدها الشطر السابع ثم شطراً آخر لم يروه المرزوقى ، وهو : =

٢ — خُلِقْتُ غَيْرَ زُمَّلٍ ولا وَكَلْ

يريد أنا الذى لِشهرَته تُغنى كُنيتُه عن صفاته وذكر أحْوَالِهِ ، وقتَ اشتداد الخَوْف . فإن قيل : ما العامِلُ فى قَوْلِهِ « إِذْ جَدَّ » ؟ قُلْتَ : ما دَلَّ عليه قولُه أنا أبو بَرْزَةَ من المعنى الذى بَيَّنْتُه هو العامِلُ — ومثلُه :

* أنا أبو النَّجمِ وشِعرى شعرِى *

وقولُه « خُلِقْتُ غَيْرَ زُمَّلٍ » ، أى غير ضعيف ولا جَبان يتّكل على غيره فيما يَنُوبُه . والزُّمَّل(١) والزُّمَّال والزُّمَّيْلة(٢) : الضعيف . والوَكَلُ : الذى يتّـكلُ على غيره .

٣ — ذَا قُوَّةٍ وذا شَـبَابٍ مُقْتَبَلْ

٤ — لا جَزَعَ اليَوْمَ على قُرْبِ الأَجَلْ

٥ — المَوْتُ أَحْلَى عِنْدَنا من العَسَلْ

يقول : خُلِقْتُ قويًّا مُقْتَبَلَ الشباب ، لم تُبْلِنى السِّنونَ ، ولم يُضْعفنى ما مَسَّنى من النّوائب والهموم . فإن قيل : ما الزِّيادة فى قوله « ذا قُوَّةٍ » على قوله « غير زُمَّل » ؟ قلتَ : يجوز أن يكون ذا قوة مصروفاً إلى الرّأى ، وغير زُمَّل مصروفاً إلى البِنْيَةِ . ويجوز أن يكون المراد بذا قوةٍ الجَلادَة ، لأنَّه ليس من كان غير ضعيف كان جَلْدًا . واقتبالُ الشَّباب : ألَّا يُرَى أثرٌ من الـكِبَر معه .

وقوله « لا جَزَعَ اليوم » يقول : استَقْتَلْنا يومَنا ، فلا نجزع على دُنُوِّ الأجل

---

* نحنُ بنُو الموتِ إذا الموتُ نَزَلْ *

ثم الشطر الثامن ثم الشطر السادس .

(١) يقال بتشديد الميم وتخفيفها .

(٢) وهذا أيضاً بتشديد الميم وتخفيفها .

فيه إن دَنَا ، لأنّ الموت إذا غشينَا فيما نطلبه ، أحْلَى طَعمًا عندنا من طعم العسل ، وقوله « اليوم » ظرف لقرب الاجَل ، وعلى قُرْب الأجل ، خَبَرُ اِلاَ . ويجوز أن تجعل اليَوْمَ خَبَرًا « على قرب الأجل » تبييناً له أو حالاً . وإنْ جعلتَه خبرًا بعد خَبَرٍ ، كما تقول : هذا حلوٌ حامِضٌ ، جاز أيضا . وذكر بعضُ المتأخِّرين أنه لا يجوز أن يكون معنى « على » هنا معناها فى قَوْلِك جَزِعْتُ على كذا ، أى أشفقت عليه ، لأنّه غَيرُ الغَرض المقصود . ألا ترى أنّ معناها لا جَزَع اليومَ من الموت على أنّ الأجل قريبٌ منّا ، فإذا قَرُبَ منا فلم نَجزعْ منه فما ظنُّك بنا إذا بَعُدَ عنا . وأنا أقول : وإنّ من البيان لِسحراً ، وإنّ مِن الغَوْصِ على المعانى لِمثْـلِهِ دُرًّا .

٦ — رُدُّوا عَلَينا شَيْخَنا ثُمَّ بَجَلْ

٧ — نَحْنُ بَنِى ضَبَّةَ أَصحابُ الجملْ

٨ — نَنْعَى ابنَ عفَّانَ بأَطرافِ الاسَلْ

يعنى بالشيخ عثمان بن عفان رضى الله عنه . المعنى : إنّا طالبون بدَمِه ، فإذا أدركْنا ثأرَه فحسبُنا ذاك . وهذا معنى قولِهِ « ثم بَجَل » . وموضع بَجَل رَفعٌ على الابتداء وخبرُه مُضمَر ، كأنه قال : « ثم بَجَلُنا ذلك » ، أى حَسْبُنا ذلك . وثُمّ عاطِفةٌ لجملةٍ على جملةٍ . وقال لَبيدٌ :

* بَجَلِى الآنَ من العيْشِ بَجَلْ[1] *

وحكى الأخفش أنّ بَجَلْ ساكنةٌ أبدًا . يقولون بَجَلْك ، كما يقولون قَطْكَ وقَدْكَ ، إلاّ أنهم يقولون بَجَلِى ولا يقولون بَجَلْنِى كما يقولون قَطْنِى وقَدْنِى .

(١) صدره كما فى ديوان لبيد ١٧ طبع ١٨٨١ :

* فتى أهلك فلا أحفله *

وهو القياس مع مجيئه على السكون . وانتصاب « بنى ضَـبَّةَ » بفِعْلٍ مُضْمَر ، والقصد فيه المدح والاختصاص . وخبر المبتدأ الذى هو نحنُ « أصحابُ » ، والتقدير : نحنُ — أَذكُر بنى ضَبَّةَ — أصحابُ الجَمَل . وهذا الكلام يُنبِّه به على أنهم مُجِدّون فى طلب دم عثمان رضى الله عنه ، لأنّ الذين خرجوا مع عائشة رضى الله عنها وقاتلوا يومَ الجَمَلِ كان دعواهم طلَبَ الثأر . ولو قال نحن بنو ضَبَّةَ لكان يسقُط فخامةُ المدح وتعظيمُه ، وكان يصير أصحابُ صفةً وبنو خبرًا ، وكان يجوز أن يكونا جميعا خبرين ، ويجوز أن يكون أصحاب بدلاً من بَنُو . وقوله « نَنْعَى ابن عفان » كان عادتُهم إذا مات رئيسٌ فيهم عظيمُ الشأن والمَحلّ أن يطوفَ واحدٌ منهم على القبائل ، ويَصْعَدَ الرّوابىَ المطِلّة عليهم ، والآكامَ المرتفِعة بِحالِّهم ويقول : نَعَاءِ فُلانًا ! يريدون تشهيرَ أمره ، وتعظيمَ الفَجْع به ، وربما أرَّخوا بموته . فيقول : نحن نجعلُ بدَلَ هذا الفعل أن نطلُبَ دَمَه بأطرافِ الرِّماح . وهذا معنًى حَسَن .

٨٩

وقال آخر(١) :

١ — داوِ ابْنَ عَمِّ السَّوْءِ بالنَّأْيِ والْغِنَى كَفَى بالغِنى والنَّأْيِ عنه مُدَاوِيا

يقول : عالجْ ما بينك وبين ابن عمِّ السَّوْءِ من التضاغُن والتبايُن ، والتغايُظ والتحاسُد ، بالبُعْدِ منه ، والاستغناء عنه . ثم قال : وكَفَى بهما من مُداوٍ معه . وهذا يجرى مجرَى الالتفات ، وهو تنبيهٌ على أنهما الغاية فيم يُحْسَمُ به شرُّهُ ، ويُدْفَعُ به ضَيْرُه . وموضع بالغِنَى رفعٌ بكَفَى . ومداوِيًا يجوز أن يكون حالاً ويجوز أن يكون تمييزاً ، وهو أحسنُ ، ومثلُه : ﴿ كَفَى بالله شَهِيداً ﴾ . والكلام يجرى

(١) التبريزى : « وقيل إنه لرجل من بنى أسد » .

أيضا مجرى التأكيد فيما دَعا إليه ، والتحقيق لغَنَاءِ ما أشار به .

٢ ــ جَزَى اللهُ عَنَّا مُحْصَنًا ببلائه وإن كان مولاىَ القريبَ وخالِيَا

مُحْصَنٌ المذكور ، هو ابن عمه الذى تأذَّى به فدَعا عليه . يقول : جَزَاه الله بفعله فِينا ، إنْ خيراً فخيراً وإن شرًّا فشرًّا ، وإن كان متصلَ النَّسَبِ بطرَفَىْ أبى وأُمِّى .

٣ ــ يَسُلُّ الغِنَى والنَّأْىُ أدواءَ صَدْرِه ويبدى التّدَانى غِلْظَــةً وتقالِيَا

السَّلُّ : النَّزْعُ . والأدواء : جَمْعُ الداء . وهذا مِثلُ ما رُوى : « أنْ مُرْ ذَوِى القَرابات أن يتزاوَرُوا ولا يتجاوَرُوا[1] » ، وزاد عليه أيضاً بما شَفَع النَّأْىَ[2] به من ذكر الغِنى . ونَبَّه أيضاً على أنّ فى التدانى تحاسُداً يبدو معه القِلَى والقَسْوَةُ لأن الكلام كالتعليل للأمْرَيْن اللذين رَغَّبَ فى أحدِهما وزَهَّد فى الآخر ، وهما التَّدانى والتنائى . والمثل السائر : « فَرِّقْ بين مَعَدٍّ تَحَابَّ » مِثلُ البيتِ .

٤ ــ أعَانَ عَلَىَّ الدَّهْرَ إذْحَلَّ بَرْكُهُ كَفَى الدَّهْرُ لَوْ وَكَّلْتَهُ بِىَ كافيا[3]

هذا الكلام شِكَايَةٌ مما عامَلَه به مُحْصَنٌ ، وتصريح بأذاه ، فيقول : لم يَرْضَ بالقعود عَنِّى وإسلامى للدّهْرِ حتَّى صار عوناً له علىَّ ، لَمَّا أخذ يؤثِّر تأثيره ، ويُلْقِى كَلْكَلَهُ وجِرَانَهُ . ثم قال مُنْتَقِلاً عن الأخبار عنه إلى مخاطبته ، إظْهاراً للجزَعِ من فعله . لو اتّخذتَ الدَّهْرَ وكيلاً واعتمدت عليه ، دون أن تُبَاشِرَ مَسَاءَتِى بِفِعْلِكَ لَكفاكَ . ومِثْلُ هذا القول ، أعْنِى كَفَى الدَّهْرُ ، يسمى التفاتاً . وقولُه « كافياً » يجوز أن يكون تمييزاً ، ويجوز أن يكون فى موضع المصدر ،

(١) هذا من كتاب عمر رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى . انظر مجمع الأمثال فى (فرق بين معد تحاب) .

(٢) فى الأصل : « الثانى » ، صوابه من م .

(٣) التبريزى : « ويروى : إذ حل بركه » . وكتب فى نسخة الأصل : « حل » بحيث تقرأ باللام والكاف أيضاً . وذلك بتقعير اللام وإلحاق علامة الكاف من جانبها الأيمن .

أراد : كَفَى الدَّهْرُ لو وكَّلْتَهُ بى كفايةً . واسمُ الفاعل يقع موقعَ المصدر كثيراً كما يَقعُ المصدر مَوْقِع اسم الفاعل . ومثلُه قول بِشْرٍ :

* كَفَى بِالنَّأْيِ من أسماءَ كَافِ[1] *

فقوله كافٍ فى أحد الوجوه مَصْدَرٌ لكنه لم يَنْصِبْهُ ، وجعله كقول الآخر:

* كأنّ أيْدِيهنَّ بالقاعِ القَرِقْ[2] *

فى ترك إعراب المعتل فى موضع النّصْبِ أيضاً ، إذْ كان من العَرَب من يستثقل الفتحة فى الياء ، والتّقدير : كفَى النَّأْيُ من أَسْمَاء كافيا ، أى كِفَايَةً . وقد جاء فى المثل : « أَعْطِ القَوْسَ بارِيها » ، بسكون الياء فى باريها ، ولم يَرْوِ أَحَدٌ بَارِيَهَا بالفتح ، فليس يجوز إلاَّ ما حُكِىَ ، لأنَّ الأمثالَ لا تُغَيَّر .

٩٠

وقال رَجُلٌ من بنى كُلَيْبٍ[3] :

١ — وحَنَّتْ ناقَتِي طَرَبًا وشَوْقًا إلى مَنْ بالحنينِ تُشَوِّقِينِي

انتصب « طَرَبًا » على أنَّه مَصدرٌ فى موضِع الحال ، أو على أنه مفعولٌ له . وأوّل البيت خبرٌ عن راحِلته ، وآخِرُه خِطَابٌ لها . وقوله « تُشَوِّقِينى » حذف نونه استثقالا لاجتماع نونين ، والأصل تشوّقيننى . ومثلُه فى الحذْف قول الآخر[4] :

* يَسُوء الفالِيَاتِ إذا فَلَيْنِى[5] *

---

(١) عجزه فى مختارات ابن الشجرى ٧٥ :

* وليس لحبها إذ طال شاف *

(٢) انظر اللسان والمقاييس (قرق) وإصلاح المنطق ٤٦٤ .

(٣) التبريزى : « من بنى كلب » .

(٤) هو عمرو بن معد يكرب ، كما فى اللسان (فلا) .

(٥) صدره : * تراه كالثغام يعل مسكا *

يريد فَلَيْنَنى . والمعنى : اشتَكَتْ ناقتى حانةً لطرَبها وشَوْقِها . ثم أخذ يخاطِبُها مُنكِرًا عليها ما ظهَر منها فقال : تُشَوِّقينَنى بحنينك إلى مَنْ ؟ أراد أنه مع حصولِ اليأس يجبُ ألاّ تحِنَّ ولا تُشَوِّقَ . ويجوز أن يكون المعنى تعظيمَ المشتاق إليه ، فكأنّه قال : تشوقيننى إلى مَن بحنينِكِ ؟ أى إلى إنسانٍ وأىّ إنسان ؟ ومَنْ من قوله « إلى مَنْ » فى هذا الوجه يكون نَكِرَةً غير موصوفةٍ وإن كان الكلامُ خبَرًا ، وفى المعنى الأوّل يكون مَن استفهامًا . وتقول : مَرَرْتُ بما صَالحٍ ، ومَرَرْتُ بمَنْ كَريمٍ ، تريدُ بإنسانٍ كَريم . وقد حُمِلَ قولُه عزّ وجلّ : ﴿ مَثَلاً ما بَعُوضَةً ﴾ ، على أنّ معناهُ مَثَلاً شيئًا بَعُوضَةً . والطَّرَبُ : خِفَّةٌ تعترى لعارِض سُرُورٍ أو هَمٍّ :

٣ — فإنِّى مِثْلُ ما تَجِدِينَ وَجْدِى   ولكنْ أَصحَبَتْ عنهُمْ قَرُونى

هذا الكلام اعترافٌ بالحُبّ ، وتسويغٌ لحنين الناقة وإنْ كَرِهَ التذكيرَ الحاصلَ منه . والشَّجْوَ المُنْتَتِجَ عنه . وقوله « مثل ما تجدين » يجوز أن يكون خبرًا مقدّمًا والمبتدأ وَجْدِى ، فيكون التقدير : إنِّى وَجْدِى مثلُ ما تجدين ، والجملةُ خبرُ إنّ . ويجوز أن يكون مِثلُ خَبَرَ إنّ ، ووَجْدى بدلٌ من ياء الضمير المتصل بإنِّى ، كأنه قال : إنّ وَجْدى مثلُ ما تجدين . وما بمعنى الذى ، وتجدين من صلتِهِ ، والضمير العائد إليه محذوف ، كأنه قال : مِثلُ ما تجدينَهُ ، أى مِثلُ الوَجْدِ الذى تجدينَه . ويجوز أن يكون ما مَعَ الفِعْل فى تقدير مَصدَرٍ ، كأنه قال : إنِّى وَجْدِى مِثْلُ وَجْدِكِ . والأصْلُ فى إنِّى إنَّنى ، لكنَّه حُذِفَ نُونُه لاجتماع ثلاث نُونات ، ويجوز أن يكون لم يَأْتِ بنون العِماد كما لم يُؤْتَ به فى لَعَلِّى ولَيْتِى ، والمعنى إنّ وَجْدِى مِثْلُ وَجْدِكِ ، ولكنْ تابَعَتْنِى نفسى باليأْسِ منهم ، وأنتِ لا تَعرفين اليأْسَ . والإصحاب : الانقياد . والقَرُون

والقَرُونَةُ : النَّفسُ . ويقولون : أَخَذْتُ قَرُونى من هذا الأمر ، أى رَفَضْتُهُ واطَّرَحْتُهُ .

٣ — رأَوْا عَرْشِي تَثَلَّمَ جانِبَاهُ فلمَّا أنْ تَثَلَّمَ أفرَدُونى

يقول : رأَوْا عِزِّى قد تَهَدَّم جانباهُ ، وانهَدَّ رُكْنَاهُ ، فلما صار أَمْرِى كذلِكَ تَرَكونى وَحِيداً ، وَقَعَدوا عن مشايَعَتِي ومُتَابَعَتى ، فدَعَتْنِى الحالُ إلى مفارقتِهم ، والتحوُّلِ عنهم . والعَرشُ : سَرِيرُ المُلكِ ، وقِوام أمْرِ الرَّجُل وعِزِّه ، فإذا زال قيل : ثُلَّ عَرْشُه وتَثَلَّمَ . وقد أَلَمَّ فى هذا بقولِ أوْسٍ :

* وهمْ لِمُقِلِّ المالِ أولادُ عَلَّةٍ[1] *

وبقوله :

* بنو أمٍّ ذِى المالِ الـكثير[2] * (البيتان)

٤ — هَنِيئًا لابنِ عَمِّ السَّوْءِ أَنِّى مُجَاوِرَةٌ بَنِى ثُعَلٍ لَبُونِى

أنِّى فى موضِـعِ الفاعل لهنيئاً ، ومجاوِرَةٌ ارتفع على أن يكون خَبَرَ أنَّ ، ولَبُونى فى موضِـعِ الرَّفعِ علىأنها فاعِلَةٌ لمجاورَة ، وبنى ثُعَلٍمفعولٌ به . والمعنى : لِيَهْـنِئْ ابْنَ العَمِّ السَّوءِ بُعْدِى عنهم ، ومجاوَرَةُ لَبُونِى لغيرِهِمْ . واللَّبُون : الناقَةُ التى بها لَبَنٌ . ويجوز أن يرتَفِـعَ مجاورَةٌ على أنه خَبَرٌ مُقَدَّمٌ ، والمبتدأ لبونى والجلة كما هى تكون خبر أنّ . ويجوز أن يكون لَبُونى بَدَلاً من الضمير المتّصِل بأنّى ، والخبر مُجَاوِرَةٌ . والمعنى والتقديرُ أَنَّ لَبُونى مجاورةٌ بنى ثُعَلٍ . وهذا الـكلامُ إنباء أنَّ ما حَصَل من بُعْدِه عن العشيرة كانوا يتمنَّوْنَهُ ، فقال هَنَأَ اللهُ أبناء عَمِّى ما أرادُوهُ وفازوا به . ويجوز أن يكون وعيداً وتهَـكُّماً .

---

(١) عجزه : * وإن كان محضاً فى العمومة مخولا *

(٢) هو بتمامه :

بنو أم ذى المال الكثير يرونه وإن كان عبداً سيد الأمر جحفلا

٩١

وقال رَجُلٌ من بنى أسَدٍ :

١ — وَمَا أنَا بالنِّكْسِ الدَّنِيِّ ولا الّذى إذا صَدَّ عَنِّى ذوالمَوَدَّةِ أَحْرَبُ

النِّكْس أَصْلُهُ فى السِّهام ، و نُقلَ إلى الضَّعيف من الرِّجال . يُقالُ نَكَسْتُه نَكْسًا ثم يُسَمَّى المَنكوسُ نِكسًا ، كما يُقالُ نَقَضْتُه نَقْضًا ثم يُسَمَّى المَنْقُوضُ نِقْضًا بكسر النون . كأنَّ السهم انكسر فُوقُه فنُكِس فسمِّىَ نِكْسًا . فيقولُ : ما أنا بالمُسْتَضْعَفِ اللَّئيم ، ولا الذى إذا انحرف عَنْهُ مَنْ يُوَادُّه دَعا بالوَيْلِ والحَرَب فقال : واحَرَباهُ . وفى طريقته .

ولا أَقُولُ إذا ما خُلَّةٌ صَرَمَتْ يا وَيْحَ نَفْسِىَ من شَوْقٍ وإشْفَاقِ(١)

ويجوز أن يكون مَعْنَى أحْرَبُ : أغْتاظُ . ومنه قولُه :

* إِنِّى إِذَا الشاعِرُ المَغْرُورُ حَرَّبَنِى *

وهذا أَسْلَكُ فى طريقة العربية ؛ وكان يجب أن يقولَ : ولا الذى إذا صَدَّ عنه ذُو المَوَدّة يَحْرَبُ ، حتّى يكونَ فى الصلة ما يعودُ إلى الموصولِ ، لكِنهُ لَما كان القَصْدُ فى الإخبار إلى نَفْسِهِ وكان الآخِرُ هو الأوّل ، لم يُبَالِ بِرَدِّ الضمير على الأول وحَمْلِ الكلام على المعنى ، لأَمْنِه من الالتباس . وهو مع ذلك قبيحٌ عند النحويين ، حتى إن أباعثمانَ المازنىّ قال : لولا اشتهارُ مَوردِه وكثرتُه لرددتُه . ومثْلُهُ :

* أنا الّذى سَمَّتْنِ أُمِّى حَيْدَرَه(٢) *

(١) لتأبط شراً . المفضليات (١ : ٢٦) .

(٢) لعلى بن أبى طالب ، كما فى اللسان (حدر ، سندر) . وقد سبق فى ص ١١٥ .

٢ ـ ولكنّنى إنْ دامَ دُمْتُ وإنْ يَكنْ ... لَهُ مَذْهَبٌ عَنّى فلى عنه مَذْهَبُ[١]

يقول : أملِكُ نَفْسى ووِدّى فى مصادقةِ الأخِلاَّء ، فإنْ داموا لى على العَهْد دُمْت لهم ، ولَزِمْتُ الوفاء معهم ، وإن رأوْا ذَهاباً عَنّى و مَيْلاً إلى غيرى ذهبْتُ عنهم ، ومِلتُ إلى غيرهم . ويُرْوَى : « ولـكنّنى ما دام دُمْت » ويكون موضعُ ما دام ظَرْفاً ، وخَبرُ لـكنَّ دُمْتَ . وفى الأولى يكون الجزاء وجوابه خَبَرًا . وفى طريقته قول لَبيد :

فاقْطَعْ لُبَانَةَ مَن تعَرَّضَ وصْلُهُ ... ولَخيرُ واصِـــلِ خُلَّةٍ صَرّامُها

٣ ـ أَلَا إنَّ خَيْرَ الوُدِّ وُدٌّ تطَوَّعَتْ ... به النَّفْسُ لا وُدٌّ أَتَى وَهْوَ مُتْعَبُ

يقول : خير الوُدِّ ما جاء عفواً من غير جَهْدٍ ، ولا إكراه نفس وطَبْع ، بل يبعثه الميلُ ، ويحْـكُمُهُ الخلوص ؛ فأما المُتْعَبُ من المَوَدّات ، المَشُوبُ بالتعمُّلِ والتـكلُّف ، فلا طائل فيه . ومثله قول بعضهم :

ولا خَيْرَ فى وُدِّ امرِئٍ مُتَكَارِهٍ ... عَلَيْكَ ولا فى صَاحِبٍ لا تُوافِقُهْ[٢]

وقول الآخر :

إذا أنت لا يَثْنِيك إلا شَفاعةٌ ... فلا خَيْرَ فى ودٍّ يكون بشَافِـعِ

٩٢

وقال أبو حَنْبلٍ الطّائىّ[٣] :

١ ـ لَقَدْ بلاَنى عَلَى ما كانَ من حَدَثٍ ... عِنْدَ اخْتِلاَفِ زِجاجِ القَوْمِ سَيَّارُ

(١) كتب بخط مخالف قبل هذا البيت :

ولست إذا ولى الصديق بوده ... بمكتئب أحنو إليه وأندب

(٢) أنشده التبريزى ، مع بيتين بعده ، وقال : « قالوا هو لمسلم بن الوليد » .

(٣) هو جارية بن مر ، أبوحنبل الطائى، شاعر جاهلى فارس . ذكره فى المؤتلف ٩٩ . التبريزى : « ويقال إن هذه الأبيات لعامر بن جوين ، حين أجار سيار بن موألة بن عامر ـ

ارتفع « سَيَّارٌ » بقوله بَلَانِي . واللام فى « لقد » تُؤْذِن بيَمِين . يقول : لَقَدْ خَبَرَنى هذا الرجل على ما اتّفق من حَدَثٍ ، واعترَضَ مِن شرٍّ ، فعَرَف حُسنَ بلائى عند اختلاف القنا بالطَّعْن . وذَكَّرَ الزِّجَاج ، والمُرَاد الرِّماحُ بكمالها ، ومثله قول الآخر(١) :

* الواطِئِين على صُدُورِ نِعَالِهِمْ(٢) *

وإنما يُوطَأُ النَّعْل كُلُّها . ويقال : زَجَجْتُهُ بالرمْح ، إذا زَرَقْتَهُ .

٣ — حَتَّى وَفَيتُ بها دُهْمًا معقَّلَةً كالقارِ أَرْدَفَهُ من خَلْفِهِ قَارُ

يقول : صَبَرْتُ لِمَا عَزَّ من أَمْرٍ ، وتَعسَّرْ من وفاءٍ وأداءٍ ، لأخرُجَ مما به تكَفَّلْتُ ، من العُهْدَةِ التى فيها دَخَلْتُ . وقد كان أبو حَنْبَل تَضَمَّن لسَيَّار إبلاً لَهُ بأعيانها أو شَرْوَاهَا ، أى مِثْلِهَا ، فيقول : أخذ سَيَّارٌ يَنتظِر ماذا يكون مِنِّى فيما تضَمَّنْتُ حَتَّى وفَيْتُ بإبلِهِ سوداً مشدودةً بعُقُلها ، كأنها فى سَوَادِها قَارٌ عُولِىَ بقار . وهذا يرادُ به تأكيدُ السوَادِ . ويقال رَدِفْتُهُ وأردَفتُه ، إذا جئت بعْدَهُ . ورَدِفَكُمْ ورَدِفَ لكم ، أى تَبِعَكم وجاء بَعْدَكُم . وانتصب « دُهْمًا » على أنَّهُ حَالٌ للإبل . وفائدة قوله « كالقار » تصويرٌ للإبل بألوانها . ومعنى لقد بلانى حَتَّى وفَيْتُ ، أى انتظَرَ ما يكون من البلاء فى وفائى عند ما ضَمِنْتُ ، وصار يُجَرِّبنِى إلى أنْ وفَيْتُ . وفائدةُ قَوْلِه مُعَقَّلَةً ، أنه سلَّمَها فى مَبَارِكِها آمِنَةً .

— بن مالك بن تيم الله بن ثعلبه ، وكان سيار جاراً لرجل من بنى ثعل يقال له عدى بن أفلت ، فمر عامر بن جوين بعدى بن أفلت وقد قامره سيار بن موألة بالقداح فقمره عدى حتى غلق مال سيار ، فظعن الحى فقال سيار لقينتين له : تخلفا بأهلكما بعد الحى حتى ينزلوا ، فإذا نزلوا فانطلقا برحلكما حتى تفـدا إلى رحل عامر بن جوين ، ففعلتا فجاء عدى بن أفلت فأراد أن ينقلهما ورحلهما ، فأبى ذلك عامر بن جوين وقال : قد جاورنى الرجـل ! فلما خرج امرؤ القيس بن حجر عند عامر بن جوين فنزل على أبى حنبـل جارية بن مر ، تهادى أبو حنبل وعامر الشعر ، فقال عامر : لقد بلانى . . . » .

(١) هو الأعشى . الكامل ٣٥ ليبسك واللسان (دفن) .

(٢) عجزه : * يمشون فى الدفنى والأبراد *

ويجوز أن يكون أراد إبلاً متقدماتُها ومتأخّراتها سُودٌ ، فلذلك قال كالقار أُرْدِفَ بِقارٍ ، ويجوز أن يكون أراد بالقَارِ جمع قَارَةٍ ، وهى الجبال ، فَشَبَّهها بها فى عظَمِها .

٣ – قَدْ كانَ سَيْرٌ فحُلُّوا عن حَمُولَتِكُم ... إنِّى لِكلِّ امرئٍ مِنْ جارِهِ جَارُ

يقول : وجَبَ السَّيْرُ للخوف والحَذَر قبل هذا الوقت ، وأمّا الساعةَ وقد بَلَغتم المَأْمَن فى جِوَارى فحُلُّوا عن أجْمالِكم ، إنِّى لِكلِّ رجل منكم جارٌ بَدَلاً من جَارِهِ الأول . والعرب تقول : هذا من ذاك ، وهذا بذاك أى عِوَضٌ . وفُسِّرَ قَوْلُ الشاعر :

لَيْتَ لَنَا من مَاءِ زَمْزَمَ شرْبَةً ... مُبَرَّدَةً باتت على الطَّهَيانِ(١)

على أنّ المعنى لَيْتَ لَنَا بَدَلاً من ماءِ زَمْزَمَ شَرْبَةً . ويقولون : فلانٌ لك من الجارِ جَارٌ ، ومن النديمِ ، ومن الأَكيل أَكِيلٌ . ويحتمل أن يكون معناه : إنِّى لِكُلِّ رَجُلٍ مُجِيرٌ ممن يجاوِرُه ، أى ممن يدانيه بسوء ، والأول أجْود وأصْوب . والحُمُولة : جَمْعُ حِمْلٍ ، ودخلت الهاء فيه توكيداً لتأنيث الجمع . والحَمُولة : الأبل التى يُحمل عليها ، وهى فَعُولَةٌ كالقَتُوبَةِ ، والرَّكوبةِ ، ولا يَجْرِى على الموصوف ، لا يقال دَابةٌ حَمُولة .

٩٣

وقال يزيدُ بن حِمّانَ السَّكُونِى(٢) :

١ – إنِّى حَمِدتُ بَنِى شَيْبَانَ إذْ خَمَدَتْ ... نِيرَانُ قَوْمِى وفيهم شُبَّتِ النارُ

(١) للأحول الكندى كما فى معجم البلدان (الطهيان) . وهو اسم قلة جبل باليمن .

(٢) كذا فى النسختين . وعند التبريزى ومعجم المرزبانى ٤٩٣ أنه « يزيد بن حمار السكونى » . قال المرزبانى : « حليف بنى شيبان ، وكان له بلاء ورأى يوم ذى قار ، فقال يمدح =

الحمد : الثَّناء على الرجُل بمـا فيه من الخِصال المرتَضاةِ . وبهذا المعنى فارَقَ الشُّـكر ، لأنَّ الشكر لا يكون إلا على صَنِيعةٍ . فيقول : لمّـا رأيت بنى شَيْبان عند إمْحَالِ الأرض وإجْدابِهَا ، وإقْتَار الناس وإضاقتهم ، يوقدون نار ضيافتهم ويقيمونها ، وإن كانت نيران غيرهم خامِدَةً متْرُوكاً إشعالُها ، أثنَيْتُ عليهم ، ونشرتُ فضيلتهم . وقال « نيران قومِىَ » وإن أراد غيرَهم معهم ، تفضيلاً لهم على قومه ، وإيذاناً بالصِّـدق فى مَخْبرِه ، فبدأ بذكر قومِه وذويه . ويُروى : « نيران قوْمٍ » ، والأوّل أجْوَد .

٢ — ومِن تَـكَرُّمِهم فى المَحْلِ أنّهُمُ   لا يَعْلَمُ الجـار فيهِمْ أنه الجـارُ[١]

٣ — حتى يكونَ عزيزاً مِن نفوسِهِمُ   أو أن يَبِينَ جميعًـا وهو مُخْتارُ[٢]

يقول : مِن تـكلُّفِهم الـكَرَم كأنهم لا يَرضَوْن فى مثل ذلك الوقت بما طُبِعوا عليه وجُبِلُوا ، حتى تـكلَّفُوا أكثر منه ، أنّهم يُحِلُّون جارَهم من العناية به والاتحاف[٣] والإحسان إليه والاصطناع ، مَحَلاًّ يتشكَّكُ مِن بَعْدُ فى نفسه : هل هو جارُهم أم من صَميمِهم . وعلى هذا يتعلّق حتى من قولِهِ « حتى يكون عزيزاً » بالمعنى الذى دلَّ عليه قولُه لا يَعلمُ الجارُ فيهم أنه الجـارُ ، أى يعاملونه بهذه المعاملة إلى أن يكونـ عزيزاً فيما بين ظهرانَيْهم ، أو يَختار مفارقَتَهم . والمعنى : ذلك له فيهم ، ما اعتزَّ بجوارِهم ، أو مالَ إلى فِراقهم . ويجوز أن يكون

= بنى شيبان : إنى حمدت . . . » . وقال التبريزى : هكذا قال أبو تمام — أى فى نسبة الشعر — والصحيح أنه عدى بن يزيد بن حمار ، بعد الألف راء ، بن عباد بن مسلمة بن عوف بن تراغم بن معاوية بن ثعلبة بن عقبة بن سكون . وعدى جاهـلى ، ويعرف بالجون ، وكان نازلا فى شيبان » .

(١) المرزبانى : « لا يشعر الجار فيهم » .

(٢) المرزبانى : « فى نفوسهم » .

(٣) فى النسختين : « والالتحاف » ، ولم نجد لها وجها .

قوله « من نفوسهم » فى موضع الحال ، وعزيزاً خبر كان . وإنْ جَعلْتَ « عزيزاً » فى موضع الحال ومن نفوسهم خبرًا جاز . والمعنى : حتى يكون كأنه من أصْلِهم ، كما قال الله عزّ وجلّ : ﴿ لقد جاءكم رسولٌ مِن أنفسِكم ﴾ ، والمعنى من جِنْسِكم ومن بِطانتكم . ويجوز أن يكون البيت مُضمَّنًا ، ويكون معنى لا يَعلَمُ الجارُ فيهم أنه جار ، أنَّ الجارَ لا يكون قد أحَسَّ بمجاورتِه لهم حتى يتفقَّدُوه هذا التفقُّد ، ويُحِلُّوه هذا المَحَلّ . وقوله « أو أنْ يَبِينَ جميعًا » انتصب جميعًا على الحال ، والمعنى أو أن يُفارِق وهو مجتمع الحال غيرُ مُنتشِرِها ، ومُختارٌ لذلك غيرُ مُضطَرٍّ إليه . ومِثلُ هذا بيتُ زهير :

ضَمِنَّا مالَهُ وغَدَا جَمِيعًا عليْنا نَقْصُــه وله النَّماء

وقبل بيتِ زهيرٍ هذا قوله :

وجارٍ سـار معتمِدًا إلينا أجاءَتهُ المَخافةُ والرجاء

فجاوَرَ مُـكْرَمًا حتى إذا ما دعاهُ الضيفُ وانقطع الشِّتاء

ضَمِنَّا ما له وغدا جميعًا . . . .

فقد علِمتَ اشتمالها على ما ذكره هذا الشاعر ، وتفرُّدَها بما زاد عليه من المعنى . ويجوز أن يكون « حتّى » بمعنى كَيْ ، فيكون المراد لا يَعْلَمُ الجار لحُسْنِ توفُّرِهم عليه ، وتوحُّدِهم إيّاه باتّخاذ الصنائع لديه أنّه جارٌ ، لـكَيْ يكونَ عزيزاً مُدَّةَ مُقامِه ، أو يُفارِقَهم مُخْتاراً ، موفورَ المال ، مَصُونَ الحالِ .

٤ — كأنَّهُ صَدَعٌ فى رأسِ شاهِقَةٍ من دَونِه لِعتاقِ الطيرِ أَوْكـارُ[1]

يقول : كأنّ الجـارَ لِتمنُّعِه بهم ، وتعزُّزه حين استَظهر على الزمان بمكانه فيهم ، وعِلٌ احترز عن طُلّابه فى رأس قُلّةٍ شامخةٍ أوكارُ عِتاقِ الطير دونَه ، وهو

(١) فى معجم المرزبانى : « ودونه » .

أرفع منها وأحصن . فالتشبيه تناوَلَ ما ذكَرْتُ من التمنُّع والتحصُّن . ويَعْنى بعِتاق الطير : العِقْبانَ وما أشبَهَها من أحرار الطير ، وما يَتَّخذ الوُكُورَ فى الجبال . وإلى هذا أشار الهُذَلىّ(١) فى قوله :

حتى انتَهَيْتُ إلى فِراشِ عَزيزَةٍ سَوْداءَ رَوْثةُ أنفِها كالمِخْصَفِ

يعنى وكْرَ عُقاب . والصَّدَع والصَّدِيعُ : الفتىُّ من الأوعال ، وقيل هو للربوع وقد استُعمِل فى الرَّبْعةِ من الرِّجال .

٩٤

وقال آخر(٢) :

١ ــ نزَلْتُ على آلِ المُهَلَّبِ شاتِيًا غريبًا عن الأوطانِ فى زَمَنٍ مَحْلِ(٣)

يقول : أَوَيْتُ لَمّا تغرَّبتُ عن أوطانى داخلاً فى الشِّتاء ، مُمتَحنًا بالجَدْب والقَحط ، مُلْجَأً إلى الاستعانة على الزمان بغَيرى ، إلى آلِ المُهَلَّبِ بن أبى صُفْرةَ ونزلْتُ فيهم . ثم أخذ يقتَصُّ ما رأى فيهم . ويقالُ زَمَنٌ مَحْلٌ ، وُصِفَ بالمَصْدَر ، وزمن ماحِلٌ وزمن مُمْحِلٌ . والأصلُ فى المحل : انقطاعُ المطر ويُبْسُ الكلإ . ويقال أرضٌ مَحْلٌ وأرضٌ مُحُولٌ ، وُصِفَ بالجمع ، كأنه أُجْرِى على أقطاعِ الأرضِ ، كما يقال : ثوبٌ مِزَقٌ .

٢ ــ فمَا زَالَ بى إكْرامُهُمْ واقتِفاؤهم وإلْطافُهُمْ حتى حَسِبْتُهُمُ أَهْلِى(٤)

---

(١) هو أبو كبير الهذلى . ديوان الهذليين (٢ : ١١٠) .

(٢) هو بكير بن الأخنس ، كما فى البيان والتبيين (٣ : ٢٣٣) . على أن المقطوعة بدون نسبة فى ترجمة المهلب بن أبى صفرة من وفيات الأعيان ، وكذا فى عيون الأخبار (١ : ٣٤١) .

(٣) فى البيان : « فقيراً بعيد الدار » .

(٤) البيان : « إلطافهم واقتفادهم وإكرامهم » .

يقول : لم يزالوا يؤثروننى بالإحسان والحُسْنَى ، ويختصُّوننى بإسداء الجميل والنُّعْمَى ، ويلتزمون لى من الإكرام والتَّقريب ، والإدناء والتَّرحيب ، حتَّى ظننتهُم عشيرتى ، وتَشكَّكْت فى اغترابى منهم ، وبُعد نَسَبى عنهم . ومن الاقتفاء القَفِىُّ ، وهو المُكرَمُ من الضيوف والسَّكْنِ ، والقَفَاوةُ . قال :

* يُعطَى دَوَاءَ قَفِىِّ السَّكْنِ مَرْبُوبِ[1] *

٩٥

وقال جابر بن ثَعْلَبٍ الطائىّ[2] :

١ — وقَامَ إلَىَّ العاذِلاَتُ يَلُمْنَنِى يَقُلْنَ أَلاَ تنفَكُّ تَرْحَلُ مَرْحَلا[3]

يقول : انتصبَ اللوائم عاتباتٍ علىّ ، سائقاتِ العُنْف إلىَّ قائلاتٍ : ألا تزالُ تَرْحَل ارتحالاً فلا تَسْتَقِرُّ بك دار ، ولا يُقَرَّبُ لَكَ مَزَارٌ ، ولا يُحَطُّ عن راحلةٍ رَحل . ومَرْحَلاً انتصب على المَصْدَرِ ، كما تقولُ : أما تَنفَكُّ تَخْرُجُ مَخْرَجًا وتَبْعُدُ مَبْعَدًا . ومعنى تَرْحَلُ تشدُّ الرَّحْل . وموضع « يَلُمْنَنى » موضِع الحال ، « وَيَقُلْنَ » فى موضع البَدَل من يَلُمْنَنى .

٢ — فإنَّ الفَتَى ذا الحَزْمِ رامٍ بنَفْسِهِ جَوَاشِنَ هَذَا اللَّيْلِ كَىْ يتَمَوَّلا

فى الكلام اختصار ، كأنَّه قال : فأَجبتهنَّ فقلت : إنَّ الفتى الحازمَ يُحَمِّلُ نفسَهُ المشَقَّات ، ويَرْمِى بنَفْسِهِ المَتالِفَ الصَّعبات ، ويَمتطى الأهْوَال ، كَىْ ينالَ

(١) لسلامة بن جندل السعدى ، كما فى اللسان (قفا) . وصدره :

* ليس بأسفى ولا أقنى ولا سغل *

(٢) التبريزى وابن جنى : « جابر بن الثعلب » . وفى الكامل ٢٩٩ ليبسك : « جابر بن ثعلبة » . وانظر ما سبق فى ص ٢١٥ .

(٣) التبريزى : « ويروى : ألا يا ارحل لأهلك مرحلا » .

الأموَال ، غيْرَ مُفَكِّرٍ فى ظلمة ليْلٍ ، ولا مُسْتَصْعِبٍ لِرُكُوبِ خَطْبٍ . وقوله : « جواشِنَ هذا الليل » يَعْنى صُدُورَها وأوائلَها . واللَّيْلُ بإزاء النهار فى الاستعمال ، والليلةُ بإزاءِ اليَوْم . والإشارة بـ « هذا » على طريق التَّقريب . وهم يستعيرون الجَوَاشِنَ والهَوادِىَ والصدورَ والنُّحورَ والأَعْنَاقَ والرُّءوسَ لأوائِلِ الأمور ، كما يَسْتَعِيرُونَ الأَعجازَ والأَدبارَ والأَعقابَ والأذناب لآواخرها .

٣ — وَمَنْ يَفْتَقِرْ فِى قَوْمِهِ يَحْمَدِ الْغِنَى   وَإِنْ كَانَ فِيهِمْ وَاسِطَ العَمِّ مُخْوَلا[1]

افْتَقَرَ فِعْلُ مُفْتَقِرٍ وفَقِيرٍ جَمِيعًا ، استُغْنِىَ بهِ عن فَقِر . يقولُ : مَنْ نَالَهُ الفَقْرُ بين عشيرته وأَهْلِيهِ حَمِدَ الغِنَى ، وصار عِندهُ المطلوبَ والمتمَنَّى ، وإن كان مَعْطُوفًا عليه مُكْرَما ، ومُعَمًّا فيهم مُخْوَلاً . وقولُه : « واسِطَ العَمِّ » سِطَةُ الحسَب : كرَمُهُ ، والفِعْلُ منه وَسَطَ . قال :

* وَقَدْ وَسَطْتُ مالِكاً وحَنْظَلاَ[2]

ويقال : فلانٌ وسِيطٌ فى قَوْمِه : جَليلٌ ، وفُلانٌ واسِطُ القَوْمِ ، وهو أَوْسَطُهُمْ أى أشرَفُهم .

٤ — كَأَنَّ الفَتَى لم يَعْرَ يَوْمًا إذا اكْتَسَى   وَلَمْ يَكُ صُعْلُوكاً إِذَا مَا تَمَوَّلاَ

هذا الكلام بَعْثٌ على التَّجْوَال ، وتَحْضِيضٌ فى اكتساب المال ، فيقول : إذا اقْتَنَيْتَ بَعْدَ فَقْرِكَ ، واكْتَسَيْتَ عن عُرْيِك ، فكأنّك ما كنت قط فَقِيرًا ولا عُرْيَانًا . والمعنى : إنّ من استبدَلَ بعُسْرِهِ يُسْرًا ، ونال عَقْب ضِيقِه

---

(١) ضبطت « مخولا » بفتح الواو فقط فى النسختين ، وهى لغة صحيحة . يقال أخول الرجل وأخول ، بالبناء للمعلوم والمجهول ، فهو مخول ومخول بكسر الواو وفتحها . ومثله المعم والمعم ، وهو الكثير الأعمام . ورواه ابن جنى :

ويزرى بظرف المرء قلة ماله   وإن كان أقوى من رجال وأحولا

(٢) أراد : وحنظلة . وهى القبيلة . والرجز لغيلان بن حريث . اللسان (وسط) . وبعده :

* صيابها والعدد المجلجلا *

رخاء، فكأنه ما سُبِقَ إليهما، ولا زوحِمَ فيهما. وفى طريقته ما بَعْدَهُ، وهو: «ولم يَكُ فى بُوسٍ». والصُّعْلُوك: الفقير.

٥ – ولَمْ يَكُ فى بُوس إذا باتَ لَيْلَةً يُنَاغِى غزَالاً سَاجِىَ الطَّرْفِ أكْحَلاَ[1]

يقول: وإذا استمتع لَيْلَةً بمناجاةِ إنْسانٍ كأنّه غزالٌ فى طَرْفِهِ فترٌ، وفى عَيْنِه كَحَلٌ، فكأنه ما كان ذا بُوسٍ قطٌّ. أى تُعَفِّى النَّعْمَةُ على آثارِ الضُّرِّ، وتَمْحُوها حتى تُنْسَى. وقولُهُ «ولم يَكُ فى بُوسٍ» قد مرَّ الكلام فى حذف النون منْها تخفيفاً. والمناغاة: المغازلة، وأصلُهُ من النَّغْيَةِ، وهى الصوت اللطيف، والنَّغْمة الحسنة الخفيَّةُ، ولذلك يُفَسَّرُ لُلمَناغاةُ على لُمسَارَّةِ. والساجِى: الساكن، يقال لَيْلٌ سَاجٍ. قال:

* يا حَبَّذَا القَمْرَاءُ وَاللَّيْلُ السَّاجْ[2] *

٩٦

وقال بعض بنى طيِّئ:

١ – إنْ أَدَعِ الشِّعْرَ فلَمْ أُكْدِهِ إِذْ أَزَمَ الحَـــقُّ عَلَى البَاطِلِ

قوله «إذْ أَزَمَ» ظرفٌ لقوله أَدَعِ. وتقدير الكلام: إنْ أَدَعِ الشِّعْر إذْ أزم الحقُّ على الباطل فلم أُكْدِهِ. ويريد بالحق كَبْرَتَهُ وشيخوخته، وما أخذَ به النَّفْسَ عِندَهُ من مراعاة الحقِّ، والرجُوع عن الهزْلِ إلى الجِدّ. وأراد بالباطل الصِّبا واللَّهوَ وما يَتْبَعُهُمَا مما يُعَدّ سَفها وقوله «فلَمْ أُكْدِهِ» أصله منْ حَفَرَ

(١) التبريزى: «فاتر الطرف»، ثم أشار إلى رواية «ساجى الطرف». وأنشد بعده بيتا لم يروه المرزوقى، وهو:

إذا جانبٌ أعياك فاعمِد لجانب فإنك لاقٍ فى بلادٍ مُعوَّلاَ

(٢) فى الأصل: «ساجى»، صوابه من م واللسان (قمر). وبعده:

* وطرق مثل ملاء النساج *

فأَكْدى ، إذا بَلَغ الكُدْيَة ، فتعذَّرَ عليه الحَفْرُ وَإنْبَاطُ الماء . والكُدْيَةُ : مَكانٌ صُلْبٌ يُعْيِي الحَافِرَ . ويقال أيضاً : حَفَرَ فأَجْبَلَ ، إذا بَلَغ جَبَلاً . وتوسَّعُوا فيه فقالوا : أَكْدَى فى الشِّعْرِ والعَطَاء . وفى القرآن : ﴿ وأَعْطَى قليلاً وأَكْدَى ﴾ . وقالوا أيضاً : فلانٌ بَلغ الناسُ كُدْيَتَهُ ، أى كان يُعْطِى ثم أَمْسَكَ . ومعنى البيت : إن تركْتُ الشِّعْرَ حين تحَلَّمْتُ[١] وارْعَوَيْتُ ، وَصار الحقّ عاضًّا على بَطالَتى ، والحِلْمُ[٢] مانعًا من جَهالَتى ، فلم أترُكْهُ عن عَجْزٍ لاحِقٍ ، وإفحامٍ حاصِلٍ . والازْمُ : العَضُّ ، وتُوُسِّعَ فيه ، فقيل : « نعم الدواء الأزْمُ » ، يريدون الحِمْيَةَ .

٢ ــ قَدْ كُنْتُ أُجْرِيهِ عَلَى وَجْهِهِ وَأُكْثِرُ الصَّدَّ عَنِ الجَاهِلِ

يقول : كنتُ أُجْرِى الشِّعرَ على حَقِّه وكُنْهِه ، وأقْرِضُه مستمرًّا فيه على حَدِّه أيّامَ شَبابى ، وقَبْلَ ارتِدَاعى ، ومع ذلك كنتُ أُكثِرُ الإعراضَ عن الجُهَّال ، وأتَصَوَّنُ عن مكايَلتِهم وموازَنتِهم . وهذا يجرِى مَجْرَى قول الآخَر :

إنِّى امرُؤٌ مُكْرِمٌ نَفْسِى ومُتَّئِدٌ مِن أنْ أُقاذِعَها حتى أُجازِيها[٣]

والمعنى أَرْبَأُ بقَدْرِى عن مقارضة الشعراء ، ومجاذبة السُّفهاء ، ولكن إنْ دَعَتِ الحالُ معهم ، والضَّجَرُ بهم ، إلى المجازاة مع مراجعة الحِلْم ، فبالفِعْل لا بالقوْل ، وعلى هذا كنتُ قبلَ هذا الأَوَانِ مع الجُهَّال .

٩٧

وقال آخر :

١ ــ زَعَمَ العَواذِلُ أنّ ناقةَ جُنْدَبٍ بِجُنُوبِ خَبْتٍ عُرِّيَتْ وأُجِمَّتِ[٤]

---

(١) فى الأصل : « تحكمت » ، صوابه فى م .

(٢) فى الأصل : « والحكم » ، صوابه فى م .

(٣) من الحماسية ٧٤ ص ٢٦٧ .

(٤) « جنوب » فى النسختين بضم الجيم : جمع جنب . وعند التبريزى بفتح الجيم ــ

يقول : قال اللوائم عاتِبَةً على جُنْدَب ، ومُنْكِرَةً لتودُّعِه ومَيْلِه إلى الراحة والخَفْض وتَرْكِ السَّفَر : إنّ ناقتَهُ حُطَّ عنها رَحْلُها ، وأُزيلَ كَلالُها ، فهى جامَّةٌ بجُنُوب خَبْتٍ : والخَبْت ، أصله ما اطمأنّ من الأرض[1] . ويقال أَخْبَتَ الرجُلُ ، إذا صار فى الخَبْتِ ؛ وتُوُسِّعَ فيه فقيل للمتألّه الخاشع : هو مُخْبِتٌ .

٢ ـ كَذَبَ العَواذِلُ لو رَأَيْنَ مُنَاخَنَا بالقادِسِيَّةِ قلْنَ لَجَّ وَذَلَّتِ

أَبْطَلَ قولَهُنَّ فذكر أنَّهُنَّ لَوْ رَأَيْنَ مَنزِلَنا ومَبْرَكنا بهذا البلد ، لقُلْنَ لَجَّ جُنْدَبٌ فى السَّيْرِ وذَلَّتِ النَّاقةُ . ويجوز أن يكونَ قولُه « مُنَاخَنا » لم يُشِرْ به إلى إناخةٍ وإلى موضعٍ لها ، وإنما يكون كقولِهِ :

* فإنّ المُنَدَّى رِحْلَةٌ ورُكوبُ[2] *

فيكون المعنى : لو رَأَيْنَ ما جُعِلَ بَدَلاً لناقتنا فى موضعِ الإناخَةِ لقُلْن ذلك . ومثله :

* تَعْليقُها الإسراجُ والإلجامُ *

أى جُعِلَ الإسراجُ بدلاً مما كان يُعلَّق عليه . ويَقرُبُ منه قوله :

لمّا تذكَّرْتُ بالدَّيْرَيْنِ أَرَّقَنِى صوتُ الدَّجاجِ وقَرْعٌ بالنواقِيسِ[3]

وإنما شاهَدَ وقتَهُما فذكرَهُما به ، ولم يكن ثَمَّ دَجاجٌ ولا نَواقيس .

---

(١) ذكر ياقوت أن « خبت » علم لصحراء بين مكة والمدينة وماء لكلب ، وقرية من قرى زبيد باليمن .

(٢) لعلقمة الفحل فى المفضليات (٢ : ١٩٤) واللسان (ندى) . وصدره :

* ترادى على دمن الحياض فإن تعف *

وركوب : مصدر ركب ، ويروى : « وركوب » بفتح الراء ، وهو اسم هضبة . وفى اللسان : « رحلة وركوب : هضبتان » .

(٣) لجرير فى ديوانه ٣٢١ والحيوان (٢ : ٣٤٢) .

٩٨

وقال الرَّاعِى(١) :

١ — كَفَانى عِرِفّانُ الكَرَى وكَفَيْتُه كُلُوءَ النُّجُومِ والنُّعاسُ مُعانِقُهْ(٢)

عِرِفّان : اسم صاحِبه . فيقول : نام هذا الرجلُ وكفانى الاشتغالَ بالنوم ، وكلأتُ النجومَ وارتقبْتُها ، وكفَيته السهر ، وقد لازَمَ النُّعاسَ وعانَقَهُ . فإن قيل : كيف كَفاهُ الكَرَى ؟ قلتَ : هذا على مطابقةِ الكلامِ ، فلما قال كَفَيْتُه مُراعاةَ النجوم ونُبْتُ عنه فيها ، قال : كفانى الكَرَى ، وإن كانت نيابةُ ذلك عنه فى الكَرَى لا يَصِحُّ . ويُرْوَى : « كفانىَ عِرْفَانَ الكَرَى وكَفَيْتُه » ، أى مِعرِفة الكَرَى ، وليس بمُرْتَضًى .

٢ — فَبَاتَ يُرِيهِ عِرْسَهُ وَبنَاتِهِ وَبِتُّ أُرِيهِ النَّجْمَ أَيْنَ مخافِقُهْ

هذا تطنُّزٌ من القولِ(٣) ، لأن الساهرَ لا يَعْلَمُ من حال النائمِ أنه يَحلُمُ أو لا يَحلُمُ . وإنما نَبَّهَ بهذا الكلامِ على استحكامِ نوْمِهِ وتلَذُّذِه به ، إذ كانت الأحلام لا تحصُلُ للنائم إلا عند ذلك . ولمّا قال بات يُرِيه النومُ امرأَتَهُ وأولادَه ، قال فى مقابَلَتِهِ على الطريقة التى فى البيت الأوَّل : وبِتُّ أُرِيهِ النَّجْمَ . وهذا الجنْس يَكثُر فى كلام البُلَغاء ، ومثله قولُ الله عزّ وجلّ : ﴿ فمنِ اعْتدَى عليْكُمْ فاعْتَدُوا عليه ﴾ . و ﴿ إنما نَحْنُ مُسْتهزِئُونَ . اللهُ يَسْتَهزِئُ بهم ﴾ . وقول الشاعر(٤) : * دِنَّاهُمْ كما دَانُوا *

---

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٨٠ .

(٢) التبريزى : « قال أبو العلاء : ويروى عُرُفّان . مسمى بالعرفان ، وهو دويبة ، وقيل ضرب من الجراد » .

(٣) التطنز ، أراد به السخرية والتهكم . والمعروف « الطنز » .

(٤) هو شهل بن شيبان . انظر ما مضى فى ص ٣٥ .

وقد مرّ جميعُه مُسْتَقْصًى .

٩٩

وقال آخرُ :

١ ـ فَلَسْتُ بِنَازِلٍ إلاَّ أَلَمَّتْ بِرَحْلِي أو خَيَالَتُهَا الكَذُوبُ[(١)]

حَذَفَ مفعولَ نازلٍ لأنّ المرادَ مفهومٌ ، كأنّه قال : لا أنزلُ مَنزلاً . ومثلُه قولُ الله عزّ وجلّ : ﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هذا ﴾ ، أى العذاب . والإلمامُ : زيارةٌ لا لَبْثَ معها . يقول : لا أَنزلُ مَحَلاًّ إلا رأيتُ هذه المرأةَ مُلِمَّةً برَحْلِي ، أى متصوِّرةً لى بهذه الصورة ، تشوُّقاً مِنِّى وتَحَفِّيًا . هذا فى حالِ اليقظة وعند فراغ البال والاشتغال بحال النفس . أو رأيتُ خيالتَها الكَذُوبَ القليلةَ الوَفاء إذا نِمْتُ . ويقال خَيَالٌ وخَيَالَةٌ ، كما يقال مَكانٌ ومَكانَةٌ . وجعَلَها كذوباً لمّا لم يَتحقّق فِعْلُها وقوْلُها . والمعنى : إنِّى لا يُخْلِينى منها لا النوم ولا اليقظة ، ولا يَلفِتُنى عنها لا الرَّخاء ولا الشِّدة ، وفى هذه الطريقة قول امرئ القيس :

تَنَوَّرْتُها من أَذْرِعاتٍ وأَهْلُها بيثْرِبَ أَدْنَى دَارِها نَظَرٌ عالِ

وقال الأصمعىّ فى قول الآخر :

أَلِبْسَ بصيرًا مَن رأى وهو قاعِدٌ بمكة أهلَ الشـام يختبِزُونا

هو على التّشوُّف والتَّحَفِّى .

٢ ـ فَقَدْ جَعَلَتْ قَلُوصُ ابْنَىْ سُهَيْلٍ مِنَ الأَكْوَارِ مَرْتَعُهَا قَرِيبُ[(٢)]

(١) ابن جنى : « عطف على المضمر المرفوع المتصل بغير توكيد ، ولو أكد فقال ألمت هى لكان حسنا ، غير أن الكلام طال بقوله : برحلى ، فناب طوله عن توكيده ، كما أن قول الله تعالى : ما أشركنا ولا آباؤنا ، لما طال الكلام فيه بلا » .

(٢) البيت من شواهد الخزانة (٤ : ٩٢) . ويروى : « ابنى زياد » .

جَعَلَتْ هاهنا بمعنى طَفِقَتْ وأقبَلَتْ ، ولذلك لا يتعـدَّى . والقَلوص : الفَتِيَّةُ من الإبِل ، ومَرْتَعُها قريب فى موضع الحال[1] . يقولُ : أقبَلَتْ قَلُوصُ هٰذين الرجلين قريبةَ المَرْتَع من رِحَالِهم ، قصيرةَ المَسْرَح فى رواحِهم ، لأنه لِمَا لحقَها من الـكَلاَلِ والإعياء ، لم تَقْدِر على التباعُد فى المَرْعى والارتياد .

٣ ــ كأنَّ لَهَا بِرَحْلِ القَوْمَ بَوًّا وَمَا إنْ طِبُّهَا إلَّا اللُّغُـوبُ

يقول : كأنّ لهذه الناقةِ ولَدًا بِرَحْلِ القوْمِ ، تَتَعَطَّف عليه ، ولا تتباعد عنه ، وما داؤها إلا الإعياء . ومثلُ هذا قولُ الآخَرِ :

من الـكَلاَلِ لا يَذُقْنَ عُودَا لا عُقُلاً تَبْغِى ولا قُيُودَا

والطِّبُّ أصـلُه العِلْم ، والمراد به هاهنا الداء الذى يُعْلَم ويُعْرَف . والبَوُّ ، أصلُه : جِلْدُ فَصِيلٍ يُحْشَى تِبْنًا لتدُرَّ الأُمُّ عليه .

١٠٠

وقال آخر[2] :

٦ ــ إنْ كنتُ لا أُرْمَى وتُرْمَى كِنَانَتِى
تُصِبْ جانِحَاتُ النَّبْلِ كَشْحِى ومَنْكِبِى[3]

---

(١) التبريزى : « وقال أبو العلاء : ويروى : فقد جعلت قلوص ابنى سهيل . وكثير من الناس يرفع القلوص ، وهو وجه ردىء ، لأن القائل إذا قال جعلت وهو يريد المقاربة لم يكن من إتيانه بالفعل ... وليست جعلت فى هذا الوجه فى معنى المقاربة ، وإنما هى بمعنى صيرت فلا تفتقر إلى فعل ، ويكون قوله مرتعها قريب ، جملة فى موضع المفعول الثانى » .

(٢) التبريزى : « وقال آخر وضرب بنو عم له اسمه حوشب – والحوشب : العظيم البطن – ويقال إن هذا لجندل بن عمرو » .

(٣) م : « جانحات » فقط . وكتبت فى نسخة الأصل كما أثبتنا لتقرأ « جانحات » و « جائحات » بوضع همزة تحت النون ، وكتب فوقها كلمة « معا » .

هذا مَثَلٌ . والمعنى : إذا لم أُقصَد فى خاصِّ أمرى ، ثم قُصِدْتُ فيمن يَشْمَله عِنايتى ، عاد ذلك القَصْدُ بالشرّ والمَساءةِ علىّ ، وصرتُ كأنى أنا المقصودُ . و « الجائحاتُ » : المائلاتُ ، ورَوَى بعضهم « جائحاتُ النَّبْلِ » وهى للستأصِلات المُهْلِكات . ويقالُ جاحَهُ واجتاحَهُ بمعنًى . وليست هذه الرواية بجيِّدة ، لأن الغرضَ ما ذكرْتُه من أنّ من يَمَسُّه أمرُه إذا قُصِد كان كنَفْسه . فإن قيل : فلِمَ خَصَّ الجائحاتِ ؟ قلتَ : المرادُ فيما ضربَ المَثَلَ له : إنِّى رُميتُ[1] إذا رُمِيتِ الجَعْبَةُ المعلَّقة[2] علىَّ ، لأن بعضَ السِّهام يصيبه وبعضها يصيبنى . وإذا كان كذلك فلا بد من ذكر الجائحات . و « النَّبْلُ » : اسمٌ صِيغَ للجمع . والكِنانَةُ : ما يُغَطَّى به الشىء فى الأصل ، واختُصَّ بها الجَعْبة وهو من الكَنِّ ، كالسِّتارةِ من السَّتْر . وفى القرآن : ﴿وقالوا قُلُوبُنا فى أَكِنَّةٍ﴾ . وقد فُصِل بين كَنَنْتُ واكتَنَنْتُ ، فجُعل اكتننْتُ لما يُضْمَرُ فى القَلْبِ من الحديث والسرّ ، وكَنَنتُ لما يُستَرُ بشىء . وذكر الدُّريدىُّ أن الكِنانَةَ لا يكون إلا للنَّبْل ، ويكون من أَدَمٍ ، فإذا كانت من خَشَبٍ فهو جَفِيرٌ ، وإن كانت من قطعتين مقرونتين فهى قَرَنٌ ، والجَعْبَةُ تكون للنَّبْل والنُّشّاب جميعا .

٢ — أَفِيقُوا بَنِى حَزْنٍ وأَهْواؤنا مَعًا وأَرحامُنا موصولةٌ لم تُقَضَّبِ[3]

يقول : اصحوا بَنِى حَزْنٍ من سَكْرةِ جَهْلِكم ، وانتبهوا من رَقْدةِ

(١) م : « إنى مرمى » . (٢) فى الأصل : « المعلقة » ، صوابه فى م .

(٣) روى قبله التبريزى :

فقلْ لبنى عمى فَقَدْ وأبيهمُ مُنُوا بهَرِيت الشِّدقِ أشوسَ أغلبِ

وفى تفسيره : « الهرت : سعة الشدق . ويقال منى له كذا ، أى قدر له كذا . وقوله : منوا ، أى بلوا بمن هذه صفته ، وهى من صفات الأسد » . وروى بعده :

ولا تَبعثُوها بعد شدِّ عِقالها ذميمةَ ذِكرِ الغِبِّ فى المتعقبِ

وفى تفسيره : « هذا مثل ، أى لا تبعثوا الحرب بعد السلم » .

غفلتكم ، الأهواء بعدُ متفقةٌ ، وأسبابُ الرَّحِم موصولةٌ ، لم يتسلّط عليها العُقوق ، ولم يقطَعْها الجَفاء والنُّبُوُّ . والمعنى : كُفُّوا عما أنتم عليه من سيِّئات التقاطع والتدابُر ، قبل تفاقُمِ الخَطْبِ ، واستفحال الشأن . والقَضْبُ : القَطْعُ ، ومنه قيل للسيفِ المِقْضَبُ والقَضِيب . وقولُه « معًا » فى موضع الخَبَر ، أى مجتمعةٌ .

٣ ــ فإنْ تَبْعَثُوها تَبْعَثُوها ذَميمَةً قَبيحَةَ ذِكْرِ الغِبِّ لِلْمُتَغَبِّبِ

يقول : إن هَيَّجتُمُ الحَرْبَ هيَّجْتُمُوها مذمومةً قبيحة ذِكْرِ العاقبةِ لمن يتتبّع العواقِبَ فيتدبَّرُها ، ويتعهدُ المصايرِ فيتأمّلها . ويقال تغبَّبْتُ الأمرَ كما يقال تعقَّبتُه ، أى تفقَّدْتُ عاقبته وغِبَّهُ . والغِبُّ أصلُه فى ورود الماء والزِّيارة ، وهو يَنُوبُ فى أسماءِ الأظْماءِ وغيرِها عن الثِّلْثِ . فأما قولهم : زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا » فالمُهلةُ فيه أوسَعُ .

٤ ــ سآخُذُ منكم آلَ حَزْنٍ لِحَوْشَبٍ وإن كان مَوْلًى لى وكنتم بَنى أَبِى

إنما قال هذا لأن بنى عمِّه ضربوا مولًى له ، فيقول : سأنتقمُ منكم يا آلَ حَزْنٍ وإن كنتم بنى أعمامٍ ، وكان حَوْشَبٌ مولَى محالفةٍ وجِوارٍ . وفى طريقته قول الآخر :

فإن غَضِبَت فيها حَبيبُ بْنُ حَبْتَرٍ فخُذْ خُطَّةً تَرْضاكَ فيها الأباعِدُ

وروى بعضُهم : « وإن كان موْلائى وكُنْتُمْ » ، والبصريُّون لا يجوِّزون مدَّ المقصور ، لأنه إدخالُ زيادةٍ على كلامِهم ، ويجوّزون قَصْرَ الممدود ، لأنه حذْفٌ للتخفيف ، ورَدٌّ إلى الأصل[١] . وحوْشَبٌ عند النحويِّين أنه

(١) التبريزى : ويروى : « وإن كان مولاى وكنتم بنى أبى . على الزحاف الذى هو الكف ، وليس فى الحماسة بيت مكفوف غيره . ويروى : مولى لى ، فعلى هذا يسلم من الزحاف . والأولى أشبه بطريقة الشعراء . ألا ترى أنهما معرفتان مضافتان : مولاى وبنى أبى » . فلنا : والرواية بالكف هى رواية ابن جنى فى التبييه .

[ممّا[1]] لم يجئ إلا بزيادة الواو ، وأنه مثلُ كوكب . وحَكَى الخارَزَنجيُّ أن حَشَبًّا اسمُ رجُلٍ ، وأنه يقالُ أحْشَبَنى كذا ، أى أحشَمَنى[2] .

١٠١

وقال جَمِيلٌ[3] :

١ — أَبُوكَ أَبُوكَ أَرْبَدُ غَيْرَ شَكٍّ　　أَحَلَّكَ فى المَخَازِى حَيْثُ حَلاَّ

ارتفع أبوكَ بالابتداء ، وكرَّره تأكيداً ، وأَرْبَدُ بدَلٌ منه ، وخَبَرُ المبتدأ أحَلَّكَ . وانتَصَبَ « غيرَ » على المَصدرِ ، وهو مما يؤَكَّدُ به ما قبله . ومِثْله حَقًّا وما أشبَهَهُ . والمعنى أنّ لُؤْمَ أبيه موروث ، وأنه اقتداءً بسَلَفِه قد أنزَلَ ابنَه مَنزِلَه فى المَخازى والقبائح ، حَقًّا لا مِرْيَةَ فيه .

٢ — فَمَا أَنْفِيكَ كَىْ تَزْدَادَ لُؤْمًا　　لِأَلْأَمَ من أَبِيــــكَ ولا أَذَلاَّ

يقول : لا أبرِّئُكَ من أبيك طَلَبًا لأنْ أنْسُبَك إلى من هو أَلْأَمُ منه وأذَلُّ لتزدادَ ذُلاًّ ولؤما ؟ لأنَّ أباكَ النهايةُ فى هذين . وانتَصَبَ « لُؤْمًا » على التمييز ، واللام من « لألأم » تَعلَّق بفعْل مُضمرٍ ، كأنه قال : ما أَنفيك من أبيك وأدعُوكَ لألأمَ منه ، لأنهُ إذا نَفاه من أبيه فقد جعله لغيرِه . ويجوز أن يُحمَلَ الكلام فيه على المعنى ، فيُتَصَوَّرَ أَنْفِيكَ بأَدْعُوكَ ، ويُعَدَّى تعدِيَتَهُ . ومِثْلُهُ

---

(١) هذه من م فقط .

(٢) م : « أحشبنى كذا فى معنى أحشمنى ، أى أغضبنى » .

(٣) عند التبريزى وابن جنى : « وقال آخر » وعكس الأمر فى المقطوعة التالية ، إذ نسبها التبريزى إلى جميل ، على حين نجد عبارة الإنشاد فيها فى النسختين : « وقال آخر » . وهو جميل بن عبد الله بن معمر ، أحد عشاق العرب المشهورين ، وصاحبته بثينة ، وهما جميعا من عذرة . وجميل شاعر إسلامى معاصر لجرير والفرزدق وكثير عزة . الشعر والشعراء ٤٠٠ — ٤١٢ والأغانى (٧ : ٧٢ — ١٠٤) والمؤتلف ٧٢ ، ١٦٨ وابن سلام ٢٠٨ والخزانة (١ : ١٤٣ — ١٤٦) وابن خلكان فى رسمه .

قولُ اللهِ عزَّ وجلّ : ﴿ هَلْ لَكَ إلى أن تَزَكَّى ﴾ . وعلى هذا يُحمل قول الفرزدق :

* قَدْ قَتَلَ اللهُ زياداً عَنِّي[١] *

لمّا كان مَعْنَاهُ صَرَفَهُ اللهُ عَنِّي . ومن أبيات الكتاب[٢] :

إذا تَغَنَّى الحمامُ الوُرْقُ هيَّجَنِي ولو تَعَزَّيْتُ عَنْها أمَّ عَمَّارِ[٣]

لأنه تُصوِّرَ هيَّجَنِي أنه ذَكَّرَنِي ، فعُدِّي تعديتَه .

١٠٢

وقال آخر[٤] :

١ ــ أبوكَ حُبَابٌ سارِقُ الضَّيْفِ بُرْدَهُ وجَدِّيَ يا حَجَّاجُ فارسُ شَمَّرَا

يقول : أبوك الذى سَرَقَ بُرْدَ ضَيْفِهِ وغَدَرَ به وخانه ، وجدّى فارس هذا الفَرس المعروف . وسارِق الضيف بُرْدَهُ ، أصله سارقُ بُرْدِ الضَّيْف ، لكنه أضافَهُ إلى الضَّيف بناء على قولهم سَرَقتُ الضَّيْفَ بُرْدَهُ ، والمراد سَرَقتُ من الضَّيف ، لكنه لما حَذف الجارّ تخفيفاً وصَل الفِعْل فعمل فيه ، ثم أضاف اسم الفاعل إليه . وعلى هذا يقال اخترتُ الرِّجالَ زَيداً : وشَمَّرُ فِعْلٌ فى الأصل سُمِّى به الفَرَسُ ، لأنه ليس فى الأسماء شىْءٌ على فَعَّل . ومثله خَضَّمُ ، وهو لَقَبٌ للعَنْبَرِ بن مازِن[٥] . وحُبَابٌ يجوز أن يكون بَدَلاً وسارق الضيف خَبَرًا ،

---

(١) ديوان الفرزدق ١٨١ . قاله حين خرج من المدينة بعد موت زياد . وقبله :

* كيف ترانى قالبا مجنى *

(٢) كتاب سيبويه (١ : ١٤٤) .

(٣) للنابغة الذبيانى من معلقته فى رواية جمهرة أشعار العرب ٥٣ . والرواية فيها : « ولو تغربت » ، وكذا فى كتاب سيبويه .

(٤) كذا فى النسختين . وعند التبريزى وابن جنى : « قال جميل » .

(٥) التبريزى : « وشمر اسم فرس ينشد بفتح الشين وكسرها ، فإذا فتحت الشين فهو مسمى بالفعل الماضى ، كما سمى الرجل خضم لكثرة أكله ... وإذا كسرت الشين فهو اسم فعل ، مثل الإمر والهلع ، ويجب أن يكون على هذا الوجه اسم فرس أنثى ، وهو علم المؤنث كامرأة نسميها بقنب ودنب . هذا ما ذكره أبو العلاء فى هذه الكلمة » .

ويجوز أن يكون حُبَابٌ خَبَرًا وسارقُ الضيف صفَةً ، وهذا أجود حتى يكون فى مقابلة فارِس شَمَّر . كأنَّ المرادَ : أبوكَ المعروف بذا الاسم ، وجَدِّى المعروف بذَا . ورواه بعضهم « فارِس شِمَّر » بكسر الشين ، وقال : هو عَلَمٌ مؤنث مثل امرأة تُسَمِّيها قِنّب ودِنَّب .

٢ـ بَنُو الصَّالحين الصَّالِحُونَ ومن يَكُنْ لآباءِ صِدْقٍ يَلْقَهِمْ حَيْثُ سَيَّرَا

كما فضَّل جَدَّه على أبيه فى البيت الأوّل فضَّل نفسه عليه فى البيت الثانى . والمعنى أنَّ المرء يتقيَّل أباه ، فإذا كان جَدِّى صالحًا فأنا صالح ، وإذا كان أبوك صالحًا فأنت صَالحٌ . وقوله « ومن يَكُنْ لآباءِ صِدْقٍ » يُريدُ من كان وَلَدَ آباء كِرامٍ عُرِف بهم حيث ذهب ، ولقيهم أنَّى سارَ وظَعَن . واللام دَخَلَ فى قولِهِ لآباء صِدْقٍ لهذا المعنى . ومِثَالُه :

لئِنْ كانَ للقَبْرَيْنِ قَبْرٍ بِجِلَّقٍ وقَبْرٍ بصَيدَاءَ التى عِنْدَ حَارِبِ(١)

أى إن كان وَلَدَها . وصِدْقٍ يُضَاف إليه الواحد والجمع ، والمؤنث والمذكَّرُ ، ويُرَادُ به المَدْح . فإذا قُلْت ثَوْبُ صِدْقٍ ورجال صِدْقٍ ، فالمعنى نِعْمَ الشىء ذاكَ ، أى هو صادِقٌ فيما يُحْمَدُ فيه لا كاذبٌ . وإذا أَرَدْتَ أن تَجعلَهُ نعتًا فتحتَ الصَّادَ منه فقلتَ : هو الرَّجُل الصَّدْق ، ويُثَنَّى ويُجْمَع ويُؤَنَّث . قال :

* مَقْذُوذَةُ الآذان صَدْقاتُ الحَدَقْ(٢) *

٣ـ فإنْ تَغْضَبُوا من قِسْمَةِ اللهِ حَظَّكُمْ فَلَلّهُ إذْ لم يُرْضِكُمْ كان أَبْصَرَا

يقول : إن تسخَّطتم ما قَسَمَهُ الله ، تَعالَى جَدُّه ، لكُم ، وجعلَه نصيبَكم ،

(١) للنابغة الذبيانى فى ديوانه ص ٣ .
(٢) لرؤبة فى ديوانه ١٠٤ واللسان (صدق) .

فَلَتَّهُ كانَ أعْلَمَ بكم وبقدر استحقاقكم ، لَمَّا لم يَرَكم أهلاً لأكثر منه . والمعنى : إنّ ما حَصَلْتم عليه من البَخْس فى القِسْمَةِ ، والنَّقْصِ من المَقْدُرَةِ . والتأخُّر فى المنزلة ، حِكْمَةٌ من الله عزّ وجَلّ ونَصَفَةٌ ، ولو زاد مستحقُّكُمْ عليه لأعطاكم ، فإنه العالِمُ الحكيمُ فى أفعالِه وأقضيته . والبصير فى صفة الله ، تحقيقُه العالِمُ .

١٠٣

وقال أبو النَّشْنَاش[١] :

١ — إذَا المَرْءُ لم يَسْرَحْ سَوَامًا ولم يُرِحْ سَوَامًا ولم تَعْطِفْ عليْهِ أقَارِبُهْ[٢]

يُقالُ سَرَحْتُ الماشِيَةَ ، إذا أخرجْتَها بالغَداةِ إلى المرعَى ؛ وأرَحْتُها ، إذا ردَدْتَها بالعشِىّ . فإن قال قائل : لِمَ قال « ولم يُرِحْ سَوَامًا » والنَّكِرَةُ إذا أُعِيدَ ذِكْرُهَا يَجِبُ تعريفُها ، بدَلالة أنك تقول رأيت رجُلاً بمكان كذا ، فقال لى الرجل كذا ؟ قلتَ : يجوز أن يكون نَكَّرَهُمَا لأنَّهُ تَصَوَّرَ المُرَاح بما دَخَلَهُ من التناقُص والتزايد ، [بالأخذِ[٣]] منه والرَّدِّ إليه غيرَ المَسْرُوح ، وإذا كان كذلك فالثَّانى غير الأول . ويجوز أن يكون السَّوَامُ الثانى غير الأول ، وذاك أنَّ المُكْثِرِين منهم كانوا يأمرون رِعاءَهم بأن يقتَضِبوا قِطعةً من المال كيفَ اتفقت[٤] ، ليحبسُوهَا على الحقُوق العَارِضة ، سِوَى المُؤَن اللازمة ، فكانت الغادية لما يقيمونها من النُّوَبِ

---

(١) كان أبو النشناش من لصوص بنى تميم ، وكان يعترض القوافل فى شذاذ من العرب بين طريق الحجاز والشام ، فظفر به بعض عمال مروان فحبسه وقيده ، ثم هرب فلقى فى طريقه غرابا على شجرة بان ، ينتف ريشه ، فلجأ إلى رجل من بنى لهب فقال له : إن صدقت الطير يعاد إلى حبسه وقيده ويقتل ويصلب . فقال أبو النشناش هذه الأبيات . الأغانى (١١ : ٤٢–٤٣) .

(٢) الأغانى : « ولم يبسط له الوجه صاحبه » .

(٣) التكملة من م والتبريزى .

(٤) فى الأصل : « اتفقتها » ، صوابه فى م .

فى ذلك غير الرائحة ، والرائحةُ غير الغادية . وإذا كان كذلك فالسؤال ساقط .
والمَعْنَى : إذا الرَّجُل لم يَكُنْ ذا مَالٍ يُسْرَحُ بَعْضُه ويُرَاحُ عليه بَعْضُهُ ، على حَسَبِ ما يتفق ، ولم يَكُنْ لَهُ أقاربُ يتعطَّفُون عليه ويَرَوْن من الفُروض[(١)] الواجبةِ الإحسانَ إليه ، فالمَوْتُ خَيْرٌ لَهُ . وجَوَاب إذا فى البيت الثانى . ويجوز أن يكون المُرَاد بقوله ولم تَعْطِفْ عليه أقارِبُه تَعَطُّفَ النُّصْرَة والإعزاز ، فيكون المعنى إذا لم يكن غنيًّا ولم يكن مؤيَّدًا بذويه فيعتزُّ بهم ، فالموتُ أَصْلَحُ لَهُ من الحياة . وهذا المعنى أحسَنُ .

٢ – فَلَلْمَوْتُ خَيْرٌ للفَتَى من قُعُودِهِ عَدِيمًا ومِنْ مَوْلًى تَدِبُّ عَقَارِبُه[(٢)]

فللموت جواب إذا ، لتضمُّنِه معنى الجزاء . يقول : إذا الرجل لم يَكُنْ على ما وصفْتُ فورُودُ المَوت عَلَيْهِ خَيْرٌ له من قُعُوده راضيًا بفَقْرِه ، وبإفضال مَوْلًى يؤذيه بالمَنِّ ، ولا يُخَلِّصُ النعمةَ عِنْدَهُ من الشوائب . ودبيبُ العقاربِ كِنَايَةٌ عن فِعْلِ الأذَى والتَّحمُّدِ بالكلمات المُكدِّرة . وانْتَصَبَ « عديمًا » على الحالِ . ويجوز أن يكون المعنى فى قوله « ومِنْ مَوْلًى تَدِبُّ عقارِبُه » أن يَحْصُل الفسادُ بين العشيرة ، والتدابُرُ والاختلاف ، فكُلٌّ يَقْصِدُ صاحبَه بالمَسَاءة ، ويَبْغِى له الغوائل . وهذا المَعْنَى يَتَلَفَّقُ مع المعنى الثانى فى البيت الذى قَبْلَه .

٣ – ونائِيَةِ الأرْجاءِ طَامِسَةِ الصُّوَى خَدَتْ بأبى النَّشْنَاشِ فيها رَكائِبُهْ[(٣)]

انجرّت « نائية » بإضمار رُبَّ ، والواو داخلةٌ للعطف ، ولم يَصِرْ بدلاً من رُبَّ

---

(١) م : « الفرائض » .
(٢) الأغانى : « تعاف مشاربه » .
(٣) الأغانى : « ودوية قفر يحار بها القطا » . وبعد البيت عند التبريزى :

لِيَكْسِبَ مَجْدًا أو لِيُدْرِكَ مَغْنَمًا جزيلا وهذا الدَّهْرُ جَمٌّ عجائبُه

وعند أبى الفرج :

ليدرك ثأرًا أو ليكسِبَ مغنماً ألا أن هذا الدَّهرَ تَترى عجائبُه

بِدَلالة وُقوع الفاء العاطفة موقِعَه وبلْ فى نَحْوِ :

* فَمِثْلِكِ حُبْلَى قد طرَقْتُ[١] *

و : * بَلْ بلَدٍ ذِى عُقَدٍ وإِحْبَاب[٢] *

يقول : ورُبَّ مَفازةٍ بعيدة الأطراف ، دراسةِ الأعلام ، سارت بأبى النشناش فيها رواحِلُه يَطْلُبُ المالَ ، ويَكْتسبُ المَجْدَ . وهذا الكلامُ تبَجُّحٌ منه بأنَّهُ لم يَتَّخِذ الفقرَ ضجيعا ، ولا الدَّعَةَ حَلِيفًا ، بل رَمَى بنفسه نحو المرامى المُتلِفَة ، وطَوَّحَهَا فى المَوَامِى المُعْطِبَةِ . والأَرْجاء واحِدُها رَجًا . والطَّامِسُ : الدَّارس . ويقالُ طَمَسَ وطَسَمَ . والصُّوَى : الأعلام ، والواحدة صُوَّةٌ ، ومِثْلُه قُوَّةٌ وقُوًى . ومعنى خَدَتْ : أسْرَعَتْ ، ومَصْدَرُه الخَدَيان . والركائبُ : جَمْع الرَّكُوبة ، وهى المركوبة ، ولا يَتْبَعُ الموصوف ، بل يُسْتَعْمَل على انفرادِها ، ومِثْلُها الحَلُوبَةُ .

٤ ــ وسائلَةٍ بالغيْبِ عنِّى وسائلٍ ومَن يَسأَلُ الصُّعلُوكَ أين مذاهِبُهْ[٣]

يقول : رُبَّ رجُلٍ وامرأة سألاَ عنِّى بظَهْرِ الغيْبِ ، لما تداخَل القلوبَ من هَيبتى ، والإشفاقِ من وَقعَتى . ثم قال مستفهمًا على طريق الإنكار : ومَن يسأل الصعلوكَ ، أى يجب ألاّ يُسألَ الصعاليكُ عن مذاهِبِهم وطُرُقهم ، لأنها لا تُعْلَم ، إذ لم يكُن يستقرّ بهم موضعٌ ، ولم يكن يَحْويهم بَلَدٌ ومَذهَبٌ يلزَمونه أو يختصُّون به . وكان وَجْهُ الكلامِ أن يقولَ : ومن يَسألُ عن الصُّعلوكِ ليكون وَفْقَ قوله « وسائلةٍ بالغَيْبِ عنّى » ، لكنه عَدَلَ عنه إلى ما قالَهُ تأكيداً للمراد ، وذلك أنه إذا كان سؤالُ نفسِه عن مَذهَبِه مُنْكَرًا لاستبهامه عليه ، فسؤال غيره عنه أبعدُ من الصواب .

(١) لامرئ القيس فى معلقته ، وهو بتمامه :

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع فألهيتها عن ذى تمائم محول

(٢) فى م : « بل بلدة » فقط . وعند التبريزى : « بل بلد » فقط .

(٣) الأغانى : « وسائلة أين ارتحالى » .

٥ ــ فلم أَرَ مِثلَ الفَقْرِ ضاجَعَهُ ٱلْفَتَى   ولا كَسَوادِ الليــلِ أَخْفَق طالِبُهْ

يُرْوَى « مِثلَ الهَمِّ » ، هو مَصدَرُ هَمَمْتُ بالشيء ، أى إذا هَمَّ يجب عليه أن يُنفذَه ولا يؤخِّرَه . ويقول : لم أرَ كالفقر يتخذه الفتى ضَجِيعًا ، أى يَرْضَى به ويلزومه له ولم أَرَ كسوادِ الليل أكدى رَاكِبُه والطالبُ فيه . والمعنى : يجب ألا يحصُلَ واحدٌ منهما ، لا الرِّضا بالفقر ، ولا الإخفاق مع رُكوب الليل . ويقال ضَجِع ضَجْعًا وضُجُوعًا واضطجع بمعنًى واحد ، ومنه قيل للعاجز الضُّجْعِيُّ والضجْعَةُ . وتُسمَّى الكواكبُ التى لا تسير : الضَّواجع . والإخفاقُ : أن يَغْزُوَ فلا يغنم ، أو يرجوَ فيَخيب . قال عنترة :

فيُخْفِقُ مَرَّةً ويُصِيبُ أُخْرَى   ويَفجَعُ ذا الضــغائن بالأَريب

وقولُه « أَخفقَ طالبُه » ، أى الطالب فيه . وهذا من إضافة الشيء إلى الشيء لكونه فيه .

١٠٤

وقال آخر(١) :

١ ــ ألاَ قالَتِ ٱلخنْساء يومَ سُوَيْقَــةٍ
عَهِدْتُكَ دَهْرًا طاوِيَ الـكَشْحِ أَهْضَمَا

يقول : قالت هذه المرأة يومَ اجتماعنا فى سُوَيْقَةٍ : عهدتُكَ زمانًا ممتدًّا صغيرَ البطنِ ، مطويَّ الكَشْحِ والجَنْبِ . وإنما أنـكَرتْ سِمَنَهُ وكثرةَ لحمه ، فأجابها بالبيت الثانى . والهَضَمُ : انضمامُ الضلوع ، وتقارُب الجَنْبَيْن .

٢ ــ فإمَّا تَرَيْنِي اليَوْمَ أَصْبَحْتُ بادِنًا   لَدَيْكِ فقَدْ أُلْفَى على البُزْلِ مِرْجَما

(١) وردت هذه الحماسية عند التبريزى بعد المقطوعة التالية إذ تقدمت المقطوعة التالية عليها عنده .

يقول : إن كنتِ تريننى اليَوْمَ — وهو إشارةٌ إلى يومِهِ وما يَقْرُبُ منه — أصْبَحْتُ مُثْقَلَ النفس ، مُبَدَّنَ الخَلْقِ لديك ، أى فى مَنْظَرِكِ ومعْتَقَدِكِ ، فإنى إذا رَكِبْتُ البُزْلَ وُجِدتُ عليها مِرجما . والمِرْجَمُ : الذى كأنه آلةٌ فى رَجْمِ الأرض بأخفاف الإبل ووطء الأقدام . وينتصب « مِرْجما » على الحال . وقيل المِرْجَمُ فى السَّفَرِ : البعيد فى الغاية . وكما قيل رَجُلٌ مِرْجَمٌ ، قيل يَدٌ مِرْجَمٌ ، ورِجْلٌ مِرْجَمٌ ، ولسانٌ مِرْجَمٌ ، قال الشاعر :

* شَدِيدُ الرِّجَامِ باللسان وباليدِ *

و « إمَّا » ، فى أكثر الأحوال يلزَمُ الفعلَ الواقع بعده إحدى النونَيْن الثقيلة والخفيفة ، لأنَّه كما أُكِّدَ حرفُ الشرط بـ « ما » أُكِّدَ الفعل المشتَرَطُ به بالنُّون أيضاً . وهاهنا جاء خالياً من النون .

١٠٥

وقال آخر (١) :

١ — أَلاَ قَالَتِ العَصْمَاءُ يَوْمَ لَقِيتُها   أَرَاكَ حَدِيثًا نَاعِمَ البَالِ أَفْرَعَا (٢)

هذا فى طريقة ما قبْلَهُ . فيقول : قالت هذه المرأة لما التقيت معها : أعْلَمُكَ عن قريبٍ ناعِمَ الحال ، تامَّ شَعَرِ الرأس ، لم يتسلَّطْ عليك صَلَعٌ ، ولا حدثَ انحسارُ شَعَرٍ ، ولا شُحُوبُ لَوْنٍ ، فكيف تغيّرتَ مع قُرْبِ الأَمَدِ . وانتصب « حَدِيثاً » على الظرفِ . وناعِمَ البال ، مفعولٌ ثانٍ من أرَاكَ . والأفرعُ : التَّام شعر الرأس ، وجَمْعُه فُرْعَانٌ . والأَصْلَعُ خِلافُه .

---

(١) انظر ما سبق من الكلام على الترتيب فى الحماسية السابقة ، وقد روى هذه الحماسية صاحب الخزانة (١ : ٤٨٢) ، وذكر أن أحداً لم يعرف نسبتها .

(٢) وقع هذا العجز فى شعر متمم بن نويرة فى قصيدته التى رثى بها مالكا :

تقول ابنة العمرى مالك بعدما   أراك حديثاً ناعم البال أفرعا

المفضليات (٢ : ٦٨) .

٢ ــ فقُلْتُ لها لا تُنْكِرِينِي فقَلَّ ما   يَسُودُ الفَتَى حَتَّى يَشِيبَ ويَصْلَعَا

يقول : أجَبْتُهَا وقُلت : لا تستنكِرِي ما رأيتِ من شُحُوبِ لونى ، وانحسار الشعَرِ عن رأسى ، فما ينالُ الفتى السِّيادة حتى يستبدِلَ بِشَبِيبَتِهِ شَيْبًا ، وَوُفور شعره[1] صَلَعًا ، وإلا بعد استحكام الرأى ، واستنفاد العُمْر فى اكتسابِ المَجْدِ . وقَوْلُه « قَلَّ ما » يفيد النَّفى هنا ، وما تكون كافة لقلَّ عن طلب الفاعل ، وناقلة له عن الاسم إلى الفعل ، فإذا قلت : قلَّ ما يقوم زيدٌ فكأنك قُلْتَ ما يقوم زيدٌ . يَدُلّ على ذلك أنّهم قالوا : قَلَّ رَجلٌ يقول ذاك إلا زَيْدٌ ، وأجرَى مجرى ما يقول ذاك إلازيد ، وقالوا أيضاً : أقلُّ رجلٍ يقول ذاك إلاّ زيد . وأنهم أجرَوْا خِلافَهُ مجراه ، فيقول : كَثُرَ ما يقول زيد . وعلى ذلك بيت الكِتاب :

. . . . وقلَّ ما   وِصَالٌ على طول الصُّدُودِ يدوم[2]

ويجوز أن يكون « ما » من قلَّ ما يسود الفتى ، مع الفعل فى تقدير المَصدَر ، كأنه قال : قلَّ سِيَادَةُ الفتى ، أى ينزُرُ استكمالُها إلاّ مَعَ هذه الحالة . ومثله قولُ لَبِيدٍ :

قَلَّ ما عَرَّسَ حَتَّى هِجْتُهُ   بالتَّباشِيرِ من الصُّبْحِ الأُوَلْ

لأنه ليس يريد نَفْىَ التَّعْرِيسِ رأساً ؛ إذْ كان يعتادُه قُطَّاعُ الفَلاةِ ، ورُكَّابُ الظلام ، بل يريدُ عَرَّس تعريسًا قليلا فهِجْتُهُ . ويقال : صَلِعَ صَلَعًا وصُلْعَةً ، وهو أَصْلَعُ وَصَلِيعٌ .

٣ ــ ولَلقَارِحُ اليَعْبُوبُ خَيْرٌ عُلالَةً   من الجَذَعِ المُرْخَى وأبْعَدُ مَنْزَعا

هذا مَثَلٌ ضَرَبَهُ فى تفضيل نفسه على شيخوختِهِ وقد أدَّبهُ الكِبَرُ ، ونازعَ

(١) فى الأصل : « ووفور شيبه » ، صوابه فى م .

(٢) فى الأصل : « وصال يدوم على الصدود » ، صوابه فى م وسيبويه (١ : ١٢ ، ٤٥٩) . ونسبة سيبويه إلى عمر بن أبى ربيعة ، والشنتمرى إلى المرار الفقعسى . وصدره :

* صددت فأطولت الصدود وقلما *

الدَّهْرَ وأبناءَهُ أطرافَ الخُطُوبِ، ومرائرِ السِّيادة والعُلُوِّ على الأحداث الذين لم يجربوا الأمور، والأغمار الذين لم يُجاذِبُوا الشدائد، فيقول: لَلفرسُ المُتَناهِي فى القوّةِ والسِّن، الذى يجرى جِريَةَ الماءِ سُهُولَةً ونفاذًا، خَيْرٌ إبقاءً وأبْعَدُه غَايةً من ابن سنتين وهو مُهْمَل لم يُسْتَغْنَ به فى رُكوبٍ ونزُول، ولم يُرَضْ[1] بإسراجٍ وإلجام. واليعبوب: الفرس الكثير الجرى[2]، والجَدْوَلُ الكثير الماء. والعُلَالة: البقيّة من الجَرْى وغيره، وهاهنا يريد الجَرْى. قال الشاعر[3]:

إلاَّ عُـلالَةَ أو بُدَا هَةَ سابحٍ نَهْدِ الجُزَارَهْ

فالبُداهةُ: أوّل الجَرْيِ، والعُلالةُ: آخِرُه. وقولُه «من الجَذَعِ المُرْخى» يُرْوَى المُرخى بكسر الخاء، والإرخاء: لِين فى العَدْو. قال:

* وإرْخاءُ سِرْحانٍ وتقريبُ تَتْفُلِ[4] *

وإذا رُوِىَ بفتح الخاء فهو المُرْسَلُ المُهْمَل النَّزُوع إلى الغاية. وانتصابه «عُلالة» و«مَنْزَعًا» على التمييز.

١٠٦

وقال شبيب بن عَوانة[5]:

١ ـ قضىَ بيننا مَرْوانُ أَمْسِ قضيَّةً فما زادنا مَرْوانُ إلا تنائِيا

(١) م: «ولم يؤدب».
(٢) كذا فى م. وفى الأصل: «الكريم الجرى».
(٣) هو الأعشى. ديوانه ١١٤.
(٤) لامرئ القيس. وصدره:
* له أيطلا ظبي وساقا نعامة *
(٥) التبريزى: «قال أبو هلال: ورواه بعض علماء البصرة للكروس الطائى، وهو الكروس بن زيد بن الأخزم بن مصاد بن معقل بن مالك بن عمرو بن ثمامة بن مالك بن جدعاء بن ذهل بن رومان بن جندب بن خارجة بن سعد بن فطرة – وفطرة هو جديلة –. وخاصم ابن عم له إلى مروان بن الحكم، فحبسه مروان.

يقولُ : قَضَى بيننا هذا الرجل بحكومةٍ تَسخَّطْناها ، ولم نَرْضَ بها ، إذ لم يُقصَد بها صَلاحُ ذاتِ البَين ، ولا تلافى جَمْع الشَّمْل ، فازددنا بها تَبايُنًا عن الاصلاح والمراجعة واختلافًا وتنائيًا عن الالتئام والموافقة وتَباعُدًا . وقوله « أمْسِ » تقريبٌ لزمانِ فِعْلِه ، ولم يُرِدِ اليومَ الذى وَلِىَ يوْمَه . وهذا كما تقول : فلانٌ بالأمْسِ يَفعل كذا وأَمْسِ مَعرِفةٌ ، وإنما بُنِىَ لتضمُّنِه معنى الألف واللام .

٢ — فلو كنتُ فى الأرْضِ الفضاءِ لَعِفْتُها ولـكن أَتَتْ أَبوابُه من وَرائيا[1]

يقول : لو كنت بالبَدْوِ لرددْتُ حكومتَه وأبديْتُ كراهتى لها ، ولـكنى كنت أسيرًا إذ كنتُ فى الحَضَرِ حاصلاً فى داره ، وداخلاً تحت مَلَـكَتِه . ومعنى « أَتَتْ أبوابُه من ورائيا » أى حالت مَسالِحُه ومراصِدُه بينى وبين مرادى . ووراء بمعنى قُدَّامَ هنا ، ومِثْلُه فى القرآن : ﴿ وكانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ ﴾ .

١٠٧

وقال جميل[2] :

١ — فَلَيْتَ رِجالاً فيكِ قد نَذَرُوا دَمِى وهَمُّوا بِقَتْلِى يا بُثَيْنَ لَقُونِى

فيكِ أى فى معناكِ وبسببك . وقولُه « قد نَذَرُوا » من صِفة رِجالاً ، ولقُونى خَبَر لَيْتَ . والمعنى تمنَّيتُ أنّ رجالا فعلوا فى معناكِ ما فعلوا من الهَمِّ بقتلى ، وعَقْدِ النَّذْر فى سَفْك دمى ، التقوا معى ، ماذا كانوا يفعلون . وفى هذا الـكلام إبهامٌ أنهم لا يجْسُرون على التعرُّض له ، وفيـه استهانةٌ بأقوالِهم

(١) م والتبريزى : « بالأرض الفضاء » .

(٢) فى الأصل : « وقال آخر » وأثبت ما فى م . وعند التبريزى : « وقال جميل بن عبد الله بن معمر العذرى » . وقد سبقت ترجمة جميل فى الحماسية ١٠٢ .

ومكايدهم ، وإن كانوا قد بَذَلوا من القَولِ ما بَذَلوا ، وأَضمرُوا فيه ما أضمروا . وقد فسَّرَ تهيُّبَهم له ، ونُكوصَهم عن الإقدام عليه فى البيت الثانى .

٢ — إذا ما رَأَوْنى طالعًا من ثَنِيّةٍ يقولون مَنْ هذا وقد عَرَفُونى

يقولُ : إذا ما أبصرونى[1] مُقْبِلاً عن عَقَبَةٍ ، طالعًا عليهم من طريقٍ إليهم مُفْضِيَةٍ ، يتساءلون فيما بينهم بقولهم : مَنْ هذا ، وإن كانوا عارفين بى . أى يتجاهلوننى جُبْنًا وإحجاما .

٣ — يقولون لى أهْلاً وسهلاً ومَرْحَبًا ولو ظَفِرُوا بى ساعةً قَتَلُونى

نَبَّهَ بهذا الكلام على تملُّقِهم وإظهارِهم بالنِّفاق مالا يوافِقُ باطِنَهم ، عَجْزًا وضَعْفَ كيدٍ . والمعنى يستقبلوننى بالتأهيل ويتلقَّوْننى بالترحيب عند الالتقاء ، ولو أُعْطُوا الظَّفَر لأتَوْا علىّ وما أبقَوْا .

٤ — فكيفَ ولا تُوفى دِماؤُهُمُ دَمِى ولا ما لُهُم ذو كَثْرَةٍ فيَدُونى[2]

يقال : أوْفيْتُهُ ووَفَيْتُ له بكذا وأوْفيْتُ ، وفى هذا بيانُ عُذْرِهم فى تَرْكِ الوَفاء بالنَّذْرِ ، وتعجُّبٌ من أفعالهم عند اختلاف أحوالِهم . فيقول : كيف يُقدِمون علىّ وليس فى دمائِهم كلِّهم وفاءٌ بدمى ، ولا فى مالِهم اتّساع ، فإذا عَجَزَت دماؤهم عن دمى فكيف يُعطُونَ دِيَتى .

ويقال وَدَيْتُهُ أدِيه دِيَةً ووَدْيا .

---

(١) فى النسختين : « أبصروا بى » .

(٢) التبريزى واللسان (نده) : « دو ندهة » . والندهة ، بفتح النون وضمها : كثرة المال .

١٠٨

وقال يحيى بن منصور[(١)] :

١ — وَجَدْنا أبانَا كانَ حَلَّ بِبَلْدَةٍ سِوًى بَيْنَ قَيْسٍ قَيْسِ عَيْلانَ والفِزْرِ

سِوًى في موضع جَرٍّ على أنه صفةٌ لبَلْدَةٍ . والمعنى وجَدْنا أبانا حَلَّ ببلْدةٍ متوسِّطة لديار قيس بن عَيْلان وسَعْدِ بن زَيْدِ مَنَاةَ . والمعنى حَلَّ بين مُضَرَ ونأَى عن ربيعة ، لأنّ قَيْسًا والفِزْر من مُضَر . والفِزْر : لَقَبٌ لسَعْد بن زيدِ مَنَاةَ . وقال الأخفَشُ : سِوًى وسَوَاءٌ في معنى العَدْل . وفي القرآن : ﴿ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بيننا وبَيْنَكُم ﴾ . وفي موضع آخر : ﴿ اجْعَلْ بيْننا وبينَك مَوْعِدًا لا نُخْلِفُهُ نحْنُ ولا أنتَ مكانًا سِوًى[(٢)] ﴾ ، أي مكانًا عَدْلا .

٢ — فَلَمَّا نَأَتْ عَنَّا العشيرَةُ كُلُّها أَنَخْنَا فحَالَفْنَا السُّيوفَ على الدَّهْرِ

٣ — فَمَا أَسْلَمَتْنَا عِنْدَ يَوْمِ كَرِيهَةٍ ولا نَحْنُ أَغْضَيْنَا الجُفُونَ على وِتْرِ

يقول: لما خَذَلَتْنَا عَشِيرَتُنا — وهم رَبيعة — فيما نابَتْنا، وتباعَدتْ بِنُصرتها ومَعُونتها عنَّا ، وتَرَخَّصَتْ في القُعودِ عن مُساعدتنا ، اكتفينا بأنْفُسِنَا فأقَمْنا بدار الحِفاظ والصبْر ، واتَّخَذْنَا سُيُوفَنَا حُلَفَاء على الدَّهْرِ ، فَمَا خَذَلَتْنَا في يوم حَرْبٍ وعند مُدَافَعَةٍ وجَهْدٍ ، ولا نحن غَمَّضْنَا[(٣)] جُفوننا على وِتْرٍ وحِقْدٍ . والمعنى : إنّا وسيوفَنَا توافَيْنَا فيما عليه تَعاقَدْنا ، وتوازرنا فيما له تحالَفنا[(٤)] ، فَبَلَغْنَا نحن أقْصَى

---

(١) التبريزي : « وقال يحيى بن منصور الحنفي . قال أبو رياش : هذا غلط من أبي تمام . يحيى بن منصور هو ذهلي ، وهذه الأبيات لموسى بن جابر الحنفي » .

(٢) كذا بكسر السين في النسختين . وهي إحدى القراءات ، وقرئ « سوى » بضم السين في أخرى . تفسير أبي حيان (٦ : ٢٥٣) .

(٣) م : « أغضينا » .

(٤) في الأصل : « وتوازنا له له تحالفنا » ، صوابه في م .

المبالغ فى طَلَب الأوتار ، وانتهت هى إلى أبْعَدِ النهايات فى المعاونة والإخْلاب . وهذا مثلٌ ضربه لاستقلالهم فيما نَهضُوا فيه بعدَدِهم وعُدَّتِهم ، وبلائهم وصَبرهم واستغنائهم عن القاعِدِين عن التَّحمُّل معهم والذَّبِّ عنهم من عشيرتهم . وقولُه : « أَنَخْنَا » كِناية عن الإقامة والثَّبات فى وجوهِ الأعداء ، إلى أن وصلوا إلى المراد .

١٠٩

وقال أبو صَخْرٍ الهُذَلِىُّ[(١)] :

١ ــ رَأَيْتُ فَضِيلَةَ القُرَشِىِّ لَمَّا رَأَيْتُ الخَيْلَ تُشْجَر بالرِّماحِ[(٢)]

جعل القُرَشِىَّ جِنساً لا عَينًا . والمعنى : رأيْتُ فَضيلةَ القرشيِّين حين قِسْتُهم إلى غيرهم عند اشتجار الخيل بالرماحِ ، وانتظامها بها للطَّعْنِ المختلِفِ بينهم ، المتردِّدِ فيهم . وجوابُ لَمَّا مُقدَّمٌ ، وهو « رَأَيْتُ » فى صدرِ البيتِ . يريد : عند هذا الأمر بَانَ فَضْلهم على النّاس ، وقولُه « تُشْجَرُ » كُلُّ شىء دَخَل بَعضُه فى بعض فقد تَشَاجَرَ ، ومنه سُمِّىَ المِشْجَبُ مِشْجَرًا ، وتشاجَرَ القومُ بالرِّماحِ : تطاعَنُوا .

٢ ــ وَرَنَّقَتِ المَنِيَّةُ فهْىَ ظِلٌّ عَلَى الأبْطَالِ دانِيَةُ الجَنَاحِ

(١) هو عبد الله بن سلم السهمى الهذلى ، شاعر إسلامى ، من شعراء الدولة الأموية ، كان متعصباً لبنى مروان مواليا لهم ، وله فى عبد الملك وأخيه عبد العزيز مدائح كثيرة ، وروى أبو الفرج خبراً طريفاً له مع عبد الله بن الزبير إذا حبسه فى سجن عارم ، بعد مقاولة أدبية بينهما ، ثم أطلق سراحه . الأغانى (٢١ : ٩٤) والخزانة (١ : ٥٥٥) .

(٢) مما هو جدير بالذكر أن هذه المقطوعة لم ترد فى أشعار الهذليين أو دواوينهم . وذكر التبريزى رواية أخرى أيضاً ، وهى « فضيلة » بهيئة التصغير ، جعله علما ، وقال : « رأيت فضيلة ، أى ضربت رئته . ويجوز أن يكون من رؤية العين ، أى رأيته فى مشتجر الرماح ، وكان شهد هذا الشاعر وفضيلة الحرب ، فعاد ولم يعد فضيلة ، فسئل عنه فجمجم فى الجواب » .

انعطفَ « رَنَّقَتْ » على الفِعْلِ الذى تَنَاوَلَهُ لَمَّا . فيقول : ولمّا استدارت المَنِيَّةُ وحَلَّقَتْ على رءوس الأبطال ، فهى ظِلٌّ دانيَةُ الجَنَاحِ من قِمَمِ رءوسهم . وهذا مثلٌ . والمعنى : لَمَّا أشرَفَتِ المَنِيَّةُ عليهم إشرافَ الطَّائِرِ على ما يريد انكدارَه عليه ، بانَتْ فضيلتُهُمْ . ويقالُ : رَنَّقَ الطائرُ فى الهواءِ ، إذَا حَلَّقَ واستدار ، وجَعَل للمَنِيَّة ظِلًّا تحقيقاً[1] للاستعارَة من الطائِرِ ، لأنه يُوقِعُ ظِلَّهُ فى تلك الحالة . وجعل الجَناح دانياً تأكيداً لِطَمَع المَوْت فى الفوزِ بالأرواح الاختلاس . وكذا الطَّائر فى التَّحليق عند الانقضاض . وارتَفَع « دانِيَةُ الجَناحِ » و « ظِلٌّ » جميعاً على أن يكونان خَبرين لقوله هى ، كما تقول : هذا حُلوٌ حامِضٌ . ويجوز أن يكون دانيةٌ صفَةً للظِّلّ ، وأنَّثَهَا على المعنى . ويجوز أن يُرْوَى « دانِيَةً » بالنَّصْبِ على أن يكونَ حالاً .

١١٠

وقال بَعْضُ بَنِى عَبْسٍ :

١ — أرِقُّ لأرْحَامٍ أُرَاهَا قَرِيبَةً لحَارِ بن كَعْبٍ لا لجَرْمٍ وراسِبِ

يقولُ : يَرِقُّ قلبى بما تَمَلَّكَهُ[2] من الرحمة ، فانعَطَفَ[3] من أجْلِ أواصِرَ أراها قريبَةً مشتبكَةً بيننا ، من جهةِ الحارث بن كَعْبٍ ، لا من جهة جَرْمٍ وراسِبٍ . والحارث بن كَعْبٍ فى نِزَارٍ ، وجَرْمٌ وراسِبٌ من قضاعَةَ ، وهُمْ من اليمن ، وكان الحارث بن كعب انتقلَتْ إلى اليمن ، ولم تكن منهم ، فلهذا قال ما قال .

(١) فى الأصل : « تخفيفا » ، صوابه فى م

(٢) م : « بما يملكه » . (٣) م : « فأنعطف » .

وقيلَ : عَبْسٌ وَضَبَّةُ والحارثُ بن كَعْبٍ إخوةٌ لأُمّ . [ورخَّم الحارث فى غير النداء وذاك فى الشعر جائز[١]] .

٢ — وأنَّا نَرَى أقدامَنَا فى نِعالِهِمْ وآنُفَنَا بين اللِّحَى والحَواجِبِ[٢]

ذَكَرَ المشَابهَ الحاصِلَةَ بينهم تأكيداً لِلْقُرْبَى والقَرابةِ ، المُوجِبَةِ لما ذَكَرَ من الرِّقَّة والشَّفَقة ، على ما حَدَثَ فيهم من وقوع الفُرْقَةِ ، وسُقُوطِ التَّجَاوُرِ والخُلْطَةِ . فيقولُ : أرِقّ للرّحِمِ القريبة ، ولأنَّا نَرَى أقدامَهُم فى النِّعال كأقْدَامنا[٣] ، وآنُفَهُم بين لحاهم وحواجبهم كآنُفِنا . وقال بين اللِّحَى ولم يَقُلْ لحاهُمْ ، لأنّه بإضافةِ الأقدامِ والنِّعال اكتفى . وذَكَر الأطرافَ لأنها تَظْهَرُ للعُيُونِ ، والمَشَابهُ تَعَلَّقُ بها أكْثَرَ .

٣ — وأخْلاَقَنَا إعطاءَنَا وإباءَنا إذا ما أَبَيْنَا لا نَدُرُّ لعاصِبِ

جَعَل الشبَه فى البيت الأوّل فى الخَلْق وهاهنا فى الخُلُقِ ، تأكيداً للأمر . وكان يجب أن يقولَ وأخْلاَقَنا أخلاقهم ، فاعْتَمَد على أنّ العطف على قوله أقدامَنا يَدُلُّ ويُغْنِى — لما يُفيدُه من الاشتراكِ — ما يُغْنِى فى قَوْلِهِم قام زيدٌ وعَمْرٌو ، وإنّ زَيْدًا مُنطلِقٌ وعَمْرٌو . فكأنَّهُ قال : وأنَّا نرى أخْلاقَنا كأخلاقِهم ، إذا أعْطَينا أو أبَيْنَا . ثم ذَكَرَ ما دَلَّ على تَشَدُّدِهم بعد الامتناع فقال : وإذا أبينا لا نَتَسَهَّلُ .

---

(١) التكملة فى م . ونحوها فى التبريزى . وقال ابن جنى : « رخم حارثا فى غير النداء كقوله :

* وأضحت منك شاسعة أماما *

وغيره . وسبب جواز ذلك عندى فى الضرورة كثرة ما تنادى هذه الأسماء ، فإذا نوديت رخمت كثيراً ، فلما ألف فيها ذلك وكان فيه أيضاً ضرب من التخفيف جنحوا إليه عند الضرورة » .

(٢) م : « فإنا نرى » .

(٣) فى الأصل : « كأقدامهم منا » ، صوابه فى م .

لمن يُرِيدُ قَهرَنَا . وأَصْلُ العَصْبِ الشَّدّ ، ومنه العِصابَةُ . وضَرْعُ الحَلُوبَةِ إذا اشتدَّ الزمانُ بها ، وساء خُلُقُها فرفَعَتِ اللَّبَن ، يُشَدُّ ويُحْتَلَبُ وإن ضَجِرَتْ ، لِمَسَاسِ الحاجة ، واستيلاء الفاقة . وهذا الكلامُ مَثَلٌ هاهنا . ومثلُ البيت قول الآخر (١) :

لا يُخْرِجُ الكَرْهُ مِنّى غَيْرَ مَأْبِيَةٍ ولا أَلِين لِمَنْ لا يَبْتَغِى لِينِى

يُرِيدُ : إنّ الإكراه لا يزيدنا إلا امتناعاً ، والاقْتِسَارَ لا يُحَصِّل منّا إلاَّ إباءً . ويُشْبِهُ من حيث النَّظْمُ قوله : « إذا ما أَبَيْنَا لا نَدُرُّ لِعَاصِبِ » الالتفاتَ . ألا تَرَى أَنَّهُ تَرَكَ ما كان يَطْرُدُهُ من القَوْلِ وصار كأنَّهُ التَفَت فقال ذلك .

١١١

وقال بَعْضُ شُعَرَاء حِمْيَر (٢) :

١ — مَنْ رَأَى يَوْمَنَا ويَوْمَ بَنِى التَّيْمِ إذا الْتَفَّ صِيقُهُ بِدَمِهْ

ذُكِرَ أنها قيلت فى وقْعَةٍ كانت بين حِمْيَر وعَبدِ مَنَاةَ وكلْبٍ ، وكانت على حِمْيَرَ ، وقُتل فيها عَلْقمة بن ذى يَزَن . وقولُه « من رأى » لفظه استفهامٌ ، ومعناه التفظيع والتعظيم . وأراد باليوم الوقْعة ، لولا ذلك لما صَلَحَ أن يكونَ إذا ظَرْفاً له . ومثله قولُه تعالى : ﴿ فإذَا نُقِرَ فى النَّاقُورِ . فذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عسيرٌ ﴾ . ألا تَرَى

(١) هو ذو الإصبع العدوانى . المفضليات (١ : ١٦١) .

(٢) ذكر التبريزى عن أبى رياش خبر هذه الأبيات ، وهو خبر طويل آثرنا الإشارة إليه . وملخصه أن الحرب وقعت بين حمير وصحار ، فظهرت عليهم صحار ، وقتلوا ملكا من ملوكهم يدعى « ذا ثات » ، فجمعت حمير لصحار ، فارتحلت صحار من البيداء فلحقت ببلاد معد فثارت حمير إلى كلب تطلبهم بدم الملك — وكلب إخوة صحار — فاستنجدت كلب بتيم الرباب فأنجدتهم على حمير ، ثم ظعن بنو تيم من البيداء فلحقوا ببلادهم وخلوا بيوتهم بينهم وبين حمير ، ثم صارت حمير إلى التيم وعدى وعكل بنى وبرة ، فظهرت بنو عبد مناة وكلب على حمير وقتلت التيم علقمة بن ذى يزن ، فقال بعض شعراء حمير هذه الأبيات .

أنَّ فى قوله ﴿ يوم عسيرٌ ﴾ معنى فِعْلٍ ، فصار يومئذ ظَرْفًا له ، كأنّه قال : فذلك النَّقر يومئذ نَقْرُ يومٍ عسير . فيقول : مَن شاهَدَ يومَنا مع بَنِى التَّيْم حين التفَّ غُبارُ الجوِّ بالدّم ، وتَنَدَّى به وابتلّ ، حتّى قَلَّ . والصِّيقُ : الغُبار الجائل فى الجوّ . وأضافَهُ إلى اليَوْمِ لـكَوْنِهِ فيه ، والتفافِهِ كان بِرَشاش الدَّم القاطِر من الجراح . ويُقال صِيقَةٌ أيْضًا : قال [رؤبة(١)] :

* يَثُرْنَ تُرْبَ الأرْضِ مَجْنُونَ الصِّيَقْ *

وصِيَقٌ : جمع صِيقَةٍ .

٢ — لَمّا رَأوْا أنّ يَوْمَهُمْ أشِبٌ ‏ ‏ ‏ شَدُّوا حَيَازِيمَهُمْ على ألَمِهْ

قوله أشِبٌ أى كثيرُ الجلَبَةِ ، ضَيِّقُ الاختلاط ، والمكانُ الأشِبُ فيه شَجرٌ مُلتفٌّ . وجوابُ لَمّا «شَدُّوا» . يقول : لَمّا أحسَّ بَنُو التَّيم بفظاعة الأمر واختلاط الشأن ، وتضايُق المجال والمَكَرّ ، وطَنُوا أنفُسَهم على الألَم ، وشدّوا حيزومَهم للجَهْدِ ، وتَهَيَّئُوا للصَّبر على ما ابتُلُوا به وشَقُوا له . والحَيْزوم : الصدر ، لأنَّه موضِعُ الحَزْمِ والعَزْمِ ، لاشتماله على القلب الذى هو موضعُهما . ويُسمَّى حَزِيمًا أيضاً ، كأنَّه الموضع الذى يُشَدُّ بالحِزَام . والحِزَامِ من الحَزْمِ أيْضًا . وشَدُّ الحيازيم مَثَلٌ للصَّبْرِ على ما لَحِقَهم . ورُوى عن أمير المؤمنين عليه السلام :

حَيَازِيمَكَ لِلمَوْتِ ‏ ‏ ‏ فإنّ المَوْتَ لاقِيكَ(٢)

يُرِيدُ : اُشْدُدْ حيازيمك .

٣ — كأنّما الأُسْدُ فى عَرِينِهِمُ ‏ ‏ ‏ ونَحْنُ كاللَّيْلِ جَاشَ فى قَتَمِهْ

---

(١) التكملة من م والتبريزى وانظر ديوان رؤبة ١٠٦ .

(٢) يروى أيضاً : « اشدد حيازيمك للموت » ، وهو أكثر ما جاء فى الخزم . انظر العمدة (١ : ٩٢) والأغانى (١٤ : ٣٣) .

يقول : إنّ هؤلاء القَوْم يتمنّعون على الأعداء ، ويبْطِشون بهم ، تَمَنُّعَ الأُسْد في أَجَمَتِها وبطْشِها منها ، ونحنُ كاللَّيل ، يريدُ نَحْنُ في كَثْرتنا وهَوْلنا وإحاطتنا بهم ، وإدراكِنا إيّاهم كاللَّيل إذا جَاشَ ظُلْمَتُه ، وتراكَمَ سَوادُه . والقَتامُ والقَتَمُ والقُتْمَةُ ، يجيء في الظُّلْمَةِ والغُبار والرِّيح ، وجاء الفعل منه فقيل قَتِمَ يَقْتَمُ قَتَماً وقَتامًا . وذَكَرَ بعضُهم أنه أراد بالقَتَم القَتامَ فحذَفَ الالِفَ ، كما قال غَيْرُه ورواه قُطْرُبٌ :

أَلاَ لا بَارَكَ اللَّهُ في سُهَيْلٍ إذا ما الله بارَكَ في الرِّجال

ومَصْدر ما كان على فَعِلَ الفَعَلُ في الأَكْثَر ، فلا أدرى لِمَ أنكره حتّى اعتذر بما ذكره . والعرينُ: الأَجَمَةُ ، أَجَمَةُ الأسد ، ثم يُسَمَّى مُقْتَتَل القَوْم عَرِيناً. ويُقال للرَّجُل : هو عِرْنَةٌ لا يُطاق ، إذا كان خبيثا . وقولُه « عرينهم » موضعُهُ موضع الحال ، والأُسْد خَبَرُ مبتدإ محذوفٍ ، كأنه قال كأنّما هم الأُسْدُ في مُقتَتَلهم ، ونحن كاللَّيل في هَوْلنا وإدراكِنا ، ويكونُ قولُه جَاشَ في قَتَمِه ، في موضِع الحال أيضا ، والأجْوَدُ أن يكون قَدْ مَعهُ مُضْمَرةً ، أى كالليل وقد جَاشَ .

٤ – لا يُسْلِمُون الغَداةَ جارَهُمُ حتى يَزِلَّ الشِّرَاكُ عن قَدَمِهْ

مَدَحَهُم بحُسْنِ المُحاماةِ على الجار . وتَرْكِ الإسلام له مدَّةَ بقائه فيهم . وقولُه « الغَداةَ » أشار بها إلى غَداة اللِّقاء ، أو صَباحِ الغِوَار . وقولُه « حتى يَزِلَّ الشِّرَاكُ عَن قَدَمِهْ » فيه قَلْبٌ ، والأصل زَلَّتِ القَدَمُ عن الشِّراك . وهذا مَثَلٌ لموته ، لأنه لا يَلْبَسُها بَعدهُ . واحتَمَلَ الكلامُ القَلْبَ لأن المعنى لا يُخيل[1] كما لا يُخِيل في قولهم : أدخلتُ الخُفَّ في رِجْلِي ، والقَلَنْسُوَةَ في

(١) لا يخيل : لا يشتبه ولا يلتبس . وفي اللسان : « وأخال الشيء : اشتبه . يقال : هذا الأمر لا يخيل على أحد ، أى لا يشكل » وفى الأصل : « لا يجبل كما لا يجبل » صوابه في م .

رأسى . وهذا كما يُقال هُرِيق جِفانُهُ ، وصَفِرَ وِطابُهُ ، وطُوِىَ حَصِيرُه ، وخَلَّى مكانَهُ . والمعنى لا يُسْلِمُون الجارَ إلى أن يموتَ فيهم . ويجوز أن يكون الهاء من قَدَمِهْ راجعًا إلى الشِّراك ويكونُ الكلامُ مَثَلاً لتفظيع الأمْرِ ، وهذا كما يقالُ : « زال السَّرْجُ عن المَعَدِّ[١] » و « بَلَغَ الحِزامُ الطُّبْيَيْن » وما أشْبَهَهُما . والمعنى إلى أن يَزْلَقَ الرَّجُلُ عن مَقَرِّه فلا يثبتُ فى النَّعل ، والمعنى إلى أن يَبْلُغَ الأمر كلَّ مبلغٍ فَظِيعَ .

٥ — ولا يَخِيمُ اللَّقاءَ فارِسُهُمْ حتَّى يَشُقَّ الصُّفُوفَ من كَرَمِهْ

يقول : ولا يَجْبُنُ عن اللقاء فارِسُهُمْ فيُحْجِمَ ، ولا يَضعُف دونَهُ فيَحارَ ، بل يُقْدِمُ إقْدامًا تُخْرَقُ[٢] الصُّفوفُ به عِزَّةَ نَفْسٍ ، وكَرَم عِرقٍ . واللقاء ينتصبُ على المفعول ، الأصل عن اللقاء ، فلمّا حَذَفَ حرفَ الجرّ تخفيفاً وَصَلَ الفِعْلُ فَعَمِلَ . ويجوز أن يكون ظرْفاً كمَطلع الشَّمس ، أراد وقت اللقاء . وقولُه « حَتَّى يَشُقَّ الصُّفوف » يريد إلى أن يَشُقَّها كَرَمًا منه ، كأنَّه لا يرضى بأدْوَنِ المنزلَتَيْن فى اللِّقاء لنفسه ، بل يَأْبَى إلاّ النِّهاية والغُلوّ . ويُقالُ خامَ الرَّجلُ يَخِيم ، إذا كادَ كَيْدًا فلم يُفْلِحْ فيه ، أو تقدَّم فى الحرب فنَكَص ولم يَظْفَرْ . قال الشاعر ، وأنشدَهُ الخليل :

رَمَوْنِى عن قِسِىّ الزُّورِ حَتَّى أخامَهُمُ الإلٰهُ بها فَخَامُوا[٣]

ويجوز أن يكون قولُهم خَيَّم بالمكان ، إذا أقام ، والخَيْمَةُ واحِدةُ الخِيام ، منه أخذًا .

٦ — وما بَرِحَ التَّيْمُ يَعْتَزُونَ وَزُرْ قُ الخَطِّ تَشْفِى السَّقِيمَ مِن سَقَمِهْ[٤]

(١) المعد : واحد المعدين ، وهما موضع دفتى السرج .

(٢) م : « يخـّرق » . (٣) أنشده فى اللسان (خيم) .

(٤) كذا جاء البيت فى الأصل بالخزم ، أى بزيادة حرف فى أوله . وفى م والتبريزى : « مابرح » .

ما بَرِحَ وما زالَ بمعنًى ، وليس هذا من البَرَاحِ من المكان . ألا ترَى أن الله قال : ﴿لا أبرَحُ حتى أبلُغَ مَجْمَعَ البَحْرَيْنِ﴾ ، ومُحالٌ أن يبْلُغَ هـذا الموضِع ، وهْوَ لم يَبْرَحْ من مكانه . وكأنّ الـكلِمَةَ فى اللغة تدُلُّ على معنى المجاوَزة ، ولذلك قيل :

* أبْرَحْتَ رَبًّا وأبْرَحْتَ جارا(١) *

أى جاوزْتَ ما يكون عليه أمثالُكَ من الخِلالِ المَرْضِيَّةِ . والمعنى : ما زال بنو التَّيْمِ ينتسبون ويَدْعُونَ بيالَفُلانِ مُعْتَزِين ، أو بِخُذِ الطّعنةَ وأنا فلانٌ مُدّعين ، والرِّماح المحمولة من الخطّ الزُّرْق فى ألوانِها تَشْفِى المتكبِّر من كِبْره ، والعَدُوَّ المُخاتل من دَائِه . وقوله « السقيم » يجوز أن يكون كنايةً عن المُنافِق المُدَاجِى ، كما قال الله تعالى لمّا وصَفَهم : ﴿فى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ . ويجوز أن يكونَ يُرَادُ به الصَّلِفُ التَّيَّاه ، كما يُقال عند صفته : فى طَرْفِهِ شَوَسٌ ، وكما جاء فى صفة السُّيوف :

* يُدَاوَى بها الصَّادُ الذى فى النَّوَاظِرِ(٢) *

ويجوز أن يكون المعنى : والرِّمَاحُ فى اختلافها تَشْفِى الموتورِينَ من أوتارِهم وذُحُولهم . وجَعَل الفِعلَ للرِّماح على المجازِ والسَّعَةِ . وقولُه « وزُرْقُ الخطِّ » الواوُ واو الحال . ويَعْتَزُون خَبَرُ ما بَرَحَ .

٧ ــ حَتَّى تَوَلَّتْ جُمُوعُ حِمْيَرَ فَالْـــفَلُّ سَرِيــعٌ يَهْوِى إلى أَمَمِـــهْ(٣)

يريدُ : ما زالوا بهذه الحالة إلى أن انهزمت جيوش حِمْيَر ، فصارَ المَفْلُولُ المُنْهزِمُ مُبَادِرًا فى السُّرْعَةِ إلى مَقْصِده . وقولُه الفَلُّ مَصْدَرٌ فى الأصل وَصِفَ فى

(١) للأعشى فى ديوانه ٣٧ . وهو بتمامه :

تقول ابنتى حين جد الرحيل * لى أبرحت ربا وأبرحت جارا

(٢) سبق فى ص ٢٤٤ . (٣) التبريزى : « والفل » .

وهو مَوْضُوعٌ موضِعَ المفعول ، ولذلك جازَ أن تَقُولَ رَجُلٌ فَلٌّ وقَوْمٌ فَلٌّ ونِسْوَةٌ فَلٌّ . ومِثْلُه رَجُلٌ فَرٌّ ، إلا أنه موضعٌ موضِعَ فارٍّ ، ويقع للواحد والجميع .

٨ — وَكَمْ تَرَكْنَا هُنَاكَ من بَطَلٍ تَسْفِي عليه الرِّياحُ في لِمَمِهْ

مَوْضِعُ كَمْ نَصْبٌ على المفعول من تَرَكْنَا . يَقولُ : وكثيرًا تركْنا في تلك للعركة من الأبطال وهم مُصَرَّعُون مُعَفَّرُون في تلك المَعْرَكة ، بادُون للضياء والظُّلْمَةِ ، تأتى الرِياحُ بسَفاهَا وتجعلُهُ في لِمَمِهِمْ ولِحَاهُمْ . وأشار بقوله هناك إلى مُعتَرَكِ القَومِ ومُزدَحَمِ الطَّعنِ والضَّرب .

١١٢

وقال حَسَّانُ بْنُ نُشْبَةَ[١] :

١ — ونَحْنُ أَجَرْنا الحَيَّ كَلْبًا وقدأَتَتْ لَهَا حِمْيَرٌ تُزْجِي الوشِيجَ المُقَوَّما[٢]

يقول : أدخَلْنَا في جِوارِنا هذه القبيلة ، وضَمِنَّا لها الذَّبَّ عنها وسلامتها على ما يعرِضُ لها ، وقد قَصَدَتْ لَهَا حِمْيَرُ بعَدَدِها وعُدَّتِها ، تَسُوقُ نَحْوَها الخيلَ المُطَهَّمةَ ، والرِّماحَ المُثَقفةَ . والوَشِيجُ أَصلُهُ عُرُوقٌ ، ثمَّ جُعِلَ للرِّماحِ أَنفُسِها . وجَعَلَها مثقّفةً ، لِيُرِى عنايتهم بإِعْدادِ الآلة لزمان المُقاتَلةِ .

٢ — تَرَكْنا لهم شِقَّ الشِّمالِ فأصبحوا جَمِيعًا يُزَجُّونَ المَطِيَّ المُخَزَّمَا

---

(١) التبريزى : « وقال حسان بن نشبة العدوى في ذلك — أى في الحرب التي سبق الكلام عليها — أخو بنى عدى بن عبد مناة بن أد . قال أبو محمد الأعرابى : هذا الاسم مصحف ، والصواب جساس بن نشبة ، مثل عساس . قال جرير يهجو جخدب بن خرعب التيمى :

أجخدب أشبهت التى كان بظرها كطرثوث أرض غير ذات أناس
لقد شهدت تيم على أم جخدب وكان سراة التيم رهط جساس

يعنى جساس بن نشبة التيمى » .

(٢) م والتبريزى : « نحن أجرنا » بالخدم في أوله .

لَهُمْ يمنى لِحِمْيَرَ . والعرَبُ تجعلُ الشمال كناية عن الشؤم . فمن أمثالِهم :

* صَبَحْناهُمْ فغَدَوْا شأْمَةً *

ويقولون : خَلَّيناهُمْ والجانبَ الأَشْأَمَ ، وخَلَّيناهم والناحيةَ الشُّؤْمَى ، فكأنهم يقولون ذلك للمنهزم وإن كان مأخَذُهُ فى الشِّقِّ الأيمَنِ ، لأن الشؤمَ معه والإدبارَ ، أىَّ طريقٍ أَخَذَ ، ومَسْلَكٍ توجَّه . وهذا كما يقال : فُلانٌ مِنِّى باليمين ، وفلانٌ بالشِّمال ، وفلانٌ بعَلياءَ عندى ، وفلانٌ فى المهابط ؛ إذا جعَلْتَ مَنْزِلتَهُ عَلِيَّةً أو مُتسفِّلةً . ومعنى البيت : خَلَّينا لهم فى الانهزام شِقَّ الشُّؤمِ وجانِبَه ، فأَصبَحوا يُزَجُّون مَطاياهم مُخَزَّمَةً حَسْرَى كالَّةً[1] لا يُبقِّى على وَجاها ، ولا يُتَّقَى حَفاها والخَزْمُ : الشَّدُّ والقَطْعُ . ويقال شِراكٌ مخزُومٌ ، أى مقطوعٌ .

٣ — فلمَّا دَنَوْا صُلْنا فَفَرَّقَ جَمْعَهُمْ سَحابتُنا تَنْدَى أَسِرَّتُهُمْ دَمَا[2]

يقولُ ، لمَّا قَرُبوا فى الالتقاء ، صُلْنا عليهم وبطَشْنا بهم ، فبَدَّدَ شَمْلَهُم جيشُنا الذى كأنه سَحَابةٌ تَنْدَى طرائقُها دَمًا . جعَلَ السحَّابَةَ تَرشحُ بالدَّم لمَّا كَثُرَ سَفْكُهم له . وتَنْدَى فى موضِعِ الحال . وانتصَبَ دَمًا على التمييز . ويقال : نَدِىَ يَنْدَى نَدًى . والأَسِرَّةُ : الأوساط والطرائقُ ، واحدها سِرَرٌ ، ويستعمل فى بطون الأَوْدِيةِ أيضا .

٤ — فغَادَرْنَ قَيْلاً من مَقَاوِلِ حِمْيَرٍ كأنَ بِخَدَّيْهِ من الدَّم عَنْدَمَا

يقولُ : تَرَكَتِ الخيلُ فى تَجْوالِها منهم رئيسًا مَصْرُوعًا ، قد سالَ الدَّمُ على خَدَّيهِ فكأَنهما خُضِبا بالعَنْدمِ ، وهو دَمُ الأَخَوَين . والمِقْوَلُ بلغة أهل اليَمَن : القَيْل ، والمَقاوِلُ والمقاوِلَةُ جَمْعُه ، وهُمُ الأقوال والأقيالُ . وقَيْلٌ مُخَفَّفٌ

---

(١) كذا فى م ، وفى الأصل : « فالة » .

(٢) م والتبريزى : « تندى أسرتها » .

من قَيْـلٍ ، فهو من الواو أيضا ، ومعناه هو الذى يَنفُذُ قولُه ، و يُعْتَمَدُ أمرُه ونَهيُه . ووُصِفَ به الملك كما وُصِفَ بالهُمَام ، لمّا كان إذا همّ بالشىء فعَـل ، لا يُرَدُّ ولا يُدفَع . وقيل للسان مِقْوَلٌ لمّا كان آلةً فى القوْل .

٥ — أَمَرَّ على أفواهِ من ذَاقَ طَعْمَها مَطَاعِمُنَا يَمْجُجْنَ صَابًا وَعَلْقَمَا

يقولُ : صارت مَطاعِمُنا مُرَّةً على أفواهِ من ذَاقَها ، حتى إنها تَمُجُّ بعـدَ ذَواقها صَابًا وعَلقماً ، والصَّابُ : شَجرةٌ لها لَبَنٌ إذا أصابَ العينَ حلَبها . والعَلقمُ : شَجَرٌ مُرٌّ ، وقيل هو الحنظَلُ . حُـكِىَ أن العَلقمة المَرارة . ويقال عَلْقَمَ الحنظَلُ . إذا أدْرَكَ مَرَارتُه . وقولُه : « يَمْجُجْن » حالٌ للأفواه ، والتقدير أمَرَّ مُطَاعِمُنَا على أفواه الذائقين طَعمَها ، ماجَّةً صَابًا وعَلْقماً ، أى إذا ذاقت رَمَتْ بمـا هو كهذين . والمعنى : إذا خُبِرْنا حُصِلَ منا على ما هو كذلك . وجاز فى « طَعْمَها » الإضمارُ قبل الذكْرِ ؛ لأن الكلامَ يحتَمِلُ نِيَّةَ التقديم والتأخير ، لما كان رُتْبَةُ الفاعِلِ وهو مَطَاعِمُنَا التقديم ، ورتْبةُ المفعول وما يَجْرِى مَجْراه التأخير ، وهو على أفواهِ من ذَاق طَعْمَها . وفى طريقة هذا البيتِ قول الآخر(١) :

فإنْ تَغمِزْ مَفَاصِلَنَا تَجِدْنَا غِلاَظًا فى أناملِ من يَصُولُ

والطَّعْمُ : الذوْق ، والمَطَاعم : جَمعُ المَطْعَمِ . ويقال هو حَسَنُ المَطْعَمِ ، أى طَيِّبُ الطعَامِ .

١١٣

وقال فى ذلك أيضاً :

١ — وإنّى وإنْ لَمْ أَفدِ حَيًّا سواهُمُ فِدَاءٌ لِتَيْمٍ يَوْمَ كَلْبٍ وحِمْيَرَا

يقول : أنا وإن كُنتُ أَرْبَأ بقدرى ، وَأَرْفَعُ نفسى أن أجْعلَها فِدَاءً لغيرى ،

(١) هو عمرو بن مسعود . انظر الحماسية ٦١ .

أفْدِى تَيْماً بها ؛ لِمَا كان منهم من حُسن البلاء يومَ اجتماع كَلْبٍ وحِمْيَرَ للقتال . وجَوَابُ الشرط ، وهو قوله « إن لَمْ أَفْدِ » قد اشتمل عليه الكلام ، لأن المعنى : [إن[1]] لم أَفْدِ غيرهم ترفعاً ، فإنى أفْدِيهم تَشَكرًا .

٢ ــ أَبَوْا أنْ يُبيحُوا جارَهُم لعدوِّهم وقد ثارَ نَقْعُ المَوْتِ حتى تَكَوْثَرَا[2]

أَبَوْا ، الفِعْلُ لبنى التَّيْمِ . يقول : امتنعوا من أن يُخَلُّوا بين جيرانِهم قبيلة كَلبٍ وبين أعدائهم حِمْيَرَ ، وقد ارتفع غُبارُ الموتِ حَتَّى التَفَّ فى الجوّ . وأراد بالجار والعَدُوّ الكثرة ، إذْ كان المُراد بهمَا القبيلتين ، وإنما أضافَ النَّقْع إلى المَوْتِ تَهْويلاً ، ويجوز أن يُريدَ بالموت الحَرْبَ . وتَكَوْثَرَ : تَفَوْعَلَ من الكَثْرَةِ ، يريد تراكُمَ الغُبارِ والتفافَهُ . وهذا الذى أشار إليه بقَوْلِهِ تكوْثر من التَّرَاكم ، جعلَه بعضهم كالسحاب ، وجَعَلَهُ بعضهم يَسُدُّ عينَ الشمس حتى ظهرت له الكواكب ، وحتَّى صار النَّهار بسببه كالليل . وتجاوز المتنبِّئُ[3] جميع ذلك ، حتى بلغ حَدًّا من الإفراط مُسْتَشْنَعًا فقال :

عَقَدَتْ سَنابِكُها عَلَيْها عِثْيَرًا لو تَبْتَغِى عَنَقًا عليه أمْكَنَا[4]

وإذا أردتَ بالموتِ المنيّةَ يكون المُراد : كأنَّ المَوْتَ أثارَ الرَّهَجَ فى سَلْبِ النُّفوسِ حتى كَثُفَ فى الهواء . وهذا مَثَلٌ .

٣ ــ سَمَوْا نَحْوَ قَيْلِ القَوْمِ يبتدرُونَهُ بأسيافِهِمْ حَتَّى هَوَى فتَقَطَّرا

يعنى بَنى تَيْمٍ . يقول : ارتفعوا نحوَ رئيس القوم مُسْتَبِقينَ إليه بأسيافهم فتناولُوه حتى سَقَطَ . ومعنى تَقَطَّر : وقَعَ على أَحَد قُطْرَيْهِ . والقُطْرانِ : الجانبان .

(١) بها يلتئم الكلام ، وليست فى إحدى النسختين .

(٢) التبريزى : « ويروى : تكورا . من كور العمامة ، والمعنى واحد » .

(٣) كذا بالهمز فى الأصل ، وبالتسهيل فى م .

(٤) رواية الديوان بشرح العكبرى : « عليها أمكنا » .

وفى الكلام اختصارٌ، كأنّه قال : ابتدروه بالأسياف وضَرَبُوه حتّى سقط ، فحَذَفَ ضربوه . وموضع يبتدورنه نَصْبٌ على الحالِ ، وتَعَلّقَ حَتّى بالمحذوف الذى بَيّنْتُهُ .

٤– وكانوا كأنفِ اللَّيْثِ لاشَمَّ مَرْغَمًا ولا نَالَ قَطُّ الصَّيدَ حتَّى تَعَفَّرَا[1]

الأسَد أحْمَى الحيوان أنفاً ، ويبلغ من عُجْبه بنفسه أنّه لا يتواضع لأكل صَيْدِ غيره . ونُسِبَ الأنفَةُ إلى الأنْف كما يُنْسَبُ الحَمِيَّةُ إليه . يقالُ : هو أحْمَى أنفاً من فُلانٍ ، وآنَفُ أنْفاً مِنْهُ ، وحَمِى فلانٌ أنفَهُ من كذا ، أى أنِفَ منه ولم يَرْضَ بِهِ . وحَسُنَ فى الكِنَايَةِ عن الإباء والتصوُّنِ عن الدَّناءة والمَذَلّة قوله : « لا شَمَّ مَرْغَمًا » بَعْدَ ذِكْرِ الأنْف . فيقول : وكان بنو التَّيْمِ فى التَّمَنُّع كاللَّيث الذى لا يُغمِضُ عَلَى قَذًى ، ولا يَشَمُّ مَرْغَمًا ومَذَلاًّ ، ولا يَصْبِرُ لشىءٍ على هَوَانٍ ، ولا يَعْطِفُ على مَكْرَهٍ وصَغَارٍ ، ولا يَنَالُ الصَّيْدَ قَطُّ حتى يَكُونَ هو المُعَفِّر . والعَفَرُ : التُّرَاب . هذا إذا رَوَيْتَ « قَطُّ الصَّيْدَ حتى تعفَّرَا[2] » وقال ذلك لأنَّه فيما يتصيَّده لا يَرضى بالاختلاس ، ولا يعتمد على صَيْدِ غيرِه والإصابَةِ مِنْهُ . ويُرْوَى : ولا نَالَ فَظَّ الصَّيْدِ حتى تَعَفَّرَا[2] » . والفَظُّ : ماء الكَرِش . ويُقال افتَظَظْتُ الكَرِشَ ، إذا استخرجت ذلك الماء منه . والمعنى : ولا نَالَ الفَظَّ من بَطْنِ الصَّيْدِ حتَّى يتعفّر أى يسقط فى العَفَر ويتمكَّن منه . والأسَدُ يبدأ من الصَّيْدِ بحَشْوِ بطْنِه ، فلذلك خَصَّ الفَظَّ . والثَّميلةُ خِلافُ الفَظّ ، لأنه اسمٌ لما يبقى فى البطن من العَلَف والرُّطْبِ . وقَطُّ فى الماضى كأبَدًا فى المستقبل ،

(١) م فقط : « يعفرا »

(٢) م : « يعفرا » . وزاد التبريزى رواية : « قَصَّ الصَّيد » عن عبد السلام البصرى .

وهو مَعْرِفَةٌ مَبْنِيٌّ كأمس ، وأبداً نكِرَةٌ كَغَدًا . ولا نَالَ ولا شَمَّ في مَعْنَى لم يَشَمّ ولم يَنَلْ . ومثلُه قولُه تعالَى : ﴿ فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صَلَّى ﴾ .

١١٤

وقال هِلاَلُ بن رَزِين[1] :

١ — وَبالبَيْدَاءِ لَمَّا أنْ تَلاقَتْ ... بِهَا كَلْبٌ وحَــلَّ بِهَا النُّذُورُ

يقولُ : لمّا تلاقت كَلْبٌ وحِمْيَرُ بالبَيْداء وأدركوا الأوتار ، فَحَلَّ بها النُّذور وسقطت الأقْسَامُ عن الحالفين بها لإدْراكِهِم الآثار[2] . وجوابُ لمـا يجوز أن يكون ما دَلَّ عليه قولُهُ « فحَانت حِمْيَرُ » أو قولُه » وحَلَّ بها النُّذُور » . ويجوز أن يكون قولَه « أَجادَتْ وَبْلَ مُدْجِنَةٍ » ، وهو أول البيت الرابع ، وعند من يُجَوِّز زيادَةَ الْحُروف فى مثل هذا المكان يكون « حَلَّ بها النُّذور » أو « فحَانَتْ » الجوابَ ، فيكون الفاء والواو مُقْحَمَةً ، وهكذا يقولون فى قَوْلِ اللهِ تَعَالَى : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِّحَتْ أَبْوَبُهَا ﴾ عندَهم الواو زائدة ، والُمراد فُتِحَتْ[3] ، وقول امرئ القيس :

* فَلمّا أَجَزْنا سَاحَةَ الْحَيِّ وانْتَحَى[4] *

---

(١) التبريزى : أحد بنى ثور بن عبد مناة بن أد » . وعند ابن جنى : « وقال هلال بن رزين الربابى » . وذكره المرزبانى فى المعجم ٤٨٢ وقال : « هلال بن رزين أحد بنى ثور بن عبد مناة بن أد . جاهلى . يقول فى وقعة كانت لبنى عبد مناة وكلب على حمير » . وأنشد بعض هذه الحماسية .

(٢) كذا فى الأصل ، وهو على القلب ، حكاه يعقوب ، والمألوف فى جمع ثأر أثآر كما فى م .

(٣) كذا ورد فى النسختين بتخفيف التاء هنا وتشديدها فى التلاوة قبلها . وقراءة التخفيف هى قراءة عاصم وحمزة والكسائى وخلف ووافقهم الأعمش ، والباقون بالتشديد . إتحاف فضلاء البشر ٣٧٧ .

(٤) عجزه : * بنا بطن خبت ذى حقاف عقنقل *

يقولون : المراد انتحى ، والواو زائدة .

٢ — فَحَانَتْ حِمْيَرٌ لما التَقَيْنَا وكانَ لَهُمْ بِهَا يَوْمٌ عَسِيرُ[(١)]

يقول : هَلَكَتْ حِمْيَرُ عند الالتقاء ، لأنّ الدَّبْرَة كانت عليهم لا لَهُم ، وكان لَهُم بالبيداء يَوْمٌ صَعْبٌ . ويقال : يَوْمٌ وَأَمْرٌ عَسِرٌ وعَسِيرٌ ، والفِعْلُ مِنْه عَسُر بالضم وعَسِر بالكسر ، ويقال هو العُسْرُ واليُسْر ، والعُسْرَى واليُسْرَى .

٣ — وأَيْقَنَتِ القبائِلُ من جَنَابٍ وعامِرَ أن سَيَمْنَعُها نَصِيرُ[(٢)]

يقول : وتيقَّنَتْ جَنابٌ وعامِرٌ بطونُ بنى كَلبٍ[(٣)] أنه سَيَذُبُّ عنها نَصِيرٌ ظَهِيرٌ ، ومُعِينٌ قَوِىٌّ . ويعنى بالنَّصير بنى التَّيْمِ . وجَعَلَ اللَّفْظَ نَكِرَةً ليكونَ أبلغَ فى تعظيم النُّصْرَة ، لأنّه أرادَ نصِيرٌ من النُّصّار ، أى كاملٌ فى معناه . وجَعَلَهُم كُلهم نَصِيرًا لا نُصّارًا . لاتفّاق كلمتهم وأهوائهم . وقوله «أنْ سَيَمْنَعُها» أن مُخَفَفَةٌ من الثقيلة ، واسمه محذوف ، يريدُ : أنّه سَيَمْنَعُها والسّين فى الفعل لئلاّ تلتبس المُخَفَّفة بالنّاصبة للفِعْل . والهاء الذى أظهرتَهُ ضَمير الأمر والشأن .

٤ — أَجَادَتْ وَبْلَ مُدْجِنَةٍ فدَرَّتْ عليهم صَوْبَ سَارِيةٍ دَرُورُ[(٤)]

---

(١) المرزبانى : « تحابت » .

(٢) ابنى جنى : « ويروى وعامر ، عطفاً على القبائل . ولم يصرف عامر لأنه عنى بها القبيلة ... وقد يجوز أن تكون الرواية : وعامرٍ أن ، على تخفيف الهمزة وإلقاء حركتها على تنوين عامر » .

(٣) التبريزى : « وقال أبورياش : يعنى عامر الأجدار ، وهم بطن عظيم من كلب ، وإنما لقب بالأجدار لأنه ولد فى أصل جدار ، وهو أخو عامر بن صعصعة لأمه . وجناب بن هبل بن عبد الله من كلب » .

(٤) التبريزى : « ويروى : صوب سارية — يعنى بالرفع — قال أبو رياش : أنت صوب لأنه أراد الدفعة » . وقد نبه إلى هذه الرواية ابن جنى ، بل جعلها الرواية الأولى .

يُقالُ : هذا يَوْمُ دَجْنٍ ، أى يَوْمُ إلباس غَيمٍ . والدُّجُنَّة : الظُّلمة ، وليلةٌ مِدْجَانٌ . فيقول : أتت سحابَةُ الجيش بمَطرٍ جَوْدٍ ، فوبَلَتْ وَبْلَ مُدْجِنَةٍ — أى سَحَابَةٍ لها ظَلامٌ ، لكثافتها وقُرْبِها من الأرْض — فَصَبَّتْ عليهم المَنايا درَّ سَارِيَةٍ ، أى سَحَابَةٍ تَسْرِى لَيْلاً . والدَّرُور ، هى الكثيرة الدَّرّ . ويرتفع على أنّه فاعل دَرَّتْ . وصَوْبَ مَصْدَرٌ من غير لَفْظِه ، كأنَّه قال صَابَتْ دَرُورٌ صَوْبَ سَارِيَةٍ . وجَعَلَ ما فى العَجُز من هذا فى مقابلة ما فى الصدر ، من قولِه « أجادَتْ وَبْلَ مُدْجِنَةٍ » كأنه قال : أجادت الخيلُ وَبْلَ مُدْجِنَةٍ فدَرّت درور الموت دَرَّ سارية ، فالسَّارية بإزاء المُدْجنة لا غير . وكلُّ ذلك مَثَلٌ لتكثير الشَّر ، وتفْظيع البلاء والقتل . وفى هذه الطَّريقة قول النابغة :

ومُعَلِّقِينَ على الجِيَاد حُلِيَّها حَتَّى تَصُوبَ سَمَاؤهم بقِطَارِ

وذكر بعضهم أنّ أجادَتْ ودرّت فِعْلاَن جُعِلا للدَّرُور ، فهو كما يُقال قَامَ وقَعَدَ زَيْدٌ . قال : والدَّرُور : حَرْبٌ تَدُرُّ بالدِّماء . ويُقالُ : جادَتْ وأجادت بمعنًى واحدٍ ؛ والمُرادُ جادَتْ دَرُورٌ فَدَرّت عليهم كوَبْلِ مُدْجِنَةٍ ، وكصَوْبِ سَارِيَةٍ . والأوّلُ أقْرَبُ وأكشف وأصَحّ .

٥ — فوَلَّوْا تَحْتَ قِطْقِطِها سِرَاعًا تَكُبُّهُمُ المُهَنَّدَةُ الذُّكُورُ

يقول : انهزَمَت حِمْيَرُ مُسْرِعين تحت صِغَار البَرَدِ ، ولم يصبروا إلى كِبَاره ، والسُّيوفُ الهِنْدِيّة تَسْتَقِطُهُمْ لوجوههم . ويُقالُ هَنَدتُ السيفَ ، إذا نسَبْتَهُ إلى الهِنْدِ . وقال أبو عمرو : وهَنَّدتُ السَّيف ، إذا أحْدَدْتَهُ . وذكر الدُّرَيْدِى فى القِطْقِطِ أنّه ضَرْبٌ من المَطَرِ ، ولم يَحُدَّهُ . وموضِعُ « تَكُبُّ » نَصْبٌ على الحال ، وما قَدّمناه فى القِطْقِطِ قول الخليل .

١١٥

وقال جَزْءُ بن ضِرَارٍ[١] :

١ – أَتَانِي فَلَمْ أُسْرَرْ بِهِ حين جَاءَنِي حَدِيثٌ بأَعْلَى القُنَّتَيْنِ عجيبُ

تقديره : أتانى حديثٌ عجيب بأعلى القُنَّتَين[٢] ، فلم أُسْرَرْ به حين جاءنى . وإنما استَعْجَبَ من الحديث لتَضَمُّنِه ما كَرِهَهُ ، فكان يَرُدّه بما يَقْوى فى أَمَلِهِ من ضِدّه . وقد اجتمع فِعْلَانِ أتانى وجاءنى ، فأعمل الأول . ومثله قول الآخَر[٣] :

ولَمْ أَمْدَحْ لأُرْضِيَهُ بشعرى لَئِيماً ....[٤]

٢ – تَصَامَمْتُهُ حَتَّى أَتَانِي يَقِينُه وأَفْزَعَ منه مُخْطِئٌ ومُصِيبُ[٥]

تصامَمْتُه ، أراد تصاممت عنه ، حتّى أتانى يقينه ، أى الجليُّ الواضحُ منه . وأفْزَعَ يجوز أن يكون معناه صَادَفَ الفَزَعَ فلا يقتضى مفعولا ، ويجوز أن يكون أفْزَعَ الغَيْرَ فيكون مفعوله محذوفاً . ومعنى البيت : تكلّفتُ الصمم عن

(١) جزء بن ضرار ، أخو الشماخ بن ضرار ، قال ابن حجر فى الإصابة ١٢٨١ : « ذكره المرزبانى فى معجمه وقال : هو شاعر مخضرم . وهو القائل يرثى عمر بن الخطاب :

جزى الله خيراً من أمير وباركت يد الله فى ذاك الأديم الممزق » .

وانظر الأغانى (٨ : ٩٨) .

(٢) التبريزى : « القنتان : جبل أسود مشرف بعض الإشراف » .

(٣) هو ذو الرمة كما فى التنبيه لابن جنى .

(٤) تمامه كما فى التنبيه :

* لئيما أن يكون أصاب مالا *

وعند التبريزى : « أن يقال أصاب » .

(٥) جعل التبريزى الرواية الأولى عنده : « وأفرع » بالراء المهملة ، وقال : « وأفرع معناه صادف الفرع ، وإذا كان هكذا فلا يقتضى مفعولا . ويجوز أن يكون معناه أفرع الغير ، فيكون مفعوله محذوفا » .

ذلك الخبَر حتّى جاء ما لم يمكن رَدُّهُ ، لـكونِ الشُّبَهِ[١] منتفيةً عنه ، واتفق المخطئُ والمصيب على تصحيحه ، وصادَفَا الفزَعَ فيــه ، أو أفزَعا الغير منه .
ومثل قوله « تصامته » فى انحذاف حرف الجرّ[٢] منه قول الآخَر :

* وأخى الذى لولا الأُسى لقضَانى[٣] *

يريد : لقَضَى علىّ . وفى القرآن : ﴿ وإذا كَالُوهم أو وزَنُوهُمْ ﴾ ، يريد كالُوا عليهم أو وزنوا عليهم . وأضاف اليقين إلى ضمير الخبر لأنه يريد المُتيَقَّنَ منه .

٣ـ وحُدِّثتُ قَوْمِى أَحْدَثَ الدهرُ فيهم وَعَهْدُهُمُ بالحادثاتِ قَرِيبُ

٤ — فإنْ يَكُ حَقًّا ما أتانى فإنَّهُمْ كِرَامٌ إذا ما النَّائباتُ تَنُوبُ

قوله « حُدِّثت » يتعدى إلى ثلاثة مفاعيل ، فالأول قام مَقامَ الفاعل وضميره التاء ، والثانى قومى ، والثالث أَحْدَثَ الدهر فيهم أَحْدَاثاً . وكما قال الآخر[٤] :

* وإن تُـكَلِّمْكَ تَبْلَتِ[٥] *

يريد تَبْلتْ كَلامَها . ويجوز أن يكون أَجْرَى قولَهُ « أَحْدَثَ الدَّهْرُ فيهم » مَجْرَى نَـكَى الدَّهْرُ فيهم ، فاستغنى عن المفعول . وقوله : « وعَهْدُهُم بالحادثات قريب » يجوز أن يكون من جملة ما بُلِّغ وأُنْبِئَ به ، ويجوز أن يكون الواو للحال ، كأنه نَـكَى الدهرُ فيهم وحالُهم قُرْبُ العهدِ بحوادِثِه ، ويجوز أن يكون جارياً مجرى الاعتراض بين ما قبله وما بعده ، وحقيقة معناه تصديقه لما خُبِّر به ،

(١) م : « الشبهة » .
(٢) م : « بحذف حرف الجر » .
(٣) لرجل من بنى كلاب ، كما فى الكامل ٢١ ليبسك . وصدره :
* نحن فتبدى ما بها من صبابة *
(٤) هو الشنفرى . المفضليات (١ : ١٠٧) .
(٥) البيت بتمامه :
كأن لها فى الأرض نسياً تقصه على أمها وإن تكلمك تبلت .

وأنّ قومَه من الكِرام الذين لا يَسْلَمُون على الدَّهر ، بل يُولَعُ بالتأثير فيهم كما قال :

أَرَى الدَّهرَ يَعْتَامُ الكِرامَ ويَصطفِي عَقِيلةَ مَالِ الفَاحِشِ الُمتَشَدِّدِ[1]

وإذا عُزِلَ هذا الاعتراض يكون الكلام : وحُدِّثْتُ قومى أَحْدَثَ الدَّهر فيهم ، فإنْ يكُ حقًّا ما أتانى . ومعنى البيتين : أُنبئْتُ أنّ قومى نَكَى الدهر فيهم ، وحَمَل أثقالَهُ عليهم ، فإن كان ما بُلغتُ حَقًّا من إخناء الدهر عليهم ، وسوء تأثيره فيهم ، فإنَّ أخبارَهم كريمةٌ فى النَّوائب إذا نابتهم ، ونفوسَهم عزيزة تَأْبَى الانقياد لما لا يَحْسُنُ ، والمطَاوَعَةَ فيما يَشِين ولا يَزِين . وجواب « فإن يَكُ حَقًّا » ما دَلَّ عليه قولُه فإنَّهم كِرَامٌ ، لأنَّ معناهُ فإنهم يَصْبِرُونَ صَبْرَ الكِرَامِ . ومثْلُه قوله تعالى : ﴿ إنْ تُعَذِّبْهُمْ فإنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ ؛ لأنَّ المعنى : فإنّك تملكُهم وتَقْدِر عليهم .

٥ — فقيرُهُمُ مُبْدِى الغِنَى وغَنِيُّهم لَهُ وَرَقٌ للسائلين رَطِيبُ

يقول : محتاجُهم متجمِّلٌ ، وبما لا تنالُه مَقْدُرته ولا يَنْهَضُ وُسْعُه متكثِّرٌ ، وظاهِرُه الغِنَى اكتفاءً بما يملِكُهُ ، وتَصَنُّعاً لمن يَرْمُقُه ؛ وغنيُّهم له إفْضَال على العُفاةِ ، ومعروفٌ عند السؤَّال ، يَحْيَوْنَ فى جَنَابِه ، ويعيشون فى كَنَفِهِ وظلاله . وقولُه « له وَرَقٌ » مَثَلٌ ضَرَبه للنَّدَى ، وأصله هاهنا ورق الشَّجَر ، وبه عَيْشُ المال : الإبلِ والغنم . وإذا لم يمنَعوا من الوَرق عاشَ النّاسُ فى فِنائهم . هذا الأصل ، ثمّ يتمثَّلُ به بَعْدُ لِغَيْرِهِ من ضروبِ المنافع ، ووجوه المرازئ . وسلكَ فى هذه الاستعارة والتمثيل مَسْلك زهير حيث يقول :

وليس مانعَ ذى قُرْبَى ولا رَحِمٍ يَوْماً ولا مُعْدِماً من خابِطٍ وَرَقَا

---

(١) البيت لطرفة فى معلقته .

ويقال : وَرَّقَتِ[1] الشّجرةُ وأَوْرَقَت، وشجرة وَرِيقَةٌ ، إذا كَثُر ورقُها والوِراقُ : زَمنُ خروجِ الوَرَق ، كالصِّرَام والجِدَاد .

٦— ذَلُولٌ لهم صَعْبُ القِيَادِ وصَعْبُهُمْ ذَلُولٌ بِحقِّ الرَّاغِبِين رَكُوبُ[2]

يقولُ : مَن كان سَهْلَ الجانب منهم تراه متعسِّرًا إذا سِيمَ الضَيْمَ ، مُتصَعِّبًا في الْتِزام الظُّلْم والجوْرِ ؛ والأبىّ الخشِنُ الخُلُق منهم مُعْتَرِفٌ بحقِّ الراغبين ، يُرْكَبُ به ولا يَمنَعُ ، ويُقَادُ له ولا يَأبَى . وقولُه رَكُوبٌ ، هو فى معنى مفعول هاهنا . والذَّلُولُ : الوطِيء الظَّهر ، والذُّلّ والذِّل يَرْجعان إلى السُّهولة والوَطاءة ، وإنْ كان كلٌّ تفرَّد بمعنًى يتميّزُ عن صاحبه بما يُضادّه . ألا ترَى أنّ ضِدَّ الذُّلّ بالضم العِزّ ، وضد الذِّل بالكسر الصُّعُوبة .

٧— إذا رَنَّقَتْ أَخْلاقَ قوْمٍ مُصِيبَةٌ تُصَفِّى بها أَخْلاقَهُم وتَطِيبُ[3]

يقول : إذا كَدَّرَتِ المصائب أخلاق الناس فتغيّرتْ ، حتى لا يصير عليها تَحْمِل ، ولا إليها من النوائب مَلْجَأٌ ، فإن أخلاقَ هؤلاء تُصَفَّى بها [ولها[4]] وتطِيب عند تَحَامُلها ؛ كأنهم كلما ازدادوا امتحانًا بالدهر ازدادوا طَلاقَةً وهَشَاشَةً ، ولِينَ مَعْطِفٍ ولُدُونةً ، ونُهُوضا بالاعباء ، وصَبْرًا لدَى اللأْواء . ويقال ماء رَنقٌ ورَنْقٌ ، وما فى عيْشِه رَنقٌ أى كَدَر .

٨— ومن يَغْمُرُوا منهمْ بفَضْلٍ فإنَّهُ إذا ما انْتَمَى فى آخرِينَ نَجِيبُ

أَصْلُ الغَمْر التَّغطية ، ومنه قولهم : دخَل فى غُمَار الناس . والنَّجيبُ : الكريم من الناسِ والخيلِ والإبل ، ولذلك قيل للمختار من كلِّ شيء المُنْتَجَب ، وقد نَجُبَ الرجُلُ نَجَابَةً ، وأَنْجَبَ : أَتى بأولادٍ نُجَباء . يقول : والمَغْمُورُ

(١) ضبط فى الأصل بتشديد الراء ، وفى م بفتحها فقط . وهما لغتان صحيحتان .

(٢) م : « لحق الراغبين » . (٣) التبريزى : « تصفى لها » . (٤) هذه من م .

الخاملُ منهم ، لظُهور الفضل عليه ، إذا انتَسَبَ فى قومٍ آخرين عُدَّ نَجيبًا . ومِثْله قولُ الآخر(١) :

يَسُودُ ثِنَانَا مَنْ سِوَانا وبَدْؤُنَا ... يَسُودُ مُعَدًّا كُلَّها ما تدافِعُهْ

وإن كان هذا زائدًا على ذلك . وحذَف مفعول « يَغْمُروا » لأنه لا يَلتَبِسُ . أراد ومن يَغْمُرُوه ، أى المفضول(٢) فيهم إذا انتمَى فى غيرِهم كان فاضِلا .

١١٦

وقال القُطامىّ(٣) :

١ — من يكُنِ الْحَضارَةُ أعْجَبَتْه ... فأَىَّ أُناسِ بادِيَةٍ تَرَانا

الحِضارةُ تُكسَر منه الحاء وتُفتح ، وكذلك البداوة تُكسر منه الباء وتُفتح . والُمراد بالحِضارة أهل الحِضارة ، فحُذِف الُمضاف ، يدُلُّ على ذلك قوله « فأىَّ أُناس باديةٍ » ، لأن التفضيل إنما يصحُّ بين الحضرِّيين والبدويِّين . وأىّ هذه تُضافُ إلى النَّكِرة ، ولا تُضاف إلى أكثر من الذى جَعَلْتَه خبرًا ،

(١) هو حجر بن خالد الثعلبى ، كما سيأتى فى الحماسية ١٧٠ .

(٢) فى الأصل : « المقصود » ، صوابه فى م .

(٣) القطامى ، بضم القاف وفتحها : لقب غلب عليه . قالوا سمى به لقوله :

يحطهن جانباً فجانبا ... صك القطامى قطا قواربا

واسمه عمير بن شييم التغلبى ، شاعر إسلامى مقل ، وله ديوان مطبوع . وكان قبل إسلامه نصرانيا ، وكان الأخطل يعجب به كثيراً . وكان يمدح زفر بن الحارث الكلابى لأنه كان أسره ثم من عليه ووهب له مائة ناقة ورده إلى قومه . الشعر والشعراء ٧٠١ — ٧٠٥ وابن سلام ١٢١ — ١٢٢ والاشتقاق ٢٠٤ — ٢٠٥ والمؤتلف ١٦٦ والمرزبانى ٢٤٤ — ٢٤٥ والأغانى (٢٠ : ١١٨ — ١٣١) والخزانة (١ : ٣٩١ — ٣٩٤ / ٣ : ١٨٨ — ١٩٠ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ .

(٤) م والتبريزى : « من تكن » بالتاء .

لأنك تريد صِفَتَه . ألا تَرَى أنك تقول مَرَرْتُ برجُلٍ أىّ رجل ، وأىُّ رجلٍ أخوكَ إذا جعلته خبرًا يكون مَخْرَج الكلام المَدْح والتعجُّب ، كأنك قلت : نهايةٌ فى الرجوليَّةِ أَخوكَ . فعلى هذا قوله فأىّ رجالِ باديَةٍ . فيقول : مَن أعجبَهُ رجال الحضَرِ ؛ فأىُّ رجالِ بَدْوٍ نحن ، إذا حُصِّلَتِ الرِّجال . والمعنى : أىُّ أُناسٍ نحن وإن كنّا من أهل البَدْو . والمراد التمدُّح والتعجُّبُ .

٢ ــ ومَنْ ربطَ الْجِحَاشَ فإنّ فينا قَنًا سُلُبًا وأَفْراسًا حِسَانَا[1]

يقول : ومن ارتَبَط الحُمُر واقتناها ، وكان عيْشُه منها ، فإنّا أربابُ الغَزو ، وآلاتُنا رِمَاحٌ طِوالٌ ، وخَيْلٌ رائقة عِتاقٌ . والجحشُ من أولاد الحُمُر كالمُهْرِ فى الخيل ، والجمع الجحاش والجِحَشَةُ . والسُّلُبُ : الطوال ، والواحد سَلوبٌ .

٣ ــ وكُنَّ إذا أَغرْنَ على جَنابٍ وأَعْوَزَهُنَّ نَهبٌ حَيْثُ كانَا

يقالُ : عَوِزَ الرَّجُل كذا عَوَزًا ، مثل عَدِمَ ، وأَعْوَزَهُ الدهر : أفقَرَهُ . وأعْوَزَ الرجلُ : ساءت حاله ، وهذا لا يَتعدَّى . يقول : كانت هذه الخيل إذا أغارت على ما حوْلَها من القبائل فبدَّدَتْ شَمْلَها ، وخَوَّفَتْ آمِنَها ، وصارت تأخذ حِذْرَها ، وتتقيها بالبُعْدِ عنها ؛ حتى أَعْوَزَها النَّهْبُ حيث كان النهبُ ، لمعاوَدَتِهم الغارة وقتًا بعد وقتٍ ، وإدامتهم إيّاها ، وإلحاحهم بها . وقوله « إذا أَغَرْنَ » ظَرْفٌ لقولِهِ أَغرْنَ من البيت الذى يليه ، وهو جوابٌ له ، والجملة خَبَرُ كُنّ .

٤ ــ أغرْنَ من الضِّبابِ عَلَى حُلُولٍ وضَبَّةَ إنَّه مَنْ حانَ حانَا

---

(١) أشار ابن جنى فى التنبيه إلى رواية « سلبا » بالتحريك . قال : « ومن روى سلبا وصفه بالواحد ، كقول الله سبحانه : من الشجر الأخضر ، وأعجاز نخل منقعر . ومن قال سلباً وصفه بالجمع ، كقول الله تعالى : وينشئ السحاب الثقال . وقد جاء الشعر بهما جميعاً ، وذلك فيما كان بينه وبين واحده الهاء » .

٥ — وأَحْيانًا على بَكْرٍ أخِينَا   إذا ما لم نَجِـــدْ إلاّ أَخَانا

الضِّبابُ يشتمل على ضَبَّةَ وضُبَيْبٍ ، وحِسْلٍ وحُسَيْل ، فلذلك سُمُّوا الضِّبَاب . يقولُ : أغارت على أقاربهم وعلى الخِلاَّت النازلة حَولَهم وفيهم ، لأنّ من قُدِّر له الحَيْنُ فقد أدركَهُ . والمعنى : إنهم لاعتيادهم الغَارة لا يَصْبِرُون عنها ، حَتَّى إذا أعوزَهُمْ الأباعِدُ عَطَفُوا على الأقارب . ألا تَرَى أنه تَمَّمَ ذلك بقولِهِ :

وأحيانًا على بَكْرٍ أخِينَا   إذا ما لم نَجِدْ إلا أخانا

وقوله : « إنّه من حان حانًا » يُسَمَّى الالتفات ، كأنّه التفتَ إلى إنسانٍ فقال : إنَّهُ من هَلَكَ بغَزْوِنَا فقد هَلَكَ . وقولُه « على بَكْرٍ » تَعَلَّقَ بفعلٍ مضمَرٍ دَلَّ عليه ما تقدَّم فيما قبله ، كأنَّه قال : وأحيانًا أغَرْنَ على بَكْر .

١١٧

وقال الأعْرَجُ المَعْنِيُّ[١] :

١ — أَرَى أمَّ سَهْلٍ ما تَزَالُ تَفَجَّعُ   تَلُومُ وما أَدْرِى عَلاَمَ تَوَجَّعُ

يقول : أرى هذه المرأة تتفجّع تارةً وتتوجّع أخرى ، تَعْتِبُ علىَّ وتلُومُ ، وما أدْرِى من أى شىء شَكْواها ، وفى أمْرٍ توجّهَ علىَّ عَتْبُها ، لأنِّى لا أتعاطَى مُنْكَرًا فاستحقَّ به ذلك : وقد مَرَّ الكلامُ فى عَلاَمَ وأشباهِهِ[٢] . وقولُه : « ما زال » يريدُ به اتِّصال تلك الحالة منها ، لأنَّ ما زال لدوام الماضى ، وما يزال هو مُسْتَقْبَلُ ما زال ، فيصير لامتداد الحال . فإن قيل : أليس زال ضِدَّ دام

---

(١) التبريزى : وهو رجل من الخوارج » . وذكره المرزبانى فى المعجم ٢٥١ ، وقال : « عدى بن عمرو بن سويد بن زبان الأعرج الطائى المعنى ، وقيل سويد بن عدى ، وهو مخضرم ، أدرك الجاهلية والإسلام » وذكره ابن حجر فى الإصابة ٣٧١٣ ، ٦٤٠٩ . وأنشدا له :

تركت الشعر واستبدلت منه   إذا داعى صلاة الصبح قاما
كتاب الله ليس له شريك   وودعت المدامة والندامى
وحرمت الخمور وقد أرانى   بها سدكا وإن كانت حراما

(٢) انظر ص ١٩٥ .

فكيف يُفِيدُ وهو للنَّفْى معنى الدوام ؟ قُلْتَ لمّا دَخَل ما النافِيةُ عليه تَغيَّرَ معناهُ إلى الإيجاب ، لأنّ نَفْىَ النَّفْىِ إيجاب ، فعاد إلى معنى الدّوام . وقوله : « تَلُومُ » فى موضع الحال ، أى تَفَجَّعُ لائمةً ، وقولُه : « وما أَدْرِى عَلَامَ » ، يريدُ وما أدرى ما يقتضى هذا السُّؤال .

٢ — تَلُومُ عَلَى أَنْ أُعْطِىَ الْوَرْدَ لِقْحَةً وما تَسْتَوِى والوَرْدَ سَاعَةَ تَفْزَعُ

يقول : تعيبُ علىَّ فى إيثارى فَرَسى الوردَ بلبن لِقْحَتِى — وهى النّاقة التى بها لَبَنٌ — وما تَسْتَوِى هِىَ مع الورد ساعة الفَزَع ووقت الغارة . وقوله « والوَرْدَ » منصوب على أنّه مفعولٌ مَعَهُ . يريد : لا تَسْتَوِى هى مع الورد . ولو أرادما تستوى هى وما يستوى الورد لم يكن يجوز إلاّ الرفع ، والعاملُ فى هذا المعمول[1] لا يعمل بتوسُّط الواو بينهما . وإذا أردت تجريد الفعل على ما يدلُّ عليه قوله تستوِى ، يكون تقديره إذا أظهرتَهُ عامِلاً فيه : وما تُساوى الوردَ . وعلى هذا قولُهم : استوى الماءُ والخَشَبةَ لأن المعنى سَاوَى الماء الخَشَبةَ . فإن قيل : كيف قال ولا أدرى عَلَامَ توجَّعُ ، ثم أتبَعَهُ بقوله تَلُومُ على أن أُعْطِىَ الورد لِقحةً ، وهل كذّبَ نفسه ؟ فالجواب أن قولَه ما أدرى إنكارٌ وتفظيعٌ للشّأن ، والمتضجِّرُ بالشَّىء يقول ذلك وإن كان عالمًا . وروى بعضهم « والوَرْدُ » بالرفع وكان الأجود أن يقول : وما تستوى هى والورد ، لأنّ عطفَ الظَّاهرِ على المُضْمَر المرفوع ضعيفٌ حتَّى يُؤَكَّدَ . ويكون المعنى : وما تَستوى أمُّ سَهْلٍ وفَرَسى فى ذلك الوقت ، لاختلاف غَنائهما ، ولأنَّ قُصَارى تلك الهرَبُ والدَّهَش ، وغَنَاء فرسى كونُهُ عُدَّةً للدِّفاع والذّبّ . والأوّلُ أجْودُ وأفصح وأسلم .

٣ — إذا هِىَ قامَتْ حَاسِرًا مُشْمَعِلَّةً نَخِيبَ الفؤادِ رأْسَهَا ما تُقَنَّعُ[2]

---

(١) م : « المفعول » . (٢) التبريزى : «رأسها ما يقنع »ثم أشار إلى الرواية الأخرى .

هذا بيانُ الحالِ ساعةَ الفزع ، وموضع إذا نَصْبٌ على أنه بَدَلٌ من ساعةَ تَفْزَعُ ، ويكون على ذلك قوله « هنالك يجزيني الذى كنت أصْنَعُ » من البيت الذى يليه مُنْقَطِعًا ، وإن كان بيانَ عِلّة إيثاره باللَّبن وانتفاء المساواة بينه وبين المرأة . والمعنى : ما تُساوِى هذه المرأةُ الفرسَ إذا هى قامت بلا قِناعٍ ، جادّةً فى العَدْوِ ، مَنْخُوبَةَ القَلْبِ ، طائرة اللُّبّ ، لا خِمار عليها ولا قِناع ، لدَهَشِها فى احتمارها ، وذَهابها عن عادتها وإلفها . وقوله « مشمعلةً » أى جادّةً فى العَدْوِ . وانتصبَ «رأسَها» لأنه مفعولٌ مقدَّمٌ . ويجوز أن يكون «إذا هى قامت» استئناف كلامٍ ، وحينئذٍ يكون جوابُ إذا قوله هنالكَ يجزينى الذى كنت أصْنَعُ .

٤ — وقُمْتُ إليه باللِّجامِ مُيَسِّرًا   هُنالكَ يَجزِينى الذى كنت أصْنَعُ

يقول : وقُمْتُ إلى فرسى فى تلك الحال ، مُهَيِّئًا له باللِّجام ، للدِّفاع والقتال . ثم قال : فى ذلك الوقت يجزينى ما أعامِلُه به السّاعةَ من إيثار باللّبَن ، وتضمير وصَنْعة . وقوله « مُيَسِّرًا » أى مهيِّئًا . وفى القرآن : ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ . هنالك إشارةٌ إلى الوقت ، ويستعمل فى المكان . ويقال هناك أيضا فيهما . والعامِلُ فيه هاهنا يجزينى .

١١٨

وقال حُجْرُ بن خالدٍ(١) :

١ — كَلْبِيَّةٌ عَلِقَ الفؤادُ بذِكرِها   ما إنْ تَزالُ تَرَى لها أَهْوالاَ

---

(١) التبريزى : « وقال حجر بن خالد بن محمود بن عمرو بن مرثد بن مالك بن ضبيعة ابن قيس بن ثعلبة » . وحجر شاعر جاهلى كان معاصراً لعمرو بن كلثوم ، وكان أنشد شعراً بين يدى النعمان بن المنذر ، فأحفظ عمرو بن كلثوم ، فلطمه عمرو فى مجلس الملك ثم اقتص منه حجر ، وأجار الملك حجراً ، فقال حجر ، أبياتاً يمدح بها النعمان ، رواها الجاحظ فى الحيوان (٣ : ٥٨) . وانظر الحماسية ٧١٨ .

يقول : عَلِق الفؤادُ بذكرِ امرأةٍ كلبيّةٍ ، لا تزال تُقاسى من أجْلِها أهوالاً ، وتتحمّل مَشَقّاتٍ . قولُه « عَلِق الفؤاد بذكرها » يجوز أن يكون أراد عَلِق ذكرُها بالفؤاد فقَلَبَ ، لأن المراد مفهومٌ ، ويكون كقول الآخر :

* عَلِقَ الأحشاءَ من هِنْدٍ عَلَقْ *

وكما يقال عَلِق بقلبِه عَلاَقَتُه . ويجوز أن يكون جَعَل الفؤادَ تابعًا للذِّكْر فكأنّه تعلَّق به . وكلُّ شيء وقَعَ موقِعَهُ قبل عَلِق معالِقَهُ . وجعل صدر البيت على الإخبار عنها ، ثمّ نقَل الكلامَ إلى مخاطبةِ نفسه . ويجوز أن يكون استمرَّ فى الإخبار عنها ويكون المعنى : عَلِقَهَا الفؤادُ فلا تزالُ هى تُقاسى أنت بسبَبِها أهوالاً . و « إنْ » من قوله « ما إنْ » زِيدتْ لتأكيد النفى .

٢ — فأقْـنَىْ حَيَاءَكِ لا أَبا لكِ إننى   فى أَرضِ فارِسَ مُوثَقٌ أحْوَالاَ

أقبل يخاطب المرأة فقال : الْزمى حياءَكِ ، أى لا تفعلى ما يُقالُ نُسِيَ الحياء معه وأُطُّرِحَ ، إننى محبوسٌ فى أرض فارسَ سِنِينَ لا أَبا لَكِ . وقولُه « لا أَبا لَكِ » بَعْثٌ وتحضيض ، وليس بنفْىٍ للأُبُوّةِ ، وخَبَرُ لا محذوف ، لأنّ المعنى لا أَبَاكِ ، ودخلت اللام مؤكِّدةً للإضافة ، لأنّ هذه إضافةٌ لا تُخَصِّصُ ، فساغَ تأكيدها باللام ، ولو كانت الإضافةُ مخصِّصةً لـكان لا يَعملُ فى أَبا لَكِ . وتقدير الخبر : لا أبا لك موجود . ويقال : قَنِيَ يَقْنَى ، واقْنَىْ : أَمْرٌ منه . وقنا يَقْنُو . قال المتلمِّسُ :

* كذلك أقْنُو كُلَّ قِطٍّ مُضَلَّلِ[1] *

وإنّما قال إننى مُوثَقٌ ولم يكن قد أُسِرَ وأوثق ، لِعلمه بما يُؤَول إليه فى

(١) صدره : * فألقيتها بالثنى من جنب كافر *

مَقْصَدِه أمْرُهُ ، كأنه لما وطَّنَ نفسه على ترك التَّحَامِي والاتّقاء علم أنّ أحْسَنَ العاقبتين فيه الأسر ، فذكره . ويكون هذا كقول الآخر :

* قد يَتِمَتْ بِنْتِي وآمَتْ كَنَّتِي *

فهذا وجْهٌ ، ويجوز أن يكون قال هذه الأبياتَ بعد الأسْرِ .

٣ — وإذَا هَلَكْتُ فلا تُرِيدِي عاجِزًا غُسًّا ولا بَرَمًا ولا مِعْزَالَا

ليس قَصْدُهُ فى هذه الوَصَاةِ إلى أن يَبْعَثَها على تَخَيُّرِ الرِّجال ، أو يرشدَها لوجوه الانتخاب(١) ، وإنما المراد : اطلبى مثلى . وهو يعلم أنَّها لا تظفر بمن يُماثله أو يقاربه . والغُسُّ : الضَّعيف . قال :

* فَطَعْنَةُ لا غُسٍّ ولا بِمُغَمَّرِ(٢) *

والبَرَم : الذى لا يَدْخُل مع القوم فى المَيْسرِ ، لضيق صدرِه وتبرمه بما يلتَزَمُ فى مثله . والمِعْزال : الذى لا يحمل السِّلاح ، ويتناهَى اعتزالُه ورَفْضُه إياه . والأعزلُ مثله . ومثل هذا قول ابن أحمرَ :

فإمَّا زَالَ سَرْجٌ من مَعَدٍّ وأَجْدِرْ بالحوادث أن تكونا
فَلاَ تَصِلِي بِمطْرُوقٍ إذَا ما سَرَى فى القومِ أَصْبَحَ مُسْتَكِينا
إذا شَرِبَ المُرِضَّةَ قال أوْكِى على ما فى سِقائِك قد رَوِينا

٤ — واسْتَبْدِلِي خَتَنًا لأَهْلِكِ مِثْلُه يُعْطِي الجَزِيلَ وَيَقْتُلُ الأَبْطالَا

يقال : اعتاضِى منِّى لأَهْلِكِ خَتَنًا مثلَ ذلك الختن ، يُعطِى عطاءً جَزْلاً ، ويقتُلُ الأبْطالَ بَطَلاً فبطلا . ومثله يرتفع بالابتداء ، وما بعدَهُ فى مَوضع الخَبرِ لَهُ ، والجملة فى موضع الصِّفة للخَتَن ، ولا يجوز نصب « مِثْلُه » .

(١) م : « الانتجاب » .

(٢) لزهير بن مسعود ، فى اللسان (غسس) . وصدره :

* فلم أرقه إن ينج منها وإن يمت *

٥ — غيْرَ الجَدِيرِ بأنْ تَـكُونَ لَقُوحَهُ   رَبًّا عليه ولا الفصِيلُ عِيَالَا

هذا أيضاً من صِفَةِ الخَتَنِ . يقول : لا يكون خليقاً بأن يكون مملوكاً لماله[1] لا مالـكاً ، ويَحُلُّ الفصِيلُ منه مَحَلَّ العِيال لا مَحَلَّ المال . وهذا كما قال الآخَرُ :

فَلَا واللهِ ما لَبَنِي بِرَبٍّ   ولا لَحْمِي عَلَيَّ ولا سِـلَائِي[2]

واللَّقُوحُ صِفةٌ ، يقال ناقةٌ لَقُوحٌ إذا كان بها لَبَنٌ ، وجمعُه لُقُحٌ قال الخليل : فإذا أرادوا استعمالها على حدِّ الأسماء قالوا لِقْحَةً ، يقال : هذه لِقْحَةُ فُلان ، للنَّاقة الحلوب — ولا يقال ناقَةٌ لِقْحةٌ — والجميعُ لِقَاحٌ .

١١٩

وقال ابن رُمَيْضٍ العَنْبَرِىُّ[3] :

١ — باتوا نِياماً وابنُ هِنْـــدٍ لم يَنَمْ

٢ — بَاتَ يُقَاسِيها غُـــلَامٌ كالزَّلَمْ

يقول : مَكَثَ النَّاسُ نائمِينَ فى ليلهم ، وهذا الرَّجل لم ينَمْ ، لأنَّه كان بَيَّتَ للغارة ، ثم قال « بات يقاسيها » ، أى يُعانى الغارة كيف يُوقِعُها ويُدَبِّرُها متى

(١) فى الأصل : « بماله » ، وأثبتنا ما فى م .

(٢) سبق البيت فى ص ٢٤٠ .

(٣) هو رشيد بن رميض ، بهيئة التصغير فيهما . فى الأصل : « ربيض » ، تحريف صوابه فى م والعنبرى ، كذا وقع فى نسختى المرزوقى ، والصواب « العنزى » ، نسبة إلى بنى عنز ابن وائل ، أو بنى عنزة . انظر تاج العروس (٥ : ٣٧) ، والأرجح أنه من بنى عنزة . انظر أمالى القالى (٢ : ١٢٦) وتحقيق اسمه فى حواشى الحيوان (٥ : ٤٣٤) وسمط اللآلى ٧٢٩ . وقال التبريزى : قال أبو رياش : هذه قالها فى غارة الحطم ، وهو شريح بن شرحبيل بن عمرو ابن مرثد ، أغار على اليمن فقتل وليعة بنى معديكرب ، أخا قيس ، وسبى بنت قيس بن معديكرب أخت الأشعث بن قيس ، فبعث الأشعث يعرض فى فدائها بكل قرن من قرونها مائة من الإبل ، فلم يفعل الحطم ، وماتت عنده عطشاً » .

يأخذ فيها، غُلامٌ مُدْمَجُ الخَلقِ خفيفٌ ثَقِفٌ مُشمِّرٌ، كأنه قِدْحٌ. يعني ابن هِنْدٍ. والزَّلَمُ بفتح الزَّاء وضمِّها: القِدْحُ كان يُسْتَقْسَمُ به. قال الله تعالى: ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾. ويجوز أن يكون المُضمرين فى باتوا المغارُ عليهم.

٣ — خَدَلَّجُ السَّاقَيْنِ خَفَّاقُ القَدَمْ

٤ — قَدْ لَفَّها اللَّيْلُ بِسَوَّاقٍ حُطَمْ

يصفه بأنَّه غليظ السَّاقَين، ولوطْئِه الأرضَ صَوْتٌ، ولقَدمه خَفْقٌ، وهو سُرْعَة الخَطْوِ مع ضَرْب الأرض بها، كأنَّه يشير بهذا إلى ثباته وقُوَّته فى العمل والسَّير، وشدَّة بلائه وصبْره على الكدِّ. وقوله «قد لفَّها» يريد الإبل. وجَعَل الفِعْل لِلَّيل على المجاز. والمعنى: جَمَعَها برَجُلٍ مُتناهى القُوَّةِ، عنيف السَّوْق، يَكْسِرُ الطرائد بَعْضًا[1] على بعضٍ، لقلّة رِفْقِهِ وكثرة عَسْفِه، ولأنَّه قليل الفِكْرِ فيها إذْ كانت حُصِّلَتْ بالغارة، فإن سَلِمَتْ فهى غُنْمٌ، وإن تَلِفَتْ فليستْ بغُرْمٍ، فالْعِوَضُ منها بالقُرْبِ. وقولُه «حُطَمْ» بناء للمبالغة، وهو من الحطمِ الكَسر.

٥ — لَيْسَ بِراعِى إِبِلٍ ولاَ غَنَمْ

٦ — ولا بِجَزَّارٍ على ظَهْرِ الوَضَمْ

يقول: لا يَرْفُق هذا الرجل بوَسائقه رِفْقَ الرُّعاةِ، ولا رِفْقَ الجزَّارِ، وذلك أن الراعى مُكْتَرٍ لاستصلاح مَرْعِيِّه، وحفْظ ما ضُمَّ إليه بجَهْدِه، والجزَّارُ لا يستَهْلِكُ مالَهُ ولا يَعْنُفُ عُنْفَ مَن لا يُبالِى به. وهذا صِفَةُ المِغْوار

(١) م: «بعضها».

القليل الفِكْر فى فَسَاد ما يَحْوِيهِ منها ، الذَّاهب عن استبقائها ، لا يبالى كيف استوسقت ، وعلى أىِّ حالةٍ تَحصَّلَتْ .

١٢٠

وقال جَعْفَرُ بن عُلْبَةَ الحارثىُّ[(١)] :

١ – ألا لا أُبالى بَعْدَ يَوْمِ بسَحْبَلٍ إذا لم أُعَذَّبْ أن يَجِىءَ حِمَامِيَا[(٢)]

يقول : اشْتَفَيْتُ من أعدائى يومَ سَحْبَلٍ – وهو اسم وادٍ – وأدركتُ آثارى[(٣)] عندهم فلا أُبالى بدُنُوِّ موتى بَعْدَهُ إذا لم يُعَذِّبْنى الله تعالى تبارك اسمُهُ ، إذ كنت نِلْتُ أُمْنِيَّتى ، وقَضيتُ مَآرِبَتى . والذى تناوَلَه قولُهُ « لا أُبالِى » هو أن يجِىء حِمَامِيَا . ويقال لا أُبالى كذا ولا أُبالى بكذا . وإذا لم أُعَذَّبْ ظَرْفٌ للا أُبالى ، أى لا أُبالى بالموت إذا سَلِمْتُ من عذاب الله عزّ وجلّ . وإنما أَتَى بإذا رجاءَ أن يكون الأمر كذلك . وقد مَضَى القوْلُ فى أُبالى وأصله وما استَقَرَّ عليه فى الاستعمال ، وأنّ قَوْلَهُم لا أُباليه بالَةً أصله عند سيبويه باليةً فخُفِّف . وقد ذهب غيرُه إلى أنها مقلوبة ، ويقول فى بالةٍ إنها فَعْلَةٌ ، وإن أَلفها منقلبة عن واو ، وأن أُبالى كان أُباوِل أى لا أُكاثر ، ثم وُضِع موضع لا أَحْفِلُ ولا أكْثرت . وللترجيح والنَّظر فى المسألة موضعٌ غير هذا .

٢ – تَرَكْتُ بِجَنْبَىْ سَحْبَلٍ وتِلاَعِهِ مُرَاقَ دمٍ لا يَبرحُ الدَّهرَ ثاويا

أخذ يقتصّ ما هوَّن عليه الموتَ من فِعْلِه ، فيقول : تركت بجانِبَىْ هذا الوادى

---

(١) سبقت له الحماسية الرابعة . التبريزى : « وقال جعفر بن علبة الحارثى حين لقى بنى عقيل » .

(٢) التبريزى : « يوم بسجل » .

(٣) الآثار : جمع ثار بالقلب ، ومثله الأثآر .

ومسايل مياهه مَصْوبَ دَمٍ ، يلزم ذلك المكان على مرور الأيام فلا يبرح . وقوله « ثاوِيَا » مِن ثَوَى بالمكان ، إذا أقام . يقال ثَوَى وأَثْوَى جميعا . وقوله « مُرَاقَ دَمٍ » يجوز أن يريد موضعا أُرِيقَ به دَمٌ ، كما يجوز أن يريد به دَمًا مُرَاقًا ، ولكنه إذا أريد به الموضع يكون لا يبرحُ من صفة الدّم ، ويجوز أن يريد به رجلاً أريق دمه ويكون كقولك هو حَسَنُ وجْهٍ . وذكر بعضُهم أن المراد مُراق دَمٍ لا يزال ذكرُه باقيا على الدَّهر لحذَف المضاف . والتِّلاع : جمع تَلعةٍ ، وهى أرضٌ مرتفعة يتردَّد فيها السَّيل إلى بطن الوادى . ومن الاستعارة الحسنة : فلانٌ لا يُوثَقُ بسَيلِ تَلْعَتِه ، إذا كان غير صَدوقٍ فى أخبارِه .

٣ — إذا ما أَتَيْتَ الحارثيات فانْعَنِى لهُنَّ وخبِّرهُنَّ أَنْ لا تَلاقِيا

هذا كلامُ رجل يوئسُ أحِبَّتَهُ من نفسه لاستقتاله ، أو لأنه مُنِيَ بما لم يَرْجُ الخلاصَ منه . فقال : إذا زُرْتَ نساءَ بنى حارثة فاذْكُرْ موتى لَهُنَّ ، وأعلمهنَّ أنه لا التقاء بينى وبينهن . فقولُه « أن لا تلاقِيا » أن مخفَّفَةٌ من أنّ الثقيلة ، واسمه مُضْمَرٌ ، وتلاقِيَا نَصْبٌ بلا وخَبَرُهُ محذوف ، المرادُ لا تلاقيَ لنا ، والهاء فى أنه ضمير الشأن والأمر ، والجملة خَبَرُ أنْ . وهذا البيت مع ما بَعْدَهُ لمالك بن الرَّيْبِ[1] فيما أظن ، وانضمَّا إلى أبيات جَعفر بن عُلبَةَ على سبيل الغلط .

٤ — وقَوِّدْ قَلوصِى فى الرِّكابِ فإنَّها سَتُضْحِكُ مَسْرُورًا وتُبْكِى بواكِيَا

يقول : وأَكثِرْ قَوْدَ ناقتى حالاً بعد حالٍ ، فإنّ الأعداءَ يَشْمَتُون إذا استدلُّوا بها ويضحكون سروراً ، والأصدقاء ذواتُ الشَّفقة يغتمُّونَ فيبكون توجُّعًا[2] . وهذا الكلام تحزُّنٌ وتحسُّرٌ . وقوله « ستُضْحِكُ مسروراً وتُبكى

(١) انظر الخزانة (١ : ٣١٧ — ٣١٩) . (٢) كذا فى النسختين .

بواكيا » من باب وصْف الشىء بما يؤول إليه ، ومثلُه قولهم : خرجَت جوارحُه . وقول الفرزدق :

* قَتَلْتَ قتيلاً لم يَرَ الناسُ مِثْلَهُ *

والقَلُوص ، قال الخليل : هى الناقة الباقية على السَّير ، لا تزال قلوصًا حتى تَبزُلَ(١) . وإنما سُمِّيت قَلُوصًا لطُول قوائمها ولم تَجْسُمْ بَعْدُ .

١٢١

وقال آخر(٢) :

١ ـ لَعَمْرِى لَرَهْطُ المَرْءِ خَيْرُ بَقِيَّةً عليهِ وإنْ عالَوْا به كلَّ مَرْكَبِ

خَبَرُ « لعَمرى » مُضْمَرٌ ولا يجوز إظهارُه ، وهو قَسَمٌ ، ولا يجوز أيضًا فيه إلاّ فتح العين ، ولَرَهْطُ جوابُه . والرَّهْطُ يقع على ما دون العشَرة ، ولهذا دَخَل عليه من الأسماء أسماء الآحاد فقيل ثلاثَةُ رَهْطٍ . ومثْله نَفَرٌ ، ولو كان يقع على الـكثير لما جاز لك فيه ألا ترى أنك لا تقول ثلاثُ إبلٍ . وانتصابُ « بقيّةً » على التمييز ، وموضع « وإن عالَوْا به » نَصْبٌ على الحال للرهط ، وجوابُ الشَّرط فيما دلّ عليه قولُه « خيرٌ بقيّةً » . وقوله « كلَّ مَرْكَبِ » يريدُ به كلّ مَرْكَبٍ مذمومٍ . وعالَيْتُ بفلان بمعنى أعايَيْتُه . ومعنى البيت : وبَقائى ، لَعِتْرَةُ الرّجلِ أحسنُ إبقاءً عليه ، وأكثرُ حشمةً له ، وإن أرْكبُوه مراكب صعْبَةً مكروهة ، وأنزلوه منازلَ حَزْنَةً مذمومةً .

٢ ـ مِنَ الجانبِ الأقصَى وإن كان ذاغنًى جَزِيلٍ ولم يَخْبُرْكَ مِثْلُ مُجَرِّبِ

تعلّق « من » بقوله خَيْرٌ بقيّةً ، لأنّ معناه أفْعَلُ الذى يَتِمُّ بمِنْ . يقول : هُمْ

---

(١) البازل : التى استكملت الثامنة وطعنت فى التاسعة .

(٢) هو خالد بن نضلة ، كما فى الحيوان (٣ : ١٠٣) والبيان (٣ : ٢٥٠) .

أَحْسَنُ إبقاءً عليه من الغريبِ الأبعَدِ ، وإن كان الرجل محتشما فى نفسِهِ غنيًّا ، ومُعَظَّماً مَهِيبًا . وقوله « وإن كان ذا غنًى » فى موضع الحال أيضاً . والجانب يرادُ به الجنْس لا واحِدٌ بعيْنِه . وقوله « ولم يُخبِرْكَ مثلُ مُجَرِّب » يجرى مجرى[1] الالتفات ، وهو توكيد للخبر الذى أورده ، وتحقيقٌ لما أنبأ به وشَرَحَهُ ، وأنَّ ما قالَهُ قالَهُ عن تجربةٍ وخبرةٍ ، لا عن سماعٍ وخَبَرٍ .

٣ — إذا كنتَ فى قوْمٍ ولم تكُ منهمُ ... فكلْ ما عُلِفْتَ من خبيثٍ وطيِّبِ

هذا الكلام تحذير من الاغترار بالأجانب ، والاستنامة إلى ناحيتهم ، وبَعْثٌ على طلَبِ موافقتهم وترْكِ الخلاف عليهم ، بعد الحصول فيهم ، وأنَّ استعمال الإدلال معهم ، والأخذ بالمضايقَةِ فى إيفائهم والاستيفاء منهم غيرُ واجبٍ . ويروى : « فى قَوْمٍ عِدًى لَسْتَ منهم » ويكون معنى لست منهم : وأنت لاتهوَى هواهُم . والعِدَى يقع على الواحِدِ والجميع ، يقال رجلٌ عِدًى ، وقومٌ عِدًى ، أى بُعُدٌ غرباء . وقوله « كُلْ ما عُلِفْتَ » مَثَلٌ . ومثله .

* ولا تَطْعَمَنْ ما يَعْلِفُونَكَ *

وكأنَّ العَلْفَ مختصٌّ بهذا المعنى ؛ فإنِّى لم أجدْه فى غيره .

١٢٢

وقال البُرْجُ بن مُسهِرٍ[2] :

١ — فَنِعْمَ الحَىُّ كَلْبٌ غير أنّا ... رأينا فى جِوَارِهِمِ هَنَاتِ

(١) فى الأصل : « مثل » وأثبتنا ما فى م والتبريزى .

(٢) هو البرج بن مسهر بن جلاس ، أحد بنى جديلة ثم أحد بنى طريف بن عمرو بن ثمامة بن مالك بن جدعاء بن ذهل بن رومان . وهو من معمرى الجاهلية . وكان قد جاور كلبا أيام حرب الفساد فلم يحمدهم . المؤتلف ٦١ وشرح التبريزى على الحماسة فى هذه المقطوعة . وانظر لحرب الفساد شرح التبريزى والأغانى (١١ : ١٢٧) والميدانى (٢ : ٣٥٨) .

هذا الكلام تهكُّمٌ وسخريَّةٌ . وجاز أن يأتى به بلفظ المدْح لأنه بما بَعْدَهُ تبيَّنَ الغَرَضُ؛ فيكون أبْلَغَ فى الهزْء . والهنَات : الأمور المنكرة ، ولا تُسْتعمل إلا فى الشَّرِّ[1] ، وهى جَمْعُ هَنَةٍ ، وإنما يُكْنَى بها عن المَحقَّرَات ، كأنّه يُرِى الإبقاء والمجامَلة ، ويُجرى الأمر على المَدَاجاة وترْكَ المجاهرةِ . وقد يُجْمَعُ هَنَةٌ على هَنَوَاتٍ ، فمن ردَّ اللام فى الجمع رَدَّهُ فى النِّسْبَة أيضاً ، ومن لم يَرُدَّهُ فهو فى النِّسبة بالخيار ، إن شاء قال هَنِيٌّ وإن شاء قال هَنَوِيٌّ . فيقول : قبيلة كلبٍ محمودةٌ فى الأَحْيَاءِ ، غيرأنّا مُنِيناَ فى جوارِهِمْ بدواهٍ وبُلِينا بمُنْكَرَاتٍ . والاستثناء فى هذا المكان يكون منقطعاً . وكان فارَقَ قومَهُ طَيِّئًا مُرَاغِمًا وجاوَر كلْبًا فلم يَحْمَدْ جِوَارَهُم ففارقهم ذامًّا لهم .

٢ ــ ونِعْمَ الحيُّ كَلْبٌ غيْرَ أَنَّا رُزِينَا من بَنِينَ ومن بَنَاتِ

يريد مثلَ ما أرادَ فى البيت الأول من السخريَّةِ . ومعنى رُزِينَا : أُصِبْنَا ببنين وبَنَاتٍ . ويقال فلانٌ مُرَزًّأٌ فى مالِه فيكون مَدْحًا ، وفلانٌ مرزًّأٌ فى أهْلِه فيكون تَرَحُّمًا وتوجُّعًا . ومثل هذا التهكم قول الآخر[2] :

فِدًى لِسَلْمَى ثَوْبَايَ إِذْ دَنِسَ الْـ قَوْمُ وَإِذْ يَدْسُمُونَ مَا دَسِمُوا

فالتَّفْدِيةُ هاهنا كالمدح بنِعْمَ ثَمَّ . وقوله « من بنينَ » مِنْ دَخَل للتَّفْضِيل ، كأنَّه قال : رُزِينَا أناساً من بنينَ ومن بنَاتٍ ، ومفعولُ رُزِينا محذوف ، ويجوز أن يكون زاد مِنْ فى الواجب على ما أجازه الأخفش وحكاه عنهم من قولهم : « قد كان من مطرٍ نَخلِّ عَنِّى[3] » ، فيكون المرادُ رُزِينا ببنين وبَنَاتٍ .

---

(١) ذكر التبريزى أن بعض المحدثين ، قد استعملها فى الخير ، وهو قوله :

وعشرة محمودة تحتها مساعدات وهنات عذاب

(٢) هو الجميح الأسدى . المفضليات (١ : ٤٠) .

(٣) كذا فى م . وفى الأصل : « على ما أجازه الأخفش وحكاه عنه كان من مطر » ، وفيه تحريف ونقص .

٣— فإنَّ الْغَدْرَ قد أَمْسَى وأَضْحَى مُقِيماً بَيْنَ خَبْتَ إلى الْمَسَاتِ[١]

يقول زاريًا عليهم ومبيِّنًا : إنهُ نالَهُم ما نالَهُم لأن الغَدْرَ مُقيمٌ فيما بين ديارهم ، ومما انطَوَى عليه أحشاؤهم : وفائدة قوله أَمْسَى وأَضحَى بيانُ اتصالِ الوَقْت . وقوله « فإنّ الغَدْر » الفاء رَبَطَ الجُملةَ التى بعدَها بما تقدَّم ورتَّبَها عليه ، كأنه قال : قاسَوْا ما قاسَوْهُ فى جِوارِهم فإنَّهم غادرونَ . وخَبْتٌ والَمسَاتُ : ماءَانِ لـكَلْبٍ . يقولُ : الغَدْرُ مُقيمٌ فى كَلْبٍ بين هٰذين ، أى فى أوَّل ديارِهم وآخِرِها .

٤— تَرَكْنا قَوْمَنَا من حَرْبِ عَامٍ أَلَا يا قَوْمِ للأَمْرِ الشَّتَاتِ

هذا الكلام اقتصاصٌ لحالِهِ ، وإظهارٌ للتأسُّفِ على مجاوَرَةِ كلبٍ ، والتندُّم على ما اتَّفق من مفارقة العشيرة : وقوله « يا قومِ للأَمرِ الشَّتَاتِ » تعَجُّبٌ . والشَّتاتُ : مَصْدَرٌ وُصِفَ به . واللام فى الأمرِ لام الإضافة ، لـكن فائدته ما ذكرناهُ من التعجُّب ، وأُتِىَ به مع المَدْعُوِّ . وقد يقالُ يا لَزَيْدٍ فيكون المُنادَى محذوفًا . وهذه اللام تدخل مفتوحةً فى المُنادَى ويُراد به الاعتزاء[٢] ، كقولك يا لَبَكْرٍ ويا لَتَمِيمٍ . فيقول : انتقلنا عن قوْمِنا وفارقناهُم مُذ زمن الحرْبِ التى اتّفقت بيننا عامًا أوّلَ . ثمّ أخذ يستعطفهم ، ويتذمَّمُ من مراغمتهم ، ويُظهر الحاجةَ إليهم فقال : يا قوْمِ أَقبِلُوا لما تشتّت من أمرِنا ، واختلّ من حالِنا . وقولُه « من حَرْبِ عامٍ » جعَلَ مِن بَدَلَ مُنْذُ ، لأنه فى المكان مثلُه فى الزمان ، كما قال زُهَيْرٌ :

(١) المسات ، كذا ضبط فى النسختين بفتح الميم ، وضبطه ياقوت بضمها .

(٢) الاعتزاء : الادعاء والانتماء فى الحرب ، ومثله التعزى . وفى الحديث : « من لم يتعز بعزاء الله فليس منا » . أى من لم يدع بدعوى الإسلام فيقول يالله أو ياللإسلام أو ياللمسلمين » .

* أَقْوَيْنَ مِن حِجَجٍ ومِن دَهْرِ(١) *

٥— وأَخْرَجْنَا الأَيَامَى من حُصُونٍ بها دارُ الإقامةِ والثَّباتِ

يقول: أَخْرَجْنا النِّساءَ اللاتى صِرْنَ أَيَامَى من مقرِّ عزِّهِنّ، ودار أَمْنِهِنّ، إلى جِوَارِ كَلْب، حتى اتّفق عليهنّ من الأعداء ما اتّفق، ومن حُلولِ الرَّزايا ومقاساةِ الهَنَاتِ بهنَّ ما أَقْلَق. وَوَصَفَ النِّساء بما آلَ إليه أَمرُهُنَّ من الإيمَةِ، وإنْ كُنّ وقت الإخراج ذوَاتِ بُعولٍ. ومثْلُه قولُ الآخَر(٢):

* ستُضْحِكُ مسْرُورًا وتُبْكِي بَوَاكِيا(٣) *

وفى القرآن: ﴿ إنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾. وأَيَامَى: جمع أَيِّمٍ، ويقع على الرجُل والمرأة. والفِعل منه آم، أى بَقِيَ بلا زَوْجٍ. وهو من الفِعل فَيْعِلٌ، وجَمْعُهُ أَيايِم على فياعل. وأَيَامَى مقلوبٌ كأنه قُدِّمَ اللامُ على العين فصار أَيَامِي على فيالِع، ثم فرّوا من الكسرة وبعدها ياء إلى الفتحة، فانقلبت أَلِفًا.

٦— فإن نَرْجِعْ إلى الجَبَلَيْنِ يَوْمًا نُصَالِحْ قَوْمَنَا حتى المَمَاتِ

هذا إظهارُ رَغْبَةٍ فى الرُّجوع إلى العشيرة، ومعاودة الوَطنِ والمحَلَّة. يقول: إن اتَّفَق لنا عَوْدَةٌ إلى بلادنا تركْنا الخِلافَ على ذَوِينا، وأقمنا بها إلى انقضاء الأجل، واستنفاد المَهَل. ويعنى بالجَبَلَيْن أجأ وسَلْمَى: جَبَلَيْ طيّئ(٤). وقوله «حتّى المَمات» أراد به إلى حين المَمات، فحذَفَ المضافَ. والمَماتُ يكونُ مصدراً، وإن جعلْتَه اسْمًا للحِين فلا حذْف.

---

(١) صدره كما فى الديوان ٨٦ طبع دار الكتب:

* لمن الديار بقنة الحجر *

(٢) هو مالك بن الريب. الأمالى (٣ : ١٣٨) والخزانة (١ : ٣١٩). وانظر الأغانى (١١ : ١٤٢).

(٣) صدره: * وعطل قلوصى فى الركاب فإنها *

(٤) وكان أجأ لبنى ثعل، وسلمى لبنى نبهان.

١٢٣

وقال موسى بن جَابِرٍ[(١)] :

١ — لا أَشتَهِي يا قَوْمِ إِلَّا كَارِهًا   بَابَ الأميرِ ولا دِفَاعَ الحاجِبِ

يصفُ بهذا الكلام مَيْلَهُ إلى البَدْوِ ، وتفضيلَهُ رِجالَهُ على رِجالِ الحضَرِ ، فيقول : لا أتمنَّى ورودَ بابِ الأمراء ، ومُدافعةَ الحُجّاب ، ولا أعلِّقُ شَهوتِي بهما إلا على كَرْهٍ وعن داعيةٍ عارِضَةٍ ؛ إذ كُنْتُ أَلِفْتُ الصَّحَارِي والبَرَارِي ، وصاحَبْت بها مَن لا تملكني معه حِشْمَةٌ ، ولا يَصُدُّنِي دونَهُ عِزَّةٌ . وانتصب « كارِهًا » على الحال .

٢ — ومن الرِّجَالِ أَسِنَّةٌ مَذْرُوبَةٌ   ومُزَنَّدُونَ شُهُودُهُمْ كالغائِبِ

يقولُ : مِن الرجالِ رجالٌ كالأسِنَّةِ المطْرورة ، أي يمضون فى الأمور ويفصِلونها نفاذَ الأسِنةِ ؛ ومنهم مزنَّدون . والمُزَنَّد : المُبَخَّل المُقَلَّل . وقيل الزَّنْد ضُرِبَ به المثل فى القِلّة . يقال : « زَنْدانِ فى مُرَقَّعَةٍ[(٢)] » ، ثم قيل هو مُزَنَّدٌ مشتقًّا منه . وقولُهُ « شهودُهم كالغائب » أى لا غَنَاء عندهم ، ولا دِفاعَ بهم ، لحضورهم كغيبتهم . وأراد بالغائب الكثرةَ لا التَّوحيد . وكان من حقِّ التقسيم أن يقولَ :

---

(١) هو موسى بن جابر بن أرقم بن مسلمة بن عبيد الحنفى اليمامى ، شاعر نصرانى جاهلى كثير الشعر ، فيما ذكر الآمدى والمرزبانى ، وكان يلقب أزيرق اليمامة ، ويعرف بابن ليلى وهى أمه . وكان يقال له أيضاً : ابن الفريعة ، كما يقال لحسان بن ثابت . وقال أبو العلاء فيما نقله عنه التبريزى : « موسى منقول من العبرانية ، ولم أعلم أن فى العرب من سمى موسى زمان الجاهلية ، وإنما حدث هذا فى الإسلام لما نزل القرآن وسمى المسلمون أبناءهم بأسماء الأنبياء على سبيل التبرك » . وقول أبى العلاء هذا معترض بما ذكره المرزبانى فى معجمه ٣٧٦ . وانظر المؤتلف ١٦٥ .

(٢) انظر ما سبق فى ص ١٨٠ .

ومنهم مزنَّدون ، لكنه اكتفى بمِن الأوَّل . ومثلُه قول الله تعالى : ﴿ منها قائمٌ وحَصِيدٌ ﴾ . وسمعتُ أبا عليٍّ الفارسيَّ رحمه الله يقول : كلُّ صِفتَيْن تتنافيَان وتتدافعان فلا يصحُّ اجتماعهما لموصوفٍ لا بُدّ لإضمار مِنْ مَعَهُما إذا فُصِّل جُملةً بهما ، متى لم يجئْ ظاهرا ، ثم أنشَدَ :

وما زَوَّدوني غيْرَ سَحْقِ عَبَاءَةٍ وخَمْسِ مِئٍ منها قَسِيٌّ وزائفُ[1]

وقال : يريد ومنها زائف . وهذا كما تقولُ زَيْدٌ مُنْطَلِقٌ وعَمْرٌو ، والمعنى وعَمْرو منطلق ، لحذف اكتفاء بالخبر عن الأول ، وعلْماً بأنّ المنعطف ذلك حَاله . قال : فإن أمْكن اجتماعُ الصِّفتين لموصوفٍ واحد استُغنِي عن إضمار مِن ، ذلك كقولِك صاحباك منهما ظريفٌ وكريمٌ .

٣ – مِنْهُمْ لُيُوثٌ لا تُرَامُ وبَعْضُهم مِمَّا قَمَشْتَ وضَمَّ حَبْلُ الحاطِبِ

يقول : من الرجال رجالٌ كالأُسود عِزَّة وأَنَفَةً ، لا يُطلب اقتسارهم واهتضامُهم ، ومنهم متقارِبون كالقُماش واللفائف ، جُمِعُوا على ما اتَّفق من شيء إلى شيء . كأنَّه لم يُقْنِعْه ذلك التشبيه وتلك القسمة ، فاستأنفهما على وجهٍ آخر . وقولُه « وبعضهم مما قَمَشْتَ » ينوب فيه ذكر البعض عن قوله « ومنهم » ، لأنّ مِن للتبعيض فاستغنى به . وقوله « وضمَّ حبلُ الحاطبِ » كقول الآخر :

* وكلُّهُمْ يَجْمَعُهُمْ بَيْتُ الأَدَمْ[2] *

قال الأصمعيّ : لأنّ بيتَ الأَدَم يجمع الجيِّد والرديء ، على تقارب بينهما ، ففيه من كل جِلْدٍ رُقْعَةٌ . وكذلك الحاطب يجمَعُ في حبله[3] الجيّد والرديء ،

(١) البيت لمزرد ، كما في اللسان (سحق ، قسا ، مأى) .

(٢) قبله في اللسان (أدم) :

* الناس أضياف وشتى في الشيم *

(٣) في الأصل : « صدره » ، صوابه في م والتبريزى .

والرَّطب واليابس ، على تدَانٍ بينهما . فإنْ قِيل : وما الفائدة فى إعادة التَّقسيم والتشبيه ؟ فالجواب أن يقال : كأنهُ صَنّفهم(١) فى الأولى من حيث اختلفوا عنده فى الأعمال والأخلاق ، وعلى توهُّمِ تباعدٍ بينهم ، بدلالة قوله من الرِّجال أَسِنَّةٌ ومنهم مزنّدُون لا يُعْتَدُّ بحضورهم . وبين الصفتين تفاوتٌ عظيم ، وتباينٌ شديدٌ . وصَنَّفَهُم فى الأخرى من حيث اختلفوا فيها على توهُّم تقارُبٍ بينهم ؛ لأنّ فيمن يُقْمَشُ من لا يبُاينُ المباينةَ الفاحشة ، ولا يُخالِفُ المخالفةَ المنكرة .

١٢٤

وقال آخر :

١ ــ أقولُ لنفسى حين خَوَّدَ رَأْلُهَا مكانَكِ لَمّا تُشْفِقِى حين مُشْفَقِ

يقال : خَوَّدَ رَأْلُه ، للمذعور المرتاع : والرَّأْل . فَرخ النَّعام . وهذا مَثَلٌ . والتخويد : ضَرْبٌ من السَّيْر سريع . والتَّخويد والوَخْد والخَدْىُ متقاربةُ المعنى ، فى أنها تفيد ضروبًا من المْشى ، ويُوصَفُ بجميعها النعام . ويقال فى هذا المعنى « زَفَّ رَأْلُه » ، لأن الزَّفيف ضربٌ من العَدْوِ سريعٌ أيضًا . وفى هذه الطريقةِ قولُهم « طار طائره » . ويقولون : « هو أنفرُ من نَعامٍ » ، و « أشْرَدُ من ظَلِيم » . ومعنى البيت : إنى أُثَبِّتُ نفسى عند ما يَبدَهُ من ذُعْرِ الحرب ، ويَفْجأ من روعة القتال ، فأخاطب نفسى إذا هَمَّت بالإحجام ، أو وُسْوِسَ إليها وجوبُ الانهزام : الْزَمِى مكانَكِ لم تُذْعرِى وقت ذُعْرٍ . وقوله « مكانَكِ » أَمرٌ ، وهو موضوعٌ موضعَ الفعل الذى عَمِل فيه ، ومكتفًى(٢) به عنه ، فهذا إيجابٌ . وقوله « لمـا تُشْفِقِى حين مُشْفَقِ » تأنيسٌ ، أى لم تخافى وقتَ مخافةٍ .

(١) كذا فى م . وفى الأصل : « وصفهم » .
(٢) كذا فى م . وفى الأصل : « ومكتف » .

فهما كلامان . والإشفاق : الذُّعْرُ ، وقد يختلط بالنُّصْح ويتجرَّد عنه . قال الله تعالى : ﴿ إنَّا كُنَّا قَبْلُ فى أَهْلنا مُشْفِقِين ﴾ .

٢ — مكانَكِ حتى تَنْظُرِى عَمَّ تَنْجَلِى عَمَايَةُ هذا العارِضِ المتألِّقِ[١]

يقول : أستأْنى وأترفَّقُ ، وأقول فى تلك الحالة ، تماسَكِى يا نَفْسُ واحفظى مكانَكِ إلى أن يتبين لكِ عن أىِّ شىء تنكشف لك ظلمةُ هذا العارض المتشقق بالبَرْق . والعارضُ ، أصلُه فى السَّحَاب ، وهاهنا أراد به الجيش . وجعل التألُّق مثلاً لِلمَعان الأسلحة . ويقال ائتلق البَرْق أى تلألأ ، وتألَّق . والعَمَايةُ : الظلْمَة والهَبْوَة . ويروَى : « غَيَاية هذا العارض » وهى فى طريق العَمَاية لأنهما من الغَىِّ والعَمَى ، وقد تُوُسِّع فيهما . وإنما طلبَ من النَّفس الصَّبرَ إلى ذلك الوقت ، لأنَّ مَن ثَبَتَ فى الحرب إلى انكشاف الحال فيه فقد أعطاها حَقها .

١٢٥

وقال موسى بن جابر[٢] :

١ — وقلت لزيْدٍ لا تُتَرْتِرْ فإنَّهُمْ يَرَوْنَ المَنَايا دُون قَتْلِكَ أو قَتْلِى[٣]

التَّرترة : العَجَلة . وحكى الدُّرَيدِىُّ أنها كثرة الحركة[٤] ، فهى كالتَّلْتَلة . ورُوِىَ الحديث : « تَلْتِلُوهُ ومَزْمِزُوهُ » بالراء[٥] واللام جميعاً . ويُرْوَى

(١) ذكر التبريزى أن بعد البيتين :

وكونى مع التالى سبيل محمـــد وإن كذبت نفس المقصر فاصدق
إذا قال سيف الله كروا عليهم كررنا ولم نحفل بقول المعوق

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٢٣ .

(٣) كذا فى الأصل . وفى م والتبريزى : « قلت لزيد » بالخرم .

(٤) انظر الجمهرة (٢ : ١٣) .

(٥) فى النسختين : « بالزاى » ، تحريف .

« لا تُبَرْبِرْ » ، والبَرْبَرَةُ : كثرة الكلام ، وكذلك الثَّرثرة بالثاء ، ورَجُلٌ ثرثارٌ . ويقال : ما أكثَرَ بَرْبَرَتهم ، إذا ماجُوا فى الكلام . ومنه سُمِّىَ البَرْبَر : جِنسٌ من المغارِبَةِ[١] ، وكذلك البَزْبَزَة بالزاى : كثرة الحركة . وقد رُوِىَ : « لا تُبزْبِزْ » . ويقال ما أكثر بزبزتهم ، ورجل بَزْبازٌ وبزَابِزٌ ، إذا كان يكثرُ حركاتُه ويخِفُّ[٢] فيقول : لا تَعْجَلْ يا زَيْدُ ، أو لا تُكثِر كلامَكَ ولا تَضْطَرِبْ ، فإنَّ القومَ يَرَوْن الصبر على المنايا ويخفُّ عليهم ويقلّ عندهم إذا ثبت فيه قَتْلُكَ أو قَتْلِى لهم[٣] . وانتهَزُوا فى تحصيل أحدهما فُرَصهم . ويكونُ « يَرَوْنَ » فى هذا الوجْه من الرَّأى ، كما يقال فلانٌ يرَى فى دينِهِ أو فى مروَّتهِ كذا ، أى يتَّخِذه مَذْهَبًا ويدومُ عليه . ويجوز أن يريد بيرَوْنَ للمنايا : يُقَاسُون الشَّدائد ، ويذوقون المنايا ، ولم يَصِلُوا بَعْدُ إلى قَتْلِى أو قَتلِكَ . ويكون معنى « دون قَتْلِك » كما يقال « دُونَ هذا الأمرِ خَرْطُ القَتاد » ، وكما قال بِشْرٌ :

* ومِنْ دُونِ لَيْلَى ذو بَحَارَ ومَنْوَرُ[٤] *

ومعنى يَرَى كما يُقال لو عَلِمْتَ ماذا رأيتُ من فلانٍ ، يراد أىَّ شىء مارَسْتُ وكابَدت . والكلام فى المعنى الأول تصويرٌ لحال القوم فى عداوتهم ، ونَهْىٌ عن المعاجلة[٥] مَعَهُم ، وبَعْثٌ على مصابرتهم ومحاذرتهم . وعلى المعنى الثانى يكون تثبيتاً لصاحبه وتشجيعا ، وتسكينا منه وتصبيراً ، فيكون مثل قَوْله :

(١) ومنه سمى البربر ، إلى هنا ساقط من م .
(٢) م : « إذا كان تكثر حركاته وتخف » .
(٣) أى إذا ثبت لهم . وكلمة « لهم » فى م نقط .
(٤) صدره كما فى معجم البلدان (٢ : ٦٥) :

* لليلى على بعد المزار تذكر *

وبحار فى النسختين بفتح الباء ، وهى لغة فيه نص عليها ياقوت ، وأورد لغة أخرى ، وهى كسر الباء . وقد جاء مصروفا فى م وممنوعا من الصرف فى الأصل .
(٥) كذا فى م . وفى الأصل : « المعالجة » ، تحريف .

* أقولُ لنفسي حين خَوَّدَ رَأْلُهَا[١] *

وكأن أبا تمامٍ تَصوَّرَ هذا المعنى ، فلذلك أَلحق الأبيات بما يليها .

٢ — فإنْ وَضَعُوا حَرْباً فَضَعْها وإن أَبَوْا فَعُرْضَةُ عَضِّ الحَرْبِ مِثْلُكَ أو مِثْلِي

يقول : إن حَطُّوا الحرب أو اطَّرَحُوها ، وراموا المسالمة والمتاركَةَ فيها ، فاتَّبِعْهُمْ فى ذلك واقْتَدِ بِهِمْ ، وإن أَبَوْا إلا الشَّرَّ فالقَوِيُّ على عِضَاضِ الحَرْبِ والصَّبُور على لزامِهَا مِثْلُكَ أو مِثلي ، والمعنى : أنا وأنت . وهذا كما يقال : مثله لا يُعْتَاض منه ، والمَعْنى هو لا يُعْتَاضُ منه . ويقول : فلانٌ عُرْضَةُ الشَّرِّ ، إذا كان قوياً عليه .

٣ — وإنْ رَفَعُوا الحَرْبَ العَوَانَ التي تَرَى فَشُبَّ وُقُودَ الحَرْبِ بالحَطَبِ الجَزْلِ

جَعَل الرَّفْع فى مقابلة الوَضْعِ من البيت الأول ، والمعنى : إنْ هَيَّجُوها . والعَوَانُ : التى قُوتِلَ فيها مَرَّةً بعد أخرى ، فتقادَمَ وتطاول لَبْثُها ، واتَّصل هيجانُها ، واتَّسَعَ نَفَيانُها . وهذا على التَّشبيه بالعَوَان من النِّساء . فهو كما وصفها غيرُه — لَمَّا أراد ابتداءها وجِدَّتها — بأنَّها فَتَاةٌ وبِكْرٌ ، فقال :

الحَرْبُ أوَّلَ ما تكونُ فُتَيَّةٌ تَسْعَى ببِزَّتِها لِكُلِّ جَهُولِ[٢]

وقد استعملوا البِكْرَ والعَوانَ فى الحاجات أيضا ، فقال : هى بِكْرُ حَاجَاتى ، وحاجتى بِكْرٌ ، وحاجَتُكَ عَوَانٌ . يقول : وإن أَجَّجُوا نار الحَرْبِ العَوَان التى تشاهِدُ واستجاشُوا لها ، وأثاروا كوامِنَهَا ، فاسْتَجِشْ أنْتَ أيضاً وأَوْقِدْ نَارَهَا بالحطبِ الغليظ الجَزْل .

---

(١) البيت الأول من الحماسية السابقة . وقد روى فى م كاملا .

(٢) لعمرو بن معديكرب . انظر شروح سقط الزند ١٦٧٨ .

١٢٦

وقال أيضاً :

١ — إذا ذُكِرَ ابنا الْعَنْبَرِيَّةِ لم تَضِقْ ذِراعى وأَلْقَى باسْتِهِ مَنْ أُفاخِرُ(١)

قوله : « لم تَضِقْ ذراعى » مَثَلٌ ، ويقال ذَرْعِى . قال الخليل : الذِّراعُ اسمٌ جامعٌ لـكلِّ ما يُسَمَّى يَدًا من الرُّوحانيين(٢) . يقول : إذا ذُكِرَ هذان الرّجلان من آبائى اتَّسَعَ نِطاق افتخارى ، ورَحُبَ مَجالى وباعِى ، ولم تُعْيِنِى غَلَبَةُ من أساجِله ، ولم يَقْعُدْ بى ذكرهما عن الارتقاء فى الفخر إلى ما لا يَطْلُعُ له مَن أُوازِنُهُ وأُكايِلُه ، حتى ألقاه باستِهِ دون وَجْهِهِ لتولِّيه وإعراضِه . وذِكْرُ الاست تقبيحٌ لفعله عند النُّـكوصِ والانهزام ، وتشنيعٌ عليه فى التولِّى والإدْبَار .

٢ — هِلالانِ حَمَّالانِ فى كُلِّ شَتْوَةٍ من الثِّقْلِ ما لا تستطيعُ الأباعِرُ

يقول : هما فى الاشتهار واعتلاء الشَّأن ، واستضاءة الناس بنورهما ، والانتفاع بمكانهما ، بمنزلة هلالَيْن ؛ ويتكلَّفانِ عند كُلِّ جَذْبٍ ومَحْلٍ ، من الأثقال والأعباء ، ما لو صارت أجْرامًا لَعَجزَ عن النهوض بها وتَحمُّلِها البُعْرانُ . فإن قيل : إذا كان قَصْدُه فى تَحَمُّل الأثقال إلى قِرَى الضَّيف ، ونَحْر الجزور وقِسْمَتِهَا فى المَيْسِرِ ، والصَّبر على المُؤَنِ ، والنُّهوض بالـكُلَفِ ، فكيف قال حَمّالانِ من الثِّقْل ما لا يستطيع الأباعِرُ ؟ وكيف مَثَّلَ ما يَثقل على القُلوب من الغَرامات والحقوق ، بالأوقار التى تثقُل على الظُّهور ؟ قلتَ : إنّما يريدُ أنَّ تلك المُؤَن والتكاليفَ التى يلتزمها ، ويَسْعَى بها وفيها ، لو جُسِّمَتْ ثم حُمِلَتْ ، لـكانت

(١) فى الأصل : «من يفاخر » ، وصواب الرواية المتساوق مع التفسير من م والتبريزى .
(٢) فى اللسان (ذرع ٤٤٨) : « من الروحانيين ذوى الأبدان » .

الجمالُ لا تستقلُّ بها ، ولا تقْوَى عليها[1] ، فهذا وَجْهٌ . ويجوز أن يكون لمّا قال حَمّالَانِ فى كل شَتْوَةٍ من الثقْل ، جعَلَ لِفقةُ مالا تستطيع الأباعر ، إذْ كانت الجِمَالُ وأشباهُها هى التى لحمل الأثقال خلِقَتْ[2] ، وبها اشتهرتْ ، وليكون فى اللفظ توافقٌ ، مع الأمن من عارضِ الالتباس . ويكون هذا كما قال غيره[3] :

أَلا هَلَكَ امرؤٌ ظَلَّتْ عليــــه   بِجَنْبِ عُنَيْزَةٍ بَقَرٌ هُجُــودُ
سَـــمِعْنَ بمَوْتِهِ فَظَلِلْنَ نَوْحًا   قِيَامًا ما يَحِلُّ لهنَّ عُودُ

ألا ترى أنَّه لمّا كان قد كَنَى عن النساء بقوله « بقرٌ هجود » عَبَّرَ عن إمساكهنّ عن الطعام تحزُّنا بقوله « ما يَحِلُّ لهن عود » إذْ كانَت البَقَرُ وما يجانسها من البهائم تعتلف العُود وما يكون كالعُودِ . وليس ذلك إلّا لِطَلَبِ الموافقة فى اللفظ ، مع الأَمْنِ من اللَّبْس . فأمّا قولُ لَبِيدٍ :

فإذا جُـــوزيتَ قَرْضًا فاجْزِهِ   إنمـا يَجزى الفَتى ليس الجَمَلْ

فمعناه إنّما يعْرِفُ النِّعَمَ وما يَجب لهـا من شُـكْرِ المُنْعِمِ أربابُ العقول وذوو التَّمييز ، لا البهائم . فمتى أزلَّت إليْكَ نِعْمَةٌ فـكُنْ من المجازاة عليها بمَرصَدٍ ، فإنّ معرفةَ ذلك والأخذَ به من تمـام العقل ، ويوجبهُ المميِّزون وأولو الحِجَى ، لا غيرهُم ممّا لا تَمييز له ، ولا معرفة بذلك عنده . وذكَرَ الجَمَل مُـكتفِيًا

---

(١) م : « بحملها » .
قال التبريزى : « هذا قول المرزوقى . وقال النمرى : أى هذان الرجلان يحملان من أعباء المغارم وأثقال الصنائع ما لو أنه يوزن لم تستطع حمله الإبل ، وهى أثقل الحيوان حملا ، وأكثره صبرا . قال أبو العلاء : قد تأول النمرى له معنى قد يجوز مثله ولكنه بعيــد ، وإنما ينبغى أن يحمل الشىء على ما كثر ، وذلك أنه ذهب إلى أن هذين الممدوحين يحملان من قرى الأضياف ومن نحر الإبل ما لا تستطيعه الأباعر ، أى إنها لا تقوى عليه لأنه يهلكها » .
(٢) كذا فى م . وفى الأصل : « هى التى تحمل الأثقال لها خلقت » .
(٣) هو امرأة من بنى حنيفة ترثى يزيد بن عبــد الله بن عمرو الحنفى . المفضليات (٢ : ٧٢) .

وإن كان القَصْدُ جِنْسَه أو أجناسَ مِثْله . وفى طريقةِ ما نحن فيه قول أبى تمّام إلّا أنّه فَصَلَ بين المنزلتين ، وهو :

والصَّبْرُ بالأرْوَاح يُعْرَف فَضْلُهُ صَــبْرُ الملوكِ وليس بالأجسامِ

١٢٧

وقال[1] :

١ — أَلَمْ تَرَيَا أَنِّى حَمَيْتُ حَقِيقَتِى وبَاشَرْتُ حَدَّ المَوْتِ والمَوْتُ دُونَهَا

الحقيقة : الخصلة التى يحِقُّ على الإنسان حمايَتُهَا . وقال الخليل : الحقيقة : ما يصير إليه حَقُّ الأمر ووجوبُه . وقوله « أَلَمْ تَرَيَا » تقريرٌ للغير على ما كان من بلائه . يقول : ألم تَعلَمَا أنِّى ذَبَبْتُ عمَّا يجبُ علىَّ الذَّبُّ عنه ، وباشرت الموت بنفسى ، والموتُ دونَ حماية الحقيقة . يريد أنَّ المحافظةَ على الشرَفِ أشقُّ من اقتحامِ الموتِ والاستقتال ، لأنه يَحتاج أن يُصْبَر فيه من المكارِه على ما لا يُحَدُّ ولا يُحْصَرُ ، ويُتَكَلَّفُ له من المشاقِّ ما لا يُعَدُّ ولا يُضبط . فهذا وجْه . والضَّمير من قوله « دُونَهَا » يرجع إلى ما دَلَّ عليه حَمَيْتُ من الحِماية والحِفْظِ . ويجوز أن يكون قولُه « والموت دونها » أى قريبٌ من الحقيقة التى دفَعْتُ عنها أو من الحماية التى الْتزمْتُها ، وحائلٌ بينى وبينَها ، ويكون هذا بياناً لكيفية مباشَرَته لحدِّ الموت ومشافهته إيّاه على سَمْتِ القُرْب ، والواو من قولِهِ « والموتُ » واو الحال . وإذا جَعلتَ المعنى الأول فيكون الكلامُ بياناً لتفضيل حماية الحقائق على مباشرةِ المَنايَا .

(١) كذا فى م . وعند التبريزى : « وقال أيضاً » . وعبارة م والتبريزى تدل على أن الحماسية لموسى بن جابر . وفى الأصل : « وقال آخر » .

٢ ـ وجُدْتُ بِنَفْسٍ لا يُجادُ بِمِثْلِها وقُلْتُ اطمئِنِّى حين ساءتْ ظُنُونُها

يصف ابتذالَهُ نفسَه فيما تعنّاه على حاجَةٍ من العشيرة إلى بقائها ، وحُلولها من القلوب محلّ ما يُضَنُّ بها ، فيوجِبُ صيانتَها . يقول : تسخَّيْتُ بنفس لا يُتَسَخَّى بمثلِها كرمًا وعِزَّةً ، وشَرَفًا وأُبَّهَةً ، وقلْتُ تثبيتًا لها : اسكُنِى واصبِرى عند استيلاء الرُّعب عليها ، واختلاف الظُّنون بها . وهذه إشارةٌ إلى ما يلحق النّفسَ فى الأوّل من الالتقاء[١] ، للوهلة العارضة ، والفجعة المروّعة . ومِثلُه :

أقولُ لنفسى حين خَوَّدَ رَأْلُها مكانَكِ لَمَّا تُشْفَقِى حين مُشْفَقِ[٢]

٣ ـ وما خيْرُ مَالٍ لا يَقِى الذَّمَّ رَبَّهُ ونَفْسِ امرِئٍ فى حَقِّها لا يُهِينُها[٣]

لفظُه لَفْظ الاستفهام ، والمعنى معنى الإنكار الذى يَجرى مَجْرَى النَّفْى . يقول : أىُّ خَيْرٍ فى مالٍ لا يصون صاحبَهُ من ذمٍّ وعارٍ ، ولا يحميه من لُحُوقِ تَهْجِنٍ وشَنَارٍ ؟ وأى شىء غَناءُ نَفْسٍ لا يبتذلها صاحبُها فى استيفاء حقوقها ، ولا يُتْعِبُها فى الدِّفاع دون حقائقها ؟ وهذا الكلامُ تبرُّؤٌ من التحمُّد[٤] بما كان منه من إنفاق المالِ ، وابتذال النّفْسِ . ومثلُه قول الآخر :

ويَبتَذِلُ النَّفْسَ المصونَةَ طائعًا إذا ما رَأَى حَقًّا عليه ابتذالَها[٥]

(١) م : « فى أول الالتقاء » .
(٢) انظر الحماسية ١٢٤ .
(٣) التبريزى : « بنفس امرئ » .
(٤) هذا ما فى م . وفى الأصل : « التحمل » ونراه تحريفا .
(٥) م : « المصونة نفسه » ، وقد سبق البيت فى ص ١٤١ برواية م .

١٢٨

وقال :

١ – ذَهَبْتُم فَلُذْتُمْ بالأميرِ وقُلْتُمُ   تَرَكْنا أَحَادِيثًا ولَحْمًا مُوَضَّعَا(١)

يخاطِبُ قومَه ويلومُهم على ما كان منهم من القعود عن نُصْرَته ، والنُّكوص عن مشايعتِه ، واعتلالِهم عند اعتذارِهم من ذلك بالمعاذير المَشُوبَةِ بالكذِب ، التجأْتُم إلى الأمير وقُلْتُم تَرَكْنا قوْمَنا يقولون ولا يَفعلون ، وعند تَسَلُّط الأعداء عليهم لا يمتنعون منهم ولا يدافعون ، فهم كاللحم المُبَضَّع على خُوان الجزّار ، تمتدّ الأيدى على توضُّعِه إليه ، وتتعلّق الأطماع بتناوله وأخذه(٢) . ويكون هذا كقول الآخَر :

رَضُوا بصفاتِ ما عَدِمُوه جَهْلاً   وحُسْنِ القَوْلِ من حُسْنِ الفِعَالِ

هذا إذا رَوَيْتَ « تَرَكْنا » بفتح التاء ، وإن رَوَيْتَ بضم التاء كان المعنى : ادّعيتم علينا فيما نابنَا ، وعندما هَمَمْتُم به من مفارقتنا وخِذْلانِنا ، أنّا تُرِكْنا أُحدوثةً للناسِ قبيحةً ، يقومون ويقعدون بذِكْرِنا ، وأذلاّءَ مهتضمين لا دِفاعَ بنا ، ولا امتناع من مَذَمَّةٍ فى طباعِنَا . والموضَّع : المُقَطَّع المُفرَّق فى مواضع(٣) .

٢ – فمَا زَادَنِى إلاّ سَنَاءً وَرِفْعَةً   وما زادَكُم فى الناسِ إلا تَخَضُّعَا

يقول : لم يَزِدنى فِعلكم وقوْلُكم عند اعتلالكم فى مفارقتكم إلاّ ارتفاعَ

(١) أشير فى هامش نسخة الأصل إلى أنه فى نسخة أخرى : « مبضّعا » . والمبضع : المقطع
(٢) كذا فى م . وفى الأصل : « تمتد الأيدى إليها ، وتتعلق الأطماع بتناولها وأخذها »
(٣) كذا فى م . وفى الأصل : « والمبضع : المقطع المفرق » .

مَحَلٍّ ، وسُمُوِّ حالٍ ، وجَلالةَ قَدْرٍ ، ولم يَزِدْكم فى الناس إلا تراجُعًا وتذلُّلاً ، وتصوُّرًا بالقبيح وتسقُّطًا ، لأنَّ مَن لا يَصْلُح لعشيرته وأقْرَبيهِ ، وفصيلته وذَوِيه ، لم يَسْكُن إليه البعيد الذى يُؤْوِيه ، والمُسْتَعان به لما يرتجيه .

٣— فَمَا نَفَرَتْ جِنِّى ولافُلَّ مِبْرَدِى ولاأَصْبَحَتْ طَيْرِى من الخَوْفِ وُقَّعَا

وهذا يحتمل وجوها : يجوز أن يريد لم يَنخزل — لما أتيتم وأخبرتم — أصحابى الذين هم كالجن ، ولا فُلّ لسانى الذى هو كالمِبْرَدِ ، ولا ذُعِرَ جأشى فصار طَيْرى واقعةً . ويكون الأوّل كقول الآخَر :

* عَلَيْهِنَّ فِتْيَانٌ كَجِنَّةِ عَبْقَر *

وتشبيه اللِّسان بالمِبْرَد وحَدِّ السيف أكثرُ من أن يُحتاجَ له إلى شاهد . وقد قيل فى « نفرَتْ جِنّى » إنه مثَلٌ لفَلَتَاته وبَدَراته ، ويكون هذا كما وصف امرؤ القيس فرسَه بالمرح وحِدَّةِ القلب فقال :

* به طائفٌ من جِنَّةٍ غَيْرِ مُعْقِبِ *

وإنَّ ذِكْرَهُ المِبْرَدَ مَثَلٌ لصلاحِه ، وإنّ ذِكرَهُ الطير مثلٌ لصيته وذِكرِه الذاهبِ فى الناس . ويجوز فى هذا الوجه أن يريد به ذكاءه ونشاطه وشهامتَه ، فقد قيل فى ضِدّه : هو ساكِنُ الطائر ، وكأنّ على رءوسهم الطَّير . ويجوز أن يشير بالجِنِّ إلى ما يدّعيه الشُّعراء من أنّ لكلِّ واحدٍ منهم تابعًا من الجن يستعين به فيما يحزُبُه ، ويُجعلُ المُرادَ بالمِبْرَد فى هذا الوجه اللسان لا غير . ويجوز أن يريد بالطَّير سَرَاياه وطوائفَ خَيْلِهِ التى يطيِّرُها للغارات والارتباء ، وتجسُّس[1] الأخبار وغيرِها .

---

(١) م : « وتحسس » بالحاء المهملة ، وكلاهما بمعنى واحد ، وهو البحث .

١٢٩

وقال حُرَيْث بن جَابِر(١) :

١ – لَعَمْرُكَ ما أَنْصَفْتَنِي حين سُمْتَنِي هَوَاكَ مع المَوْلَى وأنْ لا هَوَى لِيَا

العَمْرُ والعُمْر لغتان ، ولا يُستعمل فى القَسَم إلاّ بفتح العين . وأنْصَفْتَنِي : أعطَيْتَنِي النَّصَفَةَ والنِّصْفَ . ويقال انْتَصَفْتُ من فُلَانٍ ، أى استوفَيْتُ حَقِّى منه كاملاً حتَّى صرت أنا وهو على النِّصف سواءً . ومعنى سُمْتَنِي : جَشَّمْتَنى خُطّةً من الشَّرِّ . ويقال أيضا : سَام فُلَانٌ فُلَانًا ، إذا داوَمَ عليه وألَحَّ فى شىء . يقول : وبقائك ما أعطيتَنى النَّصَفَةَ حين عَرَضْتَ علىّ الرِّضا بأن يكون لكَ هَوًى مع مَوْلَاكَ ، حتَّى تنتقم لَهُ وتَذُبَّ دونه ، وألاَّ يكون لِى هَوًى مع مَوْلَاى وأُخَلِّىَ بينه وبين أعدائه . قولُهُ « وأن لا هَوى لِيَا » أراد : وأنَّهُ لا هَوَى لِيَا .

٢ – إذا ظُلِمَ المَوْلَى فَزِعْتُ لِظُلْمِهِ فَحَرَّكَ أحشائِى وهَرَّت كلابيا

يُبَيِّنُ كيفَ يتعَصَّبُ لمَوَاليه ، وكيف يأنَفُ من اهتضام يَلْحَقُهُمْ ، يقول : إذا اهتُضِم حليفٌ لى أو ابنُ عَمٍّ ، ذُعِرْتُ لامتهانه واهتضامه ، فاضطربَ أحشائى ونبحَتْ كلابى . والمعنى : لم أعْتَدِ المضيمة فيمن يتَّصِلُ بى ، ويتسبَّبُ إلىّ ، فإذا اتَّفق وقُوعُها صارت كلابى تَنْبَحُ ، وأخذَتْ نَفْسى تَقْلَق . فيجوز أن يكون تحركتْ أحشاؤه لوَجيبِ قلبه وخفقانه ، ونبحَتْ كلابُه لتهيُّئِه للانتقام ، وتدجُّجه فى السِّلاح له ، وتجمُّع أصحابه وإعدادِهِم الخَيْل والرَّجْل لإغاثته . والكلبُ يُنكِرُ أصحابَه إذا رآهم بهذه الأحوال فينبحُ . أنشدَ الأصمعى فى مثلِهِ :

---

(١) التبريزى : « وقال حريث بن جابر بن سرى بن مسلمة بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع بن ثعلبة بن الدئل بن حنيفة بن لجيم بن صعب بن على بن بكر بن وائل » .

أُنَاسٌ إذا ما أنْكَرَ الكلبُ أَهْلَهُ ... حَمَوْا جارَهُمْ من كل شنعاءَ مُظْلِمِ (١)

ووجهٌ آخر ، وهو أن يكون تحرَّكت أحشاؤه لاضطرابه فى جَمْع من يَجْمَع ، وإعدادِ ما يُعِدُّ ، والمتسرِّع فى الشيء يلحقُه ذلك ، ومثله .

أشارَتْ له الحرْبُ العَوَانُ فجاءها ... يُقعْقِعُ بالأقراب أوّلَ من أتَى

فقعقعة الأقرابِ كتحرُّك الأحشاءِ وأكثَرُ . ويكون معنى فَزِعْتُ أغَثْتُ على هذا . ومثلُه قوله :

* حَلَلْنَا الكَثِيبَ من زَرُودَ لِنَفْزَعَا (٢) *

أى لُنغيث . ويجوز أن يكون أرَاد بالكلام الأصحابَ ، ويكون مثل قول الهُذَلىّ (٣) :

ولا هَرَّها كَلْبى ليَبْعُد نَفْرُها ... ولو نَبَحَتْنِى بالشَّكَاةِ كِلابُهَا

فقد فُسِّرَ فى بعض الوجوه على هذا . وكذلك قول تأبّط شرًّا :

* لَيْلَةَ صَاحُوا وأغرَوْا بى كلابَهُم (٤) *

فُسِّرَ على ذلك أيضاً .

١٣٠

وقال البَعِيثُ بن حُرَيْث (٥) :

١ — خَيَالٌ لأمِّ السَّلْسَبِيل ودُونَهَا ... مَسِيرَةُ شَهْرٍ للبريدِ المُذَبْذَبِ

(١) روى فى الحيوان (٢ : ٧) مع نسبته إلى طفيل الغنوى : « شنعاء مظلع » . وفى الأمالى (١ : ٥٥) : « مضلع » ، وقال : « ويروى مفظع » .

(٢) للكلحبة العرنى فى المفضليات (١ : ٣٠) . وصدره :

* وقلت لكأس ألجميها فإنما *

(٣) هو أبو ذؤيب . انظر ديوان الهذليين (١ : ٨٠) .

(٤) عجزه فى المفضليات (١ : ٢٦) : * بالعيكتين لدى معدى ابن براق *

(٥) هو البعيث الحنفى ، كما فى المؤتلف ٥٦ . وهو البعيث بن حريث بن جابر بن سرى بن مسلمة بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع بن ثعلبة بن الدئل بن حنيفة بن لجيم . وقد سبق ترجمة والده حريث بن جابر فى الحماسية السابقة .

خبر الابتداءِ محذوف ، كأنَّه قال : خَيَالٌ لهذه المرأة أتانى أو زارنى ، وبينى وبينها مسيرة شهرٍ للبَريد للُسْرِعِ المتعجِّل . كأنَّه استَطْرَفَ من الخيال ما كان يستطرِفُهُ من المرأة لو زارتْ . وقوله « البريد المُذَبْذَب » كما يُقَالُ للسائق الحاثِّ طَارِدٌ . ألا تَرَى قولَه يصِفُ فَرَسًا :

* ويَسْبِقُ مطروداً ويلْحَقُ طارِدا *

لأنَّ المذبذَبَ والمُذبَّبَ الأصل فيهما واحدٌ ، يَرْجِعُ إلى الطَّرْدِ والاستعجال . والمُسْرِع المُسْتَعْجِل يتذبذَبُ ، أى يضطرب . فأمّا قولُه تعالى : ﴿ مُذَبذَبِينَ بيْنَ ذلك ﴾ فهو من صفة المنافقين ، ومعناه مطرودين بين المؤمنين والكافرين ، فليسوا بمقبولين عند واحدة من الفرقتين . ومثلُ ذَبَّ وذَبْذَبَ ، كَبَّ وكَبْكَبَ . فإن قيل : لم نَكَّر فقال خيالٌ لأمِّ السلسبيل ؟ قلتَ : يجوز أن يكونَ كان يرى خَيَالَهَا على هيئاتٍ مختلفة ، فاعتقَدَ لاختلاف هيئته أنَّه عِدَّةُ خَيَال ، فلذلك نكَّرَهُ ، كأنه قَصَدَ إلى واحدٍ منها ، ومثله :

خَيَالٌ لزَينبَ قَدْ هَاجَ لِي ... نُكَاسًا من الحبِّ بعد اندِمَالِ[1]

٢ — فَقُلْتُ لَها أَهْلاً وَسهلاً وَمرْحَبًا ... فرَدَّتْ بتأْهِيلٍ وسَهْلٍ وَمَرْحَبِ

حكى ما دارَ بينه وبين الخيالِ . والخيالُ يُذَكَّرُ ويُؤَنَّثُ . ونبَّه بكلامِهِ على أنَّهُ أظهر لها قبولاً حَسَنًا ، وبِشْرًا وطَلاَقةً ، فِعْلَ المتشوِّفِ لها ، المتشوِّقِ إلى لقائها ، وأنه تلقاها بالترحيب والتأهيل ساعة طلوعها ، فأجابته بمثل ذلك . وانتَصَبَ أَهْلاً بِفعْلٍ مُضْمرٍ كأنَّه قال أتَيْتَ أَهْلاً لاَ غُرَباء ، وَسَهلاً مِنَ المنازِلِ لا حَزْنًا ، ورَحْبًا من الأماكن لا ضَيِّقًا : والتأهيل : مصدر أَهَّلْتُهُ أى قلتُ له أهْلاً . وكان يجب أن يقول فردّت بتأهيل وتسهيل وترحيبٍ ، لو أتى

(١) لأمية بن أبي عائذ فى ديوان الهذليين (٢ : ١٧٣) برواية : « خيال لحمدة» .

بالكلام على حدٍّ واحدٍ ، لـكنَّه أتى فى بعضه بحكاية اللفظ ، وفى بعضه ببناء الأخبار . وقال سيبويه : إذا قال الزّائرُ وبك أهْلا ، فإنَّما يقول : أنت عندى بمنزلة من يقال له هذا لو جِئْتنِى . وإنمـا قال هذا لأنَّ الحال لا تقتضى من الزّائر أن يُصَادِفَ الْمَزُورَ عندَهُ ذلك ، فحمل الكلامَ — وقد اعتيد فيه ما ذَكَرَهُ — على أنه يُرَادُ لو جئتنى لـكنتَ بهذه المنزلةِ .

٥ — مَعَاذَ الإلٰهِ أنْ تَـكُونَ كَظَبْيَةٍ   ولا دُمْيَةٍ ولا عَقِيلَةِ رَبْرَبِ

معاذَ انتَصَبَ على المصدر . والمعنى أستعيذُ بالله أو أعوذ به معاذًا . كأنَه أنِفَ وصار يَرْبأُ بصديقته أن تكون فى الحُسْنِ بحيث تشبَّهُ بالظَّبى أو الظبْيَةِ أو بالصورة المنقوشةِ ، أو بكريمةٍ من بَقَرِ الوَحْشِ ، إذ كانت هذه الأشياء عنده دونَهَا ، وقاصِرَةً عن رُتْبَتِها . وقد سَلَكَ من المتقدمين امرؤ القيس هذه الطريقة فقال :

كأنَّ دُمَى سَقْفٍ على ظَهْرِ مَرْمَرٍ   كسا مُزْبِدَ السَّاجوم وَشْيًا مُصَوَّرَا[1]
غرائرُ فى كِنٍّ وصَوْنٍ ونَعْمَةٍ   يُحَلَّيْنَ ياقوتًا ودُرًّا مُفَقَّـــرا

فشبَّهَ الدُّمَى بالنِّساء لا النِّساء بالدُّمى . وممـا يستحسن من هذه الطريقة قول أبى تمـام :

كأنمـا جادَ مَغْنَاهُ فَغَـيَّرَهُ   دُمُوعُنَا يَوْمَ بانوا وهى تَنْهَمِلُ

لأنه شَبَّهَ الأمطارَ المغيِّرَةَ لرُسُومِ الدِّيار بدموع العُشّاقِ . فى إثْرِ الأحْبَابِ يومَ الفِراق . والعقيلة : الـكريمة من النِّساء [والدُّرِّ[2]] وكلِّ شىء . والرَّبْرَبُ : القطيع من البقر .

(١) مزيد الساجوم ، مبيض لها فى نسخة الأصل ، وإثباتهما من شرح ديوان امرئ القيس ٩٢ — ٩٣ . والساجوم : اسم واد . والمزبد : الذى علاه الزبد . وفى م : « مزيد الساجور » ، تحريف .   (٢) هذه من م .

٤ ــ ولـكنَّها زادَتْ على الُحسْنِ كُلِّهِ كمالا ومِن طِيبٍ على كلِّ طَيِّبِ

يقال : زدتُه فزاد وازداد جميعاً . وكمالاً ينتصب على التمييز ، والمعنى أنها يزيد حُسْنُها على كلِّ حُسْنٍ كمالاً ، لأنَّه لا حُسْنَ إلا وتدخُلُه نَقِيصَةٌ ، سِوَى حسنِها . وكذلك كلُّ الطيِّب يتخلّله حَطيطة إلاّ طِيبَها . و « من طِيبٍ » أى وزادَتْ من طيبها على كلِّ طيِّبٍ طيباً . والغَرَض أن يبيِّنَ لم أنكر لها[1] تشبيهها بغيرها ، فقال : هى تترفَّع عن ذلك : إذْ كانت جامعةً للمحاسِن ، مستحِقَّةً للوَصْفِ بالـكمال ، وإذْ كان كل واحدٍ من تلك الأشياء استَبَدَّ بصفَةٍ دون صِفَةٍ ، ويَتفرَّدُ بنوعٍ دون نوع .

٥ ــ وإنَّ مَسِيرى فى البِلادِ ومَنْزِلى لَبالمنزِلِ الأقْصَى إذا لم أُقرَّبِ

يقول : مكانى الذى أسير فيه من البلاد ، وموضعى الذى أنزل فيه ، لَأَبْعَدُ المنازل ، وأوضع المساير ، إذا لم يلحقْنى فيها تقريبٌ وتعظيم . وقولُه « أُقرَّب » بمعنى أُكرَّم وأُدْنَى ، على طريق الإعظام . وليس يريد تقريب[2] المسافة به . ويجوز أن يكون المعنى إذا لم أُقرَّب كنت بمنزلة المطرودِ المنفِيّ ، وإن كنت مقيما دانياً . وكان الواجب أن يقول لبالمَنْزِلِ والمسير ؛ فاكتفَى بأحدهما . وآثرَ المنزلَ بالذِّكر لأنّ النُّزول لا يكون إلا بعد السير . ودَلَّ بهذا الكلام على أنه لا يَرْضَى فى متَصرَّفاته إلاّ بما يَقْضِى بتبجيله ، ويُفضى إلى اصطفائه والرفع منه ؛ وأنّه لا يصبر على الهوان والجفاء حيثُ سار ونزَلَ ، بل يَطْلُبُ إكرامَهُ وإلّا انتقل وتحوَّل .

٦ ــ ولَسْتُ وإن قُرِّبْتُ يَوْمًا ببائعٍ خَلاقِى ولا قومى ابتغاءَ التَّحبُّبِ

---

(١) كلمة « لها » ليست فى م .
(٢) م : « تقليل » .

يقول : لستُ وإن أُدنِيت وبُجِّلتُ ببائع نصيبى من شَرَفِى ، وموضعى[(١)] من عشيرتى ، طلبًا للتحبُّب إلى من أجاوِرُهُ وأعاشِرُهُ ، أو تهالـكا فى تعليق الطَّمع بمن أرجوه وآمُلُه . والخَلاَقُ : الحظُّ والنَّصيب من الصّلاح . ويقال : ما لفُلاَنٍ خَلاقٌ ، إذا لم يكن له رغْبةٌ فى الاستصلاح واكتساب الخير . وانتصب « ابتغاءَ التَّحَبُّبِ » على أنه مفعولٌ له .

٧ — وَيَمْتَدُّهُ قومٌ كثيرٌ تجارَةً ويَمنعنى من ذَاكَ دِينِى ومَنْصِبِى

يقول : وَيَعُدُّ ما تبرّأتُ منه وأنِفْتُ من فعله كثيرٌ من الناس تجارةً رابحة ، وصفقةً مفيدة نافِعَةً ، وأنا يدفعنى عنه ويزهِّدنى فيه شرفى ودِيانتى . وهذا القول يجوز أن يكون تنزيها لنفسه ، وتزكية لفَعَالِهِ وخُلُقه فقَط ، وأن يكون القصد منه التعريض بغيره . وهذه الأبيات وإن كان فى جملتها[(٢)] ما ليس من الباب فإنّه كرِهَ تبديدها لسلامتها من العَابِ ، ووفورِ حظِّها من الانتخاب .

٨ — دَعَانى يزيدٌ بعد ما ساء ظَنُّهُ وعَبْسٌ وقدكانا على حَدِّ مَنْكَبِ

ما قَدَّمَهُ تَوَصُّـلٌ إلى بيان مراعاته أمْرَ العشيرة ، والتعطُّفَ على القريب وقتَ الحاجة ، والتمسُّكَ بما يوجبه الـكَرَمُ والحرّيّة . يقول : دعانى هذا الرجلُ وصاحبُه مستغيثَين ، بعد سوء ظَنّه بعشيرته وبى لما أسْلَفَ من الشرِّ ، وقَدَّمَ من العُقوق والإيذاء ، وقد كانا أشرَفَا على حَدِّ الهلاك . هذا إذا رويْتَ بفتح الـكاف مَنْـكَب ، والمعنى : شافَهَا حَدَّ الشرِّ وحَرْفَهُ ، ولا يأمنان اقتحامَهُ وتوسُّطَه . ويقال أصابَهُ نَـكْبٌ من الدَّهرِ ومَنْـكَبٌ ونَـكْبَةٌ ونُـكُوبٌ كثيرةٌ ، ومنه قيل حافرٌ نكيبٌ ومنكوبٌ ، إذا أثَّرَ فيه حجرٌ أو غيره .

---

(١) م : « أو موضعى » .

(٢) كذا فى م . وفى الأصل : « من جملتها » .

ويروَى « على حَدِّ مَنْـكِب » بكسر الـكاف ، والمعنى : كانا مُهاجرَين لى . يقال : فلانٌ معى على حَدِّ مَنْـكِب ، أى كلما رآنى الْتَوَى ولم يتلقنى بوجهه ، وتنـكَّبَ عنِّى ؛ أى اجْتَنَبنى . والمَنْـكِبُ من كلِّ شىء : جانبُه وناحيَتُه . ومثله قولُهم : فلانٌ يلقانى على حَرْفٍ ؛ وهو منحرفٌ عنى ومتحرِّفٌ . ويجوز أن يريد بقوله « بعد ما ساء ظَنُّه » بعد تَسَلُّط اليأس والقنوط من الحياة عليه .

٩ ــ وقد عَلِما أنَّ العشيرَةَ كلَّها   سِوَى مَحْضَرِى مِن خَاذِلِينَ وغُيَّبِ

دَلَّ بهذا الـكلام على الضرورة الداعية إلى الاستعانة به ، والاستظهار بدعوته وإجابته . يقول : استغاثا بى متيقِّنَين أنَّ كلَّ عشيرتهما إذا لم أحْضُرْ من بين شاهدٍ لا يَنْصُر ، وغائبٍ لا يَحضُر وأنّ الـكِفاية لا توجد إلاّ عندى ، والنُّصرَة لها لا تَحْصُل إلاّ بَسعْيِى . وقولُه « من خاذلين وغُيَّبِ » أراد ومِنْ بين غُيَّبِ ، فاكتفى بمِن الأوّل عن الثانى ، وقد مرّ القـول فى مثله مشروحًا . ومعنى سِوَى هاهنا معنى بدَلٍ ومكانٍ . وذكر المحضَر والمراد النَّفْس ؛ كأنه قال : وقد علما أنّ العشيرة كلَّها بدلاً منِّى ومكانى ، من خاذِلٍ وغائبٍ .

١٠ ــ فكُنْتُ أنا الحامِى حَقِيقَةَ وائِلٍ   كما كانَ يَحْمِى عن حَقائِقِها أَبِى

يقول : أعَنْتُهُما على ضعف رجائهما ، وتسلّط الظنون السيِّئة عليهما ، جاريًا على الغاية الموروثة عن أسلافى ، ومقتديًا فى الذَّبِّ عن العشيرة ، والمواظبة على حماية الحقيقة ، بآبائى . ويقال : حَميت الحقيقة وحَمَيْتُ عن الحقيقة ، وهو يَحْمِى عليه ويُحامِى عليه .

١٣١

وقال المُثَلَّم بن رِيَاح[(١)] :

١ — مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّى سِنَانًا رِسالَةً وَشِجْنَةَ أنْ قُومَا خُذَا الحقَّ أودَعَا

يقول : مَن يؤدِّى عنى رسالةً إلى هذين الرجلين ، بأن ارضَيَا الحقَّ وقومَا واستوفياه ، أو اتركاه فمالَكما غيرُه وإن تسخَّطْتُماهُ . وهذا تَوَعُّدٌ واستهانَةٌ . وقولُه « أنْ قُوما » أن مخفَّفَة من أن الثقيلة والمراد : أنَّهُ قُومَا . ومثله قولُهُمْ فى : أَمَا أَنْ جزاكَ اللهُ خيراً ، ويجوز أن يكون أن المفسِّرة ، كأنه فَسَّرَ الرِّسالة بقُومَا خُذَا الحقَّ . ومثلُه قولُهُمْ : أتفخَرُ عَلَىَّ أَنْ أصحابُكَ أكثر من أصحابى . وأن هذه تجرى مَجْرى أىْ فى أنَّهُ يُفَسَّرُ به . ولو قال قوما وخذا الحقّ ، فأتى بحرفِ العطف كما قال الله تعالى : ﴿ قُمْ فأنْذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ كان أفصح . وقد جاء مثلُه بغير العاطف كثيراً . وقوله « قوما » ليس المراد به فِعْلَ القيام ، لكنه وُصْلَةٌ فى الكلام ، وقد بُيِّنَ فيما مضى أمثالُه . ويجوز أن يكون قوله خُذَا الحق على طريق التهكُّم والسخرية . أى إنْ قَدَرْتُما على أخذ الحقِّ المُدَّعَى فَخُذَا . ويجوز أن يكون المعنى : ترْكُكما ما سميتماهُ حقًّا ، وطلبكما له عندى سواء على الحقيقة .

٢ — سَأَكْفِيكَ جَنْبِى وَضْعَهُ ووِسَادَهُ وأَغْضَبُ إن لَمْ تُعْطِ بالحقِّ أشْجَعَا[(٢)]

---

(١) التبريزى : «المثلم بن رياح بن ظالم المرى» . وقال المرزبانى فى المعجم ٣٨٦ : « المثلم بن رياح المرى جاهلى ، وله يقول سنان بن أبى حارثه وأجار عليه :

من مبلغ عنى المثلم آية — وسهلا فقد نفرتم الوحش أجمعا

هم إخوتى دنيا نلا تقربنهم — أبا حشرج وافسح لجنبك مضجعا

فأجابه المثلم :

من مبلغ عنى سنانا رسالة — وشجنة أن قوما خذا الحق أودعا »

(٢) قال التبريزى : « هو أشجع بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان » . وقال أيضاً : « قال أبو هلال فى قوله إن لم تعط بالحق : هكذا روى ، وهو تصحيف =

يقول : أكفيك ما يَمُسُّنى ويخصُّنى ، ولا أضايقك فيما يرجِع نفعُه وضَرُّه إلىّ . وذِكر وضع الجنْب والوسادِ مأخوذٌ من المَثلِ السائر فى المعتَنِى بالشّىء المتعهِّد له ، وهو قولهم : « أمٌّ فَرَشَتْ فأَنَامَتْ » : والمعنى : لا أُكَلِّفُك عنايةً بأمرى ، ولا أؤاخذك بمصالح أسبابى : ومتى لم تناوِل مَولاى أشجَعَ الحقَّ ، ولم تُعامله فيما بينكما بالحقّ والعَدْلِ ، غَضِبْتُ له وانْتقمتُ ؛ لأن فى تضييع حقِّ المولى والأخْذ بالتغميض فيه لازِمَ العارِ ، وفى استعمال التَّغابى فيما يتعلّق بى واطِّراحى المُناقشة والمشَاحَّةَ فيه باقِىَ الصِّيت والجمال . قوله « إن لم تُعْطِ بالحقِّ » قيل فيه مفعولُ تُعْطِ الثانى محذوفٌ ، ومعنى بالحق : بالعَدْلِ والإنصاف . كأنّه قال : تُعْطِ أشْجَعَ ما يَجِبُ له بالحق . وقيل أراد بِتُعْطِ تُعامِلْ فعدّاه تَعْدِيتَه . وقيل بالحقِّ هو المفعول الثانى ، لـكنه زاد الباء فيه تأكيداً ، كما قال الآخر[1] :

* سُودُ المحاجِرِ لا يَقرأْنَ بالسُّوَرِ[2] *

ويغلب فى نفسى أنّ الشاعِرَ قال وأغضبُ إن لم تعطِيا الحقّ أشجعا ، لأنه بَنَى الرسالة على أن تكون متوجهةً نحو اثنين : سِنَانٍ وشِجْنَة . ومخاطَبَتُهُ من بَعْدُ أحدَهُما فى قوله سأكفيك ، على عادتهم فى الافتنان والتصرُّف ، لا يمنع من الرجوع إلى ما بَنَى كلامَهُ عليه من ذكر الاثنين . وهذا ظاهرٌ لمن تأمَّلَهُ .

= قبيح ، والصحيح : وأغضب إن لم يغضب الحق أشجعا . يقول : سأكفيك أمرى كله ولا أحملك شيئاً ، وأغضب لك ولحقك إن لم يغضب له أشجع » .

(١) هو الراعى النميرى ، أو القتال الكلابى ، إذ ورد فى شعر لكل منهما . الخزانة (٣ : ٦٦٧) .

(٢) صدره : * هن الحرائر لاربات أحمرة *

٣ – تَصِيحُ الرُّدَيْنِيَّاتُ فينا وفيهمُ صِيَاحَ بَنَاتِ الماء أَصْبَحْنَ جُوَّعَا

يريد: تختلف الرِّماح المنسوبة إلى هذه المرأة[1] بيننا وبينهم بالطَّعْنِ، فصياحها كصِيَاح بنات المـاء إذا جاعت. وهذا كما حكى الآخَرُ وَقْعَ الْقَنَا والسَّيْفِ عند الطَّعن والضَّرْبِ، فقال:

* والطَّعْنُ شَغْشَغَةٌ والضَّرْبُ هَيْقَعَةٌ[2] *

ويَعْنِي ببنات الماء طيورَ الماء. وهذا كما يقال فى الوحش: بناتُ الفَلاَ، وللنوائب: بنات الدَّهْر.

٤ – لَفَفْنَا البيوتَ بالبيوتِ فأَصْبَحُوا بَنِي عَمِّنَا من يَرْمِنَا يَرْمِنَا مَعَا

يقول: استأنفنا حالةً جامعةً لنـا ولعشيرتنا، فاستبدلْنَا بالتبايُن اجتماعاً، وبالتَّزايُل اختلاطاً، وبالتنافر تأنُّسًا، وبالتَّشارد تألُّفًا، حتى صِرْنَا يَدًا واحدةً على المنابذين، ولسانا واحداً على المخالفين، فمن رَمَى واحِداً مِنَّا فقد رَمَى جميعَنا. هذا إذا رويت: «من يَرْمِنَا يَرْمِنَا مَعَا». ومن روى: «من يَرْمِهِمْ يَرْمِنَا مَعا» يكون المعنى فى اجتماع الـكلمة أبين. وفى هذه الطَّريقة قولُ الآخر[3]:

فأَمْسَى كَعْبُهَا كَعْبًا وكَانَتْ من الشَّنَآن قد دُعِيَتْ كِعَابَا

(١) هى ردينة، واسم زوجها سمهر، كانا يقومان الرماح بخط هجر، فنسبت إلى كل منهما. اللسان (سمهر، ردن).

(٢) البيت لعبد مناف بن ربع الهذلى. اللسان (شغغ، هقع، عول، عضد) وبقية أشعار الهذليين ص ٣. وقد سبق الاستشهاد به فى ص ٣٧. وعجزه:

* ضرب المعول تحت الديمة العضدا *

(٣) هو معاوية بن مالك بن جعفر بن كلاب. المفضليات (٢ : ١٥٨).

١٣٢

وقال آخر (١) :

١ ـ يازِمْلُ إنِّى إن تَكُنْ لى حَادِياً أَعْكِرْ عليكَ وإن تَرُغْ لا تَسْبِقِ (٢)

يقولُ : إنْ تَخلَّفْتَ عنِّى حتى يكون مكانك مكان الحادى من البعير أعْطِفْ عَلَيْكَ . وإن تَقدَّمْتَنى هارباً حتَّى تصير كالهادى لى مستعملاً الخداع والرَّوَاغَ معى لم تَفُتْنِى . والمعنى : إنِّى أُدْرِكُكَ على كل حالٍ . وقد أحسَنَ النَّابغةُ فى قوله :

فإنّكَ كاللّيلِ الذى هو مُدْرِكى وإن خِلْتُ أنّ المنتأى عنك واسِعُ

ويقال عَكَر واعتَكَر بمعنى عَطَفَ ، وإنّه لعَكّارٌ فى الفِتَن ، إذا كان ثابت القَدَم .

٢ ـ إنِّى امرُؤٌ تَجِد الرجالُ عَدَاوتِى وَجْدَ الرِّكابِ من الذبابِ الأزرقِ

يقول : إنِّى رَجُلٌ ينال أعدائى من عداوتهم لى ما ينال الإبلَ من الذُّباب الأزرق ، وهذا الجنس من الذُّباب يتأذى به الإبلُ تأذِّىَ الحُمُر بالنُّعَر أو أشدّ . وعداوتى ينتصب على المفعول . كأنّه قال : يجد الرِّجال من عداوتى ، فحذف

---

(١) عند التبريزى فقط : « وقال ابن دارة » . وابن دارة هو سالم بن مسافع ابن يربوع ـ ويربوع هو دارة ، وإنما سمى دارة لأن رجلا من بنى الصادر قتل ابن عم ليربوع ، فقتله به وأخذ ابنته ، ثم أرسلها فأتت قومها ، فسألوها عن قتل أباها فقالت : غلام كأن وجهه دارة القمر . انظر الخزانة (١ : ٢٩١) والأغانى (٢١ : ٥٠) .

(٢) زمل هذا ، هو زميل بن أبير ، أحد بنى عبد الله بن مناف ، قاتل ابن دارة . وفى ذلك يقول :

أنا زميل قاتل ابن داره وغاسل المخزاة عن فزاره .

وكان سالم وزمل جميعاً فى صدر الإسلام ، أدركا زمان معاوية .

حَرْفَ الجرّ ووصل الفِعْل فعَمِلَ . يَدُلّ على ذلك قولُه . « وَجْد الرِّكَابِ من الذُّباب » . ومثله :

* أستَغْفِرُ اللهَ ذَنْباً لست مُحْصِيَهُ(١) *

وقوله « عداوتى » يجوز أن يكون مُضَافًا إلى الفاعل ، أى عداوتى لَهُم ، ويجوز أن يكون مضافًا إلى المفعول ، أى عداوتهم لى ومعنى تَجِدُ تَحْزَنُ ، ولذلك كان الوَجْدُ مَصْدَرَهُ . ويجوز أن يكون تجد بمعنى تَعْلَمَ ، ويكون عداوتى المفعولَ الأول ووَجْدَ الرِّكاب المفعول الثانى . والمعنى : إنّ عداوتهم لى تُقْلِقُهم وتُنَزِّيهم ، فيعلمُها الرِّجالُ مثْلَ وَجْدِ الرِّكابِ من هذا الجِنْس من الذُّباب ؛ أى ينالون منها ما ينال تلك منهم . ويحصل فى البيت تجنيسٌ حينئذ .

١٣٣

وقال الحُصَيْن بن الحُمَام(٢) :

١ — فَقُلْتُ لهم يَا آلَ ذُبْيَانَ مالَـكُم   تَفَاقدتُمُ لا تُقْدِمُون مُقَدَّمَا

يقول : قلتُ لهؤلاء القوم : ما لـكم تُحجِمُون ولا تُقدِمون ، فَقَدَ بعضكم بَعْضًا ولا اهتَدَى أحدُكم إلى الآخَر . وهذا الكلام تَضَجُّرٌ منه بهم لمَّا تخاذَلوا ولم يكونوا عند الظَّنِّ فيهم . وَوَضَعَ مُقَدَّمًا موضع الإقدام ، وساغَ ذلك لأنّ مصادِرَ الكلمات الصَّادرة عن أصْلٍ واحدٍ يوضَعُ بَعْضها مَوْضِعَ البعض لِدَاعٍ يَدْعُو إذا لم يَـكُنْ ثَمَّ مانِعٌ . وإنما قُلْتُ هذا لأنَّ قَدَّم يكون مرّةً متعدِّيًا ،

(١) هو من أبيات سيبويه الخمسين التى لا يعرف لها قائل . سيبويه (١ : ١٧) والخزانة (١ : ٤٨٦) . وعجزه :

* رب العباد إليه الوجه والعمل *

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ٤١ .

ومرة يكون بمعنى تقدَّم ولا يتعدَّى ، ومُقدَّمًا هاهنا مصدر ما لا يتعدَّى ، فهو مِثْلُ تَقَدُّم لو قاله ، ومنه مُقَدِّمةُ الجيش ، يُرَادُ متقدِّمَتُه . وقوله « تفاقَدْتم » اعتِراضٌ بين ما لَـكُم وبين لا تُقْدِمون ، وهو دعاء عليهم . ومثله فى الأمرين جميعاً قولُ الآخر(١) :

إن الثمـــانينَ وبُلِّغْتَها قدأحوجَتْ سَمْعِى إلى تَرْجُمَانْ

وإن كان هذا دُعاء خَيْرٍ .

٢ ــ مَوَاليكُمُ مَوْلَى الوِلَادَةِ مِنْهُمُ وَمَوْلَى اليَمِينِ حابِسًا مُتَقَسِّمَا

إنَّما قَسَم المَوَلَى هذه القسْمَة لأنَّ المولَى له مواضع فى استعمالهم ، منها المَوْلى فى الدِّين : وهو الوَلِىُّ . على ذلك قول الله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وأنَّ الكافرينَ لا مَوْلَى لَهُم ﴾ ، وقول النبىّ عليه السلام : « من كُنْتُ مَوْلَاه فعَلِىٌّ مَوْلاهُ » ، وقوله عليه السلام : « مُزَيْنَةُ وأسْلَمَ وغِفَارُ مَوَالِى الله ورسوله » . ومنها العَصَبَةُ وبنو العَمّ ، وهو الذى سماه الشَّاعر مَوْلَى الوِلادة . ومنها الحليف ، وهو من انضمّ إليك واعتزّ بعزِّك وامتنع بمَنْعِك ، وهو الذى سَمَّاهُ مَوْلَى اليمين ؛ لأنَّه يُقْسِمُ له عند الانضمام بذلك ، وهو المُعْتَقُ لكَ ينتسب بنسَبِك ، وأنت مَوْلَاهُ وذاكَ مَوْلاكَ . وهم يقولون : إنَّ المَوْلَى لا يَـكادُ يَفضُلُ الصميم ، قال :

وليس أُبَيْرُكُمْ كأُبَيْرِ سَوْءٍ وما جُعِلَ المَوَالِى كالصَّميم

يقول تَدَارَكُوا الذين ينتسبون بالوَلاء ، ولاءِ النَّسبِ ، وولاءِ الحِلْفِ والنُّصْرَةِ ، فَكُلٌّ منهم ذو حَبْسٍ على الشَّرّ متقسِّم الحال ، ، متوزَّع المال مُغَارٌ عليه ، فما لَـكُمْ لا تَمْتَعِضُون ولا تُنْـكِرُون .

وقولُه : « حابِسًا » فى معنى مَحْبُوسٍ ؛ لـكنَّه أخرجه مَخْرَجَ النَّسَب ؛ أى

(١) هو عوف بن محلم الخزاعى . الأمالى (١ : ٥٠)

ذو حَبْسٍ ، وانتصابه على الحال . وقوله « مواليكم » على هذا انتصب بفعلٍ مُضْمَرٍ ، كأنه قال : أغيثوا مواليكم وتداركوا . ويُرْوَى « حابِسٌ قد تُقُسِّمَا » . وقيل هو اسمٌ عَلَمٌ ، وارتفاعه على أنّه بدلٌ من مولى اليمين ، وقد تُقُسِّمَا في موضعِ الخبَر . واكتفى بالإخبار عن المَوْلَيَيْنِ لأنَّ الموالى انقسموا إليهما .

٣ــ وقُلْتُ تَبَيَّنْ هَلْ تَرَى بَيْنَ وَاسِطٍ وَنَهْيِ أَكُفٍّ صَارِخًا غَيْرَ أَعْجَمَا[1]

يُرْوَى « فارِسًا غَيْرَ أَخْرَمَا » ، كأنَّه أقبل على واحد منهم فقال : تأمَّلْ هل تَرَى بين هٰذين الموضعين فارساً غيرَ مُنْقَطع . المعنى : أنهم يتواترون أرْسَالاً في الصُّرَاخِ غير متجمِّعين له ، بل يَتْبَعُ بَعْضُهم بعضاً في أرضِكم ودياركم يستنصرون فلا يُنصَرون ، فما لَكم لا تأْنفُون . ومن رَوَى : « صَارِخًا غَيْرَ أَعْجَمَا » فمعناه مستغيثاً لا يُجَابُ ، فكأنه أعجم لا يُفهمُ قولُه . يريد : تبَيَّنْ فإنك لاترَى إلا فارساً أخْرَمَ ، أو صارخًا أعْجَمَ . والأعجم : الذى لا يُفْصِح . والصارخ والصَّريخ واحد ، ويقال صرخ فَأَصْرَخْتُهُ ، أى استغاث فأغَثْتُه . وفى القرآن : ﴿ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ والصَّرْخَةُ تُسْتعمل فى الفزَع والمصيبة . وفى المَثل «لَهُ صَرْخَةُ الْحُبْلى» . والخَرْمُ : القَطْع ، ومنه أَخْرَمُ الكتِف ، وهو مَحَزٌّ فى طرف عَيرِها[2] .

٤ــ من الصُّبْحِ حَتَّى تغرُبَ الشَّمْسُ لا تَرَى من الخَيْلِ إِلَّا خَارِجيًّا مُسَوَّمَا

أى ابتدأ الأعداء يغيرون ويَنْهَبُون ، وهؤلاء يصرخون ويستغيثون ، من

---

(١) التبريزى ومعجم البلدان : « ونهى الأكف » ، ونص ياقوت على أن النهى بالكسر ويفتح . وذكر التبريزى فى بعض رواياته : « غير أخزما » ، وقال : « وصارخ ، قبل مغيث . وأخزم : جبل . ومعنى البيت على هذا أنه ليس بين هذين الماءين مفزع إلا هذا الجبل » .

(٢) فى الأصل : « غيرها » ، وفى م : « غيرها » ، والوجه ما أثبتنا . والعير ، بفتح العين المهملة : كل عظم ناتئ .

وقت الغَدَاةِ إلى أن غابَتِ الشَّمس ، فلا تَرَى من الخيل إلا ما خَرَجَ بنفسه لا أوَّابَّةَ له كَمِثْلِهِ ، وقد أُعْلِمَ بعلامة ليعرفَ بلاءه صاحبه . وقوله : « من الصُّبْحِ » ، وُضِعَ مِنْ فيه موضع مُنْذُ ، لأنَّ مُنْذُ في الأزمنَةِ بمنزلة من فى الأمكنة . ومثله قول زهير :

* أَقْوَيْنَ من حِجَجٍ ومن دَهْرِ (١) *

وقال الأصمعيُّ : الخارجِيُّ : كلُّ مُتناهٍ فى جنسه ، فائقٍ نُظَرَاءه فى معناهُ . والمُسَوَّمُ من السِّيما ، وهى العلامة ، وفى القرآن : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ ﴾ .

٥ ـ عَلَيْهِنَّ فِتْيَانٌ كَسَاهُمْ مُحَرِّقٌ وكَانَ إِذَا يَكْسو أَجَادَ وأَكْرَمَا

يقول : على هذه الخيل رِجَالٌ كَسَاهُمْ مُحَرِّقٌ ، أى دروعهم وسائر أسلحتهم مما كان يكسوهم ، ويجْعَلُهُ خِلْعَةَ : وكان مُحَرِّقٌ إذا كسا الأسْلِحَةَ أتى بها جيِّدةً كريمة . ومُحَرِّقٌ : لقبٌ لعمْرِو بن هِنْدٍ ، وكان أَحْرَقَ قَوْمًا من تَميم حين أجَّج النارَ بأُوَارة ، فلُقِّبَ به ، وقال بعضهم : لُقِّبَ بذلك لأنَّه كان إذا عاقب عاقبَ بالنار . وقوله «إذا يَكْسُو» اعتراضٌ بين الفعل وهو يَكْسُو وبين المفعول به وهو « صفائحَ بُصْرَى » من البيت الثانى . ويقال أجَادَ الشىء بمعنى جاء به جَيِّدًا ، وبمعنى جَوَّدَهُ . وكذلك أَكْرَمَهُ يكون بمعنى أتى به كريما ، وبمعنى كَرَّمَهُ . وقد توسعوا فى كَسَا وإن كان أصل الكُسوة اللِّباس ، فقيل : اكتسى الأرضُ بالنَّبات ، على التشبيه ، فقال رُؤْبَةُ يصِفُ الثورَ والكلاب :

* وقَدْ كَسَا فيهنَّ صِبْغًا بَرْزَغَا *

أى كَسَا الكلابَ دَمًا طريًّا . وقال بعضهم فى وصف نبالٍ :

* وزُرْقٍ كَسَتْهَا رِيشَها مَضْرَحِيَّةٌ *

(١) صدره : * لمن الديار بقنة الحجر *

أى قُذَذُها من ريش مَضْرَحِىّ . فعلى هذا قوله « كسامِ مُحرِّق » .

٦ — صَفَائِحَ بُصْرَى أَخْلَصَتْهَا قُيُونُها ومُطَّرِدًا مِنْ نَسْجِ دَاوُدَ مُبْهَمَا

صفائحَ انتصَب على أنه مفعولٌ ثانٍ من كَسَامِ مُحرِّقٌ . وبُصْرَى : قَرْيَةٌ بالشام تُطْبَعُ بها السُّيوف . فيقول : كساهم مُحرِّقٌ سُيُوفًا بُصْرِيَّةً ، اتخذَها طَبّاعُوها من خالصِ الحديد ، ودُرُوعًا لَيِّنةً سهلة سَلِسَةً ، متتابعة السَّرْدِ ، تَطَّرِدُ ولا تختلف ، داوديّة . والصفائح : جمع صفيحة ، وهى كلُّ سيفٍ عريضٍ أو خشَبةٍ عريضة . ويقال سيف مُصْفَحٌ أيضاً ، أى عريض ، كأنه زِيدَ فى صَفْحَتَيْه ، أى جانِبَيْه . ويقال أصفحَ بسيفه ، أى ضَرَب بصَفْحِه . ومعنى أخلَصَتْها : أتَتْ بها خالصةَ الحديد . واستعمِل الكِسْوَةُ فى السيفِ كما يستعمَلُ فيه البَزُّ . قال :

* فَوُفِّرَ بَزٌّ ما هُنَالِكَ ضائعُ (١) *

يريدُ السيفَ . ووصَفَ الدِّرْع بالاطِّراد لتتابع سَرْدِها على حَدٍّ واحد ، لا اختلاف فى حَلَقِها ، ولا تفاوُتَ فى نَظْمِها . وجَعَلَها مُبْهَمًا لإحكامِها .

٧ — فلما رَأَيْتُ الصَّبْرَ قَدْ حِيلَ دُونَهُ وَإِنْ كَانَ يَوْمًا ذَا كَوَاكِبَ مُظْلِمَا (٢)

يقول : لمـا رأيتُ الأمرَ مُستفحِلاً ، والخَطْبَ عظيما مُستفظَعًا ، والصبرَ عامًّا لنا كُلِّنا ، مغلوبًا عليه ممنوعًا ، صَبَرْنا نحن من بين أصحابنا على عادتِنا المعهودة مِنّا ، ووطَّنّا أنفُسَنا على الشرّ . ويجوز أن يريد بقوله « لمّا رأيتُ الصبرَ قد حِيلَ دونه » لمّا رأيتُ الوقتَ وقتاً يُعالُ فيه الصبرُ ، ويُحالُ بين طالِبيه وبينَه .

---

(١) لقيس بن عيزارة الهذلى ، فى ديوان الهذليين (٣ : ٧٨) . وصدره :

* فويل ام بز جر شعل على الحصى *

(٢) م : « ولما رأيت » . التبريزى : « ولما رأينا الصبر » .

وقولُه « وإن كان يومًا ذا كواكب مُظْلِمَـا » اعتراضٌ بين لمّا وجوابِهِ ، وهو شَرْطٌ فى وقوع الصبرِ منهم يُترجِم عن الحال . أى صَبَرْنا وإن كان اليومُ يومًا مُظلِمًا تُرَى فيه الكواكب ظُهرًا ، لانسداد عين الشَّمس بغُبار الموت . وجوابُ الجزاء استُغْنِيَ عنه بجواب لمّا . وروى بعضُهم : « وأَنْ كان يومًا » بفتح الهمزة على أن يكون أنْ مخفَّفة من الثَّقيلة ، والمرادُ وأنه كان اليومُ يومًا ذا كواكب . وهـذا الرّاوى لعلّه لم يعرف الاعتراضاتِ والفصاحةَ فيها ، والتَبَس المعنى عليه أيضاً .

٨ ــ صَبَرْنا وكانَ الصَّبْرُ مِنَّا سَجِيَّةً بأسْيَافِنَا يَقْطَعْنَ كَفًّا ومِعْصَمَا(١)

يقول : حمَلْنا أنفُسَنا على المكروه ، وحبَسْناها فى مجالِ الموت والشرّ ، وكان ذلك مِنَّا عادةً وطبيعةً . وقوله « أسيافنا » يجوز أن يتعلَّق الباء منه بصَبَرْنا ، واعتَرَض بينهما قولُه « وكان الصبرُ منا سجيّةً » ، إذ كان أرادَ أن يُبيِّنَ أنّ ذلك الفِعْل ليس بمُسْتبدَعٍ ولا مُسْتنكَرٍ من أخلاقِهم . ويجوز أن يتعلق بما دَلّ عليه « وكان الصبر منا سجيَّةً » . ويَقطَعْنَ فى موضِعِ الحال للأسياف على الوجهين جميعاً . وفى طريقته قول نَهْشَل بن حَرِّيّ :

ويَوْمٍ كأنّ المُصْطلِينَ بحَرِّهِ وإن لم يكن نارٌ قُعُودٌ على جَمْرِ
صَبَرْنَا لَهُ حتى يَبُوخ وإنما تُفَرَّج أيّامُ الكريهة بالصَّبْرِ

٩ ــ نُفَلِّقُ هامًا من أُناسٍ أعِزَّةٍ عَلَيْنَا وهم كانوا أعَقَّ وأَظْلَمَا

يقول : نُشَقِّقُ هامَاتٍ من رجالٍ يَكرُمون علينا ويَعِزُّون ، لما يجمَعُنا وإيّاهم من الأحوال الوكيدة ، والحُرَم القويّة بالأنساب والأسباب ، وهم كانوا

---

(١) ابن جنى : « يريد أكفا ومعاصم ، فوضع الواحد موضع الجمع . . . وجاز ذلك لأنها إنما يقطعها كفا كفا ، ومعصما معصما ، فتصور هذه الحال فوحّد » .

أشدَّ عقوقاً وأتمَّ ظلماً ، بما اطَّرحوه من مراعاة الحقوق ، وبدءوا به من تَناسِى العُهود ، واستعجَلُوه من البَغْى ، وسَلَكُوه من سَنَن الغَىِّ . ويروى أن يزيد ابن معاوية لا رحمه الله[1] تمثَّلَ بهذا البيت لمّا وُضِع بين يديه رأسُ الحسين ابن علىّ رضى الله عنهما .

١٠ـ ولمّا رأَيْتُ الوُدَّليس بنافِعِى عَمَدْتُ إلى الأمْرِ الذى كان أحْزَمَا

١١ـ فَلَسْتُ بمُبتاعِ الحياةِ بِذِلّةٍ ولامُرْتَقٍ من خَشْيةِ المَوْتِ سُلَّما

قوله « إلى الأمْرِ الذى كان أحْزَمَا » جُعِلَ الحزْمُ للأمرِ كما جُعِل له العَزْمُ فى قوله تعالى : ﴿ فإذا عَزَمَ الأمْرُ ﴾ ، فكلٌّ ذلك مجازٌ واتساعٌ . وصَلَح أن يريد بقوله أَحْزَمَ ، أحْزَمَ من غيره ، لوُقوعِه خَبَرًا ، لأنه كما يجوز حذف الخبَر بأسرِه إذا دَلَّ دليلٌ عليه ، كذلك يجوز حذف ما يتمُّ به منه إذا لم يلتبس بغيره ، ولم يختلَّ الكلامُ بسببه . وقوله « لمّا رأيتُ الوُدَّ » حَذَفَ المُضاف فيه وأقام المضافَ إليه مَقامَه ، كأنه قال : لما رأيت مُراعاة الوُدِّ ومحافَظَتَه ، أو إظهار الود وإبقاءه . ومعنى البيت : لما رأيتُهم لا يَرْتَدِعُون عن ركوب الرّأس ، والمجاذبة إلى أقصَى ما فى الطَّوْق من اللَّجَاج والشرّ ، قصدْتُ إلى ما كان أَجْمَعَ للحَزْمِ معهم من مكاشفتهم ، وتَرْكِ الإبقاء عليهم ؛ لأن ظهور التّعادِى والتكاشُف خيرٌ من رُكوبِ الغُرُورِ[3] مع التشابُك . ويُلاحظ هذا البيتَ قولُ الآخَر :

إذا حاجةٌ عَزَّتْكَ لا تَسْتَطِيعُها فَدَعْها لأُخْرَى لَيِّنٍ لك بابُها

وقوله « فلستُ بمبتاعِ الحياةِ بسُبَّةٍ[2] » ، يقال ابتاعَ الشىءَ بمعنى اشترى ،

---

(١) م : « لعنه الله » .

(٢) الرواية فى متن البيت : « بذلة » . أما رواية « بسبة » فقد أشار إليها التبريزى .

(٣) كذا فى النسختين . والوجه « الغرر » .

وإن كان بِعْتُه بمعنى اشتريْتُه وبِعْتُه جميعًا . والسُّبَّةُ : الخَصْلَةُ التى يُسَبُّ بها ، فهى كالهُجْنَة والعُرَّة[1] . يقول : فَعَلْتُ ذلك ، فإننى لست ممن يَطْلُب العَيْش مع الذُّلّ ، ولا ممَّن يَرْتَقى فى الأسباب خوفًا من الموت ، بل المِيتَةُ الحَسَنَةُ على ما يتعقَّبُها من الأُحدوثة الجميلة آثَرُ عندنا ، وأَوْقَعُ من هَوَانا ، من العيشة الذَّميمة على ما يُخالِطُها من الرِّضَا بالدَّنِيَّة .

١٣٤

وَقَالَ بَشَامَةُ بن الغَدِير[2] :

١ — وَلَقَدْ غَضِبْتُ لِخِنْدِفٍ وَلِقَيْسِهَا لَمَّا وَنَى عن نَصْرِهَا خُذَّالُها

خِندفُ . لَقَبٌ لليلى امرأةِ الياسِ بن مُضَرَ ، لقولها لزوجها يومًا : ما زِلْتُ أُخَنْدِفُ فى أثَرِكُمْ — والخَنْدَفَةُ : مشية كالهَرْوَلَةُ — فقال لها : وأنتِ خِنْدِفٌ . فلزِمَهَا ، فصارت مُضَرُ نسلين : أحدهما ولد قَيس بن عِيلان ، والآخر خِنْدِفٌ . ويُرْوَى أنَّ رجلا على عَهْد الزبير بن العَوّام ظُلِم . فنَادَى : يالَخِنْدِفَ[3] . فخرج الزُّبير وبيده السَّيف ، وهو يقول : خَندِفْ أيُّها المخندِف ، والله لئن كنتَ مظلوما

---

(١) فى الأصل : « والعصرة » وفى م : « والغرة » ، والوجه ما أثبتنا ، والعرة بوزن الهجنة : ما يعترى المرء من جنون .

(٢) جعل التبريزى هذه الحماسية لبشامة بن حزن : وقال : « قال أبو هلال : فى الشعراء رجلان يقال لهما بشامة ، أحدهما بشامة بن الغدير ، وهو عمرو بن هلال بن سهم بن مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان . . . والآخر بشامة بن حزن النهشلى ، وهذا الشعر له . وقال الآمدى : هو لبشامة بن الغدير » . وابن الغدير خال زهير بن أبى سلمى ، كما فى المؤتلف للآمدى ص ٦٦ . وقد سبق لبشامة بن حزن الحماسية رقم ١٤ .

(٣) كذا فى الأصل . وفى م والتبريزى : « خندف إليك أيها المخندف » ، وصواب هذه الأخيرة : « أخندف إليك أيها المخندف » ، كما فى اللسان (خندف) ، وقال : « يقول : يا من يدعو خندفاً أنا أجيبك وآتيك . قال أبو منصور : إن صح هذا من فعل الزبير فإنه كان قبل نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن التعزى بعزاء الجاهلية » .

لأنصُرَنَّكَ . يقول : غَضِبْتُ لِنَسْلَىْ مُضَرَ خِنْدِفٍ وقَيْسٍ ، لما ونى عن معاونتها والنُّهُوض لها نُصَّارُها . ويقال وَنَى يَنِي وَنْيًا ، وهو وانٍ . وإنَّما قال : «خُذَّالُها» ولم يَقُلْ نُصَّارُهَا ، لأنَّه وصفهم بما آل إليه أَمرُهُم . وهذا كما يُقال قَتَلْتُ قَتِيلَ بنى فلان ؛ وقد مَضَى له أشباهٌ وأمثال . فكأنَّ الشاعر تبرع بما كان منه من المدافعة دُونهم والمقاتلة عنهم ، فلذلك تحمَّد به . وقال غَضِبْتُ لهم لما رَأَيتُ من وَجَب نُصْرتُهم عليه خَذَلَهم . وجواب لمَّا وَنَى ، ما هو صدر البيت .

٢ – دَافَعْتُ عن أعْرَاضِها فَمَنَعْتُها   وَلَدَىَّ فى أمثالِها أمْثَالُهَا

هذا تفسير للغضب الذى ذَكَرَهُ وبيان نتيجته . والعِرْض : النَّفْس ، ويُسْتَعْمَل فى الحسب . يقول : ذَبَبْتُ عَنْهَا ومنعت الأعداء منها ، وَلَدَىَّ فى أمثالِها من القبائل أمثال هذه النُّصْرة . هذا وَجه ، ويجوز أن يريد ولدَىَّ فى أمثال هذه النصرة أمثال هذه القصيدة . والقرائن التى تسوِّغ رَدَّ الضميرين إلى جميع ما ذكرناه حاضرةٌ فى الكلام قوية .

٣ – إنِّى امرؤٌ أَسِمُ القصائِدَ للعِدَى   إنَّ القصائد شَرُّهَا أَغْفالُهَا

هذا يمكن الاستدلال به على صحَّة المعنى الثانى ، ومعنى « أَسِمُ القصائد » : أعْلِمُها بما يصير كالسِّمَةِ عليها ، حتى لا تُنْسَبَ إلى غَيرى ، وحَتَّى يُعْرَفَ منها السبب الذى خَرَجتْ عليه ، فَمَنْ سَمِعَها عرف قصتها ؛ ولهذا قال إنَّ القصائد شَرُّها أغفالها ، أى شَرُّ الشعر ما لا مِيسَمَ لقائله والمَقُول فيه عليه . ويقال دَابَّةٌ غُفْلٌ ، إذا عَرِىَ من الأعلام . وسمعتُ من يقول فى البيت إنه مقلوبٌ ، والمرادُ أَسِمُ العِدَى بقصائدى ، كما قال الآخر[1] :

---

(١) هو المتلمس . ديوانه ص ١ نسخة الشنقيطى بدار الكتب والكامل ١٥٨ ليبسك .

* جعَلتُ لهُ فَوْقَ العَرَانينِ مِيسَمَا(١) *

والأوّل أكشَفُ وأصحّ ، بدِلالةِ أن الغُفْل جعَلَه من القصائد ، فكذلك الموْسومُ يجب أن يكون منها(٢) .

٤ ـ قوْمِي بَنُو الحْربِ العَوَانِ بِجَمْعِهِمْ والْمَشْرَفيَّةِ والْقَنَا إِشْعَالُهَا

يُرْوَى « والمَشْرَفِيَّةِ بالجرِّ » ويكون معنى البيت قَوْمِي إخوانُ الشَّرِّ الفظيع ، وأبناء الحرب التي قوتل فيها مرّةً بعد أُخْرَى ، فصارَتْ عواناً بعد أن كانت بِكْراً ، أي رُفِعَتْ من حَالٍ إلى حَالٍ أشدَّ منها ، ويكون هذا مثلَ قولِ الآخَر :

فلسنا من بنى جَدَّاء بَكْرٍ ولكِنَّا بَنُو جَدٍّ النِّقَالِ

وعلى ما ذكرنا يتمُّ الكلام بقوله العَوانِ ؛ ثم قال « بجمعهم » أي باجتماع قومى واجتماعِ آلات الحرب اشتعلت نارها . والباء من بجمعهم يتعلّق بقوله إشعالها . ويروَى « والمشرَفيّةُ » بالرّفع ، ويكون على هذه الرِّواية تمام الكلام عند قوله بجمعهم ؛ لأن الباء منه حينئذٍ يتعلّق بقوله العَوَانِ(٣) . والمعنى : قومى بنو الحرب التي عُوِّنت ، أي صارت عواناً بهم ، وباجتماع جيشهم ؛ ثم استأنف الكلام ؛ فقال : « والمشرفيّةُ والقنا » ، والمُراد واشتعال نارها بالرِّماح والسُّيوف المَشْرَفيّة .

---

(١) صواب الرواية : « جعلت لهم » . وصدر البيت :

* ولو غير أخوالى أرادوا نقيصتى *

(٢) التبريزى : « قال أبو العلاء : أى أجعل فيها شيئاً تشهر به وتعرف ، كما تعرف الناقة بسمتها . وأما الشعراء اليوم فيجعلون الموسوم من الشعر ما ذكر فى قافيته اسم الممدوح ، كقول الأعشى :

فآليت لا أرثى لها من كلالة ولا من حفى حتى تلاقى محمداً .

(٣) ابن جنى : « والقنا إشعالها ، أى ذوات إشعالها ليكون الثانى الأول ، وهذا واضح . والباء فى بجمعهم حال من قومى ، أى قومى فى حال اجتماعهم بنو الحرب . وعمل فيها ما فى بنى الحرب العوان من معنى الفعل . ألا تراه فى معنى صبر ومقدمون » .

وهذا الكلام — أعنى والمشرفية — وإن استُؤنِفَ به فمن صفة الحرب . وقيل في المشرفية إنَّها نسبت إلى المشارف ، وهى قُرًى معروفة تُجْلَب منها وتُطْبع بها . ويقالُ : أشعلتُ النَّار فى الحطَبِ ، وأشْعلتُ الخيلَ فى الغارة ، وأشعلته غضباً .

٥ — مازَالَ معروفاً لمُرَّةَ فى الوَغَى عَلُّ القَنا وعَليهمُ إنْهالُهَا

ما زال لدوام الماضى ، وارتفع عَلُّ القنا على أنّه اسمه ، وخبرُه معروفاً . والمعنى : سَقْيُ الرِّماح عَلَلًا بعد نَهَلٍ عادَةٌ معروفةٌ لهم ، فيما تقادم من الأيّام إلى الآنَ إذا حضروا الحرب . والعَلُّ والعَلَلُ : الشَّرْبَةُ الثّانية ، ويقال : عَلَّ إبلَهُ يَعُلُّها فَعَلَّت هى . وأَنْهَلْتُ الإبلَ ، إذا سقيتَها أوّلًا ، فَنَهِلَتْ ، إذا شرِبَت فى أوّل الورود حتّى رَوِيَت . ومثل هذا البيت قول الآخر :

نَهِلْنَا مِنْ دِماءِ بَنِى لُؤَىٍّ وأَنْهَلْنَا القَــنَا حَتَّى رَوِينَا

وتوسَّعُوا فى الاستعمال حتى سَمَّوا منازل السَّفْرَ على المياه مَنَاهِلَ . وإنما قال : « وعليهم إنهالُها » لأنّه كأنه جعل ذلك واجبا عليهم .

٦ — من عَهْدِ عَادٍ كان مَعْرُوفاً لنا أَسْرُ المُلُوكِ وقتْلُها وقِتالُهَا

وَضَعَ مِنْ فى قولِهِ « من عَهْدِ عَادٍ » موضع مُنْذ لقوّتها وكثرةِ تصرُّفها وتمكُّنها فى باب الجرّ ، وأداء معنى الابتداء ، ومِثلُه قول الله تعالى : ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ على التَّقْوَى مِنْ أوّل يَوْمٍ أَحَقُّ ﴾ ، وقولُ الرّاجز :

من غُدْوةٍ حَتَّى كأنَّ الشَّمْسَا بالأُفُق الغربىِّ تُطــلَى وَرْسا

ومعنى البيت أنّه نبَّه على مجاذبتهم للملوك والعِلْيَة ، لا للأذناب والسَّفِلَةِ . والقِتال فى ترتيب الفِعْل مُسَابِقٌ[١] للأَسر والقتل ، لـكنّه لم يُبالِ بتأخيره فى ترتيب اللفظ ، لأنَّ الواو لا يُوجِبُ فى العطفِ ترتيباً ، إنما هو مَوْضُوعَةٌ للجَمْع

(١) كذا فى النسختين .

فقطّ ، وتبجّح أيضاً بأن ذلك قديمٌ فيهم[١] منذ زمن عادٍ لا حديثٌ .

١٣٥

وقال أرْطَاةُ بنُ سُهَيَّةَ[٢] :

١ — ونَحْنُ بَنُو عَمٍّ على ذاكَ بيننا   زَرَابِيُّ فيها بِغْضَةٌ وَتَنافسُ[٣]

يقول : نحن أبناء عمٍّ ، وعلى ما بيننا من القُرْبَى والقرابةِ فُرِشَتْ بيننا بُسُطُ شَرٍّ تشتمل على تباغُضٍ وتحاسُدٍ . وذِكْرُ الزرابىّ مَثَلٌ هاهنا ، وهى البُسُطُ ، واحِدُها زِرْبِيَّةٌ وزِرْبِيٌّ[٤] ، وقال أبو عبيدة : وهى فى لغةٍ أخرى الشَّوَاذكين[٥] : وأنشد لذى الرُّمَّةِ :

تَرَدَّيْتَ مِن أفوافِ نَوْرٍ كأَنَّهَا   زَرَابِيُّ وَارْتَجَّتْ عليكَ الرَّوَاعِدُ

وفى القرآن : ﴿ ونَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ . وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ ؛ أى مفرّقة فى المجالس . ويقال : اطْوِ بِساط الشرّ بينى وبينك . ويقولون أيضاً : أعطانى فلانٌ فى بِسَاط كلامه كذا ، أى فيما بَسَطَ منه . وقال الخليل فى الزرابىّ : إنّها

(١) فى الأصل : « قديماً منهم » ، وأثبتنا ما فى م .

(٢) ذكر ابن جنى فى المبهج أن الأرطاة واحدة الأرطى ، وأن سهية تحقير سهوة ، يقال فرس سهوة ، إذا كانت سهلة الجرى . وسهية أم أرطاة غلبت على نسبه ، وأبوه زفر ابن عبد الله بن مالك . وأرطاة شاعر إسلامى فى دولة بنى أمية لم يسبقها ولا تأخر عنها ، وقيل أدرك الجاهلية وعاش إلى خلافة عبد الملك بن مروان . وهو من بنى مرة بن عوف بن سعد ، وكان ممن وفد على عبد الملك بن مروان وكان عمره إذ ذاك مائة وثلاثين سنة . الأغانى (١١ : ١٣٤ — ١٤٠) والاشتقاق ١٧٦ — ١٧٧ والإصابة واللآلئ ٢٩٩ : ٦٣٠ .

(٣) التبريزى : « قيل إنها فى ديوان أرطاة : زرائب على مثال غرائب ، فكأنه جمع زريبة ، فجعل العداوة زريبة لأنها تزرب فى القلب ، أى تدخل » . وأنشده أبو الندى « زآنب » وهى القوارص ، قال أبو الندى : ولا أعرف لها واحداً .

(٤) بتثليث الزاى فيهما ، كما فى اللسان .

(٥) كذا ورد هذا اللفظ . ولعل له صلة بكلمة « شادكونه » الفارسية ، بمعنى ما ينام عليه الإنسان من حشية ونحوها . انظر معجم استينجاس ٧٢٢ .

القُطُوعُ الحِيرِيّة الرَّقيقة . وفى كلام بعض الفصحاء : « فُرِشَت بيننا قُطُوعُ النَّمَائم » . فعَلَى هذا استعمل هذا الشاعر الزَّرابِىّ . فأما قوله « على ذاك بيننا » ، فإنما أشار بذلك إلى ما جَمَعَهم من سببِ العمومة ونَسَبِها . ويُرْوى : « على ذاتِ بيننا ، زرابِىٌّ » كأنه أراد بذاتِ بينِهم خالِصَةَ النَّسب والقَرابة ، ثم جعل فوقها ما قد غَمَرَها وسترها من زرابِىِّ الفساد . ويُروى :

. . . . . . على ذاك بيننا تَنَاءٍ وفينا بِغْضَةٌ وتنافسُ

والمعنى : وعلى ما يجمَعنا من الرَّحِمِ ينأى بعضُنا عن البعض ، ومع ذلك بيننا تدابُرٌ وتباغُضٌ ، وتهاجُر وتقاطُع . كأنهم جعلوا التنائىَ مداواةً فى إزالة ما بينهم فلم ينفع .

٢ — ونَحْنُ كَصَدْعِ العُسِّ إن يُعْطَ شَاعِبًا يَدَعْهُ وفيه عَيْبُهُ مُتَشَاخِسُ

العُسُّ : القَدَحُ الضخمُ . والشَّعْبُ ، يستعمل فى الجمع والتفريق . ويقال أيضاً : تفرَّق شعبُهم . والشاعِبُ هاهنا : مُصْلِح القِدَاح . يقول : استَحْكم الفسادُ بيننا حتى لا يَقْبَل صُلْحًا ولا صَلَاحا ، وتفاقَمَ الانصداع حتى لا يلتحم تبايُنًا وتدافُعًا ، فلن تعودَ الحالُ إلى ما كانت وإن أَمسَكْنا عن إثارة الشرّ والزيادة فيه زمانًا ، وتصنَّعْنا فى الاحتمال والمُقاربة إبقاءً على الحظّ من المراجعة وإدْناءٍ ، بل يكونُ ما بيننا كالشَّقّ فى القَدَح ، إن أُعْطِىَ شاعِبًا تركَهُ والعَيْبُ ظاهر فيه ، غير مُنْكَتِمٍ ولا خافٍ . والمتشاخِس : المتفاوتُ المُتَباينُ . ومنه قولُهم : تشاخَسَت أسنانُه من الكِبَر ، إذا اختلفَتْ . قال الخليل : هو أن يسقط بعضُها ويميل بعضُها . وقيل الشَّخْسُ فى الأصل فتْح الفم للتثاؤُب . ويجوز أن يريد بقوله « وفيه عَيْبُه » : ومَعِيبُه هكذا . وفى طريقته قول الآخَر :

ومِنَ المَوَالِى ضَبُّ جَنْدَلَةٍ نَخِرُ المَوَدَّةِ ظاهِرُ الغمْرِ

وقد أَحسَنَ أَبَانُ اللاَّحِقِيُّ فى مُزْدَوِجَتِه حينَ قال :

وإنما مـــودَّةُ الأشرار　　فى وَهْيِهَا كمَثَلِ الفَخَّارِ
يصيبُه أَدْنَى يَدٍ فَيَنْكَسِرْ(١)　　وليس يُرْجَى شَعْبُه إذا جُبِرْ

٣ ــ كَفَى بَيْنَنَا أَلَّا تُرَدَّ تَحِيَّةٌ　　على جَانِبٍ ولا يُشَمَّتَ عَاطِسُ

يُرْوَى « يشمَّت » بالشين والسِّين ، وهما بمعنًى واحد ، وسمعْتُ أبا علىّ الفارِسىّ يقول فى اشتقاق التَّسميت بالسين غير معجمة — وهو قولُك للعاطِس : يرْحمك الله — فقال : كأنّه إذا عَطَسَ لحقَتْه نَفْضَةٌ فى جسمه ، فإذا دعا الداعى له فكأنه ردَّه إلى سَمْتِه وهَدْيه . وقال فى التشميت بالشين معجمة : كأنّه التثبيت من الشَّوامِت وهى القوائم(٢) . يقول : يكفيك من الشَّرّ الرَّاتب بيننا أنَّه لا تُرَدُّ تحيَّةُ الواحِدِ مِنَّا — يريد جَوَابَ تسليمه — وإن كان الالتقاء معه عن عُفْرٍ كالالتقاء مع الأجانب والغُرباء ، وأنَّه إذا عَطَسَ واحِدٌ لا يُتلَقَّى بالدُّعاء له على ما استمرَّ وعُرِف من عَادَةِ الناس فى تَنادِيهم وتجاورهم(٣) . وقوله « كَفَى بيننا » هو بينَ الذى كان ظَرْفاً ، فنقله إلى باب الأسماء . ومثله قولُ الله عز وجل : ﴿ لقد تَقَطَّعَ بَيْنُكُم(٤) ﴾ وقال الشاعر(٥) :

كَأَنَّ رِمَاحَهُمْ أَشْطَانُ بئرٍ　　بَعيدٍ بين جَالَيْهَا جَرُورِ

ويجوز أن يُرْوَى « أن لا تُرَدُّ » بالرفع ، وكذلك « ولا يُشَمَّتُ » على أن

(١) كذا فى الأصل ، وفى م : « أدنى أذى » .
(٢) قال ابن جنى : « وذلك أن القائمة هى التى تحمل الفرس ونحوه ، وبها عصمته ، وهى قوائمه . وكأنه إذا دعا له فقد ثبت أمره وأنهضه وأحكم دعائمه » .
(٣) كذا فى النسختين ، بالجيم .
(٤) وردت فى الأصل بفتح النون والاستشهاد يقتضى ضمها كما فى م . والأولى قراءة نافع وحفص والكسائى وأبى جعفر ، وقرأ الباقون بالضم . إتحاف فضلاء البشر ٢١٣ فى سورة الأنعام .
(٥) هو مهلهل . انظر الكامل ٢١٢ ، ٣٥٢ ليبسك . وانظر القصيدة بتمامها فى أمالى القالى (٢ : ١٢٩ - ١٣٣) .

تَجْعَلَ أن مُخَفَّفَةً من الثقيلة . ويكون المراد أنه لا تُرَدُّ تحيةٌ . ومثله قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أن لا يرجع ﴾ ، بالنصب والرفْع .

١٣٦

وقال عَقِيلُ بنُ عُلَّفَةَ(١) :

١ ـ تَنَاهَوْا واسألوا ابنَ أَبِي لَبِيدٍ أَأَعْتَبَهُ الضُّبَارِمَةُ النَّجِيد

يقول : كُفُّوا عما أنتم عليه من تهييج الشّر ، وأَمسكوا عن الشّر في تأريث نار الحرب ، واسألوا هذا الرجل : هَلْ أرضاه الأسدى القويُّ الغليظ الشديد لمَّا تحكّك به ، وهل وفّاه ما استحقَّهُ عليه . كأنَّه جَعَل إنزاله السُّوء به والزّيادةَ عند تـكرُّهِهِ له إعْتَاباً ، على التهكم والسُّخريَّة . ومثله في ذلك قول بِشْرٍ :

غَضِبَتْ تَمِيمٌ أَنْ تُقَتَّلَ عَامِرٌ يوْمَ النِّسَارِ فَأُعْتِبُوا بالصَّيْلَمِ

والضُّبارِمَةُ ، قال الخليل : هو الجرىء على الأعداء . وسمى الأَسَدُ ضُبارِمًا . قال : ويُقال هو الأسَدُ الوثيقُ الخلْقِ ، المكتنز اللحم . ويجوز عندى أن يكون من معنى المُضَبَّر لا من لفظه ، فيكون من باب دَمِثٍ ودِمَثْرٍ ، ودُلامِصٍ ودِلاصٍ وسَبِطٍ وسِبَطْرٍ . والنَّجِيد : ذو النَّجْدةِ ، وهى البأسُ والشِّدَّة .

(١) هو عقيل بن علفة بن الحارث المرى . شاعر مجيد من شعراء الدولة الأموية ، وكان معروفا بكبره واعتزازه بنفسه . وانظر أخباره فى الأغانى (١١ : ٨١ ـ ٨٩) وابن سلام ٢١٤ والخزانة (٢ : ٢٧٨ ـ ٢٧٩) . وعقيل ، بفتح العين ، قال ابن جنى فى المبهج : « اسم مرتجل ، ويمكن أن يكون فعيلا بمعنى مفعول ، أى معقول ... والعلف : ثمر الأراك ، الواحدة علفة » .

٢ — ولَسْتُم فاعِلِينَ إخَالُ حَتَّى يَنَالَ أَقاصِيَ الحطَبِ الوَقُودُ

حَذَفَ مفعولَ قولِهِ فاعلين ، وهو ما دَلَّ عليه قوله فى البيت قبله « تَنَاهَوْا » كأنّه قال : ولَسْتُمْ فاعلين التَّنَاهِيَ . يقولُ : ما أَرَى أنكم تنتهون إلى ما رَسَمْتُ ، أو تَقْبَلُون كلامِي الذى إليه أشَرْتُ ، حَتَّى يَعْظُمَ الخطْب ، ويَبْلُغ البلاء أقْصَى مبالِغ الجُهْدِ ، فيَتعدَّى الأقاربَ إلى الأباعد ، وَيتأدَّى من السَّقيم إلى البرىء . وذِكْر الحطَب والوَقود هاهنا مَثَلٌ لتفاقم الشّأن واستفحاله ، واتّساع المكروه واشتماله . وقد مَضَى القولُ فى « إخَالُ » وكَسْرِ الهمزة منه .

٣ — وأَبْغَضُ من وَضَعْتُ إلىّ فيه لِسَانِى مَعْشَرٌ عنهم أَذودُ

يقول : إنِّى متعطِّفٌ على عشيرتى وإن كانوا مُسِيئين إلىّ ، متكرِّمٌ معهم وإنْ كانوا متحاملين عَلَىَّ ، فأبْغَضُ إنسانٍ أَذْكُرُه وأتناوَلُه بلسانى مُتَنَقِّصًا له ، قومٌ أَدْفَعُ عنهم فى وَقْتِى ، وأُحامِى عليهم فى ظاهِرِ أمْرِى . وفى البيت تقديمٌ وتأخيرٌ ، وأَصْلُ ترتيبه : أبْغَضُ مَن وَضَعْتُ لِسَانِى فيه إلىَّ قَوْمٌ هكذا شأنى معهم . وهذا تنبيهٌ على أنَّ الرشادَ فى المحافظة على حُرَمِ ذوى الرَّحِمِ وإن كانوا مُنابِذِين . فمَنْ مِنْ قوله « أبْغَضُ مَنْ » نَكِرةٌ موصوفَةٌ ، وصِفَتُهُ وَضَعْتُ لسانى فيه الجملة . وقد فَصَلَ بين بَعْضِها والبعض الآخر بقولِهِ « إلىّ » وهو أجنبىٌّ منها . وهذا فى الصفة أقْرَبُ منه فى الصِّلة ، فاحتمالُه فيه أَقْرَبُ . ومِثْلُ هذا قولُ جرير :

فَلَوْ شَاءَ قَوْمِى كان حِلْمِىَ فِيهِمُ وكان على جُهَّالِ أعدائِهِم جَهْلِى

ومعنى أذُود : أَدْفَعُ ، ومنه سُمِّىَ اللسانُ المِذْوَدَ ، وهذا كما سُمِّىَ المِفْصَلَ .

٤ — ولَسْتُ بِسَائِلٍ جَارَاتِ بَيْتِى أَغُيَّابٌ رِجَالُكِ أَمْ شُهُودُ

يحتمل وجهين : أحدُهما أن يتبجَّح بتعفُّفه فى جَارَاته ، وأنّه لا يتطلَّبُ

مفارقة القَيِّمينَ بهنّ ، مبرصِّدًا للتمكّن منهنّ ، فيكون ذلك باعِثاً للسُّؤال عن رجالهنّ ، ليغتنم الخَلْوَةَ بِهِنَّ . والثانى أن يريدَ رَفْعَ الطَّمَعِ عن جِيرَتِهِ ، وقِلّةَ الفِكْرِ فى تتبُّعِ أحْوَالِهِم ، عند حضورِهِم وغيبتهم ، إذْ لم يكن هَمُّه فى النَّيْلِ منهم ، ومشاركتِهم فيما يتجدّد لهم من خَيْر ، فِعْلَ المُسِفِّ للمطامعِ الدنيّة . ويكون هذا كما قال الآخر :

وإذا أتى من وجْهِهِ بِطَرِيقِهِ   لم أطَّلِعْ مِمَّا وَرَاء خِبَائِهِ

وهذا أوْجَه ، لأنَّ ذِكر العِفّة قد جاء من بَعْدُ .

٥ ــ ولَسْتُ بِصادِرٍ عن بيتِ جَارِى   صُدُورَ العَيْرِ غَمَّرَهُ الوُرُودُ[1]

هذا يَشْهَدُ لمـا اخْتَرْنَاهُ فى تفسير ما قَبْلَهُ ، فيقول : وإذا دَعَانِى الجار إلى بَيْتِهِ يُكْرِمُنِى بِبِرِّه ، ويُشْرِكُنِى فى خَيْرِه ، لا أنْصَرِفُ عنه والطَّمَعُ فيه بحاله ، والاستغنام للحقير من مَالِهِ وطَعَامه على حَدِّه ، انصرافَ العَيْرِ عن المَاءِ وقد غَمَّرَهُ الورود . والتَّغْمِير كالتَّصريد ، وهو شُرْبٌ دون الرِّىّ . ومنه الغُمَرُ : القَدَحُ الصَّغِير ، وقال الخليل : يُتَكَايَلُ به الماء فى المَهَامِهِ . وأنشد :

تَكْفِيهِ حُزَّةُ فِلْذٍ إنْ أَلَمَّ بهـا   من الشِّوَاءِ ويُرْوِى شُرْبَهُ الغُمَرُ[2]

وقيل فى غَمَّرَهُ معناه أرواهُ من الغَمْر : المـاء الـكثير ، فيكون المعنى : إنّى لا أتَهَالَكُ على طامه فِعْلَ المَنْهُوم الخسيس الهِمَّة فاتَضَلَّعُ ، لـكنى آكُلُ أكلاً كريماً . وهذا المعنى أقْرَبُ عِنْدِى .

٦ ــ ولا مُلْقٍ لِذِى الوَدَعَاتِ سَوْطِى   أُلاعِبُـــهُ وَرِيبَتَـــهُ أُرِيدُ

---

(١) التبريزى : « قال أبو رياش : البيتان الأخيران لابن أبى نمير القتالى ، من بنى مرة ، جاء بهما أبو تمام صلة فى هذه الأبيات ، وليسا منها » .

(٢) لأعشى باهلة يرثى أخاه المنتشر بن وهب . اللسان (غمر) وإصلاح المنطق ٥، ٩٨ و ٣١٦ . وقصيدته فى حماسة ابن الشجرى ١٠ والأصمعيات ٣٣ ليبسك .

هذا مثلُ قولِ الآخر(١) :

لا آخُذُ الصِّبْيَانَ أَلْثَمُهم والأمرُ قد يُغرى به الأَمْرُ

وفى طريقته أيضاً قول الآخَر :

أُحِبُّ صَبِيَّ السَّوْءِ من أَجْلِ أُمِّهِ وأبغضُه مِنْ بُغْضِها ، وهو حادِرُ(٢)

أى حَسَنُ الخَلْق : يَصِفُ عِفَّتَه فيقول : لا أُلْقِي سَوْطِى بين يَدَىِ الصبىِّ الذى فى عُنُقِه عُوَذٌ وتمائم لصِغَره ، أُلاعِبُه فى الظاهرِ ، وأُضمِرُ التودُّدَ إلى أُمِّه وأطلُب الخَلْوَةَ بها لاشتغالِه . وهذا إذا رَوَيْتَ : « وربَّبتَه أُرِيدُ » ، وقولُه أُلاعِبه فى موضع الحـال . ويُرْوَى : « ورِبيبَتَه » وهو أَكْشَفُ . ورأيتُ من يَقْصُرُ الأبياتَ الثلاثة على صِفة العفّة عن الجارات ، وأن يكون كلُّ بيتٍ منها لمعنًى أَحسنُ وأَوْلَى .

١٣٧

وقال محمَّد بن عبد الله الأزدِىّ(٣) :

١ — لا أَدْفَعُ ابْنَ العَمِّ يَمْشِي على شَفًا وإنْ بَلَغَتْنِي من أذاهُ الجَنَادِعُ

الشَّفَا : حَرْفُ الشىء . ويمشى فى موضِـع الحال . والبيت يحتمل وجهين : أحدهما أن يكون المعنى إذا أَشْفَى ابنُ عمّى على بلاء وشَرٍّ يُخاف عليـه منه ، ويُخْشَى عَطَبُه فيه ، فإنى لا أَدفَعُ فى صدرِهِ تحامُلا عليه ليقتحمه ، ولا أَزُجُّ به فيه لأُغْرِقه . ويجوز أن يريدَ : إذا انحرَفَ عنى مهاجِرًا لِى ومشَى على جانبٍ من المؤَانسة معى لا أُنفِّره ، ولا أُتمِّم استيحاشَه بما أُثيرُ من كوامن غيظه ، وإن

(١) هو مسكين الدارمى . أمالى القالى (١ : ٤٥) .

(٢) أنشده فى اللسان (حدر) شاهداً على أن الحادر : الغليظ .

(٣) المبهج : «قد قالوا الأزد والأسد ، وكأن الزاى يدل من السين ، وكلاهما علم مرتجل» .

بلغَتْنى الدواهى عنه ، وقاسيتُ الشدائد من التأذِّى به . أى لا أنتهزُ الفرصةَ فى مكاشفته وإن اتصل بالسُّوء تعرُّضُه ، ودام فيما يَعِنُّ اعتراضُه . والجَنَادِعُ فى الأصْل تُستعمل فى هوامِّ الأرض ، تُستعمل كنايةً عن ضروب المَكاره وأنواع الأذى . ومن قولهم[1] : « بَدَت جَنادِعُه والله جادِعُه » . وهذا كما استعاروا العقاربَ فقالوا : دَبَّتْ عقاربُه . وقال الخليل : الجَنَادع : جَنادب فى جِحَرة الحِشَرات يخرُجْن إذا كان الحافرُ يبلغ أقصاها . ومنه قيل فى المثل : « جاءت جَنادِعُ الشرِّ » ، أى أوائله . واستعمل فى الكلام أيضا فقيل جنادعُ القوْلِ لِمَا يَسُوء منه . ويجوز فى قوله « يمشى على شَفًا » وَجْهٌ آخر حَسَنٌ ، وهو أن يكونَ يمشى فى معنى يَنِمُّ ويَحطبُ . وفى المَثَل : « هو أضْرَبُ من مشَى بشَفَةٍ[2] » . وكأنه مأخوذٌ من قوله تعالى ﴿ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ ، ويكون على هذا قولُه «على شَفًا» متعلِّقًا بمضْمَر ، كأنه قال : يَفعَل ذلك كائنًا على شَفًا أو حاصلا ؛ والمعنى مُنْحَرِفًا : أى لا أدفَعُهُ عن التَّحريش والنَّميمةِ قَهْرًا وعُنْفًا ، ولكن أعْطِفُه بالحُسْنَى .

٢ ـ ولكنْ أُواسِيهِ وأنْسَى ذُنُوبَهُ لِتَرْجِعَهُ يومًا إلىَّ الرواجِعُ

قولُه « أواسيه » أى أجعلُه إسْوَةَ نفسى ، فأقاسمه مالِى ومِلْكى : يقول : لكنِّى أتناسَى ذُنوبَه وهَفَواتِه ، وأتغابَى جرائمَه وزَلاتِه ، وأُحْسِنُ التأتِّىَ فى أثناء ذلك لمواساته ، عند ما أنتظر من فَيْئَتِه وعَطْفَتِه ، حتَّى يرُدَّه إلى ما كان عليه من قَبْلُ دَوَاعى الأحوالِ ، وتَشَابُكُ الأرْحام ، ورواجِعُ العَقِبِ ، ولواحِقُ النَّسَب . وهذا الذى وَصَفَهُ هو الغاية فى الإبقاء والاستبقاء .

٣ ـ وَحَسْبُكَ من ذُلٍّ وسُوءِ صَنِيعَةٍ مُنَاوَاةُ ذِى القُرْبَى وإنْ قِيلَ قاطِعُ

---

(١) م : « ومن كلامهم » .

(٢) كذا فى م والتبريزى . وفى الأصل : « هو أخرب » ، بالخاء .

يقول : كافيك من سُوء الفِعْل واكتساء الذُّلِّ ، أن تُناوِئ أقاربَكَ وإن كانوا قاطِعِينَ عاقِّينَ ، مُهَاجِرِينَ مُصَارمين . وإنّما قال « من ذُلٍّ » لأنَّ عِزَّ الرَّجُلِ بعشيرتِهِ ، ومن أَوَاتَ نفسَه الحظَّ منهم فقد ذَلَّ . ولِلمُنَاواة أَصْلُها الهَمْز ، واشتقاقها من النَّوْء : النُّهُوض . كأنَّ المتَعادِيَيْنِ يُناهِضُ كلُّ صاحِبَهُ إما بنَفْسِه ، وإما بعقيدته ونيَّتِه . وقوله « سُوءِ صنيعةٍ » جَعَلَ الصَّنيعة اسما فهى كالكريهة . وقوله « وإن قيل قاطِعُ » ارتَفَعَ قاطعُ على أنَّهُ خَبَرُ ابتداءٍ مُضْمَر ، كأنَّهُ أراد وإن قيل هُوَ قاطع . وفى طريقته قول الحطيئة :

فأبقُوا الا أبَالَكُمُ عليهِمْ[1] فإنَّ مَلَامَةَ المَوْلَى شَقَاء

وروى بعضهم : « وأَنْ قيل » بفتح الهمزة ، كأنَّهُ يَعْطِفُهُ على قولِهِ مُناواةُ ، والمعنى حَسْبُكَ من الأمْرَيْنِ المذكورين مُناوَاةُ الأقارب ، وقول الناس هو قاطِعٌ عاقٌّ . والأوّل أجْوَدُ وأشْبَهُ بما اقتصَّهُ وتَصَرَّفَ فيه .

١٣٨

وقال آخَرُ :

١ ــ إن يَحْسِدُونى فإنِّى غَيْرُ لائِمِهِمْ قَبْلِى من النَّاسِ أهْلُ الفَضْلِ قد حُسِدُوا[2]

الضمير فى « يحسدونى » لطائفةٍ من الناس خَصَّهم بالإخبار عنهم ، وقَصَدَهم بالكلام . فيقول : إنْ نافَسُونى وحَسَدونى ، ورَمَقُوا النِّعْمَةَ عَلَيَّ بعيْنِ التَّسَخُّطِ . فإنِّى لا ألومهم ولا أعْتِب عليهم ، إذْ كان التَّنَافُسُ والحَسَدُ يَتْبَعَان الفَضْلَ ،

(١) وكذا فى الديوان ٢٧ . وفى م : « عليكم » تحريف . وبعده :

فإن أباهم الأدنى أبوهم وإن صدورهم لكم براء

(٢) الابيات فى أمالى القالى (٢ : ١٩٨) وعيون الأخبار (٢ : ١٠ ــ ١١) . ورواية عيون الأخبار :

* إن تحسدونى فإنى لا ألومكم *

وإذْ كانَ من قَبْلَنا اعتادَ بعضهم من بَعْضٍ مِثْلَ ما نراه بسبب الفضل . وقد أحْسَنَ كلَّ الإحْسَانِ من قَالَ :

وإذا سَرَحْتَ الطَّرْفَ حَوْلَ قِبابِهِ لم تَلْقَ إلا نِعْمَةً وحَسُودا(١)

فأمّا قولُه « قَبْلى من الناسِ أهْلُ الفَضل قد حُسِدوا » . فمِثْلُهُ قول عُمَر بن أبى ربيعة :

* وقَديماً كانَ فى النّاسِ الحَسَدْ(٢) *

وقَبْلِى جَعَله لغواً ، ومن الناس تَبْيِينٌ ، وقد حُسِدوا خبر المبتدأ .

٢ــفَدَامَ لِى ولَهُمْ ما بِى وما بِهِمُ وماتَ أكْثَرُنا غَيْظاً بما يَجِدُ

هذا الكلامُ دُعَاءٌ لنفْسِه وعليهم ، على طريق التَّسَلِّى وقلّة الاحتفال ، ولأنَّ الحاسِدَ يَرْفَعُ الخاملَ من الفَضْل ويُنَوِّدَ به . فيقول : أدَامَ اللهُ لى ما أنا عليه من الفَضْلِ ، ولَهُمْ ماهم عليه من الحَسَد ، وماتَ أكْثَرُنا لغَيْظِه بما يَجِدُ . وقولُه « ومات أكْثَرُنا » الأكْثَرُهم الحَسَدَةُ ، لأنّه — وإن أدْخَلَ نَفْسَهُ فيمن أضَافَ الأكْثر إليه — واحِدٌ . وقوله « بما يَجِدُ » حَذَفَ المَفْعُولَ ، والمعنى بما يجِدُهُ فى نفْسه من الحَسَد ، أو بما يَجِدُهُ من النِّعمة والفَضْلِ عند المَحْسُود . وحَدَّثنى أبو عبد الله حَمْزَةُ بن الحسن قال : سمعت أبا الحسن علىّ بن مهدىّ الكِسروىّ يقول : أنا قد تتَبَّعْتُ من دواوين الشُّعراء قديمِهم ومُحْدَثِهم فوجدتُ أبا تمّامٍ الطائىَّ متفرِّداً بمعنى قوله :

وإذا أرادَ اللهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ طُوِيَتْ أتاحَ لهَا لِسَانَ حَسُودِ
لَوْلَا التخوُّف للعواقب لم يَزَلْ للحاسِدِ النُّعْمَى على المَحْسُودِ

(١) فى م : « فإذا سرحت » .
(٢) صدره فى الديوان ٧٦ :
* حسد حملته من شأنها *

غير مَسْبُوقٍ إليه . وعندى أنَّه أخذه من فَحْوَى هٰذين البيتين وإن كان زاد عليه .

٣— أنا الذى يَجِدُونِى فى صُدُورِهِم   لا أَرْتَقِى صَدَرًا مِنْهَا ولا أَرِدُ

قَوْلُهُ « يجِدُونِى » كان يجب أن يقولَ يجدوننى ؛ لأنَّ الفِعْل فى موضِعِ رَفْعٍ ، لكنّه حَذَفَ النون تخفيفاً . وكان يجب أن يَقُولَ لَوْ جرَى على حُكْمِ الصِّلَةِ : يجدونَهُ ، حتَّى يكُونَ فى الصِّلة ضميرٌ يَعُود إلى الّذى . وإنّما جازَ أن يجىءَ وليس فيه ما يَعُودُ إلى الذى وإن كان صِلَةً لَهُ ، لأنَّ الذى خَبَرُ أنا ، وهو والمبتدأ شىءٌ واحِدٌ ، فلما كان الأول والثانى شيئًا واحِدًا لم يُبَالِ أن يَرُدَّ الضمير الذى يجب رجُوعُه إلى الثانى إلى الأوّل . ومثْلُ هذا ما نُسِبَ إلى أمير المؤمنين عليه السلام :

* أنا الذى سَمَّتْنِ أُمِّى حَيْدَرَهْ[1] *

فقال سَمَّتْنِ ولم يقل سَمَّتْهُ . وقد مَضَى القولُ فى مثلِهِ فيما تقدَّم مُسْتَقْصًى ، ومعنى البيت : أنا الذى صِرْتُ غُصَّةً فى صُدورِهم قد نَشِبَتْ فَلاَ تَصْدُرُ ولا تَرِدُ ، أى صارت لازِمَةً لا تَسُوغُ ولا تؤوبُ . وقولُه « صَدَرًا » مَصْدَرٌ فى مَوْضِعِ الحال . و « لا أَرْتَقِى » إن جعلْتَ فى صدورهم لَغْوًا يكون فى موضع المفعول الثانى ، وإن جعلْتَ فى صدورهم مفعولا ثانيا كان لا أَرْتَقِى حالا .

١٣٩

وقال آخر :

١— الشَّىءُ يَبدؤُهُ فى الأصْلِ أصْغَرُهُ   ولَيْسَ يَصْلَى بِكُلِّ الحرْبِ جانيها

يَبْدَؤُهُ أى يبدأ منه ، فحذف حرف الجر وَوَصل الفِعْلَ فنَصَب . يقول :

---

(١) سبق الرجز فى ص ١١٥ .

أوائلُ الأمور ضعيفةٌ ، ومبادئُها صغيرةٌ حقيرة ، ثم تَستحكم على مَرّ الأيام وتَصرُّف الأحْوالِ فتعظُم . وهذا كما قال الآخَرُ[(١)] :

الحربُ أوّلَ ما تكونُ فُتَيَّةٌ   تَسْعَى ببِزَّتها لِكُلّ جهولِ

وفى طريقته قولُ الآخَرِ[(٢)] :

* كم مَطرٍ بَدْؤُهُ مُطَيْرُ[(٣)] *

وقولُه «وليس يَصْلَى بنار الحرْب جانيها» يُروَى : «بِجُلّ الحرب» والمعنى : لا يَصطَلِي بنار الحرْبِ ومُعْظَمِهَا مَن يكتسبُها ويوقِدُها فقط ، بل يحصُل بالمشاركة فيها ويُمْنَى بِبَلْوَاهَا ، مَن لم يَنْقُل خَطْوَته فى بَعْثِها ، ولم يَسْعَ فى تهييجها .

٢ــ والحَرْبُ يَلحَقُ فيها الكارِهونَ كما   تَدْنُو الصِّحَاحُ إلى الجَرْبَى فتُعْديها

يقولُ: شَرُّ الحَرْبِ يُعْدِى إعداءَ الجَرَبِ ، فتَرى الكارِه لها يَلتَحِقُ بها[(٤)] وإن كان غيرَ حازمٍ لها ، وتَلْقَى البعيدَ منها يصطلِي بحرِّها وإنْ لم يُذْكِها[(٥)] ولم يُشَيِّعْ مَوقِدَها . وفى هذا التشبيه خروجُ المُشَبَّه من الكُمُونِ إلى الظُّهُورِ ، ومن الخَفَاءِ إلى البرُوز ، حتى يَتجَلَّى لِمُتأَمِّله والمُفكِّرِ فيه على بُعْدِه فى التصوُّرِ تَجَلِّيَ القريبِ فى العُرْفِ والاعتياد . وهذا هو غايةُ المراد من التَّشبيهات .

٣ــ إنِّى رأيتُكَ تَقْضِى الدَّيْنَ طَالِبَهُ   وقَطْرَةُ الدَّمِ مَكْرُوهٌ تَقَاضِيها

هذا البيتُ يصلحُ أن يكون مدْحًا ، فيكون المعنى : إنى رأيتُكَ تخرُجُ إلى المُدِينِين سَرِيعًا من دَيْنِهم عليك ، غيرَ مُدافِعٍ بما فى ذِمَّتِكَ لهم ولا مُماطِلٍ ،

(١) عمرو بن معديكرب . شروح سقط الزند ١٦٧٨ .
(٢) هو أبو تمام . البيان والتبيين (٣ : ٦٧) .
(٣) صدره : * رب قليل جنى كثيراً *
(٤) م : « يمتحن بها » .
(٥) فى الأصل : « يدركها » والوجه ما أثبتنا من م .

فإذا طُولِبْتَ بِدَمٍ أو نُوزِعْتَ فى ذَحْلٍ ، شَقّ تقاضيك به وتعذَّرَ ، وتَصَعَّب نيلُه من جِهَتِك وتعسَّرَ . فعَلَى هذا قولُه « مكْرُوهٌ تقاضيها » ، معناهُ مرُوهٌ تقاضيك بها . ويصْلُحُ أن يكون ذمًّا ، فيكون المعنى : إنى رأيتُك بأهْوَنِ سَعْيٍ وأقرَبِ طلَبٍ تخرُجُ من الأوتار والدماء إلى طلُّابها ، فلا كُلْفَةَ فى نَيْلها وإدراكها من جِهَتِك ، والتَّقاضِى بالدَّم عَسِرٌ صعبٌ إلا إذا كان عندكَ وَقِبَلَك ، فما ذلك إلاّ لضَعْفِ كيدِكَ ومَهانةِ نفْسِك ، وقُصورِ آبائك . والدَّين فى هذا الوَجه يُرَادُ به الوِتْرُ والدَّمُ . وقولُه « مكروهٌ تقاضيها » يعنى تقاضى غيرِكَ بها . ومثْلُ قولِه مكروهٌ تقاضيها فيما أُضيفَ إليه قولُ لَبيدٍ :

* باكَرْتُ حاجَتَها الدَّجاجَ بسُحْرَةٍ[1] *

لأنّ المعنى باكَرْتُ حاجَتِى إليها .

١٤٠

وقال شُرَيْح بن قِرْوَاشٍ[2] :

١ ـ لَمَّا رأَيْتُ النَّفسَ جَاشَتْ عَكَرْتُها عَلى مِسْحَلٍ وأىُّ سَاعَةِ مَعْكَرِ

يقولُ : لما تحرَّكَتْ حَمِيَّتى وغَلَبَ[3] نَفسى ، حتى كادَتْ تثورُ من مَقرِّها فتجرى أنَفَةً وامتعاضاً ، عَطَفْتُها على صاحبِى مِسْحَلٍ وفى أىِّ وقتٍ مَعْطَفٍ فعَلْتُ ذلك . وهذا تفظيعٌ للشأن ، وتفخيمٌ للأمر . فإذا رَوَيْتَ « وأىُّ ساعة مَعْكَرٍ » بالرفع يكون مبتدأ وخبره محذوف ، كأنه قال : وأى ساعة مَعْكَر

(١) من معلقته . وعجزه :

* لأعل منها حين هب نيامها *

(٢) كان من سبب هذه الأبيات ما رواه التبريزى عن أبي رياش قال : لقى شريح بن مسهر أخو بلحارث بن كعب ، مسحل بن شيطان بن جذيم بن رواحة ، فطعن مسحلا فصرعه فحمل شريح بن قرواش على شريح بن مسهر فطعنه فصرعه واستنقذ مسحلا : وقال هذه الأبيات .

(٣) كذا فى النسختين ، أى غلبت نفسى .

ومَـكَرٍّ تلك الساعةُ . وإذا رويتَه بالنصب يكون ظَرْفاً ، ويكون العامل فيه مضمرًا ، كأنه قال : وعَـكَرتُ أىَّ وقتِ مَعْـكَرٍ . ومعنى عَـكَرَ : عطف . ويقال : هو عَـكَّارٌ فى الفِتَن . وجواب لَمَّا « عَـكَرتُها » .

٣ ـ عَشِيَّةَ نازَلتُ الفوَارسَ عِنْدَهُ وزَلَّ سِنَانِى عن شُرَيْحِ بنِ مُسْهِرِ

عشية انتصبَ على أن يكون بدلاً من قوله وأىَّ ساعة مَعْـكَرٍ إذا نصبْتَ أيًّا ، وإن رَفَعْتَه فانتصابُ عَشِيَّةَ على أن يكون ظَرْفاً والعامل فيه فِعْلٌ مضمرٌ دَلَّ عليه ما قَبْلَهُ ، كأنه قال عَـكرتُ عشيَّةَ . ولا يكون العامِل نازَلْتُ ، لأنه مضافٌ إليه و بَيَانٌ للوقتِ ، والمضافُ إليه لا يَعمل فى المضافِ . فيقول : عَطَفْتُ عليه ذابًّا عنه ومدافعًا دونه ، عشيَّةَ منازَلَتى الفُرسان بحَضرته ، وحين زَلَّ سِنَانُ رمحى عن ابن مُسْهِرٍ ، وإنما زَلَّ السِّنان عنه وسَلِمَ من طَعْنَتِه لأنه كان لبس دِرْعًا تحت ثيابه وهو لا يشعُر ، فكأنه يعتذر ويتلهَّفُ .

٣ — وأُقْسِمُ لَوْلا دِرْعُهُ لتَرَكْتُهُ عليه عَوَافٍ من ضِبَاعٍ وأَنْسُرِ

قولُه أُقْسِمُ يَمينٌ ، والمحلوف به محذوف ، وهو لفظةُ الله . ولـكثرة مجيئها مع أُقْسِمُ صار وهو محذوف كالمنطوقِ به ، وجوابُ القَسَم استُغْنِىَ عنه بحديث لولا ، لأنه فيه . والمعنى أنّه بَيَّنَ العُـذْرَ فيما اتّفَقَ عليه ، فقال لولا دِرْعُه التى استظهر بهـا ، وظاهَرَ بثوبه فوقها ، لتركْتُه بطَعْنتى مقتولًا ، وعوافى السِّباع والطير تأتيه وتنالُ منه . ويقال عفَاهُ واعتفاه بمعنًى واحد .

٤ — وهَلْ غَمَراتُ المَوْتِ إلا نزالُكَ الْـ كَمِىَّ عَلَى لَحْمِ الـكَمِىِّ المُقَطَّرِ

هذا الـكلام بيانُ ما تكلَّفه عند التعطُّف على مِسْحَلٍ ، وتصويرٌ لهَوْل ما رَكِبَهُ وعاناه من عظيمِ البلاء فى نُصْرته . ولهذا جعل النَّفْى بلفظ الاستفهام ، فقال : وما شدائدُ الموت إلا منازلَتُكَ الـكمىَّ فوق لحم الـكمِىّ ، أى فوق جِيَف

القتلى . ولولا أنَّ هَلْ فى طريق النفى هاهنا لما جاء بعده إلّا . والمُقطَّرُ : المُلْقى على أحد قُطْرَيْهِ ، وهما الجانبان . ولقَطَّر اختصاصٌ بالعبارة عن الإسقاط والصَّرْع . على ذلك قول عمْرو بن مَعدِيكَرِبَ :

* ما قَطَّرَ الفارِسَ إلّا أنا[1] *

ومن المَحْكِىِّ عنهم فى المعنى الذى قَصَدَهُ هذا الشَّاعر ، أنه سُئِل بعضُهم : ما أشدُّ ما رأيتَه فيما زاولْتَه من الحروب ؟ فقال : « الزَّلَقُ على العَلَق » . وفى طريقته قولُ الآخر :

يَطَأْنَ مِنَ القَتْلَى ومنْ قِصَدِ القَنَا ... شَرِيجًا فما يَجْرِينَ إلّا تَوَهُّما[2]

١٤١

وقال طَرَفَةُ الجَذِيمىُّ[3] :

١ — يارَاكِبًا إمّا عَرَضْتَ فَبَلِّغَنْ ... بَنِى فَقْعَسٍ قولَ امرِئٍ ناخِلِ الصَّدْرِ[4]

---

(١) صدره كما فى شرح شواهد المغنى ٢٤٥ .

* قد علمت سلمى وجاراتها *

(٢) م : « إلا تقحما » .

(٣) ذكره الآمدى فى المؤتلف ١٤٦ ، وقال : « أحد بنى جذيمة بن رواحة بن قطيعة ابن عبس بن بغيض ، شاعر فارس » ، وتصحف على صاحب القاموس فجعله طرفه الخزيمى ، وقال : « من بنى خزيمة بن رواحة » . وقال ابن جنى فى المبهج : « الطرفة : واحدة الطرفاء ومثله قصبة وقصباء ، وحلفة وحلفاء ... ... وجذيمة : علم مرتجل وليس منقولا . ويجوز أن يكون من جذمت يده أى قطعتها ، فيكون اسماً كالنطيحة والذبيحة . وقال ابن جنى فى التنبيه : « طرفة الجذيمى جذيمة عبس ، ويقال الجذمى » . وبهذه النسبة الأخيرة ورد فى المؤتلف

(٤) قال أبو رياش : كان من خبر هذه الأبيات أن جذيمة بن [رواحة بن ربيعة بن الحارث بن مازن بن قطيعة بن عبس — هو ابن فقعس بن طريف بن عمرو بن قعين بن الحارث ابن ثعلبة بن دودان بن أسد بن خزيمة . وذلك أن حية بنت مالك بن مرة كانت تحت فقعس فمات عنها فخلف عليها رواحة ، فولدت جذيمة على فراشه . فزعموا أنها تزوجته وهى حبلى بجذيمة فولدته لثلاثة أشهر ، فجاء جذيمة يطلب بميراثه من أبيه فقال له أعيا بن طريف : ما أعرفك ولا لك عندى ميراث . فقال له : ويحك أعطنى ولو بكراً أستحق به النسب . فمنعه ... وثبت جذيمة فى بنى عبس » .

يخاطِبُ واحداً من الركبان غيرَ مُعَيَّنٍ ، ويكلِّفُهُ إن عَرَضَ لبنى قَقْعسٍ أن يُبَلِّغَهم عنه قولَ رجُلٍ ناخِلِ الصَّدرِ ناصح الجَيْبِ ، صادِقِ الوُدِّ . وإنما نَكَّرَ المدعُوّ لأمْرين : أحدهما شدّة اهتمامه بالرسالة وتحميلها رسولاً كائنًا من كانَ . والثانى أنّه أراد أنْ يضع رسالةً ظاهرها أنّها أودِعَتْ متحمِّلاً ، علماً بأنَّ الرسالة بنفسها إذا ضُمِّنَت الشِّعْرَ وعُقِدَتْ به ستبلُغ على أفواه الرُّوَاة . وقولُه « نَاخِلِ الصدر » يريدُ مُصَفِّى ما فى الصَّدر ، فحذف المُضاف . أو يريد ناخل الصَّدْرِ لما يَعِيه فجعل الفعل للصَّدر توسُّعاً ، والمعنى أنّه موافق الظّاهر للباطن . ويقال : نَخَلْتُ الوُدَّ والنُّصْحَ لفلانٍ ، إذا أخلصتهما .

٢ــ فوالله ما فارقْتُكُم عن كَشَاحَةٍ ولا طِيبِ نفْسٍ عنكمُ آخِرَ الدَّهْرِ

يقول : أحْلِفُ أنّى لم أُوثِرْ فراقَكم لعداوةٍ لازمةٍ لِـكَشْحِى ، وبغضاء متمكِّنةٍ من طوِيّتِى ، ولا لِسُلُوّ نفسٍ عنكم وسخاءِ قلب بكم آخر الدّهر . وهذا الكلامُ إظهارُ مَيْلٍ إلى إصلاح ذات البين لو تساعَدَت الأحوال ، ومَعْذِرَةٌ أقامها فيما قَصَدَهُ من مُرَاغمتهم ، وآثَرَهُ فى مهاجرتهم ومفارقتهم ، وإبانَةٌ عن الأمرِ فى أنَّ الباعث على ما اتّفق لم يكن من سُوء خَلّةٍ ، وانطواء على حَسَكةٍ وقطيعةٍ . وإنما قَرَنَ السُّلُوّ بقوله آخر الدهر لِيُرِىَ أن ذلك التقدير ليس بحاصِلٍ ولا واقِعٍ أبداً ، وهذا كما يقال لا أفعل كذا ما دامت السموات والأرض .

٣ــ ولـكنّنى كُنْتُ امرأً من قبيلةٍ بَغَتْ وأَتَتْنِى بالمظالم والفَخْرِ

هذا كَشْف العِذْرة وذِكْر السَّببِ الموجب للمجانبة والفُرْقة ، فيقول : ولـكننى كنت رَجُلاً من قبيلةٍ خرجت عن طريق التَّوَاصُل إلى طريق التَّقاطع بما استعملتْه من البَغْى والشِّقاق ، وتعاطَتْهُ معى من الظُّلم والعِناد ، حتّى تَدَاعَتْ مبانِى التَّواشُج والتَّحابّ ، وانفصمتْ عُرَى العلائق بيننا والتَّوادّ ، وعِيلَ

الصَّبْرُ ، بما لحق من الهَضْم ، وحَرِجَ الصَّدرُ ، لِمَا تلاحَقَ حالًا بعد حالٍ من الاستخفاف والذُّلّ .

٤ — فإنِّى لَشَرُّ النّاسِ إنْ لم أُبِتْهُمُ   على حَالةٍ حَدْباءَ نا بِيَةِ الظَّهْرِ [١]

انتقل عن الخطاب إلى الإخبار حين توعَّدهم ، وإنْ كان الكلُّ من جملة الرِّسالة . ويروَى : « لِشَرُّ الناس » بكسر اللام ، والمعنى أنا ابنُ شرِّ الناس ، كما قال النابغة :

* لئن كان للقبرين قبرٍ بجلّقٍ [٢] *

والكلام لفظه لفظ الخبر والمعنى معنى القسم . وهذا من الأيمان الشريفة . ويروى : « لَشَرُّ الناس » . والمعنى : أنا شَرُّ الناسِ إنْ أحمِلْ هؤلاء القَوْم بياتًا على حَالَةٍ مُنكرةٍ ، وخُطَّةٍ صعبة ، لا يُستقَرُّ عليها ، ولا يُثْبَتُ على ظَهْرِها .

وفى هذه الطريقة قولُ الآخَرِ [٣] :

لَقَدْ حَملتْ قيسُ بنُ عيلانَ حربَنا   على يابِسِ السِّيساءِ مُحدَودِبِ الظَّهْرِ

فقوله نابية الظهر مثل قول هذا مُحْدَوْدِب الظهر ، أى ظَهْرُها يَجفُو لِنُتُوِّه ونُبُوِّه فيقلق راكبها ولا يَقِرُّ ، وجوابُ الجزاء الفاء فى قوله وإنى لَشَرُّ النَّاسِ .

٥ — وحتى يَفِرَّ النَّاسُ من شَرِّ بَيْننا   ونَقْعُدَ لا نَدْرِى أَنَنْزِعُ أم نَجْرِى

تَعلّق حَتَّى بفعلٍ مضمرٍ ، كأنَّه قال : وأُديمُ ذلك لهم حتَّى يَفِرَّ الناسُ ، أى إلى أن يفِرَّ الناسُ . والمعنى : إنِّى لا أزالُ أتمادَى فى اللَّجاج والشَّرّ ، وأترقّى فى دَرجاتِ النِّزاعِ والحْرب ، حتَّى يَستقِيلَ النّاسُ من مشاركتِنَا وملابستنا فيما نُزاوله ، ويستَعْفُوا من التوسُّط بيننا وردّنا عَمَّا نقتحمه ، ويَنفُضُوا أيديَهم من استطلاحنا

(١) كذا ورد فى الأصل وفى م والتبريزى والمؤتلف : «على آلة» . والآلة : الحالة أيضا .

(٢) عجزه :   * وقبرٍ بصيداء التى عند حارب *

(٣) هو الأخطل ، ديوانه ١٢٩ واللسان (سيس) .

ونتحيَّر نحن أيضاً ونرتبك إذا توسَّطْنا أمورَنا ، فلا نَدْرِى أنُقْصِرُ ونَكُفُّ ، أم نجْرِى فَنَنفُذُ . وهذا إلمامٌ بما سارَ به المَثَلُ فى قصة السالئة للسَّمْن ، وبقول الشاعر[١] :

وكُنتُ كذاتِ القِدْرِ لم تَدْرِ إذْ غَلَتْ أتُنزِلُها مَذْمُومةً أم تُذِيبُها[٢]

وفى المثل السائر : « اختَلَطَ الخاثِرُ بالزُّبَّاد[٣] » . وقولُه « لا نَدْرِى » فى موضع الحالِ .

١٤٢

وقال أُبَىُّ بن حُمَام المُرّىّ[٤] :

١ — تَمَنَّى لِىَ المَوْتَ المُعجَّلَ خَالِدٌ ولاخَيْرَ فيمَنْ لَيْسَ يُعْرَفُ حاسِدُهْ

٢ — فَخَلِّ مَكَانًا لم تَكُنْ لِتَسُدَّهُ عَزِيزًا على عَبْسٍ وذُبْيانَ ذائدُهْ[٥]

يقول : وَدَّ لِىَ الموتَ الوَحِىَّ السريعَ الإتيانِ خالدٌ ، حَسَدًا منه وبُغضاً ، ومنافَسَةً فى الرِّياسة وحِقْدًا . ثم قال مُتَسَلِّيًا : ولا خَيْرَ فيمن لا حاسِدَ له ، لأنّ الحسَد من توابِعِ الفضل ومسبَّباته . ومثل هذا قولُ الآخر :

إن يَحْسُدُونى فإنى غيرُ لائمِهم
قَبْلِى من الناسِ أهلُ الفَضْلِ قد حُسِدُوا[٦]

وقد شرح القول فيه . وقوله « فخَلِّ مَقامًا » أقبَلَ على خالدٍ مُبَكِّتاً له

(١) هو بشر بن أبى خازم . المفضليات (٢ : ١٣١) .
(٢) رواية المفضليات : « فكانوا كذات » .
(٣) الزباد ، كرمان : ما لا خير فيه .
(٤) التبريزى والآمدى : « العبسى » قال التبريزى : وحمام هو ابن جابر بن قراد بن مخزوم بن مالك بن غالب بن قطيعة بن عبس » . ومثله عند الآمدى فى المؤتلف ٩١ .
(٥) التبريزى والآمدى : « فخل مقاماً » .
(٦) من الحماسية ١٣٨ .

ومُقصِّرًا به ، يعرِّفُه أنه يَحسُدُه فيما لا يَصْلُحُ له ولا يُسْتَكْفَى مِثلُه فيه ، فقال : أتَرُكُ مقامًا تَزِلّ قَدَمُك عنه ، وتسقطُ رُتْبَتُك دُونه ، وأنَس مكانًا لا تسدُّه بكفايتك ، ولا تقوم فيه بغَنائك ، [وبعزّ المدافعُ دونه على طوائف عبس وذبيان — وإنما يريد رياسة العشيرة(١) —] وخَلِّ القيام بأمر عَبْسٍ وذُبْيان إذْ لَسْتَ من رجالِ ذلك . وقوله « لِتَسُدَّه » اللام فيه لام الجحود ، وهى لام الإضافة ، والفعل بعده ينتصب بأن مُضْمَرَةً ولا يُظْهَرُ البَتَّةَ .

١٤٣

وقال أيضًا :

١— لَسْتُ بِمَوْلَى سَوْءَةٍ أدَّعَى لَهَا ... فإنَّ لِسَوْءاتِ الأُمُورِ مَوَالِيَا

مَوْلَى سَوْءَةٍ : مُتَوَلِّيها وصاحبها . ويجوزُ أن يكونَ مِنَ الوَلْيِ : القُرْب أى لا أقارِبُها(٢) ولا أدانيها : وقوله « أُدَّعَى » من الدِّعاوةِ والدِّعْوَةِ ، وهى النِّسْبة . يقول : لا أتعاطى قبيحًا ، ولا أتولَّى مُخزِيَةً فأُنْسَبَ إليها ، وأُعْرَفَ بها ، فإنّ لمقابح الأمور أرْبابًا غيْرِى . وهذا انتفاءٌ من الأدْناس ، وتبرُّؤٌ من المقابح ، وتعريضٌ بأن ما يتنزّه عنه حاصلٌ فى مُجاذِبِه وملازِمٌ له .

٢— ولَنْ يَجِدَ النّاسُ الصديقَ ولا العِدَى ... أدِيمِى إذا عَدُّوا أدِيمِىَ وَاهِيَا(٣)

(١) التكملة من م .

(٢) م : « أقارفها » . والمقارفة : المقاربة والمداناة .

(٣) ابن جنى : « زاد لا مؤكدة للنفى ، وقاصلة بين معنيين ، وذلك أنه لو قال : ولن يجد الناس الصديق والعدى أديمى واهياً لم يكن فيه دليل أنه لا يجد بعضهم دون بعض ، وإنما فيه من الدليل أنه لا يجدونه كذلك كلهم ، فقد يجوز أن يجده واهيا بعضهم ، كما أنك إذا قلت ما جاءنى الناس كلهم ففيه نفى مجىء الكل وليس فيه نفى مجىء البعض . فإذا قلت ما جاءنى الصديق والعدو جاز أن يكون قد جاء بعض أولئك . فإذا قلت ما جاءنى الصديق ولا العدو لم يجز أن يكون جاءك أحد منهم . فهذا هو الفرق ، وهو أمدح ، لأنه لم يطلع أحد منهم على ضعفه » .

يقولُ : إنى صحيحُ الأصل ، تقىُّ العرض ، فلو تعاونَ فى الـكَشْفِ عمَّا أدَّعيه والبحثِ دونَه أصدقائى وأعدائى ، ومن يرَى التغميضَ على ما يُنكِرُه ، أو التشهيرَ والتنديد بما يثيرُه ، لما وجدوا غميزةً ، ولا ظَفِروا بنَقيصة . وذِكْرُ الأديم مَثَلٌ للعَرض والأصل . والعَدُّ والإحصاء كنايةٌ عن الفَحْص والتنقير .

٣ — وإنّ نِجَارِى يا بْنَ غَنْمٍ مُخَالِفٌ نِجَارَ اللِّئام فابغِنى مِنْ وَرَائيا

النِّجَارُ : الأصل . وهذا تعريضٌ بالمخاطَب ، يقول : أصلى مخالفٌ لأصول الأدنياء ، فاطلبْنى للمُفاخرة إذا غبتُ عنك [أو فُتُّك[1]] . فأما إذا حضَرْتُ فإنك لا تقاوِمُنى ولا يستقيم لك مساجَلتى . هذا إذا جعلْتَ وراء بمعنى خَلْف ، فإن جعلتَهُ بمعنى قُدّام يكونُ بمعنى أبغِنى إذا تقدَّمْتَنى . ومَن طَلَبَ من تخلَّفَ عنه مِن قُدّامٍ لا يُدرِكُه . والكلام على هذا يكون تهكُّمًا وسُخْرِيَّةً . فالمعنى فى الأوّل والثانى : إنك لا تَلْحَقُ شأوِى فاطلُبْنى طَلَبَ المعَذِّر واليائس[2] . ويجوز أن يكون يُريدُ : إنى كريمُ الأصل ، رفيع المَحَلّ ، علىُّ الرُّتبةِ ، ومن كان كذلك لا يُظفَرُ به ، ولا يُصْطادُ مِثْلُه [إلاّ[3]] بالخضوع له والانقياد بالتذلُّل بين يديه ، فأبغِنى وأنت تابعٌ لى ، وواطئٌ عَقِبى ، حتى تنالَنى ، وإلا لم تَبلُغْ مُرادَكَ منِّى . ويقالُ : فلانٌ من وراءِ فلانٍ ، إذا كان ناصرًا له ، وتابِعًا . وأنشد ابن السِّكِّيت :

لعَمْرُكَ ما كان القَرَنْبَى ورَهْطُهُ بِعَمِّى ولا خالِى ولا مِنْ ورائيا

وقال : المَعْنَى ولا ناصرى . فأما قولُهم الله من ورائك ، فالمعنى طالبُكَ ومُترصِّدٌ لمكافأتك . فعَلَى القولِ الأخير يكون من ورائى فى موضع الحال لضمير الفاعل فى أبْغ .

---

(١) التكملة من م . (٢) التبريزى : « كبعض الرجال » .

(٣) المعذر : المقصر المتوانى من غير عذر . ومنه : « وجاء المعذرون » .

٤ — وسِيَّانِ عِنْدِي أنْ أَمُوتَ وأنْ أُرَى كبَعْضِ رِجالٍ يوطِنُونَ المخَازِيا

ارتفع سِيّانِ على أنه خبر مُقَدَّم لقوله « أن أَمُوتَ وأنْ أُرَى » ، والمعنى : مِثْلَانِ عندى مَوتى وأن أُرَى كمن يَألفُ المخازىَ ويَرْضاها وطَناً ومأوًى ، ولا يأنَسُ إلاّ بها ، ولا يَرْجِعُ إلّا إليها . وهذا تَعْرِيضٌ بالمُخَاطَبِ أيضاً . والسِّىُّ : المِثْلُ . قال :

فإيّاكُمْ وحَيَّـةَ بَطْنِ وَادٍ هَمُوزِ النّابِ ليس لـكُمْ بِسِىِّ[(١)]

٥ — ولَسْتُ بِهَيَّابٍ لمن لا يَهَابُنِي ولَسْتُ أرَى للمَرْءِ مالاَ يَرَى لِيَا

يقول : لاأحتشِمُ مَن لا يحتشمنى ، ولا أتهيَّبُه إذا لم يتهيَّبْنى ، ولا أرى من إعظام المرء وإجْلَالِهِ ما لا يَراهُ لى ، لـكنِّى أُوازِنُ الناسَ فى أفعالِهم ، وأجازيهم على قدر استحقاقهم . وقوله « ما لا يرى ليا » حَذَفَ مفعول يرَى تخفيفاً ، وهذا الحذفُ سائغٌ إنْ جَعَلْتَ ما مَعرِفةً فكان ما بعدهُ صِلةً ، أو جعلته نكرة فكان صِفة .

٦ — إذا المَرْءُ لم يُحْبِبْكَ إلا تَـكَرُّهًا عِرَاضَ العَلُوقِ لم يكنْ ذاكَ باقيا

انتصب قوله « تَكرُّها » على أنه مَصْدَرٌ فى موضِـع الحـال ، والتقدير إلا متكرِّهًا . وانْتَصَبَ « عِرَاضَ العَلُوقِ » على أنه مصدرٌ مما دَلّ عليه قوله « لم يُحْبِبْكَ إلا تَـكَرُّهًا » ، لأنّ المعنى إذا الرّجلُ عارَضَكَ فى الُحبِّ عِراضَ العَلُوقِ لم يكن ذلك الُحبُّ باقياً ولا ثابتاً . والعَلُوق ، هى المرأة التى تَرأَم ولدَها وتَلسُنُهُ حتّى يأنسَ بها ، فإذا أرادَ ارتضاع اللّبنِ منها ضَرَبَتْهُ وطردَتْهُ . قال :

(١) للحطيئة فى ديوانه ٦٩ واللسان (سوا) .

وما نَحْنِي كَمِنَاجِ العَلْـــو قِ ماتَرَ من غِرَّةٍ تَضْرِبِ[1]

ويشْبهُ البيتَ الذى نحن فى تفسيره قولُ الآخَرِ[2] :

أَمْ كيف ينفَعُ ما تُعطِى العَلُوقُ به رِئْمانَ أَنْفٍ إذا ما ضُنَّ باللَّبَنِ

١٤٤

وقال عَنْتَرَةُ بن شَدَّادٍ[3] :

١ — يُذَبِّبُ وَرْدٌ على إثْرِهِ وأَمْكَنَهُ وَقْعُ مِرْدًى خَشِبْ

هذا وَرْدُ بن حابِسٍ طَلَبَ نَضْلَةَ الأَسَدِى بوِتْرٍ كان له عِندَهُ[4] . فيقولُ : تَسَرَّع هذا الرجل فى إثْر الهارب منه ، واستحثَّ فَرَسَهُ فى لَحَاقِه ، فمَكَّنَهُ منه عَدْوُ فَرَسٍ صُلْبٍ كأنَّه مِرْداةٌ . والمِرْدَى : صَخرة يُكسر بها النَّوَى وغيرُه . ومعنى خَشِبٍ خَشِنٌ . ويقال خَشَبْتُ الشىءَ خَشْبًا فخَشِبَ . والخَشِبُ[5] من السَّيف[6] : الذى بُدِئَ طَبْعُه فلم يَلِنْ بعدُ . وقوله « وَقْعُ مِرْدًى » هو من وقَمْتُ الحديدَة ،

---

(١) للنابغة الجعدى فى اللسان (علق) . وقد روى فى الأصل : « تضرب » بالرفع ، وصوابه بالخفض لأنه جواب الشرط كما فى م ، وعليه نبه ابن برى . اللسان (علق) . وقبله :

وكان الخليل إذا رابنى فعاتبته ثم لم يعتب

(٢) هو أفنون التغلبى . اللسان (علق ، رأم) والبيان والتبيين (١ : ٩) والمفضليات (٣ : ٦٢) وخزانة الأدب (٤ : ٤٥٦) .

(٣) كذا فى الأصل . وفى م والتبريزى : « وقال عنترة » فقط . ويبدو أن هذا الأخير هو النص الصحيح . وقال التبريزى : « قال أبو هلال : يعنى عنترة بن معاوية بن شداد بن قراد بن مخزوم بن مالك بن قطيعة بن عبس ، وكنيته أبو المغلس . وفى الشعراء جماعة يقال لهم عنترة منهم هذا ، ومنهم عنترة بن عكبرة الطائى ، وهو عنترة بن الأخرس ، وقد مرّ ذكره . ومنهم عنترة بن عروس مولى ثقيف ، وكان مولدا فى بلاد أزد شنوءة : شاعر راجز » . وانظر الحماسية ٥٣ والمؤتلف والمختلف للآمدى ١٥١ — ١٥٢ .

(٤) التبريزى : « وقيل ورد : اسم فرسه » .

(٥) فى الأصل : « والخشيب » ، والوجه ما أثبتنا من م .

(٦) كذا فى النسختين ، كأنه جعل السيف جنسا ، أو لعل : « من » مقحمة .

إذا ضربْتَهَا بالمِيقَعَةِ ، كأنّ الفَرَسَ كان يَضربُ الأرضَ بحوافِره ضَرْبَ الحديد بالميقعَةِ . ومن هذا قول الهُذَلىِّ ساعِدَةَ :

وحَوَافِرٌ تَقَعُ البَرَاحَ كأنَّمَا ... أَلِفَ الزِّمَاعَ بها سِلَامٌ صُلَّبُ(١)

[فمعنى تقع البراح ، أى تقرعه . وروى الجمحى هذا البيت :

. . . . كأنّما ... ألف(٢) الزِّماع ردى سِلام صُلَّب(٣)]

وقال : رَدَى صخرَةٍ ، شَبَّهَ الأنف بها ، فعلى هذه الرواية يَحْصُل التوافُق بين بَيْتَىْ عَنْترة وساعِدَة الهُذَلىّ فى اللفظ أيضا .

٢ ــ يتَابِــعُ لا يَبْتَغِى غَيْرَهُ ... بأَبْيَضَ كالقبَس المُلْتَهِبْ(٤)

التتابُع والمتابعةُ يستعملان فى اطِّراد الشَّىء واستمراره على حَدٍّ واحِدٍ . على هذا قولهُ :

* وَعُرَاضَةُ السِّيتَيْنِ تُوبِــعَ بَرْيُهَا *

ومفعول يُتابع محذوفٌ ، ويجوز أن يكون الفعل للرّجُل ويجوز أن يكون للفَرس . كأنّ المرادَ : يتابِــع الرّكضَ أو العَدْوَ . وموضع لا يبتغى نَصْبٌ على الحال . والباء من قَوْلِهِ « بأبيض » يجوز أن يُريدَ به سَيْفاً . والقَبَسُ : النار . شَبَّهَهُ بها فى بَرِيقها ولمعانها ويجوز أن يريد به رجُلاً كريما ، ويكون على هذا « يتابع » للفرس . وشبَّهَهُ بالنار لذكائه ونفاذه . واستعمالُ البياض فى الكَرَم ونقاءِ العِرْضِ كثيرٌ معروف ، على ذلك قولُ الآخَرِ(٥) :

(١) ديوان الهذليين (١ : ١٨٦) .

(٢) فى الأصل ، وهو هنا م : «كافا أنفسه» .

(٣) هذه التكملة من م .

(٤) جعل التبريزى الرواية الأولى : « تتابع » وقال : « أى تمادى هذا الرجل لا يبتغى غير نضلة . والتتابع فى الشر دون الخير . ويروى : يتابع ، ومفعول يتابع محذوف » .

(٥) هو ابن قيس الرقيات . ديوانه ٨٣ .

* أُمُّكَ بَيْضَاءُ من قُضَاعَة[1] . . . . *

فأما مَعْنَى قوله « يبتغى غَيْرَه » فيجوزُ أن يكون أن هِمَّتَهُ كانت موكولةً به لا بشىء من الغنائم والامْوَالِ . وكأنَّه ألمَّ بقوله :

* أَغْشَى الوَغَى وأَعِفُّ عند المَغْنَمِ[2] *

ويجوز أن يُرِيدَ أنَّ قَصْدَه فى الطَّلَبِ كان إليه لا إلى غيره من النَّاس .

٣ ــ فمَنْ يَكُ فى قَتْلِهِ يَمْتَرِى فإنَّ أبا نَوْفَلٍ قد شَجِبْ

أضَافَ المَصْدَرَ فى قَتْلِهِ إلى المفعول . يقول : مَنْ شَكَّ فى قتل وَرْدٍ لِنَضْلَةَ فَلْيُزِلِ الشَّكَّ عن نفسه ، ولْيَدَعِ الارتياب إلى غيرِه فإنه هَلَكَ لا مَحالة . وأبو نَوْفَلٍ : كنية نَضْلَةَ . وفى الـكلامِ تَهَكُّمٌ وإظهار شَماتة . ويقال شَجَبَ بفتح الجيم ، إذا هَلَكَ ، فهو شَاجِبٌ ، وشَجِبَ بكسر الجيم فهو شَجِبٌ ، لغتان .

٤ ــ وَغادَرْنَ نَضْلَةَ فى مَعْرَكٍ يَجُرُّ الأَسِـنَّةَ كالمُحْتَطِبْ

النون ضمير الخيل . يقول : تَرَكَتِ الخَيْلُ هذا الرجل لَمَّا انكشفت عنه وهو فى مُزْدَحَمِ الحَرْب جارًّا للأَسِنَّة المـكسورة فيه عند الطعْن ، كأنَّه جامع حَطَبٍ . ويقال أَجْرَرْتُ فُلانًا الرُّمحَ فجَرَّهُ ، أى كسرْتُه فيه لَمَّا طَعَنْتُه فصار يجرُّه . وأنشد أبو زَيْدٍ :

* أَجِرَّهُ الرُّمْحَ ولا تُهالَهْ[3] *

وحكى بعضهم أن المحتَطِبَ : دُوَيْبَةٌ تمرُّ على الأَرْضِ فيَعْلقُ بها العِيدانُ .

---

(١) هو بتمامه كما فى الديوان وما مضى فى حواشى الحماسية ٢٥ : ٣ :
أملك بيضاء من قضاعة فى الـ * بيت الذى يستكن فى طنبه

(٢) لعنترة فى معلقته . وصدره :
* يخبرك من شهد الوقيعة أننى *

(٣) سبق إنشاده فى البيت السابع من الحماسية ٢٩ ص ١٦٢ .

ويكون المعنى يجُرُّ الأسنَةَ كما تجُرُّ هذه الدُّوَيْبَّةُ العِيدانَ . وهذا تصويرٌ للخفىِّ بالجَلِىِّ .

١٤٥

وقال عُرْوَةُ بن الوَرْدِ[1] :

١ — لَحَى اللّهُ صُعْلُوكاً إذا جَنَّ لَيْلُه مُصَافِى المُشَاشِ آلِفاً كلَّ مَجْزِرِ[2]

لَحَى الله : كلمةٌ تُستعمل فى السَّبِّ ، وأصله اللَّوْم والقَشْرُ أيضاً . والصُّعلوك : الفقير . يقول : زاد الله كلَّ فقيرٍ يرضى من عَيشهِ بأن يطُوفَ فى المَجازر إذا أَظلَمَ عليه الليلُ ، ويلتقط المُشاشَ منها كأنه يصافيها ويلازمها حُبًّا لها — فَقْرًا[3] . وإنما قال هذا على وجْه الإنكار . أى لِمَ يقنعُ بذلك ، ومالَهُ يُسِفُّ لمثْلِ هذا المَطْمعِ الخسِيس ولا يطلبُ مَعالىَ الأمور . والمُشاش : كلُّ عَظْمٍ هَشٍّ دَسِمٍ ، والواحدُ مُشاشةٌ . وقولُه « مُصافى المُشاش » نَكِرَةٌ ، وانتصبَ على أنه صفةٌ لقوله صُعْلوكاً . وإضافته ضعيفةٌ ، لأن المشاشَ أُشيرَ به إلى الجنْس ، ولا يَحصُل التخصيص بالإضافة إليه . وعلى هذا قولهم : قَيْدُ الأَوَابِد ، وَدَرَكُ الطَّريدةِ وما أشبهُ . وكان يجب أن يحرِّكَ الياء من مُصافى بالفتح ، فسكَّنه لأن منهم من يُجْرِى الفتحةَ فى مِثله من المعتلِّ مجرى سائر الحركات فلا يُثْبِتُها .

٢ — يَعُدُّ الغِنَى من نَفْسِه كلَّ ليْلَةٍ أَصابَ قِرَاهَا من صَدِيقٍ مُيَسَّرِ

(١) التبريزى : « سمى بالعروة من الشجر ، وهو ما لاييبس فى الشتاء فتستغيث به الإبل فى الجدب » . وعروة : شاعر جاهلى فارس من بنى عبس ، كان يلقب عروة الصعاليك ، لجمعه إياهم وقيامه بأمرهم . انظر الأغانى (٢ : ١٨٤ — ١٩٠) واللآلىء (٨٢٣ — ٨٢٤) والخزانة (٤ : ١٩٤ — ١٩٦) والشعر والشعراء ٦٥٧ .

(٢) رواية الديوان : « مضى فى المشاش » .

(٣) فقرا ، مفعول « زاد » فى أول هذه العبارة .

يقول : لِفَرَحِه بما يَنالُه من كَسْبِه الدَّنِيّ ، ورضاهُ عن أيّامِه بعَيْشِه اللئيم يَعُدُّ — إذا أصابَ القِرَى لَدَى صديقٍ وُلِدَت له شِياهٌ فاتَّسَع اللَّبنُ عنده وفى رَحْلِه — الغِنَى مَحُوزًا لَهُ ، ومحصَّلاً عنده ، فلا غَضاضةَ تلحقه ، ولا أنَفَةَ تقبِضُه . والمُيَسِّرُ ضِـدُّ المجنِّب ، يقال يَسَّرَ الرَّجُل ويَسَّرَتْ غنمُـه . وجَنَّبَ الرجُل ، إذا قَلَّتِ الحَلُوبة فى إبلِهِ وغنمه . قال :

* وكلُّ عامٍ عليها عامُ تجنيبِ(١) *

وقولُه « أصابَ قِرَاهَا » أضافَ القِرَى إلى الليلة على المجـازِ ، والمرادُ قِرَاهُ فيها .

٣ — يَنَامُ عِشَاءً ثم يُصْبِـحُ ناعِسًا يَحُتُّ الحَصَى عَن جَنْبِهِ المتَعَفِّرِ(٢)

يقول : ينامُ هذا الصُّعْلوكُ لدناءة هِمَّته ، وقَماءة معيشته ، واستيلاء الـكَسَل على نفسه ومكسَبِه قُبُلَ اللَّيل(٣) ، لأن هِمَّتَه(٤) فى راحَتِه ونومِه ، وحِرْصِه على ما يَسُدُّ جَوْعَتَه به . ثم يأتى الصَّباحُ عليه وهو ناعسٌ بَعْدُ ، غير قاضٍ حاجَتَه من الرُّقاد ، ولا ضَجِرٍ فى مَضجَعِه بالتساقط والانجدال ، يَنفى عن جَنْبِه ما لَصِق به من الحَصَى والتُّراب ، ونَشِبَ فيه من دُقاقِ الحصى . وذلك لأنه نامَ بلا وِطاء . وقوله « يَحُتُّ الحصى » أى يُسْقِطُه ، فهو قريب من يَحُطُّ . والعَفَرُ : التراب . ويقال عَفَّرْتُه فتَعفَّرَ .

(١) للجميح الأسدى فى المفضليات (١ : ٣٣) وصدره :

* لما رأت إبلى قلت حولتها *

(٢) الديوان : « ثم يصبح طاويا » .

(٣) م : « ومكسبته . وقبل كل شىء : أوله .

(٤) كذا على الصواب فى م . وفى الأصل : « لأن نهمته » .

٤ ــ ولكنّ صُعْلوكاً صَفِيحَةُ وَجْهِهِ كَضَوْءِ شِهابِ القَابِسِ الْمُتَنَوِّرِ (١)

صَفْحَةُ الرَّجُل وصَفِيحته : عُرْضُ وجهه . يقول : ولكنّ فقيرًا مُشْرِقَ الوَجه صافىَ اللوْنِ ، لا يتخشّع لفقرِهِ ، ولا يتذلّلُ إذا أثّرَ الدهرُ فيه ، فكأنّ ضوْءَ وجهِه ضَوء نار القابس المتنوِّر . والقابس هاهنا ذو القَبَس معناه . والقَبَسُ : النار ، ويكون القابسُ الطالبَ . ويقال : أقْبِسْنى نارَكَ . والمتنوِّر : المتفعِّل من النار . ويقال تنوَّرْتُ النار ، أى نظرْتُ إليها واستضأْتُ بنورها . ومنه قول امرئ القيس :

تنوّرْتُها من أذرِعاتٍ وأهْلُها بيَثْرِبَ أدْنَى دارِها نَظَرٌ عالِ

وموضع « صفيحةُ وجهه » مع خَبَرِه نَصْبٌ على أن يكون صفةً لصُعْلُوكاً وخَبَرُ لكنّ يجىء فيما يجىء من بَعْدُ . وقوله « صفيحة وجهه » حَذَفَ المُضافَ منه لأنّ المرادَ ضوء صفيحه وجهه كضَوْءِ شِهابٍ ، فأقام المضاف إليه مَقامَه .

٥ ــ مُطِلاًّ على أعدائه يزجُرُونَهُ بِساحَتِهِمْ زَجْرَ المَنِيحِ المُشَهَّرِ

يقالُ : أطَلَّ على كذا ، إذا أوفَى عليه . والمَنِيحُ ، قال الخليل : هو الثّامنُ من القِداح . وقال أبو عَمْرٍو : المَنِيحُ والسَّفِيحُ والوَغْدُ قِداحٌ لا أنْصِباءَ لها ، وإنّما يُكَثَّرُ بها القِداح فهى تُجَالُ أبدًا ، وقال الأصمعىُّ : المنيح الذى لا يُعْتَدُّ به . فيقولُ : ولكنّ الفقير الوضىءَ الوجْهِ ، الذى يبذُل جُهْدَه ويبتذِلُ نفسَه فى طلب غِناه ، ويُقْصِرُ سَعْيَه على ما يبلغ به عُذرَه فيُشرفُ على أعْدائِهِ غازِياً ومُغِيراً ، وهم يزجرونهُ حالاً بعد حالٍ ، ويكرُّ هو عليهم وقتاً بعدَ وقتٍ يُزجَرُ هذا القِدْحُ فى خروجه ومع ذلك يُرَدّ . وخبرُ لكنّ بعْدُ لم يجِئْ .

(١) بين هذا البيت وسابقه عند التبريزى :

يُعِينُ نِساءَ الحَىِّ ما يستعِنَّهُ ويُمْسِي طليحًا كالبعيرِ المحَسَّرِ

٦ — إذَا بَعُدُوا لا يَأْمَنُون اقترابَهُ تَشَوُّفَ أهل الغائِبِ المُتَنَظَّرِ [١]

يقول : هذا الفقيرُ لا يَقْعُدُ به عن طَلَبِ الأعداء والإغارَةِ عليهم والنَّيْلِ منهم بُعْد الغَزَاةِ وتنائى الدّار ، فهم لا يأمنونَهُ وإن شَحَطُوا ، بَلْ يتشوَّفونَهُ تَشَوُّفَ الغائب المُتَنَظَّر ، أى كما يُتَشَوَّفُ غائبٌ دَنَا قفولُه ويُنتظَرُ . وانتصب « تشوُّفَ » على المَصْدَر فيما دَلّ عليه لا يَأْمَنون اقترابَه ، ومفعول تَشَوُّفَ محذوفٌ ، كأنّه قال تَشَوُّف أهل الغائب رُجوعَهُ .

٧ — فذلك إن يَلْقَ المَنِيَّةَ يَلْقَهَا حَمِيداً وإنْ يَسْتَغْنِ يَوْمًا فأجْدِرِ

يقولُ : ذلك الصُّعْلُوكُ إنْ أدْرَكَهُ الأجَلُ ، قَبْلَ نيلِ الأمَل ، لَقيَهُ محموداً ، إذ كانَ قَدْ فَعَلَ ما وَجَبَ عليه ، وأَقامَ عُذْرَه فى مطلوبِهِ باستفراغ الوُسْعِ فى السَّعْيِ لَهُ ، وإذْ كانَ التَبِعَةُ فيما فَاتَ على من يَملكُ العَواقبَ دُونَهُ . وإن نَالَ الغِنَى يَوْماً فما أخْلَقَهُ بذلك . وقولُه « إن يَلْقَ المنيَّةَ » خَبَرُ قولِه ولـكنّ صُعْلوكاً لو انفَرَدَ عَنْ قوله فذلك ، لـكنَّه لما تراخَى الخبرَ عن المُخبَر عنه وتباعَدَ المقتضِي عن المقتضَى له أتى بقولِه فذلك ، مُشيراً به إلى الصُّعلوك . فصار إن يَلْق خبراً عنه . وساغ ذلك لأنَّ المراد بالأول والثانى شيء واحد ، ومما أُجرى هذا المجرى لحصول مثل هذا التراخى فيه قولُ الله عز وجل : ﴿ألم تَعلَموا[٢] أَنَّه من يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فإنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ﴾ ، فأعاد أنّ فى قولِه « فأنّ » كما تَرى .

(١) الديوان : « فإن بعدوا » .
(٢) هذه قراءة الحسن والأعرج . وقراءة الجمهور : « ألم يعلموا » بالياء . انظر تفسير أبى حيان (٥ : ٦٤) .

١٤٦

وقال عَنْترهُ بن شَدّاد العَبْسِي[١] :

١ — تَرَكْتُ بَنِى الهُجَيمِ لَهُمْ دَوَارٌ إذا تَمْضِى جماعَتُهُم تَعُودُ

البيت يُرْوَى على وجهين : أحدُهما :

تركتُ بنى الهُجيمِ لَهُ دَوَاراً إذا يَمضِى جماعَتَهمْ يعودُ

ويكون الضمير فى قوله له للفرس ، ويمضى فِعْلٌ لَهُ ، وجماعتهم ينتصب على المفعول ، لأنّ يمضى هذا يتعدّى ، ومعناهُ يُجاوِزُهم . ويكون المعنى : تَرَكْتُ هؤلاء القومَ لفَرَسِى مَطَافاً بمنزلة الدَّوَار — وهو صَنَمٌ كانوا يحجُّونه — يطُوفُ حَوْلَ ذلك الصَّنَم ، إذا نَفَذَهم وخرقَ صفوفَهم ودار عليهم عادَ إلى مثل فعلِهِ الأوّل ، وإلى مكانِهِ الأوّل . ويُشْبِه هذا البيتَ بيتُ الأعشَى فى المعنى واللَّفظ ، وهو :

تَطُوفُ عليهم وتَمْضِيهِمُ كما طَافَ بالرُّجْمَةِ المُرْتَجِمْ

وجاء فى الحديث حُجَّةً لتَعدِّى يمضى ، فى صِفَةِ المَحْشَر : « يَمْضِيهِم الدَّاعى ويَنفُذُهم البَصَرُ » .

والثانى أن يُرْوَى :

تَرَكْتُ بنى الهُجَيم لهم دَوَارٌ إذا تَمضى جَمَاعَتُهم تَعُودُ

والمعنى : تركتهم يطوفون حَولَ قتلاهم كما يُطاف على ذلك الصَّنَم ، أو ذلك النسُك ، فإذا انقَضَتْ جماعَةٌ منهم عادت الأخرى للنِّظارة[٢] . وقوله « جماعتُهم » يريد جَماعةٌ منهم ، فأضافَ البعضَ إلى الكُلِّ ، وليس يريد جُمْلتَهم ، فهو فى

---

(١) سبقت له الحماسية ١٤٤ .

(٢) كذا وردت الكلمة بضبطها فى الأصل . وهى ساقطة من م .

حكمِ النَّكِرات. وموضعُ « لهم دَوَارٌ » نَصْبٌ على الحال، وقوله « تَعُودُ » فاعِله مضمر، وهو جماعةٌ أخرى، فاكتفى بذكر الأولى عَنها.

٢ ـ تَرَكْتُ جُرَيَّةَ العَمْرِىَّ فيه شَدِيدُ العَيْرِ مُعْتَدِلٌ سَدِيدُ(١)

يفتخر بأنه أَصَابَ المذكور، لمَّا رماه بسَهْمٍ مُحكَمِ النصل، مُقوَّم القِدْح، صُلْبِ العَيْرِ، سديد الوَقْعِ. وموضع قوله « فيه شديدُ العَيْرِ » نَصْبٌ على الحال. والعَيْرُ: النَّاتئُ من وسط النصل. وقد أقيم الصِفَةُ مَقَامَ الموصوف، لأنَّ المُرَادَ به سَهْمٌ شديد العَيْرِ. ولولا ما حَصَلَ من الاختصاص بإضافة الشديد إلى العَيْرِ لَمَا جاز ذلك فيه، لأنَّ الصفة لا يقوم مَقام الموصوفِ حتى يَدُلَّ عليه دَلالةً قويةً. فأمّا إذا كانت عامّةً فى أجناس، فلا يجوز ذلك فيه. لو قُلتَ مَرَرْتُ بطَويلٍ، وأنت تريدُ رَجُلاً، لم يَحْسُنْ، لأنَّ الطويل يكونُ فى غير الرجال كما يكون فى الرجال. ولو قُلْتَ مررتُ بكاتِبٍ، يَحْسُنُ إذْ كانت الكتابة مُخْتَصَّة.

٣ ـ فإنْ يَبْرَأْ فلَمْ أَنفِثْ عَلَيْهِ وإنْ يُفْقَدْ فحَقٌّ له الفُقُودُ

كان من رموزهم أنّ الواحد إذا رمى بسهْمٍ وأراد سلامة الرَّمِيَّةِ منه رَقَى سَهمَهُ بعُوذة ونفَثَ فيه، ثمَّ رَمَى به، وإذا أراد هلاكَهُ لم يفعل ذلك. ومثل هذا قول الآخر(٢):

فلم أَرْقِهِ إن يَنْجُ منها وإنْ يَمُتْ فَرَمْيَةُ لا غُسٍّ ولا بِمُغَمَّرِ(٣)

وقولُه « فحُقٌّ له الفُقود » المبتدأ محذوف، كأنّه قال فَهُوَ حَقٌّ له الفُقود،

(١) التبريزى: « إنما قال العمرى لأن الهجيم ابن عمرو ». ورواية التبريزى: « معتدل شديد » بالشين.

(٢) هو زهير بن مسعود، كما فى اللسان (غسس). وقد سبق الاستشهاد بعجز البيت فى ص ٣٥٣.

(٣) فيما سبق وفيما سيأتى فى الصفحة التاليــة: « فطعنة لاغس ». ونخشى أن تكون الرواية التبست على المرزوقى.

لأنَّ الفاء يُجْلَبُ في الجزاء إذا كان الجواب بالابتداء والخبر ، ولو قُصِد إلى أن يكون الفعل جواباً لا يُسْتَغْنَى عن الفاء . وبعض من يدْفَع هذه الطريقة يقول لا رُقْيَةَ ولا نَفْثَ ، إنَّما كَنَوا عن الإبقاء بمثل هذا الكلام . وقولُه : « وإن يُفْقَد » فهو مِثْل قَوْلِه « فَطَعْنَةٌ لا غُسٍّ » . والمعنى : إن يَبْرَأْ فليس ذلك من بُقْيَاى ، وإن يهلِكْ فواجِبٌ لأنّ المصابَ بمثله يَهلِكُ لا مَحَالة .

٤ ــ وما يَدْرِى جُرَيَّةُ أَنَّ نَبْلِى يَكونُ جَفِيرَها البَطَلُ النَّجِيدُ

يُرْوَى : « وهل يَدْرِى جُرَيَّةُ » . والمعنى لا يعلم أنّه كما أنى أصَبْتُهُ فدأبى وعادتى أن تكون الأبطال النُّجَدَاء لِنَبْلِى بمنزلة الجَعْبَةِ ، أُصيبُهُمْ أبداً بها . وفى ذكره البَطَلُ النَّجيد إلمامٌ بقول الآخر[1] :

. . . . ونَصْ طَادُ نُفُوسًا بُنَتْ عَلَى كَرَمِ[2]

ويقول الآخر[3] :

من عَهْدِ عَادٍ كان مَعْرُوفاً لَنَا أَسْرُ المُلُوكِ وقَتْلُهَا وقِتالُها

وأخذ أبو تَمّام هذا المعنى فقال :

فَلا تَطْلُبُوا أَسْيَافَهُمْ فى جُفُونِها فَقَدْ أُسْكِنَتْ بَيْنَ الطُّلَى والجَماجِمِ[4]

ويجوز أن يُريد بالبَطَل النَّجيد جُرَيَّةَ بعينه ، ثم يجوز أن يكون مُتَهَكِّمًا فيما وَصَفَهُ به ، ويجوز أن يكون مادِحًا له ، لأن مدحَ خَصمه وقتَ غَلَبه رَاجِعٌ إليه .

(١) أحد بنى بولان ، من طيئ . الحماسية ٣١ .
(٢) صدره : * نستوقد النبل بالحيض ونصـ *
(٣) هو بشامة بن الغدير . الحماسية ١٣٤ .
(٤) كذا فى م والديوان ٣٨٧ . وفى الأصل : « ولا تطلبوا » .

١٤٧

وقال قَيْسُ بن زُهَيْرٍ العَبْسِيُّ سيِّدُ بَنِي عَبْس[(١)] :

١ — تَعلَّمْ أَنَّ خَيْرَ النَّاسِ حَيًّا على جَفْرِ الهَبَاءَةِ لا يَرِيمُ[(٢)]

يُرْوَى « أنْ خَيرَ النَّاسِ حَيًّا » ، والمعنى هو حَيٌّ ، وقولُه « على جَفْرِ الهَبَاءَةِ » خَبَر أنَّ . ويروى : « مَيْتًا » وإعرابه على ما ذكرناهُ فى حَيًّا . ويروى : « مَيتٌ » وارتفاعُهُ على أنَّهُ خبر أنّ ، و « على جَفْرِ الهَبَاءَةِ » فى مَوْضِعِ الصفة له . ومعنى تَعَلَّمْ : اعْلَمْ . ولا يقال فى جوابِهِ تَعَلَّمتُ ، استُغْنِي عنه بعَلِمتُ . ويَعْنِي بخير الناس حَمَلَ بنَ بَدْرٍ . وجَفْرُ الهباءة : بِئْرٌ قريبَةُ القَعْرِ ، وماؤها كثيرٌ مَعِينٌ . وكان حملٌ انهزم فى وَقْعَةٍ بين عَبْسٍ وذُبْيان ، فلما انتهَى إلى الهباءة أَمِنَ لبُعْدها عن الطَّلَب ، فَرَمَى بنفسه إلى الماء ليبترِد ، فاتفق لَحَاقُ قَيْس به مع عِدَّةٍ من ذَوِيه ، فقَتلوا عن آخرِهم .

٢ — ولوْلا ظُلْمُه مازلتُ أَبْكِى عليه الدهرَ ما طَلَعَ النُّجُومُ

أشار بالظُلْمِ إلى ما جرَى بينهم فى أمرِ داحِسٍ والغبراء ، وإنكارِهِ السَّبْقَ ، وركوبِهِ البَغْيَ . وقولُه « ما طَلَعَ النُّجُومُ » ينتصب على أنه بدَلٌ من الدهر . والمعنى : لولا ما أسلَفَه من الظُّلْم لاقتضى ما يجمعنى وإيّاه من الأحوال والذِّمم ،

---

(١) قيس بن زهير العبسى شاعر جاهلى فارس . وهو صاحب داحس ، وكانت الغبراء فرس حذيفة بن بدر الفزارى ، وقد أجرى السبق بين الفرسين فوضع حمل بن بدر أخو حذيفة كمينا يصدون داحسا عن الغاية ، وحدث خلاف أيهما السابق ، فنشبت الحرب بسبب ذلك بين عبس وفزارة ، واستمرت أربعين عاما قتل فيها خلق كثير . انظر العقد والأغانى (٧ : ١٤٣/ ١٦ : ٢٣) والكامل ٣٤٣ والميدانى (١ : ٢/٣٥٩ : ٥١) .

(٢) جعل التبريزى الرواية الأولى : « أن خير الناس ميت » ثم نبه على روايتى « حيا » و « ميتا » .

والتّشاجُرِ والرَّحِمِ — البكاء عليه مدّةَ الدهر . وقوله « ما طَلَع » بمنزلة المَصْدر ، وقد حَذَف اسم الزّمان معه . والمراد بذكر الدّهر الكثير والمبالغة والتأبيد . وقد بيَّنَه بقوله « ما طلَعَ النجومُ » ، لأنه على ذلك يصحُّ أن يكون بدلاً منه . فمعْنَى « عليه الدهرَ » عليه طَوالَ الدَّهرِ (١) ، وامتدادَ الدّهرِ .

٣ — ولكنَّ الفَتَى حَمَلَ بْنَ بَدْرٍ بَغَى والبَغْيُ مَرْتَعُهُ وَخِيمُ

يقول : استعمَلَ البَغْيَ واستَوْبَلَ العافية ، واستذمَّ المَرْتَع ، ومَن بُغِيَ عليه فإنه يُنْصَرُ . ويقال : بَغَى الرَّجُل على فُلانٍ ، أى جارَ . وبَغَى الفَرَسُ فى عَدْوِه ، وهو فرَسٌ باغٍ ، وذلك إذا اختالَ ومَرِحَ . وإذا استُعْمِلَ فى الفخار والاستطالة فهوَ من هذا . والوَخَامةُ : الثِّقَلُ يَعرِضُ من الطَّعام . يقال وخُم وخامَةً فهو وَخيمٌ وَوَخِمٌ ، أى لا يُسْتَمْرَأُ .

٤ — أظُنُّ الحِلمَ دَلَّ عَلَى قَوْمِى وقد يُستَجْهَلُ الرَّجُلُ الحليمُ(٢)

يقولُ : احتمالى من عَشِيرتى ، واستعمالُ الحلم معهم ، هو الذى جسَّرهُم علىَّ فيما أظنّ ، ودَلَّهُم على قَصْدِى واهتضامى على ما يتبيَّن . ثم قال « وقد يُستجهَلُ الرجلُ الحليمُ » أى إذا أُحْوِجَ الحليمُ وأُحرِجَ(٣) فقد يَتكلَّفُ ما لا يكون معهوداً فى طَبْعِه ، ولا موجوداً من خُلقِه . وإنما نَبَّهَ بهذا الكلام على أنه يتحلَّمُ عن الأَدْنَيْنِ ، ويَصْبِرُ على أذاهم ، وأنه لمَّا عِيلَ صَبْرُه وحُمِّلَ فوقَ ما فى وُسْعِه ، خرجَ عن المعتادِ منه إلى غيره .

---

(١) كذا فى م . وفى نسخة الاصل : « طول الدهر » .
(٢) أنشده بعد التبريزى :

ومَارَسْتُ الرِّجالَ ومارَسُونى فمُعْوَجٌّ علىَّ ومُستَقيمُ

(٣) فى الاصل : « وأخرج » ، والصواب ما أثبتنا من م »

١٤٨

وقال مُساوِرُ بن هِنْدٍ(١) :

١ — سائِلْ تَمِيمًا هَلْ وَفَيْتُ فإنّنى أَعددتُ مُكْرُمَتِى لِيَوْمِ سِبَابِ

يقول : سائل تميما هل كان منّى وفاءٌ بما تضمَّنْته لجارى ، فإنى رجلٌ نظّارٌ فى أعقابِ الأحاديث ، مُهتمٌّ بإعداد المكارِم ليوْمِ النِّفار ، شديدُ النِّزاع فى مجالس الفَخار . كأنه يقرِّرُ خصماءَهُ على ما كان من وفائه ، ليُسْقِطَ التَّبعة عنه فيه ، ويُنبِّهَ على أنه يُراعِى أفعالَه فيُخْلِصُها مما يُعَدُّ سَيِّئةً وسُبّةً ووَصْمةً فى حَسَبِه .

٢ — وأَخَذْتُ جارَ بَنى سَلامةَ عَنْوَةً فَدَفَعْتُ رِبْقَتَهُ إِلَى عَتَّابِ

عَتَّابٌ هذا كان معتصِما بحبله ، ومستظهِرًا بذِمَّته ، فلحقَه من بنى سلامة اهتضامٌ فى أمرٍ ، فجاء مُساوِرٌ ومكَّنه من جارِهم ، وأعطاه رِبْقتَه ليتحكَّم فيه ، ويشتفِىَ لما لحقَهُ منهم . وهذا الكلامُ بيانٌ لكيفية وفائه والخروج إلى جارِه مما كان تضمّنَ لَه . وقولُه « عَنْوَةً » أى قَهْرًا ، وهو مَصدرٌ فى موضع الحال . ويقال : أخذَ بَلَدَ كذا عَنوةً ، أى قَهْرًا بالسيف . والرِّبْقةُ : الحَبْلُ يُشَدُّ فى عُنُقِ البَهْم ، وقد توسَّعُوا فيه فقالوا : خَلَع فلانٌ رِبقةَ الإسلام . وقولُه « فدفعْتُ رِبْقتَه » ، هو كما يُقال دفعْتُ مَقادَتَه .

٣ — وجَلَبْتُه من أَهْلِ أَبْضَةَ طائعًا حَتَّى تَحَكَّمَ فيه أهلُ إِرَابِ

---

(١) هو المساور بن هند بن قيس بن زهير بن جذيمة العبسى . شاعر فارس مخضرم أدرك النبى ولم يجتمع به ، ويقال إنه ولد فى حرب داحس قبل الإسلام بخمسين عاما . الإصابة ، والخزانة (٤ : ٥٧٣) والشعر والشعراء ٣٠٧ . وفى المبهج أن « مساور » منقول من اسم الفاعل . وأما هند فعلم مرتجل .

الهاء من « جَلَبْتُه » ترجع إلى دار بنى سَلامة . وأَبْضَةُ : اسم ماء . وقولُه « جَلَبْتُه طائعا » تنبيهٌ على أنه وإن لزِمَه لجارِه الانتقام له من خصمه ومهتَضِمِيه فقد تبرّع له بما لم يكُنْ عليه ، وتكلف فيه ما لم يَلزَمْه . وإرابُ : موضع ، وقيل إرابُ : ماءٌ لبنى العَنْبَر . وأُبْضَةُ : ماءٌ لطيِّء . والأَبْضُ كالعَقْل ، ومنه المَأْبِضُ فى الرِّجْلِ . وقيل للغرابِ مُؤْتَبِضُ النَّسا ، لأنه يَحْجِل فكأنه مأبوض .

٤ — قتلوا ابنَ أُخْتِهِم وجارَ بُيُوتِهِمْ من حَيْنِهِمْ وسَفَاهَةِ الألبابِ

يشَهِّر بفَعْلتهم الذميمة ويُندِّدُ ، فيقول : قطَعُوا الرَّحِم ونقَضُوا العهد ، وارتكبوا ما كان محظورًا فى الدِّين والمرُوَّةِ ، والعهد والذِّمَّة ، فقتلوا جارَهم وابنَ أخيهم ، بخِفَّةِ عقولِهم ، واقتراب هلاكهم . والسَّفَهُ : الخِفَّةُ فى الأصل ، ومنه قيل زِمامٌ سَفِيهٌ ، إذا كان كثير الاضطراب ، ومنه قيل : تسفَّهَتِ الرِّيحُ الغصْنَ ، وتسفَّهْتُه عن مالِه . واللُّبُّ : العَقْل ، والفِعْلُ منه لَبَّ يَلَبُّ . وقالت صَفِيّةُ بنت عبد المُطَّلب[1] : « أضربُه لكَىْ يَلَبّ ، ويَقُودَ الجَيْشَ ذا الجَلَب[2] » .

٥ — غدَرَت جَذِيمَةُ غَيْرَ أنى لم أَكُنْ أَبَدًا لِأُولِفَ غَدْرَةً أَثْوابِى

عَيَّرَهم باستعمال الغَدرِ وتَرْكِ الوفاء للجار ، ثم بَرَّأَ ساحتَهُ من تعاطِى مثل فعلهم ، ونَزَّه نَفْسَه عن ارتكاب نظيرِ ما ارتكبوه . فأما قولُه « لم أَكُنْ لأُولِفَ » فاللامُ فيه لام الجحود ، وانتصابُ الفِعْل بأَنْ مضْمرة بينه وبين اللام . وموضع « لاولِف » نَصْبٌ على أنّه خبر كان ، وانتصاب غَيْرَ على أنّه استثناء

(١) فى الأصل : « عبد الملك » ، صوابه فى م واللسان (لبب) . وكانت قد ضربت الزبير فقيل لها : لم تضربينه ؟ .

(٢) ويروى : « ذا اللجب » .

مُنْقَطِعٌ . وَذَكَرَ الثَّوْب على عادَتِهم فى الـكِنَايةِ عن النَّفس . وعلى هذا قوله :

نُبِّئْتُ أنَّ دَماً حَرَاماً نِلْتَهُ فَهُرِيقَ فى ثَوْبٍ عَلَيْكَ مُحَبَّرِ

وقد قيل معنى قولِهِ تعالى : ﴿ وثيابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ ، أى نَفْسَك . ويقولون على هذه الطريقة : فُلانٌ غَمْرُ الرِّدَاء ، وعَفِيفُ الحُجْزة ، والمراد النفسُ . وعلى هذا قول النّابغة :

* رِقَاقُ النِّعَالِ طَيِّبٌ حُجُزَاتُهُمْ (١) *

وقَوْل الهُذَلِىّ (٢) :

تَبَرَّأُ مِنْ دَمِّ القَتِيلِ وبَزِّهِ وقَدْ عَلِقَتْ دَمَّ القَتِيلِ إزارُهَا

٦ — وإذَا فَعَلْتُمْ ذلِكُم لم تَتْرُكوا أَحَداً يَذُبُّ لَكُمْ عن الأَحْسَابِ

الخِطَابُ يُوَجَّهُ إلى جَذِيمة وهو منهم ، ولذلك جَعَلَ لهم أَحْسَاباً يُحْتاجُ إلى الذَّبِّ عَنْها ، ويَنْصَحُ لهم بالإبقاء عليها ، وتَرْكِ الأَفْعَالِ التى تَدْعو إلى البَرَاءَةِ منهم ومنها ، لـكنَّه أَخرجَ نَفْسَهُ مما عَصَبَ من الذَّمِّ بهم ، وألزمهم من ذَمِيمِ القَوْلِ فى شِيَمِهم وطُرُقِهم ، فقال : إذا رَكبتم من شَنِيع الغَدْر مثلَ ما أنْكَرْتُهُ اشْتَهرَ أمرُكُم ، وانتفى النَّسيب والغريب من مُلَابستكم ، وخُلِّىَ بين القَادِحِ فى أَحْسَابِكم وأعراضكم وبينَـكُم ، فلا يَذُبُّ عنكم ذَابٌّ ، ولا يُدافع دونكم مُدافِـع ، وتفرَّدْتم بالعار اللاحق ، والتَّهجين العائد .

(١) : عجزه : * يحيون بالريحان يوم السباسب *
(٢) هو أبو ذؤيب الهذلى . ديوان الهذليين (١ : ٢٦) .

١٤٩

وقال العباس بن مِرْدَاسٍ[1] :

١ — أَبْلِـغْ أَبَاسَلْمَى رَسُولاً يَروعُهُ   وَلَوْ حَلَّ ذا سِدْرٍ وأَهْلِي بِعَسْجَلِ

٢ — رَسُولَ امرِئٍ يُهْدِي إلَيْكَ نَصِيحَةً   فَإنْ مَعْشَرٌ جَادُوا بِعِرْضِكَ فَابْخَلِ

يخاطب بقَوْلِه « أَبْلِـغْ » صاحباً له ، يقولُ أَدِّ إلى أبي سَلْمَى رسالةً تُفَزِّعُهُ على ما بيننا من البُعْد ، وعلى استيطانه ذا سِدْرٍ ونزولِ أهلي بعَسْجَلٍ . وذو سِدْرٍ : موضع فيه السِّدْر ، وهو شَجَرُ النَّبْقِ . وعَسْجَلٌ : موضعٌ من حَرَّةِ بني سُلَيْم ، وبينهما مسافَةٌ بعيدةٌ . والرَّسُولُ يقع على المُرسَلِ والرِّسالة جميعاً ، ويَجرى مَجْرَى المصادر ، فيقع على الواحد فما فَوْقَهُ ، ومجازُ « لوحَلَّ » مَجَازُ الشَّرْطِ ، فهو يفيدُ معنى إنْ ، كأنَّه قال : أَبْلِغْهُ ذلك فإنِّى لا أَذْخَرُهُ نُصْحِى ، وإن بَعُدَ عَنِّى وعَنْ عَشِيرَتى . وانتصب « رسول » من البيت الثانى على أنه بدلٌ من رَسُولاً يَرُعُهُ . ونَقَلَ الكلام فى البيت الثانى عن الإِخْبَار إلى الخطاب ، لتكون الوَصَاةُ أنجع ، والرِّسالة أَبْلَغَ . وإنّما قال « رَسُولاً يَرُعُهُ » لما فيه من التَّحذير . فيقول : أَدِّ إليه رسالةَ رَجُلٍ مُتَنَصِّحٍ متقرِّبٍ ، وعلى ما يكون فيه صلاحُهُ وخلاصُه مُنَبِّهٍ . وقوله « فإنْ مَعْشَرٌ جادوا بعِرْضِك » تَعْرِيضٌ بمن كان يَغُشُّه ويخونُهُ ، ويداجيه فيما استشاره فيه فلا يَصْدُقه . وارتفع « مَعْشَرٌ » بفِعْلٍ مُضْمَرٍ « جادُوا » تفسيره ؛ لأنَّ إنْ بالفِعْلِ أَوْلَى ، والمَعْنَى : إنْ عَرَّضَكَ مَن لا يُهِمُّه سَلامَةُ عِرْضِكَ لما فيه ذَهَابُ النفس وتَلَفُ المُهْجَةِ ، وتَسَخَّى بك

---

(١) هو العباس بن مرداس السلمى الصحابى ، أسلم قبل فتح مكة بيسير . وأمه الخنساء الشاعرة ، وكان العباس من المؤلفة قلوبهم . الخزانة (١ : ٧٣) والإصابة ، والأغانى (١٣ : ٦٢ — ٧٠) والمرزبانى ٢٦٢ — ٢٦٣ واللآلى ٣٢ — ٣٣ والطبرى (٣ : ١٣٦ — ١٣٧) والشعر والشعراء ٢٥٩ — ٢٦٠ ، ٧٢٢ — ٧٢٥) .

وبما يجمعك وإيّاه من أسباب المودّة واللُّحْمَة ، فابْخَلْ أنت به وتَمَاسَكْ ، قُبَيْل فَوْتِ الْوَقْتِ ، وانْظُرْ ليومِكَ وغَدِكَ قُدَّامَ تَوَلى الأَمْرِ .

٣ ــ وإن بَوَّءوكَ مَبَرَّكاً غَيْرَ طائِلٍ غَلِيظاً فلا تَنْزِلْ به وتَحَــوَّلِ

يقال : بَوَّأْتُه مُبَوَّأَ صِدْقٍ ، أى أَحْلَلْتُه . والمَبَاءَةُ : المنزل . يقولُ : وإنْ حَمَلُوكَ على مَرْكَبٍ غيرِ وطِيءٍ يَسُومونَك فيه خسفا ، وأنزَلُوكَ منزلاً خَشِناً حَزْناً يؤثِّر فى ثَفِنَاتِ الإبل فيُدْمِيها ، ويَسْتَوْعِرُه الرَّكْبُ فلا يَرَونهُ منزلاً لها ، فلا تَرْضَ به ، وانتقِلْ عنه . وهذا مَثَلٌ لِمَا عَرَضُوهُ لَهُ ، وَيَبْعَثُه بِضَرْبِه إيَّاه على مُحاذرته ، وتَصوُّرِ الأمر معهم بصــورته . وقولُه « غيرَ طائل » يجب أن يَكُونَ من الطَّوْلِ : الفَضْلِ ؛ يقال : طالَ عليهم طَوْلاً فهو طائلٌ . والمعنى : لا خَيْرَ فيه فيطُولَ على غَيْرِه . ومِثْلُ هذا البيت قولُ امرئ القيس :

هُوَ الْمُنْزِلُ الآلافَ من جَوِّ ناعِطٍ بَنِي أَسَــدٍ حَزْناً من الأرْضِ أوْعَرَا

وقوله « فلا تنزل به » الفاء [مع ما[1]] بعده جَوَابُ الشَّرْطِ فى قوله وإن بَوَّءوكَ . وموضع فلا تَنْزِلْ رَفْعٌ على أنَّهُ خبر مبتدإ محذوف ، كأنه قال : فأنت لا تنزل به .

٤ ــ ولا تَطْعَمَنْ ما يَعْلِفُونك إنَّهُمْ أَتَوْكَ على قُرْبَاهُمُ بالمُثَمَّلِ[2]

أخْرَجَ ما قَدَّمَه من التمثيل لكيدهم وسُوءِ دِخْلَتِهم ، وما يجب عليه من الأخذ بالتحرُّز معَهم ، وتَرْكِ الاستناخة فى المَبْرَك[3] الذى اختاروه ، والمُبَوَّأ الذى أعدُّوه ، فى مِعْرَضٍ آخَرَ . والمعنى : وما يُعَدُّ قِرًى لك فتجنَّبْه ولا تتناوَلْه ، فإنهم هيَّئُوا لك به سَمًّا قاتِلاً فلا تَطْعَمْهُ . والمُثَمَّل ، هو السَّمُّ الذى قد خُلِطَ به

(١) التكملة من م .
(٢) سبق الاستشهاد بصدر البيت فى ص ٣٥٩ .
(٣) كذا فى م . وفى الاصل : « المنزل » .

ما يقوّيه ويُهَيِّجُه ، ليكون أنفذ . ويقال للصُّوفة التى توضع فى الهِناء عند(١) طَلْى البعير به . الثَّمَلةُ ، وهو مما ذَكَرْتُ . قال الرَّاجز(٢) :

* كما يُلاثُ فى الهِنَاءِ الثَّمَلَهْ(٣) *

وقوله « أَتَوْكَ على قُرْباهُم » يجوز أن يريد به على تقرُّبهم وتنصُّحِهم ، ويجوز أن يريد به على قَرابتهم وتشابُك الأحوال بينك وبينهم . وإنما تنقَّلَ فى المَثَلِ بعدَ المَثَل تأكيدًا للقوْل عليه فى محاذرتهم(٤) ، وإنذارًا فى الرُّكونِ إليهم ، والاستنامة إلى ناحيتهم .

٥ — أَبَعْدَ الإزارِ مُجْسَدًا لك شاهِدًا أُتِيتَ به فى الدَّارِ لم يَتزَيَّلِ

هذا الكلام وإن كان لفظه لفظ الاستفهام فهو تقريعٌ وإنكارٌ ، وتنبيهٌ وإنذارٌ ، فيما يُضْرِبُ المخاطَبُ عنه ، ويَغفُلُ دونَه ، مع كوْنِه أعدلَ شاهدٍ على سوءِ نيَّتِهم ، وخُبْثِ طوِيَّتِهم ، ومع خروجه عن حيِّز الاستدلال عليه إلى المشاهدةِ ، ومن خَلَلِ الخَفاءِ والتشكُّك إلى ظاهرِ الضرورة . فيقول : أَتغْتَرُّ بهم ، أو تَستريبُ بما أُحذِّرُك منهم ، بعد ظهور أمرهم وانكشاف قصْدِهم ، وبعد ما أُتِيتَ به فى الدارِ من الإزارِ المتلطِّخِ بدم ابنِ عمِّك ، وقد يَبِس عليه ولم يتزَيَّلْ عنه . فقولُه « بعدَ الإزار » يتعلَّق بفِعْلٍ مُضْمَرٍ قد دَلَّ عليه خبيثات القِصَّة المحكيَّةُ(٥) . والمُجْسَدُ : الثَّوْبُ المُشْبَعُ صِبغًا . والجِسَادُ : الزَّعفران . ومعنى لم يتزَيَّل : لم يفارق الدَّم ، ولم يَنْفَكَّ مما خالطَهُ منه .

---

(١) م : « بعد » ، تحريف .

(٢) هو صخر بن عمير ، كما فى اللسان (ثمل) .

(٣) فى اللسان : « كما ثلاث بالهناء » . وقبله :

ممغوثة أعراضهم ممرطلة فى كل ماء آجن وسملة

(٤) فى الأصل : « مجاذبتهم » ، صوابه من م .

(٥) كلمة « قد » و « خبيثات » من م .

٦— أراكَ إذاً قد صِرْتَ للقوْمِ ناضِحًا ... يُقالُ له بالغَرْبِ أَدْبِرْ وَأَقْبِلِ

الناضح : البعير الذى يُسْتَقَى عليه الماء . والنَّضَحُ من الحِياض[1] : ما قَرُبَ من البئر فيُفْرَغُ الماء من الدَّلْوِ فيه ، وهذا الكلامُ صدر عمَّن نَصَحَ جُهْدَهُ وَبَيَّنَ لموعوظِهِ رُشدَه ، فلمَّا لم يُتَلَقَّ بالقبول قولُه جعله قضيَّةً منه على المُخاطبِ ، بسوء الاختيار ، وركوب الاغترار ، وأظهر أنه قد صار من التضجُّرِ به ورَفْعِ الطمع عنه وعن صَلاحِه ، فى حكم اليائس من فلاَحِه ، والمُمْسِكِ عن وعظِه وإبلاغه ، لكونه فى حكم المُسخَّرِ لهم حتى لا رَأْىَ له ولا اعتبار ، ولا تدبُّر ولا اختيار . فقال : أراكَ قد صِرْتَ معهم بمنزلة البعير الذى يُستَقَى عليه ، طاعةً وانقيادًا ، فيقال له أَدْبِرْ وأَقْبِل بالغَرْب . والمعنى تُسامُ ما تُسامُ فتلتَزِمُه وتنقادُ ، فِعْلَ ذلك البعير . ومعنى « يُقالُ له » أى يُحْمَلُ على ذلك . والتصرّف فى القوْلِ على وجوهٍ كثيرة من المجاز .

٧— فَخُذْهَا فَلَيْسَتْ للعَزيزِ بخُطّةٍ ... وفيها مَقالٌ لأمرئٍ متذلِّلِ

هذا الكلامُ خُروجٌ عن[2] عُهدةِ ما يفعله المخاطَبُ ، وبَرَاءَةٌ إليه مع الإنكار عليه والتنبيه على موضِع الخطأ فيه ، فيقول : وكَلْتُك إلى نفسِك ، وَنفضْتُ يدى من مُراجعتِك ، فارضَ بما عليه تُدارُ ، وابْذُلْ ما تُرَاوَدُ عنه وتُسامُ ، عالما أنّ مثلَه لا يَرضى به عزيزٌ ، ولا يلتزِمُه آنِفٌ ؛ وفيه مع ذلك نَظَرٌ وجدالٌ لمن يتذلَّلُ : هل هو خُطَّتُه أيضاً . والمعنى : إنك تركَبُ ظَهرًا لا يقتعده المتكلِّف للذُّلّ فكيف العزيز . ويجوز أن يكون المعنى : فيها للناس ، إذا تذاكَرُوا الأحوالَ والخُطَطَ ، نَظَرٌ وكلامٌ مبسوطٌ : هل يَرْضَى بمثله المتذلِّلُ

(١) كذا فى النسختين . وفى اللسان : « النضيح » .
(٢) م : « من » .

أوْ لا . ويجوز أن يريد : إنّ الذّليل يتكلّم فيمن يرضاها خُطّةً ويُعيِّره إيّاها ، فكيف يكون خُطّةً للعزيز . وهذا الوجه أبلغُ الوجوه الثلاثةِ وأدقُّها .

١٥٠

وقال العباس بن مِرْداس(١) :

١ — أَتَشْحَذُ أَرْماحًا بأَيْدِي عَدُوِّنَا ... وتَتْرُكُ أرْماحًا بِهِنَّ نُكايِدُ(٢)

هذا مَثَلٌ . والمعنى : أتعينُ أعداءنا علينا ، لأنَّ مَنْ أحَدَّ سلاحَ العدوِّ الذى يقاتل به ، وترَكَ سِلاحَ صاحبِه الذى يكايدُه فقد أعانَه عليه . وإنّما خَصَّ من بين العُدَدِ الرِّماحَ لأنها كأنّها أخَصُّ بهم . وقولُه « وتتركُ أرْماحًا » أراد وتتركُ شَحْذَ أَرْماحٍ ، فحذَف المُضَافَ . ويجوز أن يكون كَنَى بالأرماح عن الرِّجال . والمعنى : أتهيِّج أصحابَ عدوِّى(٣) عَلَىَّ ، وتسدِّدهم نحوى ، وتتركُ أصحابى الذين بهم أكايدُ ، فلا تُقوِّى فى القتال والصَّبر رأيَهم ولا تُمِرُّ فى الثَّبات عزائمَهم ، ومن المعروف قولُهم : فلانٌ سَيْفِى ورُمحى ، فى الذى يستظهر به عند مُلاقاةِ الأعداءِ وفلانٌ تُرْسِى وجُنَّتى ، فيمن يُتَّقَى به من الأسواء . وإنما قال فى هذا الوجه أرْماحًا بأيدى عدوّنا لأنّه إذا كَنَى عنهم بما يكونُ آلةً جعلها باليد . ويقال شحَذْت السِّكِّين ، إذا أحددْتَه . والباء من قوله « بأيدى » يتعلّق بمضمر ، كأنّه قال أرْماحًا مستقرّةً وحاصلةً بالأيدى . والعدوُّ يقع على الواحد وعلى الجمع . وفى القرآن ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي ﴾ .

٢ — عَلَيْكَ بجار القومِ عَبْدِ بن حَبْترٍ ... فَلاَ تَرْشَـدَنْ إلاّ وجارُكَ رَاشِدُ

(١) التبريزى : « وقال أيضاً » .

(٢) التبريزى : « بهن تكايد » . وفى تفسيره : « والمكابدة : معالجة الأقران . يقال كابدت الشيء مكابدة وكباداً ، إذا قاسيته فى مشقة . والكبد : الشدة .

(٣) فى الأصل : « رسولى » ، وأثبتنا ما فى م .

هذا الكلامُ بَعْثٌ وتحضيضٌ على مراعاة العهود والذِّمم ، وصيانة الجار من الاهتضام ، وإن لام فيها اللّوائم . فيقول : انْتَصِفْ لجارك وانتقم له بأن تؤثّر في جار القوم ، فإنك لا تكون راشدًا إلاّ وقد رَشَدَ جارُك معك . ويقالُ رَشِدَ يَرْشَدُ ، ورَشَدَ يَرْشُدُ ، لغتان . والباء من قوله : « بجار » يتعلّق بعليك ، لأنّ معنى عليك خُذْ . ويقال خُذْ كذا وخُذْ بكذا . يقال أيضاً عليك كذا وبكذا . ودخول النون الخفيفة في قوله « تَرْشَدَنْ » لأنه ليس بواجبٍ فهو يجرى مَجْرى الأمرِ والنَّهْى والاستفهام .

٣ــ فإنْ غَضِبَتْ فيها حَبيبُ بنُ حَبْتَرٍ فَخُذْ خُطّةً يَرْضاكَ فيها الأباعدُ

الضمير فى « فيها » للفَعْلةِ والخُطّة . ألا ترى قولهُ « نخذ خطةً يرضاك فيها الأباعد » . والمعنى : إن تَسخَّطَ ما تتكلّفُه لجارك من الذَّبِّ عنه والانتقام له هؤلاء القومُ فلا تُبال بهم ، وخُذْ فى أمره ما يَحمدك الأباعدُ دون الأقارب ، فإنّ الأخبار إذا انتشرت عنك بالوفاء استرْجَحَك الأجانب . وخَذْلُ الجار وتسليمُه إيثارًا لهوى الأقارب ، ومُجانَبةً لكراهتهم ، يجلب الذمَّ ويُلحِق العار .

٤ــإذا طالَتِ النَّجْوَى بغَيْرِ أُولِى القُوَى أضاعَتْ وأصْغَتْ خَدَّ مَنْ هو فاردُ

هذا بيان الرَّأى فى قَبول ما أشار به ، وترك التَّعريج على غيره . والعامل فى « إذا طالت » أضاعَتْ ، وهو جوابه أيضاً . فيقول : إذا طالت المناجاةُ وامتدَّت الاستشارة مع غيرأرباب الآراء القوّية ضَيّعت المستشيرَ وأمالت خَدَّه ، وصار فى الانفراد بما يعانيه بمنزلة مَنْ لا ناصرَ له ولا مُشيرَ ، لوقوع التشاور على غير حَدِّه ، وتقصير المُشيرِ فى القيام بواجبه ، وقد جمع بين فعلين فى قوله «أضاعت» و « أصْغَتْ » فأعْمَل الثانى ، وهو المختار عند أصحابنا البصريِّين . ويجوز أن يكون مفعول أضاعت غير « خدّ مَنْ » لحذَفَهُ ، كأنّه قال أضاعت رَبّها . وكان

الحكمُ فى هذا الوجه أن يقول لو أظهر المفعول : وأصفَتْ خدّه لكونه فارداً وحيداً ، لكنّه لما كان الآخِر هو الأول وقد حذفَه ، لم يُبال بإظهاره ، لأن الذى هو فارِدٌ ربُّ النجوى لا غير . ومعنى إصغاء الخدّ الإذلالُ والانحرافُ للفتُور والخجل . والقُوَى : جمع قوة ، وأصلها طاقات الحَبْلِ ، ثم استُعملت فى الآراءِ والعزائم . وأصل النَّجوى المُسارَّة ، فاستُعيرت للمشُورة لأنَّها فى أكثر المواضع تقَعُ بها . ويقال : فلانٌ نَجِيُّ فلانٍ ، وتناجَوْا فيما بينهم وانتَجَوْا ، وهم نَجْوَى ، وصْفٌ بالمصدر . وفى هذه الطريقة قول الآخر :

ومَنْ لا يكُنْ ذا ناصِرٍ يَوْمَ حَقِّهِ ... يُغَلَّب عليه ذو النَّصير ويُضْهَدِ

٥ — لحَارِبْ فإنْ مَوْلاكَ حَارَدَ نَصْرُهُ ... فَفِى السيف مَوَلًى نَصْرُهُ لا يُحَارِدُ

يقول : حارِبْ من قَصَدَ جارَكَ وأعان عليه ، ولا تَقْعُدْ عن نُصْرَتِهِ والانتصار له ، فإنْ لم يعاوِنْك فيما تَرُومُهُ مواليك ، وتأخّروا عن النُّهُوض مَعَك ، فاستَعِنْ بالسَّيف ، فإنّ فيه مَوْلًى لك لا يَخْذُلُك ، ولا يتباطأ عنك . وهذا كما قال غيره[1] :

* أنَخْنَا فَحَالَفْنَا السيوفَ على الدَّهْرِ[2] *

والُمحاردة أصلها فى قِلَّةِ اللَّبَن ، واستعير فى قِلَّة الموازرة والمظاهرة . وقوله « فإنْ مَوْلاكَ » ارتفع مولاك بفعل مُضْمَرٍ ما بَعْدَهُ . [تفسيره ، لأن إن بالفعل أولَى[3]] .

(١) هو يحيى بن منصور . الحماسية ١٠٨ .
(٢) صدره : * فلما نأت عنا العشيرة كلها *
(٣) التكملة من م . وانظر ما سبق فى ص ٤٣٣ س ١٦ — ١٧ .

١٥١

وقال أيضاً :

وهذه الأبيات تُعَدّ من المُنْصِفَات(١) :

١ — فَلَمْ أرَ مِثْلَ الحيِّ حيًّا مُصَبَّحًا ولا مِثْلَنا يوم التَقَيْنا فوَارِسا

أشار بالحى إلى قوم معهودين . يقول : لم أر مُغَاراً عليه كالذين صبَّحناهم ، ولا مُغِيراً مثلنَا يوم لَقِيناهم . فقسَم الشهادة قَسْمَ السَّواء بين أصحابه وأصحابهم ، وتناوَلَ بالمَدْحِ كلَّ فِرْقةٍ منهم . وانتَصَبَ قولُه « حيًّا مُصَبَّحًا » على التمييز ، وفيه دَلالَةٌ على جواز قول القائل : عندى عشرون درهما وَضَحًا(٢) . وكذلك قولُه فوارِساً تمييز وتبيين . ويجوز أن يكون الأول والثانى فى موضع الحال ، والمُصَبَّحُ الذى يُؤْتَى صُبْحاً للغارة ، ويستعمل فى الخير أيضا ، يقال : صَبَّحَكَ اللهُ بخَيْر . فإن قيل . لِمَ قال فوارس والتمييز يُؤْتى به مُوَحَّدَ اللفظ . قلت : إذا لم يَتَبَيَّنْ كثرةُ العدد واختلافُ الجنس من المميَّز يُؤْتى بالتمييز مجموعَ اللفظ متى أُرِيدَ التنبيهُ على ذلك . وعلى هذا قول الله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴾ ، كأنه لما كانت أعمالهم مختلفةً كثيرةً ، نَبَّهَ على ذلك بقوله : أَعْمَالاً

---

(١) المنصفات : القصائد التى أنصف قائلوها فيها أعداءهم ، وصدقوا عنهم وعن أنفسهم فيما اصطلوه من حر اللقاء ، وفيما وصفوه من أحوالهم من إمحاض الإخاء . ويروى أن أول من أنصف فى شعره مهلهل بن ربيعة حيث قال :

كأنا غدوة وبنى أبينا بجنب عنيزة رحيا مدير

ومن المنصفات قول الفضل بن العباس بن أبى لهب :

لا تطمعوا أن تهينونا ونكرمكم * وأن نكف الأذى عنكم وتؤذونا

انظر الخزانة (٣ : ٥٢٠ — ٥٢١) .

(٢) الوضح : النقى الابيض .

ولو قال عَمَلاً كان السّامع لا يَبْعُدُ فى وهمه أن خُسْرَهم[١] كان لجنسٍ واحد من أجناس المعصية ، أو لعملٍ واحدٍ من الأعمال الذَّميمة . فكذلك قوله « فوارِسَ » جَمَعَهُ حتَّى يكون فيه إيذانٌ بالكثير .

٢ — أَكَرَّ وَأَحْمَى للحقيقة مِنهُمُ وأَضْرَبَ مِنَّا بالسُّيوف القَوانِسَا

المصراع الأول ينصرف إلى أعدائه وهم بنو أسد ، والمصراع الثانى إلى عِتْرَتِهِ وأصحابه . والمراد : لم أرَ أحسَنَ كرًّا ، وأبلغ حمايةً للحقائق منهم ، ولا أضْرَبَ للقوانس بالسُّيوف منا : وانتصب القوانِسُ من فِعْلٍ دَلَّ عليه قوله « وأَضْرَبَ منا » . ولا يجوز أن يكون انتصابه عن أَضْرَبَ لأَنَّ أَفْعَلَ الذى يَتِمّ بِمِنْ لا يَعْمَلُ إلاّ فى النَّكِرَات ، كقولك : هو أحسن منك وَجْهًا . وأفعلَ هذا يجرى مجرى فعل التعجُّب ، ولذلك تَعَدَّى إلى المفعول الثانى باللام ، فقلتُ ما أضْرَبَ زَيْدًا لعمرٍو . وقول الله تعالى : ﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالاتِهِ[٢] ﴾ ، موضع حيث نَصْبٌ بما دَلّ عليه أَعْلَمُ . والقَوْنَسُ ، قال الدريدى : هو أعلى البَيْضَةِ وقال غيره : قَوْنَسُ الفَرَس : ما بين أُذُنيه إلى الرَّأس . ومثله قَوْنَسُ البيضة من السِّلاح .

٣ — إذا ما حَمَلْنَا حَمْلَةً نَصَبُوا لَنَا صُدُورَ المَذَاكِى والرِّماحَ الدَّوَاعِسَا

يُرْوَى : « إذا ما شَدَدْنَا شَدَّةً[٣] » . يقول : إذا حَمَلْنَا عليهم ثَبَتُوا فى وجوهنا ، ونَصَبُوا صدور الخيلِ القُرّحِ ، والرماحَ المُعَدَّةَ لذلك[٤] .

---

(١) فى الاصل : « جسرتهم » ، والصواب فى م .

(٢) هذه هى قراءة جمهور السبعة . وقرأ ابن كثير وحفص : « رسالته » بالتوحيد . تفسير أبى حيان (٤ : ٢١٦ — ٢١٧) .

(٣) جعلها التبريزى الرواية الأولى ، وما قبلها الرواية الثانية .

(٤) م : « للدفع » .

و لدَّعْس : الدَّفْع فى الأصل ، ثم يُستعمل فى الطَّعن وشدَّة الوطْء والجِماع . والذَّكاء : ضِدُّ الفَتاء . ويقال فَرَسٌ مُذَكٍّ ، إذا تَمّ سِنُّه وكَمَلَ قوّته . وفى المثل : « جَرْيُ المُذَكِّيات غِلَابٌ » . ويقال « غِلاء » . ويقال : فَتَاء فلان كذكاء فلان وكتذكية فلان ، أى حَزَامَتُه على نقصان سنه كحزامة ذاك مع استكماله لِسِنِّه . وقال زهير بن أبى سُلْمَى :

يُفَضِّلُهُ إذا اجْتَهَدَا عَلَيْهِ ... تَمَامُ السِّنِّ منه والذَّكاء

٤ — إذا الخَيْلُ جالَتْ عن صَرِيعٍ نَكُرُّها ... عَلَيْهِم فمَا يَرْجِعْنَ إلاَّ عَوَابِسَا

يقول : إذا الخَيْلُ دَارَتْ عن مَصْرُوعٍ مِنّا كَرَرْناَ عليهم لنصرع منهم مثلَ ما صرعوا منا . ويجوز أن يريدَ : إذا جالَتِ الخَيْلُ عن صَرِيعٍ منهم لا يُقْنِعُنَا ذلك فيهم ، بل نَكُرُّها عليهم لمثله[1] ، وإن كَرِهَتِ الكَرَّ لشدة البأس فلم تَرْجِع إلا كوالح . والعامل فى قوله « إذا الخيل » نَكُرُّها ، وهو جوابُه أيضاً . وإلاّ عَوَابِسًا فى موضع الحال ، وقولُه « الخيلُ » ارتفع بفعل مُضْمَر ما بَعْدَهُ تفسيره .

١٥٢

وقال عبد الشّارِق بن عبد العُزّى الجُهَنِىّ[2] :

١ — أَلَا حُيِّيتِ عَنَّا يا رُدَيْنَا ... نُحَيِّيها وإنْ كَرُمَت عَلَيْنا

(١) فى الاصل : « لميله » ، صوابه فى م .

(٢) فى الاصلى : « وقال عبد الشارق » ، والتكملة بعده من م . وزاد التبريزى بعده « وهى من المنصفات » وانظر ما سبق من الكلام على « المنصفات » فى الحماسية السابقة . وعبد الشارق ، كما يظهر من تسميته : شاعر جاهلى . قال فى المبهج : « الشارق اسم صنم لهم ، ولذلك قالوا : عبد الشارق كقولهم عبد العزى ، وكلاهما صنم . ومثله عبد يغوث وعبدود ونحو ذلك . ويجوز أن يكون الشارق من قولهم عبد الشارق ، وهو قرن الشمس ، كقولهم لا أكلمك ما ذر شارق ، أى ما طلع قرن الشمس ، فقولهم إذا : عبد الشارق كقولهم عبد شمس . وأما العزى فهو اسم صنم ، وهو تأنيث الأعز » .

هذا على كلامين . و« ألاَ » افتتاحٌ[١] . والتحيّة ،قال بعضهم : هى الوَدَاعُ ها هنا ، يقول : ألا أَبْلِغْتِ وَدَاعَنا يارُدَيفَــةُ . ثم قال : نحيِّيها ، أى نُوَدِّعُها وإن عَزَّت[٢] علينا مفارقتُها . ويجوز أن يكون دعا لرُدَينــةَ مبتدئاً فقال : جَزَاكِ اللهُ عَنَّا ، أى تَوَلَّى الله ذلك من دُونِنا ، ثم راجَع نفْسَه فقال : نَفعل ذلك على فَخامةِ موقِعِها منّا ، وجلالَةِ مَحَلِّها من قُلوبِنا ، إذ كُنَّا لا نقدرُ لها على غير ذلك . وقوله « نُحَيِّيها وإن كَرُمَتْ » يسمَّى التفاتاً ، كأنه التفتَ إلى من معه فقال ذلك .

٢ ــ رُدَيْنَةُ لوْ رَأَيْتِ غَدَاةَ جِئْنا   على أَضَمَاتِنا وقد احْتَوَيْنا

توصَّلَ بمخاطبتها إلى اقتصاص الحال التى يريدُ شَرْحَها ، فأخذ يُبَاثُّها فيقول : لو رأَيْتِنا غَداةَ جئنا على حَزَازَاتٍ فى النَّفس ، واحتراقاتٍ فى الجَوْف والصَّدْرِ ، من الغَيْظ والحِقْد ، وقد حَوَيْنا أموالَ أعدائنا ، واستَبَحْنا حَرِيمهم ، ومَلأْنا أيدينا من غنائمهم . هذا إذا رَوَيْتَه بالحاء غير مُعْجَمَةٍ . وروى بعضهم : « اخْتَوَيْنا » بالخاء المعجمة ، ويكون افْتَعَل من الخَوَى ، والمعنى : خَوَتْ أفئدتنا من الوُدِّ ، كقول الآخَر[٣] :

وإذْ صَفِرَتْ عِيَابُ الوُدِّ مِنْكُمْ   ولم يَكُ بَيْنَنَا فيهــا ذِمامُ

وأَجْوَد منها « وقد اجْتَوَيْنَا » بالجيم ، وهو افتَعَل من الجَوَى ، كأنه يريدُ ما اشتملَ الجوانحُ عليه من العَداوة حتى صار جَوًى . والأَضَمُ : الغضَب . ومع ذكرِ الأَضَمِ اجتَوَى بالجيم أَشْبَهُ ، وهو أقْرَبُ . وجوابُ لو محذوفٌ ، لأنّ الأفعال التابعةَ لهذا البيت جميعُها مقصورٌ على بيان القِصّةِ ، وشَرْحِ أحوال الوَقْعةِ .

(١) أى ألا : أداة لافتتاح الكلام . وفى الاصل : « والافتتاح » ، صوابه فى م .
(٢) فى الأصل : « كرمت » ، صوابه فى م .
(٣) هو بشر بن أبى خازم . المفضليات (٢ : ١٣٥) .

وقد بيَّنتُ فيما تقدَّم أنَّ حَذْف الجواب من مِثْل قولِ القائل : لو رَأَيْتَ زيدًا وفي يده السَّيْفُ ، أدلُّ على التهويل والتفخيم من إثباته .

٣ ــ فأرسَلْنا أبا عَمْرٍو رَبيئًا ... فقالَ أَلاَ أنعِمُوا بالقَوْمِ إِعَيْنَا

يقول : توجَّهنا نحوَهم وأنفذْنا مِن قِبَلنا من ارْتَبأَ لنا ، فعادَ مبشِّرًا وقال : قَرُّوا عَيْنًا واستَبْشِرُوا ، فقد أقبَلُوا . وهذا ممَّا يُترْجِمُ عن محبّتهم لملاقاة الأعداء ، وحِرصِهم على القتال ، وتشوُّفهم للمجاذبة والنِّزاع ، حتى عَدُّوا قُرْبَهم بِشَارَةً ، والالتقاء معهم غنيمة . وهذا عندى أبلَغُ من قول الآخر :

يَســـتعذِبُونَ مَنايَاهم كأَنَّهُمُ ... لا ييأَسُونَ من الدنيا إذا قُتِلوا[1]

ومن قوله :

* لِقاءُ أَعَادٍ أَم لِقاءُ حبَائبِ *

وقولُه « عَيْنًا » انتصبَ على التَّمييز ، وهو من باب ما نُقل الفِعْل عنه وَوُضِـع النَّـكِرةُ فيه موضع المَعْرِفةِ ، لأنّ الأصل في قَرِرْت به عَيْنًا : قَرَّت عيني . ومِثْلُه قولهم : يتَصَبَّبُ عَرَقًا ، ويتفقّأُ شَحْمًا . وفي القرآن : ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ .

٤ ــ ودَسُّوا فارِسًا مِنْهُمْ عِشَاءً ... فلمْ نَغْدِرْ بفارِسِهِمْ لَدَيْنَا

يقول : وجَّهوا فارسًا ليَنْدَسَّ في أثناء خيلنا ، ويَعْرِف سرَّنا وعَلَنَنا ، ويقفَ على عَدَدِنا وعُدَّتِنا ، فيرجعَ إليهم بواضح الأحوال والأخبار ، فخلَّيناه والانصرافَ إليهم ، ولم نَستعمِل غَدراً في احتباسه عندنا ، وطيٍّ أخبارنا عنهم .

(١) « يستعذبون منا » هي من هامش نسخة الأصل فقط مع علامة إلحاق ، وهذه العبارة سابقة من م . وبقية حروف الكلمة ، وهي « ياهم » من « مناياهم » هي تكملة ضرورية وليست في النسختين . ويبدأ الاستشهاد في النسختين بكلمة « كأنهم »

وأصْل الدَّسِّ : إخفاء الشيء تحت غيره . وفى القرآن : ﴿ أَمْ يَدُسُّهُ فى التُّرَابِ ﴾ ويقال[1] : اندسّ إلى فلان ، أى أتاه بالنَّمائم . فإن قيل : ما فائدة ذِكر الغَدْر هاهنا والفارس الذى أنفذوه جاسوسًا[2] لم يكن اتخذَ[3] منهم أمانًا ، ولا اشترَط عليهم شرطا يوجِبُ سلامتَهُ به مع مخالطته لهم . قلتَ : كأنّ المرادَ لم نَستعمِل مَكرًا باحتباس الرّسول ، إذ كان فى منعه من الانصراف إليهم انطواء أخبارنا عنهم ، فيكون كالغَدْرِ بهم وبه . ويجوز أن يكون ذلك الفارس الذى ظَهَر لهم ثِقَةً بالمعرفة بينه وبينهم ، فعَدَّ ظهورَه أخْذًا للأمان عليهم . ويجوز أن يكون سَمَّى تركَ أقربِ الأمْرَين إلى الكرم والوفاء معه غَدْرًا ، ثمّ برَّأ ساحَتَه منه .

٥ ــ فجاءوا عارضًا بَرِدًا وجئْنَا كمِثْلِ السَّيْفِ نَرْكَبُ وازِعَيْنا

يقول : تَسَارَعُوا مُقْبِلين نحونا ، وكأنهم فى كثرتهم وتعجُّلهم قطعة من السَّحاب فيها بَرَدٌ ــ وَوَجْهُ التشبيه أنّ لهم حَفِيفًا وَوَقْعًا شديداً متهافِتًا ، كما يكون لذلك السَّحاب ــ ونحن لكثرتنا وإتياننا على ما يَعترض فى طريقنا كالسَّيل الذى لا يُبقِى ولا يَذَر . ومعنى « نَرْكَبُ وازِعَيْنا » أى لا نَنْقادُ لمن يريد ضَبْطَنا ، ولا نُطاوع من يَطْلُبُ كَفَّنا من الجيشَين جميعا . ولم يُثَنِّ « وازِعَيْنا » لأنه يشير إلى رجلين ، لكنه أراد الكثرةَ والجِنْس بالوزاع ، ثم ثَنَّى مبيِّنًا اختلافَ الطائفتين من الحَيَّيْن . ولا يجوز أن يُرْوَى « وازِعِينا » بكسر العين لما يَحْصُل من العيب بالسِّنَادِ مع ارتفاع الضرورة[4] .

---

(١) فى النسختين : « ويقول » .

(٢) م : « داسوسا » فاعول من الدس . وقد أشير فى نسخة الأصل إلى أنها كذلك فى نسخة أخرى . والمعروف ، كما فى مادة (دسس) من المعاجم : « الدسيس » .

(٣) م : « أخذ » .

(٤) فى التذبيه : « وقد رواه بعض الرواة : وازعِينا ، فركب قبح السناد لضيق طريق المعنى الأول عليه . والقول فيه ما ذكرته » .

٦ــ فنادَوْا يا لَبُهْثَةَ إذْ رأَوْنا فَقُلْنا أحْسِنِى ضَرْبا جُهَيْنَا

يقول : لمَّا شارفناهُم استغاثوا ببنى بُهثَةَ مُعْتَزِين إليهم ، ومستَمِدِّين منهم ، فاسْتَتْزَنا نحن أيضاً فى مقابلةِ ما فعلوا بنى جُهَيْنَةَ ، وهَزَزْناهم للضَّرْبِ فيهم ، والإيقاع بهم . وإنّما يستعملون الاعتزاز فى مثل هـذه الحالة تهويلاً للأمر ، وتكثيراً للعشيرةِ ، ليستشعرَ كلٌّ من الفريقين الرُّعْبَ من صاحبه ، والتهيُّب له . واللام من « يا لَبُهْثَةَ » لام الجرّ ، وتعلقت بيا : حَرْفِ النِّداء . ولا يجوز أن يقالَ تعلّقَتْ بالفعل الذى دَلّ عليه يا ، لأنَّ ذلك الفعل لما لم يَخرجْ إلى الوجود سقط حكمه . وفتِحَتْ لوقوع المُنادَى موقع المضمَر . وبُهْثَةَ مَدْعُوَّةٌ ، والجارّ مع المجرور فى موضع نصبٍ لأنّه منادًى . وقوله أَحْسِنِى ضَرْباً » يجوز أن يكون ضَرْباً مفعولا به من أَحْسِنِى ، ويجوز أن يكون فى موضع الحال أى ضارِبَةً . ويُرْوى : « أَحْسِنِى مَلَأً » ، ومعناه خُلُقاً . والمرادُ مخالَقَةُ(١) أهلِ الحرب والمستنصرين ؛ وهذه رواية أبى زيد . وقال ابن السِّكّيت : معناه أَحْسِنِى تمالُؤًا أى تعاوُنًا . ويقال مالأْت على فُلان ، وكأنه من قولهم رَجُلٌ مَلِيءٌ ، وقد مَلُؤَ يَمْلُؤُ مُلاءَةً ومَلَاءً .

٧ ــ سَمِعْنَا دَعْوَةً عن ظَهْرِ غَيْبٍ فَجُلْنَا جَــــوْلَةً ثُمَّ ارْعَوَيْنَا

يقولُ : قَرَعَ أسماعَنا فى أثناء التهيُّؤ والتطالُع دَعْوَةٌ تأدَّتْ من مكانٍ غائبٍ عن عيوننا ، فَدُرْنَا دَوْرَةً ثم رجَعْنا إلى أماكننا . وهذا يجوز أن يكونوا خافوا الكَمِينَ فجاءوا ليتأمّلوا ، فلما أَمِنوا رَجَعُوا . ويقال : ارعَوَى عن الجَهْلِ ارعِواءً ورَعْوَى حسنة ورُعْوَى ، أى رَجَعَ . ويقال : فَعَلَ فُلانٌ كذا بظَهرِ الغَيبِ ، وأتانى خَبَرٌ عن ظهرِ الغيبِ .

(١) كذا على الصواب بالقاف عند التبريزى . وفى النسختين : « مخالفة » .

٨ — فَلَما أنْ تواقَفْنا قَليلاً أنَخْنا للكَلاكِلِ فارْتَمَيْنا(١)

هذه المواقَفَةُ التي أشار إليها، يجوز أن تكون للتَّعْبِيَة والتهيِئَةِ، ويجوز أن تكون لتَدَاعِي الأبطال والمبارزة، واعتراضِهم بين الصَّفَّين للمطاعَنَة. وقوله «قليلا» يجوز أن يُرِيدَ به زَمَانًا قليلاً، فيكونُ ظَرْفًا، ويجوز أن يريد به(٢): تواقُفًا قليلاً، فيكون صفةً لمصدرٍ محذوف. والصفات تَنُوبُ عن المصادِرِ والظروفِ كثيراً. وجوابُ لمَّا «أنَخنَا»، ومفعولُه محذوف. والمعنى: إنّا بَعْدَ المطارَدَةِ نزلْنا، وأنَخْنَا للصُّدور فتَنَاضَلْنَا.

٩ — فَلَما لم نَدَعْ قَوْسًا وسَهْمًا مَشَيْنا نَحْوَهُمْ وَمَشَوْا إلينا

١٠ — تَلأْلُؤَ مُزْنَةٍ بَرَقَتْ لأُخْرَى إذَا حَجَلُوا بأَسْيَافٍ رَدَيْنا

يقول: لمَّا مَلِلْنَا الطِّرَاد والرِّماء، بإفْناءِ النِّبال وتَعْطِيلِ القِسِيِّ لانقطاع الأوتار، مَشَى بَعْضُنَا إلى بَعْضٍ للكفاح والجِلادِ، طلباً للاشتفاء، كأنَّهم تَنَقلوا في دَرَجِ القتال ومراتِبِه، حتى بَلَغُوا أعلاها وأصْعَبَها، وأولاها بدَرَكِ الثّأر وأحقها. ولهذا لمّا سأل عمر بن الخطّاب رضى الله عنه عمْرو بن مَعْدِيكَرِبَ عن أنواع السِّلاح، وانتهَى إلى ذكر السيف، قال «عِنْدَهُ تَثْكَلُ الأمّهات». وانتصَبَ

(١) م: «وارتمينا». وقال ابن جنى: «لك أن تجعل اللام صلة إلى المفعول توكيدا كقول الله سبحانه: قل عسى أن يكون ردف لكم، وكقوله: إن كنتم للرؤيا تعبرون. غير أن هذا قدم فيه المفعول فحسن زيادة اللام لإعانة الفعل. وقرأت على محمد بن الحسن عن أحمد بن يحيى لابن ميادة:

وملكت ما بين العراق ويثرب ملكا أجار لمسلم ومعاهد

أى أجار مسلما ومعاهداً، فكأنه قال: أنخنا الكلاكل، فزاد اللام من حيث ذكرنا. ويجوز أن يكون اللام خبر مبتدأ محذوف يدل عليه قوله أنخنا، فكأنه لما قال أنخنا قال = إناختنا للكلاكل».

(٢) كذا فى م وفى الأصل: «أن يكون به».

« تلألُوءَ مُزْنَةٍ » على أنه مَصْدَرٌ مما دَلّ عليه « مَشَيْنَا نحوهم ومَشَوْا إلينا » ، لأنَّ فى ذلك تلألُؤَ السِّلاح من الجانبَين جميعا ، ووميضَ كلِّ واحدةٍ من الطَّائفتين جميعاً للأخرى . وقولُه « إذا حَجَلُوا بأسْيَافٍ رَدَيْنَا » ، أى إذا كان مشيُهم إلينا حَجْلاً كان مَشْيُنَا إليهم رَدَياناً . والرَّدَيان فَوْقَ الحَجَلان ، لأنَّه مَشْيُ الحمار بينَ آرِيِّهِ ومُتَمَعَّكِه ، فهو أسْرَعُ من الحَجَلان ، إذْ كان فى الحجلان تقارُب الخَطْو كمَشْى المقيَّد ووَثْبَتِهِ . فيقول : تلألَأْ نا لوفورِ أسلحتنا ، وبَرِيقِ دُروعِنا وبَيْضِنا ، وإيماض أعيننا ، تلألُؤَ سحابةٍ بَرَقَتْ لسَحَابةٍ أُخْرَى قابَلَتْهَا . وقال أبو زَيدٍ : هذا من رَدَيَان الجوارى إذا لَعِبْن[1] تَرْفع إحداهُنّ رِجْلاً وتَخْطُو بأخرى خُطوتَين ، ثم تضعُها وتَرفع الأخرى ، تفعل ذلك مِرَاراً . قال : والغُرَاب يَرْدِي ويَحْجِل .

١١ — شَدَدْنَا شَدَّةً فقَتَلْتُ منهم ثَلاَثَةَ فِتْيَـةٍ وَقَتَلْتُ قَيْناَ

١٢ — وشَدُّواشَدَّةً أخرى فجَرُّوا بأَرْجُلِ مِثْلِهم ورَمَوْا جُوَيْنَا

يَقُولُ : حَمَلْنَا عليهم حَمْلَةً مُنْكرة[2] ، فأصَبْنا منهم ثلاثةً من الفتيان ، وقَتلتُ قَيْناً . وقَيْن : اسمُ رجُلٍ كان مشهوراً فيهم بالبأس والنَّجْدَةِ ، فلذلك عَيَّنَ عليه . وقولُه « ثلاثةَ فِتْيَةٍ » فِتْيَةٌ من أبنية القليل ، كغِلْمةٍ وصِبْيَةٍ ، ولذلك أضافَ الثّلاثةَ إليها . وبناء الكثير الفِتْيان . و « شَدُّوا شَدَّةً أخرى » ، يقول : وحملوا حَمْلَةً فأصابوا منَّا مِثْلَ ما أصَبْنَا منهم ، وارْتُثَّ من قَتْلاَنا مثلُ ما ارتُثَّ من قتلاهُمْ ، ورمَوْا جُوَيْناً أخِى . قوله « بأرْجُلِ مثلهم » لو قال أمثالِهم لجاز ، وفى القرآن : ﴿ ثُمَّ لا يَـكُونوا أمْثالَـكُمْ ﴾ ، وفى موضعٍ آخر :

---

(١) فى نسخة الأصل : « نعين » ، صوابه فى م .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من م .

﴿ يَرَوْنَهم مِثْلَيْهم رَأْيَ العَيْنِ ﴾ ، وفى موضع آخر : ﴿ إنَّكُمْ إذاً مِثْلُهُم ﴾ . وهذه الأبيات تُسمَّى المُنْصِفةَ ، لِمَا تقابَلَ فيها من صِفات الجيشَيْن على وَجْه التعادُل ، وسَنَن التصادُق . إن قيل ما فائدة قوله « شَدَّةً أُخْرَى » ، ولم يكن قد تقدّم لهم أُولَى؟ قلت : يجوز أن يكون أرادَ تَوَالَى بيننا حَمْلَتان : الأولى مِنّا ، والأخرى منهم ، لأنَّ قَصْدَهُ اقتصاصُ الحال الدائرة بينهم . ويجوز أن يكون أراد أن يبين أنهم كانوا السابقين والمبتدئين ، فوصَف شَدَّتهم بالأخرى لِيُعْلَمَ أنَّ المتقدم فى الذِّكر كانت الأولى .

١٣ ــ وكانَ أَخِي جُوَيْنٌ ذا حِفَاظٍ وكان القَتْلُ لِلفِتْيانِ زَيْنا

١٤ ــ فآبوا بالرِّماحِ مكسَّراتٍ وأُبْنَا بالسُّيوفِ قد انْحَنَيْنا

نَبَّهَ على أنه بحُسْنِ محافظتِه على الشَّرَف ، وجميل مدافعَته دون العشيرة ثَبتَ حتَّى قُتِل ، وأنّ قِتْلتَهُ كانت قِتْلَةً محمودةً تَزِينُ ولا تَشِين . وقوله : فآبوا بالرِّماح مكسَّراتٍ ، وأُبْنَا بالسيوفِ مُنحَنِيَاتٍ ، جعَل فيه أعلى الصفتين لنَفْسه وذَوِيه[1] ، وإن كان الظاهر من قَصْدِه فى الوَصْف الجَرْيَ على سَنَن النِّصْف ، يَشْهد لذلك ما رَتَّبَهُ زهيرٌ فى قوله :

يطعَنُهم ما ارْتَمَوا حتى إذا اطَّعَنُوا ضاربَ حتى إذا ما ضارَبُوا اعتَنَقا

ألا ترى أنه جعَل الطّعنَ فوقَ النَّضْل ، والضِّرابَ فوقَ الطِّعان ، والعِناقَ فوق الكِفاح . وكذلك فعَل فى الرَّدَيان والحجَلان ، وفى وَصْف أخيه بحُسْن الحِفَاظ عند قوله « ورمَوْا جُوَيْنًا » فى مقابلةِ « وقَتَلْتُ قَيْنًا » . وأمّا قول الآخر[2] .

(١) كذا فى م . وفى الأصل : « لنفسه من ذويه » .
(٢) هو الحصين بن الحمام المرى . المفضليات (١ : ٦٣) .

نُطَارِدُهُم نَسْتَنقِذُ الجُرْدَ كالقَنَا ... ويَسْتَنقِذُونَ السَّمهرِىَّ المُقَوَّمَا

فليس من التناصُفِ فى شىء ؛ إذ كان المعنى : إنَّا عِند الطِّعانِ نُذْويهم عن ظُهور الدَّوَابِّ ، فنَغْنَمُ دوابَّهم ونفوز بها ، وهم يستنقذون رِماحَنا لأنَّا نكسِرُها فيهم إذا طَعَنَّاهم ، ونُجِرُّها إياهم فيفوزون بها . فيقول : انصرَفوا وقد تكسَّرَتْ رماحُهم بالإجْرارِ ، ورَجَعْنا وقد تَثَنَّتْ سُيُوفُنا بإعمالنا إيّاها فى البَيْضِ والدُّروع وقتَ الجِلاد .

١٥ — فباتُوا بالصَّعيدِ لَهُمْ أُحَاحٌ ... ولو خَفَّت لنا الكَلْمَى سَرَيْنَا

يقول : بقُوا ليلَهم يئِنُّون على الصعيدِ ، وهو وجه الأرض ، ولو ساعَدَتْنا الطائفة المجروحةُ مِنَّا ، وقَدَرَت على السُّرَى لسَرَيْنَا ، لكنَّ كُلاًّ منَّا اضطُرَّ إلى الإقامةِ والتلوُّم رَيْثَمَا يَثُوبُ إليه القُوَى بَعْدَ لُحُوقِ الجَهْدِ ، ومشارفَةِ الرَّدَى . وقد قيل إن الأحاح العطش ، والمشرف من الجراح على الهلاك يَعْطش . وقد قيل إنّ الاحاحَ شِدَّة الوَجْدِ من الغيْظ حتى يُسْمَعَ له من الصَّدْرِ صوتٌ ، وهو على مثال الأدْواءِ والأصوات جميعًا ؛ لأنّ فُعَالا يَكْثُر فيهما . والكَلْمَى : جمعُ كَلِيمٍ ، وفَعْلَى يكونُ جَمْعًا لما كان من الزَّمانة والضَّرَرِ وأنواع البَلايا . وأبنيةُ واحدِهِ تختلف

١٥٣

وقال بِشْرُ بنُ أُبَىّ [١] :

١ — إنّ الرِّباطَ النُّكْدَ من آلِ داحِسٍ ... أَبَوْنَ فما يُفْلِحْنَ يَوْمَ رِهَانِ

(١) التبريزى : « وقال بشر بن أبى حمام العبسى ، ابنى زهير بن جذيمة . ويروى : بشير » . وفى المؤتلف ٦١ « بشير بن أبى جذيمة العبسى ، بضم الباء تصغير بشر » . وقد سبقت ترجمة « أبى بن حمام » فى الحماسية ١٤٢ .

يُروَى « أَبَيْنَ فَلاَ يُفْلِحْنَ[١] » ، ويُرْوَى « كَبَوْنَ » أي سَقَطْنَ لوجوهها . قال :

* فَكَبَا كما يَكْبُو فَنِقٌ تارِزٌ[٢] *

وهذا الكلام تَضَجُّرٌ بما انْتَتَج بين ابْنَىْ بَغيضٍ عَبْسٍ وذُبْيانَ من الشرِّ ، في الرِّهانِ على داحسٍ والغَبْراءِ ، ودُعاءٌ على داحسٍ ونسـلِهِ بألاّ تُفلِحَ في خِطارٍ ، وأن تَأْبَى النَّجاحَ في سِباقٍ ، فقال : إنّ الخيـلَ المربوطة المشائيم من آل داحسٍ وداحِسًا ، أَبت السَّبْق في حَلْبَـةٍ وميدانٍ ، والفَلاَحَ يومَ خِطارٍ ورِهان . والمعنى : لا جعَـل الله لها ذلك ، فقد تَرَدَّدْنا من البَلاءِ في عَمايَاتٍ لا انكشافَ لها . وخبَرُ إنّ « جَلَبْنَ بإذْن الله » وقولُه « كَبَوْنَ فما يُفْلِحْنَ » أو « أَبَيْنَ فلا يُفْلِحْنَ[٣] » اعتراضٌ بين إنّ وخَبَرِه . والمعنى مَعْنى الدُّعاء ، فهو كما يقال إنّ زَيْدًا خَذَلَهُ الله فعَلَ كذا . ومثله في الاعتراض بالدُّعاءِ قولُ الآخر[٤] :

. . . . ما لَـكُمْ تفاقَدْتُمُ لا تُقْدِمُون مُقَـدَّما[٥]

ويجوز أن يكون الكلام كله إخبارًا متجرِّدًا[٦] عن الدُّعاء ، فيكون معنى كَبَوْنَ وأَبَيْنَ ، أنه حصَل لهنّ ذلك . والنُّـكْدُ : جمعُ أَنْـكَد . والرِّباط :

(١) كذا في النسختين ، ورواية التبريزي : « أبين فما يفلحن » . وانظر ما سيأتي في الحاشية التالية .

(٢) لأبي ذؤيب الهذلي في ديوان الهذليين (١ : ١٥) . وعجزه :

* بالخبت إلا أنه هو أبرع *

(٣) كذا في الأصل . وفي م : « فما يفلحن » .

(٤) هو الحصين بن حمام المري . الحماسية ١٣٢ .

(٥) صدره : * فقلت لهم يا آل ذبيان مالكم *

(٦) أشير في هامش نسخة الأصل إلى أنها في نسخة أخرى : « مجردا »

مصدر رابَطْتُ ، ولذلك وقَع على الواحدِ والجَمْع . والآلُ ، ذَكَر البَصريُّون أنه فى معنى الأهل ، لا فَرْقَ بينهما ، وأنّ تصغيره أُهَيْلٌ ، وهذا يُؤْذِن بأنّ أصل أَلِفِه هاء . وحكى ثَعلبٌ عن شيوخِه أنّ الأَهل ، القرابةُ ، مُتَّبِعًا كان أو غيرَ مُتَّبِـع ، وأَنّ الآلَ المُتَّبِـعُ وإنْ لم يكُنْ ذا قَرابةٍ ، فهما لمعْنَيَيْن . قال : وحكى الـكسائى فى تصغير الآلِ أُوَيْلٌ ، وفى تصغير الأَهْلِ أُهَيْل .

٣ – جَلَبْنَ بإذن الله مَقْتَلَ مَالِكٍ وَطَرَّحْنَ قَيْسًا مِن وَرَاءِ عُمَانِ

أخذ يعتدُّ الخصالَ المكروهةَ الحاصلة بها ، فيقول : جَلبَ سَبْقُ دَاحِسٍ بعِلْمِ الله تعالَى قَتْلَ مالِك بن زُهَيْر ، وتطريحَ قَيْسِ بن زُهَيْر من أرض العَرَب إلى عُمَان . وكان قَيْسٌ نَذَرَ ألاَّ يَنْظُرَ فى وَجْهِ غَطَفَانىّ أبداً ، فدَعاه ذلك إلى مراغمة العشيرة ، والتباعُد فى الغُرْبَةِ . وقولُه « بإذن الله » من قَوْلِكَ أَذِنْتَ بالقوْمِ . وفى الحديث : « ما أَذِنَ اللهُ لشىءٍ[1] » . وقَصْدُ الشَّاعِرِ أن يَذْكُرَ ما أَعْقبَ سَبْقَ دَاحِسٍ من الشَّرِّ ، وأُلحِق من الشؤمِ . وقوله « جَلَبْنَ » جعَلَ اللَّفظ للآل ، والمُراد دَاحِسُ ، لـكنَّه لما جعَلَ الدُّعاءَ لآله استمرّ فى الإخبار على حاله ولم يغيِّر . ويشبهه قول الآخر :

إنّ ابْنَ ضِرَارٍ حِينَ أنْدُبُهُ زَيْدًا سَعَى لى سَعْيًا غَيْرَ مَكْفُورِ

أراد : إنّ ابن ضِرَارٍ زيداً ، فذكر الآل والمراد غيره . وهم فى كثير من المواضع أقاموا الوَالِدَ مَقَامَ الوَلد والولَد مقام الوالد ، والعشيرةَ مقام الواحِدِ منها ، والواحد مقام العَشيرة ، لأغراض مختلفة ، حين أمِنوا الالتباس . ومِمّا يُجانِسُ هذا زيادتهم « ذو » و « حىٍّ » . أنشد أبو زيد :

(١) تمام الحديث ، كما فى اللسان : « ما أذن الله لشىء كأذنه لنبى يتغنى بالقرآن » . وقد فسر الأذن ، بالتحريك ، أنه الاستماع .

يا قُرَّ إنَّ أباكَ حَيٌّ خُوَيْلِدٍ قد كُنْتَ خائفَه على الإِحْمَاق[(١)]

وقال الشَّمّاخ :

* فأَدْمِجَ دَمْجَ ذى شَطَنٍ بديعِ[(٢)] *

والقَصْدُ إلى خُوَيْلِدٍ وإلى شَطَنٍ .

٣ — لُطِمْنَ على ذَاتِ الإِصَادِ وجَمْعُكُمْ يَرَوْنَ الأَذَى من ذِلَّةٍ وهوَانِ

الملطومُ داحِسٌ ، فجرى على ما بَنَى عليه الـكلامَ من الإخبارِ عن نَسْلِهِ وآله . وكان حُذَيفةُ بن بَدْرٍ أَرْصَدَ فِتْيَانًا لَهُ من بنى فَزَارَةَ لمَّا تغالَقَ هو وقَيْسٌ على الفَرَسَيْنِ فى موْضِعٍ من ذات الإِصَادِ لُقِّبَ بشِعْبِ الحَيْس — كحَيْسٍ أكلوه فيه — وقال لهم : إن جاء دَاحِسٌ متقدِّمًا سابقًا فالطِموه ونَهْنِهُوهُ عن الغاية حتَّى تتقدَّمَهُ الغَبْرَاء ، فمرَّ بهم دَاحِسٌ مُبَرِّزًا وفعلوا به ما رَسَمَ لهم حتَّى تَخَلَّفَ عن الغبراء ، فاجتَهَدَ داحس وتكلَّفَ من العَدْوِ ما لَحِقَ بها ، وتقدَّم عليها ثانيًا فجاء سابقًا . وقولُه « وجَمْعُكم يَرَوْنَ الأَذَى » ، يخاطِبُ به بنى عَبْسٍ ، وإنَّما يصِفُ ما نيلَ منهم وركبهم من الهَضِيمة فى فَرَسهم لمَّا لُطِمَ ، وفى أنفسهم حين مُنِعُوا ما استُحِقَّ له . واللَّطْمُ : الضَّرْبُ فى الخدِّ ، ثم قيل فَرَسٌ لَطِيم تشبيهاً بذلك . وهذا كما يقال هو مَمْسُوحٌ بالجمال مسْحًا . وذات الإِصَادِ يُرِيد البُقْعَةَ التى فيها الإصاد ، ويقال هى رَدْهَةٌ بين أَجْبُلٍ . والردهة كالحُفَيْرَةِ[(٣)] يجتمع فيها الماء ، والجميع الرِّدَاهُ .

٤ — سَيُمْنَعُ مِنْكَ السَّبْقُ إنْ كُنْتَ سَابِقًا وتُقْتَلُ إن زَلَّتْ بك القَدَمَانِ

---

(١) نوادر أبي زيد ١٦١ .

(٢) صدره فى ديوان الشماخ ٦١ :

* أطار عقيقه عنه نسالا *

(٣) م : « كالحفرة » وأشير فى الأصل إلى أنها فى نسخة « كالنقرة » .

هذا يحتمل وجهين : أحدهما أنّه جعل الخطاب لصاحب الفَرَس على المجاز والسَّعة ، والمقصود الفَرس ، فيقول : تُمْنَعُ من السَّبْقِ إن سَبَقْتَ — وهذا إشارة إلى ما كان منهم من لَطْمِ داحِسٍ . وقد قُدِّمَ ذِكْرُه — فإن خَفَّتْ قَدَمَاك بِكَ وبَرَزْتَ ثانياً أُتِيَ عليك . ويكون قَوْلُهُ « زَلَّتْ بك القَدَمان » على ما فَسَّرْنَاهُ من قولهم قِدْحٌ زَلول ، إذا كان خفيفاً . فهذا وَجْهٌ . والثانى أن يُتْرَكَ الخطاب على ظاهره وحَدِّهِ ، فيكون المَعْنَى : سَيُمْنَعُ منك المُتَّفَقُ عليه من الخطَرِ بسَبْقِ فَرَسك ، فإن لم يَثْبُتْ قَدَماك عند التَّقاضى به ، وفى الدفاع عن نفسك فيما يُرَادُ من ظُلْمِكَ ويرام من هَضْمِكَ قُتِلْتَ أيضاً . وهـذا أقْرَبُ وأشبه بالقِصَّة .

١٥٤

وقال غَلَّاقُ بن مَرْوَانَ(١) :

١ — هُمُ قَطَعُوا الأَرْحَامَ بينى وبَيْنَهُمْ وأَجْرَوْا إليها واستَحَلُّوا المَحَارِمَا

قَطَعُوا بالتخفيف يَصْلُح لقليل الفِعْـل وكثيره ، فإذا ثَقَّلْتَ لم يَـكُنْ إلاَّ للتَّـكثير أو التـكرير . والشّاعِرُ يَصِفُ ما أَجْرَى إليه القَومَ فى سَبْقِ داحِسٍ من قطيعة الرَّحِم ، وانتهاك المَحْرَم ، واستِحْلَالِ المَحْظُور المحرَّم ؛ ويَقْتَصُّ ما تَنَقَّلُوا فيه وتدرّجوا إليه حَالاً بعد حَالٍ ، وشيئا بَعْدَ شىء . وقوله « أَجْرَوْا إليها » الإجراء يُسْتَعْمَلُ فى المُنْـكَر المذموم ، ومفعولُهُ محذوف ، كأنّهُ أجرَوا

(١) التبريزى : « غلاق بن مروان بن الحكم بن زنباع » . المبهج : « يكون غلاق فعالا من غلق الرهن فهو غلاق ، كعلم فهو علام ، وسلم فهو سلام . ويجوز أن يكون من من أغلق الباب ونحوه ، وهذا أقلها لعزة فعال من أفعل ، إنما جاء منه أسأر فهو سآر ، وأدرك فهو دراك ، وأجبر فهو جبار . وأقصر فهو قصار . وقرأ بعضهم : يا قوم اتبعونى أهدكم سبيل الرشاد . ومروان : علم مرتجل » .

فِعلهُم إليها ، والضمير فى « إليها » للقطيعة ، لأنّ الفِعْلَ يَدُلُّ على مَصْدَرِه . وهذا كما يُقال : مَن كَذَبَ كان شَرًّا له ، أى كان الكَذِبُ شَرًّا له .

٢ — فيالَيْتَهُمْ كانوا لِأُخْرَى مَكانَها ولَمْ تَلِدِى شيئاً من القَوْمِ فاطِما

البيتُ على كلامَيْن : صَدْرُهُ إخبارٌ ، وعجُزُه خطابٌ لفاطمة ، وهى أختٌ لهم . ومِثْلُه فى أنّه كلامَيْن قوله تعالى : ﴿ يُوسُفُ أعْرِضْ عَنْ هَذَا واستَغْفِرِى لِذَنْبِكِ ﴾ . والشاعِرُ قَصْدُهُ إلى إظهار التوجُّع من الحال ، فيقولُ متمنِّياً : بِوَدِّى إنْ يكونوا لوُصْلَةٍ وقَرَابَةٍ غير وُصلتهم وقرابتهم ، حتَّى لا يَبلغ الجفاء من جهتهم مَبالِغَهُ فى نفُوسِنا ، لأنَّ ظُلْمَ ذَوِى القُربى أشَدُّ تأثيراً . والشَّرُّ إذا وَرَدَ على الإنسان من مَظَنَّةِ الخيرِ كان أنْفَذَ تحزيزاً . فقولُه « كانوا لأخرى مكانَهَا » أى لِقَرَابَةٍ أخرى مكان هذه القرابة ؛ أو لِأَرْحامٍ أخرى مَكانَ هذه الأرحام . وقوله « لم تَلِدِى شيئا » تمنّى ارتفاع الوُصْلَةِ كما تَمَنَّى فى الأوّل انقطاعَ القرابة ؛ كأنَّه وَدَّ بعد استبدالهم بالتناصُرِ تَدَابُراً ، وبالتَّواصُلِ تقَاطُعًا ، أنَّهم كانوا منهم غُرَباءَ . وقوله « فيالَيْتَهُمْ » المُنادَى محذوف ، أراد يا قَوْمِ لَيْتَهُم .

٣ — فَمَا تَدَّعِى من خَيْرِ عَدْوَةِ دَاحِسٍ فَلَمْ تَنْجُ منها يا ابْنَ وَبْرَةَ سالِما

يَذُمُّ ما أَحْمَدُوه من سَبْقِ داحِسٍ وتبريزه ، ويُسَوِّئُ رأيهم فى تبجُّحهم ، ويعرِّفُهم قُبْحَ عاقبةِ ما اختاروه ، وسوءَ مَغَبَّةِ ما شَرَعُوا فيه . وإنّما قال «ماتَدَّعِى» لأنّ أصحاب الغَبراء كانوا يعلُّون(١) سَبْقَ دَاحِس وينكرونه ، فلهذا عَلَّقَ ما حكاهُ عَنْه بالدَّعْوَى . وقولُه « من خير عَدْوَةِ » أى من نَفْعِه وسَنَاءِ ذِكْرِهِ . وقوله « فلم تَنْجُ منها » رَدَّ الضمير على المضافِ إليه وهو العَدْوَة . يريدُ : لم يَرْجِعْ

(١) هذا ما فى م . وفى الأصل : « لأن أصحاب الغبراء لأنهم كانوا يعلّون » .

إليك منْها جَدْوَى ، ولا ارتفع الأمر فيه كَفاً . ولَمَّا فاتت الغنيمة فيه لم تَحْصُل لك السّلامةُ أيضاً .

٤ ـ شَأَمْتُمْ بِها حَيَّيْ بَغِيضٍ وغَرَّبَتْ أَباكَ فأَوْدَى حَيْثُ وَالَى الأَعَاجِمَا

قال أبو زيد : يقال شَأَمَ فلانٌ أصحابَهُ ، إذا أصابهم الشُّؤم من قِبَلِه .
و « بها » يُريدُ بالعَدْوَةِ ، وهذا تفسير قولِه : فلَمْ تَنْجُ مِنْهَا يا ابْنَ وَبْرَةَ سَالِماً .
يَقُولُ : أوْقَعْتُمْ بعَدوَتِها والخِطار عليها الشُّؤمَ فى حَيَّيْ بَغِيضٍ : عَبْسٍ وذُبيَانَ ، وأَخْوجَ أبُوكَ ـ يعنى قيس بن زُهَيْرٍ ـ إلى تَرْكِ أرْضِ العَرَبِ ومهاجرتِها .
يعنى حين أُخْرِجَ[1] وأزْعِجَ إلى بلادِ العجم ، حتى صار يُواليهم بها ، إلى أن مات غريباً بين ظهرانيهم . وأشار بقوله « حَيْثُ » إلى عُمان وما وَرَاءه .

٥ ـ وكَانَتْ بَنُو ذُبيَانَ عِزًّا وإخْوَةً فَطِرْتُمْ وطاروا يَضْرِبُونَ الجَماجِمَا

يقول : كان بنو ذبيانَ لكم يا بنى عَبْسٍ مَلَاذاً وعِزًّا ، وعَتَاداً وظَهراً ، لما يجمَعُكم وإيّاهُمْ من الأُخُوَّةِ ، فاطَّرَحتُم مَوَاتَّ التمازُج والتَّشابُكِ ، وتجاوزتُموها إلى التَّجاذب والتقاتُل . وهذا تحسيرٌ للمُخاطَبِ فيما انتقل عنه من موالاة العشيرة ، والإبقاءِ على الأحوال الجامعة ، وتلهيفٌ فيما انتقلوا إليه من تهييج الحرب ، وبَسْط الأذَى والشرّ ، وتنبيهٌ على ما يتَعقَّب أحوالَهم إن استمرُّوا عليها من التفانى والتَّهالُك . وكان الواجب أن يقول : فطِرْتُم تَضْرِبُونَ وطاروا يَضْرِبون ، فاكتفى بالإخبار عن إحْدَى الفرقتين ؛ إذْ قد عَلِمَ أنَّ حال الأخرى كَحالِها . ومعنَى طِرتُم : تَسَرَّعْتُم ، كما قال :

* طاروا إليه زَرافاتٍ ووُحْدَانا[2] *

(١) كذا فى م . وفى الأصل : « أخرج » بالخاء المعجمة .
(٢) من الحماسية الاولى . وصدره :
* قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم *

٦ ــ فأضْحَتْ زُهَيْرٌ فى السِّنِينَ التى مَضَتْ وما بَعْدُ لا يُدْعَوْنَ إلَّا الأشائما

أنّثَ الفِعْل لأن المُراد بذكر زهَيْر القبيلةُ بأسْرِهَا ، ومعنى يُدْعَوْن يُسَمَّوْن ، كما قال ابن أحْمَر :

* وكنتُ أدْعُو قَذَاهَا الإثْمِدَ القَرِدَا[1] *

يريد أُسَمِّى ، ولذلك تعدَّى إلى مفعولين ، فيقول : صار أسلاف بنى زُهَيْر ابن حُذَيفة وأخلافُهم لا يُسمَّوْن قديمًا ولا حديثًا إلّا المشائم . والأشائم : جمع أشْأم . ويقال : جرَتْ لَهم طَيْرٌ أشائِمُ ، أى جَرتْ لهم بالشُّؤْمِ . وقال زهير :

* فتُنْتِجْ لَكُمْ غِلْمَانَ أشْأَمَ[2] *

أى غلمان أمرٍ أشْأَم . وقوله « فى السنين » يجوز أن يكون ظرْفا لأضْحت ، ويجوز أن يكون ظرفا لقوله « لا يُدْعَوْنَ » . وقولُه « وما بَعْدُ » يراد به وفيما بعد فيكون ما معطوفًا على السِّنين . ويجوز أن يكون موضع « ما » نَصْبًا على أن يكون معطوفًا على موضِع فى السِّنينَ لا على لفظِه ، لأنَّ موضِعَهُ نَصْبٌ لكونه ظَرفًا . ويجوز أن يُجْعَلَ مَا صِلَةً ، كأنَّه فى السِّنينَ الماضيةِ وبعدها . ويجوز أن يُرْوَى : «ومن بَعْدُ لا يُدعَونَ » ، وهو حَسَنٌ . وذكر بعضُهم[3] أنَّ ما من قوله « وما بَعْدُ » لا يجوز أن يكون إلّا صلةً وزائدةً[4] لأنَّ بَعْدُ لَمَّا جُعِلَ غايةً ودخَلَهُ النُّقْصَان بِحذْفِ ما كان مُضَافًا إليه امتنع من أن يكون مبنيًّا على شىء وخَبرًا عنه ، وإذا امتنع من ذلك امتنع أن يكون صلةً لموصول ، لأنّ الذى يكونُ

(١) صدره ، كما فى اللسان (دعا) :

* أهوى لها مشقصا جشرا فشبرقها *

(٢) تمامه : فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم

(٣) هو ابن جنى فى التنبيه .

(٤) نص التنبيه : « ينبغى أن يكون ما من قوله : وما بعد ، زائدة ... » الخ .

صِلةً من الظروف والجُمَل هو ما جاز أنْ يكون خَبَر المبتدأ . وليس الأمر على ما قاله ، ألا ترى أنّ قوله عزّ وجلّ : ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ . معناه : ومن قبل الذى فرّطتم فى يوسف ، أى قدّمتم . ويجوز أن يُرادَ : ومن قبلِ تفريطكم ، فيكون ما مع الفِعْل فى تقدير مَصْدَرٍ . وعلى الوجهين جميعا ما فى مَوْضِع رَفْع ومن قَبْلُ خَبَرُه . وذكر أبو إسحاق الزَّجّاجُ فى ما من الآية ثلاثة أوجهٍ ، ما ذكرْنا أحدُهَا . وإذا كان الأمْرُ على هذا فما ذَكَرَهُ هذا القائل غير صحيح ، لأنى قد أرَيْتُكَهُ بَعْد وهو غايةٌ خَبَرًا ، وكَوْنُه صِلَةً تابعٌ لكونه خَبَرًا ، فاعْلَمْهُ .

١٥٥

وقال المُساوِرُ بن هِنْدٍ(١) :

١ ـ أَوْدَى الشَّبَابُ فَمَالَهُ مُتَقَفَّرُ وفَقدتُ أَتْرَابِى فأَيْنَ المَعْبَرُ(٢)

يقول : أَدْبَرَ الشبابُ وولَّى(٣) ، فهو فائتٌ لا يُتَتَبَّعُ(٤) ، ومطلوبٌ لا يُلْحَقُ ، وعَدِمْتُ نُظرائى وأقرانى ، فأيْنَ بقائى بَعْدهم ، وكيف خَلاصِى ممّا اخترَمَهم وأفناهم . وهذا الكلام توجُّعٌ وتَحَسُّرٌ لما تَقَضَّى من شبابِه ، وعُنفوان عُمْرِه(٥) وتقَدَّم من أقْرَانِه ولِدَاته . أى إذا خَلَوْتُ منهم ، وصِرْتُ عائشاً فى

(١) سبقت له الحماسية ١٤٨ .
(٢) التبريزى : « وأكثر الناس ينشد : وفقدت أصحابى » .
(٣) هذا ما فى م . وفى الأصل : « وقل » مع الإشارة إلى أنها فى نسخة أخرى : « وولى » .
(٤) م « لا يتبع » .
(٥) أشير فى الأصل إلى أنها فى نسخة : « أمره » .

غَيْرِهم فكَمْ عَسَى أن أبْقَى بَعْدَهُمْ . ويقال غَبَرَ إذا مَضَى ، وغَبَر إذا بَقِيَ . ويريد[١] بالمَغْبَر هنا البقاء ، ويقال : اقتفرتُ الشَّيء وتقفرته ، إذا تتبّعْتَه .

٣ ــ وَأَرَى الْغَوَانِيَ بَعْدَمَا أَوْجَهْنَنِي أَعْرَضْنَ ثُمَّتَ قُلْنَ شَيْخٌ أَعْوَرُ

الغوانى : جمع غانِيةٍ ، وهى التى تَسْتَغْنِي بزوجها عن الرِّجال ، وقيل هى التى تَستغنِي بمحاسنها عن التزيُّن بالحلِيّ . وقال أبو عبيدةَ : هى المتزوّجة ، وأنشد لجميل بن مَعْمَرٍ :

حَبَبْتُ الأَيامَى إذْ بُثَيْنَةُ أَيّمٌ فلما تَغنَّتْ أَعْلَقْتَنى الْغَوَانيا

وأنشد ابنُ الأعرابيّ :

* أَزْمَانَ لَيْلَى كَعَابٌ غَيْرُ غَانِيَةٍ[٢] *

والشاعر يقول متشكِّيًا من الشَّيْبِ الْمُعْتَاض من الشَّباب ، ومن الضعف التابع لصحّة الجسم ، ومن السقوط والانحطاط بعد الجاهِ عند الغانيات : أرى النِّساء بعدما كُنَّ يجعلنَ لى عِنْدَهُنَّ جاهاً أعْرَضْنَ عنى واطّرَحْنَنِي ، وأبدلْنَنِي بالحمد ذَمًّا ، وبالتسمية تَلْقيبًا ونَبْزًا[٣] ، فمتى ذُكِرْتُ عِنْدَهُنَّ قلن هو شَيْخٌ أَعْوَرُ . وقوله « أَوْجَهْنَنِي » من الوجاهة : المَنزلة . يُقَالُ وَجُهَ وَجَاهةً ، ووجَّهَنى السلطان وأَوْجَهَنى : جعل لى جاهاً ومنزلة . ورَجلٌ مُوَجَّهٌ وَوَجِيهٌ . وقوله « شيخٌ » ارتفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، وقد مَضَى القولُ فى التاء من ثُمَّتَ ورُبَّتَ ، وأنه علامة التأنيث للقصَّة . وجُعِلَتْ تاءً مفتوحة فرقا بينها وبين التى تَلحَقُ الفعل والاسم .

(١) أشير فى الأصل إلى أنها فى نسخة : « ويراد » .
(٢) لنصيب ، كما فى اللسان (غنا) . وعجزه :
* وأنت أمرد معروف لك الغزل *
(٣) النبز ، بالفتح : التلقيب ، وبالتحريك . اللقب .

٣ ـ ورأَيْنَ رَأْسِى صَارَ وَجْهًا كُلُّهُ إلاّ قفَاىَ وَلِحْيَةٌ ما تُضْفَرُ[١]

يقول مستمرًّا فى تكلُّفِ الجزَع إثْرَ ما تولَّى من الشَّبَاب، وباسِطًا مَعْذِرَةَ النِّسَاء فيما استَحْدَثْنَ له : رأينَنى قد صَلِعْتُ وانحسر الشَّعْرُ عن رأسى حتَّى صَار كُلُّهُ كوجهى، إلا قفاىَ فإنَّ به نَبْذًا مِن الشَّعَرِ، وإلا لحية لا تُقام مَقام الذُّؤَابة فى الضَّفْرِ والتَّجَمُّلِ. فقوله « لِحْيَةٌ مَا تُضْفَرُ » تَحَسُّرٌ على ما عَدِمَ فى رأسه من الضَّفَائر وإن كانت اللِّحية لم يُعْتَدْ ضَفْرُها. وقولُه « كُلُّه » ارتَفَع على أنَّه توكيدٌ المُضْمَرِ فى صار، أو على أنه اسم صارَ، أو على أنه يرتفع بفعله وفِعلهُ ما دَلَّ عليه قوله « وَجْهًا » كأنَّ المراد توجَّه كُلُّهُ، ويكون كقولك رأيتُ زَيْدًا قَيْسِيًّا أبوه، أى تَقَيَّسَ أبوه، ومررت بِسَرْجٍ خَزٍّ صُفَّتُهُ[٢].

٤ ـ وَرَأَيْنَ شَيْخًا قد تَحَنَّى صُلْبُهُ يَمْشِى فَيَقْعُسُ أو يُكِبُّ فَيَعْثُرُ[٣]

يقول: ورأَيْنَ شيخًا منحنِىَ الصُّلْبِ، مُحْدَوِدبَ الظَّهْرِ، يمشى مِشْيَةَ القُعْسَان إذا استَمَرَّ فى المشى، أو يتعثَّر فيسقط لوجهه. وكان الواجب أن يقول: أو يَعْثُرُ فيُكِبُّ، لأنَّ العِثَار قَبْلَ السُّقُوط للوجه، لكنَّه لم يُبَالِ بتغيير الترتيب، لأَمْنِهِ من الالتباس، وهذا دون ما يجىء فى كلامهم من القَلْبِ، مثل قوله:

* كما أَسْلَمَتْ وَحْشِيَّةٌ وَهَقَا *

(١) ابن جنى : « يروى كله بالرفع والنصب . فالنصب على أنه توكيد للرأس، والرفع على أنه توكيد للضمير فى صار . والوجه الرفع ، وذلك أنه ليس يريد أنهن رأين رأسه كله ، وإنما يريد أنهن رأين رأسه قد صار كله وجها . وقد يجوز أيضاً أن يكون كله إذا رفع اسم صار ، حتى كأنه قال : ورأين رأسى صار جميعه وجها . ... وقد يجوز أن يكون كله صفة أو تأكيدا ، وهو أولى من أن يباشر به العامل ، ألا تراه أخا ما لا يباشر العامل أبدا ، وهو أجمع وأجمعون » .

(٢) الصفة : هنة كالمرفقة فوق السرج ، بمنزلة الميثرة للرجل .

(٣) يقعس ، كذا ضبطت بضم العين فى الأصل ، وهى رواية أبى هلال كما نص التبريزى . وضبط فى م . بفتح العين . التبريزى : « ويروى : يقعش . أى يضطرب . ومنه تقعوشت الخيمة ، إذا سقطت » .

وكقول امرئ القيس :

* كما زَلَّتِ الصَّفْوَاءُ بِالْمُتَنَزِّلِ[١] *

ويقال : قَعِسَ يَقْعَسُ ، إذا صار أقْعَسَ خِلْقَةً فيه ، وقَعَسَ يَقْعُسُ قَعَسَانا إذا مَشَى مِشْيَةَ الأَقْعَسِ تكلُّفًا ، ومثله عَرَجَ يَعْرَجُ وَعَرَجَ . ويقالُ : أَكَبَّ زَيْدٌ فلا يتعدَّى ؛ وكَبَّهُ اللهُ لوجهه ، وهذا على العكس مما عليه أكثرُ الأفعال . ومثلُهُ أَقْلَعَ الغَيْمُ وقَلَعَهُ اللهُ .

٥ ـ لَمَّا رأيتُ الناسَ هَرُّوا فِتْنَةً عَمْياءَ تُوقَدُ نارُها وتُسَعَّرُ[٢]

إنما قَدَّمَ ما اقتصَّهُ من ضَعْفِه وكِبْرَتِه ، لِيُرِىَ العُذْرَ فيما يَعْجِزُ عنه من النهوضِ في الفتنة التي ذكرها ، فيقول : لَمَّا وجدتُ الناسَ قد كَرِهُوا ما تَرَدَّدُوا فيه من فِتْنَةٍ لا يُهْتَدَى لوجْهِها ، ولا يُقْتَدَرُ على كَشْفِها ، تَسْتَعِرُ نارها وتتلَهَّبُ ، ويُبْتَعَثُ شرُّها فَتَشْتَمِلُ . ويَعني بهذا فتنةَ ابن الزُّبير وعبد الملك . وجوابُ لَمَّا منتظَرٌ ، وهو هنا محذوف يدلُّ عليه الكلام ، كأنه قال : انقبَضنا عن النهوضِ فيها والحِرَاكِ ، لننظُرَ ماذا تكون . والفِتنةُ العمياء : التي لا يُهْتَدَى فيها لوجهِ أمرٍ ، وفَصْلِ شأنٍ . والتَّعْمِيةُ : التلبيس . ويقال : هو في عُمْيانِه[٣] ، أي عَمَاهُ ، مَصْدَرٌ كالطُّغْيان .

٦ ـ وتَشَعَّبوا شُعَبًا فكلُّ جزيرةٍ فيها أميرُ المؤمنين ومِنْبَرُ

شَعَبْتُ يكون بمعنى جَمَعْتُ وبمعنى فرَّقْتُ . ويقال التَأَمَ شَعْبُهم ، إذا اجتمعوا بعد تفرُّقٍ ؛ وتفرَّق شَعْبُهم ، إذا تبدَّدُوا بعد تجمُّع . والشُّعْبَةُ : الطائفة ، وجمعها شُعَبٌ . يقولُ تفرَّق الناس فِرَقًا ، فصار الاختلاف لازمًا

(١) صدره : * يزل الغلام الخف عن صهواته *

(٢) م : « فتسعر » بالفاء . (٣) هذه الكلمة مما لم يرد في المعاجم المتداولة .

لأهوائهم ، والتباينُ مُقْتَرِناً بآرائهم ، فى كلِّ جزيرة أميرُ المؤمنين ومِنْبَرٌ ، يدْعو إلى نَفْسِه ويَخْطُبُ على مِنْبَرِه لِجَذْبِ[1] الأمرِ إليه . وقولُه « أميرُ المؤمنين » لفظه مَعرفةٌ للإضافة المعتادة فى هذه اللَّفظة المألوفة على الحدِّ الذى تَرى ، لكنّ التنوين مَنْوِىٌّ ، وإذا كان كذلك كان فى حُكْمِ النكرات . وإنما ساغ ذلك لأنّ قوله « أمير المؤمنين » يُشارُ به إلى الحال ، أى فيها أمير على المؤمنين ، واسمُ الفاعل إذا أُرِيدَ به الحال أو الاستقبال كانت إضافَتُه على وجه التخفيف لا على وَجهِ التعريف ، ويصير التَّنوين الذى هو الأصل مُنَوِيًّا فيه ، وعلى هذا قولُه : ﴿ عارِضٌ مُمْطِرُنَا ﴾ لأنّ التقدير مُمْطِرٌ لنا . وكذلك قوله عزّ وجلّ : ﴿ هَدْياً بالِغَ الكَعْبةِ ﴾ . وعَنَى بذلك ابنَ الزُّبير ونظراءه مِمَّنْ كان يَطْلُب الخلافةَ فى أيام عبد الملك بن مَرْوَان . وهذا البيت منعطِفٌ بما فيه على قوْلِهِ « هَرُّوا فِتْنَةً » .

٧ — ولَتَعْلَمَنْ ذُبْيَانُ إنْ هِيَ أعرضَتْ أَنَّا لَنَا الشَّيْخُ الأغَرُّ الأَكْبَرُ[2]

يقول على وجْهِ التَّوعُّد : لَتَعْلَمَنَّ هذه القبيلةُ إن تَوَجَّهتْ نَحْوَنا أنّا لنا هذا الرَّئيس المشهور الشّأن ، العظم الأمرِ . ويُقالُ : عَنَى به زُهَيْرَ بن جذيمة العَبْسِىّ . وقيل هو قيس بن زُهَيْر . ويُرْوَى « إنْ هِيَ أدْبَرَتْ » . والمعنى : إن وَلَّتْ وأعْرَضَتْ ، فإنّها سَتَعْلَمُ أنّا نكتَفِى من دونهم . ويجوز أن يكون المُرَادُ بأدْبَرَتْ : تركت الحق . وجواب إنْ فى قوله : « لَتَعْلَمَنْ ذُبيَانُ » ، وقد مَضَى مِثْلُه .

٨ — ولنا قَنَاةٌ من رُدَيْنَةَ صَدْقَةٌ زَوْرَاءُ حامِلُها كذلك أَزْوَرُ

---

(١) هذا ما فى م . وفى الأصل : « بجذب » .

(٢) فى الأصل : « إن هى أدبرت » ، والوجه ما أثبتنا من م والتبريزى ، كما يدله عليه سياق الشرح .

قوله : « من رُدَيْنَةَ » أى من رِمَاح ردينة ، وهى امرأةٌ كانت تبيع الرِّماح ؛ فحذف المضاف . والصَّدْقَةُ : الصُّلْبة ، والعربُ تَذْكُر القناةَ وصلابتَها واعوجاجَها ، وأنَّها لا تلين ولا تقبل التَّقويم والتَّثقيف ، ضاربةً بها المثلَ فى الخِلاف والإباء ، والامتناع والتَّعسُّرِ على من يُرِيدُ إكْرَاهَهم ، والتَّصَعُّبِ على من يُرِيدُ(١) تلْيِينَهم أو الغَضَّ منهم . والمعنَى : قَنَاتُنَا لا تَستقيمُ لمُقَوِّمٍ ، وحامِلُها لا ينقاد لمجتذِبٍ . وعلى هذا قول عمرو بن كلثوم :

عَشَوْزَنَةٌ إذا غُمِزَتْ أَرَنَّتْ تَشُـــجُّ قفَا المُقَوِّم والجبينا(٢)

وقولُ الآخر(٣) :

كانَتْ قنـــاتى لا تَلينُ لغامزٍ فألَانَها الإصـــباحُ والإمْسَاءُ

وهـــذا الشَّاعر لم يَرْضَ بذكرِ القَنَاةِ وما جرَت به العادة من وصْفِ اعوجاجِها ، حتَّى عَقَّبَهُ بقولِه « حامِلُها كذلك أَزْوَرُ » ، فزاد على مَن تَقَدَّمَ كما ترى ، وإنما أراد التأكيد والمبالَغة وتبيين قوّة الامتناع على مَن يطلب اقتسارَهُم . وهذا كما يَصفون المتكبِّر بالشَّوَسِ والصَّعَر والصَّيَد . وقولُه : « حامِلُها كذلك » من صِفَة القناة ، وارتفع حاملها بالابتداء ، وقد أُخبِرَ عنه بخَبَرَين : كذلك ، وأزْوَرُ . وقولُهُ « كذلك » إذا وَقَعَ هذا الموقع لا يُغَيَّر ، بل يكون المذكَّر والمؤنَّث على حال واحدة(٤) . وأنشد أبو زيد :

(١) م : « يطلب » .

(٢) المقوم ، هى فى م : « المثقف » . وقد أُشير فى نسخة الأصل إلى أنها فى نسخة أخرى : « المثقف » .

(٣) هو شاعر جاهلى كما فى الكامل ١٢٥ ليبسك .

(٤) الحق أن هذه إحدى اللغات ، وإلا فهناك لغة المطابقـــة التى تطابق فيها الكاف المخاطب إفراداً وجمعاً وتذكيراً وتأنيثاً ، وهى أفصح اللغات . انظر همع الهوامع (١ : ٧٦ ـ ٧٧) وشرح ابن يعيش على المفصل (٣ : ١٣٥) وشرح التصريح (١ : ١٢٨) طبع ١٣٤٤ والمغنى (١ : ١٥٥) طبع ١٣٤٨ .

أَمَا أقاتِلُ عن دِينِي على فَرَسٍ ولا كَذَا رَجُـــلاً إلَّا بأصحابى[1]

والمَعْنَى ولا كما أنا الساعةَ راجِلًا .

١٥٦

وقال عُرْوَة بن الوَرْد[2] :

١ــ قلتُ لِقَوْمٍ في الكَنِيفِ تروَّحُوا عَشِيَّةَ بِتْنَا عِنْدَ مَاوَانَ رُزَّحِ

تقدير البيت : قلتُ لقوم رُزَّحٍ عشيَّةَ بِتْنَا عند مَاوَانَ فى الكنيف : تروَّحوا . والمعنَى بَعَثْتُهم على السَّير في الرَّواح ، وإن كانوا مُتَسَاقِطى القُوَى[3] كالِّينَ ، لا حَرَاكَ بهم ، ولا نُهُوضَ يُقِيمُهُم ، هَزْلَى لتأثيرِ السَّفَرِ فيهم ، وظهورِ أَثَرِ الشُّقَّةِ عليهم . وواحد الرُّزَّح رَازِحٌ[4] ، ويقال رَزَحَ البعيرُ رُزُوحاً ،

---

(١) فى نوادر أبي زيد ص ٥ وكذا عند التبريزى : « بأصحاب » ، بدون إضافة . وقد تكلم أبو زيد على البيت ، ونسبه إلى حيى بن وائل .

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٤٥ . وكان من خبر هذه الأبيات كما فى ديوانه ص ٨٨ والتبريزى عن أبي رياش : « تتابعت على معد سنوات جهدن الناس جهداً شديداً ، وكانت غطفان من أحسن معد فيها حالا ، وترك الناس الغزو لجدوبة الأرض ، وكان عروة فى تلك السنين غائبا فرجع مخفقا قد ذهبت إبله وخيله ، وجاء إلى قومه وقد عنَّ بعضهم عليه عنة ، فندب منهم رهطا فخرجوا معه فنحر لهم بعيرا وحملوا سلاحهم على بعير آخر وقدَّد لهم بعيرا فوزعه بينهم وخرج يريد أرض قضاعة ، وقصد قِبل أرض بنى القين ، فمر بمالك بن حمار الفزارى وقد نفد ما معه فقال له مالك : أين تنطلق بفتيانك هؤلاء تهلكم ضيعة ؟ قال : إن الضيعة ما تأمرون به : أن أقيم حتى أهلك هزالا . فقال : إن أطعتنى رجعت على حرسين — وهما جبلان فى أرض بنى فزارة — فكان طريقك حتى تأتى قومى فتكون فيهم . فقال : فما أصنع بمن كنت عودتهم إذا جاءونى واعتروني ؟ قال تعتذر فيعذرونك إذا لم يكن عندك شيء . قال : لكن أنا لا أعذر نفسى بترك الطلب . فقال عروة يذكر شدة حال أهل الكنيف ومن بماوان ، وقيامه بأمرهم حتى صلحوا ، وندبه إياهم حتى خرجوا معه » .

(٣) م : « ساقطى القوى » . (٤) الكلام بعده إلى « رزاح » ساقط من م .

إذا أَعْيَا ، وإبِلٌ رَزْحَى ، وقَوْمٌ رِزَاحٌ[١] أى مَهَازِيلُ ساقِطُون . والكَنِيف : الحظيرة من الشَّجَر .

٢— تنالُوا الغِنَى أو تبلُغُوا بنفوسِكُم ... إلى مُسْتَرَاحٍ من حِمَامٍ مُبَرِّحِ[٢]

قوله « تنالوا » جواب الأمر من البيت الأول ، وهو تَرَوَّحوا . والمعنى : سيروا واجتهدوا تنالوا الغنى ، وتبلُغوا حَدًّا من الطَّلَب يُفضِى بكم إلى الموت المُرِيح الباسط لعُذْرِكم[٣] . والمُبَرِّح : المُلِحّ الشديد ، ومن هذا وصف الرِّيح بالبارِح . ويقال : بَرَّح بىَ الحُبُّ ، أى اشتدّ ؛ وبَرَّحَ بى فلان ، إذا آذى ؛ وأَبْرَحَ الرَّجلُ ، إذا أتى بالبَرْح ، والبَرْح يكون الشدةَ ويكونُ العَجَبَ ، ومنه قول الأعشَى :

* أبْرَحْتَ رَبًّا وأبرَحْتَ جارًا[٤] *

٣— لِيَبْلُغَ عُذْرًا أو يُصِيبَ رَغِيبَةً ... ومُبْلِغُ نفسٍ عذرَها مِثلُ مُنْجِحِ

قوله « لِيَبْلُغَ » تفسير ما قدَّمهُ . ويشير بقوله « عُذْرًا » إلى قاطِع المَوْت لأنَّ المجتهد فى طَلَب الشىء إذا حَال أجلُه دون أَمَلِه فقد أَعْذَرَ ، إذْ كان قد فعل ما عليه[٥] . وقولُه « أو يصيبَ رَغِيبَةً » إشارةٌ إلى نيلِ الغِنَى . والرُّغب : اتِّساع الشَّىء ، ومنه بَطْنٌ رَغيبٌ . وقولُه « ومُبلغ نفسٍ عُذْرَها مِثْلُ مُنْجِحٍ » أى من أَعْذَر فيما يَطْلُبُه ، أصابَهُ أو فَاتَهُ ، فقد أَنْجَح . وهذا الكَلَامُ وإن كان ظاهِرُه

---

(١) هذا الجمع لم يرد فى المعاجم المتداولة ، وبدله « رزاحى » بفتح الراء مع قصر آخره .

(٢) الديوان : « من عناء مبرح » .

(٣) م : « إلى موت يريحكم ويبسط عذركم » .

(٤) هو بتمامه فى ديوان الأعشى ٣٧ :

تقول ابنتى حين جد الرحيـ * ـل أبرحت ربا وأبرحت جارا

(٥) م : « إذا كان ما عليه قد فعل » .

وظاهِرُ صَدْرِ البيت الأوّل أنَّه يتكرر به المعنى الذى قدمه فيه ، فليس الأمر كذلك ، لأنَّه ذَكَرَ فى الأوّلِ إبلاغَ النّفس من المَوْتِ حَدًّا يُرِيحُهُ ، ولم يُبيِّن من فَعَل ذلك : هل أَنْجحَ أولا . وفى الثانى بَيَّنَ أنّ المُعْذِرَ فى طَلبِ الشىء كالمُنْجِح ، وأنّه إذا استَغرَقَ وُسعَه فى طَلَب ما يَهُمّ به ثم حالَ دونَهُ حائلٌ فقَدْ أعْذَر . وفى طريقته قَوْلُ أبى تمام :

لِأَمْرٍ عليهمْ أن تَتِمَّ صُدُورُهُ ... وَليسَ عليهم أن تَتِمَّ عَواقِبُه

١٥٧

وقال أبو الأَبْيَض العَبْسىّ(١) :

١ ــ ألا لَيْتَ شِعْرِى هَلْ يَقُولَنْ فَوَارِسٌ ... وقَدْ حَانَ منهم يومَ ذاكَ قُفُولُ

قولُه « شِعرى » اسم لَيْت ، وخَبرُه مُضمرٌ استُغنِيَ عنه بمفعولِ شِعْرِى . وليت شِعْرِى لا يجىء إلاّ هكذا ، كما أنَّ لولا يجىء أبَدًا مَحْذُوفَ خبر المبتدأ الذى بَعْدَهُ ، وقد استُغْنِيَ عنه بجوابه ، وذلك كقولك لولا عبد الله لَفَعَلْتُ . وقولُه « هَلْ يَقُولَنْ فَوَارِسٌ » سَدَّ مَسَدَّ مفعول ليتَ شِعْرِى . ومعنى الكلام ليتَ عِلْمِى وَاقعٌ : هل يَقَع هذا القَوْلُ من الفُرْسَانِ فى تلك الحال ؟ ومفعول « يَقُولَنْ » أول البيت الثانى ، وهو قولُه « تَرَكْنَا » ، واعتَرَضَ بينهما قَوْلُه « وقد حَانَ منهم يَوْم ذلكَ قُفُولُ » ، وموضِعُهُ نَصْبٌ على الحال ، والذى تَمنَّى عِلْمَهُ أنَّهُ هَلْ يُقْتَلُ ، فإذا انصَرَفَ الأبْطَالُ عنه قالوا هذا القَوْلَ أولا . وتحقيق الكلام : ليتنى عَلِمتُ ما يقتضى هذا السّؤالُ من الجواب ، لأنّ ذاكَ يَهمُّه

(١) التبريزى : « قال أبو هلال : وكان فى أيام هشام بن عبد الملك ، وخرج مجاهداً فى بعض الوجوه فرأى فى المنام كأنه أكل تمراً وزبداً ودخل الجنة ، فلما كان من الغد أكل تمراً وزبداً وتقدم فقاتل حتى قتل » .

لا نَفْس السُّؤال . وقولُه : وقد حَانَ منهم قُفُولٌ ، أى رُجُوعٌ عن المَعْركة إلى ديارِهم وحَيِّهم ، كأنَّهُ كان هَمَّ بالاستقبال ، ووَطَّنَ نَفْسَهُ من مُصادمةِ العَدُوِّ(١) ، ومصادَمَةِ القِتَال على ما غَلَّبَ اليأْسَ من الانصرافِ عنهم ، لتَعرُّضه لِمَا لا يَسْلَمُ مَعَهُ من يُلَابِسُهُ ، فتَكلَّم بذلك . وقولُه « يَوْم ذاك » إشارةٌ إلى يوم ملاقاةِ الأعدَاء . فإن قيل : هل تُقَدِّر فى الكلام بعد الاستفهام شيئاً لأنَّكَ إذا استَفْهَمْتَ عن شىء كان ما تَسْتَفْهِم عنه وخِلافُه سَوَاءً عندك ، وإلاَّ لم تكن مُسْتَفْهِمًا ؟ قُلتَ : مَعْنَى الاستِفهام هَلْ يَقُولَنْ فوارِسٌ كذا ، وهل زَيْدٌ عِنْدَكَ ، عَلَى « أَوْ » أو « أَمْ » وَلَوْلا ذلك لامتنع الاستفهام . وسنَشرح الكلام فيما يقتضيه هذا الموضع فى البيت الذى بعده .

٢ ـ تَرَكْنَا ولم يُجْنَنْ من الطَّيْرِ لَحْمُهُ أَبَا الأَبيَضِ العَبسِىَّ وهو قَتِيلُ(٢)

يقول : ليتنى عَلِمْتُ هل يقولون فى مُنْصَرفِهم تَرَكْنا أبا الأبيض مصرُوعاً متروكاً بالعَرَاء ، تَعفُوهُ(٣) سِباعُ الطير وتأكلُ من لحمِه ، غير مستُورٍ عنها ولا ممنوعٍ منها . وقد اعتَرَضَ بيْنَ تَرَكْنا ومفعولِه وهو أبو الأبيض بقوله « ولم يُجْنَنْ من الطيرِ لحمُهُ » ، وموضعُه نَصبٌ على الحال . فإن قيل : فما المُقدَّر بعد الاستفهام هنا من حرفَي العطف : أم ، وأوْ ، وكيف يكون معنى الكلام مع ذلك المقدَّر ؟ قُلْتَ : المعنى على أَوْ ، بدلالة أنه يُجابُ مثل هذا الكلام بنَعَمْ أَوْ لا ، إذ كان المبنَى على ليتنى عَلِمتُ هل يَقَعُ ذلك منهم . فأمّا تقدير أَمْ وهى عاطفةٌ فلا يصحُّ فى مثل هذا الموضع ، كما لا يجوز اللّفظ بها على جهة المعادلة . وقد قال أبو العبّاس :

(١) كذا على الصواب فى م . وفى الأصل : « على مصادمة العدو » .
(٢) التبريزى : « ولم نُجْنِنْ » .
(٣) تعفوه : تعتريه . وهذه رواية م . وفى نسخة الأصل : « تقفوه » .

لا يكونُ أَمْ بَعْدَ شيء من حروف الاستفهام سِوَى الألف إلاّ على كلامين . وأما تقدير أمِ المنقطعة فبعيدٌ ، لأنه لو قُصِدَ لم يكن بُدٌّ من ذِكْرِه وذِكر المُستَفْهَمِ به عنه بعده . فاعلَمْهُ .

٣— وَذِى أَمَلٍ يرْجُو تُرَاثِي وإنّ مَا يَصِيرُ له مِنِّى غدًا لقَلِيلُ

يقول : رُبَّ إنسانٍ يُعلِّقُ طَمَعَه بميراثى ، ويرجو تحصيله بَعْدِى ، والذى يَنالُه منه غدًا — يُشِيرُ إلى يَوْمِ مَوْتِهِ — قليلٌ غير كثير . والمَعْنَى : إنّى لا أَذْخَرُ مالى بل أُتْلفه فى اكتساب المحامد ، فلا يكون لى تُرَاثٌ إلا سلاحى وما لا بُدَّ للفارس منه .

٤— وما لِى مالٌ غيرُ دِرْعٍ حَصِينَةٍ وأَبيَضُ من ماءِ الحَديدِ صَقِيلُ[1]

٥— وَأَسْمَرُ خَطِّيُّ الْقَنَاةِ مُثَقَّفٌ وأَجْرَدُ عُرْيَانُ السَّرَاةِ طَوِيلُ

نَفَى أن يكون له مالٌ يدَّخِره[2] طولَ حياتِه ، ويرِثُه الوارث بعدَ مماتِه إلاّ دِرْعَهُ وبَيْضَتَهُ ، وسَيْفًا مَصْقولاً طُبِعَ من خالِص الحديد ، ورُمْحًا حُمِلَتْ قَنَاتُه من الخَطِّ — وهو جزيرةٌ بالبَحْرَيْن — وفَرَسًا قصيرَ الشَّعْرِ مُنْجَرِدَ الظَّهْرِ من اللَّحْمِ ، مُشْرِفَ الهامَةِ ، طويل القامَةِ . المِغْفَر : حَلَقٌ يتَقَنَّعُ بها المتسلِّحُ ، وكذلك الغِفَارَةُ . وقال الخليل : المِغْفَرُ : رَفْرَفُ البيضةِ . وأصلُ الغَفْرِ التغطية والسَّتر . وقوله « غير دِرْعٍ » يجوز رفعُهُ ، وهو الوَجْه ، على أن يكون بدلاً ، ويجوز النَّصْب على الاستثناء .

٦— أَقِيهِ بنَفْسِى فى الْحُرُوبِ وأَتَّقِى بهادِيهِ إنِّى لِلخَلِيلِ وَصُولُ

(١) م والتبريزى : « غير درع ومغفر » . وأشير فى حواشى الأصل إلى أنها فى نسخة « ومغفر » .

(٢) م : « يذخره » .

هذا معنًى شريفٌ حسَن . يقول : أحْفَظُ مَقاتِل فرَسِى بفخذى ورِجْلى ، وأتَّــقِى فيما(١) يأتينى بعُنُقِه . والمعنى : من أراد أن يصيب مَقتَلى جَعَلْتُ بينى وبيْنَهُ عُنُقَ دابتى ، كما أنّ من أراد مَقتَلَ فرَسِى أجعلُ بينه وبيْنَهُ فَخِذَىَّ ورِجْلَىَّ . ثم قال : « إنِّى للخَليل وَصُولُ » أى لا أَخْذُلُهُ فى الشدائد ولا أنتفِــعُ به إلاَّ وأنفعُه . وهذا مَثَلٌ . والعربىُّ يُسَمِّى(٢) سلاحَهُ ومَرْكُوبَه خَليلاً ، على ذلك ما أَنْشَدَه الأصمعىُّ ، وهو :

وإنِّى كما قالَتْ نَوَارُ إنِ اجتَاَتْ ... عَلَى رَجُلٍ ما شَــدَّ كَفِّى خَلِيلُها

١٥٨

وقال قَيْس بن زُهَيْر العَبْسِىُّ(٣) :

١ — لَعَمْرُكَ ما أَضَاعَ بَنُو زِيَادٍ ... ذِمَارَ أَبِيهِمُ فِيمن يُضِيعُ

اللامُ من « لَعَمْرُكَ » لام الابتداء ، وخبر المبتدأ محذوفٌ ، كأنهُ قال : لعمرُك قَسَمِى . يقول : وبقائك ما ضَيَّعَ لهؤلاء العصابةُ من حقِّ أبيهم وشَرَفِ أسلافهم ، ما يوجب التذمُّرَ عند المحافظة عليه فى جُملة من يُضَيِّــعُ حُقوقَ آبائهم ، وما أَثَّاوهُ من مَفاخِرِهم ومحاسِنِهم ؛ بل حافظوا عليه بمــا ضَمُّوا ممــا استحدثوه واطَّرَفوه إليه . وحَذَف مفعول يُضِيع كأنه قال : فيمن يُضِيع الذِّمَارَ . ويُقالُ : فلانٌ حامى الذِّمار ، أى إذا ذَمَرَ وغَضِبَ حَمِىَ . وهذا كما يُقالُ ، هو ثَبْتُ الخَبَارِ ، أى إذا حَصَلَ فى الخَبَار ثبت . وقوله « ما أضاعَ » تَهَكُّمٌ

(١) م : « مما » .

(٢) فى النسختين : « والعرب تسمى » .

(٣) سبقت ترجمته فى الحماسية ٤٤ . والتبريزى : « وقال قيس بن زهير فى بنى زياد الربيع ، وعمارة ، وأنس ، وكان يقال لهم الــكملة » .

أو تعريضٌ؛ لأنّ الذين أخبر عنهم أَشْهَرُ أمرًا وأعظمُ شأنًا مِن أن يُقالَ فيهم ذلك .

٢ — بَنُو جِنِّيَّةٍ وَلَدَتْ سُيُوفًا صَوَارِمَ كُلُّهَا ذَكَرٌ صَنِيعُ

يَعْنِي ولَدَ زياد بن عبد الله بن ناشِبِ العَبْسِيّ ، يقول : هم بنو امرأةٍ كأنَّها فى فَضْلِها ودَهَائها منَ الجِنّ . وهذه المرأة هى فاطمة بنت الخُرْشُب الأنمارِيّةُ ، وهى إحْدَى المُنْجِبات من العرب ، وكانت قد رأت فى مَنَامِها كأنّ[1] قائلاً قال لها : « أَعَشَرَةٌ هِدَرَةٌ[2] ، أحَبُّ إليك أم ثلاثة كعشَرَةٍ » فلما انتبهت اقتصَّتْ رؤياها على زوجها فقال لها : إن عاوَدَكِ فَقُولى : بل ثلاثةٌ كعشرةٍ . فرجعت إلى المنام ورأت مثل ما رأَتْ من قبل ، فجعلت تَقُولُ فى الجواب : بل ثلاثة كعشرة . فولدت بنين ثلاثة[3] صارَ كلٌّ منهم أبًا لقبيلة ، ومُعَظَّمًا فى قومه وعشيرته ، وهم ربيع الحِفَاظ ، وعُمَارة الوَهّاب ، وأنَس الفَوَارس . وكما جعل الأم جِنِّيَّةَ لخروجها فيما أتَتْ به عن المعتاد [من الإنس[4]] جعل الأولاد سيوفًا . ومعنى البيت : هم أولاد امرأة ولدَتْ رجالا كأنهم فى النَّفاذ سُيُوفٌ

(١) كذا فى م . وفى الأصل : « أن » .

(٢) ضبطت فى الأصل بالتحريك ، وفى م بكسر الهاء ، وفيها لغة ثالثة وهى ضم الهاء وفتح الراء ، أى ساقطون ليسوا بشىء . وفى اللسان : قال ابن سيده : والفتح أقيس ، لأنه جمع هادر مثل كافر وكفرة . وإما هدرة — أى بكسر ففتح — فلا يكسر عليه فاعل من الصحيح ولا المعتل ، إلا أنه قد يكون من أبنية الجموع . وأما هدرة — أى بضم ففتح — فلا يوافق ما قاله النحويون ، لأن هذا بناء من الجمع لا يكون إلا للمعتل دون الصحيح نحو غزاة وقضاة ، اللهم إلا أن يكون اسماً للجمع . والذى روى هدرة بالضم إنما هو ابن الأعرابى . وقد أنكر عليه » .

(٣) وهذا يوافق السجع قبله . والحق أنهم أربعة ، أو أنهم صاروا فيما بعد أربعة وهم المسمون بالكملة . والرابع هو قيس الحفاظ . وأما ربيع فالمعروف فى لقبة ، أنه « ربيعة الكامل » . انظر شروح سقط الزند ٢٠٥١ والاشتقاق ١٦٩ .

(٤) التكملة من م .

قواطع ، كلٌّ واحدٍ منها ذَكَرُ الحدِّ ، مَصْنُوع صقيلٌ . و « صَنِيعٌ » كما استُعْمِل فى السَّيْف استُعْمِل فى الخيل . يقال صَنَعْتُ الفَرَس ، إذا ضَمَّرْتَه .

٣ــ شَرَى وُدِّى وشُكرِى من بَعيدٍ   لآخِرِ غالبٍ أبداً رَبِيع

يقال : شَرَيْتُ الشَّىءَ بمعنى اشتريت وبِعْتُ جميعا ، وكذلك بِعْتُ يَصْلُح للأمرين ، ومن شَرَيْتُ الشَّرْوَى ، وهو المِثْلُ ، لكن لامُهُ وهو ياء قُلِبَتْ واوًا ، لأنّ فَعْلَى إذا كان اسماً ولامُه ياء يُفعَلُ به ذلك ، فَرْقاً بين الاسم والصفة . وعلى هذا قولهم الفَتْوى . فيقول : اشترى ربيعُ الحِفَاظِ على بُعْدِه مِنّى ، وُدِّى له ، وثَنَائى عليه وعلى آخِرِ رُجُلٍ يبقى من بنى غالب أبداً[1] . وقوله « من بَعيدٍ » فى موضع الحال . وإنّما قال هذا لأنّه ناله إحسانه ووجَبَ عليه شُكْرُهُ وبينهما مَسَافَةٌ وبُعْدٌ .

---

(١) وكذا وردت العبارة بتمامها عند التبريزى مما يدل على اعتماده اعتماداً كبيراً على المرزوقى وزاد التبريزى : « وإنما شكر الربيع بن زياد لقيامه معه ، ونصرته إياه فى حرب داحس . وذلك أن الربيع قد كان ساوم قيساً على درع له ، والربيع راكب وقيس راجل ، فلما وضعها على قربوسة ركض فرسه فمضى بها ، فلما انتجعوا أخذ قيس بن زهير بزمام أمه فاطمة بنت الخرشب يريد أن يرتهنها بدرعه فقالت : أين ضل حلمك يا قيس ؟ أترجو الصلاح فيما بينك وبين بنى زياد ، وقد ذهبت بأمهم يمنة ويسرة ، وقال الناس ما شاءوا ، وحسبك من شر سماعه ! فذهبت مثلا . وعلم قيس أنها صدقت ، فأرسلها وأغار على إبل الربيع فاستاقها وكان هذا بينهما . فلما قتل حذيفة مالك بن زهير ظن قيس أن الربيع لا يقوم معه بطلب ثأر أخيه لما بينهما من الشحناء . فلما قام معه قال قيس :

* شرى ودى وشكرى من بعيد *

أى كان بينى وبينه بعد فألقى العداوة وراء ظهره ونصرنى ، للرحم والقرابة . وغالب من عبس . وقال أبو هلال وروى هشام بن محمد بن السائب الكلبى هذه الأبيات لحاتم . وكان قد جاور حاتم زمن الفساد بنى زياد عبد الله بن عبس ، فأحسنوا جواره ، فقال فيهم هذه الأبيات » .

١٥٩

وقال هُدْبَةُ(١) :

١ — إِنِّى من قضاعَةَ مَنْ يَكِدْهَا ... أَكِدْهُ وَهِىَ مِنِّى فى أَمَانِ(٢)

ليس يريد بهذا الكلام نسبة نَفْسِهِ إلى قُضَاعَةَ فقط ، بل يريدُ اختصاصَه بهم ، وتعصُّبَه لهم . وهذا كما يقال : أنا من فُلاَنٍ وإلى فُلانٍ ، أى ابتدائى منه وانتهائى إليه ، فيقول : إنِّى مُنْتَمٍ إلى قُضَاعة أَهْوَى هَوَاها ، وضَلْعِى معها ، فَمَنْ عَادَاهَا أو نابَذَهَا عاديْتُهُ ونَابَذْتُه ، وهى آمنةٌ من مَكْرُوهى وأذاى ، إذ كُنْتُ أنعَطِفُ عليها فيما يَنُوبُها ، وأغْتَفِرُ زَلاَّتِهَا فيما يتفق مِنها . وهذا الكلام فى التنبيه فى الاختصاص ، والإبانَةِ عن الطاعة والإخْلاص ، من أَبْلغِ كلام وأَكْرَمِ إيناس . ألا تَرَى أنه فَصَّلَ ما أَجْمَلَ ، وفَسَّرَ ما أَبْهَمَ بقوله « من يَكِدْها أَكِدْهُ وهى مِنِّى فى أمَان » ؟ وهذا صفة جوارح الإنسان مع جملته وأبعاضِهِ مع كُلِّهِ ، بدَلالةِ أنّه يدافع من يريد إصابة أحدها ، ثم هى آمِنَةٌ من جنايته عليها ، أو على شىء منها .

٢ — ولَسْتُ بشاعِرِ السَّفْسَافِ فيهم ... ولَكِنْ مِدْرَهُ الحَرْبِ العَوَانِ

(١) التبريزى : « هدبة بن خشرم » . المبهج : « هدبة واحدة الهدب ، وهى للثوب وللأرطى ... ... والخشرم : جماعة النحل ، وهو أيضاً الثول والدبر » . وهدبة ابن خشرم بن كرز شاعر عذرى ، وكان صاحب زيادة بن زيد العذرى فى سفرة ، فلم يزل يطلب غرته حتى قتله ، وعلى المدينة يومئذ سعيد بن العاص ، وكان ولى دمه أخوه عبد الرحمن زيد ، فمكنه منه سعيد فقتله . انظر الأغانى (٢١ : ١٦٩ — ١٧٧) ومعجم المرزبانى ٤٨٣ واللآلى ٢٤٩ — ٢٥٥ ، ٦٣٩ — ٦٤٠ والخزانة (٤ : ٨١ — ٨٧) والشعر والشعراء ٦٧١ — ٦٧٦ .

(٢) روى التبريزى خبر هذه الأبيات مسهباً فى نحو تسع صفحات تصور ما كان بينه وبين زيادة بن زيد من عداء ومكايدة .

يقول : ليس مَحَلِّى منهم وفيهم محلَّ شاعرٍ يُسَفْسِفُ القَرِيضَ ، ثم يقف دُونَ غايته باليدِ واللِّسان . والسَّفْسَاف : ما لا خَيْرَ فيه من الأفعال والأقوال : وفى الحديث : « إنَّ الله تعالى يحب معالىَ الأمور ويُبْغِضُ سَفْسَافَهَا » . والعَوَانُ من الحرب : التى قُوتِلَ فيها مرّةً بعد أخرى . فإن قيل : أين عَجُز البيتِ مِنْ صَدْرِه فى النظام ، وهلَّا قال بعد ما نَفَى عن نفسه من الشّعر الرّكيك : ولـكنِّى شاعرُ المتخيَّر الرصين ؟ قلتَ : إنَّمَا المُراد[1] التنبيهُ على فَضْلِهِ فيهم[2] وطَوْلِهِ ، وعلى كفاية بيانه ، وعلى غَنَاء سِنانِه . والحرب كما تقع بالضِّرَابِ والطِّعان تقع بمجاذبة الحِجَاج عند النِّفار والفَخَار . وآثر أن يقول : « ولـكن مِدْرَه الحَرْبِ » ليدخل تحته الأمْرَان جميعا . وقيل : المِدْرَه هو السَّيِّد الذى يُدْفَعُ به الشَّرُّ فينتظم به أمورُ الحَرْبِ ، ويقوم بأسباب الصِّحاب . وذَكَرَ بعضُهم أنه من دَرَه عَلَيْنَا ، أى طلع . وقيل إنه من دَرَأَ أى دَفَعَ ، وأنَّ الهاء فيه بَدَلٌ من الهمزة . ويجوز أن يكون الـكلام تعريضاً بإنسان نَفَى عن نفسه حَالَهُ وَأَنبأَ أَنَّ الأمر[3] بخلافه .

٣ ــ سَأَهْجُو من هَجَاهُمْ مِنْ سِوَاهُمْ وأُعْرِضُ مِنْهُمُ عَمَّنْ هَجَانِى

قولُه « من سواهم » يتعلَّق مِنْ بهِجَاهم[4] ، وموضعه نَصْبٌ على الحال . ويحتمل معانىَ : يجوز أن يريد به مخالطاً لغيرهم ؛ لأنَّ مِن هذه تكون للملابسة ؛ على ذلك قولهم : أنت مِنِّى فرسخين ، أى أنت مُخَالِطى . يقوله الدَّليل والخفير[5] . ويكون للولاء والنُّصْرَة ، على ذلك قول النابغة :

(١) م : « إنما أراد » .
(٢) كذا فى م ، وفى الأصل : « منهم » . (٣) م ، « أمره » .
(٤) م والتبريزى : « من سواهم يتعلق بمن هجاهم » .
(٥) كذا فى م والتيمورية . وفى الأصل : « يقوله الدليل الحقير » .

إذا حَاوَلْتَ فى أسَدٍ فُجُورَا فإنى لَسْتُ مِنْكَ وَلَسْتَ مِنِّى

فيكون معنى « مِن سوَاهم » ناصراً لغيرهم . وتكون للنَّسْل والولادة . يقول هُمْ مِنْ أَبٍ واحِدٍ وبعضهم من بعض ، فيكون المعنى منتسِبًا إلى غير أصْلِهِم . وعلى هذا قوله « وأُعْرِضُ منهم » يتعلق مِن بهجانى ، ويكون الكلام فى موضعه ومعناه على الحدّ الذى بيّنّاه . من تعرض لهم بمكروهٍ أو ذَكَرهم بسوءٍ فإنِّى أدافِعُهُ عنهم ، وأعارضُه دونهم ، وأقاتله عن تناوله منهم ، ومن تَعَرَّض لى منهم فإنِّى أُعرِض عنه ، وأصْفَحُ عن غَيِّه فلا أؤاخِذُه بِه ، صِيَانَةً لهم ، ومحافظة على ما يجمعنى وإياهم .

١٦٠

وقال عَمْرو بن كُلثوم[١] :

١ – مَعَاذَ الإلٰهِ أنْ تَنُوحَ نِسَاؤُنَا على هَالكٍ أو أن نَضِجَّ من القَتْلِ

مَعَاذ الله ، من المصادر التى لا تكون إلا منصوبةً ، وُضِعَتْ موضِعًا واحداً من الإضافة على ما تَرَى ، ولا يتصرف . والعياذ فى معناه ومن أصله ، وهو يتصرَّف مرفوعاً ومنصوباً ومجروراً ، وبالألف واللام . وانتصب معاذ الإله على إضمار فِعْلٍ تُرِكَ إظهاره . ويقولون : عائذاً بالله من شرِّها ، فيجرى مَجْرَى عِياذاً بالله ، كأنه قال : أعوذ بالله عائذاً وعِيَاذاً . ومن أبيات الكِتاب :

(١) ليس فى حاجة إلى ترجمة . وشهرته شاعراً من شعراء المعلقات شهرة ظاهرة . وهو تغلبى من بنى عتاب ، وهو قاتل عمرو بن هند ملك الحيرة . انظر ترجمته بإسهاب فى الأغانى (٩ : ١٧٥ – ١٧٨) والخزانة (١ : ٥١٧ – ٥٢١) وشرح شواهد المغنى للسيوطى ٤٤ – ٤٥ والشعر والشعراء ١٨٥ – ١٨٨ .

أَلْحِقْ عَذابَك بالقَوْمِ الذين طغَوْا وعائذاً بك أن يَعْلُوا فيُطغُونى (١)

ويُقال : عُذْتُ بالله عَوْذاً ومَعَاذاً وعِياذاً . ويقالُ : أَفْلَتَ منه عَوَذاً بفتحتين ، أى عائذاً ، وأَتَيْتُهُ عَوَذاً . وهذا الكلامُ تبرُّؤٌ من إظهار الجزَع على قَتْلاهُم ، واستعمالِ البكاء والضِّجَاج فى بَلْواهم ، وتَصَبُّرٌ على نوائب الدّهر ، وانتفاءٌ من تكرُّهِ القَتْل . يقولُ : نعوذُ بالله من نَوْحِ نسائنا على مُتَوَفًّى منا مفقودٍ ، ومن ضجيجنا من القَتْلِ والقِتال ، وكيف يكون أحدُ هٰذين مِنَّا وقد تعوَّدَتْ نساؤنا الثُّكْل ، ونشأْنا فى ممارسة الحَرْب ومزاولتها . وفى طريقته قولُ الآخر (٢) :

إذا ما أَتَتْنى مِيتَتى لمْ أُبالِها ولم تُذْرِ خالاتى الدُّمُوعَ وعَمَّتى

٣ — قِرَاع السُّيُوفِ بالسُّيُوف أَحَلَّنا بأرْضٍ بَرَاحٍ ذى أَرَاكٍ وذى أَثْلِ

الأصلُ فى البَرَاح الأرضُ التى لا بناء فيها ولا عُمْرَانَ . والمُقَارَعةُ : مُضارَبةُ القومِ فى الحرب . وكلُّ شىءٍ ضربْتَهُ بشىءٍ فقد قَرَعْتَه . وهذا على حَذْفِ المضاف ، كأنه قال قِرَاعُ أصحاب السُّيوفِ بالسُّيوفِ . أخبَرَ عن نفسه وذويه بأنّ صَبْرَهم فى دارِ الحِفاظ هو الذى أنزلَهم بأرْضٍ واسعةٍ ذاتِ أَثْلٍ وأَرَاكٍ ، وصَرَفَهم عن الانتجاع وتَطَلُّب الخِصْبِ فى المَظَانّ (٣) . وهذا صريحُ ما قاله غيرُه (٤) ، وهو :

* أَنَخْنَا فحالَفْنَا السُّيوفَ على الدَّهْرِ (٥)

---

(١) كتاب سيبويه (١ : ١٧١) واللسان (عوذ) . وقد نسب فيهما إلى عبد الله ابن الحارث السهمى . وانفرد اللسان برواية : « أن يغلوا » .

(٢) هو الشنفرى الأزدى . المفضليات (١ : ١١٠) .

(٣) هذا ما فى م . وفى الأصل : « والمظان » .

(٤) هو يحيى بن منصور . الحماسية ١٠٨ .

(٥) صدره : * فلما نأت عنا العشيرة كلها *

والأراك : شجرٌ تُتّخذ منه للَسَاويك . ويقال : إبلٌ أَوارِكُ ، إذا اعتادَتْ أَكْلَها . والاثلُ أيضاً : شجرٌ . وهذا كما قال الآخر[١] :

وتَحُلُّ فى دارِ الحِفَاظِ بُيُوتُنا　　زَمَنًا ويَظْعَنُ غيرُنا بالأَمْرُعِ[٢]

ونبَّهَ بذِكْرِ الأرض البَرَاح على أنَّهم غير محتجِزين[٣] بحُصُونٍ ولا قِلَاعٍ ، ولا ممتنعين بهِضابٍ ولا حِبالٍ . والأَثْل والأَرَاكُ يَنْبُتانِ فى السَّهْلِ أكثر ، فوَكَّدَ بذِكرها المُرَاد ، وجَعَل البَرَاح بدلاً من قوله « بأرْضٍ » ولذلك قال « ذى أَرَاكٍ » ولم يَقُلْ ذاتِ .

٣ — فما أَبقَتِ الأيّامُ مِلْمَالِ عِنْدَنا　　سِوَى جَذمِ أَذْوَادٍ مُحذَّفَةِ النَّسْلِ

أراد بالأيّام الوَقَعات . وقولُه « مِلْمَالِ » أرادَ من المال ، فجعَلَ الحذْفَ بدلاً من الإدغامِ لمّا التَقَى بالنون واللام حَرْفان متقابلان ، الأوّل مُتحرِّكٌ والثانى ساكنٌ سكونًا لازمًا . والمعنَى : ما بَقَّى تأثيرُ الحوادِث ونَكَباتُ الأيّامِ عندنا من أُصولِ المال ومقتنياتِها ، إلاّ بَقَايا أَذْوادٍ قطَع الضُّرُّ نَسْلَها ، وتمكّنَ الهُزَالُ وسوءُ الحال منها ، فهى على شَرَفِ فَناءٍ وذَهابٍ . والجِذْمُ : الأصلُ . والأَذْوَادُ : جمع الذَّوْد ، والذَّوْدُ يقع على ما دون العَشَرَة . وقال أكثر أهل اللُّغة : إنها تَقَعُ على الإناث دون الذُّكورِ . وبعضهم يجوِّز وُقوعَها على الذكور أيضاً . وما فى البيت يَشْهَدُ للأوّل .

٤ — ثلاثَةُ أَثْلاثٍ فأَثمانُ خَيْلِنَا　　وأقواتُنا وما نَسُوقُ إلى الْعَقْلِ[٤]

(١) هو الحادرة الذبيانى . المفضليات (١ : ٨) .
(٢) المفضليات : « ونقيم » . م والمفضليات : « للأمرع » .
(٣) م : « محتجرين » بالراء المهملة .
(٤) فى الأصل : « وأقواتها » . تحريف . ورواية التبريزى : « إلى القتل » .

أراد : أموالُنا ثلاثة أثلاث ، فيرتفع الثلاثة على أنه خَبَرُ مبتدأ محذوف ، وما بعدَها تفسيرٌ لها وتفصيل[١] . ونَبَّهَ بما أَوْرَدَ وقَسَم على الوجوه التى انصرَفَتْ إليها أموالُهم فأَفْنَتْها ، والطُّرُقِ التى توزَّعَتْها فقلَّلتها ، فقال : افترَقَتْ أموالُنا فِرَقاً ثلاثاً[٢] ففِرقةٌ منها صرَفْناها إلى أثمانِ خَيْلِنا لأنّا غزّاؤون ، ومُعَالجُو حُرُوبٍ ، فلا نستغنى عنها ؛ إذ كان جدُّنا وهَزْلُنا منها وبها . وفِرقةٌ منها حَبَسْناها على أقواتِنا ومعايشنا ؛ لأنّ العُفَاةَ والزُّوّار كانت تنتابُنا وتتناوَبُ عليها حتى تستَغْرِقَها ، لأَنّ إقامَتَنا بدارِ الحفاظ [شغَلَتْنا[٣]] عن الغَزْوِ واجتذاب الزّيادة إليها . وفرقةٌ منها وجّهناها إلى الدِّيات ، وأرُوش الجِنايات التى كَسَبَتْها أيدينا ، واجترحَتْها رِماحُنا ، إذ كنا لعِزِّنا ومَنْعَتِنا لا يُطْمَعُ فى الاقتصاص منّا . ومثْل هذا قولُ الآخر[٤] :

* نأسو بأموالنا آثار أيدينا[٥] *

(١) ابن جنى فى التنبيه : « أى أموالنا ثلاثة أثلاث ؛ فحذف المبتدأ وحذفه أيضاً فيما بعد فى قوله : فأثمان خيلنا . أى فثلث أثمان خيلنا ، أو فأثمان خيلنا ثلث وكذا وكذا . وجاز أن يقدره على : ثلث أثمان خيلنا . فيبتدئ بالنكرة ويخبر بالمعرفة ، من حيث كان الغرض إنما هو ثلث أموالنا من ذى ناحية تناولناه . ويجوز أن تعتقد زيادة الفاء فإن ذلك كثير فى الشعر والقرآن . فيبدل أثمان وأقوات وما نقود ، من ثلاثة أثلاث . أى مالنا أثمان خيلنا وأقواتنا وما نقود إلى القتل . وقال ثلاثة أثلاث ولم يقل ثلاثة أقسام من قبل أن الأقسام قد تكون متساوية وغير متساوية ، فأراد صحة القسمة ، واعتدال المساهمة » .

(٢) م : « ثلاثة » ، وكلاهما صحيح . فإن العدد إذا تأخر عن المعدود جاز فيه المطابقة وعدمها . انظر حاشية الصبان على الأشمونى ، فى أوائل (باب العدد) .

(٣) التكملة من م .

(٤) هو بشامة النهشلى . الحماسية ١٤ .

(٥) صدره : * بيض مفارقا تغلى مراجلنا *

١٦١

وقال المثَلَّم بن عَمْرٍو(١) :

١ — إِنِّى أَبَى اللهُ أَنْ أَمُوتَ وَفِى صَدْرِىَ هَمٌّ كأَنَّهُ جَبَـــلُ

يقول : يأبَى اللهُ عزّ وجلّ لِىَ الاخترام وفى نفسى هَمٌّ عَظِيمٌ لا أَسْعَى فى إمضائه وتنفيذه . ويَعْنِى بذلك دَمًا يَطْلُبُهُ ، أو حِقْدًا يَنْقُضُهُ ، أو مُنًى من عَدُوِّه(٢) يُدْرِكُهُ . وهذا الكلامُ وعِيدٌ وإيذانٌ بأنه مجتهدٌ فى الطَّلَب ، ورَاجٍ أَلاَّ يَحُولَ الأَجَلُ بينَهُ وبين الأَمَلِ ، بِمَا عَوَّدَهُ اللهُ من الصُّنْع والظَّفَر بالمَطْلوب . والواو من قوله « وفى صَدْرِى » واوُ الحال . وموضِـع « كأنّه جَبَل » صِفَةٌ للهَمِّ . والهَمُّ يجوزُ أن يَكُون مَصْدَرَ هَمَمْتُ بالشىء ، ويجوز أن يكون واحِدَ الهُمُوم .

٢ — يَمْنَعُنِى لَذَّةَ الشَّرَابِ وإِنْ كانَ قِطَابًا كأَنَّهُ العَسَـــلُ

هذا من صِفَةِ الهمّ . يقول : يَصُدّنى ذلك الهمُّ عن التَلَذذ بالشَّراب ، وإن طاب وصار مِزَاجًا كالعَسَل يُستحلَى ولا يُتَكَرَّه . ومثله لأبى ذُؤَيْبٍ :

* فَجَاءَ بِمَزْجٍ لم يَرَ النَّاسُ مِثْلَهُ(٣) *

---

(١) التبريزى : « المثلم بن عمرو التنوخى » ، ثم قال : « تنوخ هم أولاد تيم الله بن أسد ابن وبرة » . المبهج : « تنوخ اسم للقبيلة ، يجوز أن يكون فعولا من تنخ بالمكان ؛ أى أقام به . ويجوز أن يكون تفعل من الإناخة » . وقد ذكره الآمدى فى المؤتلف ١٨١ والمرزبانى فى معجمه ١٨١ . وأنشد الآمدى هذه الأبيات ، ثم قال : « وهذه الأبيات فى أشعار هذيل للبريق بن عياض الهذلى » . وتقول : إن هذه الحماسية فى بقية أشعار الهذليين ص ٢٥ منسوبة للبريق بن عياض .

(٢) م : « عدو » .

(٣) عجزه فى ديوان الهذليين (١ : ٤٢) واللسان والمقاييس (مزج ، ضحك) :
* هو الضحك إلا أنه عمل النحل *

جَعَلَ ما يُمزَج به مَزْجًا . ورواية الأصمعى « مِزْجًا » بكسر الميم . فالمِزْج كالمزاج والقِطَاب ، سَمَّاه بما يُستصلح له من ذلك أو يُفعلُ به من بَعْدُ . وإنّما قال هذا لأنّ الواحد منهم إذا أُصيب بمن يَمَسُّه أو وُتِرَ فيمن يَقرُب منه ويختصُّه ، كان يَعقِد على نَفْسِه نَذْرًا فى مجانبةِ بعض اللَّذَّات أو أكثرِها ، من معاقَرة الشَّراب أو مجامَعَة النِّساء أو ما يجرى مجراها ، إلى أن ينالَ المراد ، ويحصِّل المُرتاد . ويقال قَطَبْتُ الشرابَ ، أى مَزَجْتُهُ . ويُروى : « وإن كان رُضَابًا » . ويجوز أن يريد به ماءَ فَمِ محبوب . ويجوز أن يريد ماءً مَحَلُّه فى جنسه ذلك المحلُّ من الشَّرابِ .

٣ — حتى أَرَى فارسَ الصَّمُوتِ عَلَى أَكْساءِ خَيْلٍ كأنَّها الإبلُ[(١)]

حَتَّى تعلَّقَ إن شئت بقوله أَبَى الله ، وإن شئت تعلَّقَ بيمنَعُنى ، والتقدير فى الوجهين : يأبَى الله مونِى حتى أرى هـذا الأمرَ ، أو يمنعنى الهمُّ الالتذاذَ بالشَّراب حتى أَراه وأُشاهِدَه . والصَّمُوت : اسمُ فَرَسِه[(٢)] . ويعنى بفارسه نفْسَه . وأكساء الخيـل : أدبارها . ويقال هو يكْسَؤه ويَدْبُرُه ويَذْنُبُه ، أى يكونُ فى أثَرِه . وحكى الخليل أكسأْتُهُ الخيـلَ . والمعنى : لا يكون ذلك حتى أرى نفسى تَرْكُضُ فى أدبار خيْلٍ منهزمةٍ وتَسُوقُها ، كما تُساق الإبِلُ . وقيل شبَّهَها بالإبل فى عِظَمِ خَلْقِها وإشرافها . والكلام على هذا يُرادُ به خيل مخصوصةٌ يتوعّدها ويعيِّن عليها .

(١) التبريزى « ويروى : كأنها أبل ، بضم الهمزة والباء ، وهى جمع أبيل . والأبيل = العصا والخيل تشبه بالعصى فى ضمرها وصلابة لحمها . قال امرؤ القيس :

* كأنها هراوة منوال * » .

(٢) التبريزى : يجوز أن يكون اسم فرس ، أو اسم حى من العرب » .

٤ — لا تحسبَنّى مُحجَّلًا سَبِطَ الـــسّاقَيْنِ أَبْكِى أن يَظْلَعَ الجَمَلُ

هذا توعُّدٌ وتعريض بالمخاطَب. المحَجَّل، يجوز أن يكون مأخُوذًا من الحَجْل الذى هو القَيْد، ومن الحَجْل الذى هو الخَلْخَالُ، ويجوز أن يكون من الحجَلة. والمعنى: لا تظنَّنى إنسانًا مُترَفًا مُنعَّمًا لا غَناءَ عِنْدَه، ولا كفاية لَدَيه، ولا رأىَ يُسْتَنَد إليه، ويعوَّل فى المهمّات عليه، فهو فى العجز كالممنوع المُقيَّد، وكالمرأة المخلخَلة، وكالمخدَّر الملازم للحجال والفُرُشِ بجزع — لضعف نُهُوضِه، وسقوط قُوَاهُ، وسوء بصيرته — من ظَلْع جَمَلِه فَضْلًا من غيره. وقوله «أَبْكِى أن يَظْلَعَ الجَمَل» صَرَفَ الكلامَ إلى الإخبار عن نفسه، ولو قال «يبكى أن يَظْلَعَ» لَتَرَكَ الاستمرار فى صفة المحجَّل جاريًا على حَدِّهِ، غير متحوِّل عنه، وكان الكلام أحسَنَ فى قِرَانِ النَّظْم.

٥ — إنِّى امرُؤٌ من تَنُوخَ ناصِرُه مُحْتَمِلٌ فى الحُروب ما احتَمَلوا[(١)]

قوله «من تَنُوخ» أى أنتَسِب إليها، وأهْوَى هَوَاهَا. و«ناصِرُهُ» نَكِرَة لأن إضافته إضافة تخفيف لا إضافة تعريف، والتّنوين منوىٌّ فيه، أراد: ناصرٌ له. وقوله: «ما احتملوا» أراد: ما احتملوه، فحذَف المفعولَ لطول الصِّلَة. والمعنى: إنّى مخالطُهم وناصرٌ لهم، وصابرٌ على ما يَصْبِرون عليه، وناهضٌ تحت العِبء الذى ينهضون فيه.

(تم القسم الأول من شرح المرزوقى للحماسة)

(١) التبريزى: «قال أبو هلال: ويروى ناصرهم، أى ناصر لهم. قال: وهذا الشعر فى أشعار هذيل للبريق بن عياض الهذلى. وقال: إنى امرؤ من هذيل».